سلسلة نصوص تراثية للباحثين (٥٩٢)

أسلوب الانتقال

في تفسير التحرير والتنوبر

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٤هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

تليجرام https://t.me/dralhoshan

١-"أو أخص منه أو مباين. وجماع القول في ذلك أن من العلماء من جعلهما متساويين، وإلى ذلك ذهب ثعلب وابن الأعرابي وأبو عبيدة، وهو ظاهر كلام الراغب، ومنهم من جعل التفسير للمعنى الظاهر والتأويل للمتشابه، ومنهم من قال: التأويل صرف اللفظ عن ظاهر معناه إلى معنى آخر محتمل لدليل فيكون هنا بالمعنى الأصولي، فإذا فسر قوله تعالى: ﴿يخرج الحي من الميت﴾ [الروم: ١٩] بإخراج الطير من البيضة، فهو التفسير، أو بإخراج المسلم من الكافر فهو التأويل، وهنالك أقوال أخر لا عبرة بها، وهذه كلها اصطلاحات لا مشاحة فيها إلا أن اللغة والآثار تشهد للقول الأول، لأن التأويل مصدر أوله إذا أرجعه إلى الغاية المقصودة، والغاية المقصودة من اللفظ هو معناه وما أراده منه المتكلم به من المعاني، فساوى التفسير، على أنه لا يطلق إلا على ما فيه تفصيل معنى خفي معقول. قال الأعشى:

على أنها كانت تأول حبها ... تأول ربعي السقاب فأصحبا

أي تبين تفسير حبها أنه كان صغيرا في قلبه، فلم يزل يشب حتى صار كبيرا كهذا السقب، أي ولد الناقة، الذي هو من السقاب الربيعية لم يزل يشب حتى كبر وصار له ولد يصحبه قاله أبو عبيدة، وقد قال الله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾ [لأعراف: ٥٣] أي ينتظرون إلا بيانه الذي هو المراد منه، وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه لأبن عباس: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل" ، أي فهم معاني القرآن، وفي حديث عائشة رضي الله عنها كان صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه: "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي" يتأول القرآن أي يعمل بقوله تعالى: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره﴾ [النصر: ٣] فلذلك جمع في دعائه التسبيح والحمد وذكر لفظ الرب وطلب المغفرة فقولها "يتأول"، صريح في أنه فسر الآية بالظاهر منها ولم يحملها على ما تشير إليه من انتهاء مدة الرسالة وقرب **انتقاله** صلى الله عليه وسلم، الذي فهمه منها عمر وأبن عباس رضي الله عنهما.". (١)

٢-"العلوم وكانت الآية لها اعتلاق بذلك فالحقيقة العلمية مرادة بمقدار ما بلغت إليه أفهام البشر وبمقدار ما ستبلغ إليه. وذلك يختلف باختلاف المقامات ويبنى على توفر الفهم، وشرطه أن لا يخرج عما يصلح له اللفظ عربية، ولا يبعد عن الظاهر إلا بدليل، ولا يكون تكلفا بينا ولا خروجا عن المعنى الأصلي حتى لا يكون في ذلك كتفاسير الباطنية.

وأما أبو إسحاق الشاطبي فقال في الفصل الثالث من المسألة الرابعة: لا يصح في مسلك الفهم والإفهام إلا ما يكون عاما لجميع العرب. فلا يتكلف فيه فوق ما يقدرون عليه وقال في المسألة الرابعة من النوع الثاني "ما تقرر من أمية الشريعة وأنها جارية على مذاهب أهلها وهم العرب تنبني عليه قواعد، منها: أن كثيرا من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وعلم الحروف وأشباهها وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح فإن السلف الصالح كانوا أعلم بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أن أحدا منهم تكلم في شيء من هذا سوى ما ثبت فيه من أحكام التكاليف وأحكام الآخرة. نعم تضمن علوما من جنس علوم العرب وما

---

(١) التحرير والتنوير ١/١٥

هو على معهودها مما يتعجب منه أولو الألباب ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة" الخ. وهذا مبني على ما أسسه من كون القرآن لما كان خطابا للأميين وهم العرب فإنما يعتمد في مسلك فهمه وإفهامه على مقدرتهم وطاقتهم، وأن الشريعة أمية. وهو أساس واه لوجوه ستة: الأول أن ما بناه عليه يقتضي أن القرآن لم يقصد منه **انتقال** العرب من حال إلى حال وهذا باطل لما قدمناه، قال تعالى ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ [هود: من الآية٤٩]. الثاني أن مقاصد القرآن راجعة إلى عموم الدعوة وهو معجزة باقية فلا بد أن يكون فيه ما يصلح لأن تتناوله أفهام من يأتي من الناس في عصور انتشار العلوم في الأمة. الثالث أن السلف قالوا: إن القرآن لا تنقضي عجائبه يعنون معانيه ولو كان كما قال الشاطبي لانقضت عجائبه بانحصار أنواع معانيه. الرابع أن من تمام إعجازه أن يتضمن من المعاني مع إيجاز لفظه ما لم تف به الأسفار المتكاثرة. الخامس أن مقدار أفهام المخاطبين به ابتداء لا يقضي إلا أن يكون المعنى الأصلي مفهوما لديهم فأما مازاد على المعاني الأساسية فقد يتهيأ لفهمه أقوام، وتحجب عنه أقوام، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. السادس أن عدم تكلم السلف عليها إن كان فيما ليس راجعا إلى مقاصده فنحن نساعد عليه، وإن كان فيما يرجع إليها فلا نسلم وقوفهم فيها عند". (١)

٣-"القرآن بأمر النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك بتوقيف إلهي. ولعل حكمة الأمر بالكتابة أن يرجع إليها المسلمون عندما يحدث لهم شك أو نسيان ولكن ذلك لم يقع.

ولما جمع القرآن في عهد أبي بكر لم يؤثر عنهم أنهم ترددوا في ترتيب آيات من إحدى السور ولا أثر عنهم إنكار أو اختلاف فيما جمع من القرآن فكان موافقا لما حفظته حوافظهم، قال ابن وهب: سمعت مالكا يقول: إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال ابن الأنباري كانت الآية تنزل جوابا لمستخبر يسأل ويوقف جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم على موضع الآية.

واتساق الحروف واتساق الآيات واتساق السور كله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلهذا كان الأصل في آي القرآن أن يكون بين الآية ولاحقتها تناسب في الغرض. أو في **الانتقال** منه أو نحو ذلك من أساليب الكلام المنتظم المتصل، ومما يدل عليه وجود حروف العطف المفيدة الاتصال مثل الفاء ولكن وبل١ ومثل أدوات الاستثناء، على أن وجود ذلك لا يعين اتصال ما بعده بما قبله في النزول، فإنه قد اتفق على أن قوله تعالى ﴿غير أولي الضرر﴾ نزل بعد نزول ما قبله وما بعده من قوله ﴿لا يستوي القاعدون﴾ إلى قوله ﴿وأنفسهم﴾ [النساء: ٩٥] قال بدر الدين الزركشي بعض مشايخنا المحققين قد وهم من قال لا تطلب للآي الكريمة مناسبة والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها ففي ذلك علم جم.

على أنه يندر أن يكون موقع الآية عقب التي قبلها لأجل نزولها عقب التي قبلها من سورة هي بصدد النزول فيؤمر النبي بأن يقرأها عقب التي قبلها، وهذا كقوله تعالى ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك﴾ [مريم: ٦٤] عقب قوله ﴿تلك الجنة التي نورث

---

(١) التحرير والتنوير ٤٢/١

من عبادنا من كان تقيا﴾ [مريم:٦٣] ، فقد روى أن جبريل لبث أياما لم ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم بوحي، فلما نزل بالآيات السابقة عاتبه النبي، فأمر الله جبريل أن يقول ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك﴾ فكانت وحيا نزل به جبريل، فقرئ مع الآية التي نزل بأثرها، وكذلك آية ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها﴾ [البقرة: ٢٦] عقب قوله تعالى ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات﴾ إلى قوله ﴿وهم فيها خالدون﴾

–

١ دون الواو لأنها تعطف الجمل والقصص، وكذلك ثم لأنها قد تعطف الجمل.". (١)

٤-"وهو الذي نعتمده ونسير عليه في هذه المقدمة العاشرة.

وقد بدا لي دليل قوي على هذا وهو بقاء الآيات التي نسخ حكمها وبقيت متلوة من القرآن ومكتوبة في المصاحف فإنها لما نسخ حكمها لم يبق وجه لبقاء تلاوتها وكتبها في المصاحف إلا ما في مقدار مجموعها من البلاغة بحيث يلتئم منها مقدار ثلاث آيات متحدي بالإتيان بمثلها مثال ذلك آية الوصية في سورة العقود.

وإنما وقع التحدي بسورة أي وإن كانت قصيرة دون أن يتحداهم بعدد من الآيات لأن من أفانين البلاغة ما مرجعه إلى مجموع نظم الكلام وصوغه بسبب الغرض الذي سيق فيه من فواتح الكلام وخواتمه، **وانتقال** الأغراض، والرجوع إلى الغرض، وفنون الفصل، والإيجاز والإطناب، والاستطراد والاعتراض، وقد جعل شرف الدين الطيبي١ هذا هو الوجه لإيقاع التحدي بسورة دون أن يجعل بعدد من الآيات.

وإذ قد كان تفصيل وجوه الإعجاز لا يحصره المتأمل كان علينا أن نضبط معاقدها التي هي ملاكها، فنرى ملاك وجوه الإعجاز راجعا إلى ثلاث جهات:

الجهة الأولى : بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ من حصول كيفيات في نظمه مفيدة معاني دقيقة ونكتا من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لا يفيده أصل وضع اللغة، بحيث يكثر فيه ذلك كثرة لا يدانيها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم.

الجهة الثانية : ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام مما لم يكن معهودا في أساليب العرب، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة.

الجهة الثالثة: ما أودع فيه من المعاني الحكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن وفي عصور بعده متفاوتة، وهذه الجهة أغفلها المتكلمون في إعجاز القرآن من علمائنا مثل أبي بكر الباقلاني والقاضي عياض.

وقد عد كثير من العلماء من وجوه إعجاز القرآن ما يعد جهة رابعة هي ما انطوى

–

---

(١) التحرير والتنوير ١/٧٨

١ اسمه على الأصح الحسين، وقيل: الحسن بن محمد الطيبي-بكسرالطاء وسكون الياء —الشافعي المتوفى سنة ٧٤٣هـ.". (١)

٥-"[الحج: من الآية٤].

والتنبيه على ما فيه من تمثيل كقوله تعالى ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ [العنكبوت:٤٣] وقوله ﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾ [ابراهيم: ٢٥].

ولذا فنحن نحاول تفصيل شيء مما أحاط به علمنا من وجوه الإعجاز:

نرى من أفانين الكلام الالتفات وهو نقل الكلام من أحد طرق التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى طريق آخر منها. وهو بمجرده معدود من الفصاحة، وسماه ابن جني شجاعة العربية لأن ذلك التغيير يجدد نشاط السامع فإذا انضم إليه اعتبار لطيف يناسب **الانتقال** إلى ما انتقل إليه صار من أفانين البلاغة وكان معدودا عند بلغاء العرب من النفائس، وقد جاء منه في القرآن ما لا يحصى كثرة مع دقة المناسبة في **الانتقال**.

وكان للتشبيه والاستعارة عند القوم المكان القصي والقدر العلي في باب البلاغة، وبه فاق امرؤ القيس ونبهت سمعته، وقد جاء في القرآن من التشبيه والاستعارة ما أعجز العرب كقوله ﴿واشتعل الرأس شيبا﴾ وقوله ﴿واخفض لهما جناح الذل﴾ [الاسراء: ٢٤] وقوله ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار﴾ [يس: ٣٧] وقوله تعالى ﴿ابلعي ماءك﴾ [هود: ٤٤] وقوله ﴿صبغة الله﴾ [البقرة: ١٣٨] إلى غير ذلك من وجوه البديع.

ورأيت من محاسن التشبيه عندهم كمال الشبه، ورأيت وسيلة ذلك الاحتراس وأحسنه ما وقع في القرآن كقوله تعالى ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين﴾ [محمد: ١٥] احتراس عن كراهة الطعام ﴿وأنهار من عسل مصفى﴾ [محمد: ١٥] احتراس عن أن تتخلله أقذاء من بقايا نحله.

وانظر التمثيلية في قوله تعالى ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار﴾ [البقرة: ٢٦٦] الآية. ففيه إتمام جهات كمال تحسين التشبيه لإظهار أن الحسرة على تلفها أشد. وكذا قوله تعالى ﴿مثل نوره كمشكاة﴾ [النور: ٣٥] إلى قوله ﴿يكاد زيتها يضيء﴾ [النور: ٣٥] فقد ذكر من الصفات، والأحوال ما فيه مزيد وضوح المقصود من شدة الضياء، وما فيه تحسين المشبه وتزيينه بتحسين شبهه، وأين من الآيتين قول كعب.". (٢)

٦-"ومن أساليبه ما أسميه بالتفنن وهو بداعة تنقلاته من فن إلى فن بطرائق الاعتراض والتنظير والتذييل والإتيان بالمترادفات عند التكرير تجنبا لثقل تكرير الكلم، وكذلك الإكثار من أسلوب الالتفات المعدود من أعظم أساليب التفنن عند بلغاء العربية فهو في القرآن كثير، ثم الرجوع إلى المقصود فيكون السامعون في نشاط متجدد بسماعه وإقبالهم عليه،

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٢/١

(٢) التحرير والتنوير ١٠٧/١

ومن أبدع أمثلة ذلك قوله: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون. أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير﴾ [البقرة:١٧,٢٠] بحيث كان أكثر أساليب القرآن من الأساليب البديعة العزيز مثلها في شعر العرب وفي نثر بلغائهم من الخطباء وأصحاب بدائه الأجوبة. وفي هذا التفنن والتنقل مناسبات بين المنتقل منه والمنتقل إليه هي في منتهى الرقة والبداعة بحيث لا يشعر سامعه وقارئه **بانتقاله** إلا عند حصوله. وذلك التفنن مما يعين على استماع السامعين ويدفع سآمة الإطالة عنهم، فأن من أغراض القرآن استكثار أزمان قراءته كما قال تعالى ﴿علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾ [المزمل: من الآية ٢٠] فقوله ﴿ما تيسر﴾ يقتضي الاستكثار بقدر التيسر، وفي تناسب أقواله وتفنن أغراضه مجلبة لذلك التيسير وعون على التكثير،

نقل عن أبي بكر بن العربي أنه قال في كتابه سراج المريدين ارتباط آي القرآن بعضها مع بعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسعة منتظمة المباني، علم عظيم ونقل الزركشي عن عز الدين بن عبد السلام المناسبة علم حسن ويشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط، والقرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض.

وقال شمس الدين محمود الأصفهاني في تفسيره نقلا عن الفخر الرازي أنه قال إن القرآن كما أنه معجز بسبب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه هو أيضا معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك.

إن بلاغة الكلام لا تنحصر في أحوال تراكيبه اللفظية، بل تتجاوز إلى الكيفيات التي تؤدي بها تلك التراكيب. فإن سكوت المتكلم البليغ في جملة سكوتا خفيفا قد يفيد من". (١)

٧-"معط لكل فن ما يليق به من المعاني والألفاظ واللهجة: فتضمن المحاورة والخطابة والجدل والأمثال أي الكلم الجوامع والقصص والتوصيف والرواية.

وكان لفصاحة ألفاظه وتناسبها في تراكيبه وترتيبه على ابتكار أسلوب الفواصل العجيبة المتماثلة في الأسماع وإن لم تكن متماثلة الحروف في الأسجاع، كان لذلك سريع العلوق بالحوافظ خفيف **الانتقال** والسير في القبائل، مع كون مادته وحمته هي الحقيقة دون المبالغات الكاذبة والمفاخرات المزعومة، فكان بذلك له صولة الحق وروعة لسامعيه، وذلك تأثير روحاني وليس بلفظي ولا معنوي.

وقد رأيت المحسنات في البديع جاءت في القرآن أكثر مما جاءت في شعر العرب، وخاصة الجناس كقوله ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ .

والطباق كقوله ﴿كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير﴾ [الحج:٤]

---

(١) التحرير والتنوير ١/١١٤

وقد ألف ابن أبي الإصبع كتابا في بديع القرآن. وصار لمجيئه نثرا أدبا جديدا غضا ومتناولا لكل الطبقات. وكان لبلاغته وتناسقه نافذ الوصول إلى القلوب حتى وصفوه بالسحر وبالشعر ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾ [الطور:٣٠]

مبتكرات القرآن

هذا وللقرآن مبتكرات تميز بها نظمه عن بقية كلام العرب.

فمنها أنه جاء على أسلوب يخالف الشعر لا محالة وقد نبه عليه العلماء المتقدمون. وأنا أضم إلى ذلك أن أسلوب الخطابة بعض المخالفة، بل جاء بطريقة كتاب يقصد حفظه وتلاوته، وذلك من وجوه إعجازه إذ كان نظمه على طريقة مبتكرة ليس فيها اتباع لطرائقها القديمة في الكلام.

وأعد من ذلك أنه جاء بالجمل الدالة على معان مفيدة محررة شأن الجمل العلمية والقواعد التشريعية، فلم يأت بعموميات شأنها التخصيص غير مخصوصة، ولا بمطلقات تستحق التقييد غير مقيدة، كما كان يفعله العرب لقلة اكتراثهم بالأحوال القليلة والأفراد النادرة. مثاله قوله تعالى ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون﴾ وقوله ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾ [القصص: ٥٠] فبين أن الهوى قد يكون محمودا إذا كان هوى المرء عن هدى، وقوله ﴿إن الأنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا﴾ [العصر: ٣،٢]." (١)

٨-"عمرو بن الحارث الغساني ملك الشام:

وكم جزانا بأيد غير ظالمة ... عرفا بعرف وإنكارا بإنكار

وقال الحارث بن حلزة يمدح الملك عمرو بن هند اللخمي ملك الحيرة:

ملك مقسط وأفضل من يمشي ... ومن دون ما لديه القضاء

وإجراء هذه الأوصاف الجليلة على اسمه تعالى إيماء بأن موصوفها حقيق بالحمد الكامل الذي أعربت عنه جملة ﴿الحمد لله﴾ ، لأن تقييد مفاد الكلام بأوصاف متعلق ذلك المفاد يشعر بمناسبة بين تلك الأوصاف وبين مفاد الكلام مناسبة تفهم من المقام مثل التعليل في مقام هذه الآية.

[٥] ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾

إذا أتم الحامد حمد ربه يأخذ في التوجه إليه بإظهار الإخلاص له **انتقالا** من الإفصاح عن حق الرب إلى إظهار مراعاة ما يقتضيه حقه تعالى على عبده من إفراده بالعبادة والاستعانة فهذا الكلام استئناف ابتدائي.

ومفاتحة العظماء بالتمجيد عند التوجه إليهم قبل أن يخاطبوا طريقة عربية.روى أبو الفرج الأصفهاني عن حسان بن ثابت قال: كنت عند النعمان فنادمته وأكلت معه فبينا أنا على ذلك معه في قبة إذا دخل يرتجز حولها: أصم أم يسمع رب القبه:

يا أوهب الناس لعيسى صلبه ... ضرابة بالمشغر الأذبة

ذات هباب في يديها خلبه ... في لاحب كأنه الأطبة١

---

(١) التحرير والتنوير ١١٧/١

فقال النعمان: أليس بأبي أمامة؟كنية النابغة قالوا: بلى، قال: فأذنوا له فدخل.

والانتقال من أسلوب الحديث بطريق الغائب المبتدإ من قوله: ﴿الحمد لله﴾ إلى

–

١ الهمزة في قوله: أصم للأستفهام المستعمل في تنبيه. والمشغر: آلة الشغار أي الطرد وهو يعني ذنب البعير. والأذبة – يكسر الذال المعجمة– جمع ذبابة. والخلبة– بضم الخاء المعجمة وسكون اللام حلقة من ليف. واللاحب: الطريق وهو متعلق بقوله هباب. والأطبة – جمع طباب – وهو الشراك يجمع بين الأديمين.". (١)

٩–"الناس الحاصل لهم، وذلك كالهداية الحاصلة لنا قبل أن نسألها مثل غالب أنواع الجنس الأول.

وصيغة الطلب موضوعة لطلب حصول الماهية المطلوبة من فعل أو كف فإذا استعملت في طلب الدوام كان استعمالها مجازا نحو ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا﴾ [النساء: ١٣٦] وذلك حيث لا يراد بها إلا طلب الدوام. وأما إذا استعملت في طلب الدوام للزيادة مما حصل بعضه ولم يحصل بعضه فهي مستعملة في معناها وهو طلب الحصول لأن الزيادة في مراتب الهداية مثلا تحصيل لمواد أخرى منها. ولما كان طلب الزيادة يستلزم طلب دوام ما حصل إذ لا تكاد تنفع الزيادة إذا انتقض الأصل كان استعمالها حينئذ في لازم المعنى مع المعنى فهو كناية. أما إذا قال ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ من بلغ جميع مراتب الهداية ورقي إلى قمة غاياتها وهو النبي صلى الله عليه وسلم فإن دعاءه حينئذ يكون من استعمال اللفظ في مجاز معناه ويكون دعاؤه ذلك اقتباسا من الآية وليس عين المراد من الآية لأن المراد منها طلب الحصول بالمزيد مع طلب الدوام بطريقة الالتزام ولا محالة أن المقصود في الآية هو طلب الهداية الكاملة.

والصراط الطريق وهو بالصاد وبالسين وقد قرئ بهما في المشورة وكذلك نطقت به بالسين جمهور العرب إلا أهل الحجاز نطقوه بالصاد مبدلة عن السين لقصد التخفيف في **الانتقال** من السين إلى الراء ثم إلى الطاء قال في لطائف الإشارات عن الجعبري إنهم يفعلون ذلك في كل سين بعدها غين أو خاء أو قاف أو طاء وإنما قلبوها هنا صادا لتطابق الطاء في الإطباق والاستعلاء والتفخم مع الراء استثقالا **للانتقال** من سفل إلى علو اه. أي بخلاف العكس نحو طست لأن الأول عمل والثاني ترك. وقيس قلبوا السين بين الصاد والزاي وهو إشمام وقرأ به حمزة في رواية خلف عنه. ومن العرب من قلب السين زايا خالصة قال القرطبي: وهي لغة عذرة وكلب وبنى القين وهي مرجوحة ولم يقرأ بها، وقد قرأ باللغة الفصحى بالصاد جمهور القراء وقرأ بالسين ابن كثير في رواية قنبل، والقراءة بالصاد هي الراجحة لموافقتها ورسم المصحف وكونها اللغة الفصحى.

فإن قيل كيف كتبت في المصحف بالصاد وقرأها بعض القراء بالسين؟ قلت إن الصحابة كتبوها بالصاد تنبيها على الأفصح فيها لأنهم يكتبون بلغة قريش واعتمدوا على علم العرب. فالذين قرأوا بالسين تأولوا أن الصحابة لم يتركوا لغة السين للعلم

---

(١) التحرير والتنوير ١/١٧٥

بها فعادلوا الأفصح بالأصل ولو كتبوها بالسين مع أنها الأصل لتوهم الناس عدم جواز العدول عنه". (١)

١٠-"الأولون، والمنافقون ظهروا بالمدينة فاعتز بهم الأولون الذين تركهم المسلمون بدار الكفر، وأهل الكتاب كانوا في شغل عن التصدي لمناوأة الإسلام، فلما أصبح الإسلام في المدينة بجوارهم أوجسوا خيفة فالتفوا مع المنافقين وظاهروا المشركين. وقد أشير إلى أن المؤمنين المتقين فريقان: فريق هم المتقون الذين أسلموا ممن كانوا مشركين وكان القرآن هدى لهم بقرينة مقابلة هذا الموصول بالموصول الآخر المعطوف بقوله ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون﴾ [البقرة:٤]

الخ فالمثني عليهم هنا هم الذين كانوا مشركين فسمعوا الدعوة المحمدية فتدبروا في النجاة واتقوا عاقبة الشرك فآمنوا، فالباعث الذي بعثهم على الإسلام هو التقوى دون الطمع أو التجربة، فوائل بن حجر مثلا لما جاء من اليمن راغبا في الإسلام هو من المتقين، ومسيلمة حين وفد مع بني حنيفة مضمر العداء طامعا في الملك هو من غير المتقين. وفريق آخر يجيء ذكره بقوله ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك﴾ [البقرة:٤] الآيات.

وقد أجريت هذه الصفات للثناء على الذين آمنوا بعد الإشراك بأن كان رائدهم إلى الإيمان هو التقوى والنظر في العاقبة، ولذلك وصفهم بقوله ﴿يؤمنون بالغيب﴾ أي بعد أن كانوا يكفرون بالبعث والمعاد كما حكى عنهم القرآن في آيات كثيرة، ولذلك اجتلبت في الإخبار عنهم بهذه الصلات الثلاث صيغة المضارع الدالة على التجدد إيذانا بتجدد إيمانهم بالغيب وتجدد إقامتهم الصلاة والإنفاق إذ لم يكونوا متصفين بذلك إلا بعد أن جاءهم هدى القرآن.

وجوز صاحب الكشاف كونه كلاما مستأنفا مبتدأ وكون ﴿أولئك على هدى﴾ خبره. وعندي أنه تجويز لما لا يليق، إذ الاستئناف يقتضي **الانتقال** من غرض إلى آخر، وهو المسمى بالاقتضاب وإنما يحسن في البلاغة إذا أشيع الغرض الأول وأفيض فيه حتى أوعب أو حتى خيفت سآمة السامع، وذلك موقع أما بعد أو كلمة هذا ونحوهما، وإلا كان تقصيرا من الخطيب والمتكلم لا سيما وأسلوب الكتاب أوسع من أسلوب الخطابة لأن الإطالة في أغراضه أمكن.

والغيب مصدر بمعنى الغيبة ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾ [يوسف: ٥٢] ﴿ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾ [المائدة: ٩٤] وربما قالوا بظهر الغيب قال الحطيئة:

كيف الهجاء وما تنفك صالحة ... من آل لام بظهر الغيب تأتيني

وفي الحديث: "دعوة المؤمن لأخيه بظهر الغيب مستجابة" . والمراد بالغيب ما لا". (٢)

١١-"الصلاة فإن ذلك كان من صفاتهم قبل مجيء الإسلام فذكرت لهم خصلة أخرى زائدة على ما وصف به المسلمون الأولون، فالمغايرة بين الفريقين هنا بالعموم والخصوص، ولما كان قصد تخصيصهم بالذكر يستلزم عطفهم وكان

---

(١) التحرير والتنوير ١/١٨٧

(٢) التحرير والتنوير ١/٢٢٦

العطف بدون تنبيه على أنهم فريق آخر يوهم أن القرآن لا يهدي إلا الذين آمنوا بما أنزل من قبل لأن هذه خاتمة الصفات فهي مرادة فيظن أن الذين آمنوا عن شرك لا حظ لهم من هذا الثناء، وكيف وفيهم من خيرة المؤمنين من الصحابة وهم أشد اتقاء واهتداء إذ لم يكونوا أهل ترقب لبعثة رسول من قبل فاهتداؤهم نشأ عن توفيق رباني، دفع هذا الإيهام بإعادة الموصول ليؤذن بأن هؤلاء فريق آخر غير الفريق الذي أجريت عليهم الصفات الثلاث الأول، وبذلك تبين أن المراد بأهل الصفات الثلاث الأول هم الذين آمنوا بعد شرك لوجود المقابلة. ويكون الموصولان للعهد، وعلم أن الذين يؤمنون بما أنزل من قبل هم أيضا ممن يؤمن بالغيب ويقيم الصلاة وينفق لأن ذلك مما أنزل إلى النبي، وفي التعبير بالمضارع من قوله: ﴿يؤمنون بما أنزل إليك﴾ من إفادة التجدد مثل ما تقدم في نظائره لأن إيمانهم بالقرآن حدث جديدا، وهذا كله تخصيص لهم بمزية يجب اعتبارها وإن كان التفاضل بعد ذلك بقوة الإيمان ورسوخه وشدة الاهتداء، فأبو بكر وعمر أفضل من دحية وعبد الله بن سلام.

والإنزال جعل الشيء نازلا، والنزول **الانتقال** من علو إلى سفل وهو حقيقة في **انتقال** الذوات من علو، ويطلق الإنزال ومادة اشتقاقه بوجه المجاز اللغوي على معان راجعة إلى تشبيه عمل بالنزول لاعتبار شرف ورفعة معنوية كما في قوله تعالى: ﴿قد أنزلنا عليكم لباسا﴾ [لأعراف: ٢٦] وقوله: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ [الزمر: ٦] لأن خلق الله وعطاءه يجعل كوصول الشيء من جهة عليا لشرفه، وأما إطلاقه على بلوغ الوصف من الله إلى الأنبياء فهو إما مجاز عقلي بإسناد النزول إلى الوحي تبعا لنزول الملك مبلغه الذي يتصل بهذا العالم نازلا من العالم العلوي قال تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ [البقرة: ١٩٤,١٩٥] فإن الملك ملابس للكلام المأمور بتبليغه، وإما مجاز لغوي بتشبيه المعاني التي تلقى إلى النبي بشيء وصل من مكان عال، ووجه الشبه هو الارتفاع المعنوي لا سيما إذا كان الوحي كلاما سمعه الرسول كالقرآن وكما أنزل إلى موسى وكما وصف النبي صلى الله عليه وسلم بعض أحوال الوحي في الحديث الصحيح بقوله " وأحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس فيفصم عني وقد وعيت ما قال" وأما رؤيا النوم كرؤيا إبراهيم فلا تسمى إنزالا،". (١)

١٢-"بالذات بل هو جنس تحف أفراده بمن قدرت له: قال في الكشاف: انظر كيف كرر الله عز وجل التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد على طرق شتى وهي ذكر اسم الإشارة وتكريره وتعريف المفلحين، وتوسيط ضمير الفصل بينه وبين ﴿أولئك﴾ ليبصرك مراتبهم ويرغبك في طلب ما طلبوا وينشطك لتقديم ما قدموا.

﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ [البقرة:٦]

﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾

هذا **انتقال** من الثناء على الكتاب ومتقلديه ووصف هديه وأثر ذلك الهدى في الذين اهتدوا به والثناء عليهم الراجع إلى الثناء على الكتاب لما كان الثناء إنما يظهر إذا تحققت آثار الصفة التي استحق بها الثناء، ولما كان الشيء قد يقدر بضده انتقل إلى الكلام على الذين لا يحصل لهم الاهتداء بهذا الكتاب، وسجل أن حرمانهم من الاهتداء بهديه إنما كان من خبث

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٥/١

أنفسهم إذ نبوا بها عن ذلك، فما كانوا من الذين يفكرون في عاقبة أمورهم ويحذرون من سوء العواقب فلم يكونوا من المتقين، وكان سواء عندهم الإنذار وعدمه فلم يتلقوا الإنذار بالتأمل بل كان سواء والعدم عندهم، وقد قرنت الآيات فريقين فريقا أضمر الكفر وأعلنه وهم من المشركين كما هو غالب اصطلاح القرآن في لفظ: ﴿الذين كفروا﴾ وفريقا أظهر الإيمان وهو مخادع وهم المنافقون المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا﴾ [البقرة: من الآية٨]. وإنما قطعت هاته الجملة عن التي قبلها لأن بينهما كمال الانقطاع إذ الجمل السابقة لذكر الهدى والمهتدين، وهذه لذكر الضالين فبينهما الانقطاع لأجل التضاد، ويعلم أن هؤلاء قسم مضاد للقسمين المذكورين قبله من سياق المقابلة. وتصدير الجملة بحرف التأكيد إما لمجرد الاهتمام بالخبر وغرابته دون رد الإنكار أو الشك؛ لأن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللأمة وهو خطاب أنف بحيث لم يسبق شك في وقوعه، ومجيء "إن" للاهتمام كثير في الكلام وهو في القرآن كثير. وقد تكون "إن" هنا لرد الشك تخريجا للكلام على خلاف مقتضى الظاهر؛ لأن حرص النبي صلى الله عليه وسلم على هداية الكافرين تجعله لا يقطع الرجاء في نفع الإنذار لهم وحاله كحال من شك في نفع الإنذار، أو لأن السامعين لما أجري على الكتاب من الثناء ببلوغه الدرجة القصوى في الهداية يطمعهم أن تؤثر هدايته في الكافرين المعرضين وتجعلهم كالذين يشكون في أن يكون الإنذار وعدمه سواء فأخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ونزل غير الشاك منزلة الشاك. وقد نقل عن المبرد أن "إن" لا تأتي لرد الإنكار بل لرد الشك.". (١)

١٣-"استقلال كلتيهما لأن الغرض تعداد مساويهم فإن مضمون: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾ مناد وحده بنفاقهم في هاته الحالة. كما يفصح عنه قوله: ﴿وإذا لقوا﴾ الدال على أن ذلك في وقت مخصوص، وأما الثاني فلأن الأصل اتحاد موقع الجملتين المتماثلتين لفظا. ولما تقدم إيضاحه في وجه العدول عن الإتيان بالحال.

والشياطين جمع شيطان جمع تكسير وحقيقة الشيطان أنه نوع من المخلوقات المجردة، طبيعتها الحرارة النارية وهم من جنس الجن قال تعالى في إبليس ﴿كان من الجن﴾ [الكهف: من الآية٥٠] وقد اشتهر ذكره في كلام الأنبياء والحكماء، ويطلق الشيطان على المفسد ومثير الشر، تقول العرب فلان من الشياطين ومن شياطين العرب وذلك استعارة، وكذلك أطلق هنا على قادة المنافقين في النفاق، قال تعالى: ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين﴾ [الأنعام: ١١٢] الخ.

ووزن شيطان اختلف فيه البصريون والكوفيون من علماء العربية فقال البصريون هو فيعال من شطن بمعنى بعد؛ لأنه أبعد عن رحمة الله وعن الجنة فنونه أصلية وقال الكوفيون هو فعلان من شاط بمعنى هاج أو احترق أو بطل ووجه التسمية ظاهر. ولا أحسب هذا الخلاف إلا أنه بحث عن صيغة اشتقاقه فحسب أي البحث عن حروفه الأصول وهل إن نونه أصل أو زائد وإلا فإنه لا يظن بنحاة الكوفة أن يدعوا أنه يعامل معاملة الوصف الذي فيه زيادة الألف والنون مثل غضبان، كيف وهو متفق على عدم منعه من الصرف في قوله تعالى: ﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ [الحجر:١٧] وقال ابن عطية ويرد على قول الكوفيون أن سيبويه حكى أن العرب تقول تشيطن إذا فعل فعل الشيطان، فهذا يبين أنه من شطن وإلا

(١) التحرير والتنوير ١/٢٤٤

لقالوا تشيط اه. وفي الكشاف: جعل سيبويه نون شيطان في موضع من كتابه أصلية وفي آخر زائدة اه.
والوجه أن تشيطن لما كان وصفا مشتقا من الاسم كقولهم تنمر أثبتوا فيه حروف الاسم على ما هي عليه لأنهم عاملوه معاملة الجامد دون المشتق لأنه ليس مشتقا مما اشتق منه الاسم بل من حروف الاسم فهو اشتقاق حصل بعد تحقيق الاستعمال وقطع النظر عن مادة الاشتقاق الأول فلا يكون قولهم ذلك مرجحا لأحد القولين.
وعندي أنه اسم جامد شابه في حروفه مادة مشتقة ودخل في العربية من لغة سابقة لأن هذا الاسم من الأسماء المتعلقة بالعقائد والأديان، وقد كان لعرب العراق فيها السبق قبل انتقالهم إلى الحجاز واليمن، ويدل لذلك تقارب الألفاظ الدالة على هذا المعنى في". (١)

١٤-"ويجيء قاصرا بمعنى ضاء فهمزته للصيرورة أي صار ذا ضوء فيساوي ضاء كقول امرئ القيس يصف البرق:
يضيء سناه أو مصابيح راهب ... أمال السليط بالذبال المفتل
والآية تحتملهما أي فلما أضاءت النار الجهات التي حوله وهو معنى ارتفاع شعاعها وسطوع لهبها، فيكون ما حوله موصولا مفعولا لأضاءت وهو المتبادر. وتحتمل أن تكون من أضاء القاصر أي أضاءت النار أي اشتعلت وكثر ضوءها في نفسها، ويكون ما حوله على هذا ظرفا للنار أي حصل ضوء النار حولها غير بعيد عنها.
و ﴿حوله﴾ ظرف للمكان القريب ولا يلزم أن يراد به الإحاطة فحوله هنا بمعنى لديه ومن توهم أن ﴿ما حوله﴾ يقتضي ذلك وقع في مشكلات لم يجد منها مخلصا إلا بعناء.
وجمع الضمير في قوله ﴿بنورهم﴾ مع كونه بلصق الضمير المفرد في قوله :﴿ما حوله﴾ مراعاة للحال المشبهة وهي حال المنافقين لا للحال المشبه بها؛ وهي حال المستوقد الواحد على وجه بديع في الرجوع إلى الغرض الأصلي وهو انطماس نور الإيمان منهم، فهو عائد إلى المنافقين لا إلى الذي، قريبا من رد العجز على الصدر فأشبه تجريد الاستعارة المفردة وهو من التفنين كقول طرفة:
وفي الحي أحوى ينفض المرد شادن ... مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد
وهذا رجوع بديع، وقريب منه الرجوع الواقع بطريق الاعتراض في قوله الآتي: ﴿والله محيط بالكافرين﴾ [البقرة: من الآية١٩]
وحسنه أن التمثيل جمع بين ذكر المشبه وذكر المشبه به فالمتكلم بالخيار في مراعاة كليهما لأن الوصف لهما فيكون ذلك البعض نوعا واحدا في المشبه والمشبه به، فما ثبت للمشبه به يلاحظ كالثابت للمشبه. وهذا يقتضي أن تكون جملة ﴿ذهب الله بنورهم﴾ جواب ﴿لما﴾ فيكون جمع ضمائر ﴿بنورهم وتركهم﴾ إخراجا للكلام على خلاف مقتضى الظاهر إذ مقتضى الظاهر أن يقول ذهب الله بنوره وتركه، ولذلك اختير هنا لفظ النور عوضا عن النار المبتدأ به، للتنبيه على الانتقال من التمثيل إلى الحقيقة ليدل على أن الله أذهب نور الإيمان من قلوب المنافقين، فهذا إيجاز بديع كأنه قيل فلما أضاءت ذهب الله بناره فكذلك ذهب الله بنورهم وهو أسلوب لا عهد للعرب بمثله فهو من أساليب الإعجاز. وقريب منه قوله تعالى:

---

(١) التحرير والتنوير ١/٢٨٦

﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون. وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون. قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم". (١)

١٥-"المطوي تحت واو العطف، أو بجعله متعلقا بقوله: ﴿فراشا﴾ فيكون قوله: ﴿والسماء بناء﴾ معطوفا على معمول فعل الجعل المجرد عن التقييد بالمتعلق.

قلت: هذا يفضي إلى التحكم في تعلق قوله: ﴿لكم﴾ تحكما لا يدل عليه دليل للسامع بل الوجه أن يجعل لكم متعلقا بفعل ﴿جعل﴾ ويكفي في الامتنان بخلق السماء إشعار السامعين لهذه الآية بأن في خلق السماء على تلك الصفة ما في إقامة البناء من الفوائد على الإجمال ليفرضه السامعون على مقدار قرائحهم وأفهامهم ثم يأتي تأويله في قابل الأجيال.

وحذف ﴿لكم﴾ عند ذكر السماء إيجازا لأن ذكره في قوله: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشا﴾ دليل عليه.

و ﴿جعل﴾ إن كانت بمعنى أوجد فحمل الامتنان هو إن كانتا على هذه الحالة وإن كانت بمعنى صير فهي دالة على أن الأرض والسماء قد انتقلتا من حال إلى حال حتى صارتا كما هما. وصار أظهر في معنى **الانتقال** من صفة إلى صفة وقواعد علم طبقات الأرض الجيولوجيا تؤذن بهذا الوجه الثاني فيكون في الآية منتان وعبرتان في جعلهما على ما رأينا وفي الأطوار التي انتقلتا فيهما بقدرة الله تعالى وإذنه فيكون كقوله تعالى: ﴿أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما﴾ إلى قوله ﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون﴾ [الانبياء:٣٢]

وقد امتن الله وضرب العبرة بأقرب الأشياء وأظهرها لسائر الناس حاضرهم وباديهم وبأول الأشياء في شروط هذه الحياة. وفيهما أنفع الأشياء وهما الهواء والماء النابع من الأرض وفيهما كانت أول منافع البشر، وفي تخصيص الأرض والسماء بالذكر نكتة أخرى وهي التمهيد لما سيأتي من قوله ﴿وأنزل من السماء ماء﴾ إلخ. وابتدأ بالأرض لأنها أول ما يخطر ببال المعتبر ثم بالسماء لأنه بعد أن ينظر لما بين يديه ينظر إلى ما يحيط به.

وقوله: ﴿وأنزل من السماء ماء فأخرج به﴾ الخ هذا امتنان بما يلحق الإيجاد مما يحفظه من الاختلال وهو خلفه لما تتلفه الحرارة الغريزية والعمل العصبي والدماغي من القوة البدنية ليدوم قوام البدن بالغذاء وأصل الغذاء هو ما يخرج من الأرض وإنما تخرج الأرض النبات بنزول الماء عليها من السماء أي من السحاب والطبقات العليا.

واعلم أن كون الماء نازلا من السماء هو أن تكونه يكون في طبقات الجو من آثار". (٢)

١٦-"وقد أومأ قوله ﴿وأنتم تعلمون﴾ إلى أنهم يعلمون أن الله لا ند له ولكنهم تعاموا وتناسوا فقالوا إلا شريكا هو لك.

[٢٣] ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠٤/١

(٢) التحرير والتنوير ٣٢٧/١

[البقرة:٢٣]

انتقال لإثبات الجزء الثاني من جزئي الإيمان بعد أن تم إثبات الجزء الأول من ذلك بما قدمه من قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ [البقرة: ٢١] الخ فتلك هي المناسبة التي اقتضت عطف هذه الجملة على جملة: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ ولأن النهي عن أن يجعلوا لله أندادا جاء من عند الله فهم بمظنة أن ينكروا أن الله نهى عن عبادة شفعائه ومقربيه لأنهم من ضلالهم كانوا يدعون أن الله أمرهم بذلك قال تعالى: ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ [الزخرف: ٢٠] فقد اعتلوا لعبادة الأصنام بأن الله أقامها وسائط بينه وبينهم، فزادت بهذا مناسبة عطف قوله ﴿وإن كنتم في ريب﴾ عقب قوله: ﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾ [البقرة: ٢٢]. وأتي بإن في تعليق هذا الشرط وهو كونهم في ريب وقد علم في فن المعاني اختصاص إن بمقام عدم الجزم بوقوع الشرط، لأن مدلول هذا الشرط قد حف به من الدلائل ما شأنه أن يقلع الشرط من أصله بحيث يكون وقوعه مفروضا فيكون الإتيان بإن مع تحقق المخاطب علم المتكلم بتحقق الشرط توبيخا على تحقق ذلك الشرط، كأن ريبهم في القرآن مستضعف الوقوع.

ووجه ذلك أن القرآن قد اشتطت ألفاظه ومعانيه على ما لو تدبره العقل السليم لجزم بكونه من عند الله تعالى فإنه جاء على فصاحة وبلاغة ما عهدوا مثلهما من فحول بلغائهم، وهم فيهم متوافرون متكاثرون حتى لقد سجد بعضهم لبلاغته واعترف بعضهم بأنه ليس بكلام بشر. وقد اشتمل من المعاني على ما لم يطرقه شعراؤهم وخطباؤهم وحكماؤهم، بل وعلى ما لم يبلغ إلى بعضه علماء الأمم. ولم يزل العلم في طول الزمان يظهر خبايا القرآن ويبرهن على صدق كونه من عند الله فهذه الصفات كافية لهم في إدراك ذلك وهم أهل العقول الراجحة والفطنة الواضحة التي دلت عليها أشعارهم وأخبارهم وبداهتهم ومناظرتهم، والتي شهد لهم بها الأمم في كل زمان، فكيف يبقي بعد ذلك كله مسلك للريب فيه إليهم فضلا عن أن يكونوا منغمسين فيه.

ووجه الإتيان بفي الدالة على الظرفية الإشارة إلى أنهم قد امتلكهم الريب وأحاط". (١)

١٧-"بهم إحاطة الظرف بالمظروف واستعارة "في" لمعنى الملابسة شائعة في كلام العرب كقولهم هو في نعمة. وأتى بفعل نزل دون أنزل لأن القرآن نزل نجوما. وقد تقدم في أول التفسير أن فعل يدل على التقضي شيئا فشيئا، على أن صاحب الكشاف قد ذكر أن اختياره هنا في مقام التحدي لمراعاة ما كانوا يقولون: ﴿لولا نزل١ عليه القرآن جملة واحدة﴾ [الفرقان: ٣٢] فلما كان ذلك من مثارات شبههم ناسب ذكره في تحديهم أن يأتوا بسورة مثله منجمة.

والسورة قطعة من القرآن معينة عن غيرها من أمثالها بمبدأ ونهاية تشتمل على ثلاث آيات فأكثر في غرض تام أو عدة أغراض. وجعل لفظ سورة اسما جنسيا لأجزاء من القرآن اصطلاح جاء به القرآن. وهي مشتقة من السور، وهو الجدار الذي يحيط بالقرية أو الحظيرة، فاسم السورة خاص بالأجزاء المعينة من القرآن دون غيره من الكتب وقد تقدم تفصيله في المقدمة الثامنة من مقدمات هذا التفسير، وإنما كان التحدي بسورة ولم يكن بمقدار سورة من آيات القرآن لأن من جملة

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣٠/١

وجوه الإعجاز أمورا لا تظهر خصائصها إلا بالنظر إلى كلام مستوفي في غرض من الأغراض وإنما تنزل سور القرآن في أغراض مقصودة فلا غنى عن مراعاة الخصوصيات المناسبة لفواتح الكلام وخواتمه بحسب الغرض، واستيفاء الغرض المسوق له الكلام، وصحة التقسيم، ونكت الإجمال والتفصيل، وأحكام **الانتقال** من فن إلى آخر من فنون الغرض، ومناسبات الاستطراد والاعتراض والخروج والرجوع، وفصل الجمل ووصلها، والإيجاز والإطناب، ونحو ذلك مما يرجع إلى نكت مجموع نظم الكلام، وتلك لا تظهر مطابقتها جلية إلا إذا تم الكلام واستوفى الغرض حقه، فلا جرم كان لنظم القرآن وحسن سبكه إعجاز يفوت قدرة البشر هو غير الإعجاز الذي لجمله وتراكيبه وفصاحة ألفاظه. فكانت السورة من القرآن بمنزلة خطبة الخطيب وقصيدة الشاعر لا يحكم لها بالتفوق إلا باعتبارات مجموعها بعد اعتبار أجزائها. قال الطيبي في حاشية الكشاف عند قوله تعالى: ﴿فلم تقتلوهم﴾ [لأنفال: ١٧]، ولسر النظم القرآني كان التحدي بالسورة وإن كانت قصيرة دون الآيات وإن كانت ذوات عدد.

والتنكير للإفراد أو النوعية. أي بسورة واحدة من نوع السور وذلك صادق بأقل

–

١ في المطبوعة: ﴿أنزل﴾ .". (١)

١٨-"وإن الذي يسعى ليفسد زوجتي ... كساع إلى أسد الشرى يستميلها

وقوله: ﴿وهم فيها خالدون﴾ احتراس من توهم الانقطاع بما تعودوا من انقطاع اللذات في الدنيا لأن جميع اللذات في الدنيا معرضة للزوال وذلك ينغصها عند المنعم عليه كما قال أبو الطيب:

أشد الغم عندي في سرور ... تحقق عنه صاحبه **انتقالا**

وقوله: ﴿مطهرة﴾ هو بزنة الإفراد وكان الظاهر أن يقال مطهرات كما قرئ بذلك ولكن العرب تعدل عن الجمع مع التأنيث كثيرا لثقلهما لأن التأنيث خلاف المألوف والجمع كذلك، فإذا اجتمعا تفادوا عن الجمع بالإفراد وهو كثير شائع في كلامهم لا يحتاج للاستشهاد.

[٢٦، ٢٧] ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين [٢٦] الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون﴾ [البقرة:٢٧]

﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها﴾

قد يبدو في بادئ النظر عدم التناسب بين مساق الآيات السالفة ومساق هاته الآية فبينما كانت الآية السابقة ثناء على هذا الكتاب المبين، ووصف حالي المهتدين بهديه والناكبين عن صراطه وبيان إعجازه والتحدي به مع ما تخلل وأعقب ذلك من المواعظ. والزواجر النافعة والبيانات البالغة والتمثيلات الرائعة، إذا بالكلام قد جاء بخبر بأن الله تعالى لا يعبأ أن يضرب

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣١/١

مثلا بشيء حقير أو غير حقير. فحقيق بالناظر عند التأمل أن تظهر له المناسبة لهذا **الانتقال**: ذلك أن الآيات السابقة اشتملت على تحدي البلغاء بأن يأتوا بسورة مثل القرآن، فلما عجزوا عن معارضة النظم سلكوا في المعارضة طريقة الطعن في المعاني فلبسوا على الناس بأن في القرآن من سخيف المعنى ما ينزه عنه كلام الله ليصلوا بذلك إلى إبطال أن يكون القرآن من عند الله بإلقاء الشك في نفوس المؤمنين وبذر الخصيب في تنفير المشركين والمنافقين.

روى الواحدي في أسباب النزول عن ابن عباس أن الله تعالى لما أنزل قوله ﴿إن". (١)

١٩-"يضرب مثلا ما﴾ [البقرة: ٢٦] وما بعده مما حكى عن الذين كفروا في قولهم: ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾ [البقرة: ٢٦] حتى يكون **الانتقال** إلى الخطاب في قوله: ﴿تكفرون﴾ التفاتا فالمناسبة بين موقع هاته الآية بعد ما قبلها هي مناسبة اتحاد الغرض، بعد استيفاء ما تخلل واعترض.

ومن بديع المناسبة وفائق التفنن في ضروب **الانتقالات** في المخاطبات أن كانت العلل التي قرن بها الأمر بعبادة الله تعالى في قوله: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ [البقرة: ٢١] إلخ هي العلل التي قرن بها إنكار ضد العبادة وهو الكفر به تعالى في قوله هنا ﴿كيف تكفرون بالله﴾ فقال فيما تقدم: ﴿الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ [البقرة: ٢١] ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء﴾ [البقرة: ٢٢] الآية وقال هنا: ﴿وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء﴾ [البقرة: ٢٩] وكان ذلك مبدأ التخلص إلى ما سيرد من بيان ابتداء إنشاء نوع الإنسان وتكوينه وأطواره.

فالخطاب في قوله: ﴿تكفرون﴾ متعين رجوعه إلى "الناس" وهم المشركون لأن اليهود لم يكفروا بالله ولا أنكروا الإحياء الثاني.

و"كيف" اسم لا يعرف اشتقاقه يدل على حالة خاصة وهي التي يقال لها الكيفية نسبة إلى كيف ويتضمن معنى السؤال في أكثر موارد استعماله فلدلالته على الحالة كان في عداد الأسماء لأنه أفاد معنى في نفسه إلا أن المعنى الأسمى الذي دل عليه لما كان معنى مبهما شابه معنى الحرف فلما أشربوه معنى الاستفهام قوى شبهه بالحروف لكنه لا يخرج عن خصائص الأسماء فلذلك لا بد له من محل إعراب، وأكثر استعماله اسم استفهام فيعرب إعراب الحال.ويستفهم بكيف عن الحال العامة. والاستفهام هنا مستعمل في التعجيب والإنكار بقرينة قوله: ﴿وكنتم أمواتا﴾ إلخ أي أن كفركم مع تلك الحالة شأنه أن يكون منتفيا لا تركن إليه النفس الرشيدة لوجود ما يصرف عنه وهو الأحوال المذكورة بعد فكان من شأنه أن ينكر فالإنكار متولد من معنى الاستفهام ولذلك فاستعماله فيهما من إرادة لازم اللفظ، وكأن المنكر يريد أن يقطع معذرة المخاطب فيظهر له أنه يتطلب منه الجواب بما يظهر السبب فيبطل الإنكار والعجب حتى إذا لم يبد ذلك كان حقيقا باللوم والوعيد.

والكفر بضم الكاف مصدر سماعي لكفر الثلاثي القاصر وأصله جحد المنعم عليه نعمة المنعم اشتق من مادة الكفر بفتح

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥٢/١

الكاف وهو الحجب والتغطية لأن جاحد النعمة قد". (١)

٢٠-"خلق لأجلنا إلا أن خلقه لأجلنا لا يستلزم إباحة استعماله في كل ما يقصد منه بل خلق لنا في الجملة، على أن الامتنان يصدق إذا كان لكل من الناس بعض مما في العالم بمعنى أن الآية ذكرت أن المجموع للمجموع لا كل واحد لكل واحد كما أشار إليه البيضاوي لا سيما وقد خاطب الله بها قوما كافرين منكرا عليهم كفرهم فكيف يعلمون إباحة أو منعا، وإنما محل الموعظة هو ما خلقه الله من الأشياء التي لم يزل الناس ينتفعون بها من وجوه متعددة.

وذهب جماعة إلى أن أصل الأشياء الحظر ونقل عن بعض أهل الحديث وبعض المعتزلة فللمعتزلة الأقوال الثلاثة كما قال القرطبي. قال الحموي في شرح كتاب الأشباه لابن نجيم نقلا عن الإمام الرازي وإنما تظهر ثمرة المسألة في حكم الأشياء أيام الفترة قبل النبوة أي فيما ارتكبه الناس من تناول الشهوات ونحوها ولذلك كان الأصح أن الأمر موقوف وأنه لا وصف للأشياء يترتب من أجله عليها الثواب والعقاب.

وعندي أن هذا لا يحتاج العلماء إلى فرضه لأن أهل الفترة لا شرع لهم وليس لأفعالهم أحكام إلا في وجوب التوحيد عند قوم. وأما بعد ورود الشرع فقد أغنى الشرع عن ذلك فإن وجد فعل لم يدل عليه دليل من نص أو قياس أو استدلال صحيح فالصحيح أن أصل المضار التحريم والمنافع الحل وهذا الذي اختاره الإمام في المحصول فتصير للمسألة ثمرة باعتبار هذا النوع من الحوادث في الإسلام.

﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم﴾

انتقال من الاستدلال بخلق الأرض وما فيها وهو مما علمه ضروري للناس، إلى الاستدلال بخلق ما هو أعظم من خلق الأرض وهو أيضا قد يغفل عن النظر في الاستدلال به على وجود الله، وذلك خلق السماوات، ويشبه أن يكون هذا **الانتقال** استطرادا لإكمال تنبيه الناس إلى عظيم القدرة.

وعطفت "ثم" جملة "استوى" على جملة ﴿خلق لكم﴾ . ولدلالة "ثم" على الترتيب والمهلة في عطف المفرد على المفرد كانت في عطف الجملة على الجملة للمهلة في الرتبة وهي مهلة تخييلية في الأصل تشير إلى أن المعطوف بثم أعرق في المعنى الذي تتضمنه الجملة المعطوف عليها حتى كأن العقل يتمهل في الوصول إليه بعد الكلام الأول فينتبه السامع لذلك كي لا يغفل عنه بما سمع من الكلام السابق، وشاع هذا الاستعمال حتى صار كالحقيقة، ويسمى ذلك بالترتيب الرتبي وبترتيب الإخبار بكسر الهمزة كقوله تعالى". (٢)

٢١-"وفي ذلك شكوك. ولعل الله لم يجعلها سماوات ذات نظام كنظام السيارات السبع فلم يعدها في السماوات أو أن الله إنما عد لنا السماوات التي هي مرتبطة بنظام أرضنا.

---

(١) التحرير والتنوير ١/٣٦٨

(٢) التحرير والتنوير ١/٣٧٦

وقوله: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ نتيجة لما ذكره من دلائل القدرة التي لا تصدر إلا من عليم فلذلك قال المتكلمون إن القدرة يجري تعلقها على وفق الإرادة. والإرادة على وفق العلم. وفيه تعريض بالإنكار على كفرهم والتعجيب منه فإن العليم بكل شيء يقبح الكفر به.

وهذه الآية دليل على عموم العلم وقد قال بذلك جميع المليين كما نقله المحقق السلكوتي في الرسالة الخاقانية وأنكر الفلاسفة علمه بالجزيئات وزعموا أن تعلق العلم بالجزيئات لا يليق بالعلم الإلهي وهو توهم لا داعي إليه.

وقرأ الجمهور هاء "وهو" بالضم على الأصل وقرأها قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بالسكون للتخفيف عند دخول حرف العطف عليه، والسكون أكثر من الضم في كلامهم وذلك مع الواو والفاء ولام الابتداء، ووجهه أن الحروف التي هي على حرف واحد إذا دخلت على الكلمة تنزلت منزلة الجزء منها فصارت الكلمة ثقيلة بدخول ذلك الحرف فيها فخففت بالسكون كما فعلوا ذلك في حركة لام الأمر مع الواو والفاء، ومما يدل على أن أفصح لغات العرب إسكان الهاء من هو إذا دخل عليه حرف أنك تجده في الشعر فلا يتزن البيت إلا بقراءة الهاء ساكنة ولا تكاد تجد غير ذلك بحيث لا يمكن دعوى أنه ضرورة.

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾ [البقرة:٣٠]

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾

عطفت الواو قصة خلق أول البشر على قصة خلق السماوات والأرض **انتقالا** بهم في الاستدلال على أن الله واحد وعلى بطلان شركهم وتخلصا من ذكر خلق السماوات والأرض إلى خلق النوع الذي هو سلطان الأرض والمتصرف في أحوالها، ليجمع بين تعدد الأدلة وبين مختلف تكوين العوالم وأصلها ليعلم المسلمون ما علمه أهل الكتاب من العلم الذي كانوا يباهون به العرب وهو ما في سفر التكوين من التوراة.". (١)

٢٢-"واعلم أن موقع الدليل بخلق آدم على الوحدانية هو أن خلق أصل النوع أمر مدرك بالضرورة لأن كل إنسان إذا لفت ذهنه إلى وجوده علم أنه وجود مسبوق بوجود أصل له بما يشاهد من نشأة الأبناء عن الآباء فيوقن أن لهذا النوع أصلا أول ينتهي إليه نشؤه، وإذ قد كانت العبرة بخلق ما في الأرض جميعا أدمجت فيها منة وهي قوله: ﴿لكم﴾ [البقرة:٢٩] المقتضية أن خلق ما في الأرض لأجلهم تهيأت أنفسهم لسماع قصة إيجاد منشأ الناس الذين خلقت الأرض لأجلهم ليحاط بما في ذلك من دلائل القدرة مع عظيم المنة وهي منة الخلق التي نشأت عنها فضائل جمة ومنة التفضيل ومنة خلافة الله في الأرض، فكان خلق أصلنا هو أبدع مظاهر إحيائنا الذي هو الأصل في خلق ما في الأرض لنا، فكانت المناسبة في **الانتقال** إلى التذكير به واضحة مع حسن التخلص إلى ذكره خبره العجيب، فإيراد واو العطف هنا لأجل إظهار استقلال هذه القصة في حد ذاتها في عظم شأنها.

---

(١) التحرير والتنوير ١/٣٨١

و"إذ" من أسماء الزمان المبهمة تدل على زمان نسبة ماضية وقعت فيه نسبة أخرى ماضية قارنتها، فـ"إذ" تحتاج إلى جملتين جملة أصلية وهي الدالة على المظروف وتلك هي التي تكون مع جميع الظروف، وجملة تبين الظرف ما هو، لأن "إذ" لما كانت مبهمة احتاجت لما يبين زمانها عن بقية الأزمنة، فلذلك لزمت إضافتها إلى الجمل أبدا، والأكثر في الكلام أن تكون إذ في محل ظرف لزمن الفعل فتكون في محل نصب على المفعول فيه، وقد تخرج "إذ" عن النصب على الظرفية إلى المفعولية كأسماء الزمان المتصرفة على ما ذهب إليه صاحب الكشاف وهو مختار ابن هشام خلافا لظاهر كلام الجمهور، فهي تصير ظرفا مبهما متصرفا، وقد يضاف إليها اسم زمان نحو يومئذ وساعتئذ فتجر بإضافة صورية ليكون ذكرها وسيلة إلى حذف الجملة المضافة هي إليها، وذلك أن "إذ" ملازمة للإضافة فإذا حذف جملتها علم السامع أن هنالك حذفا، فإذا أرادوا أن يحذفوا جملة مع اسم زمان غير "إذ" خافوا أن لا يهتدي السامع لشيء محذوف حتى يتطلب دليله فجعلوا إذ قرينة على إضافة وحذفوا الجملة لينبهوا السامع فيتطلب دليل المحذوف.

وهي في هذه الآية يجوز أن تكون ظرفا وكذلك أعربها الجمهور وجعلوها متعلقة بقوله: ﴿قالوا﴾ وهو يفضي إلى أن يكون المقصود من القصة قول الملائكة وذلك بعيد لأن المقصود من العبرة هو خطاب الله لهم وهو مبدأ العبرة وما تضمنته من تشريف آدم وتعليمه بعد الامتنان بإيجاد أصل نوع الناس الذي هو مناط العبرة من قوله: ﴿كيف تكفرون﴾ [البقرة: ٢٨] الآيات، ولأنه لا يتأتى في نظيرها وهو قوله الآتي: ﴿وإذ قلنا". (١)

٢٣-"لك الخير أن وارت بك الأرض واحدا

ويحتمل أن أصلها للسببية وأن الأصل أن يقال كذب فلانا بخبره ثم كثر ذلك فصار كذب به وكذب بمعنى واحد والأكثر أن يقال كذب فلانا، وكذب بالخبر الفلاني، فقوله: ﴿بآياتنا﴾ يتنازعه فعلا كفروا وكذبوا. وقوله: ﴿هم فيها خالدون﴾ بيان لمضمون قوله: ﴿أصحاب النار﴾ فإن الصاحب هنا بمعنى الملازم ولذلك فصلت جملة فيها خالدون لتنزلها من الأولى منزلة البيان فبينهما كمال الاتصال.

[٤٠] ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون﴾ [البقرة:٤٠]

انتقال من موعظة المشركين إلى موعظة الكافرين من أهل الكتاب وبذلك تتم موعظة الفرق المتقدم ذكرها، لأن فريق المنافقين لا يعدوا أن يكونوا من المشركين أو من أهل الكتاب اليهود، ووجه الخطاب هنا إلى بني إسرائيل وهم أشهر الأمم المتدنية ذات الكتاب الشهير والشريعة الواسعة، وذلك لأن هذا القرآن جاء يهدي للتي هي أقوم فكانت هاته السورة التي هي فسطاطه مشتملة على الغرض الذي جاء لأجله وقد جاء الوفاء بهذا الغرض على أبدع الأساليب وأكمل وجوه البلاغة فكانت فاتحتها في التنويه بشأن هذا الكتاب وآثار هديه وما يكتسب متبعوه من الفلاح دنيا وأخرى، وبالتحذير من سوء مغبة من يعرض عن هديه ويتنكب طريقه، ووصف في خلال ذلك أحوال الناس تجاه تلقي هذا الكتاب من مؤمن وكافر ومنافق، بعد ذلك أقبل على أصناف أولئك بالدعوة إلى المقصود، وقد انحصر الأصناف الثلاثة من الناس المتلقين لهذا

---

(١) التحرير والتنوير ٣٨٢/١

الكتاب بالنسبة لحالهم تجاه الدعوة الإسلامية في صنفين لأنهم إما مشرك أو متدين أي كتابي، إذ قد اندرج صنف المنافقين في الصنف المتدين لأنهم من اليهود كما قدمناه. فدعا المشركين إلى عبادته تعالى بقوله: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ [البقرة: ٢١] فالناس إن كان المراد به المشركين كما هو اصطلاح القرآن غالبا كما تقدم فظاهر. وإن كان المراد به كل الناس فقوله: ﴿اعبدوا ربكم﴾ يختص بهم لا محالة إذ ليس المؤمنون بداخلين في ذلك، وذكرهم بدلائل الصنعة وهي خلق أصولهم وبأصول نعم الحياة وهي خلق الأرض والسماء وإنزال الماء من السماء لإخراج الثمرات، وعجب من كفرهم مع ظهور دلائل إثبات الخالق من الحياة والموت، وذكرهم بنعمة عظيمة وهي نعمة تكريم أصلهم وتوبته على أبيهم، كل ذلك اقتصار على القدر الثابت في فطرتهم إذ لم يكن لديهم من الأصول الدينية ما يمكن أن يجعل مرجعا". (١)

٢٤-"القرآن لقصص الأمم وأحوالهم فإن في ذلك مع العبرة تعليما اصطلاحيا. ولقد نعد هذا من معجزات القرآن وهو أنه شرح من أحوال بني إسرائيل ما لا يعلمه إلا أحبارهم وخاصتهم مع حرصهم على كتمانه والاستئثار به خشية المزاحمة في الجاه والمنافع فجاء القرآن على لسان أبعد الناس عنهم وعن علمهم صادعا بما لا يعلمه غير خاصتهم فكانت هذه المعجزة للكتابيين قائمة مقام المعجزة البلاغية للأميين. وقد تقدم الإلمام بهذا في المقدمة السابعة. وقد روعيت في هذا **الانتقال** مسايرة ترتيب كتب التوراة إذا عقبت كتاب التكوين بكتاب الخروج أي وصف أحوال بني إسرائيل في مدة فرعون ثم بعثة موسى وقد اقتصر مما في سفر التكوين على ذكر خلق آدم وإسكانه الأرض لأنه موضع العبرة وانتقل من ذلك إلى أحوال بني إسرائيل لأن فيها عبرا جمة لهم وللأمة.

فقوله: ﴿يا بني إسرائيل﴾ خطاب لذرية يعقوب وفي ذريته انحصر سائر الأمة اليهودية، وقد خاطبهم بهذا الوصف دون أن يقول يا أيها اليهود لكونه هو اسم القبيلة أما اليهود فهو اسم النحلة والديانة ولأن من كان متبعا دين اليهودية من غير بني إسرائيل كحمير لم يعتد بهم لأنهم تبع لبني إسرائيل فلو آمن بنو إسرائيل بالنبي صلى الله عليه وسلم لآمن أتباعهم لأن المقلد تبع لمقلده. ولأن هذا الخطاب للتذكير بنعم أنعم الله بها على أسلافهم وكرامات أكرمهم بها فكان لندائهم بعنوان كونهم أبناء يعقوب وأعقابه مزيد مناسبة لذلك ألا ترى أنه لما ذكروا بعنوان التدين بدين موسى ذكروا بوصف الذين هادوا في قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا﴾ [البقرة: ٦٢] الآية كما سيأتي قريبا.

وتوجيه الخطاب إلى جميع بني إسرائيل يشمل علماءهم وعامتهم لأن ما خوطبوا به هو من التذكير بنعمة الله على أسلافهم وبعهد الله لهم. وكذلك نجد خطابهم في الأغراض التي يراد منها التسجيل على جميعهم يكون بنحو: ﴿يا أهل الكتاب﴾ [آل عمران: ٦٤] أو بوصف اليهود الذين هادوا أو بوصف النصارى، فأما إذا كان الغرض التسجيل على علمائهم نجد القرآن يعنونهم بوصف ﴿الذين أوتوا الكتاب﴾ أو ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ [البقرة: ١٢١]. وقد يستغني عن ذلك بكون الخبر المسوق مما يناسب علماءهم خاصة مثل قوله تعالى: ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾ [البقرة: ٧٥] ونحو ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا﴾ [البقرة: ٤١] ونحو ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل

---

(١) التحرير والتنوير ١/٤٣٢

وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾ [البقرة:٤٢]
﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ [البقرة: ٧٩] الآية ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا". (١)

٢٥-"ليس في الكلام نعمة معينة معهودة، ولا يستقيم معنى اللام الجنسية، فتعين أن تكون الإضافة على معنى لام الاستغراق فالعموم حصل من إضافة نعمة إلى المعرفة وقليل من علماء أصول الفقه من يذكرون المفرد المعرف بالإضافة في صيغ العموم، وقد ذكره الإمام الرازي في المحصول في أثناء الاستدلال. وقال ولي الدين الإضافة عند الإمام أدل على العموم من اللام وقال ابن السبكي في شرح مختصر ابن الحاجب: دلالة المفرد المضاف على العموم ما لم يتحقق عهد هو الصحيح نحو قوله تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾ [النور: ٦٣] أي كل أمره وقد تأيد قصد عموم النعمة بأن المقام للامتنان والدعوة إلى الإسلام فيناسبه تكثير النعم. والمراد النعم التي أنعم الله بها على أسلافهم وعلى الحاضرين منهم زمن نزول القرآن فإن النعمة على أسلافهم نعمة عليهم وقد تتابعت النعم عليهم إذ بوأهم قرى في بلاد العرب بعد أن سلبت بلادهم فلسطين وجعلهم في بحبوحة من العيش مع الأمن والثروة ومسالمة العرب لهم.

والأمر بذكر النعمة هنا مراد منه لازمه وهو شكرها ومن أول مراتب الشكر ترك المكابرة في تلقي ما ينسب إلى الله من الرسالة بالنظر في أدلتها ومتابعة ما يأتي به المرسلون. فقوله: ﴿التي أنعمت عليكم﴾ وصف أشير به إلى وجوب شكر النعم لما يؤذن الموصول وصلته من التعليل فهو من تاب قوله تعالى: ﴿وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾ [المائدة: ٦] ويفيد مع ذلك أمرهم بتفكر النعم التي أنعم بها عليهم لينصرفوا بذلك عن حسد غيرهم فإن تذكير الحسود بما عنده من النعم عظة له وصرف له عن الحسد الناشئ عن الاشتغال بنعم الغير وهذا تعريض بهم أنهم حاسدون للعرب فيما أوتوا من الكتاب والحكمة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم **وانتقال** النبوة من بني إسرائيل إلى العرب وإنما ذكروا بذلك لأن للنفس غفلة عما هو قائم بها وإنما تشتغل بأحوال غيرها لأن الحس هو أصل المعلومات فإذا رأى الحاسد نعم الغير نسى أنه أيضا في نعمة فإذا أريد صرفه عن الحسد ذكر بنعمه حتى يخف حسده فإن حسدهم هو الذي حال دون تصديقهم به فيكون وزانه وزان قوله تعالى: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ [النساء: ٥٤] وتقديمه على قوله: ﴿وأوفوا بعهدي﴾ من باب تقديم التخلية بالمعجمة على التحلية بالمهملة ويكون افتتاح خطابهم بهذا التذكير تهيئة لنفوسهم إلى تلقي الخطاب بسلامة طوية وإنصاف.

وقوله تعالى: ﴿وأوفوا بعهدي﴾ هو فعل مهموز من وفى المجرد وأصل معنى وفى". (٢)

(١) التحرير والتنوير ٤٣٤/١

(٢) التحرير والتنوير ٤٣٧/١

٢٦-"ذلك خطاب لهم باللفظ المعروف عندهم في كتبهم فإن التوراة المنزلة على موسى عليه السلام تلقب عندهم بالعهد لأنها وصايات الله تعالى لهم ولذا عبر عنه في مواضع من القرآن بالميثاق وهذا من طرق الإعجاز العلمي الذي لا يعرفه إلا علماؤهم وهم أشح به منهم في كل شيء بحيث لا يعرف ذلك إلا خاصة أهل الدين فمجيئه على لسان النبي العربي الأمي دليل على أنه وحي من العلام بالغيوب. والعهد قد أخذ على أسلافهم بواسطة رسلهم وأنبيائهم قال تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾ [آل عمران: ٨١] الآية وإذ قد كان المخاطبون بالآية قد تلقوا الشريعة من أسلافهم بما فيها من عهد فقد كان العهد لازما لهم وكان الوفاء متعينا عليهم لأنهم الذين جاء فيهم الرسول الموعود به.

وقوله: ﴿وإياي فارهبون﴾ عطفت الواو جملة ﴿وإياي﴾ على الجمل المتقدمة من قوله: ﴿وأوفوا بعهدي﴾ إلى آخرها على طريقة **الانتقال** من معنى إلى المعنى المتولد عنه وهي أصل طريقة المنشئين أن يراعوا الترتيب الخارجي في الخبر والإنشاء لأنه الأصل ما لم يطرأ مقتض لتغيير الترتيب الطبيعي ومنه في القرآن قوله: ﴿ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب وجاءه قومه يهرعون إليه﴾ [هود: ٧٨] إلخ، فإنه لما افتتح خطابهم بالتذكير بالنعمة الباعث على شكر المنعم ومراقبة حقه والمطهر لهم من الحسد فإنه صارف عن الاعتراف بالنعمة كما قدمنا. ثم عطف عليه قوله: ﴿وأوفوا بعهدي﴾ وهو مبدأ المقصود من الأمر بتصديق الرسول الموعود به على ألسنة أنبيائهم. ثم عقب ذلك بقوله: ﴿وإياي فارهبون﴾ فهو تتميم لذلك الأمر السابق بالنهي عما يحول بينهم وبين الإيفاء بالعهد على وجهه وذلك هو صد كبرائهم وأحبارهم إياهم عن **الانتقال** عما هم عليه من التمسك بالتوراة فإنهم هم القوم الذين كانوا يقولون لملك بلادهم فرعون مصر يوم بعثة موسى: ﴿لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا﴾ [طه: ٧٢] فكانوا أحرياء بأن يخاطبوا ساداتهم وأحبارهم بمثل ذلك الخطاب عند البعثة المحمدية.

فتقديم المفعول هنا متعين للاختصاص ليحصل من الجملة إثبات ونفي واختير من طرق القصر طريق التقديم دون ما وإلا ليكون الحاصل بالمنطوق هو الأمر برهبة الله تعالى ويكون النهي عن رهبة غيره حاصلا بالمفهوم فإنهم إذا رهبوا الله تعالى حرصوا على الإيفاء بالعهد ولما كانت رهبتهم أحبارهم تمنعهم من الإيفاء بالعبد أدمج النهي عن رهبة غير الله مع الأمر برهبة الله تعالى في صيغة واحدة.". (١)

٢٧-"ويندفع بهذا سؤالان مستقلان أحدهما ناشئ عما قبله: الأول كيف يصح النهي عن أن يكونوا أول الكافرين ومفهومه يقتضي أنهم لو كفروا به ثانيا لما كان كفرهم منهيا عنه. الثاني أنه قد سبقهم أهل مكة للكفر لأن آية البقرة في خطاب اليهود نزلت في المدينة فقد تحقق أن اليهود لم يكونوا أول الكافرين فالنهي عن أن يكونوا أول الكافرين تحصيل حاصل. ووجه الاندفاع أن المقصود الأهم هو المعنى التعريضي وهو يقوم قرينة على أن القصد من النهي أن لا يكونوا من المبادرين بالكفر أي لا يكونوا متأخرين في الإيمان وهذا أول الوجوه في تفسير الآية عند صاحب الكشاف واختاره البيضاوي

(١) التحرير والتنوير ٤٣٩/١

فاقتصر عليه.

واعلم أن التعريض في خصوص وصف "أول" وأما أصل النهي عن أن يكونوا كافرين به فذلك مدلول اللفظ حقيقة وصريحا. والتعريض من قبيل الكناية التلويحية لما فيه من خفاء **الانتقال** من المعنى إلى لوازمه. وبعض التعريض يحصل من قرائن الأحوال عند النطق بالكلام ولعل هذا لا يوصف بحقيقة ولا مجاز ولا كناية وهو من مستتبعات التراكيب ودلالتها العقلية وسيجيء لهذا زيادة بيان عند قوله تعالى: ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء﴾ [البقرة: ٢٣٥] في هذه السورة.

المعنى الثاني: أن يكون المقصود التعريض بالمشركين وأنهم أشد من اليهود كفرا أي لا تكونوا في عدادهم ولعل هذا هو مراد صاحب الكشاف من قوله ويجوز أن يراد ولا تكونوا مثل أول كافر به يعني من أشرك من أهل مكة ولا يريد أنه تشبيه بليغ وإن كان كلامه يوهمه وسكت عنه شراحه.

المعنى الثالث: أن يراد من أول المبادر والمستعجل لأنه من لوازم الأولية كما قال تعالى: ﴿فأنا أول العابدين﴾ [الزخرف: من الآية٨١] وقال سعيد بن مقروم الضبي:

فدعوا نزال فكنت أول نازل ... وعلام أركبه إذا لم أنزل

فقوله أول نازل لا يريد تحقيق أنه لم ينزل أحد قبله وإنما أراد أنه بادر مع الناس فإن الشأن أنه إذا دعا القوم نزال أن ينزل السامعون كلهم ولكنه أراد أنه ممن لم يتربص. ويكون المعنى ولا تعجلوا بالتصريح بالكفر قبل التأمل، فالمراد من الكفر هنا التصميم عليه لا البقاء على ما كانوا عليه فتكون الكناية بالمفرد وهو كلمة "أول".

المعنى الرابع: أن يكون "أول" كناية عن القدوة في الأمر لأن الرئيس وصاحب اللواء ونحوهما يتقدمون القوم، قال تعالى: ﴿يقدم قومه يوم القيامة﴾ [هود: ٩٨] وقال". (١)

٢٨-"بالقرآن الذي منعهم منه بقية دهمائهم فناسبها الأمر بأن لا يتقوا إلا الله. وللتقوى معنى شرعي تقدم في قوله تعالى: ﴿هدى للمتقين﴾ وهي بذلك المعنى أخص لا محالة من الرهبة ولا أحسب أن ذلك هو المقصود هنا.

والقول في حذف ياء المتكلم من قوله: ﴿فاتقون﴾ نظير القول فيه من قوله: ﴿وإياي فارهبون﴾

﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾ [البقرة:٤٢]

معطوف على جميع ما تقدم من قوله: ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ [البقرة: من الآية٤٠] إلى هنا لأن هاته الجمل كلها لم يقصد أن الواحدة منها معطوفة على التي قبلها خاصة بل على جميع ما تقدمها لا سيما قوله: ﴿ولا تلبسوا﴾ فإنه مبدأ **انتقال** من غرض التحذير من الضلال إلى غرض التحذير من الإضلال بعد أن وسط بينهما قوله: ﴿ولا تشتروا بآياتي﴾ [البقرة: ٤١] كما تقدم.

وإن شئت أن تجعل كلا معطوفا على الذي قبله فهو معطوف على الذي قبله بعد اعتبار كون ما قبله معطوفا على ما قبله كذلك، وهذا شأن الجمل المتعاطفة إلا إذا أريد عطف جملة على جملة معينة لكون الثانية أعلق بالتي والتها دون البقية

---

(١) التحرير والتنوير ٤٤٦/١

وذلك كعطف ﴿وتكتموا الحق﴾ على ﴿لا تلبسوا﴾ فإنها متعينة للعطف على ﴿تلبسوا﴾ لا محالة إن كانت معطوفة وهو الظاهر فإن كلا الأمرين منهي عنه والتغليظ في النهي عن الجمع بينهما واضح بالأولى.
وجوزوا أن يكون وتكتموا الحق منصوبا بأن مضمرة بعد واو المعية ويكون مناط النهي الجمع بين الأمرين وهو بعيد لأن كليهما منهي عنه والتفريق في المنهي يفيد النهي عن الجمع بالأولى بخلاف العكس اللهم إلا أن يقال إنما نهوا عن الأمرين معا على وجه الجمع تعريضا بهم بأنهم لا يرجا منهم أكثر من هذا الترك للبس وهو ترك اللبس المقارن لكتم الحق فإن كونه جريمة في الدين أمر ظاهر. أما ترك اللبس الذي هو بمعنى التحريف في التأويل فلا يرجا منهم تركه إذ لا طماعية في صلاحهم العاجل
و "الحق" الأمر الثابت من حق إذا ثبت ووجب وهو ما تعترف به سائر النفوس بقطع النظر عن شهواتها. والباطل في كلامهم ضد الحق فإنه الأمر الزائل الضائع يقال بطل بطلا وبطولا وبطلانا إذا ذهب ضياعا وخسرا وذهب دمه بطلا أي هدرا. والمراد به هنا ما تتبرأ". (١)

٢٩-"أي التوراة يمرون فيها على الأوامر والنواهي من شأنه أن تذكرهم مخالفة حالهم لما يتلونه.
وقوله: ﴿أفلا تعقلون﴾ استفهام عن انتفاء تعقلهم استفهاما مستعملا في الإنكار والتوبيخ نزلوا منزلة من انتفى تعقله فأنكر عليهم ذلك، ووجه المشابهة بين حالهم وحال من لا يعقلون أن من يستمر به التغفل عن نفسه وإهمال التفكر في صلاحها مع مصاحبة شيئين يذكرانه، قارب أن يكون منفيا عنه التعقل.
وفعل ﴿تعقلون﴾ منزل منزلة اللازم أو هو لازم وفي هذا نداء على كمال غفلتهم واضطراب حالهم. وكون هذا أمرا قبيحا فظيعا من أحوال البشر مما لا يشك فيه عاقل.
[٤٥,٤٦] ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون﴾ [البقرة:٤٦]
خطاب لبني إسرائيل بالإرشاد إلى ما يعينهم على التخلق بجميع ما عدد لهم من الأوامر والنواهي الراجعة إلى التحلي بالمحامد والتخلي عن المذمات، له أحسن وقع من البلاغة فإنهم لما خوطبوا بالترغيب والترهيب والتنزيه والتشويه ظن بهم أنهم لم يبق في نفوسهم مسلك للشيطان ولا مجال للخذلان وأنهم أنشأوا يتحفزون للامتثال والائتساء إلا أن ذلك الإلف القديم، يثقل أرجلهم في الخطو إلى هذا الطريق القويم، فوصف لهم الدواء الذي به الصلاح وريش بقادمتي الصبر والصلاة منهم الجناح.
فالأمر بالاستعانة بالصبر لأن الصبر ملاك الهدى فإن مما يصد الأمم عن اتباع دين قويم إلفهم بأحوالهم القديمة وضعف النفوس عن تحمل مفارقتها فإذا تدرعوا بالصبر سهل عليهم اتباع الحق. وأما الاستعانة بالصلاة فالمراد تأكيد الأمر بها الذي في قوله: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ [البقرة: ٤٣] وهذا إظهار لحسن الظن بهم وهو طريق بديع من طرق الترغيب.
ومن المفسرين من زعم أن الخطاب في قوله: ﴿واستعينوا﴾ إلخ للمسلمين على وجه **الانتقال** من خطاب إلى خطاب آخر،

---

(١) التحرير والتنوير ٤٥٤/١

وهذا وهم لأن وجود حرف العطف ينادي على خلاف ذلك ولأن قوله: ﴿إلا على الخاشعين﴾ مراد به "إلا على المؤمنين" حسبما بينه قوله: ﴿الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم﴾ الآية اللهم إلا أن يكون من الإظهار في مقام الإضمار". (١)

٣٠-"وهو خلاف الظاهر مع عدم وجود الداعي. والذي غرهم بهذا التفسير توهم أنه لا يؤمر بأن يستعين بالصلاة من لم يكن قد آمن بعد وأي عجب في هذا؟ وقريب منه آنفا قوله تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ [البقرة:٤٣]

خطابا لبني إسرائيل لا محالة. والصبر عرفه الغزالي في إحياء علوم الدين بأنه ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة وهو تعريف خاص بالصبر الشرعي صالح لن يكون تفسيرا للآية لأنها في ذكر الصبر الشرعي، وأما الصبر من حيث هو الذي هو وصف كمال فهو عبارة عن احتمال النفس أمرا لا يلائمها إما لأن مآله ملائم، أو لأن عليه جزاء عظيما فأشبه ما مآله ملائم، أو لعدم القدرة على **الانتقال** عنه إلى غيره مع تجنب الجزع والضجر فالصبر احتمال وثبات على ما لا يلائم، وأقل أنواعه ما كان عن عدم المقدرة ولذا ورد في الصحيح: "إنما الصبر عند الصدمة الأولى" أي الصبر الكامل هو الذي يقع قبل العلم بأن التفصي عن ذلك الأمر غير ممكن وإلا فإن الصبر عند اعتقاد عدم إمكان التفصي إذا لم يصدر منه ضجر وجزع هو صبر حقيقة فصيغة الحصر في قوله إنما الصبر حصر ادعائي للكمال كما في قولهم أنت الرجل.
والصلاة أريد بها هنا معناها الشرعي في الإسلام وهي مجموع محامد لله تعالى قولا وعملا واعتقادا فلا جرم كانت الاستعانة المأمور بها هنا راجعة لأمرين الصبر والشكر وقد قيل إن الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر كما في الإحياء وهو قول حسن، ومعظم الفضائل ملاكها الصبر إذ الفضائل تنبعث عن مكارم الخلال، والمكارم راجعة إلى قوة الإرادة وكبح زمام النفس عن الإسامة في شهواتها بإرجاع القوتين الشهوية والغضبية عما لا يفيد كمالا أو عما يورث نقصانا فكان الصبر ملاك الفضائل فما التحلم والتكرم والتعلم والتقوى والشجاعة والعدل والعمل في الأرض ونحوها إلا من ضروب الصبر. ومما يؤثر عن علي رضي الله عنه: الشجاعة صبر ساعة.
وقال زفر بن الحارث الكلابي يعتذر عن انهزام قومه:
سقيناهم كاسا سقونا بمثلها ... ولكنهم كانوا على الموت أصبرا
وحسبك بمزية الصبر أن الله جعله مكمل سبب الفوز في قوله تعالى ﴿والعصر إن الأنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ [العصر:١,٣]
وقال هنا ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ . قال الغزالي: ذكر الله". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٤٦١/١
(٢) التحرير والتنوير ٤٦٢/١

٣١-"بعلا وربما سموه مولوك وهم أمة سامية لغتها وعوائدها تشبه في الغالب لغة وعوائد العرب فلما مر بهم بنو إسرائيل قالوا لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة فانتهرهم موسى وكانوا يخشونه فلما ذهب للمناجاة واستخلف عليهم هارون استضعفوه وظنوا أن موسى هلك فاتخذوا العجل الذي صنعوه من ذهب وفضة من حليهم وعبدوه.

وقوله: ﴿وأنتم ظالمون﴾ حال مقيدة لاتخذتم ليكون الاتخاذ مقترنا بالظلم من مبدئه إلى منتهاه وفائدة الحال الإشعار بانقطاع عذرهم فيما صنعوا وأن لا تأويل لهم في عبادة العجل أو لأنهم كانوا مدة إقامتهم بمصر ملازمين للتوحيد محافظين على وصية إبراهيم ويعقوب لذريتهما بملازمة التوحيد فكان **انتقالهم** إلى الإشراك بعد أن جاءهم رسول **انتقالا** عجيبا.

فلذلك كانوا ظالمين في هذا الصنع ظلما مضاعفا فالظاهر أن ليس المراد بالظلم في هاته الآية الشرك والكفر وإن كان من معاني الظلم في اصطلاح القرآن لظهور أن اتخاذ العجل ظلم فلا يكون للحال معه توقع. وقد اطلعت بعد هذا على تفسير الشيخ محمد بن عرفة التونسي فوجدته قال: ﴿وأنتم ظالمون﴾ أي لا شبهة لكم في اتخاذه.

وقوله ﴿ثم عفونا عنكم من بعد ذلك﴾ هو محل المنة وعطفه بثم لتراخي رتبة هذا العفو في أنه أعظم من جميع تلك النعم التي سبق عدها ففيه زيادة المنة فالمقصود من الكلام هو المعطوف بثم وأما ما سبق من قوله: ﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ إلخ فهو تمهيد له وتوصيف لما حف بهذا العفو من عظم الذنب. وقوله: ﴿من بعد ذلك﴾ حال من ضمير عفونا مقيدة للعفو إعجابا به أي هو عفو حال حصوله بعد ذلك الذنب العظيم وليس ظرفا لغوا متعلقا بعفونا حتى يقال أن ثم دلت على معناه فيكون تأكيدا لمدلول ثم تأخير العفو فيه وإظهار شناعته بتأخير العفو عنه وإنما جاء قوله ذلك مقترنا بكاف خطاب الواحد في خطاب الجماعة لأن ذلك لكونه أكثر أسماء الإشارة استعمالا بالإفراد إذ خطاب المفرد أكثر غلب فاستعمل لخطاب الجمع تنبيها على أن الكاف قد خرجت عن قصد الخطاب إلى معنى لبعد ومثل هذا في كلام العرب كثير لأن التثنية والجمع شيئان خلاف الأصل لا يصار إليهما إلا عند تعيين معناهما فإذا لم يقصد تعيين معناهما فالمصير إليهما اختيار محض.

وقوله: ﴿لعلكم تشكرون﴾ رجاء لحصول شكركم، وعدل عن لام التعليل إيماء إلى أن شكرهم مع ذلك أمر يتطرقه احتمال التخلف فذكر حرف الرجاء دون حرف التعليل من بديع البلاغة فتفسير لعل بمعنى لكي يفيت هذه الخصوصية وقد تقدم كيفية دلالة لعل على". (١)

٣٢-"وللمفسرين حيرة في الإشارة إليها فيؤخذ من كلام الفخر أن قوله تعالى: ﴿اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم﴾ هو كالإجابة لما طلبوه يعني والإجابة إنعام ولو كان معلقا على دخول قرية من القرى ولا يخفى أنه بعيد جدا لأن إعطاءهم ما سألوه لم يثبت وقوعه. ويؤخذ من كلام المفسرين الذي صدر الفخر بنقله ووجهه عبد الحكيم أن سؤالهم تعويض المن والسلوى بالبقل ونحوه معصية لما فيه من كراهة النعمة التي أنعم الله بها عليهم إذ عبروا عن تناولها بالصبر والصبر هو حمل النفس على الأمر المكروه ويدل لذلك أنه أنكر عليهم بقوله ﴿أتستبدلون الذي هو أدنى﴾ فيكون محل النعمة هو الصفح

---

(١) التحرير والتنوير ١/٤٨٤

عن هذا الذنب والتنازع معهم إلى الإجابة بقوله ﴿اهبطوا﴾ ولا يخفى أن هذا بعيد إذ ليس في قوله ﴿اهبطوا﴾ إنعام عليهم ولا في سؤالهم ما يدل على أنهم عصوا لأن طلب **الانتقال** من نعمة لغيرها لغرض معروف لا يعد معصية كما بينه الفخر.
فالذي عندي في تفسير الآية أنها **انتقال** من تعداد النعم المعقبة بنعم أخرى إلى بيان سوء اختيارهم في شهواتهم والاختيار دليل عقل اللبيب، وإن كان يختار مباحا، مع ما في صيغة طلبهم من الجفاء وقلة الأدب مع الرسول ومع المنعم إذ قالوا: ﴿لن نصبر﴾ فعبروا عن تناول المن والسلوى بالصبر المستلزم الكراهية وأتوا بما دل عليه لن في حكاية كلامهم من أنهم لا يتناولون المن والسلوى من الآن فإن لن تدل على استغراق النفي لأزمنة فعل ﴿نصبر﴾ من أولها إلى آخرها وهو معنى التأييد وفي ذلك إلجاء لموسى أن يبادر بالسؤال يظنون أنهم أيأسوه من قبول المن والسلوى بعد ذلك الحين فكان جواب الله لهم في هذه الطلبة أن قطع عنايته بهم وأهملهم ووكلهم إلى نفوسهم ولم يرهم ما عودهم من إنزال الطعام وتفجير العيون بعد فلق البحر وتظليل الغمام بل قال لهم ﴿اهبطوا مصرا﴾ فأمرهم بالسعي لأنفسهم وكفى بذلك تأديبا وتوبيخا.
قال الشيخ ابن عطاء الله رحمه الله: من جهل المريد أن يسيء الأدب فتؤخر العقوبة عنه فيقول لو كان في هذا إساءة لعوقبت فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر ولو لم يكن إلا منع المزيد، وقد يقام مقام البعد من حيث لا يدري، ولو لم يكن إلا أن يخليك وما تريد، والمقصد من هذا أن ينتقل من تعداد النعم إلى بيان تلقيهم لها بالاستخفاف لينتقل من ذلك إلى ذكر انقلاب أحوالهم وأسباب خذلانهم وليس شيء من ذلك بمقتضى كون السؤال معصية فإن العقوبات الدنيوية وحرمان الفضائل ليست من آثار خطاب التكليف ولكنها من أشباه خطاب الوضع ترجع إلى ترتب المسببات على أسبابها وذلك من نواميس". (١)

٣٣-"فإنه لما ذكر السكر تهيأ التشبيه بالخمر ولكن قوله تجعيد لا يناسب العناقيد فإن قلت لم عددته مذموما وما هو إلا كتجريد الاستعارة؟.
قلت لا لأن التجريد يجيء بعد تكرر الاستعارة وعلم بها فيكون تفننا لطيفا بخلاف ما يجيء قبل العلم بالتشبيه.
وقوله ﴿أو أشد قسوة﴾ مرفوع على أنه خبر مبتدأ دل عليه قوله ﴿فهي كالحجارة﴾ وأو بمعنى بل **الانتقالية** لتوفر شرطها وهو كون معطوفها جملة. وهذا المعنى متولد من معنى التخيير الموضوعة له أو لأن **الانتقال** ينشأ عن التخيير فإن القلوب بعد أن شبهت بالحجارة وكان الشأن أن يكون المشبه أضعف في الوصف من المشبه به يبنى على ذلك ابتداء التشبيه بما هو أشهر ثم عقب التشبيه بالترقي إلى التفضيل في وجه الشبه على حد قول ذي الرمة١:
بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى ... وصورتها أو أنت في العين أملح
فليست أو للتخيير في التشبيه أي ليست عاطفة على قوله الحجارة المجرورة بالكاف لأن تلك لها موقع ما إذا كر المشبه به كما قدمناه عند قوله تعالى: ﴿أو كصيب من السماء﴾ [البقرة: من الآية١٩] ويجوز أن تكون للتخيير في الأخبار عطفا على الخبر الذي هو ﴿كالحجارة﴾ أي فهي مثل الحجارة أو هي أقوى من الحجارة والمقصود من التخيير أن المتكلم يشير

---

(١) التحرير والتنوير ٥٠٤/١

إلى أنه لا يرمي بكلامه جزافا ولا يذمهم تحاملا بل هو متثبت متحر في شأنهم فلا يثبت لهم إلا ما تبين له بالاستقراء والتقصي فإنه ساواهم بالحجارة في وصف ثم تقصى فرأى أنهم فيه أقوى فكأنه يقول للمخاطب إن شئت فسوههم بالحجارة في القسوة ولك أن تقول هم أشد منها وذلك يفيد مفاد **الانتقال** الذي تدل عليه بل وهو إنما يحسن في مقام الذم لأن فيه تلطفا وأما في مقام المدح فالأحسن هو التعبير ببل كقول الفرزدق:

فقالت لنا أهلا وسهلا وزودت ... جنى النحل بل ما زودت منه أطيب

ووجه تفضيل تلك القلوب على الحجارة في القساوة أن القساوة التي اتصفت بها القلوب مع كونها نوعا مغايرا لنوع قساوة الحجارة قد اشتركا في جنس القساوة الراجعة إلى معنى عدم قبول التحول كما تقدم فهذه القلوب قساوتها عند التمحيص أشد من قساوة

–

١ نسبه إليه ابن جني وقال البغدادي لم أجده في "ديوان ذي الرمة"." (١)

٣٤-"الحجارة لأن الحجارة قد يعتريها التحول عن صلابتها وشدتها بالتفرق والتشقق وهذه القلوب لم تجد فيها محاولة.

وقوله: ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر﴾ إلخ تعليل لوجه التفضيل إذ من شأنه أن يستغرب، وموقع هذه الواو الأولى في قوله: ﴿وإن من الحجارة﴾ عسير فقيل هي للحال من الحجارة المقدرة بعد أشد أي أشد من الحجارة قسوة، أي تفضيل القلوب على الحجارة في القسوة يظهر في هذه الأحوال التي وصفت بها الحجارة ومعنى التقييد أن التفضيل أظهر في هذه الأحوال، وقيل هي الواو للعطف على قوله ﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ قاله التفتزاني، وكأنه يجعل مضمون هذه المعطوفات غير راجع إلى معنى تشبيه القلوب بالحجارة في القساوة بل يجعلها إخبارا عن مزايا فضلت بها الحجارة على قلوب هؤلاء بما يحصل عن هذه الحجارة من منافع في حين تعطل قلوب هؤلاء من صدور النفع بها، وقيل الواو استئنافية وهو تذييل للجملة السابقة وفيه بعد كما صرح به ابن عرفة، والظاهر أنها الواو الاعتراضية وأن جملة ﴿وإن من الحجارة﴾ وما عطف عليها معترضات بين قوله: ﴿ثم قست قلوبكم﴾ وبين جملة الحال منها وهي قوله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾

والتوكيد بإن للاهتمام بالخبر وهذا الاهتمام يؤذن بالتعليل ووجود حرف العطف قبلها لا يناكد ذلك كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿فإن لكم ما سألتم﴾ [البقرة: ٦١]

ومن بديع التخلص تأخر قوله تعالى: ﴿وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ والتعبير عن التسخر لأمر التكوين بالخشية ليتم ظهور تفضيل الحجارة على قلوبهم في أحوالها التي نهايتها الامتثال للأمر التكويني مع تعاصي قلوبهم عن الامتثال للأمر التكليفي ليتأتى **الانتقال** إلى قوله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ وقوله: ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم﴾ [البقرة: ٧٥]

وقد أشارت الآية إلى أن انفجار الماء من الأرض من الصخور منحصر في هذين الحالين وذلك هو ما تقرر في علم الجغرافيا

---

(١) التحرير والتنوير ١/٥٤٦

الطبيعية أن الماء النازل على الأرض يخرق الأرض بالتدريج لأن طبع الماء النزول إلى الأسفل جريا على قاعدة الجاذبية فإذا اضغط عليه بثقل نفسه من تكاثره أو بضاغط آخر من أهوية الأرض تطلب الخروج حتى إذا بلغ طبقة صخرية أو صلصالية طفا هناك فالحجر الرملي يشرب الماء والصخور والصلصال لا يخرقها الماء إلا إذا كانت الصخور مركبة من مواد كلسية وكان الماء قد حمل في جريته". (١)

٣٥-"أجزاء من معدن الحامض الفحمي فإن له قوة على تحليل الكلس فيحدث ثقبا في الصخور الكلسية حتى يخرقها فيخرج منها نابعا كالعيون. وإذا اجتمعت العيون في موضع نشأت عنها الأنهار كالنيل النابع من جبال القمر، وأما الصخور غير الكلسية فلا يفتتها الماء ولكن قد يعرض لها انشقاق بالزلازل أو بفلق الآلات فيخرج منها الماء إما إلى ظاهر الأرض كما نرى في الآبار وقد يخرج منها الماء إلى طبقة تحتها فيختزن تحتها حتى يخرج بحالة من الأحوال السابقة. وقد يجد الماء في سيره قبل الدخول تحت الصخر أو بعده منفذا إلى أرض ترابية فيخرج طافيا من سطح الصخور التي جرى فوقها. وقد يجد الماء في سيره منخفضات في داخل الأرض فيستقر فيها ثم إذا انضمت إليه كميات أخرى تطلب الخروج بطريق من الطرق المتقدمة ولذلك يكثر أن تنفجر الأنهار عقب الزلازل.

والخشية في الحقيقة الخوف الباعث على تقوى الخائف غيره. وهي حقيقة شرعية في امتثال الأمر التكليفي لأنها الباعث على الامتثال. وجعلت هنا مجازا عن قبول الأمر التكويني إما مرسلا بالإطلاق والتقييد، وإما تمثيلا للهيئة عند التكوين بهيئة المكلف إذ ليست للحجارة خشية إذ لا عقل لها. وقد قيل إن إسناد يهبط للحجر مجاز عقلي والمراد هبوط القلوب أي قلوب الناظرين إلى الصخور والجبال أي خضوعها فأسند الهبوط إليها لأنها سببه كما قالوا ناقة تاجرة أي تبعث من يراها على المساومة فيها١.

وقوله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ تذييل في محل الحال أي فعلتم ما فعلتم وما الله بغافل عن كل صنعكم وقد قرأه الجمهور بالتاء الفوقية تكملة خطاب بني إسرائيل، وقرأ ابن كثير ويعقوب وخلف "يعملون" بالياء التحتية وهو **انتقال** من خطابهم إلى خطاب المسلمين فلذلك غير أسلوبه إلى الغيبة وليس ذلك من الالتفات لاختلاف مرجع الضميرين لأن تفريع قوله: ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم﴾ [البقرة: ٧٥] عليه دل على أن الكلام نقل من خطاب بني إسرائيل إلى خطاب المسلمين. وهو خبر مراد به التهديد والوعيد لهم مباشرة أو تعريضا.

[٧٥] ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم

-

١ قال النابغة يصف نخلا:

---

(١) التحرير والتنوير ٥٤٧/١

بزاخية الموت بليف كأنه ... عفاء قلاص طار عنها تواجر". (١)

٣٦-"تفنن الخطاب هنا فجاء على نسق ما قبل الآية السابقة إذ عبر عنها عن جميع بني إسرائيل بضمير الخطاب على طريق التغليب لأن المخاطبين حين نزول القرآن١ هم المقصودون من هذه الموعظة أو على طريق تنزيل الخلف منزلة السلف، كما تقدم لأن الداعي للإظهار عند **الانتقال** من الاستطراد إلى بقية المقصود في الآية السابقة قد أخذ ما يقتضيه فعاد أسلوب الخطاب إلى ما كان عليه.

والقول في ﴿لا تسفكون﴾ كالقول في ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ [البقرة: ٨٣] والسفك الصب وإضافة الدماء إلى ضمير فاعل ﴿تسفكون﴾ اقتضت أن مفعول ﴿تسفكون﴾ هو دماء السافكين وليس المراد النهي عن أن يسفك الإنسان دم نفسه أو يخرج نفسه من داره لأن مثل هذا مما يزع المرء عنه وازعه الطبيعي فليس من شأن الشريعة الاهتمام بالنهي عنه. وإنما المراد أن لا يسفك أحد دم غيره ولا يخرج غيره من داره على حد قوله تعالى: ﴿فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم﴾ [النور:٦١] أي فليسلم بعضكم على بعض.

فوجه إضافة الدماء إلى ضمير السافكين أن هذه الأحكام المتعلقة بالأمة أو القبيلة يكون مدلول الضمائر فيها مجموع الناس، فإذا تعلقت أحكام بتلك الضمائر من إسناد أو مفعولية أو إضافة أرجع كل إلى ما يناسبه على طريقة التوزيع وهذا كثير في استعمال القرآن ونكتته الإشارة إلى أن المغايرة في حقوق أفراد الأمة مغايرة صورية وأنها راجعة إلى شيء واحد وهو المصلحة الجامعة أو المفسدة الجامعة، ومثله قوله تعالى: ﴿لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ ومن هذا القبيل قول الحماسي الحارث بن وعلة الذهلي:

قومي هم قتلوا أميم أخي ... فإذا رميت بصيبني سهمي

فلئن عفوت لأعفون جللا ... ولئن سطوت لأوهنن عظمي

يريد أن سهمه إذا أصاب قومه فقد أضر بنفسه وإلى هذا الوجه أشار ابن عطية وسماه اللف في القول. أي الإجمال المراد به التوزيع، وذهب صاحب الكشاف إلى أنه من تشبيه الغير بالنفس لشدة اتصال الغير بالنفس في الأصل أو الدين فإذا قتل المتصل به نسبا أو دينا فكأنما قتل نفسه وهو قريب من الأول ومبناه على المجاز في الضمير المضاف إليه في قوله: ﴿دماءكم﴾ و ﴿أنفسكم﴾.

-

١ في المطبوعات "القراءات"." (٢)

(١) التحرير والتنوير ٥٤٨/١

(٢) التحرير والتنوير ٥٦٧/١

٣٧-"الخطاب نظرا إلى معنى "من" وإلى قوله "منكم"، وقرأ نافع وابن كثير ويعقوب "يعملون" بياء الغيبة وقرأه الجمهور بتاء الخطاب.

وقد دلت هذه الآية على أن الله يعاقب الحائدين عن الطريق بعقوبات في الدنيا وعقوبات في الآخرة. وقد وقع اسم الإشارة وهو قوله: ﴿أولئك الذين اشتروا﴾ موقع نظيره في قوله: ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ [البقرة: ٥]

والقول في ﴿اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة﴾ كالقول في ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ [البقرة: ١٦]. والقول في ﴿فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾ قريب من القول في ﴿ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾

وموقع الفاء في قوله: ﴿فلا يخفف عنهم العذاب﴾ هو الترتيب لأن المجرم بمثل هذا الجرم العظيم يناسبه العذاب العظيم ولا يجد نصيرا يدفع عنه أو يخفف.

[٨٧] ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون﴾

انتقال من الإنحاء على بني إسرائيل في فعالهم مع الرسول موسى عليه السلام بما قابلوه به من العصيان والتبرم والتعلل في قبول الشريعة وبما خالفوا من أحكام التوراة بعد موته إلى قرب مجيء الإسلام إلى الإنحاء عليهم بسوء مقابلتهم للرسل الذين أتوا بعد موسى مثل يوشع وإلياس وأرمياء وداوود مؤيدين لشريعته ومفسرين وباعثين للأمة على تجديد العمل بالشريعة مع تعدد هؤلاء الرسل واختلاف مشاربهم في الدعوة لذلك المقصد من لين وشدة، ومن رغبة ورهبة، ثم جاء عيسى مؤيدا وناسخا ومبشرا فكانت مقابلتهم لأولئك كلهم بالإعراض والاستكبار وسوء الصنيع وتلك أمارة على أنهم إنما يعرضون عن الحق لأجل مخالفة الحق أهواءهم وإلا فكيف لم يجدوا في خلال هاته العصور ومن بين تلك المشارب ما يوافق الحق ويتمحض للنصح. وإن قوما هذا دأبهم يرثه الخلف عن السلف لجديرون بزيادة التوبيخ ليكون هذا حجة عليهم في أن تكذيبهم للدعوة المحمدية مكابرة وحسد حتى تنقطع حجتهم إذ لو كانت معاندتهم للإسلام هي أولى فعلاتهم لأوهموا الناس أنهم ما أعرضوا إلا لما تبين لهم من بطلان فكان هذا مرتبطا بقوله". (١)

٣٨-"أفاد عموم الرسول وشمل هذا موسى عليه السلام فإنهم وإن لم يكذبوه بصريح اللفظ لكنهم عاملوه معاملة المكذبين به إذ شكوا غير مرة فيما يخبرهم عن الله تعالى وأساءوا الظن به مرارا في أوامره الاجتهادية وحملوه على قصد التغرير بهم والسعي لإهلاكهم كما قالوا حين بلغوا البحر الأحمر. وحين أمرهم بالحضور لسماع كلام الله تعال، وحين أمرهم بدخول أريحا، وغير ذلك وأما بقية الرسل فكذبوهم بصريح القول مثل عيسى وقتلوا بعض الرسل مثل أشعياء وزكرياء ويحي ابنه. وأرمياء.

وجاء في ﴿تقتلون﴾ بالمضارع عوضا عن الماضي لاستحضار الحالة الفظيعة وهي حالة قتلهم رسلهم كقوله: ﴿والله الذي

---

(١) التحرير والتنوير ١/٥٧٤

أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه﴾ [فاطر: ٩] مع ما في صيغة تقتلون من مراعاة الفواصل فاكتمل بذلك بلاغة المعنى وحسن النظم.

[٨٨] ﴿وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون﴾

إما عطف على قوله: ﴿استكبرتم﴾ أو على ﴿كذبتم﴾ فيكون على الوجه الثاني تفسيرا للاستكبار أي يكون على تقدير عطفه على ﴿كذبتم﴾ من جملة تفصيل الاستكبار بأن أشير إلى أن استكبارهم أنواع تكذيب وتقتيل وإعراض. وعلى الوجهين ففيه التفات من الخطاب إلى الغيبة وإبعاد لهم عن مقام الحضور فهو من الالتفات الذي نكتته أن ما أجرى على المخاطب من صفات النقص والفظاعة قد أوجب إبعاده عن البال وإعراض البال عنه فيشار إلى هذا الإبعاد بخطابه بخطاب البعد فهو كناية١.

وقد حسن الالتفات أنه مؤذن **بانتقال** الكلام إلى سوء مقابلتهم للدعوة المحمدية وهو غرض جديد فإنهم لما تحدث عنهم بما هو من شؤونهم مع أنبيائهم وجه الخطاب إليهم. ولما أريد الحديث عنهم في إعراضهم عن النبي صلى الله عليه وسلم صار الخطاب جاريا مع المؤمنين وأجرى على اليهود ضمير الغيبة. على أنه يحتمل أن قولهم: ﴿قلوبنا غلف﴾ لم يصرحوا به علنا ويدل لذلك أن أسلوب الخطاب جرى على الغيبة من مبدأ هذه الآية إلى قوله تعالى

–

١ قلت نظير هذا الالتفات من الخطاب إلى الغيبة بعد إجراء صفات نقص قول الشاعر يذم من بخل في قضاء مهم:

أبى لك كسب الحمد رأي مقصر ... ونفس أضاق الله بالخير باعها

إذا هي حثته على الخير مرة ... عصاها وإن همت بشر أطاعها". (١)

٣٩-"يرونهم على حق فيما فعلوا من قتل الأنبياء.

والإتيان بالمضارع في قوله: ﴿تقتلون﴾ مع أن القتل قد مضى لقصد استحضار الحالة الفظيعة وقرينة ذلك قوله: ﴿من قبل﴾ فذلك كما جاء الحطيئة بالماضي مرادا به الاستقبال في قوله:

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه ... أن الوليد أحق بالعذر

بقرينة قوله يوم يلقى ربه.

والمراد بأنبياء الله الذين ذكرناهم عند قوله تعالى: ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ [البقرة: ٦١]

[٩٣,٩٢] ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون * وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾

عطف على قوله: ﴿فلم تقتلون أنبياء الله﴾ [البقرة: ٩١] والقصد منه تعليم **الانتقال** في المجادلة معهم إلى ما يزيد إبطال

---

(١) التحرير والتنوير ١/٥٨١

دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم خاصة وذلك أنه بعد أن أكذبهم في ذلك بقوله: ﴿فلم تقتلون أنبياء الله من قبل﴾ كما بينا ترقى إلى ذكر أحوالهم في مقابلتهم دعوة موسى الذي يزعمون أنهم لا يؤمنون إلا بما جاءهم به فإنهم مع ذلك قد قابلوا دعوته بالعصيان قولا وفعلا فإذا كانوا أعرضوا عن الدعوة المحمدية بمعذرة أنهم لا يؤمنون إلا بما أنزل عليهم فلماذا قابلوا دعوة أنبيائهم بعد موسى بالقتل ولماذا قابلوا دعوة موسى بما قابلوا. فهذا وجه ذكر هذه الآيات هنا وإن كان قد تقدم نظائرها فيما مضى فإن ذكرها هنا في محاجة أخرى وغرض جديد، وقد بينت أن القرآن ليس مثل تأليف في علم يحال فيه على ما تقدم بل هو جامع مواعظ وتذكيرات وقوارع ومجادلات نزلت في أوقات كثيرة وأحوال مختلفة فلذلك تتكرر فيه الأغراض لاقتضاء المقام ذكرها حينئذ عند سبب نزول تلك الآيات. وفي الكشاف أن تكرير حديث رفع الطور هنا لما نيط به من الزيادة على ما في الآية السابقة معنى في قوله: ﴿قالوا سمعنا وعصينا﴾ الآية وهي نكتة في الدرجة الثانية.". (١)

٤٠-"جدودهم من الفظائع مع أنبيائهم والخروج عن أوامر التوراة بالإشراك بالله تعالى بعبادة العجل عقب ذلك بإبطال ما في عقائدهم من أنهم أهل الانفراد برحمة الله ما داموا متمسكين بالتوراة وأن من خالقها لا يكون له حظ في الآخرة، وارتكب في إبطال اعتقادهم هذا طريقة الإحالة على ما عقدوا عليه اعتقادهم من الثقة بحسن المصير أو على شكهم في ذلك فإذا ثبت لديهم شكهم في ذلك علموا أن إيمانهم بالتوراة غير ثابت على حقه وذلك أشد ما يفت في أعضادهم ويسقط في أيديهم لأن ترقب الحظ الأخروي أهم ما يتعلق به المعتقد المتدين فإن تلك هي الحياة الدائمة والنعيم المقيم.

وقد قيل إن هذه الآية رد لدعوى أخرى صدرت من اليهود تدل على أنهم يجعلون الجنة خاصة بهم مثل قولهم: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ [المائدة: ١٨] وقولهم: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هودا﴾ [البقرة: ١١١] وإلى هذا مال القرطبي والبيضاوي وعليه فيكون ذكر الرد عليهم بينا لمجرد المناسبة في رد معتقد لهم باطل أيضا لا في خصوص الغرض المسوق فيه الآيات المتقدمة بناء على أن الآيات لا يلزم أن تكون متناسبة تمام المناسبة ونحن لا نساعد على ذلك فعلى هذا الوجه تكون هاته الآية هنا نزلت مع سوابقها للرد على أقوالهم المتفرقة المحكية في آيات أخرى وإنما اتصلت مع الآيات الراجعة إلى رد دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم للمناسبة بجمع رد جميع دعاويهم ولكن فيما ذكرناه غنية. وأياما كان فهذه الآية تحدت اليهود كما تحدى القرآن مشركي العرب بقوله: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ [البقرة: من الآية٢٣] وإنما فصلت هاته الجملة عما قبلها لاختلاف السياق لأن هذه الآية إلقاء حجة عليهم والآيات السابقة تفظيع لأحوالهم وإن كان في كل من ذلك احتجاج لكن **الانتقال** من أسلوب إلى أسلوب كان محسنا للفصل دون العطف لا سيما مع افتتاح الاحتجاج بقل.

والكلام في ﴿لكم﴾ مشعر بأن المراد من الدار الآخرة نعيمها و ﴿لكم﴾ خبر ﴿كانت﴾ قدم للحصر بناء على اعتقادهم كتقديمه في قول الكميت يمدح هشاما بن عبد الملك حين عفا عنه من قصيدة:

لكم مسجدا الله المزوران والحصى

(١) التحرير والتنوير ١/٥٩١

لكم قبضة من بين أثري وأقترا

و ﴿عند الله﴾ ظرف متعلق بكانت والعندية عندية تشريف وادخار أي مدخرة لكم عند الله وفي ذلك إيذان بأن الدار الآخرة مراد بها الجنة. وانتصب ﴿خالصة﴾ على الحال من اسم كان ولا وجه لتوقف بعض النحاة في مجيء الحال من اسم "كان". ومعنى". (١)

٤١-"فلما أريد إنذارهم بأن عداوتهم الملائكة تجر إليهم عداوة الله وأعيد ذكر جبريل للتنويه به وعطف عليه ميكائيل لئلا يتوهموا أن محبتهم ميكائيل تكسب المؤمنين عداوته.

وفي ميكائيل لغات إحداها ميكائيل بهمزة بعد الألف وياء بعد الهمزة وبها قرأ الجمهور. الثانية ميكائل بهمزة بعد الألف وبلا ياء بعد الهمزة وبها قرأ نافع. الثالثة ميكال بدون همز ولا ياء وبها قرأ أبو عمرو وحفص وهي لغة أهل الحجاز.

وقوله: ﴿فإن الله عدو للكافرين﴾ جواب الشرط. والعدو مستعمل في معناه المجازي وهو ما يستلزمه من الانتقام والهلاك وأنه لا يفلته كما قال النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مدركي

البيت

وقوله تعالى: ﴿ووجد الله عنده فوفاه حسابه﴾ [النور: ٣٩] وما ظنك بمن عاداه الله. ولهذا ذكر اسم الجلالة بلفظه الظاهر ولم يقل فإني عدو أو فإنه عدو لما يشعر به الظاهر هنا من القدرة العظيمة على حد قول الخليفة أمير المؤمنين يأمر بكذا حثا على الامتثال. والمراد بالكافرين جميع الكافرين وجيء بالعام ليكون دخولهم فيه كإثبات الحكم بالدليل. وليدل على أن الله عاداهم لكفرهم، وأن تلك العداوة كفر. ولتكون الجملة تذييلا لما قبلها.

[٩٩-١٠١] ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون * أوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون * ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾

عطف على قوله: ﴿قل من كان عدوا لجبريل﴾ [البقرة: ٩٧] عطف القصة على القصة لذكر كفرهم بالقرآن فهو من أحوالهم. وهاته الجملة جواب لقسم محذوف فعطفها على ﴿قل من كان عدوا﴾ من عطف الإنشاء على الإنشاء وفيه زيادة إبطال لقولهم: ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾ [البقرة: ٩١]

وفي **الانتقال** إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم إقبال عليه وتسلية له عما لقي منهم وأن ما أنزل". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٥٩٦/١

(٢) التحرير والتنوير ٦٠٦/١

٤٢-"أكثرهم بقوله: ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ وهذا من أفانين البلاغة وهو أن يظهر المتكلم أنه يوفي حق خصمه في الجدال فلا ينسب له المذمة إلا بتدرج وتدبر قبل الإبطال. ولك أن تجعلها **للانتقال** من شيء إلى ما هو أقوى منه في ذلك الغرض لأن النبذ قد يكون بمعنى عدم العمل دون الكفر والأول أظهر.

وقوله: ﴿ولما جاءهم رسول﴾ إلخ معطوف على قوله: ﴿أو كلما﴾ عطف القصة على القصة لغرابة هاته الشئون. والرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم لقوله: ﴿مصدق لما معهم﴾ والنبذ طرح الشيء من اليد فهو يقتضي سبق الأخذ. وكتاب الله ظاهر في أنه المراد به القرآن لأنه الأتم في نسبته إلى الله. فالنبذ على هذا مراد به تركه بعد سماعه فنزل السماع منزلة الأخذ ونزل الكفر به بعد سماعه منزلة النبذ. وقيل المراد بكتاب الله التوراة وأشار في الكشاف إلى ترجيحه بالتقديم لأن النبذ يقتضي سابقة أخذ المنبوذ وهم لم يتمسكوا بالقرآن، والأصل في إطلاق اللفظ المفرد أنه حقيقة لفظا ومعنى وقيل المعرفة إذا أعيدت معرفة كانت عين الأولى وفيه نظر لأن ذلك في إعادة الاسم المعرف باللام. أو تجعل النبذ تمثيلا لحال قلة اكتراث المعرض بالشيء فليس مرادا به معناه.

وقوله: ﴿وراء ظهورهم﴾ تمثيل للإعراض لأن من أعرض عن شيء تجاوزه فخلفه وراء ظهره وإضافة الوراء إلى الظهر لتأكيد بعد المتروك بحيث لا يلقاه بعد ذلك فجعل للظهر وراء وإن كان هو هنا بمعنى الوراء. فالإضافة كالبيانية وبهذا يجاب عما نقله ابن عرفة عن الفقيه أبي العباس أحمد بن عبلون أنه كان يقول مقتضى هذا أنهم طرحوا كتاب الله أمامهم لأن الذي وراء الظهر هو الوجه وكما أن الظهر خلف للوجه كذلك الوجه وراء للظهر قال ابن عرفة وأجيب بأن المراد أي بذكر الظهر تأكيد لمعنى وراء كقولهم من وراء وراء.

وقوله: ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ تسجيل عليهم بأنهم عالمون بأن القرآن كتاب الله أو كأنهم لا يعلمون التوراة وما فيها من البشارة ببعثة الرسول من ولد إسماعيل.

[١٠٢] ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا". (١)

٤٣-"يعلمون مدفنه ودلوا الناس على ذلك الموضع فأخرجوه فقالت اليهود ما كان سليمان إلا ساحرا وما تم له الملك إلا بهذا.

وقيل كان آصف ابن برخيا١ كاتب سليمان يكتب الحكمة بأمر سليمان ويدفن كتبه تحت كرسي سليمان لتجدها الأجيال فلما مات سليمان أغرت الشياطين الناس على إخراج تلك الكتب وزادوا في خلال سطورها سحرا وكفرا ونسبوا الجميع لسليمان فقالت اليهود كفر سليمان.

والمراد من الآية مع سبب نزولها إن نزلت عن سبب أن سليمان عليه السلام لما مات انقسمت مملكة إسرائيل بعده بقليل

---

(١) التحرير والتنوير ٦٠٨/١

إلى مملكتين إحداهما مملكة يهوذا وملكها رحبعام ابن سليمان جعلوه ملكا بعد أبيه وكانت بنو إسرائيل قد سئمت ملك سليمان لحمله إياهم على ما يخالف هواهم فجاءت أعيانهم وفي مقدمتهم يربعام بن نباط مولى سليمان ليكلموا رحبعام قائلين إن أباك قاس علينا وأما أنت فخفف عنا من عبودية أبيك لنطيعك فأجابهم إذهبوا ثم ارجعوا إلى بعد ثلاثة أيام واستشار رحبعام أصحاب أبيه ووزراءه فأشاروا عليه بملاينة الأمة لتطيعه. واستشار أصحابه من الفتيان فأشاروا عليه أن يقول للأمة ان خنصرى أغلظ من متن أبي فإذا كان أبي قد أدبكم بالسياط فأنا أؤدبكم بالعقارب فلما رجع إليه شيوخ بني إسرائيل في اليوم الثالث وأجابهم بما أشار به الأحداث خلعت بنو إسرائيل طاعته وملكوا عليهم يربعام ولم يبق على طاعة رحبعام إلا سبطا يهوذ وبنيا من واعتصم رحبعام بأورشليم وكل أمته لا تزيد على مائة وثمانين ألف محارب يعني رجالا قادرين على حمل السلاح وانقسمت المملكة من يؤمئذ إلى مملكتين مملكة يهوذا وقاعدتها أورشليم. ومملكة إسرائيل ومقرها السامرة. وذلك سنة ٩٧٥ قبل المسيح كما قدمناه عند الكلام على قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين﴾ [البقرة: من الآية٦٢] الآية ولا يخفي ما تكون عليه حالة أمة في هذا **الانتقال** فإن خصوم رحبعام لما سلبوا منه القوة المادية لم يغفلوا عما يعتضد به من القوة الأدبية وهي كونه ابن سليمان بن داود من

ـ

١ آصف بن برخيا يعده مؤرخو المسلمين وزيرا لسليمان حكيما كبيرا ولذلك ضربوا به الأمثال للسياسيين الناصحين ولكن هذا ليس بمعروف في كتب الإسرائيليين والمعروف عندهم آسف بن برخيا أحد أئمة المغنين عند داود الملك وينسب إليه وضع بعض المزامير والأغاني المقدسة.

فلعله قد عاش إلى زمن سليمان فاتخذه وزيرا لأنه من خواص أبيه وإن لم يكن هذا "لاروس" ولا "البستاني"." (١)

٤٤-"كان التصدي لذلك أمرا لم تتهيأ له عقول السامعين لعسر إدراكهم مراتب المصالح وتفاوتها لأن ذلك مما يحتاج إلى تأصيل قواعد من أصول شرعية وسياسية، عدل بهم عن بيان ذلك وأجملت لهم بالمصلحة بالحوالة على قدرة الله تعالى التي لا يشذ عنها ممكن مراد، وعلى سعة ملكه المشعر بعظيم علمه. وعلى حاجة المخلوقات إليه إذ ليس لهم رب سواه ولا ولي دونه وكفى بذلك دليلا على أنه يحملهم على مصالحهم في سائر الأحوال. ومما يزيد هذا العدول توجيها أن التصدي للبيان بفتح باب الجدال في إثبات المصلحة وتفاوت ذلك بحسب اختلاف القرائح والفهوم.

ولأن أسباب التشريع والنسخ أقسام منه ما ظهر وجهه بالنص فيمكن إفهامهم إياه نحو قوله: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر﴾ [المائدة: ٩١] الآية بعد قوله: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ [النساء: ٤٣] الآية ونحو ﴿وعلم أن فيكم ضعفا﴾ [الأنفال: ٦٦] الآية. ومنها ما يعسر إفهامهم إياه لأنه يحتاج إلى علم وتفصيل من شأن المشرعين وعلماء الأصول كالأشياء التي عرفت بالقياس وأصول التشريع. ومنها ما لم يطلع على حكمته في ذلك الزمان أو فيما يليه ولما كان معظم هاته التفاصيل يعسر أو يعتذر إفهامهم إياه وقع العدول المذكور. ولكون هاته الجملة

---

(١) التحرير والتنوير ٦١٠/١

تتنزل منزلة البيان للأولى فصلت عنها.
والخطاب في ﴿تعلم﴾ ليس مرادا منه ظاهرة الواحد وهو النبي صلى الله عليه وسلم بل هو إما خطاب لغير معين خارج على طريقة المجاز بتشبيه من ليس حاضرا للخطاب وهو الغائب منزلة المخاطب في كونه بحيث يصير مخاطبا لشهرة هذا الأمر والمقصد من ذلك ليعم كل مخاطب صالح له وهو كل من يظن به أو يتوهم منه أنه لا يعلم أن الله على كل شيء قدير ولو بعدم جريانه على موجب علمه، وإلى هذه الطريقة مال القطب والطيبي من شراح الكشاف وعليها يشمل هذا الخطاب ابتداء اليهود والمشركين ومن عسى أن يشتبه عليه الأمر وتروج عليه الشبهة من ضعفاء المسلمين، أما غيرهم فغني عن التقرير في الظاهر وإنما أدخل فيه ليسمع غيره.
وإما مراد به ظاهره وهو الواحد فيكون المخاطب هو النبي صلى الله عليه وسلم لكن المقصود منه المسلمون فينتقل من خطاب النبي إلى مخاطبة أمته **انتقالا** كنائيا لأن علم الأمة من لوازم علم الرسول من حيث إنه رسول لزوما عرفيا فكل حكم تعلق به بعنوان الرسالة فالمراد منه أمته لأن ما يثبت له من المعلومات في باب العقائد والتشريع فهو حاصل لهم فتارة يراد". (١)

٤٥-"من الخطاب توجه مضمون الخطاب إليه ولأمته وتارة يقصد منه توجه المضمون لأمته فقط على قاعدة الكتابة في جواز إرادة المعنى الإصلي مع الكنائي، وهاهنا لا يصلح توجه المضمون للرسول لأنه لا يقرر على الاعتراف بأن الله على كل شيء قدير فضلا عن أن ينكر عنه وإنما التقرير للأمة، والمقصد من تلك الكناية التعريض باليهود. وإنما سلك هذا الطريق دون أن يؤتى بضمير الجماعة المخاطبين لما في سلوك طريق الكناية من البلاغة والمبالغة مع الإيجاز في لفظ الضمير. والاستفهام تقريري على الوجهين وهو شأن الاستفهام الداخل على النفي كما تقدم عند قوله: ﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض﴾ [البقرة: ٣٣] أي أنكم تعلمون أن الله قدير وتعلمون أنه مالك السماوات والأرض بما يجري فيهما من الأحوال، فهو ملكه أيضا فهو يصرف الخلق كيف يشاء. وقد أشار في الكشاف إلى أنه تقريري وصرح به القطب في شرحه ولم يسمع في كلام العرب استفهام دخل على النفي إلا وهو مراد به التقرير.
وقوله: ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السماوات﴾ قال البيضاوي: هو متنزل من الجملة التي قبله منزلة الدليل لأن الذي يكون له ملك السماوات والأرض لا جرم أن يكون قديرا على كل شيء ولذا فصلت هذه الجملة عن التي قبلها. وعندي أن موجب الفصل هو أن هاته الجملة بمنزلة التكرير للأولى لأن مقام التقرير ومقام التوبيخ كلاهما مقام تكرير لما به التقرير والإنكار تعديدا على المخاطب.
[١٠٨] ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالأيمان فقد ضل سواء السبيل﴾
أم حرف عطف مختص بالاستفهام وما في معناه وهو التسوية١ فإذا عطفت أحد مفردين مستفهما عن تعيين أحدهما استفهاما حقيقيا أو مسوى بينهما في احتمال الحصول فهي بمعنى أو العاطفة ويسميها النحاة متصلة، وإذا وقعت عاطفة

---

(١) التحرير والتنوير ١/٦٤٦

جملة دلت على انتقال من الكلام السابق إلى استفهام فتكون بمعنى بل الانتقالية ويسميها النحاة منقطعة

-

١ لأن التحقيق أن همزة التسوية همزة استفهام تدل على استواء أمرين بمعنى استواء الجواب لو سأل سائل عن أحد أمرين.". (١)

٤٦-"والاستفهام ملازم لما بعدها في الحالين. وهي هنا منقطعة لا محالة لأن الاستفهامين اللذين قبلها في معنى الخبر لأنهما للتقرير كما تقدم إلا أن وقوعهما في صورة الاستفهام ولو للتقرير يحسن موقع أم بعدها كما هو الغالب والاستفهام الذي بعدهما هنا إنكار وتحذير، والمناسبة في هذا الانتقال تامة فإن التقرير الذي قبلها مراد منه التحذير من الغلط وأن يكونوا كمن لا يعلم والاستفهام الذي بعدها مراد منه التحذير كذلك والمحذر منه في الجميع مشترك في كونه من أحوال اليهود المذمومة ولا يصح كون أم هنا متصلة لأن الاستفهامين اللذين قبلها ليسا على حقيقتهما لا محالة كما تقدم.

وقد جوز القزويني في الكشف على الكشاف كون أم هنا متصلة بوجه مرجوح وتبعه البيضاوي وتكلفا لذلك مما لا يساعد استعمال الكلام العربي، وأفرط عبد الحكيم في حاشية البيضاوي فزعم أن حملها على المتصلة أرجح لأنه الأصل لا سيما مع اتحاد فاعل الفعلين المتعاطفين بأم ولدلالته على أنهم إذا سألوا سؤال قوم موسى فقد علموا أن الله على كل شيء قدير وإنما قصدوا التعنت وكان الجميع في غفلة عن عدم صلوحية الاستفهامين السابقين للحمل على حقيقة الاستفهام.

وقوله ﴿تريدون﴾ خطاب للمسلمين لا محالة بقرينة قوله: ﴿رسولكم﴾ وليس كونه كذلك بمرجح كون الخطابين اللذين قبله متوجهين إلى المسلمين لأن انتقال الكلام بعد أم المنقطعة يسمح بانتقال الخطاب. وقوله: ﴿تريدون﴾ يؤذن بأن السؤال لم يقع ولكنه ربما جاش في نفوس بعضهم أو ربما أثارته في نفوسهم شبه اليهود في إنكارهم النسخ وإلقائهم شبهة البداء ونحو ذلك مما قد يبعث بعض المسلمين على سؤال النبي صلى الله عليه وسلم.

وقوله: ﴿كما سئل موسى﴾ تشبيه وجهه أن في أسئلة بني إسرائيل موسى كثيرا من الأسئلة التي تفضي بهم إلى الكفر كقولهم: ﴿اجعل لنا إلها كما لهم آلهة﴾ [الأعراف: من الآية١٣٨] أو من العجرفة كقولهم: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ [البقرة: من الآية٥٥] فيكون التحذير من تسلسل الأسئلة المفضي إلى مثل ذلك. ويجوز كونه راجعا إلى أسئلة بني إسرائيل عما لا يعنيهم وعما يجر لهم المشقة كقولهم: ﴿ما لونها﴾ [البقرة: ٦٩] و ﴿ما هي﴾ [البقرة: ٧٠]،

قال الفخر: إن المسلمين كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن أمور لا خير لهم في البحث عنها ليعلموها كما سأل اليهود موسى ا هـ. وقد ذكر غيره أسبابا أخرى للنزول، منها: أن المسلمين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة خيبر لما مروا بذات الأنواط التي كانت للمشركين أن". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٦٤٧/١

(٢) التحرير والتنوير ٦٤٨/١

٤٧-"وإما ليغني عن حرف العطف في **الانتقال** من كلام إلى كلام إيجازا بديعا لأن مفاد حرف العطف التشريك ومفاد كاف التشبيه التشريك إذ التشبيه تشريك في الصفة. ولأجل الاهتمام أو لزيادته أكد قوله: ﴿كذلك﴾ بقوله ﴿مثل قولهم﴾ فهو صفة أيضا لمعمول قالوا المحذوف أي قالوا مقولا مثل قولهم. ولك أن تجعل كذلك تأكيدا لمثل قولهم وتعتبر تقديمه من تأخير والأول أظهر. وجوز صاحب الكشاف وجماعة أن لا يكون قوله: ﴿مثل قولهم﴾ أو قوله ﴿كذلك﴾ تأكيدا للآخر وأن مرجع التشبيه إلى كيفية القول ومنهجه في صدوره عن هوى، ومرجع المماثلة إلى المماثلة في اللفظ فيكون على كلامه تكريرا في التشبيه من جهتين للدلالة على قوة التشابه.

وقوله: ﴿فالله يحكم بينهم﴾ الآية جاء بالفاء لأن التوعد بالحكم بينهم يوم القيامة وإظهار ما أكنته ضمائرهم من الهوى والحسد متفرع عن هذه المقالات ومسبب عنها وهو خبر مراد به التوبيخ والوعيد والضمير المجرور بإضافة بين راجع إلى الفرق الثلاث وما كانوا فيه يختلفون يعم ما ذكر وغيره والجملة تذييل.

[١١٤] ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾

عطف على ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾ [البقرة: ١١٣] باعتبار ما سبق ذلك من الآيات الدالة على أفانين أهل الكتاب في الجراءة وسوء المقالة أي أن قولهم هذا وما تقدمه ظلم ولا كظلم من منع مساجد الله وهذا استطراد واقع معترضا بين ذكر أحوال اليهود والنصارى لذكر مساوئ المشركين في سوء تلقيهم دعوة الإسلام الذي جاء لهديهم ونجاتهم.

والآية نازلة في مشركي العرب كما في رواية عطاء عن ابن عباس وهو الذي يقتضيه قوله: ﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾ الآية كما سيأتي وهي تشير إلى منع أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين من الدخول لمكة كما جاء في حديث سعد بن معاذ حين دخل مكة خفية وقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بالبيت آمنا وقد أويتم الصباء، وتكرر ذلك في عام الحديبية.". (١)

٤٨-"ذرية آدم بنو إسرائيل الذين عهد إليهم على لسان موسى عهد الإيمان وتصديق الرسول الذي يجيء مصدقا لما معهم، لأنهم صاروا بمنزلة الشهداء على ذرية آدم. فتهيأ المقام لتذكير الفريقين بأبيهم الأقرب وهو إبراهيم أي وجه يكون المقصود بالخطاب فيه ابتداء العرب، ويضم الفريق الآخر معهم في قرن، ولذلك كان معظم الثناء على إبراهيم بذكر بناء البيت الحرام وما تبعه إلى أن ذكرت القبلة وسط ذلك، ثم طوى **بالانتقال** إلى ذكر سلف بني إسرائيل بقوله: ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت﴾ [البقرة: ١٣٣] ليفضي إلى قوله: ﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا﴾ [البقرة: ١٣٥] فيرجع إلى تفضيل الحنيفية والإعلام بأنها أصل الإسلام وأن المشركين ليسوا في شيء منها وكذلك اليهود والنصارى. وقد افتتح ذكر هذين الطورين بفضل ذكر فضل الأبوين آدم وإبراهيم، فجاء الخبران على أسلوب واحد على أبدع وجه وأحكم

---

(١) التحرير والتنوير ١/٦٦٠

نظم. فتعين أن تقدير الكلام واذكر إذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات.

ومن الناس من زعم أن قوله: ﴿وإذ ابتلى﴾ عطف على قوله: ﴿نعمتي﴾ أي اذكر وأنعمتي وابتلائي إبراهيم، ويلزمه تخصيص هاته الموعظة ببني إسرائيل، وتخلل ﴿واتقوا يوما﴾ [البقرة: ٤٨] بين المعطوفين وذلك يضيق شمول الآية، وقد أدمج في ذلك قوله ﴿ومن ذريتي﴾ وقوله: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾

وفي هذه الآية مقصد آخر وهو تمهيد **الانتقال** إلى فضائل البلد الحرام والبيت الحرام، لإقامة الحجة على الذين عجبوا من نسخ استقبال بيت المقدس وتذرعوا بذلك إلى الطعن في الإسلام بوقوع النسخ فيه، وإلى تنفير عامة أهل الكتاب من اتباعه لأنه غير قبلتهم ليظهر لهم أن الكعبة هي أجدر بالاستقبال وأن الله استبقاها لهذه الأمة تنبيها على مزية هذا الدين.

والابتلاء افتعال من البلاء، وصيغة الافتعال هنا للمبالغة والبلاء الاختبار وتقدم في قوله: ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ [البقرة: ٤٩] وهو مجاز مشهور فيه لأن الذي يكلف غيره بشيء يكون تكليفه متضمنا انتظار فعله أو تركه فيلزمه الاختبار فهو مجاز على مجاز، والمراد هنا التكليف لأن الله كلفه بأوامره ونواه إما من الفضائل والآداب وإما من الأحكام التكليفية الخاصة به، وليس في إسناد الابتلاء إلى الله تعالى إشكال بعد أن عرفت أنه مجاز في التكليف، ولك أن تجعله استعارة تمثيلية، وكيفما كان فطريق التكليف وحي لا محالة، وهذا يدل على أن إبراهيم أوحى إليه بنبوءة لتتهيأ نفسه لتلقي الشريعة فلما امتثل". (١)

٤٩-"كان حينئذ صغيرا.

والعدول عن ذكر القول إلى نطق المتكلم بما قاله المحكي عنه هو ضرب من استحضار الحالة قد مهد له الإخبار بالفعل المضارع في قوله ﴿وإذ يرفع﴾ حتى كأن المتكلم هو صاحب القول وهذا ضرب من الإيغال.

وجملة ﴿إنك أنت السميع العليم﴾ تعليل لطلب التقبل منهما، وتعريف جزءي هذه الجملة والإتيان بضمير الفصل يفيد قصرين للمبالغة في كمال الوصفين له تعالى بتنزيل سمع غيره وعلم غيره منزلة العدم.

ويجوز أن يكون قصرا حقيقيا باعتبار متعلق خاص أي السميع العليم لدعائنا لا يعلمه غيرك وهذا قصر حقيقي مقيد وهو نوع مغاير للقصر الإضافي لم ينبه عليه علماء المعاني.

[١٢٨] ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾ [البقرة:١٢٨]

فائدة تكرير النداء بقوله: ﴿ربنا﴾ إظهار الضراعة إلى الله تعالى وإظهار أن كل دعوى من هاته الدعوات مقصودة بالذات، ولذلك لم يكرر النداء إلا عند **الانتقال** من دعوة إلى أخرى فإن الدعوة الأولى لطلب تقبل العمل والثانية لطلب الاهتداء فجملة النداء معترضة بين المعطوف هنا والمعطوف عليه في قوله الآتي: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا﴾ [البقرة: من الآية١٢٩]

والمراد بمسلمين لك المنقادان إلى الله تعالى إذ الإسلام الانقياد، ولما كان الانقياد للخالق بحق يشمل الإيمان بوجوده وأن لا

---

(١) التحرير والتنوير ٦٨٢/١

يشرك في عبادته غيره ومعرفة صفاته التي دل عليها فعله كانت حقيقة الإسلام ملازمة لحقيقة الإيمان والتوحيد، ووجه تسمية ذلك إسلاما سيأتي عند قوله: ﴿فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ [البقرة: من الآية١٣٢]، وأما قوله تعالى: ﴿قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ [الحجرات: ١٤] فإنه فكك بينهما لأن إسلامهم كان عن خوف لا عن اعتقاد، فالإيمان والإسلام متغايران مفهوما وبينهما عموم وخصوص وجهي في الماصدق، فالتوحيد في زمن الفترة إيمان لا يترقب منه انقياد إذ الانقياد إنما يحصل بالأعمال، وانقياد المغلوب المكره إسلام لم ينشأ عن اعتقاد إيمان، إلا أن صورتي الانفراد في الإيمان والإسلام نادرتان.

ألهم الله إبراهيم اسم الإسلام ثم ادخره بعده للدين المحمدي فنسى هذا الاسم بعد". (١)

٥٠-"المسلمين من قبل﴾ [الحج: ٧٨]

[١٣٣] ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون﴾ [البقرة:١٣٣]

تفصيل لوصية يعقوب بأنه أمر أبناءه أن يكونوا على ملة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وهي نظير ما وصى به إبراهيم بنيه فأجمل هنا اعتمادا على ما صرح به في قوله سابقا: ﴿يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ [البقرة: ١٣٢] وهذا تنويه بالحنيفية التي هي أساس الإسلام، وتمهيد لإبطال قولهم: ﴿كونوا هودا أو نصارى تهتدوا﴾ [البقرة: ١٣٥] وإبطال لزعمهم أن يعقوب كان على اليهودية وأنه أوصى بها بنيه فلزمت ذريته فلا يحولون عنها. وقد ذكر أن اليهود قالوا ذلك قاله الواحدي والبغوي بدون سند، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى﴾ [البقرة: ١٤٠] الآية فلذلك جيء هنا بتفصيل وصية يعقوب إبطالا لدعاوي اليهود ونقضا لمعتقدهم الذي لا دليل عليه كما أنبأ به الإنكار في قوله: ﴿أم كنتم شهداء﴾ إلخ.

و ﴿أم﴾ عاطفة جملة ﴿كنتم شهداء﴾ على جملة ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه﴾ فإن أم من حروف العطف كيفما وقعت، وهي هنا منقطعة **للانتقال** من الخبر عن إبراهيم ويعقوب إلى مجادلة من اعتقدوا خلاف ذلك الخبر، ولما كانت أم يلازمها الاستفهام كما مضى عند قوله تعالى: ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم﴾ [البقرة: من الآية١٠٨] إلخ فالاستفهام هنا غير حقيقي لظهور أن عدم شهودهم احتضار يعقوب محقق، فتعين أن الاستفهام مجاز: ومحمله على الإنكار لأنه أشهر محامل الاستفهام المجازي، ولأن مثل هذا المستفهم عنه مألوف في الاستفهام الإنكاري،

ثم إن كون الاستفهام إنكاريا يمنع أن يكون الخطاب الواقع فيه خطابا للمسلمين لأنهم ليسوا بمظنة حال من يدعي خلاف الواقع حتى ينكر عليهم، خلافا لمن جوز كون الخطاب للمسلمين من المفسرين، توهموا أن الإنكار يساوي النفي مساواة تامة وغفلوا عن الفرق بين الاستفهام الإنكاري وبين النفي المجرد فإن الاستفهام الإنكاري مستعمل في الإنكار مجازا بدلالة

---

(١) التحرير والتنوير ١/٧٠٠

المطابقة وهو يستلزم النفي بدلالة الالتزام، ومن العجيب وقوع". (١)

٥١-"قال البيضاوي كأنه ألزمهم على كل مذهب ينتحونه إفحاما وتبكيتا فإن كرامة النبوءة إما تفضل من الله على من يشاء فالكل فيه سواء وإما إفاضة حق على المستعدين لها بالمواظبة على الطاعة فكما أن لكم أعمالا ربما يعتبرها الله في إعطائها فلنا أيضا أعمال.

وتقديم المجرور فيه ﴿لنا أعمالنا﴾ للاختصاص أي لنا أعمالنا لا أعمالكم فلا تحاجونا في أنكم أفضل منا، وعطف ﴿ولكم أعمالكم﴾ احتراس لدفع توهم أن يكون المسلمون مشاركين للمخاطبين في أعمالهم وأن لنا أعمالنا يفيد اختصاص المتكلمين بما عملوا مع الاشتراك في أعمال الآخرين وهو نظير عطف قوله تعالى ﴿ولي دين﴾ على قوله: ﴿لكم دينكم﴾ [الكافرون: ٦].

وهذا كله من الكلام المصنف مثل قوله تعالى: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ [سبأ: ٢٤]

وجملة ﴿ونحن له مخلصون﴾ عطف آخر على جملة الحال وهي ارتقاء ثالث لإظهار أن المسلمين أحق بإفاضة الخير فإنهم وإن اشتركوا مع الآخرين في المربوبية وفي الصلاحية لصدور الأعمال الصالحة فالمسلمون قد أخلصوا دينهم لله ومخالفوهم قد خلطوا عبادة الله بعبادة غيره، أي فلماذا لا نكون نحن أقرب إلى رضى الله منك إليه.

والجملة الاسمية مفيدة الدوام على الإخلاص كما تقدم في قوله: ﴿ونحن له مسلمون﴾ [البقرة: ١٣٦]

[١٤٠] ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون﴾ [البقرة:١٤٠]

﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله﴾

أم منقطعة بمعنى بل وهي إضراب للانتقال من غرض إلى غرض وفيها تقدير استفهام وهو استفهام للتوبيخ والإنكار وذلك لمبلغهم من الجهل بتاريخ شرائعهم زعموا أن إبراهيم وأبناءه كانوا على اليهودية أو على النصرانية كما دل عليه قوله تعالى: ﴿قل أأنتم أعلم أم الله﴾ ولدلالة آيات أخرى عليه مثل: ﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا﴾ [آل عمران:". (٢)

٥٢-"[١٤٤] وما اتصل به من تعليله بقوله: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ [البقرة:١٥٠] وما عطف عليه من قوله: ﴿ولأتم نعمتي عليكم﴾ [البقرة:١٥٠] إلى قوله: ﴿واشكروا لي ولا تكفرون﴾ [البقرة:١٥٢] وبين قوله: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ [البقرة:١٧٧] لأن ذلك وقع تكملة لدفع المطاعن في شان تحويل القبلة فله أشد اتصال بقوله: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ المتصل بقوله: ﴿وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ [البقرة:١٥٠]. وهو اعتراض مطنب ابتدئ به إعداد المسلمين لما هم أهله من نصر دين الله شكرا له على ما خولهم من النعم المعدودة في

---

(١) التحرير والتنوير ٧١٠/١

(٢) التحرير والتنوير ٧٢٦/١

الآيات السالفة من جعلهم أمة وسطا وشهداء على الناس، وتفضيلهم بالتوجه إلى استقبال أفضل بقعة، وتأييدهم بأنهم على الحق في ذلك، وأمرهم بالاستخفاف بالظالمين وأن لا يخشوهم، وتبشيرهم بأنه أتم نعمته عليهم وهداهم، وامتن عليهم بأنه أرسل فيهم رسولا منهم، وهداهم إلى الامتثال للأحكام العظيمة كالشكر والذكر، فإن الشكر والذكر بهما تهيئة النفوس إلى عظيم الأعمال، من أجل ذلك كله أمرهم هنا بالصبر والصلاة، ونبههم إلى أنهما عون للنفس على عظيم الأعمال، فناسب تعقيبها بها، وأيضا فإن ما ذكر من قوله: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ مشعر بان أناسا متصدون لشغبهم وتشكيكهم والكيد لهم، فأمروا بالاستعانة عليهم بالصبر والصلاة. وكلها متماسكة متناسبة **الانتقال** عدا آية: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ إلى قوله: ﴿شاكر عليم﴾ [البقرة:١٥٨] فسيأتي تبييننا لموقعها.

وافتتح الكلام بالنداء لأن فيه إشعارا بخبر مهم عظيم، فإن شأن الأخبار العظيمة التي تهول المخاطب أن يقدم قبلها ما يهيئ النفس لقبولها لتستأنس بها قبل أن تفجأها.

وفي افتتاح هذا الخطاب بالاستعانة بالصبر إيذان بأنه سيعقب بالندب إلى عمل عظيم وبلوى شديدة، وذلك تهيئة للجهاد، ولعله إعداد لغزوة بدر الكبرى، فإن ابتداء المغازي كان قبيل زمن تحويل القبلة إذ كان تحويل القبلة في رجب أو شعبان من السنة الثانية للهجرة وكانت غزوة بواط والعشيرة وبدر الأولى في ربيع وجمادى من السنة الثانية ولم يكن فيهما قتال، وكانت بدر الكبرى في رمضان من السنة الثانية فكانت بعد تحويل القبلة بنحو شهرين.

وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ [البقرة:١٤٣] أن ما وقع في حديث البراء بن عازب من قول الراوي أن ناسا قتلوا قبل تحويل القبلة، أنه توهم". (١)

٥٣-"مع أهل الكتاب قال تعالى: ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين﴾ [البقرة:١٠٥] الآية: ﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم﴾ [البقرة:١١٨] فلما استؤنف الكلام ببيان لعنة أهل الكتاب الذين يكتمون عقب ذلك ببيان عقوبة المشركين أيضا فالقول في الاستئناف هنا كالقول في الاستئناف في قوله: ﴿إن الذين يكتمون﴾ [البقرة:١٥٩] من كونه بيانيا أو مجردا.

وقال الفخر ﴿الذين كفروا﴾ عام وهو شامل للذين يكتمون وغيرهم والجملة تذييل أي لما فيها من تعميم الحكم بعد إناطته ببعض الأفراد، وجعل في "الكشاف" المراد من ﴿الذين كفروا﴾ خصوص الذين يكتمون١ وماتوا على ذلك وأنه ذكر لعنتهم أحياء ثم لعنتهم أمواتا، وهو بعيد عن معنى الآية لأن إعادة وكفروا لا نكتة لها للاستغناء بأن يقال والذين ماتوا وهم كفار، على أنه مستغنى عن ذلك أيضا بأنه مفاد الجملة السابقة مع استثنائها، واللعنة لا يظهر أثرها إلا بعد الموت فلا معنى لجعلها لمنتين، ولأن تعقيبه بقوله: ﴿وإلهكم إله واحد﴾ [البقرة:١٦٣] يؤذن بأن المراد هنا المشركون لتظهر مناسبة **الانتقال**.

وإنما قال هنا: ﴿والناس أجمعين﴾ لأن المشركين يلعنهم أهل الكتاب وسائر المتدينين الموحدين للخالق بخلاف الذين يكتمون ما أنزل من البينات فإنما يلعنهم الله والصالحون من أهل دينهم كما تقدم وتلعنهم الملائكة، وعموم "الناس" عرفي أي الذين

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٥١

هم من أهل التوحيد.

وقوله: ﴿خالدين فيها﴾ تصريح بلازم اللعنة الدائمة فالضمير عائد لجهنم لأنها معروفة من المقام مثل: ﴿حتى توارت بالحجاب﴾ [ص:٣٢] ﴿كلا إذا بلغت التراقي﴾ [القيامة:٢٦]، ويجوز أي يعود إلى اللعنة ويراد أثرها ولازمها.

وقوله: ﴿لا يخفف عنهم العذاب﴾ أي لأن كفرهم عظيم يصدهم عن خيرات كثيرة بخلاف كفر أهل الكتاب.

والإنظار الإمهال، نظره نظرة أمهله، والظاهر أن المراد ولا هم يمهلون في نزول العذاب بهم في الدنيا وهو عذاب القتل إذ لا يقبل منهم إلا الإسلام دون الجزية بخلاف أهل الكتاب وهذا كقوله تعالى: ﴿إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون يوم نبطش

–

١ يشير إلى قوله تعالى السابق: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات﴾ [البقرة: ١٥٩]". (١)

٥٤–"تجري في البحر، وفي كونها نعمة من حيث أنها تجري بما ينفع الناس، فأما جريها في البحر فهو يتضمن آيتين، إحداهما آية خلق البحر الذي تجري فيه الفلك خلقا عجيبا عظيما إذ كان ماء غامرا لأكثر الكرة الأرضية وما فيه من مخلوقات وما ركب في مائه من الأملاح والعقاقير الكيمياوية ليكون غير متعفن بل بالعكس يخرج للهواء أجزاء نافعة للأحياء على الأرض، والثانية آية سير السفن فيه وهو ماء من شأنه أن يتعذر المشي عليه فجرى السفن آية من آيات إلهام الله تعالى الإنسان للتفطن لهذا التسخير العجيب الذي استطاع به أن يسلك البحر كما يمشي في الأرض، وصنع الفلك من أقدم مخترعات البشر ألهمه الله تعالى نوحا عليه السلام في أقدم عصور البشر،

ثم إن الله تعالى سخر للفلك الرياح الدورية وهي رياح تهب في الصباح إلى جهة وفي المساء إلى جهة في السواحل تنشأ عن إحماء أشعة الشمس في رابعة النهار الهواء الذي في البر حتى يخف الهواء فيأتي هواء من جهة البحر ليخلف ذلك الهواء البرى الذي تصاعد فتحدث ريح رخاء من جهة البحر ويقع عكس ذلك بعد الغروب فتأتى ريح من جهة البر إلى البحر، وهذه الريح ينتفع بها الصيادون والتجار وهي تكون أكثر انتظاما في مواقع منها في مواقع أخرى.

وسخر الفلك رياحا موسمية وهي تهب إلى جهة واحدة في أشهر من السنة وإلى عكسها في أشهر أخرى تحدث من اتجاه حرارة أشعة الشمس على الأماكن الواقعة بين مدار السرطان ومدار الجدي من المرة الأرضية عند **انتقال** الشمس من خط الاستواء إلى جهة مدار السرطان وإلى جهة مدار الجدي، فتحدث هاته الريح مرتين في السنة وهي كثيرة في شطوط اليمن وحضرموت والبحر الهندي وتسمى الريح التجارية.

وأما كونها نعمة فلأن في التسخير نفعا للتجارة والزيارة والغزو وغير ذلك ولذلك قال بما ينفع الناس لقصد التعميم مع الاختصار.

والفلك هنا جمع لا محالة لأن العبرة في كثرتها، وهو ومفرده سواء في الوزن فالتكسير فيه اعتباري وذلك أن أصل مفرده فلك

---

(١) التحرير والتنوير ٧٢/٢

بضمتين كعنق وكسر على فلك مثل عرب وعجم وأسد وخفف المفرد بتسكين عينه لأن ساكن العين في مضموم الفاء فرع مضموم العين قصد منه التخفيف على ما بينه الرضى فاستوى في اللفظ المفرد والجمع، وقيل المفرد بفتح الفاء وسكون اللام والجمع بضم الفاء وضم اللام قيل أسد وأسد وخشب وخشب ثم سكنت اللام تخفيفا، والاستعمال الفصيح في المفرد والجمع ضم الفاء". (١)

٥٥-"وجدتموهم لا يعقلون؛ لأنهم كالأنعام والصم والبكم الخ، وإن كان راجعا للأصنام فالاستنتاج للتنبيه على غباوة المشركين الذين عبدوها. ومجيء الضمير لهم بضمير العقلاء تهكم بالمشركين لأنهم جعلوا الأصنام في أعلى مراتب العقلاء كما تقدم.

[١٧٢] ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ اعتراض بخطاب المسلمين بالامتنان عليهم بإباحة ما في الأرض من الطيبات جرت إليه مناسبة **الانتقال**، فقد انتقل من توبيخ أهل الشرك على أن حرموا ما خلقه الله من الطيبات إلى تحذير المسلمين من مثل ذلك مع بيان ما حرم عليهم من المطعومات، وقد أعيد مضمون الجملة المتقدمة جملة ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض﴾ [البقرة:١٦٨] بمضمون جملة: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ليكون خطاب المسلمين مستقلا بنفسه، ولهذا كان الخطاب هنا بيا أيها الذين آمنوا، والكلام على الطيبات تقدم قريبا.

وقوله: ﴿واشكروا لله﴾ معطوف على الأمر بأكل الطيبات الدال على الإباحة والامتنان، والأمر في ﴿اشكروا﴾ للوجوب لأن شكر المنعم واجب.

وتقدم وجه تعدية فعل الشكر بحرف اللام عند قوله تعالى: ﴿واشكروا لي﴾ [البقرة:١٥٢].

والعدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر لأن في الاسم الظاهر إشعارا بالإلهية فكأنه يومئ إلى ألا تشكر الأصنام؛ لأنها لم تخلق شيئا مما على الأرض باعتراف المشركين أنفسهم فلا تستحق شكرا. وهذا من جعل اللقب ذا مفهوم بالقرينة، إذ الضمير لا يصلح لذلك إلا في مواضع.

ولذلك جاء بالشرط فقال: ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي اشكروه على ما رزقكم إن كنتم ممن يتصف بأنه لا يعبد إلا الله أي إن كنتم هذا الفريق وهذه سجيتكم، ومن شأن كان إذا جاءت وخبرها جملة مضارعية أن تدل على الاتصاف بالعنوان لا على الوقوع بالفعل مثل قوله: ﴿إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ [يوسف:٤٣] أي إن كان هذا العلم من صفاتكم، والمعنى إن كنتم لا تشركون معه في العبادة غيره فاشكروه وحده.

فالمراد بالعبادة هنا الاعتقاد بالإلهية والخضوع والاعتراف وليس المراد بها الطاعات الشرعية. وجواب الشرط محذوف أغنى عنه ما تقدمه من قوله: ﴿واشكروا﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٧٩/٢

[١٧٣] ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله". [1]

٥٦-"من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات﴾

حكم الصيام حكم عظيم من الأحكام التي شرعها الله تعالى للأمة، وهو من العبادات الرامية إلى تزكية النفس ورياضتها، وفي ذلك صلاح حال الأفراد فردا فردا؛ إذ منها يتكون المجتمع. وفصلت الجملة عن سابقتها **للانتقال** إلى غرض آخر، وافتتحت بيا أيها الذين آمنوا لما في النداء من إظهار العناية بما سيقال بعده.

والقول في معنى ﴿كتب عليكم﴾ ودلالته على الوجوب تقدم آنفا عند قوله تعالى: ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية﴾ [البقرة:١٨٠] الآية.

والصيام يقال الصوم هو في اصطلاح الشرع: اسم لترك جميع الأكل وجميع الشرب وقربان النساء مدة مقدرة بالشرع بنية الامتثال لأمر الله أو لقصد التقرب بنذر للتقرب إلى الله.

والصيام اسم منقول من مصدر فعال وعينه واو قلبت ياء لأجل كسرة فاء الكلمة، وقياس المصدر الصوم، وقد ورد المصدران في القرآن، فلا يطلق الصيام حقيقة في اللغة إلا على ترك كل طعام وشراب، وألحق به في الإسلام ترك قربان كل النساء، فلو ترك أحد بعض أصناف المأكول أو بعض النساء لم يكن صياما كما قال العرجي:

فإن شئت حرمت النساء سواكم ... وإن شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

وللصيام إطلاقات أخرى مجازية كإطلاقة على إمساك الخيل عن الجري في قول النابغة:

خيل صيام وخيل غير صائمة ... تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

وأطلق عل ترك شرب حمار الوحش الماء، وقال لبيد يصف حمار الوحش وأتانه في إثر فصل الشتاء حيث لا تشرب الحمر ماء لاجتزائها بالمرعى الرطب:

حتى إذا سلخا جمادى ستة ... جزءا فطال صيامه وصيامها

والظاهر أن اسم الصوم في اللغة حقيقة في ترك الأكل والسرب بقصد القربة فقد". [2]

٥٧-"وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٢/١١٣

(٢) التحرير والتنوير ٢/١٥٣

﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم﴾

انتقال في أحكام الصيام إلى بيان أعمال في بعض أزمنة رمضان قد يظن أنها تنافي عبادة الصيام، ولأجل هذا الانتقال فصلت الجملة عن الجمل السابقة.

وذكروا السبب نزول هذه الآية كلاما مضربا غير مبين فروى أبو داود عن معاذ بن جبل كان المسلمون إذا نام أحدهم إذا صلى العشاء وسهر بعدها لم يأكل ولم يباشر أهله بعد ذلك فجاء عمر يريد امرأته فقالت: إني قد نمت فظن أنها تعتل فباشرها، وروى البخاري عن البراء ابن عازب أن قيس بن صرمة جاء إلى منزله بعد الغروب يريد طعامه فقالت له امرأته: حتى نسخن لك شيئا فنام فجاءت امرأته فوجدته نائما فقالت: خيبة لك فبقي كذلك فلما انتصف النهار أغمى عليه من الجوع، وفي كتاب التفسير من "صحيح البخاري" عن حديث البراء ابن عازب قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله وكان رجال يخزنون أنفسهم فأنزل الله تعالى: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ الآية، ووقع لكعب بن مالك مثل ما وقع لعمر، فنزلت هذه الآية بسبب تلك الأحداث، فقيل: كان ترك الأكل ومباشرة النساء من بعد النوم أو من بعد صلاة العشاء حكما مشروعا بالسنة ثم نسخ، وهذا قول جمهور المفسرين، وأنكر أبو مسلم الأصفهاني أن يكون هذا نسخا لشيء تقرر في شرعنا وقال: هو نسخ لما كان في شريعة النصارى.

وما شرع الصوم إلا إمساكا في النهار دون الليل فلا أحسب أن الآية إنشاء للإباحة ولكنها إخبار عن الإباحة المتقررة في أصل توقيت الصيام بالنهار، والمقصود منها إبطال شئ توهمه بعض المسلمين وهو أن الأكل بين الليل لا يتجاوز وقتين وقت الإفطار ووقت السحور وجعلوا وقت الإفطار هو ما بين المغرب إلى العشاء، لأنهم كانوا ينامون إثر صلاة العشاء وقيامها فإذا صلوا العشاء لم يأكلوا إلا أكلة السحور وأنهم كانوا ينامون إثر صلاة العشاء وقيامها فإذا صلوا العشاء لم يأكلوا إلا أكلة السحور وأنهم كانوا في أمر الجماع كشأنهم في أمر الطعام وأنهم لما اعتادوا جعل النوم مبدأ وقت الإمساك الليلي". (١)

٥٨-"نحوا من ذلك.

والمراد تشبيه ذكر الله بذكر آبائهم في الكثرة والتكرير وتعمير أوقات الفراغ به وليس فيه ما يؤذن بالجمع بين ذكر الله وذكر الآباء.

وقوله: ﴿أو أشد ذكرا﴾ أصل أو أنها للتخيير ولما كان المعطوف بها في مثل ما هنا أولى بمضمون الفعل العامل في المعطوف عليه أفادت "أو" معنى من التدرج إلى أعلى، فالمقصود أن يذكروا الله كثيرا، وشبه أولا بذكر آبائهم تعريضا بأنهم يشتغلون في تلك المناسك بذكر لا ينفع وأن الأجدر بهم أن يعوضوه بذكر الله فهذا تعريض بإبطال ذكر الآباء بالتفاخر. ولهذا قال أبو علي الفارسي وابن جني: إن "أو" في مثل هذا للإضراب الانتقالي ونفيا اشتراط تقدم نفي أو شبهه واشتراط إعادة

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٨/٢

العامل. وعليه خرج قوله تعالى: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ [الصافات:١٤٧] وعلى هذا فالمراد من التشبيه أولا إظهار أن الله حقيق بالذكر هنالك مثل آبائهم ثم بين بأن ذكر الله يكون أشد لأنه أحق بالذكر.
و ﴿أشد﴾ لا يخلو عن أن يكون معطوفا على مصدر مقدر منصوب على أنه مفعول مطلق بعد قوله: ﴿كذكركم آباءكم﴾ تقديره: ﴿فاذكروا الله ذكرا كذكركم آباءكم﴾ فتكون فتحة ﴿أشد﴾ التي في آخره فتحة نصب، فنصبه بالعطف على المصدر المحذوف الذي دل عليه قوله: ﴿كذكركم﴾ والتقدير: "ذكرا كذكركم آباءكم"، وعلى هذا الوجه فنصب ﴿ذكرا﴾ يظهر أنه تمييز لأشد، وإذ قد كان ﴿أشد﴾ وصفا لذكر المقدر صار مآل التمييز إلى أنه تمييز الشيء بمرادفة وذلك ينافي القصد من التمييز الذي هو لإزالة الإبهام، إلا أن مثل ذلك يقع في الكلام الفصيح وإن كان قليلا قلة لا تنافي الفصاحة اكتفاء باختلاف صورة اللفظين المترادفين، مع إفادة التمييز حينئذ توكيد المميز كما حكى سيبويه أنهم يقولون: هو أشح الناس رجلا، وهما خير الناس اثنين، وهذا ما درج عليه الزجاج في تفسيره، قلت: وقريب منه استعمال تمييز "نعم" توكيدا في قول جرير:
تزود مثل زاد أبيك فينا ... فنعم الزاد زاد أبيك زادا
ويجوز أن يكون نصب ﴿أشد﴾ على الحال من "ذكر" الموالي له وأن أصل أسد نعت له وكان نظم الكلام: أو ذكرا أشد، فقدم النعت فصار حالا، والداعي إلى تقديم النعت حينئذ هو الاهتمام بوصف كونه أشد، وليتأتى إشباع حرف الفاصلة عند الوقف عليه، وليباعد ما بين كلمات الذكر المتكررة ثلاث مرات بقدر الإمكان. أو أن يكون". (١)

٥٩-"فكانت الشرائع السابقة تمهيدا وتهيئة لقبول دين الإسلام، ولذلك صدرت هذه الآية بقوله: ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ فكما كان البشر في أول أمره أمة واحدة على هدى بسيط ثم عرضت له الضلالات عند تحرك الأفكار البشرية، رجع البشر إلى دين واحد في حالة ارتقاء الأفكار، وهذا اتحاد عجيب، لأنه جاء بعد تشتت الآراء والمذاهب، ولذا قال تعالى: ﴿إن الدين عند الله الأسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم﴾ وفي الحديث: "مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوما يعملون له عملا يوما إلى الليل على أجر معلوم فعملوا له نصف النهار فقالوا لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا وما عملنا باطل فقال لهم لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملا فأبوا وتركوا، واستأجر آخرين بعدهم فقال لهم: أكملوا بقية يومكم هذا ولكم الذي شرطت لهم من الأجر فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا: تلك ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه، فقال لهم أكملوا بقية عملكم فإنما بقى من النهار شئ يسير فأبوا، واستأجر قوما أن يعملوا له بقية يومهم فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور، فقالت اليهود والنصارى ما لنا أكثر عملا وأقل عطاء، قال هل ظلمتكم من حقكم شيئا؟ قلوا:لا، قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء".
[٢١٤] ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤١/٢

الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾

إضراب انتقالي عن الكلام السابق فاحتاج إلى وجه مناسبة به، فقال الطيبي أخذا من كلام الكشاف: إن قوله تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ [البقرة:٢١٣] كلام ذكرت فيه الأمم السالفة وذكر من بعث إليهم من الأنبياء وما لقوا منهم من الشدائد، ومدمج لتشجيع الرسول والمؤمنين على الثبات والصبر على أذى المشركين كما قال: ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ [هود:١٢٠] فمن هذا الوجه كان الرسول وأصحابه مرادين من ذلك الكلام، يدل عليه قوله: ﴿فهدى الله الذين آمنوا﴾ [البقرة:٢١٣] وهو المضرب عنه ببل التي تضمنتها أم أي دع ذلك، احسبوا أن يدخلوا الجنة اهـ.

وبيانه أن القصد من ذكر الأمم السالفة حيثما وقع في القرآن هو العبرة والموعظة والتحذير من الوقوع فيما وقعوا فيه بسوء عملهم والاقتداء في المحامد، فكان في قوله". (١)

٦٠-"تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ الآية إجمال لذلك وقد ختم بقوله: ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾ ، ولما كان هذا الختام منقبة للمسلمين أوقظوا أن لا يزهوا بهذا الثناء فيحسبوا أنهم قضوا حق شكر النعمة فعقب بأن عليهم أن يصبروا لما عسى أن يعترضهم في طريق إيمانهم من البأساء والضراء اقتداء بصالحي الأمم السالفة، فكما حذرهم الله من الوقوع فيما وقع فيه الضالون من أولئك الأمم حرضهم هنا على الاقتداء بهدى المهتدين منهم على عادة القرآن في تعقيب البشارة بالنذارة وعكس ذلك، فيكون قوله: ﴿أم حسبتم﴾ إضرابا عن قوله: ﴿فهدى الله الذين آمنوا﴾ وليكون ذلك تصبيرا لهم على ما نالهم يوم الحديبية من تطاول المشركين عليهم بمنعهم من العمرة وما اشترطوا عليهم للعام القابل، ويكون أيضا تمهيدا لقوله: ﴿كتب عليكم القتال﴾ [البقرة:٢١٦] الآية، وقد روى عن أكثر المفسرين الأولين أن هذه الآية نزلت في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدائد فتكون تلك الحادثة زيادة في المناسبة. و"أم" في الإضراب كبل إلا أن أم تؤذن بالاستفهام وهو هنا تقرير بذلك وإنكاره إن كان حاصلا أي بل أحسبتم أن تدخلوا دون بلوى وهو حسبان باطل لا ينبغي اعتقاده.

وحسب بكسر السين في الماضي: فعل من أفعال القلوب أخوات ظن، وفي مضارعه وجهان كسر السين وهو أجود وفتحها وهو أقيس وقد قريء بهما في المشهور، ومصدره الحسبان بكسر الحاء وأصله من الحساب بمعنى العد فاستعمال في الظن تشبيها لجولان النفس في استخراج علم ما يقع بجولان اليد في الأشياء لتعيين عددها ومثله في ذلك فعل عد بمعنى ظن.

والخطاب للمسلمين وهو إقبال عليهم بالخطاب بعد أن كان الكلام على غيرهم فليس فيه التفات، وجعله صاحب "الكشاف" التفاتا بناء على تقدم قوله: ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه﴾ [البقرة:٢١٣] وأنه يقتضي أن يقال أم حسبوا أي الذين آمنوا، والأظهر أنه لما وقع الانتقال من غرض إلى غرض بالإضراب الانتقالي الحاصل بأم، صار الكلام افتتاحا محضا وبذلك يتأكد اعتبار الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، فالالتفات هنا غير منظور إليه على التحقيق.

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٢٩٦

ودخول الجنة هنا دخولها بدون سبق عناء وبلوى، وهو دخول الذين استوفوا كل ما وجب عليهم ولم يقصروا في شئ منه، وإلا فإن دخول الجنة محسوب لكل مؤمن ولو لم تأته البأساء والضراء أو أتته ولم يصبر عليها، بمعنى أن الصبر على ذلك وعدم الضجر منه". (١)

٦١-"هذه المذاهب، مذاهب أنهاها ابن عطية إلى عشرة، لا نطيل بها.

وقوله: ﴿والله غفور حليم﴾ تذييل لحكم نفي المؤاخذة، ومناسبة اقتران وصف الغفور بالحليم هنا، دون الرحيم، لأن هذه مغفرة لذنب هو من قبيل التقصير في الأدب مع الله تعالى، فلذلك وصف الله نفسه بالحليم، لأن الحليم هو الذي لا يستفزه التقصير في جانبه، ولا يغضب للغفلة، ويقبل المعذرة.

[٢٢٦، ٢٢٧] ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم﴾

استئناف ابتدائي، للانتقال إلى تشريع في عمل كان يغلب على الرجال أن يعملوه، في الجاهلية، والإسلام. كان من أشهر الأيمان الحائلة بين البر والتقوى والإصلاح، أيمان الرجال على مهاجرة نسائهم، فإنها تجمع الثلاثة؛ لأن حسن المعاشرة من البر بين المتعاشرين، وقد أمر الله به في قوله: ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ [النساء:١٩] فامتثاله من التقوى، ولأن دوامه من دوام الإصلاح، ويحدث بفقده الشقاق، وهو مناف للتقوى. وقد كان الرجل في الجاهلية يولي من امرأته السنة والسنتين، ولا تنحل يمينه إلا بعد مضي تلك المدة، ولا كلام للمرأة في ذلك.

وعن سعيد بن المسيب: "كان الرجل في الجاهلية لا يريد المرأة، ولا يحب أن يطلقها، لئلا يتزوجها غيره، فكان يحلف ألا يقربها مضارة للمرأة" أي ويقسم على ذلك لكيلا يعود إليها إذا حصل له شيء من الندم. قال:"ثم كان أهل الإسلام يفعلون ذلك، فأزال الله ذلك، وأمهل للزوج مدة حتى يتروى" فكان هذا الحكم من أهم المقاصد في أحكام الأيمان، التي مهد لها بقوله: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة﴾ [البقرة:٢٢٤].

والإيلاء: الحلف، وظاهر كلام أهل اللغة أنه الحلف مطلقا: يقال آلى يولي إيلاء، وتألي يتألي تأليا، وائتلى يأتلي ائتلاء، والاسم الألوة والألية، كلاهما بالتشديد، وهو واوى فالألوة فعولة والألية فعيلة.

وقال الراغب:"الإيلاء حلف يقتضي التقصير في المحلوف عليه مشتق من الألو وهو التقصير قال تعالى: ﴿لا يألونكم خبالا﴾ [آل عمران:١١٨] ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة﴾ [النور:٢٢] وصار في الشرع الحلف المخصوص فيؤخذ من كلام الراغب أن الإيلاء حلف على الامتناع والترك؛ لأن التقصير لا يتحقق بغير معنى الترك؛ وهو الذي". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٢٩٧

(٢) التحرير والتنوير ٢/٣٦٥

٦٢-"ثلاثة أشهر، وينفد في أربعة أشهر وقيل: إنه سأل ابنته حفصة. فأمر عمر قواد الأجناد ألا يمسكوا الرجل في الغزو أكثر من أربعة أشهر، فإذا مضت استرد الغازين ووجه قوما آخرين.

[٢٢٨] ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم﴾

﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا﴾

عطف على الجملة قبلها، لشدة المناسبة، وللاتحاد في الحكم وهو التربص، إذ كلاهما انتظار لأجل المراجعة، ولذلك لم يقدم قوله: ﴿الطلاق مرتان﴾ [البقرة:٢٢٩] على قوله: ﴿والمطلقات يتربصن﴾ لأن هذه الآي جاءت متناسقة، منتظمة على حسب مناسبات **الانتقال** على عادة القرآن في إبداع الأحكام، وإلقائها، بأسلوب سهل لا تسأم له النفس، ولا يجيء على صورة التعليم والدرس.

وسيأتي كلامنا على الطلاق عند قوله تعالى: ﴿الطلاق مرتان﴾.

وجملة: ﴿والمطلقات يتربصن﴾ خبرية مراد بها الأمر، فالخبر مستعمل في الإنشاء وهو مجاز فيجوز جعله مجازا مرسلا مركبا، باستعمال الخبر في لازم معناه، وهو التقرر والحصول. وهو الوجه الذي اختاره التفتازاني في قوله تعالى: ﴿أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار﴾ [الزمر:١٩] بأن يكون الخبر مستعملا في المعنى المركب الإنشائي، بعلاقة اللزوم بين الأمر، مثلا كما هنا، وبين الامتثال، حتى يقدر المأمور فاعلا فيخبر عنه. ويجوز جعله مجازا تمثيليا، كما اختاره الزمخشري في هذه الآية إذ قال "فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص فهو يخبر عنه موجودا ونحوه قولهم في الدعاء: رحمه الله ثقة بالاستجابة" قال التفتازاني: فهو تشبيه ما هو مطلوب الوقوع بما هو محقق الوقوع في الماضي كما في قول الناس: رحمه الله، أو في المستقبل، أو الحال، كما في هذه الآية. قلت: وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾ [البقرة:١٩٧] وأنه أطلق المركب الدال على الهيئة المشبه بها على الهيئة المشبهة.

والتعريف في "المطلقات" تعريف الجنس. وهو مفيد للاستغراق، إذ لا يصلح لغيره". (١)

٦٣-"زائدة، ومن هنالك قال بزيادة الباء في التوكيد المعنوي. ذكره صاحب "المغنى"، ورده، من جهة اللفظ، بأن: حق توكيد الضمير المتصل، أن يكون بعد ذكر الضمير المنفصل أو بفاصل آخر، إلا أن يقال: اكتفى بحرف الجر؛ ومن جهة المعنى، بأن التوكيد لا داعي إليه؛ إذ لا يذهب عقل السامع إلى أن المأمور غير المطلقات الذي هو المبتدأ، الذي تضمن الضمير خبره.

وانتصب ﴿ثلاثة قروء﴾ على النيابة عن المفعول فيه؛ لأن الكلام على تقدير مضاف؛ أي مدة ثلاثة قروء، فلما حذف

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٣٦٩

المضاف خلفه المضاف إليه في الإعراب.

والقروء جمع قرء- بفتح القاف وضمها وهو مشترك للحيض والطهر. وقال أبو عبيدة: إنه موضوع للانتقال من الطهر إلى الحيض، أو من الحيض إلى الطهر، فلذلك إذا أطلق على الطهر أو على الحيض كان إطلاقا على أحد طرفيه. وتبعه الراغب. ولعلهما أرادا بذلك وجه إطلاقه على الضدين. وأحسب أن أشهر معاني القرء، عند العرب، هو الطهر، ولذلك ورد في حديث عمر، أن ابنه عبد الله، لما طلق امرأته في الحيض، سأل عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك. وما سؤاله إلا من أجل أنهم كانوا لا يطلقون إلا في حال الطهر ليكون الطهر الذي وقع فيه الطلاق مبدأ الاعتداد وكون الطهر الذي طلقت فيه هو مبدأ الاعتداد هو قول جميع الفقهاء ما عدا ابن شهاب فإنه قال: يلغى الطهر الذي وقع فيه الطلاق.

واختلف العلماء في المراد من القروء، في هذه الآية، والذي عليه فقهاء المدينة، وجمهور أهل الأثر، أن القرء: هو الطهر. وهذا قول عائشة، وزيد بن ثابت، وابن عمر، وجماعة من الصحابة، من فقهاء المدسنة، وماله، والشافعي، في أوضح كلاميه، وابن حنبل. والمراد به الطهر الواقع بين دمين. وقال علي، وعمر، وابن مسعود، وأبو حنيفة، والثوري وابن أبي ليلى، وجماعة: إنه الحيض. وعن الشافعي، في أحد قوليه، أنه الطهر المنتقل منه إلى الحيض، وهو وفاق لما فسر به أبو عبيدة، وليس هو بمخالف لقول الجمهور: إن القرء: الطهر، فلا وجه لعده قولا ثالثا.

ومرجع النظر عندي، في هذا، إلى الجمع بين مقصدي الشارع من العدة. وذلك أن العدة قصد منها تحقق براءة رحم المطلقة، من حمل المطلق، وانتظار الزوج لعله أن يرجع. فبراءة الرحم تحصل بحيضة أو طهر واحد، وما زاد عليه تمديد في المدة انتظارا للرجعة. فالحيضة الواحدة قد جعلت علامة على براءة الرحم، في استبراء الأمة في انتقال الملك،". (١)

٦٤-"بالتصغير وقيل جملا وقيل جميلة ابنة معقل بن يسار فلما انقضت عدتها، أراد مراجعتها، فقال له أبوها معقل ابن يسار: إنك طلقتها طلاقا له الرجعة، ثم تركتها حتى انقضت عدتها، فلما خطبت إلي أتيتني تخطبها مع الخطاب، والله لا أنكحها أبدا فنزلت هذه الآية، قال معقل فكفرت عن يميني وأرجعتها إليه وقال الواحدي: نزلت في جابر بن عبد الله كانت له ابنة عم طلقها زوجها وانقضت عدتها، ثم جاء يريد مراجعتها، وكانت راغبة فيه، فمنعه جابر من ذلك فنزلت.

والمراد من ﴿أجلهن﴾ هو العدة، وهو يعضد أن ذلك هو المراد من نظيره في الآية السابقة، وعن الشافعي دل سياق الكلامين على افتراق البلوغين فجعل البلوغ، في الآية الأولى، بمعنى مشارفة بلوغ الأجل، وجعله، هنا، بمعنى انتهاء الأجل.فجملة ﴿وإذا طلقتم النساء﴾ عطف على ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف﴾ [البقرة:٢٣١] الآية.

والخطاب الواقع في قوله: ﴿طلقتم﴾ و ﴿تعضلوهن﴾ ينبغي أن يحمل على أنه موجه إلى جهة واحدة دون اختلاف التوجه، فيكون موجها إلى جميع المسلمين، لأن كل واحد صالح لأن يقع منه الطلاق، إن كان زوجا، ويقع منه العضل، إن كان وليا، والقرينة ظاهرة على مثله فلا يكاد يخفي في استعمالهم، ولما كان المسند إليه أحد الفعلين، غير المسند إليه الفعل الآخر،

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٣٧١

إذ لا يكون الطلاق ممن يكون منه العضل، ولا العكس، كان كل فريق يأخذ من الخطاب ما هو به جدير، فالمراد بقوله: ﴿طلقتم﴾ أوقعتم الطلاق، فهم الأزواج، وبقوله: ﴿فلا تعضلوهن﴾ النهي عن صدور العضل، وهم أولياء النساء، وجعل في "الكشاف" الخطاب للناس عامة أي إذا وجد فيكم الطلاق، وبلغ المطلقات أجلهن، فلا يقع منكم العضل ووجه تفسيره هذا بقوله: "لأنه إذا وجد العضل بينهم وهم راضون كانوا في حكم العاضلين".

والعضل: المنع والحبس وعدم **الانتقال**، فمنه عضلت المرأة بالتشديد إذا عسرت ولادتها وعضلت الدجاجة إذا نشب بيضها فلم يخرج، والمعاضلة في الكلام: احتباس المعنى حتى لا يبدو من الألفاظ، وهو التعقيد، وشاع في كلام العرب في منع الولي مولاته من النكاح. وفي الشرع هو المنع بدون وجه صلاح، فالأب لا يعد عاضلا برد كفء أو أثنين، وغير الأب يعد عاضلا برد كفء واحد.

وإسناد النكاح إلى النساء هنا لأنه هو المعضول عنه، والمراد بأزواجهن طالبو". (١)

٦٥-"ومعنى أزكى وأطهر أنه أوفر للعرض، وأقرب للخير، فأزكى دال على النماء والوفر، وذلك أنهم كانوا يعضلونهن حمية وحفاظا على المروءة من لحاق ما فيه شائبة الحطيطة، فأعلمهم الله أن عدم العضل أوفر للعرض؛ لأن فيه سعيا إلى استبقاء الود بين العائلات التي تقاربت بالصهر والنسب؛ فإذا كان العضل إباية للضيم، فالإذن لهن بالمراجعة حلم وعفو ورفاء للحال وذلك أنفع من إباية الضيم.

وأما قوله: ﴿وأطهر﴾ فهو معنى أنزه، أي أنه أقطع لأسباب العداوات والإحن والأحقاد بخلاف العضل الذي قصدتم منه قطع العود إلى الخصومة، وماذا تضر الخصومة في وقت قليل يعقبها رضا ما تضر الإحن الباقية، والعداوات المتأصلة، والقلوب المحرقة.

ولك أن تجعل ﴿أزكى﴾ بالمعنى الأول، ناظرا لأحوال الدنيا، وأطهر بمعنى فيه السلامة من الذنوب في الآخرة، فيكون أطهر مسلوب المفاضلة، جاء على صيغة التفضيل للمزاوجة مع قوله: ﴿أزكى﴾.

وقوله: ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ تذييل، وإزالة لاستغرابهم حين تلقى هذا الحكم، لمخالفته لعاداتهم القديمة، وما اعتقدوا نفعا وصلاحا وإبقاء على أعراضهم، فعلمهم الله أن ما أمرهم به ونهاهم عنه هو الحق، لأن الله يعلم النافع، وهم لا يعلمون إلا ظاهرا، فمفعول ﴿يعلم﴾ محذوف أي والله يعلم ما فيه كمال زكاتكم وطهارتكم؛ وأنتم لا تعلمون ذلك.

[٢٣٣] ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾

انتقال من أحكام الطلاق والبينونة؛ فإنه لما نهي عن العضل، وكانت بعض المطلقات لهن أولاد في الرضاعة ويتعذر عليهن

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٤٠٦

التزوج وهن مرضعات؛ لأن ذلك قد يضر بالأولاد، ويقلل رغبة الأزواج فيهن، كانت تلك الحالة مثار خلاف بين الآباء والأمهات، فلذلك ناسب التعرض لوجه الفصل بينهم في ذلك، فإن أمر الإرضاع مهم، لأن به حياة النسل، ولأن تنظيم أمره من أهم شئون أحكام العائلة.". (١)

٦٦-"اختلاف الأبوين دليلا على توقع حاجة الطفل إلى زيادة الرضاع، فأعمل قول طالب الزيادة منهما، كما تقدم، فإذا تشاور الأبوان وتراضيا، بعد ذلك، على الفصال كان تراضيهما دليلا على أنهما رأيا من حال الرضيع ما يغنيه عن الزيادة، إذ لا يظن بهما التمالؤ على ضر الولد، ولا يظن إخفاء المصلحة عليهما، بعد تشاورهما، إذ لا يخفي عليهما حال ولدهما.

وقوله: ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم﴾ **انتقال** إلى حالة إرضاع الطفل غير والدته، إذا تعذر على الوالدة إرضاعه، لمرضها، أو تزوجها أو إن أبت ذلك حيث يجوز لها الإباء، كما تقدم في الآية السابقة، أي إن أردتم أن تطلبوا الإرضاع لأولادكم فلا إثم في ذلك،

والمخاطب بأردتم: الأبوان باعتبار تعدد الأبوين في الأمة وليس المخاطب خصوص الرجال، لقوله تعالى فيما سبق: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن﴾ فعلم السامع أن هذا الحكم خاص بحالة تراضي الأبوين على ذلك لعذر الأم، وبحالة فقد الأم. وقد علم من قوله: ﴿فلا جناح عليكم﴾ أن حالة التراضي هي المقصودة أولا، لأن نفي الجناح مؤذن بتوقعه، وإنما يتوقع ذلك إذا كانت الأم موجودة، وأريد صرف الابن عنها إلى موضع أخرى، لسبب مصطلح عليه، وهما لا يريدان ذلك إلا حيث يتحقق عدم الضر للابن، فلو علم ضر الولد لم يجز، وقد كانت العرب تسترضع لأولادها، لا سيما أهل الشرف. وفي الحديث: "واسترضعت في بني سعد".

والاسترضاع أصله طلب إرضاع الطفل، أي طلب أن ترضع الطفل غير أمه، فالسين والتاء في "تسترضعوا" للطلب ومفعوله محذوف، وأصله أن تسترضعوا مراضع لأولادكم، لأن الفعل يعدى بالسين والتاء- الدالين على الطلب- إلى المفعول المطلوب منه الفعل فلا يتعدى إلا إلى مفعول واحد، وما بعده يعدى إليه بالحرف وقد يحذف الحرف لكثرة الاستعمال، كما حذف في استرضع واستنجح، فعدي الفعل إلى المجرور على الحذف والإيصال، وفي الحديث واسترضعت في بني سعد ووقع في "الكشاف" ما يقتضي أن السين والتاء دخلتا على الفعل المهموز المتعدي إلى واحد فزادتاه تعدية لثان، وأصله أرضعت المرأة الولد، فإذا قلت: استرضعتها صار متعديا إلى مفعولين، وكأن وجهه أننا ننظر إلى الحدث المراد طلبه، فإن كان حدثا قاصرا، فدخلت عليه السين والتاء، عدي إلى مفعول واحد، نحو استنهضته فنهض، وإن كان متعديا فدخلت عليه السين والتاء، عدي إلى مفعولين، نحو استرضعتها فأرضعت، والتعويل على القرينة، إذ لا يطلب أصل الرضاع لا". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٤٠٨

(٢) التحرير والتنوير ٢/٤١٨

٦٧-"وقرأ ابن كثير ﴿آتيتم﴾ بترك همزة التعدية. فالمعنى عليه: إذا سلمتم ما جئتم، أي ما قصدتم، فالإتيان حينئذ مجاز عن القصد، كقوله تعالى: ﴿إذ جاء ربه بقلب سليم﴾ [الصافات:٨٤] وقال زهير:

وما كان من خير أتوه فإنما

توارثه آباء آبائهم قبل

وقوله: ﴿واتقوا الله﴾ تذييل للتخويف، والحث على مراقبة ما شرع الله، من غير محاولة ولا مكايدة، وقوله: ﴿ واعلموا أن الله﴾ تذكير لهم بذلك، وإلا فقد علموه. وقد تقدم نظيره آنفا.

[٢٣٤] ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير﴾

انتقال إلى بيان عدة الوفاة، بعد الكلام عن عدة الطلاق، وما اتصل بذلك من أحكام الإرضاع، عقب الطلاق، تقصيا لما به إصلاح أحوال العائلات، فهو عطف قصة على قصة،

ويتوفون مبني للمجهول، وهو من الأفعال التي التزمت العرب فيها البناء للمجهول: مثل عني واضطر، وذلك في كل فعل قد عرف فاعله ما هو، أو لم يعرفوا له فاعلا معينا. وهو من توفاه الله، أو توفاه الموت، فاستعمال التوفي منه مجاز، تنزيلا لعمر الحي منزلة حق الموت، أو الخالق الموت، فقالوا: توفي فلان كما يقال: توفى الحق ونظيره قبض فلان، وقبض الحق فصار المراد من توفي: مات، كما صار المراد من قبض وشاع هذا المجاز حتى صار حقيقة عرفية وجاء الإسلام فقال الله تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس﴾ [الزمر:٤٢] وقال: ﴿حتى يتوفاهن الموت﴾ [النساء:١٥] وقال: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت﴾ [السجدة:١١] فظهر الفاعل، المجهول عندهم، في مقام التعليم أو الموعظة، وأبقي استعمال الفعل مبينا للمجهول فيما عدا ذلك: إيجاز وتبعا للاستعمال.

وقوله: ﴿يتربصن بأنفسهن﴾ خبر الذين وقد حصل الربط بين المبتدأ والخبر بضمير ﴿يتربصن﴾ العائد إلى الأزواج، الذي هو مفعول الفعل المعطوف على الصلة، فهن أزواج المتوفين؛ لأن الضمير قائم مقام الظاهر، وهذا الظاهر قائم مقام المضاف إلى ضمير المبتدأ، بناء على مذهب الأخفش والكسائي: من الاكتفاء في الربط بعود الضمير". (١)

٦٨-"زوجها، إنك علي لكريمة وإني فيك لراغب.

فأما إنك علي لكريمة فقريب من صريح إرادة التزوج بها، وما هو بصريح، فإذا لم تعقبه مواعدة من أحدهما فأمره محتمل، وأما قوله إني فيك لراغب فهو بمنزلة صريح الخطبة وأمره مشكل، وقد أشار ابن الحاجب إلى إشكاله بقوله: "قالوا ومثل إني فيك لراغب أكثر هذه الكلمات تصريحا فينبغي ترك مثله" ويذكر عن محمد الباقر أن النبي صلى الله عليه وسلم عرض لأم سلمة في عدتها، من وفاة أبي سلمة، ولا أحسب ما ورى عنه صحيحا.

وفي "تفسير ابن عرفة": "قيل إن شيخنا محمد بن أحمد بن حيدرة، كان يقول: "إذا كان التعريض من أحد الجانبين فقط

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٤٢٠

وأما إذا وقع التعريض منهما فظاهر المذهب أنه كصريح المواعدة".
ولفظ النساء عام لكن خص منه ذوات الأزواج، بدليل العقل ويخص منه المطلقات الرجعيات بدليل القياس ودليل الإجماع، لأن الرجعية لها حكم الزوجة بإلغاء الفارق، وحكي القرطبي الإجماع على منع خطبة المطلقة الرجعية في عدتها، وحكى ابن عبد السلام عن مذهب مالك جواز التعريض لكل معتدة: من وفاة أو طلاق، وهو يخالف كلام القرطبي، والمسألة محتملة لأن للطلاق الرجعي شائبتين، وأجاز الشافعي التعريض في المعتدة بعدة وفاة، ومنعه في عدة الطلاق، وهو ظاهر ما حكاه في "الموطأ" عن القاسم بن محمد.
وقوله: ﴿أو أكننتم في أنفسكم﴾ الإكنان الإخفاء.
وفائدة عطف الإكنان على التعريض في نفي الجناح، مع ظهور أن التعريض لا يكون إلا عن عزم في النفس، فنفي الجناح عن عزم النفس المجرد ضروري من نفي الجناح عن التعريض، أن المراد التنبيه على أن العزم أمر لا يمكن دفعه ولا النهي عنه، فلما كان كذلك، وكان تكلم العازم بما عزم عليه جبلة في البشر، لضعف الصبر على الكتمان، بين اله موضع الرخصة أنه الرحمة بالناس، مع الإبقاء على احترام حالة العدة، مع بيان علة هذا الترخيص: وأنه يرجع إلى نفي الحرج، ففيه حكمة هذا التشريع الذي لم يبين لهم من قبل.
وأخر الإكنان، في الذكر، للتنبيه على أنه أفضل وأبقى على ما للعدة من حرمة، مع التنبيه على أنه نادر وقوعه، لأنه لو قدمه لكان **الانتقال** من ذكر الإكنان إلى ذكر التعريض جاريا على مقتضى ظاهر نظم الكلام: في أن يكون اللاحق زائد المعنى على ما يشمله الكلام السابق، فلم يتفطن السامع لهذه النكتة، فلما خولف مقتضى الظاهر علم السامع أن". (١)

٦٩-"ظاهر في المذكر، وقد غفل عن مواقع التذييل في آي القرآن كقوله: ﴿أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير﴾ [النساء:١٢٨].
ومعنى كون العفو أقرب للتقوى: أن العفو أقرب إلى صفة التقوى من التمسك بالحق؛ لأن التمسك بالحق لا ينافي التقوى لكنه يؤذن بتصلب صاحبه وشدته، والعفو يؤذن بسماحة صاحبه ورحمته، والقلب المطبوع على السماحة والرحمة، أقرب إلى التقوى من القلب الصلب الشديد، لأن التقوى تقرب بمقدار قوة الوازع، والوازع شرعي وطبيعي، وفي القلب المفطور على الرأفة والسماحة لين يزعه عن المظالم والقساوة، فتكون التقوى أقرب إليه لكثرة أسبابها فيه.
وقوله: ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ تذييل ثان، معطوف على التذييل الذي قبله، لزيادة الترغيب في العفو بما فيه من التفضل الدنيوي، وفي الطباع السليمة حب الفضل. فأمروا في هاته الآية بأن يتعاهدوا الفضل، ولا ينسوه؛ لأن نسيانه يباعد بينهم وبينه، فيضمحل منهم، وموشك أن يحتاج إلى عفو غيره عنه في واقعة أخرى، ففي تعاهده عون كبير على الإلف والتحابب، وذلك سبيل واضحة إلى الاتحاد والمؤاخاة والانتفاع بهذا الوصف عند حلول التجربة.
والنسيان هنا مستعار للإعمال، وقلة الاعتناء كما في قوله تعالى: ﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ [السجدة:١٤]

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٤٣١

وهو كثير في القرآن، وفي كلمة ﴿بينكم﴾ إشارة إلى هذا العفو، إذا لم ينس تعامل الناس به بعضهم مع بعض، وقوله: ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ تعليل للترغيب في عدم إهمال الفضل وتعريض بأن في العفو مرضاة الله تعالى، فهو يرى ذلك منا فيجازي عليه، ونظيره قوله: ﴿فإنك بأعيننا﴾ [الطور:٤٨].

[٢٣٨] ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾

الانتقال من غرض إلى غرض، في آي القرآن، لا تلزم له قوة ارتباط، لأن القرآن ليس كتاب تدريس يرتب بالتبويب وتفريع المسائل بعضها على بعض ولكنه كتاب تذكير، وموعظة فهو مجموع ما نزل من الوحي في هدي الأمة، وتشريعها وموعظتها، وتعليمها، فقد يجمع فيه الشيء للشيء، من غير لزوم ارتباط، وتفرع مناسبة، وربما كفى في ذلك نزول الغرض الثاني، عقب الغرض الأول، أو تكون الآية مأمورا بإلحاقها بموضع معين من". (١)

٧٠-"المنفق في سبيل الله، والتقتير على البخيل. وفي الحديث، اللهم أعط منفقا خلفا وممسكا تلفا، وفي ابن عطية عن الحلواني عن قالون عن نافع: "أنه لا يبالي كيف قرأ يبسط وبسطه بالسين أو بالصاد" أي لأنهما لغتان مثل الصراط والسراط، والأصل هو السين، ولكنها قلبت صادا في بصطه ويبصط لوجود الطاء بعدها، ومخرجها بعيد من مخرج السين؛ لأن **الانتقال** من السين إلى الطاء ثقيل بخلاف الصاد.

وقوله: ﴿وإليه ترجعون﴾ خبر مستعمل في التنبيه والتذكير بأن ما أعد لهم في الآخرة من الجزاء على الإنفاق في سبيل الله أعظم مما وعدوا به من الخير في الدنيا، وفيه تعريض بأن الممسك البخيل عن الإنفاق في سبيل الله محروم من خير كثير.

روى "أنه لما نزلت الآية جاء أبو الدحداح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أو أن الله يريد منا القرض؟ قال: "نعم يا أبا الدحداح"، قال: "أرني يدك" فناوله يده فقال: فإني أقرضت الله حائطا فيه ستمائة نخلة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كم من عذق رداح ودار فساح في الجنة لأبي الدحداح".

[٢٤٦] ﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين﴾

جملة: ﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل﴾ استئناف ثان بعد جملة: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم﴾ [البقرة:٢٤٣] سيق مساق الاستدلال لجملة: ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ [البقرة:١٩٠] وفيها زيادة تأكيد لفظاعة حال التقاعس عن القتال بعد التهيؤ في سبيل الله، والتكرير في مثله يفيد مزيد تحذير وتعريض بالتوبيخ؛ فإن المأمورين بالجهاد في قوله: ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ لا يخلون من نفر تعتريهم هواجس تثبطهم عن القتال، حبا للحياة ومن نفر تعترضهم خواطر تهون عليهم الموت عند مشاهدة أكدار الحياة، ومصائب المذلة، فضرب الله لهذين الحالين مثلين: أحدهما ما تقدم في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم﴾ والثاني قوله: ﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل﴾ وقد قدم أحدهما وأخر الآخر: ليقع التحريض على

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٤٤٣

القتال بينهما،

ومناسبة تقديم الأولى أنها تشنع حال الذين استسلموا واستضعفوا أنفسهم، فخرجوا". (١)

٧١-"القتال خيلوا أنهم محبون له ثم نكصوا عنه. ومن أحسن التأديب قول الراجز:

من قال لا في حاجة ... مسؤولة فما ظلم

وإنما الظالم من ... يقول لا بعد نعم

وهذه الآية أشارت إلى قصة عظيمة من تاريخ بني إسرائيل، لما فيها من العلم والعبرة، فإن القرآن يأتي بذكر الحوادث التاريخية تعليما للأمة بفوائد ما في التاريخ، ويختار لذلك ما هو من تاريخ أهل الشرائع، لأنه أقرب للغرض الذي جاء لأجله القرآن: هذه القصة هي حادث **انتقال** نظام حكومة بني إسرائيل من الصبغة الشورية، المعبر عنها عندهم بعصر القضاة، إلى الصبغة الملكية، المعبر عنها بعصر الملوك وذلك أنه لما توفي موسى عليه السلام في حدود سنة ١٣٨٠ قبل الميلاد المسيحي، خلفه في الأمة الإسرائيلية يوشع بن نون، الذي عهد له موسى في آخر حياته بأن يخلفه فلما صار أمر بني إسرائيل إلى يوشع جعل لأسباط بني إسرائيل حكاما يسوسونهم. ويقضون بينهم، وسماهم القضاة فكانوا في مدن متعددة، وكان من أولئك الحكام أنبياء، وكان هنالك أنبياء غير حكام، وكان كل سبط من بني إسرائيل يسيرون على ما يظهر لهم، وكان من قضائهم وأنبيائهم صمويل بن القانة، من سبط أفرايم، قاضيا لجميع بني إسرائيل، وكان محبوبا عندهم، فلما شاخ وكبر وقعت حروب بين بني إسرائيل والفلسطينيين وكانت سجالا بينهم، ثم كان الانتصار للفلسطينيين، فأخذوا بعض قرى بني إسرائيل: حتى إن تابوت العهد، الذي سيأتي الكلام عليه، أسره الفلسطينيون، وذهبوا به إلى "أشدود" بلادهم وبقي بأيديهم عدة أشهر، فلما رأت بنو إسرائيل ما حل بهم من الهزيمة، ظنوا أن سبب ذلك هو ضعف صمويل عن تدبير أمورهم، وظنوا أن انتظام أمر الفلسطينيين، لم يكن إلا بسبب النظام الملكي، وكانوا يومئذ يتوقعون هجوم ناحاش: ملك العمونيين عليهم أيضا، فاجتمعت إسرائيل وأرسلوا عرفاءهم من كل مدينة، وطلبوا من صمويل أن يقيم لهم ملكا يقاتل بهم في سبيل الله، فاستاء صمويل من ذلك، وحذرهم عواقب حكم الملوك قائلا إن الملك يأخذ بنيكم لخدمته وخدمة خيله، ويتخذ منكم من يركض أمام مراكبه، ويسخر منكم حراثين لحرثه، وعملة لعدد حربه، وأدوات مراكبه، ويجعل بناتكم عطارات وطباخات وخبازات، ويصطفى من حقولكم، وكرومكم، وزياتينكم، أجودها فيعطيها لعبيده، ويتخذكم عبيدا، فإذا صرختم بعد ذلك في وجه ملككم لا يستجيب الله لكم، فقالوا: لا بد لنا من ملك لنكون مثل سائر الأمم، وقال لهم: هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا: ﴿وما لنا ألا نقاتل﴾". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٤٦١

(٢) التحرير والتنوير ٢/٤٦٥

٧٢-"وفي الآية **انتقال** بديع إلى ذكر جند جالوت، والتصريح باسمه، وهو قائد من قواد الفلسطينيين اسمه في كتب اليهود جليات كان طوله ستة أذرع وشبرا، وكان مسلحا مدرعا، وكان لا يستطيع أن يبارزه أحد من بني إسرائيل، فكان إذا خرج للصف عرض عليهم مبارزته وعيرهم بجبنهم.

وقوله: ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله﴾ الآية، أي الذين لا يحبون الحياة ويرجون الشهادة في سبيل الله فلقاء الله هنا كناية عن الموت في مرضاة الله شهادة وفي الحديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه فالظن على بابه. وكم في قوله: ﴿كم من فئة﴾ خبرية لا محالة إذ لا موقع للاستفهام فإنهم قصدوا بقولهم هذا تثبيت أنفسهم وأنفس رفاقهم، ولذلك دعوا إلى ما به النصر وهو الصبر والمتوكل فقالوا: ﴿والله مع الصابرين﴾.

والفئة الجماعة من الناس مشتقة من الفيء وهو الرجوع، لأن بعضهم يرجع إلى بعض، ومنه سميت مؤخرة الجيش فئة، لأن الجيش يفيء إليها.

وقوله: ﴿ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا﴾ وهذا دعاؤهم حين اللقاء بطلب الصبر من الله، وعبروا عن إلهامهم إلى الصبر بالإفراغ استعارة لقوة الصبر والكثرة يتعاوران الألفاظ الدالة عليهما، كقول أبي كبير الهذلي:

كثير الهوى شتى النوى والمسالك

وقد تقدم نظيره، فاستعير الإفراغ هنا للكثرة مع التعميم والإحاطة وتثبيت الأقدام استعارة لعدم الفرار شبه الفرار والخوف بزلق القدم، فشبه عدمه بثبات القدم في المأزق.

وقد أشارت الآية في قوله: ﴿فهزموهم﴾ إلخ إلى انتصار بني إسرائيل على الفلسطينيين وهو انتصار عظيم كان به نجاح بني إسرائيل في فلسطين وبلاد العمالقة، مع قلة عددهم فقد قال مؤرخوهم إن طالوت لما خرج لحرب الفلسطينيين جمع جيشا فيه ثلاثة آلاف رجل، فلما رأوا كثرة الفلسطينيين حصل لهم ضنك شديد واختبأ معظم الجيش في جبل افرايم في المغارات والغياض والآبار، ولم يعبروا الأردن، ووجم طالوت واستخار صموئيل، وخرج للقتال فلما اجتاز نهر الأردن عد الجيش الذي معه فلم يجد إلا نحو ستمائة رجل، ثم وقعت مقاتلات كان النصر فيها لبني إسراءيل، وتشجع الذين جبنوا واختبأوا في المغارات وغيرها فخرجوا وراء الفلسطينيين وغنموا غنيمة كثيرة، وفي تلك الأيام من غير بيان في كتب اليهود لمقدار المدد بين الحوادث ولا تنصيص على المتقدم". (١)

٧٣-"منها والمتأخر ومع **انتقالات** في القصص غير متناسبة،وظهر داود بن يسي اليهودي إذا أوحى الله إلى صمويل أن يذهب إلى بيت يسي في بيت لحم ويمسح اصغر ابناء يسي ليكون ملكا على إسرائيل بعد حين، وساق الله داود إلى شاول "طالوت" بتقدير عجيب فخطى عند شاول، وكان داود من قبل راعي غنم أبيه، وكان ذا شجاعة ونشاطوحسن سمت، وله نبوغ في رمي المقلاع، فكان ذات يوم التقى الفلسطينين مع جيش طالوت وخرج زعيم من زعماء فلسطين اسمه جليات كما تقدم، فلم يستطع أحد مبارزته فانبرى له داود ورماه بالمقلاع فأصا بالحجر جبهته وأسقطه إلى الأرض واعتلاه

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٤٧٦

داود واخترط سيفه وقطع رأسه، فذهب به إلى شاول وانهزم الفلسطينيين، وزوج شاول ابنته المسماة ميكال من داود، وصار داود بعد حين ملكا عوض شاول، ثم آتاه الله النبوة فصار ملكا نبيا، وعلمه مما يشاء. ويأتي ذكر داود عند قوله تعالى: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ في سورة الأنعام[٨٣].

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾

ذيلت هذه الآية العظيمة، كل الوقائع العجيبة، أشارت بها الآيات السالفة: لتدفع عن السامع المتبصر ما يخامره من تطلب الحكمة في حدثان هذه الوقائع وأمثالها في هذا العالم ولكون مضمون هذه الآية عبرة من عبر الأكوان، وحكمة من حكم التاريخ، ونظم العمران التي لم يهتد إليها أحد قبل نزول هذه الآية، وقبل إدراك ما في مطاويها، عطفت على العبر الماضية كما عطف قوله: ﴿وقال لهم نبيهم﴾ [البقرة:٢٤٧] وما بعده من رؤوس الآي. وعدل عن التعارف في أمثالها من ترك العطف، وسلوك سبيل الاستئناف. وقرأ نافع، وأبو جعفر، ويعقوب "ولولا دفاع الله الناس" بصيغة المفاعلة، وقرأه الجمهور ﴿دفع﴾ بصيغة المجرد.

والدفاع مصدر دافع الذي هو مبالغة في دفع لا للمفاعلة، كقول موسى جابر الجنفي:

لا أشتهي يا قوم إلا كارها ... باب الأمير ولا دفاع الحاجب

وإضافته إلى الله مجاز عقلي: كما هو في قوله: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ [الحج:٣٨] أي يدفع لأن الذي يدفع حقيقة هو الذي يباشر الدفع في متعارف الناس وإنما". (١)

٧٤-"خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾ [البقرة:٢٥٤]

موقع هذه الآية مثل موقع: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا﴾ [البقرة:٢٤٥] الآية لأنه لما دعاهم لبذل نفوسهم للقتال في سبيل الله فقال: ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ [البقرة:٢٤٤] شفعه بالدعوة إلى بذل المال في الجهاد بقوله: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾ [البقرة:٢٤٥] على طريقة قوله: ﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ [لأنفال:٧٢] وكانت هذه الآية في قوة التذييل لآية ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا﴾ لأن صيغة هذه الآية أظهر في إرادة عموم الإنفاق المطلوب في الإسلام، فالمراد بالإنفاق هنا ما هو أعم من الإنفاق في سبيل الله، ولذلك حذف المفعول والمتعلق لقصد **الانتقال** إلى الأمر بالصدقات الواجبة وغيرها، وستجيء آيات في تفصيل ذلك.

وقوله: ﴿مما رزقناكم﴾ حث على الإنفاق واستحقاق فيه.

وقوله: ﴿من قبل أن يأتي يوم﴾ حث آخر لأنه يذكر بأن هنالك وقتا تنتهي الأعمال إليه ويتعذر الاستدراك فيه، واليوم هو يوم القيامة، وانتفاء البيع والخلة والشفاعة كناية عن تعذر التدارك للفائت، لأن المرء يحصل ما يعوزه بطرق هي المعاوضة المعبر عنها بالبيع، والإرتفاق من الغير وذلك بسبب الخلة، أو بسبب توسط الواسطة إلى من ليس بخليل.

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٤٧٧

والخلة – بضم الخاء– المودة والصحبة، ويجوز كسر الخاء ولم يقرأ به أحد وتطلق الخلة بالضم على الصديق تسمية بالمصدر فيستوي فيه الواحد وغيره والمذكر وغيره قال الحماسي:

ألا أبلغا خلتي راشدا ... وصنوي قديما إذا ما اتصل

وقال كعب: أكرم بها خلة، البيت.

فيجوز أن يراد هنا بالخلة المودة، ونفي المودة في ذلك لحصول أثرها وهوالدفع عن الخليل كقوله تعالى: ﴿واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا﴾ [لقمان:٣٣] ويجوز أن يكون نفي الخليل كناية عن نفي لازمه وهو النفع كقوله: ﴿يوم لا ينفع﴾ قال كعب بن زهير:

وقال كل خليل كنت آمله ... لا ألهينك إني عنك مشغول

وقرأ الجمهور: ﴿لا بيع فيه﴾ – وما بعده — بالرفع لأن المراد بالبيع والخلة والشفاعة". [١]

٧٥–"ويجوز أن يكون الكلام مستعملا في النهي عن أخذ المال الخبيث، فيكون الكلام منصرفا إلى غرض ثان وهو النهي عن أخذ المال الخبيث والمعنى لا تأخذوه، وعلى كلا الوجهين هو مقتض تحريم اللأخذ المال المعلومة على من هو بيده ولا يحله **انتقاله** إلى غيره.

والإغماض إطباق الجفن ويطلق مجازا على لازم ذلك، فيطلق تارة على الهناء والاستراحة لأن من لوازم الاغماض راحة النائم قال الأعشى:

عليك مثل الذي صليت فاغتمضي ... جفنا فإن لجنب المرء مضطجعا

أراد فاهنئي. ويطلق تارة علا لازمه من عدم الرؤية فيدل على التسامح في الأمر المكروه كقول الترماح:

لم يفتنا بالوتر قوم وللض ... يم رجال يرضون بالإغماض

فإذا أرادوا المبالغة في التغافل عن المكروه الشديد قالوا: أغمض عينه على قذى، وذلك لأن إغماض الجفن مع وجود القذى في العين. لقصد الراحة من تحرك القذى، قال عبد العزيز بن زرارة الكلائي١:

وأغمضت جفون على قذاها ... ولم أسمع إلى قا وقيل

والاستثناء في قوله: ﴿إلا أن تغمضوا فيه﴾ على الوجه الأول من جعل الكلام إخبارا، هو تقييد للنفي. وأما على الوجه الثاني من جعل النفي بمعنى النهي فهم من تأكيد الشيء بما يشبه ضده أما لا تأخذوه إلا إذا تغاضيتم عن النهي وتجاهلتموه. وقوله: ﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾ تذييل، أي شاكر لمن تصدق صدقة طيبة. وافتتحه باعلموا للاهتمام بالخبر كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه﴾ [البقرة:٢٢٣] أو نزل المخاطبون الذين نهوا عن الإنفاق من الخبيث منزلة من لا يعلم أن الله

–

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٤٨٩

١ الكلائي نسبة إلى الكلاء بوزن جبار محلة بالبصرة قرب الشاطي. وهذه الأبيات قالها بعد أن مكث عاما بباب معاوية لم يؤذن له ثم أذن له وأدناه وأولاه مصر، وقبله:

دخلت على معاوية ابن حرب ... ولكن بعد يأس من دخول

وما نلت الدخول عليه حتى ... حللت محلة الرجل الذليل". (١)

٧٦-"سبب نزولها فهو من تجويز الاجتهاد للنبي صلى الله عليه وسلم في الأحكام إذ قبل من ثقيف النزول على اقتضاء ما لهم من الربا عند أهل مكة، وذلك قبل أن ينزل قوله تعالى: ﴿وذروا ما بقي من الربا﴾ فيحتمل أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى الصلح مع ثقيف على دخولهم في الإسلام مع تمكينهم مما لهم قبل قريش من أموال الربا الثابتة في زممهم قبل التحريم مصلحة،إذ الشأن أن ما سبق التشريع لا ينقض كتقرير أنكحة المشركين، فلم يقره الله على ذلك وأمر بالانكفاف عن قبض مال الربا بعد التحريم ولو كان العقد قبل التحريم، ولذلك جعلهم على خيرة من أمرهم في الصلح الذي عقدوه. ودلت الآية على أن مجرد العقد الفاسد لا يوجب فوات التدارك إلا بعد القبض، ولذلك جاء قبلها "فله ما سلف" وجاء هنا: ﴿وذروا ما بقي من الربا﴾ - إلى قوله - ﴿وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم﴾

وهذه الآية أصل عظيم في البيوع الفاسدة تقتضي نقضها، **وانتقال** الضمان بالقبض، والفوات **بانتقال** الملك، والرجوع بها إلى رؤوس الأموال أو إلى القيم إن فاتت، لأن القيمة بدل من رأس المال.

ورؤوس الأموال أصولها، فهو من إطلاق الرأس على الأصل، وفي الحديث: "رأس الأمر الإسلام".

ومعنى ﴿لا تظلمون ولا تظلمون﴾ لا تأخذون مال الغير ولا يأخذ غيركم أموالكم.

وقرأ الجمهور ﴿فأذنوا﴾- بهمزة وصل وفتح الذال — أمرا من أذن، وقرأه حمزة وأبو بكر وخلف ﴿ فآذنوا﴾ بهمزة قطع بعدها ألف وبذال مكسورة — أمرا من آذن بكذا إذا أعلم به أي فآذنوا أنفسكم ومن حولكم.

[٢٨٠] ﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾

عطف على قوله: ﴿فلكم رؤوس أموالكم﴾ لأن ظاهر الجواب أنهم يسترجعونها معجلة ، إذ العقود قد فسخت. فعطف عليه حالة أخرى، والمعطوف عليه حالة مقدرة مفهومة لأن الجزاء يدل على التسبب، والأصل حصول المشروط عند الشرط. والمعنى وإن حصل ذو عسرة، أي غريم معسر.". (٢)

٧٧-"مواساة الفقير وإغاثة الملهوف، ووضح ذلك بما فيه عبرة للمعتبر، ثم عطف عليه التحذير من مضايقة المحتاجين إلى المواساة مضايقة الربا مع ما في تلك المعاملات من المفاسد، ثلث ببيان التوثقات المالية من الإشهاد، وما يقوم مقامه وهو الرهن والائتمان. وإن تحديد التوثق في المعاملات من أعظم وسائل بث الثقة بين المتعاملين، وذلك من شأنه تكثير

---

(١) التحرير والتنوير ٥٢٨/٢

(٢) التحرير والتنوير ٥٦١/٢

عقود المعاملات ودوران دولاب التمول.

والجملة استئناف ابتدائي، والمناسبة في **الانتقال** ظاهرة عقب الكلام على غرماء أهل الربا.

والتداين من أعظم أسباب رواج المعاملات لأن المقتدر على تنمية المال قد يعوزه المال فيضطر إلى التداين ليظهر مواهبه في التجارة أو الصناعة أو الزراعة، ولأن المترفه قد ينضب المال من بين يديه وله قبل به بعد حين، فإذا لم يتداين اختل نظام ماله، فشرع الله تعالى للناس بقاء التداين المتعارف بينهم كيلا يظنوا أن تحريم الربا والرجوع بالمتعاملين إلى رؤوس أموالهم إبطال للتداين كله. وأفاد ذلك التشريع بوضعه في تشريع آخر مكمل له وهو التوثق له بالكتابة والإشهاد.

والخطاب موجه للمؤمنين أي لمجموعهم، والمقصود منه خصوص المتداينين، والأخص بالخطاب هو المدين لأن من حق عليه أن يجعل دائنه مطمئن البال على ماله. فعلى المستقرض أن يطلب الكتابة وإن لم يسألها الدائن، ويؤخذ مما حكاه الله في سورة القصص عن موسى وشعيب، إذ استأجر شعيب موسى. فلما تراوضا على الإجارة وتعين أجلها قال موسى: "والله على ما نقول وكيل" فذلك إشهاد على نفسه لمؤاجره دون أن يسأله شعيب ذلك.

والتداين تفاعل، وأطلق هنا ـ مع أن الفعل صادر من جهة واحدة وهي جهة المسلف ـ لأنك تقول أدان منه فدانه، فالمفاعلة منظور فيها إلى المخاطبين هم مجموع الأمة؛ لأن في المجموع دائنا ومدينا، فصار المجموع مشتملا على جانبين. ولك أن تجعل المفاعلة على غير بابها كما تقول تداينت من زيد.

وزيادة قيد ﴿بدين﴾ إما لمجرد الإطناب، كما يقولون رأيته بعيني ولمسته بيدي، وإما ليكون معادا للضمير في قوله فاكتبوه، ولولا ذكره لقال فاكتبوا الدين فلم يكن النظم بذلك الحسن، ولأنه أبين لتنويع الدين إلى مؤجل وحال، قاله في "الكشاف"." (١)

٧٨-"ما شرعت لأجل الإشهاد والتوثق.

وقوله تعالى: ﴿وأشهدو﴾ أمر: قيل هو للوجوب، وهذا قول أبي موسى الأشعري، وابن عمر، وأبي سعيد الخدري، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، والضحاك، وعطاء، وابن جريج، والنخعي، وجابر بن زيد، وداوود الظاهري، والطبري. وقد أشهد النبي صلى الله عليه وسلم على بيعد عبد باعه للعداء بن خالد بن هوذة، وكتب في ذلك "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما اشترى العداء بن خالد بن هوذة من محمد رسول الله اشترى منه عبدا لا داء ولا غائلة ولا خبثة بيع المسلم للمسلم" وقيل: هو للندب وذهب إليه من السلف الحسن، والشعبي، وهو قول مالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد، وتمسكوا بالسنة: أن النبي صلى الله عليه وسلم باع ولم يشهد، قاله ابن العربي، وجوابه: أن ذلك في مواضع الائتمان، وسيجيء قوله تعالى: ﴿فإن أمن بعضكم بعضا﴾ [البقرة:٢٨٣] الآية وقد تقدم ما لابن عطية في توجيه عدم الوجوب وردنا له عند قوله تعالى: ﴿فاكتبوه﴾.

﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم﴾.

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٥٦٤

نهي عن المضارة وهي تحتمل أن يكون الكاتب والشهيد مصدرا للإضرار، أو أن يكون المكتوب له والمشهود له مصدرا للإضرار: لأن يضار يحتمل البناء للمعلوم وللمجهول، ولعل اختيار هذه المادة هنا مقصود، لاحتمالها حكمين، ليكون الكلام موجها فيحمل على كلا معنييه لعدم تنافيهما، وهذا من وجه الإعجاز.

والمضارة: إدخال الضر بأن يوقع المتعاقدان الشاهدين والكاتب في الحرم والخسارة، أو ما يجر إلى العقوبة، وأن يوقع الشاهدين أحد المتعاقدين في إشاعة حق أو تعب في الإجابة إلى الشهادة. وقد أخذ فقهاؤنا من هاته الآية أحكاما كثيرة تتفرع عن الإضرار: منها ركوب الشاهد من المسافة البعيدة، ومنها ترك استفساره بعد المدة الطويلة التي هي مظنة النسيان، ومنها استفساره استفسارا يوقعه في الاضطراب، ويؤخذ منها أنه ينبغي لولاة الأمور جعل جانب من مال بيت المال لدفع مصاريف انتقال الشهود وإقامتهم في غير بلدهم وتعويض ما سينالهم من ذلك الانتقال من الخسائر المالية في إضاعة عائلاتهم، إعانة على إقامة العدل بقدر الطاقة والسعة.

وقوله تعالى: ﴿وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم﴾ حذف مفعول تفعلوا وهو معلوم، لأنه الإضرار المستفاد من لا يضار مثل "اعدلوا هو أقرب" والفسوق: الإثم العظيم، قال تعالى: ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الأيمان﴾. [الحجرات:١١]." (١)

٧٩-"لأن الرهان لا تكون إلا مقبوضة، وإما للاحتراز عن الرهن للتوثقة في الديون في الحضر فيؤخذ من الإذن في الرهن أنه مباح فلذلك إذا سأله رب الدين أجيب إليه فدلت الآية على أن الرهن توثقة في الدين.

والآية دالة على مشروعية الرهن في السفر بتصريحها. وأما مشروعية الرهن في الحضر فلأن تعليقه هنا على حال السفر ليس تعليقا بمعنى التقييد بل هو تعليق بمعنى الفرض والتقدير، إذا لم يوجد الشاهد في السفر، فلا مفهوم للشرط لوروده مود بيان حالة خاصة لا للاحتراز، ولا تعتبر مفاهيم القيود إلا إذا سيقت مساق الاحتراز، ولذا لم يعتدوا بها إذا خرجت مخرج الغالب.

ولا مفهوم له في الانتقال عن الشهادة أيضا؛ إذ قد علم من الآية أ، الرهن معاملة لهم، فلذلك أحيلوا عليها عند الضرورة على معنى الإرشاد والتنبيه.

وقد أخذ مجاهد، والضحاك، وداود الظاهري، بظاهر الآية من تقييد الرهن بحال السفر، مع أن السنة أثبتت وقوع الرهن من الرسول صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه في الحضر.

والآية دليل على أن القبض من متممات الرهن شرعا، ولم يختلف العلماء في ذلك، وإنما اختلفوا في الأحكام الناشئة عن ترك القبض، فقال الشافعي: القبض شرط في صحة الرهن، لظاهر الآية، فلو لم يقارن عقدة الرهن قبض فسدت العقدة عنده، وقال محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة: لا يجوز الرهن بدون قبض، وتردد المتأخرون من الحنفية في مفاد هذه العبارة؛ فقال جماعة: هو عنده شرط في الصحة كقول الشافعي، وقال جماعة: هو شرط في اللزوم قريبا من قول مالك، واتفق الجميع على أن للراهن أن يرجع بعد عقد الرهن إذا لم يقع الحوز، وذهب مالك إلى أن القبض شرط في اللزوم، لأن الرهن عقد يثبت بالصيغة كالبيع، والقبض من لوازمه، فلذلك يجبر الراهن على تحويز المرتهن إلا أنه إذا مات الراهن أو أفلس

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٥٨١

قبل التحويز كان المرتهن أسوة الغرماء؛ إذ ليس له ما يؤثره على بقية الغرماء، والآية تشهد لهذا لأن الله سبحانه وتعالى جعل القبض وصفا للرهن، فعلم أن ماهية الرهن قد تحققت بدون القبض. وأهل تونس يكتفون في رهن الرباع والعقار برهن رسوم التملك، ويعدون ذلك في رهن الدين حوزا. وفي الآية دليل واضح على بطلان الانتفاع؛ لأن الله تعالى جعل الرهن عوضا عن الشهادة في التوثق فلا وجه للانتفاع، واشتراط الانتفاع بالرهن يخرجه عن كونه توثقا إلى ماهية البيع.

﴿فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي اؤتمن أمانته وليتق الله ربه﴾.". (١)

٨٠-"المصير﴾.

قال الزجاج: "لما ذكر الله سبحانه وتعالى أحكاما كثيرة وقصصا، ختمها بقوله: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه﴾ تعظيما لنبيه صلى الله عليه وسلم وأتباعه، وتأكيدا وفذلكة لجميع ذلك المذكور من قبل". يعني: أن هذا انتقال من المواعظ، والإرشاد، والتشريع، وما تخلل ذلك: مما هو عون على تلك المقاصد، إلى الثناء على رسوله والمؤمنين في إيمانهم بجميع ذلك إيمانا خالصا يتفرع عليه العمل؛ لأن الإيمان بالرسول والكتاب، يقتضي الامتثال لما جاء به من عمل. فالجملة استئناف ابتدائي وضعت في هذا الموقع لمناسبة ما تقدم، وهو انتقال مؤذن بانتهاء السورة لأنه لما انتقل من أغراض متناسبة إلى غرض آخر: هو كالحاصل والفذلكة، فقد أشعر بأنه استوفى تلك الأغراض. وورد في أسباب النزول أن قوله: ﴿آمن الرسول﴾ يرتبط بقوله: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه﴾ [البقرة: ٢٨٤] كما تقدم آنفا.

وأل في الرسول للعدل. وهو علم بالغلبة على محمد صلى الله عليه وسلم في وقت النزول قال تعالى: ﴿وهموا بإخراج الرسول﴾ [التوبة:١٣] و ﴿المؤمنون﴾ معطوف على ﴿الرسول﴾، والوقف عليه.

والمؤمنون ـ هنا ـ لقب للذين استجابوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فلذلك كان في جعله فاعلا لقوله: ﴿آمن﴾ فائدة، مع أنه لا فائدة في قولك: قام القائمون.

وقوله: ﴿كل آمن بالله﴾ جمع بعد التفصيل، وكذلك شأن ﴿كل﴾ إذا جاءت بعد ذكر متعدد في حكم، ثم إرادة جمعه في ذلك، كقول الفضل بن عباس اللهبي، بعد أبيات:

كل له نية في بغض صاحبه ... بنعمة الله نقليكم وتقلونا

وإذ كانت "كل" من الأسماء الملازمة للإضافة فإذا حذف المضاف إليه نونت تنوين عوض عن مفرد كما نبه عليه ابن مالك في "التسهيل". ولا يعكر عليه أن "كل" اسم معرب لأن التنوين قد يفيد الغرضين فهو من استعمال الشيء في معنييه فمن جوز أن يكون عطف ﴿المؤمنون﴾ عطف جملة وجعل ﴿المؤمنون﴾ مبتدأ وجعل ﴿كل﴾ مبتدأ ثانيا ﴿وآمن﴾ خبره، فقد شذ عن الذوق العربي.

وقرأ الجمهور ﴿وكتبه﴾ بصيغة جميع كتاب، وقرأه حمزة، والكسائي: وكتابه، بصيغة المفرد على أن المراد القرآن أو جنس

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٥٨٥

الكتاب. فيكون مساويا لقوله: ﴿وكتبه﴾ إذ المراد". (١)

٨١-"وقوله كذبوا بيان لدأبهم، استئناف بياني. وتخصيص آل فرعون بالذكر من بين بقية الأمم لأن هلكهم معلوم عند أهل الكتاب، بخلاف هلك عاد وثمود فهو عند العرب أشهر؛ ولأن تحدي موسى إياهم كان بآيات عظيمة فما أغنتهم شيئا تجاه ضلالهم؛ ولأنهم كانوا أقرب الأمم عهدا بزمان النبي صلى الله عليه وسلم فهو كقول شعيب ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ [هود:٨٩] وكقول الله تعالى للمشركين ﴿وإنها لبسبيل مقيم﴾ [الحجر:٧٦] وقوله ﴿وإنهما لبإمام مبين﴾ [الحجر:٧٩] وقوله ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون﴾ [الصافات:١٣٧- ١٣٨].

﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد [١٢] قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار [١٣]﴾

استئناف ابتدائي، **للانتقال** من النذارة إلى التهديد، ومن ضرب المثل لهم بأحوال سلفهم في الكفر، إلى ضرب المثل لهم بسابق أحوالهم المؤذنة بأن أمرهم صائر إلى زوال، وأن أمر الإسلام ستندك له صم الجبال. وجيء في هذا التهديد بأطنب عبارة وأبلغها؛ لأن المقام مقام إطناب لمزيد الموعظة، والتذكير بوصف يوم كان عليهم، يعلمونه. ﴿والذين كفروا﴾ [البقرة:٣٩] يحتمل أن المراد بهم المذكورون في قوله ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم﴾ [آل عمران:١١٦] فيجيء فيه ما تقدم والعدول عن ضير هم إلى الاسم الظاهر لاستقلال هذه النذارة.

والظاهر أن المراد بهم المشركون خاصة، ولذلك أعيد الاسم الظاهر، ولم يؤت بالضمير بقرينة قوله بعده ﴿قد كان لكم آية﴾ إلى قوله ﴿يرونهم مثليهم رأي العين﴾ وذلك مما شاهده المشركون يوم بدر.

وقد قيل: أريد بالذين كفروا خصوص اليهود، وذكروا لذلك سببا رواه الواحدي، في أسباب النزول: أن يهود يثرب كانوا عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مدة فلما أصاب المسلمين يوم أحد ما أصابهم من النكبة. نقضوا العهد وانطلق كعب بن الأشرف في ستين راكبا إلى أبي سفيان بمكة وقالوا لهم: لتكونن كلمتنا واحدة، فلما رجعوا إلى المدينة أنزلت هذه الآية.". (٢)

٨٢-"وهذا إعذار وموعظة وتهديد بالعقاب ما نهاهم الله عنه.

و ﴿المصير﴾ : هو الرجوع، وأريد به البعث بعد الموت وقد علم مثبتو البعث أنه لا يكون إلا إلى الله، فالتقديم في قوله: ﴿وإلى الله﴾ لمجرد الاهتمام، وهذا تعريض بالوعيد أكد به صريح التهديد الذي قبله.

﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السماوات وما في الأرض والله على كل شيء قدير﴾ [٢٩].

انتقال من التحذير المجمل إلى ضرب من ضروب تفصيله، وهو إشعار لمحذر باطلاع الله على ما يخفونه من الأمر.

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٥٩٤

(٢) التحرير والتنوير ٣/٣٤

وذكر الصدور هنا والمراد البواطن والضمائر: جريا على معروف اللغة من إضافة الخواطر النفسية إلى الصدر والقلب، لأن الانفعالات النفسانية وترددات التفكر ونوايا النفوس كلها يشعر لها بحركات في الصدور.

وزاد أو تبدوه فأفاد تعميم العلم تعليما لهم بسعة علم الله تعالى لأن مقام إثبات صفات الله تعالى يقتضي الإيضاح.

وجملة: ﴿ويعلم ما في السماوات وما في الأرض﴾ معطوفة على جملة الشرط فهي معمولة لفعل قل، وليست معطوفة على جواب الشرط: لأن علم الله بما في السماوات وما في الأرض ثابت مطلقا غير معلق على إخفاء ما في نفوسهم وإبدائه وما في الجملة من التعميم يجعلها في قوة التذييل.

وقوله: ﴿والله على كل شيء قدير﴾ إعلام بأنه مع العلم ذو قدرة على كل شيء، وهذا من التهديد؛ إذ المهدد لا يحول بينه وبين تحقيق وعيده إلا أحد أمرين: الجهل بجريمة المجرم، أو العجز عنه، فلما أعلمهم بعموم علمه، وعموم قدرته، علموا أن الله لا يفلتهم من عقابه.

وإظهار اسم الله دون ضميره فلم يقل وهو على كل شيء قدير: لتكون الجملة مستقلة فتجري مجرى المثل، والجملة لها معنى التذييل. والخطاب للمؤمنين تبعا لقوله: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين﴾ [آل عمران: ٢٨] الآية.

﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن". (١)

٨٣-"تود عدوي ثم تزعم أنني ... صديقك ليس النوك عنك بعازب

وجملة: ﴿والله غفور رحيم﴾ في قوة التذييل مثل جملة ﴿والله على كل شيء قدير﴾ [البقرة: ٢٨٤] المتقدمة. ولم يذكر متعلق للصفتين ليكون الناس ساعين في تحصيل أسباب المغفرة والرحمة.

﴿قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾ [٣٢]

عود إلى الموعظة بطريق الإجمال البحت: فذلكة للكلام، وحرصا على الإجابة، فابتدأ الموعظة أولا بمقدمة وهي قوله: ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا﴾ [آل عمران: ١٠] ثم شرع في الموعظة بقوله: ﴿قل للذين كفروا ستغلبون﴾ [آل عمران: ١٢] الآية وهو ترهيب ثم بذكر مقابلة في الترغيب بقوله: ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم﴾ [آل عمران: ١٥] الآية ثم بتأييد ما عليه المسلمون بقوله: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ آل عمران: ١٨] الآية وفي ذلك تفصيل كثير. ثم جاء بطريق المجادلة بقوله: ﴿فإن حاجوك﴾ [آل عمران: ٢٠] الآية ثم بترهيب بغير استدلال صريح ولكن بالإيماء إلى الدليل وذلك قوله: ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق﴾ [آل عمران: ٢١] ثم بطريق التهديد والإنذار التعريضي بقوله: ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ [آل عمران: ٢٦] الآيات. ثم أمر بالقطيعة في قوله: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء﴾ [آل عمران: ٢٨]. وختم بذكر عدم محبة الكافرين ردا للعجز على الصدر المتقدم في قوله: ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم﴾ [آل عمران: ١٠] الآية ليكون نفي المحبة عن جميع الكافرين، نفيا عن هؤلاء الكافرين المعينين.

---

(١) التحرير والتنوير ٧٦/٣

﴿إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ [٣٣]﴿ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم﴾ [٣٤].

انتقال من تمهيدات سبب السورة إلى واسطة التمهيد والمقصد، كطريقة التخلص، فهذا تخلص لمحاجة وفد نجران وقد ذكرناه في أول السورة، فابتدئ هنا بذكر آدم ونوح وهما أبو البشر أو أحدهما وذكر إبراهيم وهو أبو المقصودين بالتفضيل وبالخطاب. فأما آدم فهو أبو البشر باتفاق الأمم كلها إلا شذوذا من أصحاب النزعات الإلحادية الذين ظهروا في أوروبا واخترعوا نظيرة تسلسل أنواع الحيوان بعضها من بعض وهي نظيرة فائلة.". (١)

٨٤-"شيخ هرم لم يسبق له ولد وامرأة عاقر كذلك، ولعل هذا التكوين حصل بكون زكريا كان قبل هرمه ذا قوة زائدة لا تستقر بسببها النطفة في الرحم فلما هرم اعتدلت تلك القوة فصارت كالمتعارف، أو كان ذلك من أحوال في رحم امرأته ولذلك عبر عن هذا التكوين بجملة ﴿يفعل ما يشاء﴾ أي هو تكوين قدرة الله وأوجد أسبابه ومن أجل ذلك لم يقل هنا يخلق ما يشاء كما قاله في جانب تكوين عيسى.

وقوله: ﴿قال رب اجعل لي آية﴾ أراد آية على وقت حصول ما بشر به، وهل هو قريب أو بعيد، فالآية هي العلامة الدالة على ابتداء حمل زوجه. وعن السدي والربيع: آية تحقق كون الخطاب الوارد عليه وإرادا من قبل الله تعالى، وهو ما في إنجيل لوقا. وعندي في هذا نظر، لأن الأنبياء لا يلتبس عليهم الخطاب الوارد عليهم من الله ويعلمونه بعلم ضروري.

وقوله: ﴿آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾ جعل الله حبسة لسانه عن الكلام آية على الوقت الذي تحمل فيه زوجته، لأن الله صرف ماله من القوة في أعصاب الكلام المتصلة بالدماغ إلى أعصاب التناسل بحكمة عجيبة يقرب منها ما يذكر من سقوط بعض الإحساس لمن يأكل البلاذر لقوة الفكر. أو أمره بالامتناع من الكلام مع الناس إعانة على انصراف القوة من المنطق إلى التناسل، أي متى تمت ثلاثة الأيام كان ذلك أمارة ابتداء الحمل. قال الربيع جعل الله ذلك له عقوبة لتردده في صحة ما أخبره به الملك، وبذلك صرح في إنجيل لوقا، فيكون الجواب على هذا الوجه من قبيل أسلوب الحكيم لأنه سأل آية فأعطي غيرها.

وقوله: ﴿واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار﴾ أمر بالشكر. والذكر المراد به: الذكر بالقلب والصلاة إن كان قد سلب قوة النطق، أو الذكر اللساني إن كان قد نهي عنها فقط. والاستثناء في قوله إلا رمزا استثناء منقطع.

﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ [٤٢]﴿يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ [٤٣]

عطف على جملة: ﴿إذ قالت امرأت عمران﴾ . **انتقال** من ذكر أم مريم إلى ذكر مريم.

ومريم علم عبراني، وهو في العبرانية بكسر الميم، وهو اسم قديم سميت به أخت موسى عليه السلام. وليس في كتب النصارى

---

(١) التحرير والتنوير ٣/٨٢

ذكر لاسم أبي مريم أم عيسى ولا لمولدها". (١)

٨٥-"دون تأويل، أن ذلك يقوم مقام البعث، وأن قوله في حديث أبي هريرة ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون مدرج من أبي هريرة لأنه لم يروه غيره ممن رووا حديث نزول عيسى، وهم جمع من الصحابة، والروايات مختلفة وغير صريحة. ولم يتعرض القرآن في عد مزاياه إلى أنه ينزل في آخر الزمان.

والتطهير في قوله: ﴿ومطهرك﴾ مجازي بمعنى العصمة والتنزيه؛ لأن طهارة عيسى هي هي، ولكن لو سلط عليه أعداؤه لكان ذلك إهانة له.

وحذف متعلق كفروا لظهوره أي الذين كفروا بك وهم اليهود، لأن اليهود ما كفروا بالله بل كفروا برسالة عيسى، لأن عيسى لم يبعث لغيرهم فتطهيره لا يظن أنه تطهير من المشركين بقرينة السياق.

والفوقية في قوله: ﴿فوق الذين كفروا﴾ بمعنى الظهور والانتصار، وهي فوقية دنيوية بدليل قوله: ﴿إلى يوم القيامة﴾ .

والمراد بالذين اتبعوه: الحواريون ومن اتبعه بعد ذلك، إلى أن نسخت شريعته بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم.

وجملة ﴿ثم إلي مرجعكم﴾ عطف على جملة ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا﴾ إذ مضمون كلتا الجملتين من شأن جزاء الله متبعي عيسى والكافرين به، وثم للتراخي الرتبي؛ لأن الجزاء الحاصل عند مرجع الناس إلى الله يوم القيامة، مع ما يقارنه من الحكم بين الفريقين فيما اختلفوا فيه، أعظم درجة وأهم من جعل متبعي عيسى فوق الذين كفروا في الدنيا.

والظاهر أن هذه الجملة مما خاطب الله به عيسى، وأن ضمير مرجعكم، وما معه من ضمائر المخاطبين، عائد إلى عيسى والذين اتبعوه والذين كفروا به.

ويجوز أن يكون خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، فتكون ثم **للانتقال** من غرض إلى غرض، زيادة على التراخي الرتبي والتراخي الزمني.

والمرجع مصدر ميمي معناه الرجوع. وحقيقة الرجوع غير مستقيمة هنا فتعين أنه رجوع مجازي، فيجوز أن يكون المراد به البعث للحساب بعد الموت، وإطلاقة على هذا المعنى كثير في القرآن بلفظه وبمرادفه نحو المصير، ويجوز أن يكون مرادا به انتهاء إمهال الله إياهم في أجل أراده فينفذ فيهم مراده في الدنيا.". (٢)

٨٦-"استئناف ابتدائي **للانتقال** من دعائهم لكلمة الحق الجامعة لحق الدين، إلى الإنكار عليهم محاجتهم الباطلة للمسلمين في دين إبراهيم، وزعم كل فريق منهم أنهم على دينه توصلا إلى أن الذي خلف دينهم لا يكون على دين إبراهيم كما يدعي النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فالمحاجة فرع عن المخالفة في الدعوى. وهذه المحاجة عن طريق قياس المساواة في النفي، أو محاجتهم النبي في دعواه أنه على دين إبراهيم، محاجة يقصدون منها إبطال مساواة دينه لدين إبراهيم، بطريقة

---

(١) التحرير والتنوير ٣/٩٤

(٢) التحرير والتنوير ٣/١٠٩

قياس المساواة في النفي أيضا.

فيجوز أن تكون هذه الجملة من مقول القول المأمور به الرسول في قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا﴾ أي قل لهم: يا أهل الكتاب لم تحاجون. ويجوز أن يكون الاستئناف من كلام الله تعالى عقب أمره الرسول بأن يقول: ﴿تعالوا﴾ فيكون توجيه خطاب إلى أهل الكتاب مباشرة، ويكون جعل الجملة الأولى من مقول الرسول دون هذه لأن الأولى من شؤون الدعوة، وهذه من طرق المحاجة، وإبطال قولهم، وذلك في الدرجة الثانية من الدعوة. والكل في النسبة إلى الله سواء.

ومناسبة **الانتقال** من الكلام السابق إلى هذا الكلام نشأت من قوله: ﴿فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ [آل عمران: ٦٤] لأنه قد شاع فيما نزل من القرآن في مكة وبعدها أن الإسلام الذي جاء به محمد عليه السلام يرجع إلى الحنيفية دين إبراهيم كما تقدم تقريره في سورة البقرة وكما في سورة النحل [١٢٣] ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا﴾ وسيجيء أن إبراهيم كان حنيفا مسلما، وقد اشتهر هذا وأعلن بين المشركين في مكة، وبين اليهود في المدينة، وبين النصارى في وفد نجران، وقد علم أن المشركين بمكة كانوا يدعون أنهم ورثة شريعة إبراهيم وسدنة بيته، وكان أهل الكتاب قد ادعوا أنهم على دين إبراهيم، ولم يتبين لي أكان ذلك منهم ادعاء قديما أم كانوا قد تفطنوا إليه من دعوة محمد صلى الله عليه وسلم، فاستيقظوا لتقليده في ذلك، أم كانوا قالوا ذلك على وجه الإفحام للرسول حين حاجهم بأن دينه الحق، وأن الدين عند الله الإسلام فألجئوه إلى أحد أمرين: إما أن تكون الزيادة على دين إبراهيم غير مخرجة عن اتباعه، فهو مشترك الإلزام في دين اليهودية والنصرانية، وإما أن تكون مخرجة عن دين إبراهيم فلا يكون الإسلام تابعا لدين إبراهيم.

وأحسب أن ادعاءهم أنهم على ملة إبراهيم إنما انتحلوه لبث كل من الفريقين الدعوة إلى دينه بين العرب، ولاسيما النصرانية؛ فإن دعاتها كانوا يحاولون انتشارها بين العرب". (١)

٨٧-"فالبر هو الوفاء بما جاء به الإسلام مما يعرض للمرء في أفعاله، وقد جمع الله بينه وبين التقوى في قوله: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان﴾ [المائدة: ٢] فقابل البر بالإثم كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث النواس بن سمعان المتقدم آنفا.

وقوله: ﴿وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ تذييل قصد به تعميم أنواع الإنفاق، وتبيين أن الله لا يخفى عليه شيء من مقاصد المنفقين، وقد يكون الشيء القليل نفيسا بحسب حال صاحبه كما قال تعالى: ﴿والذين لا يجدون إلا جهدهم﴾ [التوبة: ٧٩].

وقوله: ﴿فإن الله به عليم﴾ مراد به صريحه أي يطلع على مقدار وقعه مما رغب فيه، ومراد به الكناية عن الجزاء عليه.

﴿كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين [٩٣] فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون [٩٤] قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ [٩٥].

---

(١) التحرير والتنوير ١١٨/٣

هذا يرتبط بالآي السابقة في قوله تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا﴾ [آل عمران: ٦٧] وما بينهما اعتراضات وانتقالات في فنون الخطاب.

وهذه حجة جزئية بعد الحجج الأصلية على أن دين اليهودية ليس من الحنيفية في شيء، فإن الحنيفية لم يكن ما حرم من الطعام بنص التوراة محرما فيها، ولذلك كان بنوا إسرائيل قبل التوراة على شريعة إبراهيم، فلم يكن محرما عليهم ما حرم من الطعام إلا طعاما حرمه يعقوب على نفسه. والحجة ظاهرة ويدل لهذا الارتباط قوله في آخرها: ﴿قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا﴾ [آل عمران: ٩٥].

ويحتمل أن اليهود مع ذلك طعنوا في الإسلام، وأنه لم يكن على شريعة إبراهيم، إذ أباح للمسلمين أكل المحرمات على اليهود، جهلا منهم بتاريخ تشريعهم، أو تضليلا من أحبارهم لعامتهم، تنفيرا عن الإسلام، لأن الأمم في سذاجتهم إنما يتعلقون بالمألوفات، فيعدونها كالحقائق، ويقيمونها ميزانا للقبول والنقد، فبين لهم أن هذا مما لا يلتفت إليه عند النظر في بقية الأديان، وحسبكم أن دينا عظيما وهو دين إبراهيم، وزمرة من الأنبياء من بنيه وحفدته، لم يكونوا يحرمون ذلك.". (١)

٨٨-"فاعل الخير أنعم على الله تعالى بنعمته مثل قوله: ﴿إن تقرضوا الله قرضا حسنا﴾ [التغابن: ١٧] فحذف المشبه ورمز إليه بما هو من لوازمه العرفية. وهو الكفر. على أن في القرينة استعارة مصرحة مثل ﴿ينقضون عهد الله﴾ [البقرة: ٢٧] وقد امتن الله علينا إذ جعل طاعتنا إياه كنعمة عليه تعالى، وجعل ثوابها شكرا، وترك ثوابها كفرا فنفاه. وسمى نفسه الشكور.

وقد عدي الكفران هنا إلى النعمة على أصل تعديته.

﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [١١٦].

استئناف ابتدائي للانتقال إلى ذكر وعيد المشركين بمناسبة ذكر وعد الذين آمنوا من أهل الكتاب.

وإنما عطف الأولاد هنا لأن الغناء في متعارف الناس يكون بالمال والولد، فالمال يدفع به المرء عن نفسه في فداء أو نحوه، والولد يدافعون عن أبيهم بالنصر، وقد تقدم القول في مثله في طالعه هذه السورة.

وكرر حرف النفي مع المعطوف في قوله: ﴿ولا أولادهم﴾ لتأكيد عدم غناء أولادهم عنهم لدفع توهم ما هو متعارف من أن الأولاد لا يقعدون عن الذب عن آبائهم.

ويتعلق ﴿من الله﴾ بفعل ﴿لن تغني﴾ على معنى من الابتدائية أي غناء يصدر من جانب الله بالعفو عن كفرهم.

وانتصب شيئا على المفعول المطلق لفعل ﴿لن تغني﴾ أي شيئا من غناء. وتنكير شيئا للتقليل.

وجملة ﴿وأولئك أصحاب النار﴾ عطف على جملة ﴿لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم﴾ . وجيء بالجملة معطوفة، على خلاف الغالب في أمثالها أن يكون بدون عطف، لقصد أن تكون الجملة منصبا عليها التأكيد بحرف إن فيكمل لها من أدلة تحقيق مضمونها خمسة أدلة هي: التأكيد بـ ﴿أن﴾ ، وموقع أسم الإشارة، والأخبار عنهم بأنهم أصحاب النار، وضمير

(١) التحرير والتنوير ٣/١٥٥

الفصل، ووصف خالدون.

﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث". (١)

٨٩-"﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط﴾ [١٢٠].

أرشد الله المؤمنين إلى كيفية تلقي أذى العدو: بأن يتلقوه بالصبر والحذر، وعبر عن الحذر بالاتقاء أي اتقاء كيدهم وخداعهم، وقوله: ﴿لا يضركم كيدهم شيئا﴾ أي بذلك ينتفي الضر كله لأنه أثبت في أول الآيات أنهم لا يضرون المؤمنين إلا أذى، فالأذى ضر خفيف، فلما انتفى الضر الأعظم الذي يحتاج في دفعه إلى شديد مقاومة من قتال وحراسة وإنفاق، كان انتفاء ما بقي من الضر هينا، وذلك بالصبر على الأذى إلى ما يوصل ضرا عظيما. وفي الحديث لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله يدعون له ندا وهو يرزقهم.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب ﴿لا يضركم﴾ بكسر الضاد وسكون الراء من ضاره يضيره بمعنى أضره. وقرأه ابن عامر، وحمزة، وعاصم، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف بضم الضاد وضم الراء مشددة من ضره يضره، والضمة ضمة أتباع لحركة العين عند الإدغام للتخلص من التقاء الساكنين: سكون الجزم وسكون الإدغام، ويجوز في مثله من المضموم العين في المضارع ثلاثة وجوه في العربية: الضم لإتباع حركة العين، والفتح لخفته، والكسر لأنه الأصل في التخلص من التقاء الساكنين، ولم يقرأ إلا بالضم في المتواتر.

﴿وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم[١٢١] إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ [١٢٢].

وجود حرف العطف في قوله: ﴿وإذ غدوت﴾ مانع من تعليق الظرف ببعض الأفعال المتقدمة مثل ﴿ودوا ما عنتم﴾ [آل عمران: ١١٨] ﴿ومثل يفرحوا بها﴾ [آل عمران: ١٢٠] وعليه فهو آت كما أتت نظائره في أوائل الآي والقصص القرآنية، وهو من عطف جملة على جملة وقصة على قصة وذلك انتقال اقتضابي فالتقدير: واذكر إذ غدوت. ولا يأتي في هذا تعلق الظرف بفعل مما بعده لأن قوله: ﴿تبوئ﴾ لا يستقيم أن يكون مبدأ الغرض، وقوله: ﴿همت﴾ لا يصلح لتعليق ﴿إذ غدوت﴾ لأنه مدخول إذ أخرى.

ومناسبة ذكر هذه الوقعة عقب ما تقدم أنها من أوضح مظاهر كيد المخالفين في الدين، والمنافقين، ولما كان شأن المنافقين وأهل يثرب واحدا، ودخيلتهما". (٢)

٩٠-"الهزيمة.

والشهداء هم الذين قتلوا يوم أحد، وعبر عن تقدير الشهادة بالاتخاذ لأن الشهادة فضيلة من الله، واقتراب من رضوانه،

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٧/٣

(٢) التحرير والتنوير ٢٠٤/٣

ولذلك قوبل بقوله: ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ أي الكافرين فهو في جانب الكفار، أي فقتلاكم في الجنة، وقتلاهم في النار، فهو كقوله: ﴿قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾ [التوبة: ٥٢].

والتمحيص: التنقية والتخلص من العيوب. والمحق: الإهلاك. وقد جعل الله تعالى مس القرح المؤمنين والكفار فاعلا فعلا واحدا: هو فضيلة في جانب المؤمنين، ورزية في جانب الكافرين، فجعله للمؤمنين تمحيصا وزيادة في تزكية أنفسهم، واعتبارا بمواعظ الله تعالى، وجعله للكافرين هلاكا، لأن ما أصابهم في بدر تناسوه، وما انتصروه في أحد يزيدهم ثقة بأنفسهم فيتوكلون؛ يظنون المسلمين قد ذهب بأسهم، على أن المؤمنين في ازدياد، فلا ينقصهم من قتل منهم، والكفار في تناقص فمن ذهب منهم نفد. وكذلك شأن المواعظ والنذر والعبر قد تكسب بعض النفوس كمالا وبعضها نقصا قال أبو الطيب:

فحب الجبان العيش أورده التقى ... وحب الشجاع العيش أورده الحربا

ويختلف القصدان والفعل واحد ... إلى أن نرى إحسان هذا لنا ذنبا

وقال تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥] وقال ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا﴾ [الإسراء: ٨٢] وهذا من بديع تقدير الله تعالى.

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ [١٤٢].

﴿أم﴾ هنا منقطعة، هي بمعنى بل **الانتقالية**، لأن هذا الكلام **انتقال** من غرض إلى آخر، وهي إذا استعملت منقطعة تؤذن بأن ما بعدها استفهام، لملازمتها للاستفهام، حتى قال الزمخشري والمحققون: إنها لا تفارقه، واستشهدوا على مفارقتها للاستفهام بشواهد تقبل التأويل.

فقوله: ﴿أم حسبتم﴾ عطف على جملة ﴿ولا تهنوا﴾ [آل عمران: ١٣٩] وذلك أنهم لما مسهم القرح فحزنوا واعتراهم الوهن حيث لم يشاهدوا مثل النصر الذي شاهدوه يوم بدر،". (١)

٩١-"بخلاف إضافة المصدر الصريح، وذلك جائز في باب كان في غير صيغ القصر، وأما في الحصر فيتعين تقديم المحصور.

والمراد من الذنوب جميعها، وعطف عليه بعض الذنوب وهو المعبر عنه هنا بالإسراف في الأمر، والإسراف هو الإفراط وتجاوز الحد، فلعله أريد به الكبائر من الذنوب كما نقل عن أبن عباس وجماعة، وعليه فالمراد بقوله: أمرنا، أي ديننا وتكليفنا، فيكون عطف خاص للاهتمام بطلب غفرانه، وتمحض المعطوف عليه حينئذ لبقية الذنوب وهي الصغائر. ويجوز عندي أن يكون المراد بالإسراف في المر التقصير في شأنهم ونظامهم فيما يرجع إلى أهبة القتال، والاستعداد له، أو الحذر من العدو، وهذا الظاهر من كلمة أمر، بأن يكونوا شكوا أن يكون ما أصابهم من هزيمتهم في الحرب مع عدوهم ناشئا عن سببين: باطن وظاهر، فالباطن هو غضب الله عليهم من جهة الذنوب، والظاهر هو تقصيرهم في الاستعداد والحذر، وهذا أولى من

---

(١) التحرير والتنوير ٣/٢٣٣

الوجه الأول.

وقوله: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة﴾ إعلام بتعجيل إجابة دعوتهم لحصول خيري الدنيا والآخرة، فثواب الدنيا هو الفتح والغنيمة، وثواب الآخرة هو ما كتب لهم من حسن عاقبة الآخرة، ولذلك وصفه بقوله: ﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ لأنه خير وأبقى، وتقدم الكلام على الثواب عند قوله تعالى في سورة البقرة [١٠٣] ﴿لمثوبة من عند الله خير﴾.

وجملة ﴿والله يحب المحسنين﴾ تذييل أي يحب كل محسن، وموقع التذييل يدل على أن المتحدث عنهم من الذين أحسنوا، فاللام للجنس المفيد معنى الاستغراق، وهذه من أكبر الأدلة على أن أل الجنسية إذا دخلت على جمع أبطلت منه معنى الجمعية، وأن الاستغراق المفاد من أل إذا كان مدخولها مفردا وجملة سواء.

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين [١٤٩] بل الله مولاكم وهو خير الناصرين﴾ [١٥٠].

استئناف ابتدائي للانتقال من التوبيخ واللوم والعتاب إلى التحذير، ليتوسل منه إلى معاودة التسلية، على ما حصل من الهزيمة، وفي ضمن ذلك كله، من الحقائق الحكمية والمواعظ الأخلاقية والعبر التاريخية، ما لا يحصل مريد إحصائه.

والطاعة تطلق على امتثال أمر الآمر وهو معروف، وعلى الدخول تحت حكم". (١)

٩٢-"المفعول الثاني لفعل الحسبان الأول، وهو محل الفائدة، من تشويق السامع إلى سماع المنهي عن حسبانه. وقرأ الجمهور فلا تحسبنهم: بفتح الباء الموحدة على أن الفعل لخطاب الواحد؛ وقرأ ابن كير، وأبو عمرو، ويعقوب بضم الباء الموحدة على أنه لخطاب الجمع، وحيث أنهما قرءا أوله بياء الغيبة فضم الياء يجعل فاعل يحسبن ومفعوله متحدين أي لا يحسبون أنفسهم، واتحاد الفاعل والمفعول للفعل الواحد من خصائص أفعال الظن كما هنا وألحقت بها أفعال قليلة، وهي: وجد وعدم وفقد.

وأما سين تحسبنهم فالقراءات مماثلة لما في سين ﴿يحسبن﴾ .

﴿ولله ملك السماوات والأرض والله على كل شيء قدير﴾ [١٨٩].

تذييل بوعيد بدل على أن الله لا يخفى عليه ما يكتمون من خلائقهم.

﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب[١٩٠] الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار[١٩١] ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار[١٩٢] ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار[١٩٣] ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد﴾ [١٩٤].

هذا غرض أنف بالنسبة لما تتابع من أغراض السورة، انتقل به من المقدمات والمقصد والتخللات بالمناسبات، إلى غرض

---

(١) التحرير والتنوير ٣/٢٤٦

جديد هو الاعتبار بخلق العوالم وأعراضها والتنويه بالذين يعتبرون بما فيها من آيات.

ومثل هذا **الانتقال** يكون إيذانا بانتهاء الكلام على أغراض السورة، على تفننها، فقد كان التنقل فيها من الغرض إلى مشاكله وقد وقع **الانتقال** الآن إلى غرض عام: وهو الاعتبار بخلق السماوات والأرض وحال المؤمنين في الاتعاض بذلك، وهذا النحو في **الانتقال** يعرض للخطيب ونحوه من أغراضه عقب إيفائها حقها إلى غرض آخر إيذانا بأنه أشرف على الانتهاء، وشأن القرآن أن يختم بالموعظة لأنها أهم أغراض الرسالة، كما وقع في ختام سورة البقرة.

وحرف إن للاهتمام بالخبر.". (١)

٩٣-"لأن تعدد الإماء يفضي إلى كثرة العيال في النفقة عليهن وعلى ما يتناسل منهن، ولذلك رد جماعة على الشافعي هذا الوجه بين مفرط ومقتصد.

وقد أغلظ في الرد أبو بكر الجصاص في أحكامه حتى زعم هذا غلط في اللغة، اشتبه به عال يعيل بعال يعول. واقتصد ابن العربي في رد هذا القول في كتاب الأحكام. وانتصر صاحب الكشاف للشافعي، وأورد عليهم أن ذلك لا يلاقي قوله تعالى ﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾ فإن تعدد الجواري مثل تعدد الحرائر فلا مفر من الإعالة على هذا التفسير. وأجيب عنه بجواب فيه تكلف.

وحكم هذه الآية مما أشار إليه قوله تعالى ﴿وبث منهما رجالا كثيرا ونساء﴾ [النساء:١].

﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا﴾ [٤]. جانبان مستضعفا في الجاهلية: اليتيم، والمرأة. وحقان مغبون فيهما أصحابهما: مال الأيتام ، ومال النساء، فلذلك حرسهما القرآن أشد الحراسة فابتدأ بالوصاية بحق المرأة في مال ينجر إليها لا محالة، وكان توسط حكم النكاح بين الوصايتين أحسن مناسبة تهيئ لعطف هذا الكلام.

فقوله ﴿وآتوا النساء﴾ عطف على قوله ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ [النساء:٢] والقول في معنى الإيتاء فيه سواء. وزاده اتصالا بالكلام السابق أن ما قبله أن ما قبله جرى على وجوب القسط في يتامى النساء، فكان ذلك مناسبة **الانتقال**. والمخاطب بالأمر في أمثال هذا كل من له نصيب في العمل بذلك، فهو خطاب لعموم الأمة على معنى تناوله لكل من له فيه من الأزواج والأولياء ثم ولاة الأمور الذين إليهم المرجع في الضرب على أيدي ظلمة أربابها. والمقصود بالخطاب ابتداء هم الأزواج، لكيلا يتذرعوا بحياء النساء وضعفهن وطلبهن مرضاتهم إلى غمص حقوقهن في أكل مهورهم، أو يجعلوا حاجتهن للتزوج لأجل إيجاد كافل لهن ذريعة لإسقاط المهر في النكاح، فهذا ما يمكن في أكل مهورهن، وإلا فلهن أولياء يطالبون الأزواج بتعيين المهور، ولكن دون الوصول إلى ولاة الأمور متاعب وكلف قد يملها صاحب الحق فيترك طلبه، وخاصة النساء ذوات الأزواج. والى كون الخطاب للأزواج ذهب ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، وابن جريج، فالآية على هذا قررت دفع

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠٧/٣

المهور وجعلته شرعا، فصار المهر ركنا من أركان النكاح في الإسلام،". (١)

٩٤-"المحاجير، ويعلموهم طرق الرشاد ما استطاعوا، ويذكروهم بأن المال مالهم، وحفظه لمصالحهم فإن في ذلك خيرا كثيرا، وهو بقاء الكرامة بين الأولياء ومواليهم، ورجاء انتفاع الموالي بتلك المواعظ في إصلاح حالهم حتى لا يكونوا كما قال:
إذا نهي السفيه جرى إليه
...
وخالف والسفيه إلى خلاف
وقد شمل القول المعروف كل قول له موقع حال مقاله. وخرج عنه كل قول منكر لا يشهد العقل ولا الخلق بمصادفته المحز، فالمعروف قد يكون مما يكرهه السفيه إذا كان فيه صلاح نفسه.
[٦] ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا﴾.
﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا﴾.
يجوز أن يكون جملة ﴿وابتلوا﴾ معطوفة على جملة ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾ لتنزيلها منها منزلة الغاية للنهي. فإن كان المراد من السفهاء هنالك خصوص اليتامى فيتجه أن يقال: لماذا عدل عم الضمير إلى الاسم الظاهر وعن الاسم الظاهر المساوي للأولى إلى التعبير بآخر أخص وهو اليتامى، ويجاب بأن العدول عن الإضمار لزيادة الإيضاح والاهتمام بالحكم، وأن العدول عن إعادة لفظ السفهاء إيذان بأنهم في حالة الابتلاء مرجو كمال عقولهم، ومتفائل بزوال السفاهة عنهم، لئلا يلوح شبه تناقض بين وصفهم بالسفه وإيناس الرشد منهم، وإن كان المراد من السفهاء هنالك أعم من اليتامى، وهو الأظهر، فيتجه أن يقال: ما وجه تخصيص حكم الابتلاء والاستئناس باليتامى دون السفهاء؟ ويجاب بأن الإخبار لا يكون إلا عند الوقت الذي يرجى فيه تغيير الحال، وهو مراهقة البلوغ، حين يرجى كمال العقل والتنقل من حال الضعف إلى حال الرشد، أما من كان سفهه في حين الكبر فلا يعرف وقت هو مظنة لانتقال حاله وابتلائه.
ويجوز أن تكون جملة ﴿وابتلوا﴾ معطوفة على جملة ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ [النساء:٢] لبيان كيفية الإيتاء ومقدماته، وعليه فالإظهار في قوله ﴿اليتامى﴾ لبعد ما بين المعاد والضمير، لو عبر بالضمير.". (٢)

٩٥-"أزواجهن.
ومن العلماء من قال: إن دخول الأمة ذات الزوج في ملك جديد غير ملك الذي زوجها من ذلك الزوج يسوغ لمالكها الجديد إبطال عقد الزوجية بينها وبين زوجها، كالتي تباع أو توهب أو تورث، فانتقال الملك عندهم طلاق. وهذا قول ابن

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٤
(٢) التحرير والتنوير ٢٨/٤

مسعود، وأبي بن كعب، وجابر بن عبد الله، وابن عباس، وسعيد، والحسن البصري، وهو شذوذ، فإن مالكها الثاني إنما اشتراها عالما بأنها ذات زوج، وكان الحامل لهم على ذلك تصحيح معنى الاستثناء، وإبقاء صيغة المضي على ظاهرها في قوله ﴿ملكت﴾ ، أي ما كن مملوكات لهم من قبل. والجواب عن ذلك أن المراد بقوله ﴿ملكت﴾ ما تجدد ملكها بعد أن كانت حرة ذات زوج. فالفعل مستعمل في معنى التجدد.

وقد نقل عن ابن عباس أنه تحير في تفسير هذه الآية، وقال لو أعلم أحدا يعلم تفسيرها لضربت إليه أكباد الإبل. ولعله يعني من يعلم تفسيرها عن النبي صلى الله عليه وسلم. وقد كان بعض المسلمين في الزمن الأول يتوهم أن أمة الرجل إذا زوجها من زوج لا يحرم على السيد قربانها، مع كونها ذات زوج. وقد رأيت منقولا عن مالك: أن رجلا من ثقيف كان فعل ذلك في زمان عمر، وأن عمر سأله عن أمته التي زوجها وهل يطؤها، فأنكر، فقال له: لو اعترفت لجعلتك نكالا.

وقوله ﴿كتاب الله عليكم﴾ تذييل، وهو تحريض على وجوب الوقوف عند كتاب الله، ف ﴿عليكم﴾ نائب مناب الزموا، وهو مصير بمعنى اسم الفعل، وذلك كثير في الظروف والمجرورات المنزلة منزلة أسماء الأفعال بالقرينة، كقولهم: إليك، ودونك، وعليك. و ﴿كتاب الله﴾ مفعوله مقدم عليه عند الكوفيين، أو يجعل منصوبا بعليكم محذوفا دل عليه المذكور بعده، على أنه تأكيد له، تخريجا على تأويل سيبويه في قوله الراجز:

يأيها المائح دلوي دونك

...

إني رأيت الناس يحمدونك

ويجوز أن يكون ﴿كتاب﴾ مصدرا نائبا مناب فعله، أي كتب الله ذلك كتابا، وعليكم متعلقا به.

﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين﴾.

عطف على قوله ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ [النساء:٢٣] وما بعده، وبذلك تلتئم". (١)

٩٦-"يلعنه لا نصير له. وهذا مقابل قوله في شأن المسلمين والله أعلم بأعدائكم ﴿وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا﴾ [النساء:٤٥].

[٥٥,٥٣] ﴿أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا﴾ .

أم للإضراب **الانتقالي**، وهي تؤذن بهمزة استفهام محذوفة بعدها، أي: بل ألهم نصيب من الملك فلا يؤتون الناس نقيرا. والاستفهام إنكاري حكمه حكم النفي. والعطف بالفاء على جملة ﴿لهم نصيب﴾ ، وكذلك إذن هي جزاء لجملة ﴿لهم نصيب﴾ ، واعتبر الاستفهام داخلا على مجموع الجملة وجزائها معا، لأنهم ينتفي إعطاؤهم الناس نفيرا على تقدير ثبوت الملك لهم لا على انتفائه. وهذا الكلام تهكم عليهم في انتظارهم أن يرجع إليهم ملك إسرائيل، وتسجيل عليهم بالبخل

---

(١) التحرير والتنوير ٤/٨٥

الذي لا يؤاتي من يرجون الملك. كما قال أبو الفتح البستي:

إذا ملك لم يكن ذا هبه

...

فدعه فدولته ذاهبه وشحهم

وبخلهم معروف مشهور.

والنقير: شكلة في النواة كالدائرة، يضرب بها المثل في القلة.

ولذلك عقب هذا الكلام بقوله ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ .

والاستفهام المقدر بعد أم هذه إنكار على حسدهم، وليس مفيدا لنفي الحسد لأنه واقع. والمراد بالناس النبي صلى الله عليه وسلم، والفضل النبوة، أو المراد به النبي والمؤمنون، والفضل الهدى والإيمان.

وقوله ﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب﴾ عطف على مقدر من معنى الاستفهام الإنكاري، وتوجيها للإنكار عليهم، أي فلا بدع فيما حسدوه إذ قد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة والملك.

وآل إبراهيم: أبناؤه وعقبه ونسله، وهو داخل في الحكم لأنهم إنما أعطوه لأجل كرامته عند الله ووعد الله إياه بذلك. وتعريف الكتاب تعريف الجنس، فيصدق بالمتعدد، فيشمل صحف إبراهيم، وصحف موسى، وما أنزل بعد ذلك. والحكمة:". (١)

٩٧-"وذلك من الأعراض التشريعية الكبرى التي تضمنتها هذه السورة، ولا يتعين تطلب المناسبة بينه وبين ما سبقه، فالمناسبة هي **الانتقال** من أحكام تشريعية إلى أحكام أخرى في أغراض أخرى. وهنا مناسبة، وهي أن ما استطرد من ذكر أحوال أهل الكتاب في تحريفهم الكلم عن مواضعه، وليهم ألسنتهم بكلمات فيها توجيه من السب، وافترائهم على الله الكذب، وحسدهم بإنكار فضل الله إذ آتاه الرسول والمؤمنين، كل ذلك يشتمل على خيانة أمانة الدين، والعلم، والحق، والنعمة، وهي أمانات معنوية، فناسب أن يعقب ذلك بالأمر بأداء الأمانة الحسية إلى أهلها ويتخلص إلى هذا التشريع.

وجملة ﴿إن الله يأمركم﴾ صريحة في الأمر والوجوب، مثل صراحة النهي في قوله في الحديث "إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم". وإن فيها لمجرد الاهتمام بالخبر لظهور أن مثل الخبر لا يقبل الشك حتى يؤكد لأنه إخبار عن إيجاد شيء لا عن وجوه، فهو والإنشاد سواء.

والخطاب لكل من يصلح لتلقي هذا الخطاب والعمل به من كل مؤتمن على شيء، ومن كل من تولى الحكم بين الناس في الحقوق.

والأداء حقيقته في تسليم ذات لمن يستحقها، يقال: أدى إليه كذا، أي دفعه وسلمه، ومنه أداء الدين. وتقدم في قوله تعالى ﴿من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك﴾ في سورة آل عمران [آل عمران:٧٥]. وأصل أدى أن يكون مضاعف أدى بالتخفيف بمعنى أوصل، لكنهم أهملوا أدى المخفف واستغنوا عنه بالمضاعف.

---

(١) التحرير والتنوير ٤/١٥٧

ويطلق الأداء مجازا على الاعتراف والوفاء بشيء، وعلى هذا فيطلق أداء الأمانة على قول الحق والاعتراف به وتبليغ العلم والشريعة على حقها. والمراد هنا هو الأول من المعنيين، ويعرف حكم غيره منهما أو من أحدهما بالقياس عليه قياس الأدون. والأمانة: الشيء الذي يجعله صاحبه عند شخص ليحفظه إلى أن يطلبه منه، وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى ﴿فليؤد الذي اؤتمن أمانته﴾ في سورة البقرة [٢٨٣]. وتطلق الأمانة مجازا على ما يجب على المكلف إبلاغه إلى أربابه ومستحقيه من الخاصة والعامة كالدين والعلم والعهود والجوار والنصيحة ونحوها، وضدها الخيانة في الإطلاقين. والأمر للوجوب. والأمانات من صيغ العموم. فلذلك قال جمهور العلماء فيمن أمنه رجل على شيء". (١)

٩٨-"المسلم الصادق الإقدام عند اتضاح المصالح، والتأمل عند التباس الأمر والصدر بعد عرض المشكلات على أصول الشريعة.

ومعنى ﴿إن كنتم تؤمنون﴾ مع أنهم خوطبوا ب ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ : أي إن كنتم تؤمنون حقا، وتلازمون واجبات المؤمن، ولذلك قال تعالى ﴿ذلك خير﴾ فجئ باسم الإشارة للتنويه، وهي إشارة إلى الرد المأخوذ من فردوه. وخير اسم لما فيه نفع، وهو ضد الشر، وهو اسم تفضيل مسلوب المفاضلة، والمراد كون الخير وقوة الحسن. والتأويل: مصدر أول الشيء إذا أرجعه، مشتق من آل يؤول إذا رجع، وهو هنا بمعنى أحسن ردا وصرفا. أخرج البخاري عن ابن عباس قال: نزل قوله ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه النبي في سرية.وأخرج في كتاب المغازي عن على قال: بعث النبي سرية فاستعمل عليها رجلا الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب، فقال أليس أمركم النبي أن تطيعوني قالوا بلى قال فأجمعوا حطبا فجمعوا، قال أوقدوا نارا، فأوقدوها، فقال ادخلوها، فهموا، وجعل بعضهم يمسك بعضا، ويقولون فررنا إلى النبي من النار، فما زالوا حتى خمدت النار فسكن غضبه فبلغ ذلك النبي فقال "لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، الطاعة في المعروف" .

فقول ابن عباس: نزلت في عبد الله بن حذافة، يحتمل أنه أراد نزلت حين تعيينه أميرا على السرية وأن الأمر الذي فيها هو الذي أوجب تردد أهل السرية في الدخول في النار، ويحتمل أنها نزلت بعد ما بلغ خبرهم رسول الله، فيكون المقصود منها هو قوله ﴿فإن تنازعتم في شيء﴾ الخ، ويكون ابتداؤها بالأمر بالطاعة لئلا يظن أن ما فعله ذلك الأمير يبطل الأمر بالطاعة.

[٦١,٦٠] ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا﴾.

استئناف ابتدائي للتعجيب من حال هؤلاء، ناسب **الانتقال** إليه من مضمون جملة ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾

(١) التحرير والتنوير ٤/١٦٠

[النساء"٥٩]. والموصول مراد به قوم معروفون وهم فريق من". (١)

٩٩-"الوجه تصلح لأن تكون تحريضا للمؤمنين على امتثال الرسول وانتفاء الحرج عنهم من أحكامه، فإنه لم يكلفهم إلا اليسر، كل هذا محمول على أن المراد بقتل النفوس أن يقتل أحد نفسه بنفسه.

وعندي أن ذكر ذلك هن من براعة المقطع تهيئة لانتقال الكلام إلى التحريض على الجهاد الآتي في قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾ [النساء:٧١] وأن المراد ب ﴿اقتلوا أنفسكم﴾ : ليقتل بعضكم بعضا فإن المؤمنين يقاتلون قومهم وأقاربهم من المشركين في الجهاد المأمور به بدليل قوله ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به﴾ الآية. والمراد بالخروج من الديار الهجرة، أي كتبنا عليهم هجرة من المدينة، وفي هذا تنويه بالمهاجرين والمجاهدين.

وقرأ الجمهور ﴿إلا قليل﴾ بالرفع على البدل من الواو في ﴿ما فعلوه﴾ على الاستثناء. وقرأه ابن عامر بالنصب على أحد وجهي الاستثناء من الكلام المنفي.

ومعنى ﴿ما يوعظون به﴾ علم من قوله ﴿فأعرض عنهم وعظهم﴾ [النساء:٦٣]، أي ما يؤمرون به أمر تحذير وترقيق، أي مضمون ما يوعظون لأن الوعظ هو الكلام والأمر، والمفعول هو المأمور به، أي لو فعلوا كل ما يبلغهم الرسول، ومن ذلك الجهاد والهجرة. وكونه خيرا أن فيه خير الدنيا لأن الله يعلم وهم لا يعلمون.

ومعنى كونه ﴿أشد تثبيتا﴾ يحتمل أنه التثبيت على الإيمان وبذلك فسروه ويحتمل عندي أنه أشد تثبيتا لهم، أي لبقائهم بين أعدائهم ولعزتهم وحياتهم الحقيقية فإنهم إنما يكرهون القتال استبقاء لأنفسهم، ويكرهون المهاجرة حبا لأوطانهم، فعلمهم الله أن الجهاد والتغرب فيه أو في غيره أشد تثبيتا لهم، لأنه يذود عنهم أعداءهم، كما قال الحصين بن الحمام:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد

...

لنفسي حياة مثل أن أتقدما

ومما دل على أن المراد بالخير خير الدنيا، وبالتثبيت التثبيت فيها، قوله عاطفا عليه ﴿وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما﴾ . وجملة ﴿وإذا لآتيناهم من لدنا﴾ معطوفة على جواب لو، والتقدير: لكان خيرا وأشد تثبيتا ولآتيناهم الخ، ووجود اللام التي تقع في جواب لو مؤذن بذلك. وأما واو العطف فلوصل الجملة المعطوفة بالجملة المعطوف عليها. وأما إذن فهي حرف جواب". (٢)

١٠٠-"ودلت مع على أن مكانة مدخولها أرسخ وأعرف، وفي الحديث الصحيح "أنت مع من أحببت" . والصديقون هم الذين صدقوا الأنبياء ابتداء، مثل الحواريين والسابقين الأولين من المؤمنين. وأما الشهداء فهم من قتلوا في سبيل إعلاء

---

(١) التحرير والتنوير ٤/١٦٩

(٢) التحرير والتنوير ٤/١٨٠

كلمة الله. والصالحون الذين لزمتهم الاستقامة.
وحسن فعل مراد به المدح ملحق بنعم ومضمن معنى التعجيب من حسنهم، وذلك شأن فعل بضم العين من الثلاثي أن يدل على مدح أو ذم بحسب مادته مع التعجب، وأصل الفعل حسن بفتحتين فحول إلى فعل بضم العين لقصد المدح والتعجب. و ﴿أولئك﴾ فاعل ﴿حسن﴾. و ﴿رفيقا﴾ تمييز، أي ما أحسنهم حسنوا من جنس الرفقاء. والرفيق يستوي فيه الواحد والجمع، وفي حديث الوفاة "الرفيق الأعلى". وتعريف الجزأين في قوله ﴿ذلك الفضل من الله﴾ يفيد الحصر وهو حصر ادعائي لأن فضل الله أنواع، وأصناف، ولكنه أريد المبالغة في قوة هذا الفضل، فهو كقولهم: أنت الرجل.
والتذييل بقوله ﴿وكفى بالله عليما﴾ للإشارة إلى أن الذين تلبسوا بهذه المنقبة، وإن لم يعلمهم الناس، فإن الله يعلمهم والجزاء بيده فهو يوفيهم الجزاء على قدر ما علم منهم، وقد تقدم نظيره في هذه السورة.
[٧٣,٧١] ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما﴾
استئناف وانتقال إلى التحريض على الجهاد بمناسبة لطيفة، فإنه انتقل من طاعة الرسول إلى ذكر أشد التكاليف، ثم ذكر الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وكان الحال أدعى إلى التنويه بشأن الشهادة دون بقية الخلال المذكورة معها الممكنة النوال. وهذه الآية تشير لا محالة إلى تهيئة غزوة من غزوات المسلمين، وليس في كلام السلف ذكر سبب نزولها، ولا شك أنها لم تكن أول غزوة لأن غزوة بدر وقعت قبل نزول هذه السورة، وكذلك غزوة أحد التي نزلت فيها سورة آل عمران، وليست نازلة في غزوة الأحزاب لأن قوله ﴿فانفروا ثبات﴾ يقتضي أنهم غازون لا مغزوون، ولعلها نزلت لمجرد التنبيه إلى قواعد الاستعداد لغزو العدو، والتحذير من". (١)

١٠١-"في معاملة هؤلاء ومعاملة الفريق المتقدم في قوله ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ [النساء:٩٠] أمر واحد، وهو تركهم إذا تركوا المؤمنين وسالموهم، وقتالهم إذا ناصبوهم العداء، إلا أن الله تعالى جعل الشرط المفروض بالنسبة إلى الأولين: أنهم يعتزلون المسلمين، ويلقون إليهم السلم، ولا يقاتلونهم، وجعل الشرط المفروض بالنسبة إلى هؤلاء أنهم لا يعتزلون المسلمين، ولا يلقون إليهم السلم، ولا يكفون أيديهم عنهم، نظرا إلى الحالة المترقبة من كل فريق من المذكورين. وهو افتنان بديع لم يبق معه اختلاف في الحكم ولكن صرح باختلاف الحالين، وبوصف ما في ضمير الفريقين.
والوجدان في قوله ﴿ستجدون آخرين﴾ بمعنى العثور والاطلاع، أي ستطلعون على قوم آخرين، وهو من استعمال وجد، ويتعدى إلى مفعول واحد، فقوله ﴿يريدون﴾ جملة في موضع الحال، وسيأتي بيان تصاريف استعمال الوجدان في كلامهم عند قوله تعالى ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا﴾ في سورة المائدة[٨٢].
وجيء باسم الإشارة في قوله ﴿وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا﴾ لزيادة تمييزهم.

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٢/٤

والسلطان المبين هو الحجة الواضحة الدالة على نفاقهم، فلا يخشى أن ينسب المسلمون في قتالهم إلى اعتداء وتفريق الجامعة.

[٩٢] ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما﴾ .

انتقال الغرض يعيد نشاط السامع بتفنن الأغراض، فانتقل من تحديد أعمال المسلمين مع العدو إلى أحكام معاملة المسلمين بعضهم مع بعض: من وجوب كف عدوان بعضهم على بعض.

والمناسبة بين الغرض المنتقل منه والمنتقل إليه: أنه قد كان الكلام في قتال المتظاهرين بالإسلام الذين ظهر نفاقهم، فلا جرم أن تتشوف النفس إلى حكم قتل". (١)

١٠٢-"الهجرة المرادة من هذه الآية: فقيل: الهجرة إلى المدينة، وقيل: الهجرة إلى الحبشة. واختلف في المعني بالموصول من قوله ﴿ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله﴾ . فعند من قالوا: إن المراد الهجرة إلى المدينة قالوا المراد بمن يخرج رجل من المسلمين كان بقي بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فلما نزل قوله تعالى ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم﴾ إلى قوله ﴿وكان الله عفوا غفورا﴾ [النساء:٩٧، ١٠٠] كتب بها النبي صلى الله عليه وسلم إلى المسلمين من أهل مكة، وكان هذا الرجل مريضا، فقال: إني لذو مال وعبيد، فدعا أبناءه وقال لهم: احملوني إلى المدينة. فحملوه على سرير، فلما بلغ التنعيم توفي، فنزلت هذه الآية فيه. وتعم أمثاله، فهي عامة في سياق الشرط لا يخصصها سبب النزول.

وكان هذا الرجل من كنانة، وقيل من خزاعة، وقيل من جندع، واختلف في اسمه على عشرة أقوال: جندب بن حمزة الجندعي، حندج بن ضمرة الليثي الخزاعي. ضمرة بن بغيض الليثي، ضمرة بن جندب الضمري، ضمرة بن ضمرة بن نعيم. ضمرة من خزاعة كذا. ضمرة بن العيص. العيص بن ضمرة بن زنباع، حبيب بن ضمرة، أكثم بن صيفي.

والذين قالوا: إنها الهجرة إلى الحبشة قالوا: إن المعني بمن يخرج من بيته خالدين حزام بن خويلد الأسدي ابن أخي خديجة أم المؤمنين، خرج مهاجرا إلى الحبشة فنهشته حية في الطريق فمات. وسياق الشرط يأبى هذا التفسير.

[١٠١,١٠٢] ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا﴾ .

انتقال إلى التشريع آخر بمناسبة ذكر السفر للخروج من سلطة الكفر، على عادة القرآن في تفنين أغراضه، والتماس

---

(١) التحرير والتنوير ٤/٢١٥

مناسباتها. والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. والضرب". (١)

١٠٣-"للجدل فعل مجرد أصلي، والمسموع منه جادل لأن الخصام يستدعي خصمين. وأما قولهم: جدله فهو بمعنى غلبه في المجادلة، فليس فعلا أصليا في الاشتقاق. ومصدر المجادلة: الجدال، قال تعالى ﴿ولا جدال في الحج﴾ [البقرة:١٩٧]. وأما الجدل بفتحتين فهو اسم المصدر، وأصله مشتق من الجدل، وهو الصرع على الأرض، لأن الأرض تسمى الجدالة بفتح الجيم يقال: جدله فهو مجدول.

وجملة ﴿يستخفون من الناس﴾ بيان ل ﴿يختانون﴾ . وجملة ﴿ولا يستخفون من الله﴾ حال، وذلك هو محل الاستغراب من حالهم وكونهم يختانون أنفسهم. والاستخفاء من الله مستعمل مجازا في الحياء، إذ لا يعتقد أحد يؤمن بالله أنه يستطيع أن يستخفي من الله.

وجملة ﴿وهو معهم﴾ حال من اسم الجلالة، والمعية هنا معية العلم والاطلاع. و ﴿إذ يبيتون﴾ ظرف، والتبييت جعل الشيء في البيات، أي الليل، مثل التصبيح، يقال: بيتهم العدو وصبحهم العدو وفي القرآن: ﴿لنبيتنه وأهله﴾ [النمل:٤٩] أي لنأتينهم ليلا فنقتلهم. والمبيت هنا هو ما لا يرضي من القول، أي دبروه وزوروه ليلا لقصد الإخفاء، كقول العرب: هذا أمر قضي بليل، أو تشور فيه بليل، والمراد هنا تدبير مكيدتهم لرمي البراء بتهمة السرقة.

وقوله ﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم﴾ استئناف أثاره قوله ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾ ، والمخاطب كل من يصلح للمخاطبة من المسلمين. والكلام جار مجرى الفرض والتقدير، أو مجرى التعريض ببعض بني ظفر الذين جادلوا عن بني أبيرق.

والقول في تركيب ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ تقدم في سورة البقرة[٨٥] عند قوله تعالى ﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم﴾ ، وتقدم نظيره في آل عمران[١١٩] ﴿ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم﴾ .

وأم في قوله ﴿أم من يكون عليهم وكيلا﴾ منقطعة للإضراب **الانتقالي**. ومن استفهام مستعمل في الإنكار.

والوكيل مضى الكلام عليه عند قوله تعالى ﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ في سورة آل عمران[١٧٣].

[١١٣,١١٠] ﴿ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا". (٢)

١٠٤-"يتطلبه من وجه لا يرضيه أو لا يبارك له فيه. والمراد بالثواب في الآية معناه اللغوي دون الشرعي، وهو الخير وما يرجع به طالب النفع من وجوه النفع، مشتق من ثاب بمعنى رجع. وعلى الاحتمالات كلها فجواب الشرط بمن كان يريد ثواب الدنيا محذوف، تدل عليه علته، والتقدير: نم كان يريد ثواب الدنيا فلا يعرض عن دين الله، أو فلا يصد عن سؤاله، أو فلا يقتصر على سؤاله، أو فلا يحصله من وجوه لا ترضي الله تعالى: كما فعل بنو أبيرق وأضرابهم، وليتطلبه من

---

(١) التحرير والتنوير ٤/٢٣٨

(٢) التحرير والتنوير ٤/٢٤٩

وجوه البر لأن فضل الله يسع الخيرين، والكل من عنده. وهذا كقول القطامي:

فمن تكن الحضارة أعجبته

...

فأي رجال بادية ترانا

التقدير: فلا يغترر أو لا يبتهج بالحضارة، فإن حالنا دليل على شرف البداوة.

[١٣٥] ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾ .

انتقال من الأمر بالعدل في أحوال معينة من معاملات اليتامى والنساء إلى الأمر بالعدل الذي يعم الأحوال كلها، وما يقارنه من الشهادة الصادقة، فإن العدل في الحكم وأداء الشهادة بالحق هو قوام صلاح المجتمع الإسلامي، والانحراف عن ذلك ولو قيد أنملة يجر إلى فساد متسلسل.

وصيغة ﴿قوامين﴾ دالة على الكثرة المراد لازمها، وهو عدم الإخلال بهذا القيام في حال من الأحوال.

والقسط العدل، وقد تقدم عند قوله تعالى ﴿قائما بالقسط﴾ في سورة آل عمران [١٨]. وعدل عن لفظ العدل إلى كلمة القسط لأن القسط كلمة معربة أدخلت في كلام العرب لدلالتها في اللغة المنقولة منها على العدل في الحكم، وأما لفظ العدل فأعم من ذلك، ويدل لذلك تعقيبه بقوله ﴿شهداء لله﴾ فإن الشهادة من علائق القضاء والحكم.

و ﴿لله﴾ ظرف مستقر حال من ضمير ﴿شهداء﴾ أي لأجل الله، وليست لام تعدية ﴿شهداء﴾ إلى مفعوله، ولم يذكر تعلق المشهود له بمتعلقه وهو وصف ﴿شهداء﴾ لإشعار الوصف بتعيينه، أي المشهود له بحق. وقد جمعت الآية أصلي التحاكم، وهما القضاء والشهادة.". (١)

١٠٥-"عن المنافقين بطريق الغيبة. وهذه آية جامعة للتحذير من موالاة الكافرين والمنافقين، ومن الوقوع في النفاق، لأن المنافقين تظاهروا بالإيمان ووالوا الكافرين. فالتحذير من موالاة الكافرين تحذير من الاستشعار بشعار النفاق، وتحذير من موالاة المنافقين الذين هم أولياء الكافرين. وتشهير بنفاق المنافقين، وتسجيل عليهم أن لا يقولوا: كنا نجهل أن الله لا يحب موالاة الكافرين.

والظاهر أن المراد بالكافرين هنا مشركوا مكة وأهل الكتاب من أهل المدينة، لأن المنافقين كانوا في الأكثر موالين لأهل الكتاب.

وقوله ﴿أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا﴾ استئناف بياني، لأن النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء مما يبعث الناس على معرفة جزاء هذا الفعل مع ما ذكرناه من قصد التشهير بالمنافقين والتسجيل عليهم، أي أنكم إن استمررتم على موالاة الكافرين جعلتم لله عليكم سلطانا مبينا، أي حجة واضحة على فساد إيمانكم، فهذا تعريض بالمنافقين.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٥/٤

فالاستفهام مستعمل في معنى التحذير والإنذار مجازا مرسلا.
وهذا السلطان هو حجة الرسول عليهم بأنهم غير مؤمنين فتجري عليهم أحكام الكفر، لأن الله عالم بما في نفوسهم لا يحتاج إلى حجة عليهم، أو أريد حجة افتضاحهم يوم الحساب بموالاة الكافرين، كقوله ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ [النساء:١٦٥]. ومن هنا يجوز أيضا أن يكون المراد من الحجة قطع حجة من يرتكب هذه الموالاة والإعذار إليه.
[١٤٦,١٤٦] ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما﴾ .
عقب التعريض بالمنافقين من قوله ﴿لا تتخذوا الكافرين أولياء﴾ كما تقدم بالتصريح بأن المنافقين أشد أهل النار عذابا. فإن الانتقال من النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء إلى ذكر حال المنافقين يؤذن بأن الذين اتخذوا الكافرين أولياء معدودون من المنافقين، فإن لانتقالات جمل الكلام معاني لا يفيدها الكلام لما تدل عليه من ترتيب الخواطر في الفكر.". (١)

١٠٦-"ومحمد، والنصارى يقولون: نؤمن بالله وبموسى وعيسى ونكفر بمحمد، فآمنوا بالله وبعض رسله ظاهرا وفرقوا بينه وبين بعض رسله.
والإرادة في قوله ﴿ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا﴾ إرادة حقيقية. والسبيل يحتمل أن يراد به سبيل النجاة من المؤاخذة في الآخرة توهما أن تلك حيلة تحقق لهم السلامة على تقدير سلامة المؤمنين، أو سبيل التنصل من الكفر ببعض الرسل، أو سبيلا بين دينين، وهذان الوجهان الأخيران يناسبان انتقالهم من الكفر الظاهر إلى النفاق، فكأنهما تهيئة للنفاق.
وهذا التفسير جار على ظاهر نظم الكلام، وهو أن يكون حرف العطف مشركا بين المتعاطفات في حكم المعطوف عليه، وإذ قد كان المعطوف عليه الأول صلة ل ﴿الذين﴾ ، كان ما عطف عليه صلات لذلك الموصول وكان ذلك الموصول صاحب تلك الصلات كلها.
ونسب إلى بعض المفسرين أنه جعل الواوات فيها بمعنى أو وجعل الموصول شاملا لفرق من الكفار تعددت أحوال كفرهم على توزيع الصلات المتعاطفة، فجعل المراد بالذين يكفرون بالله ورسله المشركين، والذين يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله قوما أثبتوا الخالق وأنكروا النبوءات كلها، والذين يقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض اليهود والنصارى. وسكت عن المراد من قوله ﴿ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا﴾ ، ولو شاء لجعل أولئك فريقا آخر: وهم المنافقون المترددون الذين لم يثبتوا على إيمان ولا على كفر، بل كانوا بين الحالين، كما قال الله تعالى ﴿مذبذبين بين ذلك﴾ [النساء:١٤٣]. والذي دعاه إلى هذا التأويل أنه لم يجد فريقا جمع هذه الأحوال كلها على ظاهرها لأن اليهود لم يكفروا بالله ورسله، وقد علمت أن تأويل الكفر بالله الكفر بالصفات التي يستلزم الكفر بها نفي الإلهية.
وهذا الأسلوب نادر الاستعمال في فصيح الكلام، إذ لو أريد ذلك لكان الشأن أن يقال: والذين يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله والذين يقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، كما قال ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل

---

(١) التحرير والتنوير ٤/٢٩١

الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا﴾ [الأنفال:٧٢].
وقوله ﴿أولئك هم الكافرون حقا﴾ الجملة خبر إن والإشارة إلى أصحاب تلك الصلة الماضية، وموقع الإشارة هنا لقصد التنبيه على أن المشار إليهم لاستحضارهم بتلك". (١)

١٠٧-"والاضطرار:الوقوع في الضرورة،وفعله غلب عليه البناء للمجهول،وقد تقدم بيانه عند قوله تعالى :﴿ثم أضطره إلى عذاب النار﴾ في سورة البقرة[١٢٦].
والمخمصة:المجاعة، اشتقت من الخمص وهو ضمور البطن،لأن الجوع يضمر البطون،وفي الحديث : "تغدو خماصا وتروح بطانا".
والتجانف:التمايل،والجنف:الميل،قال تعالى :﴿فمن خاف من موص جنفا﴾ [البقرة:١٨٢]الآية.والمعنى أنه اضطر غير مائل إلى الحرام من أخذ أموال الناس،أو من مخالفة الدين.وهذه حال قصد بها ضبط حالة الاضطرار في الإقدام والإحجام،فلا يقدم على أكل المحرمات إذا كان رائما بذلك تناولها مع ضعف الاحتياج،ولا يحجم عن تناولها إذا خشي أن يتناول ما في أيدي الناس بالغصب والسرقة، وهذا بمنزلة قوله :﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد﴾ [البقرة:١٧٣]،أي غير باغ ولا عاد على الناس ولا على أحكام الدين.
ووقع قوله :﴿فإن الله غفور رحيم﴾ مغنيا عن جواب الشرط لأنه كالعلة له،وهي دليل عليه، والاستغناء بمثله كثير في كلام العرب وفي القرآن.والتقدير:فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فله تناول ذلك إن الله غفور،كما قال في الآية نظيرتها ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾ [البقرة:١٧٣].
[٤] ﴿يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب﴾
﴿يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات﴾
إن كان الناس قد سألوا عما أحل لهم من المطعومات بعد أن سمعوا ما حرم عليهم في الآية السابقة، أو قبل أن يسمعوا ذلك،وأريد جوابهم عن سؤالهم الآن،فالمضارع مستعمل للدلالة على تجدد السؤال،أي تكرره أو توقع تكرره.وعليه فوجه فصل جملة ﴿يسألونك﴾ أنها استئناف بياني ناشئ عن جملة ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ [المائدة:٣]وقوله :﴿فمن اضطر في مخمصة﴾ [المائدة:٣]؛أو هي استئناف **ابتدائي:للانتقال** من بيان المحرمات إلى بيان الحلال بالذات،وإن كان السؤال لم يقع،وإنما قصد به توقع السؤال،كأنه قيل:إن سألوك،فالإتيان بالمضارع بمعنى الاستقبال لتوقع أن يسأل الناس". (٢)

(١) التحرير والتنوير ٤/٢٩٨
(٢) التحرير والتنوير ٥/٣٦

١٠٨-"يجوز أن يقال:هو دين الله، ولا يجوز أن يقال:قاله الله.

وقوله: ﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم﴾ **انتقال** من ذكر نقضهم لعهد الله إلى خيسهم بعهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم.وفعل ﴿لا تزال﴾ يدل على استمرار، لأن المضارع للدلالة على استمرار الفعل لأنه في قوة أن يقال:يدوم اطلاعك.فالاطلاع مجاز مشهور في العلم بالأمر، والاطلاع هنا كناية عن المطلع عليه، أي لا يزالون يخونون فتطلع على خيانتهم.

والاطلاع افتعال من طلع.والطلوع:الصعود.وصيغة الافتعال فيه لمجرد المبالغة، إذ ليس فعله متعديا حتى يصاغ له مطاوع، فاطلع بمنزلة تطلع، أي تكلف الطلوع لقصد الإشراف.

والمعنى:ولا تزال تكشف وتشاهد خائنة منهم.

والخائنة:الخيانة فهو مصدر على وزن الفاعلة، كالعاقبة، والطاغية.ومنه ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ [غافر:١٩] وأصل الخيانة:عدم الوفاء بالعهد، ولعل أصلها إظهار خلاف الباطن.وقيل:﴿خائنة﴾ صفة لمحذوف، أي فرقة خائنة.

واستثنى قليلا منهم جبلوا على الوفاء، وقد نقض يهود المدينة عهدهم مع رسول الله والمسلمين فظاهروا المشركين في وقعة الأحزاب، قال تعالى: ﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم﴾ [الأحزاب:٢٦]وأمره بالعفو عنهم والصفح حمل على مكارم الأخلاق، وذلك فيما يرجع إلى سوء معاملتهم للنبي صلى الله عليه وسلم.وليس المقام مقام ذكر المناواة القومية أو الدينية، فلا يعارض هذا قوله في براءة ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ [التوبة:٢٩] لأن تلك أحكام التصرفات العامة، فلا حاجة إلى القول بأن هذه الآية نسخت بآية براءة.

[١٤] ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾.

ذكر بعد ميثاق اليهود ميثاق النصارى.وجاءت الجملة على شبه اشتغال العامل عن المعمول بضميره حيث قدم متعلق ﴿أخذنا ميثاقهم﴾ وفيه اسم ظاهر، وجيء بضميره مع العامل للنكتة الداعية للاشتغال من تقرير المتعلق وتثبيته في الذهن إذ يتعلق الحكم باسمه". (١)

١٠٩-"زيادة تصريح بانتفاء الحكم المستثنى منه عن المستثنى في استعمال العرب، وعند جمهور العلماء.فليس المستثنى مسكوتا عنه كما يقول الحنفية، ولولا الاستثناء لما دلت الآية على سقوط عقوبة المحارب المذكورة.فلو قيل:فإن تابوا، لم تدل إلا على قبول التوبة منهم في إسقاط عقاب الآخرة.

ومعنى ﴿من قبل أن تقدروا عليهم﴾ ما كان قبل أن يتحقق المحارب أنه مأخوذ أو يضيق عليه الحصار أو يطارد في جميع البلاد ويضيق عليه، فإن أتى قبل ذلك كله طائعا نادما سقط عنه ما شرع الله له من العقوبة، لأنه قد دل على **انتقال** حاله

---

(١) التحرير والتنوير ٥/٦٣

من فساد إلى صلاح فلم تبق حكمة في عقابه.ولما لم تتعرض الآية إلى غرم ما أتلفه بحرابته علم أن التوبة لا تؤثر في سقوط ما كان قد اعتلق به من حقوق الناس من مال أو دم، لأن ذلك معلوم بأدلة أخرى.

وقوله: ﴿فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ تذكير بعد تمام الكلام ودفع لعجب من يتعجب من سقوط العقاب عنهم.فالفاء فصيحة عما دل عليه الاستثناء من سقوط العقوبة مع عظم الجرم، والمعنى:إن عظم عندكم سقوط العقوبة عمن تاب قبل أن يقدر عليه فاعلموا أن الله غفور رحيم.

وقد دل قوله ﴿فاعلموا﴾ على تنزيل المخاطبين منزلة من لا يعلم ذلك نظرا لاستعظامهم هذا العفو.وقد رأيت أن شأن فعل "اعلم" أن يدل على أهمية الخبر، كما سيأتي في قوله تعالى : ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ في سورة الأنفال[٢٤] وقوله فيها ﴿واعلموا أنما غنمتم﴾ [الأنفال:٤١]

[٣٥] ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون﴾ [٣٥]

اعتراض بين آيات وعيد المحاربين وأحكام جزائهم وبين ما بعده من قوله: ﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا﴾ [المائدة:٣٦] الآية.خاطب المؤمنين بالترغيب بعد أن حذرهم من المفاسد، على عادة القرآن في تخلل الأغراض بالموعظة والترغيب والترهيب، وهي طريقة من الخطابة لاصطياد النفوس، كما قال الحريري:"فلما دفنوا الميت، وفات قول ليت، أقبل شيخ من رباوة، متأبطا لهراوة،.فقال:لمثل هذا فليعمل العاملون"، إلخ.فعقب حكم المحاربين من أهل الكفر بأمر المؤمنين بالتقوى". (١)

١١٠-"أهل الأنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾

عطف على جملة: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ **[المائدة:٤٤]انتقالا** إلى أحوال النصارى لقوله: ﴿وليحكم أهل الأنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ ، ولبيان نوع آخر من أنواع إعراض اليهود عن الأحكام التي كتبها الله عليهم، فبعد أن ذكر نوعين راجعين إلى تحريفهم أحكام التوراة: أحدهما: ما حرفوه وترددوا فيه بعد أن حرفوه فشكوا في آخر الأمر والتجأوا إلى تحكيم الرسول؛ وثانيهما:ما حرفوه وأعرضوا عن حكمه ولم يتحرجوا منه وهو إبطال أحكام القصاص.وهذا نوع ثالث:وهو إعراضهم عن حكم الله بالكلية، وذلك بتكذيبهم لما جاء به عيسى عليه السلام.

والتقفية مصدر قفاه إذا جعله يقفوه، أي يأتي بعده.وفعله المجرد قفا بتخفيف الفاء ومعنى قفاه سار نحو قفاه، والقفا الظهر، أي سار وراءه.فالتقفية الإتباع مشتقة من القفا، ونظيره:توجه مشتقا من الوجه، وتعقب من العقب.وفعل قفي المشدد مضاعف قفا المخفف، والأصل في التضعيف أن يفيد تعدية الفعل إلى مفعول لم يكن متعديا إليه، فإذا جعل تضعيف﴿قفينا﴾ هنا معديا للفعل اقتضى مفعولين:أولهما:الذي كان مفعولا قبل التضعيف، وثانيهما:الذي عدي إليه الفعل، وذلك على طريقة باب كسا؛ فيكون حق التركيب:وقفيناهم عيسى بن مريم.ويكون إدخال الباء في ﴿بعيسى﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٩٦/٥

للتأكيد، مثل: ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾ [المائدة:٦]، وإذا جعل التضعيف لغير التعدية بل لمجرد تكرير وقوع الفعل، مثل جولت وطوفت كان حق التركيب:وقفيناهم بعيسى بن مريم.وعلى الوجه الثاني جرى كلام الكشاف فجعل باء ﴿بعيسى﴾ للتعدية.وعلى كلا الوجهين يكون مفعول ﴿قفينا﴾ محذوفا يدل عليه قوله: ﴿على آثارهم﴾ لأن فيه ضمير المفعول المحذوف، هذا تحقيق كلامه وسلمه أصحاب حواشيه.

وقوله: ﴿على آثارهم﴾ تأكيد لمدلول فعل ﴿قفينا﴾ وإفادة سرعة التقفية.وضمير ﴿آثارهم﴾ للنبيين والربانيين والأحبار.وقد أرسل عيسى على عقب زكريا كافل أمه مريم ووالد يحيى.ويجوز أن يكون معنى: ﴿على آثارهم﴾ على طريقتهم وهديهم.والمصدق:المخبر بتصديق مخبر، وأريد به هنا المؤيد المقرر للتوراة.

وجعلها: ﴿بين يديه﴾ لأنها تقدمته، والمتقدم يقال:هو بين يدي من تقدم و ﴿من التوراة﴾ بيان ﴿لما﴾. وتقدم الكلام على معنى التوراة والإنجيل في أول سورة آل عمران.". (١)

١١١-"بطلان معتقدهم وتعريض بهم بأنهم قد أشركوا بالله من حيث أرادوا التوحيد.

والضمير المقترن بإن ضمير الشأن يدل على العناية بالخبر الوارد بعده.ومعنى ﴿حرم الله عليه الجنة﴾ منعها منه، أي من الكون فيها.

والمأوى:المكان الذي يأوي إليه الشيء، أي يرجع إليه.

وجملة ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ يحتمل أيضا أن تكون من كلام المسيح عليه السلام على احتمال أن يكون قوله: ﴿إنه من يشرك بالله﴾ من كلامه، ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى تذييلا لكلام المسيح على ذلك الاحتمال، أو تذييلا لكلام الله تعالى على الاحتمال الآخر.والمراد بالظالمين المشركون ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ [لقمان:١٣]، أي ما للمشركين من أنصار ينصرونهم لينقذوهم من عذاب النار.

فالتقدير:ومأواه النار لا محالة ولا طمع له في التخلص منه بواسطة نصير، فبالأحرى أن لا يتخلص بدون نصير.

[٧٣,٧٤] ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم﴾.

استئناف قصد منه **الانتقال** إلى إبطال مقالة أخرى من مقالات طوائف النصارى، وهي مقالة"الملكانية المسمين بالجعاثليقية"، وعليها معظم طوائف النصارى في جميع الأرض.وقد تقدم بيانها عند قوله تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة﴾ من سورة النساء[١٧١]، وأن قوله فيها: ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ يجمع الرد على طوائف النصارى كلهم.والمراد ب﴿قالو﴾اعتقدوا فقالوا، لأن شأن القول أن يكون صادرا عن اعتقاد، وقد تقدم بيان ذلك.

ومعنى قولهم: ﴿إن الله ثالث ثلاثة﴾ أن ما يعرفه الناس أنه الله هو مجموع ثلاثة أشياء، وأن المستحق للاسم هو أحد تلك الثلاثة الأشياء.وهذه الثلاثة قد عبروا عنها بالأقانيم وهي أقنوم الوجود وهو الذات المسمى الله وسموه أيضا الأب؛ وأقنوم

---

(١) التحرير والتنوير ١٢١/٥

العلم وسموه أيضا الابن، وهو الذي اتحد بعيسى وصار بذلك عيسى إلها؛ وأقنوم الحياة وسموه الروح القدس.وصار جمهورهم، ومنهم الركوسية طائفة من نصارى العرب، يقولون:إنه لما اتحد بمريم حين حملها بالكلمة تألهت مريم أيضا، ولذلك اختلفوا هل". (١)

١١٢-"المطلوب، استعيرت للحجة والبرهان لشبهه بالمكان المطلوب على طريقة المكنية، وإثبات الآيات له تخييل، شبهت بآيات الطريق الدالة على المكان المطلوب.

وقوله: ﴿ثم انظر أنى يؤفكون﴾ "ثم"فيه للترتيب الرتبي والمقصود أن التأمل في بيان الآيات يقتضي الانتقال من العجب من وضوح البيان إلى أعجب منه وهو انصرافهم عن الحق مع وضوحه.و ﴿يؤفكون﴾ يصرفون، يقال:أفكه من باب ضرب، صرفه عن الشيء.

و ﴿أنى﴾ اسم استفهام يستعمل بمعنى من أين، ويستعمل بمعنى كيف.وهو هنا يجوز أن يكون بمعنى كيف"كما"في الكشاف، وعليه فإنما عدل عن إعادة﴿كيف﴾ تفننا.ويجوز أن تكون بمعنى من أين، والمعنى التعجيب من أين يتطرق إليهم الصرف عن الاعتقاد الحق بعد ذلك البيان البالغ غاية الوضوح حتى كان بمحل التعجيب من وضوحه.وقد علق . ﴿إني﴾ فعل ﴿انظر﴾ الثاني عن العمل وحذف متعلق ﴿يؤفكون﴾ اختصارا، لظهور أنهم يصرفون عن الحق الذي بينته لهم الآيات.

[٧٦] ﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم﴾ [٧٦]

لما كان الكلام السابق جاريا على طريقة خطاب غير المعين كانت جملة ﴿قل أتعبدون من دون الله﴾ الخ مستأنفة، أمر الرسول بأن يبلغهم ما عنوا به.

والظاهر أن ﴿أتعبدون﴾ خطاب لجميع من يعبد شيئا من دون الله من المشركين والنصارى.والاستفهام للتوبيخ والتغليط مجازا.

ومعنى ﴿من دون الله﴾ غير الله.فمن للتوكيد، و"دون"اسم للمغاير، فهو مرادف لسوى، أي أتعبدون معبودا هو غير الله، أي أتشركون مع الله غيره في الإلهية.وليس المعنى أتعبدون معبودا وتتركون عبادة الله.وانظر ما فسرنا به عند قوله تعالى: ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله﴾ في سورة الأنعام[١٠٨]، فالمخاطبون كلهم كانوا يعبدون الله ويشركون معه غيره في العبادة حتى الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم فهم ما عبدوا المسيح إلا لزعمهم أن الله حل فيه فقد عبدوا الله فيه، فشمل هذا الخطاب المشركين من العرب ونصارى العرب كلهم.". (٢)

١١٣-"الإسلام وهم معظم المنافقين وقد دل على ذلك قوله: ﴿يتولون الذين كفروا﴾، لأنه لا يستغرب إلا لكونه صادرا ممن أظهروا الإسلام فهذا انتقال لشناعة المنافقين.والرؤية في قوله: ﴿ترى﴾ بصرية، والخطاب للرسول.والمراد ب ﴿كثير

---

(١) التحرير والتنوير ١٧١/٥

(٢) التحرير والتنوير ١٧٦/٥

منهم﴾ كثير من يهود المدينة، بقرينة قوله﴿ترى﴾، وذلك أن كثيرا من ا ليهود بالمدينة أظهروا الإسلام نفاقا، نظرا لإسلام جميع أهل المدينة من الأوس والخزرج فاستنكر اليهود أنفسهم فيها، فتظاهروا بالإسلام ليكونوا عينا ليهود خيبر وقريظة والنضير.ومعنى ﴿يتولون﴾ يتخذونهم أولياء.والمراد بالذين كفروا مشركو مكة ومن حول المدينة من الأعراب الذين بقوا على الشرك.ومن هؤلاء اليهود كعب بن الأشرف رئيس اليهود فإنه كان مواليا لأهل مكة وكان يغريهم بغزو المدينة.وقد تقدم أنهم المراد في قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا﴾ [النساء:٥٠]

وقوله: ﴿أن سخط الله عليهم﴾ "أن"فيه مصدرية دخلت على الفعل الماضي وهو جائز، كما في الكشاف كقوله تعالى: ﴿ولولا أن ثبتناك﴾ [الاسراء:٧٤]، والمصدر المأخوذ هو المخصوص بالذم.والتقدير:لبئس ما قدمت بهم أنفسهم سخط الله عليهم، فسخط الله مذموم.وقد أفاد هذا المخصوص أن الله قد غضب عليهم غضبا خاصا لموالاتهم الذين كفروا، وذلك غير مصرح به في الكلام فهذا من إيجاز الحذف.ولك أن تجعل المراد بسخط الله هو اللعنة التي في قوله: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل﴾ [المائدة:٧٨].وكون ذلك مما قدمت لهم أنفسهم معلوم من الكلام السابق.

وقوله: ﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي﴾ إلخ الواو للحال من قوله: ﴿ترى كثيرا منهم﴾ باعتبار كون المراد بهم المتظاهرين بالإسلام بقرينة ما تقدم، فالمعنى:ولو كانوا يؤمنون إيمانا صادقا ما اتخذوا المشركين أولياء.والمراد بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وبما أنزل إليه القرآن، وذلك لأن النبي نهى المؤمنين عن موالاة المشركين، والقرآن نهى عن ذلك في غير ما آية.وقد تقدم في قوله: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ [آل عمران:٢٨].وقد جعل موالاتهم للمشركين علامة على عدم إيمانهم بطريقة القياس الاستثنائي، لأن المشركين أعداء الرسول فموالاتهم لهم علامة على عدم الإيمان به.وقد تقدم ذلك في سورة آل عمران.

وقوله: ﴿ولكن كثيرا منهم فاسقون﴾ هو استثناء القياس، أي ولكن كثيرا من بني". (١)

١١٤-"محالة.فتبين بهذا أن قوله: ﴿إن تبد لكم تسؤكم﴾ روعي فيه النهي عن المجموع لكراهية بعض ذلك المجموع.والمقصود من هذا استئناسهم للإعراض عن نحو هذه المسائل، وإلا فإن النهي غير مقيد بحال ما يسوءهم جوابه، بدليل قوله بعده: ﴿عفا الله عنها﴾ لأن العفو لا يكون إلا عن ذنب وبذلك تعلم أنه لا مفهوم للصفة هنا لتعذر تمييز ما يسوء عما لا يسوء.

وجملة ﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ عطف على جملة ﴿لا تسألوا﴾، وهي تفيد إباحة السؤال عنها على الجملة لقوله: ﴿وإن تسألوا﴾ فجعلهم مخيرين في السؤال عن أمثالها، وأن ترك السؤال هو الأولى لهم، **فالانتقال** إلى الإذن رخصة وتوسعة، وجاء ب ﴿إن﴾ للدلالة على أن الأولى ترك السؤال عنها لأن الأصل في"إن"أن تدل على أن الشرط نادر الوقوع أو مرغوب عن وقوعه.

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٢/٥

وقوله: ﴿حين ينزل القرآن﴾ ظرف.يجوز تعلقه بفعل الشرط وهو ﴿تسألوا﴾ ، ويجوز تعلقه بفعل الجواب وهو ﴿تبد لكم﴾ ، وهو أظهر إذ الظاهر أن حين نزول القرآن لم يجعل وقتا لإلقاء الأسئلة بل جعل وقتا للجواب عن الأسئلة.وتقديمه على عامله للاهتمام، والمعنى أنهم لا ينتظرون الجواب عما يسألون عنه إلا بعد نزول القرآن، لقوله تعالى: ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب﴾ إلى قوله . ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾ [الأنعام:٥٠] فنبههم الله بهذا على أن النبي يتلقى الوحي من علام الغيوب.فمن سأل عن شيء فلينتظر الجواب بعد نزول القرآن، ومن سأل عند نزول القرآن حصل جوابه عقب سؤاله.ووقت نزول القرآن يعرفه من يحضر منهم مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فإن له حالة خاصة تعتري الرسول صلى الله عليه وسلم يعرفها الناس، كما ورد في حديث يعلى بن أمية في حكم العمرة. ومما يدل لهذا ما وقع في حديث أنس من رواية ابن شهاب في صحيح مسلم: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى لهم صلاة الظهر فلما سلم قام على المنبر فذكر الساعة وذكر أن قبلها أمورا عظاما ثم قال:"من أحب أن يسألني عن شيء فليسألني عنه فو الله لا تسألونني عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا.ثم قال:لقد عرضت علي الجنة والنار آنفا في عرض هذا الحائط فلم أر كاليوم في الخير والشر" الحديث، فدل ذلك على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ذلك الحين في حال نزول وحي عليه". وقد جاء في رواية موسى بن أنس عن أبيه أنس أنه أنزل عليه حينئذ قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء﴾ الآية.فتلك لا محالة ساعة نزول القرآن واتصال الرسول عليه الصلاة والسلام . بعالم". (١)

١١٥-"و ﴿ما أنزل الله﴾: هو القرآن.وعطف ﴿وإلى الرسول﴾ لأنه يرشدهم إلى فهم القرآن.وأعيد حرف "الى" لاختلاف معنيي الإقبال بالنسبة إلى متعلقي ﴿تعالوا﴾ فإعادة الحرف قرينة على إرادة معنيي ﴿تعالوا﴾ الحقيقي والمجازي.
وقوله :﴿قالوا حسبنا﴾ أي كافينا، إذا جعلت"حسب"اسما صريحا و ﴿ما وجدنا﴾ هو الخبر، أو كفانا إذا جعلت"حسب"اسم فعل و ﴿ما وجدنا﴾ هو الفاعل.وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى: ﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ في سورة آل عمران[١٧٣].
و"على"في قوله: ﴿ما وجدنا عليه آباءنا﴾ مجاز في تمكن التلبس، وتقدم في قوله تعالى: ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ [البقرة:٥].
وقوله: ﴿أولو كان آباؤهم لا يعلمون﴾ الخ، تقدم القول على نظيره في سورة البقرة عند قوله: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم﴾ الآية.
وليس لهذه الآية تعلق بمسألة الاجتهاد والتقليد كما توهمه جمع من المفسرين، لأن هذه الآية في تنازع بين أهل ما أنزل الله وأهل الافتراء على الله، فأما الاجتهاد والتقليد في فروع الإسلام فذلك كله من اتباع ما أنزل الله.فتحميل الآية هذه المسألة إكراه للآية على هذا المعنى.
[١٠٥] ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم

(١) التحرير والتنوير ٥/٢٣٣

تعملون﴾.

تذييل جرى على مناسبة في الانتقال فإنه لما ذكر مكابرة المشركين وإعراضهم عن دعوة الخير عقبه بتعليم المسلمين حدود انتهاء المناظرة والمجادلة إذا ظهرت المكابرة، وعذر المسلمين بكفاية قيامهم بما افترض الله عليهم من الدعوة إلى الخير، فأعلمهم هنا أن ليس تحصيل أثر الدعاء على الخير بمسئولين عنه، بل على الداعي بذل جهده وما عليه إذا لم يصغ المدعو إلى الدعوة، كما قال تعالى: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [القصص:٥٦].

و ﴿عليكم﴾ اسم فعل بمعنى الزموا، وذلك أن أصله أن يقال:عليك أن تفعل كذا، فتكون جملة من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر، وتكون"على"دالة على استعلاء مجازي، كأنهم". (١)

١١٦-"وشاع هذا المعنى في كلامهم، قالوا:جاء بالشيء الفلاني على وجهه، فجعلوا الشيء مأتيا به، ووصفوه بأنه أتي به متمكنا من وجهه، أي من كمال أحواله.فحرف"على"للاستعلاء المجازي المراد منه التمكن، مثل ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ [البقرة:٥].والجار والمجرور في موضع الحال من ﴿الشهادة﴾ ، وصار ذلك قرينة على أن المراد من الوجه غير معناه الحقيقي.

وسنة الشهادة وكمالها هو صدقها والتثبت فيها والتنبه لما يغفل عنه من مختلف الأحوال التي قد يستخف بها في الحال وتكون للغفلة عنها عواقب تضيع الحقوق، أي ذلك يعلمهم وجه التثبت في التحمل والأداء وتوخي الصدق، وهو يدخل في قاعدة لزوم صفة اليقظة للشاهد.

وفي الآية إيماء إلى حكمة مشروعية الإعذار في الشهادة بالطعن أو المعارضة، فإن في ذلك ما يحمل شهود الشهادة على التثبت في مطابقة شهادتهم، للواقع لأن المعارضة والإعذار يكشفان عن الحق.

وقوله: ﴿أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾ عطف على قوله: ﴿أن يأتوا﴾ باعتبار ما تعلق به من المجرورات، وذلك لأن جملة ﴿يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ أفادت الإتيان بها صادقة لا نقصان فيها بباعث من أنفس الشهود، ولذلك قدرناه بمعنى أن يعلموا كيف تكون الشهادة الصادقة.فأفادت الجملة المعطوف عليها إيجاد وازع للشهود من أنفسهم، وأفادت الجملة المعطوفة وازعا هو توقع ظهور كذبهم.ومعنى ﴿أن ترد أيمان﴾ أن ترجع أيمان إلى ورثة الموصي بعد أيمان الشهيدين.فالرد هنا مجاز في الانتقال، مثل قولهم:قلب عليه اليمين، فيعيروا به بين الناس، فحرف"أو"للتقسيم، وهو تقسيم يفيد تفضيل ما أجملته الإشارة في قوله: ﴿ذلك أدنى﴾ الخ...وجمع ﴿الأيمان﴾ باعتبار عموم حكم الآية لسائر قضايا الوصايا التي من جنسها، على أن العرب تعدل عن التثنية كثيرا.ومنه قوله تعالى: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾ [التحريم:٤].

وذيل هذا الحكم الجليل بموعظة جميع الأمة فقال: ﴿واتقوا الله﴾ الآية.

وقوله :﴿واسمعوا﴾ أمر بالسمع المستعمل في الطاعة مجازا، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾ في هذه السورة[٧].

---

(١) التحرير والتنوير ٥/٢٤٠

وقوله: ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ تحريض على التقوى والطاعة لله فيما أمر". (١)

١١٧-"يأذن به الله، والتخلص من ذلك إلى شهادة عيسى على النصارى بأنه لم يأمرهم بتأليهه وعبادته.وهذا متصل في الغرض بما تقدم من قوله تعالى :﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ [المائدة:٨٢].فإن في تلك الآيات ترغيبا وترهيبا، وإبعادا وتقريبا، وقع **الانتقال** منها إلى أحكام تشريعية ناسبت ما ابتدعه اليهود والنصارى، وذلك من قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ [المائدة:٨٧] وتفنن **الانتقال** إلى هذا المبلغ، فهذا عود إلى بيان تمام نهوض الحجة على النصارى في مشهد يوم القيامة.ولقد جاء هذا مناسبا للتذكير العام بقوله تعالى: ﴿واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [المائدة:١٠٨].ولمناسبة هذا المقام التزم وصف عيسى بابن مريم كلما تكرر ذكره في هذه الآيات أربع مرات تعريضا بإبطال دعوى أنه ابن لله تعالى.

ولأنه لما تم الكلام على الاستشهاد على وصايا المخلوقين ناسب **الانتقال** إلى شهادة الرسل على وصايا الخالق تعالى، فإن الأديان وصايا الله إلى خلقه.قال تعالى :﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى﴾ [الشورى:١٣].وقد سماهم الله تعالى شهداء في قوله: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾ [النساء:٤١].

فقوله : ﴿يوم يجمع﴾ ظرف، والأظهر أنه معمول لعامل محذوف يقدر بنحو:اذكر يوم يجمع الله الرسل، أو يقدر له عامل يكون بمنزلة الجواب للظرف، لأن الظرف إذا تقدم يعامل معاملة الشرط في إعطائه جوابا.وقد حذف هذا العامل لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن من التهويل، تقديره يوم يجمع الله الرسل يكون هول عظيم لا يبلغه طول التعبير فينبغي طيه.ويجوز أن يكون متعلقا بفعل

﴿قالوا لا علم لنا..﴾ الخ، أي أن ذلك الفعل هو المقصود من الجملة المستأنفة.وأصل نظم الكلام:يجمع الله الرسل يوم القيامة فيقول الخ.فغير نظم الكلام إلى الأسلوب الذي وقع في الآية للاهتمام بالخبر، فيفتتح بهذا الظرف المهول وليورد الاستشهاد في صورة المقاولة بين الله والرسل.والمقصود من الكلام هو ما يأتي بقوله: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس﴾ [المائدة:١١٦] وما بينهما اعتراض.ومن البعيد أن يكون الظرف متعلقا بقوله :﴿لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [المائدة:١٠٨] لأنه لا جدوى في نفي الهداية في يوم القيامة، ولأن جزالة الكلام تناسب استئنافه، ولأن تعلقه به غير واسع المعنى.

ومثله قول الزجاج:إنه متعلق بقوله: ﴿واتقوا الله﴾ [المائدة:١٠٨] على أن ﴿يوم﴾". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٤/٥

(٢) التحرير والتنوير ٢٥٨/٥

١١٨-"أن القول الذي تحكى به المحاورات لا يلتزم فيه مراعاة صيغته لزمان وقوعه لأن زمان الوقوع يكون قد تعين بقرينة سياق المحاورة.

وقرأ الجمهور ﴿الغيوب﴾ بضم الغين.وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم بكسر الغين وهي لغة لدفع ثقل **الانتقال** من الضمة إلى الباء، كما تقدم في بيوت في قوله تعالى :﴿فأمسكوهن في البيوت﴾ من سورة النساء[١٥].

وفصل ﴿قالوا﴾ جريا على طريقة حكاية المحاورات،كما تقدم في قوله: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ في سورة البقرة[٣٠].

وقوله : ﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم﴾ ظرف، هو بدل من ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ بدل اشتمال، فإن يوم الجمع مشتمل على زمن هذا الخطاب لعيسى، ولذلك لم تعطف هذه الجملة على التي قبلها.والمقصود من ذكر ما يقال لعيسى يومئذ هو تقريع اليهود والنصارى الذين ضلوا في شأن عيسى بين طرفي إفراط بغض وإفراط حب.

فقوله: ﴿اذكر نعمتي عليك﴾ إلى قوله: ﴿لا أعذبه أحدا من العالمين﴾ [المائدة:١١٥] استئناس لعيسى لئلا يفزعه السؤال الوارد بعده بقوله: ﴿أأنت قلت للناس﴾ الخ...وهذا تقريع لليهود، وما بعدها تقريع للنصارى.والمراد من ﴿اذكر نعمتي﴾ الذكر بضم الذال وهو استحضار الأمر في الذهن.والأمر في قوله :﴿اذكر﴾ للامتنان، إذ ليس عيسى بناس لنعم الله عليه وعلى والدته.ومن لازمه خزي اليهود الذين زعموا أنه ساحر مفسد إذ ليس السحر والفساد بنعمة يعدها الله على عبده.ووجه ذكر والدته هنا الزيادة من تبكيت اليهود وكمدهم لأنهم تنقصوها بأقذع مما تنقصوه.

والظرف في قوله: ﴿إذ أيدتك بروح القدس﴾ متعلق بـ ﴿نعمتي﴾ لما فيها من معنى المصدر، أي النعمة الحاصلة في ذلك الوقت، وهو وقت التأييد بروح القدس.وروح القدس هنا جبريل على الأظهر.

والتأييد وروح القدس تقدما في سورة البقرة[٨٧] عند قوله: ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾.

وجملة ﴿تكلم﴾ حال من الضمير المنصوب بـ ﴿أيدتك﴾ وذلك أن الله ألقى الكلام من الملك على لسان عيسى وهو في المهد، وفي ذلك تأييد له لإثبات نزاهة تكونه، وفي ذلك نعمة عليه، وعلى والدته إذ ثبتت براءتها مما اتهمت به.

والجار والمجرور في قوله: ﴿في المهد﴾ حال من ضمير ﴿تكلم﴾. و ﴿كهلا﴾". (١)

١١٩-"وجملة ﴿وأجل مسمى عنده﴾ معترضة بين جملة ﴿ثم قضى أجلا﴾. وجملة ﴿ثم أنتم تمترون﴾ ثم أنتم تمترون(.وفائدة هذا الاعتراض إعلام الخلق بأن الله عالم آجال الناس ردا على قول المشركين: ﴿ما يهلكنا إلا الدهر﴾ [الجاثية:٢٤].

وقد خولفت كثرة الاستعمال في تقديم الخبر الظرف على كل مبتدأ نكرة موصوفة، نحو قوله تعالى: ﴿ولي نعجة واحدة﴾ [ص:٢٣]، حتى قال صاحب الكشاف:"إنه الكلام السائر، فلم يقدم الظرف في هذه الآية لإظهار الاهتمام بالمسند إليه حيث خولف الاستعمال الغالب من تأخيره فصار بهذا التقديم تنكيره مفيدا لمعنى التعظيم، أي وأجل عظيم مسمى عنده".

---

(١) التحرير والتنوير ٥/٢٦٠

ومعنى ﴿مسمى﴾ معين، لأن أصل السمة العلامة التي يتعين بها المعلم.والتعيين هنا تعيين الحد والوقت.

والعندية في قوله: ﴿عنده﴾ عندية العلم، أي معلوم له دون غيره.فالمراد بقوله: ﴿وأجل مسمى﴾ أجل بعث الناس إلى الحشر، فإن إعادة النكرة بعد نكرة يفيد أن الثانية غير الأول ى، فصار:المعنى ثم قضى لكم أجلين:أجلا تعرفون مدته بموت صاحبه، وأجلا معين المدة في علم الله.

فالمراد بالأجل الأول عمر كل إنسان، فإنه يعلمه الناس عند موت صاحبه، فيقولون:عاش كذا وكذا سنة، وهو وإن كان علمه لا يتحقق إلا عند انتهائه فما هو إلا علم حاصل لكثير من الناس بالمقايسة.والأجل المعلوم وإن كان قد انتهى فإنه في الأصل أجل ممتد.

والمراد بالأجل الثاني ما بين موت كل أحد وبين يوم البعث الذي يبعث فيه جميع الناس، فإنه لا يعلمه في الدنيا أحد ولا يعلمونه يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم﴾ [يونس:٤٥]، وقال: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾ [الروم:٥٥].

وقوله: ﴿ثم أنتم تمترون﴾ عطفت على جملة ﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ ، فحرف ﴿ثم﴾ للتراخي الرتبي كغالب وقوعها في عطف الجمل **لانتقال** من خبر إلى أعجب منه، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ [الأنعام:١﴾، أي فالتعجيب حقيق ممن يمترون في أمر البعث مع علمهم بالخلق الأول وبالموت.والمخاطب بقوله:". (١)

١٢٠-"فصلت، لأنها تتنزل منها منزلة التوكيد لأن انفراده بالإلهية في السماوات و في الأرض مما يقتضي علمه بأحوال بعض الموجودات الأرضية.

ولا يجوز تعليق ﴿في السماوات وفي الأرض﴾ بالفعل في قوله: ﴿يعلم سركم﴾ لأن سر الناس وجهرهم وكسبهم حاصل في الأرض خاصة دون السماوات، فمن قدر ذلك فقد أخطأ خطأ خفيا.

وذكر السر لأن علم السر دليل عموم العلم، وذكر الجهر لاستيعاب نوعي الأقوال.والمراد بـ ﴿ما تكسبون﴾ جميع الاعتقادات والأعمال من خير وشر فهو تعريض بالوعد والوعيد.

والخطاب لجميع السامعين؛ فدخل فيه الكافرون، وهم المقصود الأول من هذا الخطاب، لأنه تعليم وإيقاظ بالنسبة إليهم وتذكير بالنسبة إلى المؤمنين.

[٤] ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾

هذا **انتقال** إلى كفران المشركين في تكذيبهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن أقيمت عليهم الحجة ببطلان كفرهم في أمر الشرك بالله في الإلهية، وقد عطف لأن الأمرين من أحوال كفرهم ولأن الذي حملهم على تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم هو دعوته إياهم إلى التوحيد، فمن أجله نشأ النزاع بينهم وبينه فكذبوه وسألوه الآيات على صدقه.

وضمائر جمع الغائبين مراد منها المشركون الذين هم بعض من شملته ضمائر الخطاب في الآية التي قبلها، ففي العدول عن

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/٦

الخطاب إلى الغيبة بالنسبة إليهم التفات أوجبه تشهيرهم بهذا الحال الذميم، تنصيصا على ذلك، وإعراضا عن خطابهم، وتمحيضا للخطاب للمؤمنين، وهو من أحسن الالتفات، لأن الالتفات يحسنه أن يكون له مقتض زائد على نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب المراد منه تجديد نشاط السامع.وتكون الواو استئنافية وما بعدها كلاما مستأنفا ابتدائيا.
واستعمل المضارع في قوله:﴿تأتيهم﴾للدلالة على التجدد وإن كان هذا الإتيان ماضيا أيضا بقرينة المضي في قوله: ﴿إلا كانوا﴾ .
والمراد بإتيانها بلوغها إليهم وتحديهم بها، فشبه البلوغ بمجيء الجائي، كقول النابغة:". (١)

١٢١-"جاءهم﴾ أي أنكروا كون القرآن من عند الله، وكونه آية على صدق الرسول، وزعموا أنه لو كان من عند الله لنزل في صورة كتاب من السماء، فإنهم قالوا: ﴿ولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ وقالوا: ﴿حتى تنزل علينا كتابا نقرأه﴾ فكان قوله: ﴿فقد كذبوا بالحق لما جاءهم﴾ مشتملا بالإجمال على أقوالهم فصح مجيء الحال منه، وما بينهما اعتراض أيضا.
وعلى الوجه الأول فالكتاب الشيء المكتوب سواء كان سفرا أم رسالة، وعلى الثاني فالمراد بكتاب سفر أي مثل التوراة.
والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم لا محالة لأن كل كلام ينزل من القرآن موجه إليه لأنه المبلغ، **فانتقال** الخطاب إليه بعد الحديث عن ذوي ضمائر أخرى لا يحتاج إلى مناسبة في **الانتقال**.وليس يلزم أن يكون المراد كتابا فيه تصديقه بل أعم من ذلك.
وقوله: ﴿في قرطاس﴾ صفة لـ"كتاب"، والظرفية مجازية من ظرفية اسم الشيء في اسم جزئه.والقرطاس بكسر القاف على الفصيح، ونقل ضم القاف وهو ضعيف.وهو اسم للصحيفة التي يكتب فيها ويكون من رق ومن بردي ومن كاغد، ولا يختص بما كان من كاغد بل يسمى قرطاسا ما كان من رق.ومن الناس من زعم أنه لا يقال قرطاس إلا لما كان مكتوبا وإلا سمي طرسا، ولم يصح.وسمى العرب الأديم الذي يجعل غرضا لمتعلم الرمي قرطاسا فقالوا:سدد القرطاس، أي سدد رميه.قال الجواليقي:"القرطاس تكلموا به قديما"ويقال:إن أصله غير عربي.ولم يذكر ذلك الراغب ولا لسان العرب ولا القاموس، وأثبته الخفاجي في شفاء الغليل.وقال:"هو الفرس الأبيض".وقال الآلوسي:"أصله كراسة".ولم يذكروا أنه معرب عن أي لغة، فإن كان معربا فلعله معرب عن الرومية، ولذلك كان اسم الورقة في لغة بعضهم اليوم"كارتا".
وقوله: ﴿فلمسوه﴾ عطف على﴿نزلنا﴾.واللمس وضع اليد على الشيء لمعرفة وجوده، أو لمعرفة وصف ظاهره من لين أو خشونة، ومن برودة أو حرارة، أو نحو ذلك.فقوله: ﴿بأيديهم﴾ تأكيد لمعنى اللمس لرفع احتمال أن يكون مجازا في التأمل، كما في قوله تعالى: ﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا﴾ ، وللإفصاح عن منتهى ما اعتيد من مكابرتهم ووقاحتهم في الإنكار والتكذيب، وللتمهيد لقوله: ﴿لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ ، لأن المظاهر السحرية تخيلات لا تلمس.
وجاء قوله: ﴿الذين كفروا﴾ دون أن يقول:لقالوا، كما قال: ﴿فلمسوه﴾ إظهارا في مقام الإضمار لقصد تسجيل أن دافعهم

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/٦

إلى هذا التعنت هو الكفر، لأن الموصول يؤذن". (١)

١٢٢-"يدافعها.ومما يشاهد منها دوما النوم وكذلك الموت.سبحان من قهر العباد بالموت.

و ﴿فوق﴾ ظرف متعلق بـ ﴿القاهر﴾ ،وهو استعارة تمثيلية لحالة القاهر بأنه كالذي يأخذ المغلوب من أعلاه فلا يجد معالجة ولا حراكا.وهو تمثيل بديع ومنه قوله تعالى حكاية عن فرعون ﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾ [الأعراف:١٢٧].

ولا يفهم من ذلك جهة هي في علو كما قد يتوهم، فلا تعد هذه الآية من المتشابهات.

والعباد:هم المخلوقون من العقلاء، فلا يقال للدواب عباد الله،وهو في الأصل جمع عبد لكن الاستعمال خصه بالمخلوقات،وخص العبيد بجمع عبد بمعنى المملوك.

ومعنى القهر فوق العباد أنه خالق ما لا يدخل تحت قدرهم بحيث يوجد ما لا يريدون وجوده كالموت،ويمنع ما يريدون تحصيله كالولد للعقيم والجهل بكثير من الأشياء،بحيث إن كل أحد يجد في نفسه أمورا يستطيع فعلها وأمورا لا يستطيع فعلها وأمورا يفعلها تارة ولا يستطيع فعلها تارة، كالمشي لمن خدرت رجله؛فيعلم كل أحد أن الله هو خالق القدر والاستطاعات لأنه قد يمنعها،ولأنه يخلق ما يخرج عن مقدور البشر،ثم يقيس العقل عوالم الغيب على عالم الشهادة.وقد خلق الله العناصر والقوى وسلط بعضها على بعض فلا تستطيع المدافعة إلا ما خولها الله.

والحكيم:المحكم المتقن للمصنوعات،فعيل بمعنى مفعل،وقد تقدم في قوله: ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ في سورة البقرة [٢٠٩]وفي مواضع كثيرة.

والخبير:مبالغة في اسم الفاعل من "خبر"المتعدي، بمعنى"علم"،يقال:خبر الأمر،إذا علمه وجربه.وقد قيل:إنه مشتق من الخبر لأن الشيء إذا علم أمكن الإخبار به.

[١٩] ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أإنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون﴾

﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾

انتقال من الاستدلال على إثبات ما يليق بالله من الصفات،إلى إثبات صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم والى جعل الله حكما بينه وبين مكذبيه،فالجملة استئناف ابتدائي، ومناسبة". (٢)

١٢٣-"**الانتقال** ظاهرة.

روى الواحدي في أسباب النزول عن الكلبي:أن رؤساء مكة قالوا:"يا محمد ما نرى أحدا مصدقك بما تقول،وقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس عندهم ذكرك ولا صفتك فأرنا من يشهد أنك رسول الله".فنزلت هذه الآية.

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٢٣

(٢) التحرير والتنوير ٦/٤٤

وقد ابتدئت المحاورة بأسلوب إلقاء استفهام مستعمل في التقرير على نحو ما بينته عند قوله تعالى: ﴿قل لمن ما في السماوات والأرض﴾ [الأنعام:١٢]ومثل هذا الأسلوب لإعداد السامعين لتلقي ما يرد بعد الاستفهام.

و"أي"اسم استفهام يطلب به بيان أحد المشتركات فيما أضيف إليه هذا الاستفهام،والمضاف إليه هنا هو ﴿شيء﴾ المفسر بأنه من نوع الشهادة.

و ﴿شيء﴾ اسم عام من الأجناس العالية ذات العموم الكثير،قيل:هو الموجود،وقيل:هو ما يعلم ويصح وجوده.والأظهر في تعريفه أنه الأمر الذي يعلم.ويجري عليه الإخبار سواء كان موجودا أو صفة موجود أو معنى يتعقل ويتحاور فيه،ومنه قوله تعالى: ﴿فقال الكافرون هذا شيء أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد﴾ [ق:٢,٣]

وقد تقدم الكلام على مواقع حسن استعمال كلمة"شيء"ومواقع ضعفها عند قوله تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع﴾ في سورة البقرة[١٥٥].

و ﴿أكبر﴾ هنا بمعنى أقوى وأعدل في جنس الشهادات،وهو من إطلاق ما مدلوله عظم الذات على عظم المعنى،كقوله تعالى: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ [التوبة:٧٢]وقوله : ﴿قل قتال فيه كبير﴾ .وقد تقدم في سورة البقرة[٢١٧].

وقوة الشهادة بقوة اطمئنان النفس إليها وتصديق مضمونها.

وقوله: ﴿شهادة﴾ تمييز لنسبة الأكبرية إلى الشيء فصار ما صدق الشيء بهذا التمييز هو الشهادة.فالمعنى:أية شهادة هي أصدق الشهادات، فالمستفهم عنه بـ ﴿أي﴾ فرد من أفراد الشهادات يطلب علم أنه أصدق أفراد جنسه.

والشهادة تقدم بيانها عند قوله تعالى: ﴿شهادة بينكم﴾ في سورة المائدة.

ولما كانت شهادة الله على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم غير معلومة للمخاطبين المكذبين بأنه رسول الله،صارت شهادة الله عليهم في معنى القسم على نحو قوله تعالى: ﴿ويدرأ عنها". (١)

١٢٤-"جاء به بعد شهادة الله تعالى التي في قوله: ﴿قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ [الأنعام:١٩]، فإنه لما جاء ذكر القرآن هنالك وقع هذا **الانتقال** للاستشهاد على صدق القرآن المتضمن صدق من جاء به،لأنه هو الآية المعجزة العامة الدائمة.وقد علمت آنفا أن الواحدي ذكر أن رؤساء المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم قد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس عندهم ذكرك ولا صفتك إلى آخره؛فإذا كان كذلك كان التعرض لأهل الكتاب هنا إبطالا لما قالوه أنه ليس عندهم ذكر النبي ولا صفته،أي فهم وأنتم سواء في جحد الحق،وإن لم تجعل الآية مشيرة إلى ما ذكر في أسباب النزول تعين أن تجعل المراد بـ ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ بعض أهل الكتاب،وهم المنصفون منهم مثل عبدالله بن سلام ومخيريق،فقد كان المشركون يقدرون أهل الكتاب ويثقون بعلمهم وربما اتبع بعض المشركين دين أهل الكتاب وأقلعوا عن الشرك مثل ورقة بن نوفل، فلذلك كانت شهادتهم في معرفة صحة الدين موثوقا بها عندهم إذا أدوها ولم يكتموها.وفيه تسجيل على أهل الكتاب بوجوب أداء هذه الشهادة إلى الناس.

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٤٥

فالضمير المنصوب في قوله: ﴿يعرفونه﴾ عائد إلى القرآن الذي في قوله: ﴿وأوحي إلي هذا القرآن﴾ [الأنعام:١٩].والمراد أنهم يعرفون أنه من عند الله ويعرفون ما تضمنه مما أخبرت به كتبهم، ومن ذلك رسالة من جاء به،وهو محمد صلى الله عليه وسلم، لما في كتبهم من البشارة به.والمراد بالذين أوتوا الكتاب علماء اليهود والنصارى كقوله تعالى: ﴿قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾ [الرعد:٤٣].

والتشبيه في قوله: ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ تشبيه المعرفة بالمعرفة.فوجه الشبه هو التحقق والجزم بأنه هو الكتاب الموعود به،وإنما جعلت المعرفة المشبه بها هي معرفة أبنائهم لأن المرء لا يضل عن معرفة شخص ابنه وذاته إذا لقيه وأنه هو ابنه المعروف، وذلك لكثرة ملازمة الأبناء آباءهم عرفا.

وقيل:إن ضمير ﴿يعرفونه﴾ عائد إلى التوحيد المأخوذ من قوله: ﴿إنما هو إله واحد﴾ [الأنعام:١٩]، وهذا بعيد.وقيل:الضمير عائد إلى النبي صلى الله عليه وسلم مع أنه لم يجر له ذكر فيما تقدم صريحا ولا تأويلا.ويقتضي أن يكون المخاطب غير الرسول صلى الله عليه وسلم وهو غير مناسب على أن في عوده إلى القرآن غنية عن ذلك مع زيادة إثباته بالحجة وهي القرآن.

وقوله: ﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ استئناف لزيادة إيضاح تصلب المشركين وإصرارهم، فهم المراد بالذين خسروا أنفسهم كما أريدوا بنظيره السابق الواقع". (١)

١٢٥-"ووصفوا بـ ﴿الذين كنتم تزعمون﴾ تكذيبا لهم؛وحذف المفعول الثاني لـ ﴿تزعمون﴾ ليعم كل ما كانوا يزعمونه لهم من الإلهية والنصر والشفاعة؛أما المفعول الأول فحذف على طريقة حذف عائد الصلة المنصوب.

والزعم:ظن يميل إلى الكذب أو الخطأ أو لغرابته يتهم صاحبه، فيقال:زعم،بمعنى أن عهدة الخبر عليه لا على الناقل،وتقدم عند قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون﴾ الآية في سورة النساء[٦٠].وتأتي زيادة بيان لمعنى الزعم عند قوله تعالى: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا﴾ في سورة التغابن[٧].

وقوله: ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ عطف على جملة ﴿ثم نقول﴾ و"ثم"للترتيب الرتبي وهو **الانتقال** من خبر إلى خبر أعظم منه.

والفتنة أصلها الاختبار،من قولهم:فتن الذهب إذا اختبر خلوصه من الغلث.وتطلق على اضطراب الرأي من حصول خوف لا يصبر على مثله،لأن مثل ذلك يدل على مقدار ثبات من يناله،فقد يكون ذلك في حالة العيش؛وقد يكون في البغض والحب؛وقد يكون في الاعتقاد والتفكير وارتباك الأمور.وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى:﴿إنما نحن فتنة﴾في سورة البقرة[١٠٢].

و ﴿فتنتهم﴾ هنا استثني منها ﴿أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ ،فذلك القول إما أن يكون من نوع ما استثني هو منه المحذوف في تفريغ الاستثناء،فيكون المستثنى منه من الأقوال الموصوفة بأنها فتنة.فالتقدير:لم يكن لهم قول هو فتنة لهم إلا قولهم: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٤٩

وإما أن يكون القول المستثنى دالا على فتنتهم،أي على أنهم في فتنة حين قالوه.وأياما كان فقولهم:﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾متضمن أنهم مفتونون حينئذ.
وعلى ذلك تحتمل الفتنة أن تكون بمعنى اضطراب الرأي والحيرة في الأمر،ويكون في الكلام إيجاز.والتقدير:فافتتنوا في ماذا يجيبون،فكان جوابهم أن قالوا: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ فعدل عن المقدر إلى هذا التركيب لأنه قد علم أن جوابهم ذلك هو فتنتهم لأنه أثرها ومظهرها.
ويحتمل أن يراد بالفتنة جوابهم الكاذب لأنه يفضي إلى فتنة صاحبه،أي تجريب حالة نفسه.". (١)

١٢٦-"حالة الضمير الثاني عن اختلاف حالة الضمير الأول اختصارا وتخفيفا، وبذلك تأتى أن يكون هذا التركيب جاريا مجرى المثل لما فيه من الإيجاز تسهيلا لشيوع استعماله استعمالا خاصا لا يغير عنه، فلذلك لا تكسر تلك التاء في خطاب المؤنث ولا تضم في خطاب المثنى والمجموع.
وعن الأخفش: "أخرجت العرب هذا اللفظ من معناه بالكلية فألزمته الخطاب، وأخرجته عن موضوعه إلى معنى"أما"بفتح الهمزة، فجعلت الفاء بعده في بعض استعمالاته كقوله تعالى: ﴿أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت﴾ [الكهف: ٦٣] فما دخلت الفاء إلا وقد أخرجت"أرأيت"لمعنى"أما"؛ وأخرجته أيضا إلى معنى"أخبرني"فلا بد بعده من اسم المستخبر عنه؛ وتلزم الجملة بعد الاستفهام، وقد يخرج لهذا المعنى وبعده الشرط وظرف الزمان".اهـ.
في الكشاف: "متعلق الاستخبار محذوف، تقديره: إن أتاكم عذا ب الله أو أتتكم الساعة من تدعون، ثم بكتهم بقوله: ﴿أغير الله تدعون﴾ ، أي أتخصون آلهتكم بالدعوة أم تدعون الله دونها بل إياه تدعون"اهـ.وجملة ﴿أغير الله تدعون﴾ هي المفعول الثاني لفعل ﴿أرأيتكم﴾ .
واعلم أن هذا استعمال خاص بهذا التركيب الخاص الجاري مجرى المثل، فأما إذا أريد جريان فعل الرؤية العلمية على أصل بابه فإنه يجري على المتعارف في تعدية الفعل إلى فاعله ومفعوليه.فمن قال لك: رأيتني عالما بفلان.فأردت التحقق فيه تقول: أرأيتك عالما بفلان.وتقول للمثنى: أرأيتما كما عالمين بفلان، وللجمع أرأيتموكم وللمؤنثة أرأيتك ـ بكسر التاء ـ.
وقرأه نافع في المشهور ـ بتسهيل الهمزة ألفا ـ؛ وعنه رواية بجعلها بين الهمزة والألف.وقرأه الكسائي ـ بإسقاط الهمزة ـ التي هي عين الكلمة، فيقول: ﴿أريت﴾ وهي لغة.وقرأه الباقون بتحقيق الهمزة.
وجملة ﴿إن أتاكم عذاب الله﴾ الخ معترضة بين مفعولي فعل الرؤية، وهي جملة شرطية حذف جوابها لدلالة جملة المفعول الثاني عليه.
وإتيان العذاب: حلوله وحصوله، فهو مجاز لأن حقيقة الإتيان المجيء، وهو **الانتقال** من موضع بعيد إلى الموضع الذي

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٥٣

استقر فيه مفعول الإتيان، فيطلق مجازا على". (١)

١٢٧-"والأمر مراد به النزاع والخلاف.فالتعريف فيه للعهد، وبني ﴿قضي الأمر﴾ للمجهول لظهور أن قاضيه هو من بيده ما يستعجلون به.

وتركيب"قضي الأمر"شاع فجرى مجرى المثل، فحذف الفاعل ليصلح التمثل به في كل مقام، ومنه قوله: ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ [يوسف: ٤١] وقوله: ﴿ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم﴾ [الشورى: ٢١] وقوله: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر﴾ [مريم: ٣٩] ؛ ولذلك إذا جاء في غير طريقة المثل يصرح بفاعله كقوله تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾ [الحجر: ٦٦] .

وذلك القضاء يحتمل أمورا: منها أن يأتيهم بالآية المقترحة فيؤمنوا، أو أن يغضب فيهلكهم، أو أن يصرف قلوبهم عن طلب ما لا يجيبهم إليه فيتوبوا ويرجعوا.

وجملة ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ تذييل، أي الله أعلم مني ومن كل أحد بحكمة تأخير العذاب وبوقت نزوله، لأنه العليم الخبير الذي عنده ما تستعجلون به.والتعبير ﴿بالظالمين﴾ إظهار في مقام ضمير الخطاب لإشعارهم بأنهم ظالمون في شركهم إذ اعتدوا على حق الله، وظالمون في تكذيبهم إذ اعتدوا على حق الله ورسوله، وظالمون في معاملتهم الرسول صلى الله عليه وسلم.

[٥٩] ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾

عطف على جملة ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ [الأنعام: ٥٨] على طريقة التخلص.والمناسبة في هذا التخلص هي الإخبار بأن الله أعلم بحالة الظالمين، فإنها غائبة عن عيان الناس، فالله أعلم بما يناسب حالهم من تعجيل الوعيد أو تأخيره، وهذا **انتقال** لبيان اختصاصه تعالى بعلم الغيب وسعة علمه ثم سعة قدرته وأن الخلق في قبضة قدرته.وتقديم الظرف لإفادة الاختصاص، أي عنده لا عند غيره.والعندية عندية علم واستئثار وليست عندية مكان.

والمفاتح جمع مفتح ـ بكسر الميم ـ وهو الآلة التي يفتح بها المغلق، وتسمى المفتاح.وقد قيل: إن مفتح أفصح من مفتاح، قال تعالى: ﴿وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة﴾ [القصص: ٧٦] .". (٢)

١٢٨-"بأصولهم أن يقال: الأمور أربعة أقسام؛ فإنها إما أن لا تكون متشكلة ولا متغيرة، وإما أن تكون متشكلة غير متغيرة، وإما أن تكون متغيرة غير متشكلة؛ وإما أن تكون متشكلة ومتغيرة معا.فأما ما لاتكون متشكلة ولا متغيرة فإنه تعالى عالم به سواء كان كليا أو جزئيا.وكيف يمكن القول بأنه تعالى لا يعلم الجزئيات منها مع اتفاق الأكثر منهم على علمه

---

(١) التحرير والتنوير ٩٤/٦

(٢) التحرير والتنوير ١٣٥/٦

تعالى بذاته المخصوصة وبالعقول.

وأما المتشكلة غير المتغيرة وهي الأجرام العلوية فهي غير معلومة له تعالى بأشخاصها عندهم، لأن إدراك الجسمانيات لا يكون إلا بالآت جسمانية.

وأما المتغيرة غير المتشكلة فذلك مثل الصور والأعراض الحادثة والنفوس الناطقة، فإنها غير معلومة له لأن تعلقها يحوج إلى آلة جسمانية بل لأنها لما كانت متغيرة يلزم من تغيرها العلم.

وأما ما يكون متشكلا ومتغيرا فهو الأجسام الكائنة الفاسدة١.وهي يمتنع أن تكون مدركة له تعالى للوجهين"أي المذكورين في القسمين الثاني والثالث"اهـ.

وقد عد إنكار الفلاسفة أن الله يعلم الجزئيات من أصول ثلاثة لهم خالفت المعلوم بالضرورة من دين الإسلام.وهي: إنكار علم الله بالجزئيات؛ وإنكار حشر الأجساد، والقول بقدم العالم.ذكر ذلك الغزالي في تهافت الفلاسفة فمن يوافقهم في ذلك من ا لمسلمين يعتبر قوله كفرا، لكنه من قبيل الكفر باللازم فلا يعتبر قائله مرتدا إلا بعد أن يوقف على ما يفضي إليه قوله ويأبى أن يرجع عنه فحينئذ يستتاب ثلاثا فإن تاب وإلا حكم بردته.

[٦٠] ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾

عطف جملة ﴿وهو الذي يتوفاكم﴾ على جملة ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ [الأنعام: ٥٩] **انتقالا** من بيان سعة علمه إلى بيان عظيم قدرته لأن ذلك كله من دلائل الإلهية تعليما لأوليائه ونعيا على المشركين أعدائه.وقد جرت عادة القرآن بذكر دلائل الوحدانية في أنفس الناس عقب ذكر دلائلها في الآفاق فجمع ذلك هنا على وجه بديع مؤذن بتعليم

ـ

١ يعني التي يعتريها الكون والفساد.". (١)

١٢٩-"والإعراض تقدم تفسيره عند قوله تعالى: ﴿فأعرض عنهم وعظهم﴾ في سورة النساء[٦٣] .

والإعراض عنهم هنا هو ترك الجلوس إلى مجالسهم، وهو مجاز قريب من الحقيقة لأنه يلزمه الإعراض الحقيقي غالبا، فإن هم غشوا مجلس الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فالإعراض عنهم أن يقوم عنهم وعن ابن جريج: "فجعل إذا استهزأوا قام فحذروا وقالوا لا تستهزأوا فيقوم".وفائدة هذا الإعراض زجرهم وقطع الجدال معهم لعلهم يرجعون عن عنادهم.

و ﴿حتى﴾ غاية للإعراض لأنه إعراض فيه توقيف دعوتهم زمانا أوجبه رعي مصلحة أخرى هي من قبيل الدعوة فلا يضر توقيف الدعوة زمانا، فإذا زال موجب ذلك عادت محاولة هديهم إلى أصلها لأنها تمحضت للمصلحة.

وإنما عبر عن **انتقالهم** إلى حديث آخر بالخوض لأنهم لا يتحدثون إلا فيما لا جدوى له من أحوال الشرك وأمور الجاهلية. و ﴿غيره﴾ صفة لـ ﴿حديث﴾ .والضمير المضاف إليه عائد إلى الخوض باعتبار كونه حديثا حسبما اقتضاه وصف

---

(١) التحرير والتنوير ٦/١٣٩

﴿حديث﴾ بأنه غيره.

وقوله: ﴿وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ عطف حالة النسيان زيادة في تأكيد الأمر بالإعراض.وأسند الإنساء إلى الشيطان فدلنا على أن النسيان من آثار الخلقة التي جعل الله فيها حظا لعمل الشيطان.كما ورد أن التثاؤب من الشيطان، وليس هذا من وسوسة الشيطان في أعمال الإنسان لأن الرسول صلى الله عليه وسلم معصوم من وسوسة الشيطان في ذلك، فالنسيان من الإعراض البشرية الجائزة على الأنبياء في غير تبليغ ما أمروا بتبليغه، عند جمهور علماء السن؟ة من الأشاعرة وغيرهم.قال ابن العربي في الأحكام: "إن كبار الرافضة هم الذين ذهبوا إلى تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم من النسيان"أهـ.وهو قول لبعض الأشعرية وعزي إلى الأستاذ أبي إسحاق الإسفرائيني فيما حكاه نور الدين السيرازي في شرح للقصيدة النونية لشيخه تاج الدين السبكي.ويتعين أن مراده بذلك فيما طريقه البلاغ كما يظهر مما حكاه عنه القرطبي: وقد نسي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم من ركعتين في الصلاة الرباعية، ونسي آيات من بعض السور تذكرها لما سمع قراءة رجل في صلاة الليل، كما في الصحيح.وفي الحديث الصحيح: "إنما أنا بشر أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني" فذلك نسيان استحضارها بعد أن بلغها.وليس نظرنا في جواز ذلك وإنما نظرنا في إسناد ذلك إلى الشيطان فإنه يقتضي أن للشيطان حظا له أثر في نفس". (١)

١٣٠-"فأما رسالة هود وصالح وشعيب فقد تكرر ذكرها في آيات كثيرة.

وأما معرفة نبوءة ذي الكفل ففيها نظر إذ لم يصرح في سورة الأنبياء بأكثر من كونه من الصابرين والصالحين.واختلف المفسرون في عدة من الأنبياء، ونسب إلى الجمهور القول بأنه نبي.وعن أبي موسى الأشعري ومجاهد: "أن ذا الكفل لم يكن نبيا".وسيأتي ذكر ذلك في سورة الأنبياء.

وأما آدم فإنه نبي منذ كونه في الجنة فقد كلمه الله غير مرة.وقال: ﴿ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ [طه: ١٢٢]فهو قد أهبط إلى الأرض مشرفا بصفة النبوءة.وقصة ابني آدم في سورة المائدة دالة على أن آدم بلغ لأبنائه شرعا لقوله تعالى فيها ﴿ إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين﴾ [المائدة: ٢٧.٢٩].

فالذي نعتمده أن الذي ينكر نبوءة معين ممن سمي في القرآن في عداد الأنبياء في سورة النساء وسورة هود وسورة الأنعام وسورة مريم، وكان المنكر محققا علمه بالآية التي وصف فيها بأنه نبي ووقف على دليل صحة ما أنكره وروجع فصمم على إنكاره، إن ذلك الإنكار يكون كفرا لأنه أنكر معلوما بالضرورة بعد التنبيه عليه لئلا يعتذر بجهل أو تأويل مقبول.

واعلم أني تطلبت كشف القناع عن وجه الاقتصار على تسمية هؤلاء الأنبياء من بين سائر الأنبياء من ذرية إبراهيم أو ذرية نوح،"على الوجهين في معاد ضمير ﴿ذريته﴾ "فلم يتضح لي وتطلبت وجه ترتيب أسمائهم هذا الترتيب، وموالاة بعض هذه

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٢/٦

الأسماء لبعض في العطف فلم يبد لي، وغالب ظني أن من هذه الوجوه كون هؤلاء معروفون لأهل الكتاب وللمشركين الذين يقتبسون معرفة الأنبياء من أهل الكتاب، وأن المناسبة في ترتيبهم لا تخلو من أن تكون ناشئة عن الابتداء بذكر أن إسحاق ويعقوب موهبة لإبراهيم وهما أب وابنه، فنشأ **الانتقال** من واحد إلى آخر بمناسبة **للانتقال**، وأن توزيع أسمائهم على فواصل ثلاث لا يخلو عن مناسبة تجمع بين أصحاب تلك الأسماء في الفاصلة الشاملة لأسمائهم.ويجوز أن خفة أسماء هؤلاء في تعريبها إللا العربية حروفا ووزنا لها أثر في إيثارها

بالذكر دون غيرها من الأسماء نحو"شمعون وشمويل وحزقيال ونحميا"، وأن المعدودين في هذه الآيات الثلاث توزعوا الفضائل إذ منهم الرسل والأنبياء والملوك وأهل". (١)

١٣١-"وجعلوا"ما"مصدرية، أي ذهب زعمكم أنها تشفع لكم.وما ذكرناه في تفسير الآية أبلغ وأوقع.

[٩٥-٩٦] ﴿إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم﴾

استئناف ابتدائي انتقل به من تقرير التوحيد والبعث والرسالة وأفانين المواعظ والبراهين التي تخللت ذلك إلى الاستدلال والاعتبار بخلق الله تعالى وعجائب مصنوعاته المشاهدة، على انفراده تعالى بالإلهية المستلزم لانتفاء الإلهية عما لا تقدر على مثل هذا الصنع العجيب، فلا يحق لها أن تعبد ولا أن تشرك مع الله تعالى في العبادة إذ لا حق لها في الإلهية، فيكون ذلك إبطالا لشرك المشركين من العرب، وهو مع ذلك إبطال لمعتقد المعطلين من الدهريين منهم بطريق الأولى، وفي ذلك امتنان على المقصودين من الخطاب وهم المشركون بقرينة قوله: ﴿فأنى تؤفكون﴾ ، أي فتكفرون النعمة.وفيه علم ويقين للمؤمنين من المصدقين واستزادة لمعرفتهم بربهم وشكرهم.

وافتتاح الجملة بـ ﴿إن﴾ مع أنه لا ينكر أحد أن الله هو فاعل الأفعال المذكورة هنا، ولكن النظر والاعتبار في دلالة الزرع على قدرة الخالق على الإحياء بعد الموت كما قدر على إماتة الحي، لما كان نظرا دقيقا قد انصرف عنه المشركون فاجترأوا على إنكار البعث، كان حالهم كحال من أنكر أو شك في أن الله فالق الحب والنوى، فأكد الخبر بحرف"إن".

وجيء بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات هذا الوصف دوامه لأنه وصف ذاتي لله تعالى، وهو وصف الفعل أو وصف القدرة وتعلقاتها في مصطلح من لا يثبت صفات الأفعال،ولما كان المقصود الاكتفاء بدلالة فلق الحب والنوى على قدرة الله على إخراج الحي من الميت، **والانتقال** من ذلك إلى دلالته على إخراج الحي من الميت في البعث، لم يؤت في هذا الخبر بما يقتضي الحصر إذ ليس المقام مقام القصر.

والفلق: شق وصدع بعض أجزاء الشيء عن بعض، والمقصود الفلق الذي تنبثق منه وشائج النبت والشجر وأصولها، فهو محل العبرة من علم الله تعالى وقدرته وحكمته.

والحب اسم جمع لما يثمره النبت، واحده حبة.والنوى اسم جمع نواة، والنواة قلب التمرة.ويطلق على ما في الثمار من القلوب

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٩/٦

التي منها ينبت شجرها مثل العنب". (١)

١٣٢-"والثمر: الجنى الذي يخرجه الشجر.وهو. بفتح الثاء والميم . في قراءة الأكثر، جمع ثمرة بفتح الثاء والميم وقرأه حمزة والكسائي وخلف بضم الثاء والميم وهو جمع تكسير، كما جمعت: خشبة على خشب، وناقة على نوق.

واليتع: الطيب والنضج.يقال: ينع بفتح النون يينع بفتح النون وكسرها ويقال: أينع يونع ينعا بفتح التحتية بعدها نون ساكنة.

و ﴿إذا﴾ ظرف لحدوث الفعل، فهي بمعنى الوقت الذي يبتدئ فيه مضمون الجملة المضاف إليها، أي حين ابتداء أثماره.وقوله: ﴿وينعه﴾ لم يقيد بإذا أينع لأنه إذا ينع فقد تم تطوره وحان قطافه فلم تبق للنظر فيه عبرة لأنه قد انتهت أطواره.

وجملة ﴿إن في ذلكم لآيات﴾ علة للأمر بالنظر.وموقع"إن"فيه موقع لام التعليل، كقول بشار:

إن ذاك النجاح في التبكير

والإشارة بـ ﴿ذلكم﴾ إلى المذكور كله من قوله: ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ـإلى قوله . وينعه﴾ فتوحيد اسم الإشارة بتأويل المذكور، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿عوان بين ذلك﴾ في سورة البقرة[٦٨].

﴿ولقوم يؤمنون﴾ وصف للآيات.واللام للتعليل، والمعلل هو ما في مدلول الآيات من مضمن معنى الدلالة والنفع.وقد صرح في هذا بأن الآيات إنما تنفع المؤمنين تصريحا بأنهم المقصود في الآيتين الأخريين بقوله: ﴿لقوم يعلمون﴾ [الأنعام: ٩٧]وقوله: ﴿لقوم يفقهون﴾ [الأنعام: ٩٨]، وإتماما للتعريض بأن غير العالمين وغير الفاقهين هم غير المؤمنين يعني المشركين.

[١٠٠] ﴿وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون﴾

عطف على الجمل قبله عطف القصة على القصة، فالضمير المرفوع في ﴿جعلوا﴾ عائد إلى ﴿قومك﴾ من قوله تعالى: ﴿وكذب به قومك﴾ [الأنعام: ٦٦].

وهذا **انتقال** إلى ذكر شرك آخر من شرك العرب وهو جعلهم الجن شركاء لله في عبادتهم كما جعلوا الأصنام شركاء له في ذلك.وقد كان دين العرب في الجاهلية خليطا". (٢)

١٣٣-"و"خبير"صفة مشبهة من خبر . بضم الباء . في الماضي، خبرا بضم الخاء وسكون الباء بمعنى علم وعرف، فالخبير الموصوف بالعلم بالأمور التي شأنها أن يخبر عنها علما موافقا للواقع.

ووقوع الخبير بعد اللطيف على المحمل الأول وقوع صفة أخرى هي أعم من مضمون ﴿وهو يدرك الأبصار﴾ ، فيكمل التذييل بذلك ويكون التذييل مشتملا على محسن النشر بعد اللف؛ وعلى المحمل الثاني موقعه موقع الاحتراس لمعنى اللطيف،

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٢٣٠

(٢) التحرير والتنوير ٦/٢٤٣

أي هو الرفيق المحسن الخبير بمواقع الرفق والإحسان وبمستحقيه.

[١٠٤] ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ﴾ هذا **انتقال** من محاجة المشركين، وإثبات الوحدانية لله بالربوبية من قوله: ﴿إن الله فالق الحب والنوى إلى قوله . وهو اللطيف الخبير﴾ [الأنعام: ١٠٣.٩٥].فاستؤنف الكلام بتوجيه خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام مقول لفعل أمر بالقول في أول الجملة، حذف على الشائع من حذف القول للقرينة في قوله: ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ [الأنعام: ١٠٤].ومناسبة وقوع هذا الاستئناف عقب الكلام المسوق إليهم من الله تعالى أنه كالتوقيف والشرح والفذلكة للكلام السابق فيقدر: قل يا محمد قد جاءكم بصائر.

وبصائر جمع بصيرة؛ والبصيرة: العقل الذي تظهر به المعاني والحقائق، كما أن البصر إدراك العين الذي تتجلى به الاجسام، وأطلقت البصائر على ما هو سبب فيها.وإسناد المجيء إلى البصائر استعارة للحصول في عقولهم، شبه بمجيء شيء كان غائبا، تنويها بشأن ما حصل عندهم بأنه كالشيء الغائب المتوقع مجيئه كقوله تعالى: ﴿جاء الحق وزهق الباطل﴾ [الاسراء: ٨١].وخلو فعل"جاء"عن علامة التأنيث مع أن فاعله جمع مؤنث لأن الفعل المسند إلى جمع تكسير مطلقا أو جمع مؤنث يجوز اقترانه بتاء التأنيث وخلوه عنها.

و"من"ابتدائية تتعلق بـ"جاء"أو صفة لـ ﴿بصائر﴾ ، وقد جعل خطاب الله بها بمنزلة ابتداء السير من جانبه تعالى، وهو منزه عن المكان والزمان، فالابتداء مجاز لغوي، أو هو مجاز بالحذف بتقدير: من إرادة ربكم.والمقصود التنويه بهذه التعاليم والذكريات التي بها البصائر، والحث على العمل بها، لأنها مسداة إليهم ممن لا يقع في هديه خلل ولا خطأ،". (١)

١٣٤-"حرموه افتراء على الله، ونهضت الحجة عليهم، الملجئة لهم، كما أشار إليه كلام النبي صلى الله عليه وسلم لمالك بن عوف الجشمي المذكور آنفا، ولذلك سجل عليهم بقوله: ﴿نبئوني بعلم إن كنتم صادقين﴾ فقوله: ﴿آلذكرين حرم﴾ أي لو حرم الله الذكرين لسوى في تحريمهما بين الرجال والنساء. وكذلك القول في الأنثيين. والاستفهام في قوله: ﴿آلذكرين حرم﴾ في الموضعين مستعمل في التقرير والإنكار بقرينة قوله قبله ﴿سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم﴾ [الأنعام: ١٣٩]. وقوله: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ [البقرة: ١٦٨]. ومعلوم أن استعمال الاستفهام في غير معنى طلب الفهم هو إما مجاز أو كناية.

ولذلك تعين أنن تكون ﴿أم﴾ منقطعة بمعنى "بل" ومعناها الإضراب **الانتقالي** تعديدا لهم ويقدر بعدها استفهام. فالمفرد بعد ﴿أم﴾ مفعول لفعل محذوف، والتقدير: أم أحرم الأنثيين. وكذلك التقدير في قوله ﴿أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾. وكذلك التقدير في نظيره.

وقوله ﴿من الضأن اثنين ومن المعز اثنين﴾ مع قوله ﴿ومن الأبل اثنين ومن البقر اثنين﴾ من مسلك السبر والتقسيم المذكور في مسالك العلة من علم أصول الفقه.

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٢٥٤

وجملة: ﴿نبئوني بعلم إن كنتم صادقين﴾ بدل اشتمال من جملة: ﴿آلذكرين حرم أم الأنثيين﴾ لأن إنكار أن يكون الله حرم شيئا من ذكور وإناث ذينك الصنفين يقتضي تكذيبهم في زعمهم أن الله حرم ما ذكروه فيلزم منه طلب الدليل على دعواهم. فموقع جملة ﴿آلذكرين﴾ بمنزلة الاستفسار في علم آداب البحث. وموقع جملة: ﴿نبئوني بعلم إن كنتم صادقين﴾ بمنزلة المنع. وهذا تهكم لأنه لا يطلب تلقي علم منهم. وهذا التهكم تابع لصورة الاستفهام وفرع عنها. وهو هنا متجرد للمجاز أو للمعنى الملزوم المنتقل منه في الكناية. وتثنية الذكرين والأنثيين: باعتبار ذكور وإناث النوعين.

وتعدية فعل: ﴿حرم﴾ إلى ﴿آلذكرين﴾ و ﴿الأنثيين﴾ وما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، على تقديره مضاف معلوم من السياق، أي: حرم أكل الذكرين أم الأنثيين إلى آخره.

والتعريف في قوله: ﴿آلذكرين﴾ وقوله: ﴿أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ تعريف الجنس كما في الكشاف.

والباء في ﴿بعلم﴾: يحتمل أن تكون لتعدية فعل الإنباء، فالعلم بمعنى المعلوم.". (١)

١٣٥-"ويحتمل أن تكون للملابسة، أي نبئوني إنباء ملابسا للعلم، فالعلم ما قابل الجهل أي إنباء العلم. ولما كانوا عاجزين عن الإنباء دل ذلك على أنهم حرموا ما حرموا بجهالة وسوء عقل لا بعلم، وشأن من يتصدى للتحريم والتحليل أن يكون ذا علم.

وقوله: ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي في قولكم: إن الله حرم ما ذكرتم أنه محرم، لأنهم لو كانوا صادقين في تحريم ذلك لاستطاعوا بيان ما حرمه الله، ولأبدوا حكمة تحريم ما حرموه ونسبوا تحريمه إلى الله تعالى.

وقوله: ﴿من الأبل اثنين﴾ إلى قوله ﴿أرحام الأنثيين﴾ عطف على: ﴿ومن المعز اثنين﴾ لأنه من تمام تفصيل عدد ثمانية أزواج، والقول فيه كالقول في سابقه، والمقصود إبطال تحريم البحيرة والسائبة والحامي وما في بطون البحائر والسوائب.

و ﴿أم﴾ في قوله: ﴿أم كنتم شهداء﴾ منقطعة للإضراب **الانتقالي**. فتؤذن باستفهام مقدر بعدها حيثما وقعت، وهو إنكاري تقريري أيضا بقرينة السياق.

والشهداء: الحاضرون جمع شهيد وهو الحاضر، أي شهداء حين وصاكم الله، ف ﴿إذ﴾ ظرف لـ ﴿شهداء﴾ مضاف إلى جملة: ﴿وصاكم﴾.

والإيصاء: الأمر بشيء يفعل في غيبة الآمر فيؤكد على المأمور بفعله لأن شأن الغائب التأكد. وأطلق الإيصاء على ما أمر الله به لأن الناس لم يشاهدوا الله حين فعلهم ما يأمرهم به، فكان أمر الله مؤكدا فعبر عنه بالإيصاء تنبيها لهم على الاحتراز من التفويت في أوامر الله، ولذلك أطلق على أمر الله الإيصاء في مواضع كثيرة من القرآن، كقوله: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ [النساء: ١١].

والإشارة في قوله ﴿بهذا﴾ إلى التحريم المأخوذ من قوله ﴿حرم﴾ وذلك لأن في إنكار مجموع التحريم تضمنا لإبطال تحريم معين ادعوه، وهم يعرفونه، فلذلك صحت الإشارة إلى التحريم على الإجمال، وخص بالإنكار حالة المشاهدة، تهكما بهم،

---

(١) التحرير والتنوير ٧/٩٩

لأنهم كانوا يكذبون الرسول صلى الله عليه وسلم فحالهم حال من يضع نفسه موضع من يحضر حضرة الله تعالى لسماع أوامره، أو لأن ذلك لما لم يكن من شرع إبراهيم ولا إسماعيل "عليهم السلام"، ولم يأت به رسول من الله، ولم يدعوه، فلم يبق إلا أن الله خاطبهم به مباشرة.

وقوله: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ مترتب على الإنكار في قوله: ﴿آلذكرين حرم أم الأنثيين﴾ إلى قوله ﴿إذ وصاكم الله بهذا﴾ ، أي فيترتب على ذلك". (١)

١٣٦-"والموازنة بينها وبين ما هنا.

[١٥٠] ﴿قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون﴾.

استئناف ابتدائي: للانتقال من طريقة الجدل والمناظرة في إبطال زعمهم، إلى إبطاله بطريقة التبيين، أي أحضروا من يشهدون أن الله حرم هذا، تقصا لإبطال قولهم من سائر جهاته. ولذلك أعيد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بان يقول لهم ما يظهر كذب دعواهم.

وإعادة فعل ﴿قل﴾ بدون عطف لاسترعاء الأسماع ولوقوعه على طريقة المحاورة كما قدمنا آنفا.

و ﴿هلم﴾ اسم فعل أمر للحضور أو الإحضار، فهي تكون قاصرة كقوله تعالى ﴿هلم إلينا﴾ [الأحزاب: ١٨] ومتعدية كما هنا، وهو في لغة أهل الحجاز يلزم حالة واحدة فلا تلحقه علامات مناسبة للمخاطب، فتقول: هلم يا زيد، وهلم يا هند، وهكذا، وفي لغة أهل العالية أعني بني تميم تلحقه علامات مناسبة، يقولون: هلمي يا هند، وهلما، وهلموا، وهلممن، وقد جاء في هذه الآية على الأفصح فقال: ﴿هلم شهداءكم﴾.

والشهداء: جميع شهيد بمعنى شاهد، والأمر للتعجيز إذ لا يلقون شهداء يشهدون أن الله حرم ما نسبوا إليه من شؤون دينهم المتقدم ذكرها. وأضيف الشهداء إلى ضمير المخاطبين لزيادة تعجيزهم، لأن شأن المحق أن يكون له شهداء يعلمهم فيحضرهم إذا دعي إلى إحقاق حقه، كما يقال للرجل: اركب فرسك والحق فلانا، لأن كل ذي بيت في العرب لا يعدم أن يكون له فرس، فيقول ذلك له من لا يعلم له فرسا خاصا ولكن الشأن أن يكون له فرس ومنه قوله تعالى: ﴿يدنين عليهن من جلابيبهن﴾ [الأحزاب: ٥٩] وقد لا يكون لإحداهن جلباب كما ورد في الحديث أنه سئل: إذا لم يكن لإحدانا جلباب، قال: "لتلبسها أختها من جلبابها".

ووصفهم بالموصول لزيادة تقرير معنى إعداد أمثالهم للشهادة، فالطالب ينزل نفسه منزلة من يظنهم لا يخلون عن شهداء بحقهم من شأنهم أن يشهدوا لهم وذلك تمهيد لتعجيزهم البين إذا لم يحضروهم، كما هو الموثوق به منهم ألا ترى قوله: ﴿أم

(١) التحرير والتنوير ٧/١٠٠

كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا﴾ [الأنعام: ١٤٤] فهو يعلم أن ليس ثمة شهداء.". (١)

١٣٧-"يعدلون﴾ في أول هذه السورة [١].
[١٥١] ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾.
استئناف ابتدائي **للانتقال** من إبطال تحريم ما ادعوا تحريمه من لحوم الأنعام، إلى دعوتهم لمعرفة المحرمات، التي علمها حق وهو أحق بأن يعلموه مما اختلفوا من افترائهم وموهوا بجدلهم. والمناسبة لهذا **الانتقال** ظاهرة فالمقام مقام تعليم وإرشاد، ولذلك ابتدئ بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام بفعل القول استرعاء للأسماع كما تقدم آنفا.
وعقب بفعل: ﴿تعالوا﴾ اهتماما بالغرض المنتقل إليه بأنه أجدى عليهم من تلك السفاسف التي اهتموا بها على أسلوب قوله تعالى: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر﴾ [البقرة: ١٧٧] الآيات. وقوله: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر﴾ [التوبة: ١٩] الآية، ليعلموا البون بين ما يدعون إليه قومهم وبين ما يدعوهم إليه الإسلام، من جلائل الأعمال، فيعلموا أنهم قد أضاعوا أزمانهم وأذهانهم.
وافتتاحه بطلب الحضور دليل على أن الخطاب للمشركين الذين كانوا في إعراض. وقد تلا عليهم أحكاما كانوا جارين على خلافها مما أفسد حالهم في جاهليتهم، وفي ذلك تسجيل عليهم بسوء أعمالهم مما يؤخذ من النهي عنها والأمر بضدها.
وقد انقسمت الأحكام التي تضمنتها هذه الجمل المتعاطفة في الآيات الثلاث المفتتحة بقوله ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ إلى ثلاثة أقسام:
الأول: أحكام بها إصلاح الحالة الاجتماعية العامة بين الناس وهو ما افتتح بقوله ﴿ألا تشركوا به شيئا﴾.
الثاني: ما به حفظ نظام تعامل الناس بعضهم مع بعض وهو المفتتح بقوله ﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾ [الأنعام: ١٥٢].
الثالث: أصل كلي جامع لجميع الهدى وهو اتباع طريق الإسلام والتحرز من". (٢)

١٣٨-"من رتبة تلاوة ما حرمه الله من المحرمات وما فرضه من اتباع صراط الإسلام. وتعددت آراء المفسرين في محمل "ثم" هنا إلى آراء: للفراء، والزجاج، والزمخشري، وأبي مسلم، وغيرهم، كل يروم التخلص من هذا المضيق.
والوجه عندي: أن "ثم" ما فارقت المعروف من لإفادة التراخي الرتبي، وأن تراخي رتبة إتيان موسى عليه السلام الكتاب عن تلاوة ما حرم الله في القرآن، وما أمر به من ملازمة صراط الإسلام، إنما يظهر بعد النظر إلى المقصود من نظم الكلام، فإن المقصود من ذكر إيتاء موسى عليه السلام الكتاب ليس لذاته بل هو التمهيد لقوله: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾ [الأنعام:

---

(١) التحرير والتنوير ١١٤/٧
(٢) التحرير والتنوير ١١٦/٧

٩٢] ليرتب عليه قوله: ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا﴾ إلى قوله ﴿وهدى ورحمة﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧]، فمعنى الكلام: وفوق ذلك فهذا كتاب أنزلناه مبارك جمع فيه ما أوتيه موسى عليه السلام وهو أعظم ما أوتيه الأنبياء من قبله وما في القرآن: الذي هو مصدق لما بين يديه ومهيمن عليه؛ إن اتبعتموه واتقيتم رحمناكم ولا معذرة لكم أن تقولوا لو أنزل لنا كتاب لكنا أفضل اهتداء من أهل الكتابين، فهذا غرض أهم جمعا لاتباع جميع ما اشتمل عليه القرآن، وأدخل في إقناع المخاطبين بمزية أخذهم بهذا الكتاب.

ومناسبة هذا **الانتقال**: ما ذكر من صراط الله الذي هو الإسلام، فإن المشركين لما كذبوا دعوة الإسلام ذكرهم الله بأنه آتى موسى عليه السلام الكتاب كما اشتهر بينهم حسبما بيناه عند قوله تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾ [٩١] الآية، في هذه السورة، لينتقل إلى ذكر القرآن والتحريض على اتباعه فيكون التذكير بكتاب موسى عليه السلام تمهيدا لذلك الغرض.

والكتاب هو المعهود، أي التوراة، و ﴿تماما﴾ حال من الكتاب،والتمام الكمال، أي كان ذلك الكتاب كمالا لما في بني إسرائيل من الصلاح الذي هو بقية مما تلقوه عن أسلافهم: من صلاح إبراهيم، وما كان عليه إسحاق ويعقوب والأسباط عليهم السلام، فكانت التوراة مكملة لصلاحهم، ومزيلة لما اعتراهم من الفساد، وأن إزالة الفساد تكملة للصلاح. ووصف التوراة بالتمام مبالغة في معنى المتم.

والموصول في قوله: ﴿على الذي أحسن﴾ مراد به الجنس، فلذلك استوى مفرده وجمعه. والمراد به هنا الفريق المحسن، أي تماما لإحسان المحسنين من بني إسرائيل، فالفعل منزل منزلة اللازم، أي الذي اتصف بالإحسان.". (١)

١٣٩-"كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة﴾ [البقرة: ٢٦١] فذلك خاص بالإنفاق في الجهاد. وفي الحديث: "من هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة".

وقرأ الجمهور: ﴿عشر أمثالها﴾ بإضافة ﴿عشر﴾ إلى ﴿أمثالها﴾ وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، وقرأ يعقوب بتنوين ﴿عشر﴾ ورفع ﴿أمثالها﴾، على أنه صفة لـ"عشر"، أي فله عشر حسنات ماثلة للحسنة التي جاء بها. ومماثلة الجزاء للحسنة موكولة إلى علم الله تعالى وفضله.

وإنما قال في جانب السيئة فلا يجزى إلا مثلها بصيغة الحصر لأجل ما في صيغته من تقديم جانب النفي، اهتماما به، لإظهار العدل الإلهي، فالحصر حقيقي، وليس في الحصر الحقيقي رد اعتقاد بل هو إخبار عما في نفس الأمر، ولذلك كان يساويه أن يقال: ومن جاء بالسيئة فيجزى مثلها، لولا الاهتمام بجانب نفي الزيادة على المماثلة. ونظيره قول النبي صلى الله عليه وسلم حين سألته هند بنت عتبة فقالت: إن أبا سفيان رجل مسيك فهل علي حرج أن أطعم من الذي له عيالنا، فقال لها: "لا إلا بالمعروف" ولم يقل لها: أطعميهم بالمعروف. وقد جاء على هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم "ومن

---

(١) التحرير والتنوير ١٣١/٧

هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة"؛ فأكدها بواحدة تحقيقا لعدم الزيادة في جزاء السيئة.

ولذلك أعقبه بقوله: ﴿وهم لا يظلمون﴾ والضمير يعود إلى ﴿من جاء بالسيئة﴾، إظهارا للعدل، فلذلك سجل الله عليهم بأن هذا لا ظلم فيه لينصفوا من أنفسهم. وأما عد عود الضميرين إلى الفريقين فلا يناسبه فريق أصحاب الحسنات، لأنه لا يحسن أن يقال للذي أكرم وأفيض عليه الخير إنه غير مظلوم.

[١٦١] ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾

استئناف ابتدائي للانتقال من مجادلة المشركين، وما تخللها، إلى فذلك ما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن، غلقا لباب المجادلة مع المعرضين، وإعلانا بأنه قد تقلد لنفسه ما كان يجادلهم فيه ليتقلدوه وأنه ثابت على ما جاءهم به، وأن إعراضهم لا يزلزله عن الحق.". (١)

١٤٠-"والفعل علة لفظية: وهي كون المصدر المؤول يشبه الضمير في أنه لا يوصف، فكان أعرف من غيره، فلذلك كان حقيقا بأن يكون هو الاسم، لأن الأصل أن الأعرف من الجزأين وهو الذي يكون مسندا إليه.

[٧,٦] ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾.

الفاء في قوله: ﴿فلنسألن﴾ عاطفة، لترتيب الأخبار لأن وجود لام القسم علامة على أنه كلام أنف، انتقال من خبر إلى خبر، ومن قصة إلى قصة، وهو انتقال من الخبر عن حالتهم الدنيوية إلى الخبر عن أحوالهم في الآخرة.

وأكد الخبر بلام القسم ونون التوكيد لإزالة الشك في ذلك.

وسؤال الذين أرسل إليهم سؤال عن بلوغ الرسالة. وهو سؤال تقريع في ذلك المحشر، قال تعالى: ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ [القصص:٦٥]

وسؤال المرسلين عن تبليغهم الرسالة سؤال إرهاب لأممهم، لأنهم إذا سمعوا شهادة رسلهم عليهم أيقنوا بأنهم مسوقون إلى العذاب، وقد تقدم ذلك في قوله: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾ [النساء: ٤١] وقوله: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم﴾ [المائدة: ١٠٩].

و ﴿الذين أرسل إليهم﴾ ، هم أمم الرسل، وعبر عنهم بالموصول لما تدل عليه الصلة من التعليل، فإن فائدة الإرسال هي إجابة الرسل، فلا جرم أن يسأل عن ذلك المرسل إليهم، ولما كان المقصود الأهم من السؤال هو الأمم، لإقامة الحجة عليهم في استحقاق العقاب، قدم ذكرهم على ذكر الرسل، ولما تدل عليه صلة "الذي" وصلة "ال" من أن المسؤول عنه هو ما يتعلق بأمر الرسالة، وهو سؤال الفريقين عن وقوع التبليغ.

ولما دل على هذا المعنى التعبير: ف ﴿الذين أرسل إليهم﴾ والتعبير: ف ﴿المرسلين﴾ لم يحتج إلى ذكر جواب المسؤولين لظهور أنه إثبات التبليغ والبلاغ.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٦/٧

والفاء في قوله: ﴿فلنقصن عليهم﴾ للتفريع والترتيب على قوله: ﴿فلنسألن﴾ ، أي لنسألنهم ثم نخبرهم بتفصيل ما أجمله جوابهم، أي فلنقصن عليهم تفاصيل أحوالهم، أي فعلمنا غني عن جوابهم ولكن السؤال لغرض آخر.". (١)

١٤١-"له أثر في التزكية النفسية والموعظة.

والضمير الذي اتصلت به "إن" عائد إلى الشيطان، وعطف: ﴿وقبيله﴾ على الضمير المستتر في قوله: ﴿يراكم﴾ ولذلك فصل بالضمير المنفصل. وذكر القبيل، وهو بمعنى القبيلة، للدلالة على أن له أنصارا ينصرونه على حين غفلة من الناس، وفي هذا المعنى تقريب حال عداوة الشياطين بما يعهده العرب من شدة أخذ العدو عدوه على غرة من المأخوذ، تقول العرب: أتاهم العدو وهم غارون.

وتأكيد الخبر بحرف التوكيد لتنزيل المخاطبين في إعراضهم عن الحذر من الشيطان وفتنته منزلة من يترددون في أن الشيطان يراهم وفي أنهم لا يرونه.

و ﴿من حيث لا ترونهم﴾ ابتداء مكان مبهم تنتفي فيه رؤية البشر، أي من كل مكان لا ترونهم فيه، فيفيد: إنه يراكم وقبيله وأنتم لا ترونه قريبا كانوا أو بعيدا، فكانت الشياطين محجوبين عن أبصار البشر، فكان ذلك هو المعتاد من الجنسين، فرؤية ذوات الشياطين منتفية لا محالة، وقد يخول الله رؤية الشياطين أو الجن متشكلة في أشكال الجسمانيات، معجزة للأنبياء كما ورد في الصحيح: إن عفريتا من الجن تفلت علي الليلة في صلاتي فهممت أن أوثقه في سارية من المسجد الحديث، أو كرامة للصالحين من الأمم كما في حديث الذي جاء يسرق من زكاة الفطر عند أبي هريرة، وقول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة: ذلك شيطان كما في الصحيحين، ولا يكون ذلك إلا على تشكل الشيطان أو الجن في صورة غير صورته الحقيقية، بتسخير الله لتتمكن منه الرؤية البشرية، فالمرئي في الحقيقة الشكل الذي ماهية الشيطان من ورائه، وذلك بمنزلة رؤية مكان يعلم أن فيه شيطانا، وطريق العلم بذلك هو الخبر الصادق، فلولا الخبر لما علم ذلك.

وجملة: ﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ مستأنفة استئنافا ابتدائيا قصد منه **الانتقال** إلى أحوال المشركين في أئتمارهم بأمر الشيطان، تحذيرا للمؤمنين من الانتظام في سلكهم، وتنفيرا من أحوالهم، والمناسبة هي التحذير وليس لهذه الجملة تعلق بجملة: ﴿إنه يراكم هو وقبيله﴾ .

وتأكيد الخبر بحرف التأكيد للاهتمام بالخبر بالنسبة لمن يسمعه من المؤمنين.

والجعل هنا جعل التكوين، كما يعلم من قوله تعالى: ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ [البقرة: ٣٤] بمعنى خلقنا الشياطين.". (٢)

١٤٢-"قالوا وجدنا عليها آباءنا، وليس المراد بالإنكار والنهي خصوص نهي الإسلام إياهم عن ضلالهم، ولكن المراد نهي أي ناه وإنكار أي منكر، فقد كان ينكر عليهم الفواحش من لا يوافقونهم عليها من القبائل، فإن دين المشركين كان

---

(١) التحرير والتنوير ٨/٢١

(٢) التحرير والتنوير ٨/٦٢

أشتاتا مختلفا، وكان ينكر عليهم ذلك من خلعوا الشرك من العرب مثل زيد بن عمرو بن نفيل، وأمية ابن أبي الصلت، وقد قال لهم زيد بن عمرو: إن الله خلق الشاة وأنزل لها الماء من السماء وأنبت لها العشب ثم أنتم تذبحونها لغيره وكان ينكر عليهم من يتحرج من أفعالهم ثم لا يسعه لا يسعه إلا اتباعهم فيها إكراها.

وكان ينكر عليهم من لا توافق أعمالهم هواه: كما وقع لامرئ القيس، حيث عزم على قتال بني أسد بعد قتلهم أباه حجرا، فقصد ذا الخلصة صنم خثعم واستقسم عنده بالأزلام فخرج له الناهي فكسر الأزلام وقال:

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا ... مثلي وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا

ثم جاء الإسلام فنعى عليهم أعمالهم الفاسدة وأسمعهم قوارع القرآن فحينئذ تصدوا للاعتذار. وقد علم من السياق تشنيع معذرتهم وفساد حجتهم.

ودلت الآية على إنكار ما كان مماثلا لهذا الاستدلال وهو كل دليل توكأ على اتباع الآباء في الأمور الظاهر فسادها وفحشها، وكل دليل استند إلى ما لا قبل للمستدل بعلمه، فإن قولهم: ﴿والله أمرنا بها﴾ دعوى باطلة إذ لم يبلغهم أمر الله بذلك بواسطة مبلغ، فإنهم كانوا ينكرون النبوءة، فمن أين لهم تلقي مراد الله تعالى.

وقد رد الله ذلك عليهم بقوله لرسوله: ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ فأعرض عن رد قولهم: ﴿وجدنا عليها آباءنا﴾ لأنه إن كان يراد رده من جهة التكذيب فهم غير كاذبين في قولهم، لأن آباءهم كانوا يأتون تلك الفواحش، وإن كان يراد رده من جهة عدم صلاحيته للحجة فإن ذلك ظاهر، لأن الإنكار والنهي ظاهر **انتقالهما** إلى آبائهم، إذ ما جاز على المثل يجوز على المماثل، فصار رد هذه المقدمة من دليلهم بديهيا وكان أهم منه رد المقدمة الكبرى، وهي مناط الاستدلال، أعني قولهم: ﴿والله أمرنا بها﴾ .

فقوله: ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ نقض لدعواهم أن الله أمرهم بها أي بتك الفواحش، وهو رد عليهم، وتعليم لهم، وإفاقة لهم من غرورهم، لأن الله متصف بالكمال". (١)

١٤٣-"ولم يعاندوا، ولم يستكبروا، ودل عليه قولهم ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ مع ما يسر الله لهم من قبولهم الدعوة **وانتقالهم** الأمر، فإنه من تمام المنة المحمود عليها، وهذا التيسير هو الذي حرمه المكذبون المستكبرون لأجل ابتدائهم بالتكذيب والاستكبار، دون النر والاعتبار.

وجملة ﴿وما كنا لنهتدي﴾ في موضع الحال من الضمير المنصوب، أي هدانا في هذا الحال حال بعدنا عن الاهتداء، وذلك مما يؤذن بكبر منة الله تعالى عليهم، وبتعظيم حمدهم وتجزيله، ولذلك جاءوا بجملة الحمد مشتملة على أقصى ما تشتمل عليه من الخصائص التي تقدم بيانها في سورة الفاتحة[٦].

ودل قوله: ﴿وما كنا لنهتدي﴾ على بعد حالهم السالفة عن الاهتداء، كما أفاده نفي الكون مع لام الجحود، حسبما تقدم

---

(١) التحرير والتنوير ٦٥/٨

عند قوله تعالى: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة﴾ الآية في سورة آل عمران [٧٩]، فإنهم كانوا منغمسين في ضلالات قديمة قد رسخت في أنفسهم، فأما قادتهم فقد زينها الشيطان لهم حتى اعتقدوها وسنوها لمن بعدهم، وأما دهماؤهم وأخلافهم فقد رأوا قدوتهم على تلك الضلالات، وتأصلت فيهم، فما كان من السهل اهتداؤهم، لولا أن هداهم الله ببعثة الرسل وسياستهم في دعوتهم وأن قذف في قلوبهم قبول الدعوة.

ولذلك عقبوا تحميدهم وثناءهم على الله بقولهم: ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ فتلك جملة مستأنفة، استئنافا ابتدائيا، لصدروها عن ابتهاج نفوسهم واغتباطهم بما جاءتهم به الرسل، فجعلوا يتذكرون أسباب هدايتهم ويعتبرون بذلك ويغتبطون، تلذذا بالتكلم به، لأن تذكر الأمر المحبوب والحديث عنه مما تلذ به النفوس، مع قصد الثناء على الرسل.

وتأكيد الفعل بلام القسم وبقد، مع أنهم غير منكرين لمجيء الرسل: إما لأنه كناية عن الإعجاب بمطابقة ما وعدهم به الرسل من النعيم لما وجدوه مثل قوله تعالى: ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين﴾ [الزخرف: ٧١] وقول النبي صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"، وإما لأنهم أرادوا بقولهم هذا الثناء على الرسل والشهادة بصدقهم جمعا مع الثناء على الله، فأتوا بالخبر في صورة الشهادة المؤكدة التي لا تردد فيها.

وقرأ ابن عامر: ﴿وما كنا لنهتدي﴾ بدون واو قبل "ما" وكذلك كتبت في المصحف الإمام الموجه إلى الشام، وعلى هذه القراءة تكون هذه الجملة مفصولة عن التي". (١)

١٤٤-"العجب قول المنعزلة بوجوب الثواب عقلا، ولعلهم أوقعهم فيه اشتباه حصول الثواب بالسلامة من العقاب، مع أن الواسطة بين الحالين بينه لأولي الألباب، وهذا أحسن مما يطيل به أصحابنا معهم في الجواب.

وباء السببية اقتضت الذي أعطاهم منازل الجنة أراد به شكر أعمالهم وثوابها من غير قصد تعاوض ولا تقابل فجعلها كالشيء الذي استحقه العامل عوضا عن عمله فاستعار لها باء السببية.

[٤٥,٤٤] ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين * الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون﴾.

جملة ﴿ونادى أصحاب الجنة﴾ يجوز أن تكون معطوفة على جملة ﴿وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ [الأعراف: ٤٣] إلخ، عطف القول على القول، إذ حكي قولهم المنبئ عن بهجتهم بما هم فيه من النعيم، ثم حكي ما يقولونه لأهل النار حينما يشاهدونهم.

ويجوز أن تكون معطوفة على جملة ﴿ونودوا أن تلكم الجنة﴾ [الأعراف: ٤٣] عطف القصة على القصة بمناسبة **الانتقال** من ذكر نداء من قبل الله إلى ذكر مناداة أهل الآخرة بعضهم بعضا، فعلى الوجهين يكون التعبير عنهم بأصحاب الجنة دون ضميرهم توطئة لذكر نداء أصحاب الأعراف ونداء أصحاب النار، ليعبر عن كل فريق بعنوانه وليكون منه محسن

---

(١) التحرير والتنوير ٨/١٠٢

الطباق في مقابلته بقوله: ﴿أصحاب النار﴾ .
وهذا النداء خطاب من أصحاب الجنة، عبر عنه بالنداء كناية عن بلوغه إلى أسماع أصحاب النار من مسافة سحيقة البعد، فإن سعة الجنة وسعة النار تقتضيان ذلك لا سيما مع قوله ﴿وبينهما حجاب﴾ [لأعراف: ٤٦]، ووسيلة بلوغ هذا الخطاب من الجنة إلى أصحاب النار وسيلة عجيبة غير متعارفة. وعلم الله وقدرته لا حد لمتعلقاتهما.
و"أن" في قوله ﴿أن قد وجدنا﴾ تفسيرية للنداء. والخبر الذي هو ﴿ما وعدنا ربنا حقا﴾ مستعمل في لازم معناه وهو الاعتباط بحالهم، وتنغيص أعدائهم بعلمهم برفاهية حالهم، والتورك على الأعداء إذ كانوا يحسبونهم قد ضلوا حين فارقوا دين آبائهم، وأنهم حرموا أنفسهم طيبات الدنيا بالانكفاف عن المعاصي، وهذه معان متعددة كلها من لوازم الإخبار، والمعاني الكنائية لا يمتنع تعددها لأنها تبع للوازم العقلية، وهذه الكناية". (١)

١٤٥-"ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾.
جملة ﴿وهو الذي يرسل الرياح﴾ عطف على جملة: ﴿يغشي الليل النهار﴾ [الأعراف: ٥٤] وقد حصلت المناسبة بين آخر الجمل المعترضة وبين الجملة المعترض بينها وبين ما عطفت عليه بأنه لما ذكر قرب رحمته من المحسنين ذكر بعضا من رحمته العامة وهو المطر. فذكر إرسال الرياح هو المقصود الأهم لأنه دليل على عظم القدرة والتدبير، ولذلك جعلناه معطوفا على جملة: ﴿يغشي الليل النهار﴾ [الأعراف: ٥٤] أو على جملة :﴿ألا له الخلق والأمر﴾ [الأعراف: ٥٤]. وذكر بعض الأحوال المقارنة لإرسال الرياح يحصل منه إدماج الامتنان في الاستدلال وذلك لا يقتضي أن الرياح لا ترسل إلا للتبشير بالمطر، ولا أن المطر لا ينزل إلا عقب إرسال الرياح، إذ ليس المقصود تعليم حوادث الجو، وإذ ليس في الكلام ما يقتضي انحصار الملازمة وفيه تعريض ببشارة المؤمنين بإغداق الغيث عليهم ونذارة المشركين بالقحط والجوع كقوله: ﴿وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا﴾ [الجن:١٦] وقوله ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ [الدخان: ١٠].
وأطلق الإرسال على الانتقال على وجه الاستعارة، فإرسال الرياح هبوبها من المكان الذي تهب فيه ووصولها، وحسن هذه الاستعارة أن الريح مسخرة إلى المكان الذي يريد الله هبوبها فيه فشبهت بالعاقل المرسل إلى جهة ما، ومن بدائع هذه الاستعارة أن الريح لا تفارق كرة الهواء كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾ الآية في سورة البقرة [١٦٤]، فتصريف الرياح من جهة إلى جهة أشبه بالإرسال منه بالإيجاد. والرياح: جمع ريح، وقد تقدم في سورة البقرة.
وقرأ الجمهور ﴿الرياح﴾ بصيغة الجمع وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف: الريح بصيغة المفرد باعتبار الجنس، فهو مساو لقراءة الجمع، قال ابن عطية: من قرأ بصيغة الجمع فقراءته أسعد، لأن الرياح حيثما وقعت في القرآن فهي مقترنة بالرحمة، كقوله: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ [الحجر: ٢٢] وأكثر ذكر الريح المفردة أن تكون مقترنة بالعذاب كقوله: ﴿ريح فيها عذاب أليم﴾ [الاحقاف: ٢٤] ونحو ذلك. ومن قرأ بالإفراد فتقييدها بالنشر يزيل الاشتراك أي الإيهام. والتحقيق أن

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٤/٨

التعبير بصيغة الجمع قد يراد به تعدد المهاب أو حصول الفترات في الهبوب، وأن الإفراد قد يراد به أنها مدفوعة دفعة". (١)

١٤٦-"وجملة: ﴿إنكم لتأتون الرجال﴾ مبينة لجملة ﴿أتأتون الفاحشة﴾ ، والتأكيد بإن واللام كناية عن التوبيخ لأنه مبني على تنزيلهم منزلة من ينكر ذلك لكونهم مسترسلون عليه غير سامعين لنهي الناهي. والإتيان كناية عن عمل الفاحشة.

وقرأ نافع، والكسائي، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر: ﴿إنكم﴾ بهمزة واحدة مكسورة بصيغة الخبر، فالبيان راجع إلى الشيء المنكر بهمزة الإنكار في ﴿أتأتون الفاحشة﴾ ، وبه يعرف بيان الإنكار، ويجوز اعتباره خبرا مستعملا في التوبيخ، ويجوز تقدير همزة استفهام حذفت للتخفيف ولدلالة ما قبلها. وقرأه البقية: ﴿أإنكم﴾ بهمزتين على صيغة الاستفهام فالبيان للإنكار، وبه يعرف بيان المنكر، فالقراءتان مستويتان.

والشهوة: الرغبة في تحصيل شيء مرغول، وهي مصدر شهي كرضى، جاء على صيغة الفعلة وليس مرادا به المرة.

وانتصب ﴿شهوة﴾ على المفعول لأجله. والمقصود من هذا المفعول تفظيع الفاحشة وفاعليها بأنهم يشتهون ما هو حقيق بأن يكره ويستفظع.

وقوله: ﴿من دون النساء﴾ زيادة في التفظيع وقطع للعذر في فعل هذه الفاحشة، وليس قيدا للإنكار، فليس إتيان الرجال مع إتيان النساء بأقل من الآخر فظاعة، ولكن المراد أن إتيان الرجال كله واقع في حالة من حقها إتيان النساء، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم﴾ [الشعراء: ١٦٦].

و ﴿بل﴾ للإضراب **الانتقالي**، **للانتقال** من غرض الإنكار إلى غرض الذم والتحقير والتنبيه إلى حقيقة حالهم.

والإسراف مجاوزة العمل مقدار أمثاله في نوعه، أي المسرفون في الباطل والجرم، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿ولا تأكلوها إسرافا﴾ في سورة النساء [٦] وعند قوله تعالى: ﴿ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ في سورة الأنعام [١٤١].

ووصفهم بالإسراف بطريق الجملة الاسمية الدالة على الثبات، أي أنتم قوم تمكن منهم الإسراف في الشهوات فلذلك اشتهوا شهوة غريبة لما سئموا الشهوات المعتادة. وهذه شنشنة الاسترسال في الشهوات حتى يصبح المرء لا يشفي شهوته شيء، ونحوه قوله عنهم في آية أخرى: ﴿بل أنتم قوم عادون﴾ [الشعراء: ١٦٦].". (٢)

١٤٧-"تنويها بشأن هذا الخبر ليعلمه السامعون.

واللام الداخلة في خبر ﴿وجدنا﴾ لام ابتداء، باعتبار كون ذلك الخبر خبرا من جملة هي خبر عن الاسم الواقع بع "إن"، وجلبت اللام للتفرقة بين المخففة والنافية. وقد تقدم نظير هذا عند قوله تعالى: ﴿وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [آل عمران: ١٦٤].

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٧/٨

(٢) التحرير والتنوير ١٧٩/٨

وأسند حكم النكث إلى أكثر أهل القرى، تبيينا لكون ضمير ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ جرى على التغليب، ولعل نكتة هذا التصريح في خصوص هذا الحكم أنه حكم مذمة ومسبة، فناسبت محاشاة من لم تلتصق به تلك المسبة.

[١٠٣] ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملأه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ .

انتقال من أخبار الرسالات السابقة إلى أخبار رسالة عظيمة لأمة باقية إلى وقت نزول القرآن فضلها الله بفضله فلم توف حق الشكر وتلقت رسولها بين طاعة وإباء وانقياد ونفار. فلم يعاملها الله بالاستئصال ولكنه أراها جزاء مختلف أعمالها، جزاء وفاقا، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

وخصت بالتفضيل قصة إرسال موسى لما تحتوي عليه من الحوادث العظيمة، والأنباء القيمة. ولأن رسالته جاءت بأعظم شريعة بين يدي شريعة الإسلام، وأرسل رسولها هاديا وشارعا تمهيدا لشريعة تأتي لأمة أعظم منها تكون بعدها، ولأن حال المرسل إليهم أشبه بحال من أرسل إليهم محمد صلى الله عليه وسلم فإنهم كانوا فريقين كثيرين اتبع أحدهم موسى وكفر به الآخر، كما اتبع محمدا عليه الصلاة والسلام جمع عظيم وكفر به فريق كثير. فأهلك الله من كفر ونصر من آمن.

وقد دلت ﴿ثم﴾ على المهلة: لأن موسى عليه السلام بعث بعد شعيب بزمن طويل، فإنه توجه إلى مدين حين خروجه من مصر رجا الله أن يهديه فوجد شعيبا. وكان اتصاله به ومصاهرته تدريجا له في سلم قبول الرسالة عن الله تعالى. فالمهلة باعتبار مجموع الأمم المحكي عنها قبل، فإن منها ما بينه وبين موسى قرون، مثل قوم نوح، ومثل عاد وثمود، وقوم لوط، فالمهلة التي دلت عليها ﴿ثم﴾ متفاوتة المقدار، مع ما يقتضيه". (١)

١٤٨-"مشدودا على خشبة، وتقدم في قوله: ﴿وما قتلوه وما صلبوه﴾ في سورة النساء [١٥٧]، وعلى هذا يكون توعدهم بنوعين من العذاب، والوعيد موجه إلى جماعتهم فعلم أنه جعلهم فريقين: فريق يعذب بالقطع من خلاف، وفريق يعذب بالصلب والقتل، فعلى هذا ليس المعنى على أنه يصلبهم بعد أن يقطعهم، إذ لا فائدة في تقييد القطع بكونه من خلاف حينئذ، ويحتمل أن يراد بالصلب: الصلب دون قتل، فيكون أراد صلبهم بعد القطع ليجعلهم نكالا ينذعر بهم الناس، كيلا يقدم أحد على عصيان أمره من بعد، فتكون ﴿ثم﴾ دالة على الترتيب والمهلة، ولعل المهلة قصد منها مدة كي واندمال موضع القطع، وهذا هو المناسب لظاهر قوله ﴿أجمعين﴾ المفيد أن الصلب ينالهم كلهم.

وفصلت جملة ﴿قالوا إنا إلى ربنا منقلبون﴾ لوقوعها في سياق المحاورة.

والانقلاب: الرجوع وقد تقدم قريبا، وهذا جواب عن وعيد فرعون بأنه وعيد لا يضيرهم، لأنهم يعلمون أنهم صائرون إلى الله رب الجميع، وقد جاء هذا الجواب موجزا إيجازا بديعا، لأنه يتضمن أنهم يرجون ثواب الله على ما ينالهم من عذاب فرعون، ويرجون منه مغفرة ذنوبهم، ويرجون العقاب لفرعون على ذلك، وإذا كان المراد بالصلب القتل وكان المراد تهديد جميع المؤمنين، كان قولهم: ﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾ تشوقا إلى حلول ذلك بهم محبة للقاء الله تعالى، فإن الله تعالى لما هداهم إلى الإيمان أكسبهم محبة لقائه، ثم بينوا أن عقاب فرعون لا غضاضة عليهم منه، لأنه لم يكن عن جناية تصمهم بل كان

---

(١) التحرير والتنوير ٨/٢٢١

على الإيمان بآيات الله لما ظهرت لهم. أي: فإنك لا تعرف لنا سببا يوجب العقوبة غير ذلك.

والنقم: بسكون القاف وبفتحها، الإنكار على الفعل، وكراهة صدوره وحقد على فاعله، ويكون باللسان وبالعمل، وفعله من باب ضرب وتعب، والأول أفصح، ولذلك قرأه الجميع ﴿وما تنقم﴾ بكسر القاف.

والاستثناء في قولهم: ﴿إلا أن آمنا بآيات ربنا﴾ متصل، لأن الإيمان ينقمه فرعون عليهم، فليس في الكلام تأكيد الشيء بما يشبه ضده.

وجملة ﴿ربنا أفرغ علينا صبرا﴾ من تمام كلامهم، وهي **انتقال** من خطابهم فرعون إلى التوجه إلى دعاء الله تعالى، ولذلك فصلت عن الجملة التي قبلها.

ومعنى قوله: ﴿ربنا أفرغ علينا صبرا﴾ اجعل لنا طاقة لتحمل ما توعدنا به فرعون.". (١)

١٤٩-"لها، فإذا صدرت الأعمال صالحة كما يرضي الله، وما أوصى به، حصل المقصود، ولا يضرها ما تكنه نفس العامل.

و"كيف" يجوز كونها استفهاما فهي معلقة لفعل "ينظر" عن المفعول، فالتقدير فينظر جواب السؤال بـ ﴿كيف تعملون﴾ ، ويجوز كونها مجردة عن معنى الاستفهام دالة على مجرد الكيفية، فهي مفعول به لـ ﴿ينظر﴾ كما تقدم في قوله تعالى ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ في سورة آل عمران [٦]، وقوله تعالى: ﴿انظر كيف نبين لهم الآيات﴾ في سورة المائدة [٧٥] وقد تقدم.

[١٣١,١٣٠] ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

هذا **انتقال** إلى ذكر المصائب التي أصاب الله بها فرعون وقومه، وجهلها آيات لموسى، ليلجئ فرعون إلى الإذن لبني إسرائيل بالخروج، وقد وقعت تلك الآيات بعد المعجزة الكبرى التي أظهرها الله لموسى في مجمع السحرة، ويظهر أن فرعون أغضى عن تحقيق وعيده إبقاء على بني إسرائيل، لأنهم كانوا يقومون بالأشغال العظيمة لفرعون.

ويؤخذ من التوراة أن موسى بقي في قومه مدة يعيد محاولة فرعون أن يطلق بني إسرائيل، وفرعون يعد ويخلف، ولم تضبط التوراة مدة مقام موسى كذلك، وظاهرها أن المدة لم تطل، وليس قوله تعالى: ﴿بالسنين﴾ دليل على أنها طالت أعواما لأن السنين هنا جمع سنة بمعنى الجدب لا بمعنى الزمن المقدر من الدهر، فالسنة في كلام العرب إذا عرفت باللام يراد بها سنة الجدب، والقحط، وهي حينئذ علم جنس بالغلبة، ومن ثم اشتقوا منها: أسنت القوم، إذا أصابهم الجدب والقحط، فالسنين في الآية مراد بها القحوط وجمعها باعتبار كثرة مواقعها أي: أصابهم القحط في جميع الأرضين والبلدان، فالمعنى: ولقد أخذناهم بالقحوط العامة في كل أرض.

والأخذ: هنا مجاز في القهر والغلبة، كقوله: ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ويصح أن يكون هنا مجازا في

---

(١) التحرير والتنوير ٨/٢٤١

الإصابة بالشدائد، لأن حقيقة الأخذ: تناول الشيء باليد، وتعددت إطلاقاته، فأطلق كناية عن الملك.
وأطلق استعارة للقهر والغلبة، وللإهلاك، وقد تقدمت معانيه متفرقة في السور". [1]

١٥٠-"اهتمام ببحر مخصوص ولكن بفرد من هذا النوع.
وقد أغرق فرعون وجنده في البحر الأحمر حين لحق بني إسرائيل يريد صدهم عن الخروج من أرض مصر وتقدمت الإشارة إلى ذلك في سورة البقرة وسيأتي تفصيله عند قوله تعالى ﴿حتى إذا أدركه الغرق﴾ في سورة يونس [٩٠].
والباء في ﴿بأنهم﴾ للسببية، أي: أغرقناهم جزاء على تكذيبهم بالآيات.
والغفلة ذهول الذهن عن تذكر شيء، وتقدمت في قوله تعالى ﴿وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾ في سورة الأنعام [١٥٦]، وأريد بها التغافل عن عمد وهو الإعراض عن التفكر في الآيات، وإباية النظر في دلالتها على صدق موسى، فإطلاق الغفلة على هذا مجاز، وهذا تعريض بمشركي العرب في إعراضهم عن التفكر في صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، ودلالة معجزة القرآن، فلذلك أعيد التصريح بتسبب الإعراض في غرقهم مع استفادته من التفريع بالفاء في قوله ﴿فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم﴾ تنبيها للسامعين **للانتقال** من القصة إلى العبرة.
وقد صيغ الإخبار عن إعراضهم بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على أن هذا الاعراض ثابت لهم، وراسخ فيهم، وأنه هو علة التكذيب المصوغ خبره بصيغة الجملة الفعلية لإفادة تجدده عند تجدد الآيات.
[١٣٧] ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمت ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾.
﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾
عطف على ﴿فانتقمنا منهم﴾ [الأعراف: ١٣٦]. والمعنى: فأخذناهم بالعقاب الذي استحقوه وجازينا بني إسرائيل بنعمة عظيمة.
وتقدم آنفا الكلام على معنى ﴿أورثنا﴾ عند قوله تعالى ﴿أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها﴾ [الأعراف: ١٠٠] والمراد هنا تمليك بني إسرائيل جميع الأرض المقدسة بعد أهلها من الأمم التي كانت تملكها من الكنعانيين وغيرهم. وقد قيل إن فرعون كان له سلطان على بلاد الشام، ولا حاجة إلى هذا إذ ليس في الآية تعيين". [2]

١٥١-"و ﴿ما هم فيه﴾ هو حالهم، وهو عبادة الأصنام وما تقتضيه من الضلالات والسيئات ولذلك اختير في تعريفها طريق الموصولية لأن الصلة تحيط بأحوالهم التي لا يحيط بها المتكلم ولا المخاطبون.
والظرفية مجازية مستعارة للملابسة، تشبيها للتلبس باحتواء الظرف على المظروف.

---

(١) التحرير والتنوير ٨/٢٤٨
(٢) التحرير والتنوير ٨/٢٦٠

والباطل اسم لضد الحق فالإخبار به كالإخبار بالمصدر يفيد مبالغة في بطلانه لأن المقام مقام التوبيخ والمبالغة في الانكار، وقد تقدم آنفا معنى الباطل عند قوله تعالى: ﴿فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون﴾ [الأعراف:١١٨]

وفي تقديم المسند، وهو ﴿باطل﴾ على المسند إليه وهو ﴿ما كانوا يعملون﴾ ما في نظيره من قوله: ﴿متبر ما هم فيه﴾ .

وإعادة لفظ ﴿قال﴾ مستأنفا في حكاية تكملة جواب موسى بقوله تعالى: ﴿قال أغير الله أبغيكم﴾ تقدم توجيه نظيره عند قوله تعالى: ﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾ ١ إلى قوله: ﴿فيها تحيون﴾ من هذه السورة [٢٤,٢٥].

والذي يظهر أنه يعاد في حكاية الأقوال إذا طال المقول، أو لأنه **انتقال** من غرض التوبيخ على سؤالهم إلى غرض التذكير بنعمة الله عليهم، وأن شكر النعمة يقتضي زجرهم عن محاولة عبادة غير المنعم، وهو من الارتقاء في الاستدلال على طريقة التسليم الجدلي، أي: لو لم تكن تلك الآلهة باطلا لكان في اشتغالكم بعبادتها والإعراض عن الله الذي أنعم عليكم كفران للنعمة ونداء على الحماقة وتنزه عن أن يشاركهم في حماقتهم.

والاستفهام بقوله: ﴿قال أغير الله أبغيكم إلها﴾ للإنكار والتعجب من طلبهم أن يجعل لهم إلها غير الله، وقد أولي المستفهم عنه الهمزة للدلالة على أن محل الإنكار هو اتخاذ غير الله إلها، فتقديم المفعول الثاني للاختصاص، للمبالغة في الإنكار أي: اختصاص الإنكار ببغي غير الله إلها.

وهمزة ﴿أبغيكم﴾ همزة المتكلم للفعل المضارع، وهو مضارع بغى بمعنى طلب. ومصدره البغاء بضم الباء.

_

١ في المطبوعة ﴿قال اهبطوا منها جميعا﴾ [البقرة: ٣٨] والمثبت هو المنايب للسياق.". (١)

١٥٢-"ويجوز أن يكون هذا امتنانا من الله اعترضه بين القصة وعدة موسى عليه السلام **انتقالا** من الخبر والعبرة إلى النعمة والمنة، فيكون الضمير ضمير تعظيم، وقرأ الجمهور أنجيناكم بنون المتكلم المشارك.وقرأه ابن عامر: ﴿وإذ أنجيناكم﴾ على إعادة الضمير إلى الله في قوله: ﴿أغير الله أبغيكم إلها﴾ [الأعراف: ١٤١٠]، وكذلك هو مرسوم في مصحف الشام فيكون من كلام موسى وبمجموع القراءتين يحصل المعنيان.

و﴿إذ﴾ اسم زمان، وهو مفعول به لفعل محذوف تقديره: واذكروا.

واختار الطبري وجماعة أن يكون قوله ﴿وإذ أنجيناكم﴾ خطابا لليهود الموجودين في زمن محمد صلى الله عليه وسلم، فيكون ابتداء خطاب افتتح بكلمة ﴿إذ﴾ ، والتعريض بتذكير المشركين من العرب قد انتهى عند قوله: ﴿وهو فضلكم على العالمين﴾ وسورة الأعراف مكية ولم يكن في المكي من القرءان هو مجادلة مع اليهود.

وقوله ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ إلى آخر الآية تقدم تفسير مشابهتها في سورة البقرة.

[١٤٢] ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير ٨/٢٦٧

﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾

عود إلى بقية حوادث بني إسرائيل، بعد مجاوزتهم البحر، فالجملة عطف على جملة ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وقد تقدم الكلام على معنى المواعدة في نظير هذه الآية في سورة البقرة، وقرأ أبو عمرو: ووعدنا.وحذف الموعود به اعتمادا على القرينة في قوله: ﴿ثلاثين ليلة﴾ الخ، ﴿وثلاثين﴾ منصوب على النيابة عن الظرف، لأن تمييزه ظرف للمواعد به وهو الحضور لتلقي الشريعة، ودل عليه ﴿واعدنا﴾ لان المواعدة للقاء فالعامل ﴿واعدنا﴾ باعتبار المقدر، أي حضورا مدة ثلاثين ليلة.

وقد جعل الله مدة المناجاة ثلاثين ليلة تيسيرا عليه، فلما قضاها وزادت نفسه الزكية تعلقا ورغبة في مناجاة الله وعبادته، زاده الله من هذا الفضل عشر ليال، فصارت مدة المناجاة أربعين ليلة، وقد ذكر بعض المفسرين قصة في سبب زيادة عشر ليال، لم تصح.". (١)

١٥٣-"جعل مجيء موسى في الوقت المعين أمرا حاصلا غير محتاج للإخبار عنه، للعلم بأن موسى لا يتأخر ولا يترك ذلك، وجعل تكليم الله إياه في خلال ذلك الميقات أيضا حاصلا غير محتاج للإخبار عن حلوله، لظهور أن المواعدة المتضمنة للملاقاة تتضمن الكلام، لأن ملاقاة الله بالمعنى الحقيقي غير ممكنة، فليس يحصل من شؤون المواعدة إلا الكلام الصادر عن إرادة الله وقدرته، فلذلك كله جعل مجيء موسى للميقات وتكليم الله إياه شرطا لحرف ﴿لما﴾ لانه كالمعلوم، وجعل الاخبار متعلقا بما بعد ذلك وهو اعتبار بعظمة الله وجلاله، فكان الكلام ضربا من الإيجاز بحذف الخبر عن جملتين استغناء عنهما جعلتا شرطا للما.

ويجوز أن تجعل الواو في قوله: ﴿وكلمه ربه﴾ زائدة في جواب ﴿لما﴾ كما قاله الاكثر في قول امريء القيس:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى ... بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقل

أن جواب ﴿لما﴾ هو قوله وانتحى، وجوزوه في قوله تعالى: ﴿فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم﴾ [الصافات: ١٠٣، ١٠٤] الآية، أن يكون ﴿وناديناه﴾ هو جواب "لما" فيصير التقدير: لما جاء موسى لميقاتنا كلمه ربه، فيكون إيجازا بحذف جملة واحدة، ولا يستفاد من معنى إنشاء التكليم الطمع في الرؤية إلا من لازم المواعدة.

واللام في قوله ﴿لميقاتنا﴾ صنف من لام الاختصاص، كما سماها في الكشاف ومثلها بقولهم: أتيته لعشر خلون من الشهر، يعني أنه اختصاص ما، وجعلها ابن هشام بمعنى عند وجعل ذلك من معاني اللام وهو أظهر، والمعنى: فلما جاء موسى مجيئا خاصا بالميقات أي: حاصلا عنده لا تأخير فيه، كقوله تعالى: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ [الاسراء: ٧٨] وفي الحديث سئل رسول الله أي الأعمال أفضل فقال: الصلاة لوقتها أي عند وقتها ومنه ﴿ فطلقوهن لعدتهن﴾ [الطلاق: ١].

ويجوز جعل اللام للأجل والعلة، أي جاء لأجل ميقاتنا، وذلك لما قدمناه من تضمن الميقات معنى الملاقاة والمناجاة، أي

---

(١) التحرير والتنوير ٨/٢٦٩

جاء لأجل مناجاتنا.

والمجيء: **انتقاله** من بين قومه إلى جبل سينا المعين فيه مكان المناجاة.

والتكليم حقيقته النطق بالألفاظ المفيدة معاني بحسب وضع مصطلح عليه، وهذه الحقيقة مستحيلة على الله تعالى لانها من أعراض الحوادث، فتعين أن يكون إسناد التكليم". (١)

١٥٤-"وهو كانوا يكتمونها، وذلك أن الحوادث التي تكون مواعظ للامة فيما اجترحته من المخالفات والمعاصي تبقي لها عقب الموعظة أثرا قد تعير الأمة به، ولكن ذلك التعبير لا يؤبه به في جانب ما يحصل من النفع لها بالموعظة، فالأمة في خويصتها لا يهتم قادتها ونصحاؤها إلا بإصلاح الحال، وان كان في ذكر بعض تلك الأحوال غضاضة عندها وامتعاض، فإذا جاء حكم التاريخ العام بين الأمم تناولت الأمم أحوال تلك الأمة بالحكم لها وعليها، فبقيت حوادث فلتاتها مغمزا عليها ومعرة تعير بها.وكذلك كان شأن اليهود لما أضاعوا ملكهم ووطنهم وجاوروا أمما أخرى فأصبحوا يكتمون عن أولئك الجيرة مساوي تاريخهم، حتى أرسل الله محمدا صلى الله عليه وسلم فعلمه من أحوالهم ما فيه معجزة لأسلافهم، وما بقي معرة لاخلافهم، وذلك تحد لهم، ووخز على سوء تلقيهم الدعوة المحمدية بالمكر والحسد.

فالسؤال هنا في معنى التقرير لتقريع بني إسرائيل وتوبيخهم وعد سوابق عصيانهم، أي ليس عصيانهم إياك ببدع فان ذلك شنشنة قديمة فيهم، وليس سؤال الاستفادة لان الرسول صلى الله عليه وسلم قد اعلم بذلك من جانب ربه تعالى.وهو نظير همزة الاستفهام التقريري فوزان ﴿واسألهم عن القرية﴾ وزان: أعدوتم في السبت، فان السؤال في كلام العرب على نوعين اشهرهما أن يسأل السائل عما لا يعلمه ليعلمه، والآخر أن يسأل على وجه التقرير حين يكون السائل يعلم حصول المسؤول عنه، ويعلم المسؤول أن السائل عالم وانه إنما سأله ليقرره.

وجملة ﴿واسألهم﴾ عطف على جملة ﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية﴾ [الأعراف: ١٦١] واقعة معترضة بين قصص الامتنان وقصص الانتقام الآتية في قوله: ﴿وقطعناهم﴾ [الأعراف: ١٦٨]، ومناسبة **الانتقال** إلى هذه القصة أن في كلتا القصتين حديثا يتعلق بأهل قرية من قرى بني إسرائيل.

وتقدم ذكر القرية عند قوله تعالى: ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت﴾ الآية من سورة البقرة [٦٥].

وهذه القرية قيل أيلة وهي المسماة اليوم العقبة وهي مدينة على ساحل البحر الأحمر قرب شبه جزيرة طورسينا، وهي مبدأ أرض الشام من جهة مصر، وكانت من مملكة إسرائيل في زمان داود عليه السلام، ووصفت بأنها حاضرة البحر بمعنى الاتصال بالبحر والقرب منه، لان الحضور يستلزم القرب، وكانت أيلة متصلة بخليج من البحر". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٣/٨

(٢) التحرير والتنوير ٣٢٧/٨

١٥٥-"سيبلغهم عن الله من أخذ أحكام التوراة بعزيمة ومداومة والقصة تقدمت في سورة البقرة [٦٣] عند قوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور﴾ .

والظلة السحابة، وجملة ﴿خذوا ما آتيناكم﴾ مقولة لقول محذوف يدل عليه نظم الكلام، وحذف القول في مثله شائع كثير، وتقدم نظيرها في سورة البقرة.

وعدي ﴿واقع﴾ بالباء: للدلالة على أنهم كانوا مستقرين في الجبل فهو إذا ارتفع وقع ملابسا لهم ففتتهم، فهم يرون أعلاه فوقهم وهم في سفحه، وهذا وجه الجمع بين قوله: ﴿فوقهم﴾ وبين باء الملابسة، وجعل بعض المفسرين الباء بمعنى "على".

وجملة ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ مقول قول محذوف، وتقدم تفسير نظيرها في سورة البقرة.

[١٧٢,١٧٤] ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون﴾.

هذا كلام مصروف إلى غير بني إسرائيل، فانهم لم يكونوا مشركين والله يقول: ﴿أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل﴾ فهذا **انتقال** بالكلام إلى محاجة المشركين من العرب، وهو المقصود من السورة ابتداء ونهاية، فكان هذا **الانتقال** بمنزلة رد العجز على الصدر.جاء هذا **الانتقال** بمناسبة ذكر العهد الذي أخذ الله على بني إسرائيل في وصية موسى، وهو ميثاق الكتاب، وفي يوم رفع الطور، وهو عهد حصل بالخطاب التكويني أي بجعل معناه في جبلة كل نسمة وفطرتها، فالجملة معطوفة على الجمل السابقة عطف القصة على القصة، والمقصود به ابتداء هم المشركون.

وتبدل أسلوب القصة واضح إذ اشتملت هذه القصة على خطاب في قوله: ﴿أن تقولوا يوم القيامة﴾ إلى آخر الآية، وإذ صرح فيها بمعاد ضمير الغيبة وهو قوله ﴿من بني آدم﴾ فعموم الموعظة تابع لعموم العظة.فهذا ابتداء لتقريع المشركين على الإشراك، وما ذكر بعده إلى آخر السورة مناسب لأحوال المشركين.

و ﴿وإذ﴾ اسم للزمن الماضي، وهو هنا مجرد عن الظرفية، فهو مفعول به لفعل "اذكر"". (١)

١٥٦-"وعقول، وعيون وآذان، ولم يعرف للجن مثل ذلك، وقد قدم الجن على الإنس في الذكر، ليتعين كون الصفات الواردة من بعد صفات للإنس وبقرينة قوله: ﴿بها أولئك كالأنعام﴾ .

و ﴿القلوب﴾ اسم لموقع العقول في اللغة العربية وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ في سورة البقرة [٧].

والفقه تقدم عند قوله: ﴿لعلهم يفقهون﴾ في سورة الأنعام [٦٥].

ومعنى نفي الفقه والإبصار والسمع عن آلاتها الكائنة فيهم أنهم عطلوا أعمالها بترك استعمالها في أهم ما تصلح له: وهو معرفة ما يحصل به الخير الأبدي، ويدفع به الضر الأبدي، لأن آلات الإدراك والعلم خلقها الله لتحصيل المنافع ودفع المضارع، فلما لم يستعملوها في جلب أفضل المنافع ودفع أكبر المضار، نفي عنهم عملها على وجه العموم للمبالغة، لأن

---

(١) التحرير والتنوير ٨/٣٤٤

الفعل في حيز النفي يعم، مثل النكرة، فهذا عام أريد به الخصوص للمبالغة لعدم الاعتداد بما يعلمون من غير هذا، فالنفي استعارة بتشبيه بعض الموجود بالمعدوم كله.

وليس في تقديم الأعين على الآذان مخالفة لما جرى عليه اصطلاح القرآن من تقديم السمع على البصر لتشريف السمع يتلقى ما أمر الله به كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾ [البقرة: ٧] لأن الترتيب في آية سورة الأعراف هذه سلك طريق الترقي من القلوب التي هي مقر المدركات إلى آلات الإدراك الأعين ثم الآذان فللآذان المرتبة الأولى في الارتقاء.

وجملة ﴿أولئك كالأنعام﴾ مستأنفة لابتداء كلام بتفظيع حالهم فجعل ابتداء كلام ليكون أدعى للسامعين.وعرفوا بالإشارة لزيادة تمييزهم بتلك الصفات، وللتنبيه على أنهم بسببها أحرياء بما سيذكر من تسويتهم بالأنعام أو جعلهم أضل من الأنعام، وتشبيهم بالأنعام في عدم الانتفاع بما ينتفع به العقلاء فكأن قلوبهم وأعينهم وآذانهم، قلوب الأنعام وأعينها وآذانها، في أنها لا تقيس الأشياء على أمثالها ولا تنتفع ببعض الدلائل العقلية فلا تعرف كثيرا مما يفضي بها إلى سوء العاقبة.

و"بل" في قوله: ﴿بل هم أضل﴾ للانتقال والترقي في التشبيه في الضلال وعدم الانتفاع بما يمكن الانتفاع به، ولما كان وجه الشبه المستفاد من قوله: ﴿كالأنعام﴾ يؤول إلى معنى الضلال، كان الارتقاء في التشبيه بطريقة اسم التفضيل في الضلال.". (١)

١٥٧-"يتدرج، أي صاعدا أو نازلا، والكلام تمثيل لحال القاصد إبدال حال أحد إلى غيرها بدون إشعاره، بحال من يطلب من غيره أن ينزل من درجة إلى أخرى بحيث ينتهي إلى المكان الذي لا يستطيع الوصول إليه بدون ذلك، وهو تمثيل بديع يشتمل على تشبيهات كثيرة فانه مبني على تشبيه حسن الحال برفعة المكان وضده بسفالة المكان، والقرينة تعين المقصود من انتقال إلى حال أحسن أو أسوا.

ومما يشير إلى مراعاة هذا التمثيل في الآية قوله تعالى: ﴿من حيث لا يعلمون﴾ ولما تضمن الاستدراج معنى الإيصال إلى المقصود علق بفعله مجرور بمن الابتدائية أي مبتدئا استدراجهم من مكان لا يعلمون أنه مفض بهم إلى المبلغ الضار، ف ﴿حيث﴾ هنا للمكان على أصلها، أي من مكان لا يعلمون ما يفضي إليه، وحذف مفعول يعلمون لدلالة الاستدراج عليه، والتقدير لا يعلمون تدرجه، وهذا مؤذن بأنه استدراج عظيم لا يظن بالمفعول به أن يتفطن له.

والإملاء إفعال وهو الإمهال، وهمزة هذا المصدر منقلبة عن واو، مشتق من الملاوة مثلثة الميم وهي مدة الحياة يقال أملاه وملاه إذا أمهله وأخره، كلاهما بالألف دون همز فهو قريب من معنى عمره، ولذلك يقال في الدعاء بالحياة ملاك الله.

واللام في قوله ﴿لهم﴾ هي اللام التي تسمى: لام التبيين، ولها استعمالات كثيرة فيها خفاء ومرجعها: إلى أنها يقصد منها تبيين اتصال مدخولها بعامله لخفاء في ذلك الاتصال، فان اشتقاق أملى من الملو اشتقاق غير مكين لأن المشتق منه ليس فيه معنى الحدث فلم يجيء منه فعل مجرد فاحتيج إلى اللام لتبيين تعلق المفعول بفعله.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥٩/٨

وأما قولهم أملى للبعير بمعنى أطال له في طوله في المرعى فهو جاء من هذا المعنى بضرب من المجاز أو الاستعارة.
فجملة ﴿إن كيدي متين﴾ في موضع العلة للجملتين قبلها، فإن الاستدراج والإملاء ضرب من الكيد، وكيد الله متين أي قوي لا انفلات منه للمكيد.
وموقع ﴿إن﴾ هنا موقع التفريع والتعليل، كما قال عبد القاهر: إنها تغني في مثل هذا الموقع غناء الفاء، وقد تقدم بيان ذلك عند قوله تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس﴾ في سورة آل عمران [٩٦]، أي: يكون ذلك الاستدراج وذلك الإملاء بالغين ما أردناه بهم لأن كيدي قوي.". (١)

١٥٨-"لما كان تكذيبهم بالآيات منبعثا عن تكذيبهم من جاء بها، وناشئا عن ظن أن آيات الله لا يجيء بها البشر وأن من يدعي أنه مرسل من الله مجنون، عقب الإخبار عن المكذبين، ووعيدهم بدعوتهم للنظر في حال الرسول، وانه ليس بمجنون كما يزعمون.
واستعمال العرب همزة الاستفهام مع حروف العطف المشركة في الحكم استعمال عجيب تقدم بيانه عند قوله تعالى: ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم﴾ في سورة البقرة [٨٧].
والجملة مستأنفة، وهي ابتداء كلام في محاجتهم وتنبيههم بعد الإخبار عنهم بأنهم مستدرجون وممل لهم.
الاستفهام للتعجيب من حالهم والإنكارعليهم و"ما" في قوله: ﴿ما بصاحبهم من جنة﴾ نافية كما يؤذن به دخول "من" على منفى ما لتأكيد الاستغراق.
وفعل ﴿يتفكروا﴾ منزل منزلة اللازم فلا يقدر له متعلق للاستغناء عن ذلك بما دل عليه النفي في قوله: ﴿ما بصاحبهم من جنة﴾ أي ألم يكونوا من المفكرين أهل النظر، والفعل المعلق عن العمل لا يقدر له مفعول ولا متعلق.
والمقصود من تعليق الفعل هو **الانتقال** من علم الظان إلى تحقيق الخبر المظنون وجعله قضية مستقلة، فيصير الكلام بمنزلة خبرين خبر من جانب الظان ونحوه، وخبر من جانب المتكلم دخل في قسم الواقعات فنحو قوله تعالى: ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ [الانبياء: ٦٥] هو في قوة أن يقال: لقد علمت لا ينطقون ما هؤلاء ينطقون، أي ذلك علمك وهذا علمي، وقوله هنا: ﴿أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة﴾ في قوة: أو لم يتفكروا صاحبهم غير مجنون، ما بصاحبهم من جنة.فتعليق أفعال القلب ضرب من ضروب الإيجاز، وأحسب هذا هو الغرض من أسلوب التعليق لم ينبه عليه علماء المعاني، وان خصائص العربية لا تنحصر.
و"الصاحب" حقيقته الذي يلازم غيره في حالة من سفر أو نحوه، ومنه قوله تعالى: ﴿يا صاحبي السجن﴾ [يوسف: ٤١]، وسميت الزوجة صاحبة، ويطلق مجازا على الذي له مع غيره حادث عظيم وخبر، تنزيلا لملازمة الذكر منزلة ملازمة الذات ومنه قول أبي معبد الخزاعي لامرأته، أم معبد، لما أخبرته بدخول النبي صلى اله عليه وسلم بيتها في طريق الهجرة ووصفت

---

(١) التحرير والتنوير ٣٦٦/٨

له هديه وبركته "هذا صاحب قريش"، وقول الحجاج في بعض خطبه لأهل". (١)

١٥٩-"يؤمنون"، إيهام أن البشارة خاصة بالمؤمنين، وأن متعلق النذارة المتروك ذكره في النظم هو الأضداد المؤمنين، أي المشركين، وهذا المعنى مقصود على نحو قوله تعالى: ﴿لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين﴾ [لاحقاف: ١٢].
وهذه المعاني المستتبعات مقصودة من القرآن، وهي من وجوه إعجازه لأن فيها استفادة معان وافرة من ألفاظ وجيزة.
[١٨٩،١٩٠] ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين * فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون﴾ .
جملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا، عاد بها الكلام إلى تقرير دليل التوحيد وإبطال الشرك من الذي سلف ذكره في قوله: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ [لأعراف: ١٧٢] الآية، وليست من القول المأمور به في قوله: ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا﴾ [لأعراف: ١٨٨] لأن ذلك المقول قصد منه إبطال الملازمة بين وصف الرسالة وعلم الرسول بالغيب، وقد تم ذلك، فالمناسب أن يكون الغرض الآخر كلاما موجها من الله تعالى إلى المشركين لإقامة الحجة عليهم بفساد عقولهم في إشراكهم وإشراك آبائهم.
ومناسبة **الانتقال** جريان ذكر اسم الله في قوله: ﴿إلا ما شاء الله﴾ [الأنعام: ١٢٨] وضمير الخطاب في ﴿خلقكم﴾ للمشركين من العرب لأنهم المقصود من هذه الحجج والتذكير، وإن كان حكم هذا الكلام يشمل جميع البشر.وقد صدر ذلك بالتذكير بنعمة خلق النوع المبتدأ بخلق أصله وهو آدم وزوجه حواء تمهيدا للمقصود.
وتعليق الفعل باسم الجمع، في مثله، في الاستعمال يقع على وجهين: أحدهما أن يكون المراد الكل المجموعي، أي جملة ما يصدق عليه الضمير، أي خلق مجموع البشر من نفس واحدة فتكون النفس هي نفس آدم الذي تولد منه جميع البشر.
وثانيهما أن يكون المراد الكل الجميعي أي خلق كل أحد منكم من نفس واحدة، فتكون النفس هي الأب، أي أبو كل واحد من المخاطبين على نحو قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ [الحجرات: ١٣] وقوله: ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ [القيامة:٣٩].". (٢)

١٦٠-"ووصف الأرجل ب ﴿يمشون﴾ والأيدي ب ﴿يبطشون﴾ والأعين ب ﴿يبصرون﴾ والآذان ب ﴿يسمعون﴾ أما لزيادة تسجيل العجز عليهم فيما يحتاج إليه الناصر، وأما لأن بعض تلك الأصنام كانت مجعولة على صور الآدميين مثل هبل، وذي الكفين، وكعيب في صور الرجال، ومثل سواع كان على صورة امرأة، فإذا كان لأمثال أولئك صور أرجل وأيد وأعين وآذان فإنها عديمة العمل الذي تختص به الجوارح، فلا يطمع طامع في نصرها، وخص الأرجل والأيدي والأعين

---

(١) التحرير والتنوير ٣٦٨/٨

(٢) التحرير والتنوير ٣٨٣/٨

والآذان، لأنها آلات العلم والسعي والدفع للنصر، ولهذا لم يذكر الألسن لما علمت من أن الاستجابة مراد بها النجدة والنصرة ولم يكونوا يسألون عن سبب الاستنجاد، ولكنهم يسرعون إلى الالتحاق بالمستنجد.

والمشي **انتقال** الرجلين من موضع **انتقالا** متواليا.

والبطش الأخذ باليد بقوة، والإضرار باليد بقوة، وقد جاء مضارعه بالكسر والضم على الغالب.وقراءة الجمهور بالكسر، وقرأ أبو جعفر: بضم الطاء، وهما لغتان.

و ﴿أم﴾ حرف بمعنى أو يختص يعطف الاستفهام، وهي تكون مثل "أو" لأحد الشيئين أو الأشياء، وللتمييز بين الأشياء، أو الإباحة أي الجمع بينها، فإذا وقعت بعد همزة الاستفهام المطلوب بها التعيين كانت مثل "أو" التي للتخيير كقوله تعالى ﴿قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون﴾ [يونس: ٥٩] أي عينوا أحدهما وإن وقعت بعد استفهام غير حقيقي كان بمعنى "أو" التي للإباحة، وتسمى، حينئذ، منقطعة ولذلك يقولون إنها بمعنى "بل" **الانتقالية** وعلى كل حال فهي ملازمة لمعنى الاستفهام فكلما وقعت في الكلام قدر بعدها استفهام، فالتقدير هنا، بل ألهم أيد يبطشون بها بل ألهم أعين يبصرون بها بل ألهم آذان يسمعون بها.

وترتيب هذه الجوارح الأربع على حسب ما في الآية ملحوظ فيه أهميتها بحسب الغرض، الذي هو النصر والنجدة، فان الرجلين تسرعان إلى الصريخ قبل التأمل، واليدين تعملان عمل النصر وهو الطعن والضرب، وأما الأعين والآذان فإنهما وسيلتان لذلك كله فأخرا وإنما قدم ذكر الأعين هنا على خلاف معتاد القرآن في تقديم السمع على البصر كما سبق في أول سورة البقرة لأن الترتيب هنا كان بطريق الترقي.

﴿قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون﴾ .

إذن من الله لرسوله بأن يتحداهم بأنهم أن استطاعوا استصرخوا أصنامهم لتتألب على". (١)

١٦١-"رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما من الأنبياء إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة" ويكون المعنى: إنما انتظر ما يوحى إلي ولا أستعجل نزول القرآن إذا تأخر نزوله فيكون الاتباع متعلقا بالزمان.

﴿هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾

مستأنفة لابتداء كلام في التنويه بشأن القرآن منقطعه عن المقول **للانتقال** من غرض إلى غرض بمنزلة التذييل لمجموع أغراض السورة، والخطاب للمسلمين.

ويجوز أن تكون من تمام القول المأمور بأن يجيبهم به، فيكون الخطاب للمشركين ثم وقع التخلص لذكر المؤمنين بقوله ﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ .

والإشارة ب ﴿هذا بصائر﴾ إلى القرآن، ويجوز أن تكون الإشارة إلى ما تقدم من السورة أو من المحاجة الأخيرة منها، وأفراد

---

(١) التحرير والتنوير ٣٩٥/٨

اسم الإشارة لتأويل المشار إليه بالمذكور.
والبصائر جمع بصيرة وهي ما به اتضاح الحق وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم﴾ في سورة الأنعام [١٠٤]، وهذا تنويه بشأن القرآن وأنه خير من الآيات التي يسألونها، لأنه يجمع بين الدلالة على صدق الرسول بواسطة دلالة الإعجاز وصدوره عن الأمي، وبين الهداية والتعليم والإرشاد، والبقاء على العصور.
وإنما جمع "البصائر" لأن في القرآن أنواعا من الهدى على حسب النواحي التي يهدي إليها، من تنوير العقل في إصلاح الاعتقاد، وتسديد الفهم في الدين، ووضع القوانين للمعاملات والمعاشرة بين الناس، والدلالة على طرق النجاح والنجاة في الدنيا، والتحذير من مهاوي الخسران.
وأفرد الهدى والرحمة لأنهما جنسان عامان يشملان أنواع البصائر فالهدى يقارن البصائر والرحمة غاية للبصائر، والمراد بالرحمة ما يشمل رحمة الدنيا وهي استقامة أحوال الجماعة وانتظام المدنية ورحمة الآخرة وهي الفوز بالنعيم الدائم كقوله تعالى: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [النحل:٩٧].
وقوله ﴿من ربكم﴾ ترغيب للمؤمنين وتخويف للكافرين.". (١)

١٦٢-"المأموم إذا كان الإمام مسرا بالقراءة فالآية بمعزل عنه إذ لا يتحقق في ذلك الترك معنى الإنصات.
ويجب التنبه إلى أن ليس في الآية صيغة من صيغ العموم لأن الذي فيها فعلان هما "قرئ" و"استمعوا" والفعل لا عموم له في الإثبات.
ومعنى الشرط المستفاد من "إذا" يقتضي إلا عموم الأحوال أو الأزمان دون القراءات.وعموم الأزمان أو الأحوال لا يستلزم عموم الأشخاص بخلاف العكس كما هو بين.
[٢٠٥] ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين﴾.
إقبال بالخطاب على النبي صلى الله عليه وسلم فيما يختص به، بعد أن أمر بما أمر بتبليغه من الآيات المتقدمة، والمناسبة في هذا **الانتقال** إن أمر الناس باستماع القرآن يستلزم أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بقراءة القرآن عليهم قراءة جهرية يسمعونها، فلما فرغ الكلام من حظ الناس نحو قراءة الرسول عليه الصلاة والسلام، أقبل على الكلام في حظ الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن وغيره، وهو التذكر الخاص به، فأمر بأن يذكر الله ما استطاع وكيفما تسنى له وفي أوقات النهار المختلفة، فجملة ﴿واذكر ربك﴾ معطوفة على الجمل السابقة من قوله: ﴿إن وليي الله﴾ [الأعراف: ١٩٦] إلى هنا.
والنفس اسم للقوة التي بها الحياة، فهي مرادفة الروح، وتطلق على الذات المركبة من الجسد والروح، ولكون مقر النفس في باطن الإنسان أطلقت على أمور باطن الإنسان من الإدراك والعقل كما في قوله تعالى حكاية عن عيسى: ﴿تعلم ما في نفسي﴾ [المائدة: ١١٦] وقد مضى في سورة المائدة ومن ذلك يتطرق إلى إطلاقها على خويصة المرء، ومنه قوله في الحديث القدسي في صحيح البخاري "وإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم" فقابل قوله

---

(١) التحرير والتنوير ٤٠٩/٨

في نفسه بقوله في ملإ.

والمعنى: اذكر ربك وأنت في خلوتك كما تذكره في مجامع الناس.

والذكر حقيقة في ذكر اللسان، وهو المراد هنا، ويعضده قوله ﴿ودون الجهر من القول﴾ وذلك يشمل قراءة القرآن وغير القرآن من الكلام الذي فيه تمجيد الله وشكره ونحو ذلك، مثل كلمة التوحيد والحوقلة والتسبيح والتكبير والدعاء ونحو ذلك.". (١)

١٦٣-"صلة ثالثة ل ﴿المؤمنون﴾ أو حال منه، وجعلت فعلا مضارعا للدلالة على تكرر ذلك منهم، ووصفهم بالتوكل على الله وهو الاعتماد على الله في الأحوال والمساعي ليقدر للمتوكل تيسيرا مرة ويعوضه عن الكسب المنهي عنه بأحسن منه من الحلال المأذون فيه. وتقدم تفسير التوكل عند قوله: ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ في سورة آل عمران[١٥٩].

ومناسبة هذا الوصف للغرض: انهم أمروا بالتخلي عن الأنفال، والرضى بقسمة الرسول صلى الله عليه وسلم فيها، فمن كان قد حرم من نفل قتيله يتوكل على الله في تعويضه بأحسن منه.

وتقديم المجرور في قوله: ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ إما للرعاية على الفاصلة فهو من مقتضيات الفصاحة مع ما فيه من الاهتمام باسم الله، وإما للتعريض بالمشركين، لأنهم يتوكلون على إعانة الأصنام، قال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا﴾ [مريم: ٨١] فيكون الكلام مدحا للمؤمنين، وتعريضا بذم المشركين، ثم فيه تحذير من أن تبقى في نفوس المؤمنين آثار من التعلق بما نهوا عن التعلق به، لتوهمهم أنهم إذا فوتوه فقد أضاعوا خيرا من الدنيا.

[٣] ﴿الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾.

وصفهم بأنهم الذين يقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله جاء بإعادة الموصول، كما أعيد في قوله: ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك﴾ في سورة البقرة[٤]، وذلك للدلالة على **الانتقال**، في وصفهم، إلى غرض آخر غير الغرض الذي اجتلب الموصول الأول لأجله، وهو هنا غرض محافظتهم على ركني الإيمان: وهما إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فلا علاقة للصلة المذكورة هنا بأحكام الأنفال والرضى بقسمها، ولكنه مجرد المدح، وعبر في جانب الصلاة بالإقامة للدلالة على المحافظة عليها وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى: ﴿ويقيمون الصلاة﴾ في سورة البقرة[٣]. وجيء بالفعلين المضارعين في ﴿يقيمون﴾ و ﴿ينفقون﴾ للدلالة على تكرر ذلك وتجدده.

واعلم أن مقتضى الاستعمال في الخبر بالصلات المتعاطفة، التي موصولها خبر عن مبتدأ أن تعتبر خبرا بعدة أشياء فهي بمنزلة أخبار متكررة، ومقتضى الاستعمال في الأخبار المتعددة أن كل واحد منها يعتبر خبرا مستقلا عن المبتدأ فلذلك تكون كل

(١) التحرير والتنوير ٤١٢/٨

صلة من هذه الصلات بمنزلة خبر عن المؤمنين وهي محصور فيها المؤمنون أي حالهم فيكون المعنى،". (١)

١٦٤-"لما ذكر قبله، تقديره: هذا الحال كحال ما أخرجك ربك من بيتك بالحق ووجه الشبه هو كراهية المؤمنين في بادئ الأمر لما هو وخير لهم في الواقع وإما بتقدير مصدر لفعل الاستقرار الذي يقتضيه الخبر بالمجرور في قوله: ﴿الأنفال لله والرسول﴾ [الأنفال: ١] إذ التقدير: استقرت لله والرسول استقرارا كما أخرجك ربك، أي فيما يلوح إلى الكراهية والامتعاض في بادئ الأمر، ثم نوالهم النصر والغنيمة في نهاية الأمر، فالتشبيه تمثيلي وليس مراعى فيه تشبيه بعض أجزاء الهيئة المشبهة ببعض أجزاء الهيئة المشبه بها، أي أن ما كرهتموه من قسمة الأنفال على خلاف مشتهاكم سيكون فيه خير عظيم لكم، حسب عادة الله تعالى بهم في أمره ونهيه، وقد دل على ما في الكلام من معنى مخالفة مشتهاهم قوله: ﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ [الأنفال: ١] كما تقدم، مع قوله في هذه الجملة ﴿وإن فريقا من المؤمنين لكارهون﴾.

فجملة: ﴿وإن فريقا﴾ في موضع الحال والعامل فيها ﴿أخرجك ربك﴾ ، هذا وجه اتصال كاف التشبيه بما قبلها على ما الاظهر، وللمفسرين وجوه كثيرة بلغت العشرين قد استقصاها ابن عادل، وهي لا تخلو من تكلف، وبعضها متحد المعنى، وبعضها مختلفه، وأحسن الوجوه ما ذكره ابن عطية ومعناه قريب مما ذكرنا وتقديره بعيد منه.

والمقصود من هذا الأسلوب: **الانتقال** إلى تذكيرهم بالخروج إلى بدر وما ظهر فيه من دلائل عناية الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين.

و ﴿ما﴾ مصدرية. والإخراج: أما مراد به الأمر بالخروج للغزو، وأما تقدير الخروج لهم وتيسيره.

والخروج مفارقة المنزل والبلد إلى حين الرجوع إلى المكان الذي خرج منه، أو إلى حين البلوغ إلى الموضع المنتقل إليه.

والإخراج من البيت: هو الإخراج المعين الذي خرج به النبي صلى الله عليه وسلم غازيا إلى بدر.

والباء في ﴿بالحق﴾ للمصاحبة أي إخراجا مصاحبا للحق، والحق هنا الصواب، لما تقدم آنفا من أن اسم الحق جامع لمعنى كمال كل شيء في محامد نوعه.

والمعنى أن الله أمره بالخروج إلى المشركين ببدر أمرا موافقا للمصلحة في حال كراهة فريق من المؤمنين ذلك الخروج.

وقد أشار هذا الكلام إلى السبب الذي خرج به المسلمين إلى بدر، فكان بينهم وبين". (٢)

١٦٥-"أظهركم فلا يضركم ما صنع.

وموقع الواو في قوله: ﴿ويمكرون﴾ لم أر أحدا من المفسرين عرج على بيانه وهي تحتمل وجهين: أحدهما أن تكون واو الحال، والجملة حال من ﴿الذين كفروا﴾ وهي حال مؤسسة غير مؤكدة، باعتبار ما اتصل بها من الجملة المعطوفة عليها، وهي

(١) التحرير والتنوير ١٩/٩

(٢) التحرير والتنوير ٢٣/٩

جملة: ﴿ويمكر الله﴾ فقوله: ﴿ويمكر الله﴾ هو مناط الفائدة من الحال وما قبله تمهيد له وتنصيص على أن مكرهم يقارنه مكر الله بهم، والمضارع في يمكرون ويمكر الله لاستحضار حالة المكر.

وثانيهما أن تكون واو الاعتراض أي العطف الصوري، ويكون المراد بالفعل المعطوف الدوام أي هم مكروا بك ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك وهم لا يزالون يمكرون كقول كعب بن الأشرف لمحمد بن مسلمة وأيضا لتملنه يعني النبي، فتكون جملة: ﴿ويمكرون﴾ معترضة ويكون جملة: ﴿ويمكر الله﴾ معطوفة على جملة: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ والمضارع في جملة: ﴿ويمكرون﴾ للاستقبال والمضارع في ويمكر الله لاستحضار حالة مكر الله في وقت مكرهم مثل المضارع المعطوف هو عليه.

وبيان معنى إسناد المكر إلى الله تقدم: في آية سورة آل عمران[٥٤] وآية سورة الأعراف[٩٩] وكذلك قوله: ﴿والله خير الماكرين﴾.

والذين تولوا المكر هم سادة المشركين وكبراؤهم واعون أولئك الذين كان دأبهم الطعن في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفي نزول القرآن عليه، وإنما أسند إلى جميع الكافرين لان البقية كانوا أتباعا للزعماء يأتمرون بأمرهم، ومن هؤلاء أبو جهل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأمية بن خلف، وإضرابهم.

[٣١] ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾.

انتقال إلى ذكر بهتان آخر من حجاج هؤلاء المشركين، لم تنزل آيات هذه السورة يتخللها أخبار كفرهم من قوله: ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ [الأنفال: ٧] — وقوله –: ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ [الأنفال: ١٣] وقوله: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾ [الأنفال: ١٧] –". (١)

١٦٦–"القادر على نفع أوليائه ومطيعيه لا يحول بينه وبين إيصال النفع إليهم الإخفاء حال من يخلص اليه، فلما أخبروا بأن الله مطلع على انتهائهم عن الكفر إن انتهوا عنه، وكان ذلك لا يظن خلافه علم أن المقصود لازم ذلك.

وقرأ الجمهور: ﴿يعملون﴾– بياء الغائب – وقرأه رويس عن يعقوب – بتاء الخطاب –.

والتولي: الإعراض وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ في سورة العقود[٩٢].

والمولى الذي يتولى أمر غيره ويدفع عنه وفيه معنى النصر.

والمعنى وإن تولوا عن هاته الدعوة فالله مغن لكم عن ولائهم، أي لا يضركم توليهم فقوله: ﴿أن الله مولاكم﴾ يؤذن بجواب محذوف تقديره: فلا تخافوا توليهم فان الله مولاكم وهو يقدر لكم ما فيه نفعكم حتى لا تكون فتنة. وهذا كقول النبي صلى الله عليه وسلم لمسيلمة الكذاب "ولئن توليت ليعفرنك الله" وإنما الخسارة عليهم إذ حرموا السلامة والكرامة.

وافتتاح جملة جواب الشرط ب ﴿اعلموا﴾ لقصد الاهتمام بهذا الخبر وتحقيقه، أي لا تغفلوا عن ذلك، كما مر آنفا عند قوله تعالى: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ [الأنفال: ٢٤].

وجملة: ﴿نعم المولى ونعم النصير﴾ مستأنفة لأنها إنشاء ثناء على الله فكانت بمنزلة التذييل.

---

(١) التحرير والتنوير ٩/٨٢

وعطف على نعم المولى قوله: ﴿ونعم النصير﴾ لما في المولى من معنى النصر كما تقدم وقد تقدم بيان عطف قوله تعالى: ﴿ونعم الوكيل﴾ على قوله: ﴿حسبنا الله﴾ سورة آل عمران[١٧٣].

[٤١] ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير﴾.

انتقال لبيان ما أجمل من حكم الأنفال، الذي افتتحته السورة، ناسب **الانتقال** إليه ما جرى من الأمر بقتال المشركين إن عادوا إلى قتال المسلمين. والجملة معطوفة على جملة ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ [الأنفال: ٣٩].". (١)

١٦٧-"والتوفية: أداء الحق كاملا، جعل الله ذلك الإنفاق كالقرض لله، وجعل على الإنفاق جزاء، فسمي جزاءه توفية على طريقة الاستعارة المكنية، وتدل التوفية على أنه يشمل الأجر في الدنيا مع أجر الآخرة، ونقل ذلك عن ابن عباس.

وتعدية التوفية إلى الإنفاق بطريق بناء للفعل للنائب، وإنما الذي يوفى هو الجزاء على الإنفاق في سبيل الله، للإشارة إلى أن الموفى هو الثواب. والتوفية تكون على قدر الإنفاق وأنها مثله، كما يقال: وفاه دينه، وإنما وفاه مماثلا لدينه. وقريب منه قولهم: قضى صلاة الظهر، وإنما قضى صلاة بمقدارها، فالإسناد: إما مجاز عقلي، أو هو مجاز بالحذف.

والظلم: هنا مستعمل في النقص من الحق، لأن نقص الحق ظلم، وتسمية النقص من الحق ظلما حقيقة. وليس هو كالذي في قوله تعالى: ﴿كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا﴾ [الكهف: ٣٣].

[٦١] ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾.

انتقال من بيان أحوال معاملة العدو في الحرب: من وفائهم بالعهد، وخيانتهم، وكيف يحل المسلمون العهد معهم إن خافوا خيانتهم، ومعاملتهم إذا ظفروا بالخائنين. والأمر بالاستعداد لهم؛ إلى بيان أحكام السلم إن طلبوا السلم والمهادنة، وكفوا عن حالة الحرب. فأمر الله المسلمين بأن لا يأنفوا من السلم وأن يوافقوا من سأله منهم.

والجنوح: الميل، وهو مشتق من جناح الطائر: لأن الطائر إذا أراد النزول مال بأحد جناحيه، وهو جناح جانبه الذي ينزل منه، قال النابغة يصف الطير تتبع الجيش:

جوانح قد أيقن أن قبيله ... إذا ما التقى الجمعان أول غالب

فمعنى ﴿وإن جنحوا للسلم﴾ إن مالوا إلى السلم ميل القاصد إليه، كما يميل الطائر الجانح. وإنما لم يقل: وإن طلبوا السلم فأجبهم إليها، للتنبيه على أنه لا يسعفهم إلى السلم حتى يعلم أن حالهم حال الراغب، لأنهم قد يظهرون الميل إلى السلم كيدا، فهذا مقابل قوله: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء﴾ [الأنفال: ٥٨] فإن نبذ العهد نبذ لحال السلم.

---

(١) التحرير والتنوير ٩/١٠٠

والـلام في قوله: ﴿للسلم﴾ واقعة موقع "إلى" لتقوية التنبيه على أن ميلهم إلى السلم". (١)

١٦٨-"المفهوم، فيكون المراد بشفاء الصدور ما يحصل من المسرة والانشراح بالنصر، والمراد بذهاب الغيظ استراحتهم من تعب الغيظ، وتحرق الحقد. وضمير قلوبهم عائد إلى قوم مؤمنين فهم موعودون بالأمرين: شفاء صدورهم من عدوهم، وذهاب غيظ قلوبهم على نكث الذين نكثوا عهدهم.

والغيظ: الغضب المشوب بإرادة الانتقام، وتقدم في قوله تعالى: ﴿عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ في سورة آل عمران[١١٩].

﴿ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم﴾ .

جملة ابتدائية مستأنفة، لأنه ابتداء كلام ليس مما يترتب على الأمر بالقتال، بل لذكر من لم يقتلوا، ولذلك جاء الفعل فيها مرفوعا، فدل هذا النظم على أنها راجعة إلى قوم آخرين، وهم المشركون الذين خانوا وغدروا، ولم يقتلوا، بل أسلموا من قبل هذا الأمر أو بعده. وتوبة الله عليهم: هي قبول إسلامهم أو دخولهم فيه، وفي هذا إعذار وإمهال لمن تأخر. وإنما لم تفصل الجملة: للإشارة إلى أن مضمونها من بقية أحوال المشركين، فناسب انتظامها مع ما قبلها. فقد تاب الله على أبي سفيان، وعكرمة بن أبي جهل، وسليم بن أبي عمرو (ذكر هذا الثالث القرطبي ولم أقف على اسمه في الصحابة).

والتذييل بجملة ﴿والله عليم حكيم﴾ لإفادة أن الله يعامل الناس بما يعلم من نياتهم، وأنه حكيم لا يأمر إلا بما فيه تحقيق الحكمة، فوجب على الناس امتثال أوامره، وأنه يقبل توبة من تاب إليه تكثيرا للصلاح.

[١٦] ﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون﴾ .

﴿أم﴾ منقطعة لإفادة الإضراب عن غرض من الكلام للانتقال إلى غرض آخر.

والكلام بعد ﴿أم﴾ المنقطعة له حكم الاستفهامة دائما، فقوله: ﴿حسبتم﴾ في قوة (أحسبتم) والاستفهام المقدر إنكاري.

والخطاب للمسلمين، على تفاوت مراتبهم في مدة إسلامهم، فشمل المنافقين لأنهم أظهروا الإسلام.

وحسبتم: ظننتم. ومصدر حسب، بمعنى ظن الحسبان بكسر الحاء فأما مصدر". (٢)

١٦٩-"عتابا إلهيا على نسيانهم التوكل على الله في النصر، واعتمادهم على كثرتهم، وذلك روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمع قول بعض المسلمين "لن نغلب من قلة" ساءه ذلك، فإنهم لما هبطوا وادي حنين كان الأعداء قد كمنوا لهم في شعابه وأحنائه، فما راع المسلمين وهم منحدرون في الوادي إلا كتائب العدو وقد شدت عليهم وقيل: إن المسلمين حملوا على العدو فانهزم العدو فلحقوهم يغنمون منهم، وكانت هوازن قوما رماة فاكثبوا المسلمين بالسهام فأدبر

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٧/٩

(٢) التحرير والتنوير ٤٢/١٠

المسلمون راجعين لا يلوي أحد على أحد، وتفرقوا في الوادي، وتطاول عليهم المشركون ورسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت في الجهة اليمنى من الوادي ومعه عشرة من المهاجرين والأنصار فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس عمه أن يصرخ في الناس: يا أصحاب الشجرة – أو السمرة – يعني أهل ربيعة الرضوان – يا معشر المهاجرين – يا أصحاب سورة البقرة يعني الأنصار – هلموا إلي، فاجتمع إليه مائة، وقاتلوا هوازن مع من بقي مع النبي صلى الله عليه وسلم واجتلد الناس، وتراجع بقية المنهزمين واشتد القتال وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الآن حمي الوطيس" فكانت الدائرة على المشركين وهزموا شر هزيمة وغنمت أموالهم وسبيت نساؤهم.

فذلك قوله تعالى: ﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾ وهذا التركيب تمثيل لحال المسلمين لما اشتد عليهم البأس واضطربوا ولم يهتدوا لدفع العدو عنهم، بحال من يرى الأرض الواسعة ضيقة.

فالضيق غير حقيقي بقرينة قوله: ﴿بما رحبت﴾ استعير ﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾ استعارة تمثيلية تمثيلا لحال من لا يستطيع الخلاص من شدة بسبب اختلال قوة تفكيره، بحال من هو في مكان ضيق من الأرض يريد أن يخرج منه فلا يستطيع تجاوزه ولا **الانتقال** منه.

فالباء للملابسة، و ﴿ما﴾ مصدرية، والتقدير: ضاقت عليكم الأرض حالة كونها ملابسة لرحبها أي سعتها: أي في حالة كونها لا ضيق فيها وهذا المعنى كقول الطرماح ابن حكيم:

ملأت عليه الأرض حتى كأنها ... من الضيق في عينيه كفة حابل

قال الأعلم "أي من الذعر" هو مأخوذ من قول الآخر:

كأن فجاج الأرض وهي عريضة ... على الخائف المطلوب كفة حابل". (١)

١٧٠-"وقوله: ﴿إن شاء﴾ يفتح لهم باب الرجاء مع التضرع إلى الله في تحقيق وعده لأنه يفعل ما يشاء.

وقوله: ﴿إن الله عليم حكيم﴾ . تعليل لقوله: ﴿وإن خفتم عيلة﴾ أي أن الله يغنيكم لأنه يعلم ما لكم من المنافع من وفادة القبائل، فلما منعكم من تمكينهم من الحج لم يكن تاركا منفعتكم فقدر غناكم عنهم بوسائل أخرى علمها وأحكم تدبيرها.

[٢٩] ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ .

الظاهر أن هذه الآية استئناف ابتدائي لا تتفرع على التي قبلها، فالكلام **انتقال** من غرض نبذ العهد مع المشركين وأحوال المعاملة بينهم وبين المسلمين إلى غرض المعاملة بين المسلمين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، إذ كان الفريقان مسالمين المسلمين في أول بدء الإسلام، وكانوا يحسبون أن في مدافعة المشركين للمسلمين ما يكفيهم أمر التصدي، للطعن في الإسلام وتلاشي أمره فلما أخذ الإسلام ينتشر في بلاد العرب يوما فيوما، واستقل أمره بالمدينة، ابتدأ بعض اليهود يظهر إحنه نحو المسلمين، فنشأ النفاق بالمدينة وظاهرت قريظة والنضير أهل الأحزاب لما غزوا المدينة فأذهبهم الله عنها.

---

(١) التحرير والتنوير ٥٩/١٠

ثم لما اكتمل نصر الإسلام بفتح مكة والطائف وعمومه بلاد العرب بمجيء وفودهم مسلمين، وامتد إلى تخوم البلاد الشامية، أوجست نصارى العرب خيفة من تطرقه إليهم، ولم تغمض عين دولة الروم حامية نصارى العرب عن تداني بلاد الإسلام من بلادهم، فأخذوا يستعدون لحرب المسلمين بواسطة ملوك غسان سادة بلاد الشام في ملك الروم. ففي "صحيح البخاري" عن عمر بن الخطاب أنه قال: "كان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر وإذا غاب كنت أنا آتيه بالخبر ونحن نتخوف ملكا من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا وأنهم ينعلون الخيل لغزونا فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب فقال: افتح افتح. فقلت: أجاء الغساني. قال: بل أشد من ذلك اعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه إلى آخر الحديث.

فلا جرم لما أمن المسلمون بأس المشركين وأصبحوا في مأمن منهم، أن يأخذوا الأهبة ليأمنوا بأس أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فابتدأ ذلك بغزو خيبر وقريظة". (١)

١٧١-"والكي: أن يوضع على الجلد جمر أو شيء مشتعل.

والجباه: جمع جبهة وهي أعلى الوجه مما يلي الرأس.

والجنوب: جمع جنب وهو جانب الجسد من اليمين واليسار.

والظهور: جمع ظهر وهو ما بين العنفقة إلى منتهى فقار العظم.

والمعنى: تعميم جهات الأجساد بالكي فإن تلك الجهات متفاوتة ومختلفة في الإحساس بألم الكي، فيحصل مع تعميم الكي إذاقة لأصناف من الآلام.

وسلك في التعبير عن التعميم مسلك الإطناب بالتعداد لاستحضار حالة ذلك العقاب الأليم، تهويلا لشأنه، فلذلك لم يقل: فتكوى بها أجسادهم.

وكيفية إحضار تلك الدراهم والدنانير لتحمى من شؤون الآخرة الخارقة للعادات المألوفة فبقدرة الله تحضر تلك الدنانير والدراهم أو أمثالها كما ورد في حديث مانع الزكاة في "الموطأ" و"الصحيحين" أنه يمثل له ماله شجاعا أقرع يأخذ بلهزمتيه يقول: "أنا مالك أنا كنزك" وبقدرة الله يكوى الممتنعون من إنفاقها في سبيل الله، وإن كانت قد تداول أعيانها خلق كثير في الدنيا **بانتقالها** من يد إلى يد، ومن بلد إلى بلد، ومن عصر إلى عصر.

وجملة ﴿هذا ما كنزتم لأنفسكم﴾ مقول قول محذوف، وحذف القول في مثله كثير في القرآن، والإشارة إلى المحمي، وزيادة قوله: ﴿لأنفسكم﴾ للتنديم والتغليظ. ولام التعليل مؤذنة بقصد الانتفاع لأن الفعل الذي علل بها هو من فعل المخاطب، وهو لا يفعل شيئا لأجل نفسه إلا لأنه يريد به راحتها ونفعها، فلما آل بهم الكنز إلى العذاب الأليم كانوا قد خابوا وخسروا فيما انتفعوا به من الذهب والفضة، بما كان أضعافا مضاعفة من ألم العذاب وجملة ﴿فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ توبيخ وتنديم. والفاء في ﴿فذوقوا﴾ لتفريع مضمون جملة التوبيخ على جملة التنديم الأولى.

---

(١) التحرير والتنوير ٦٤/١٠

والذوق مجاز في الحس بعلاقة الإطلاق، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿ليذوق وبال أمره﴾ في سورة العقود[٩٥].

و ﴿ما كنتم تكنزون﴾ مفعول لفعل الذوق على تقدير مضاف يعلم من المقام: أي ذوقوا عذاب ما كنتم تكنزون.". (١)

١٧٢-"للمستقبل، على ما هو الغالب فيها، وكان قوله: ﴿إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما﴾ [التوبة:٣٩] تحذيرا من ترك الخروج إلى غزوة تبوك، وهذا كله بعيد مما ثبت في "السيرة" وما ترجح في نزول هذه السورة.

و ﴿ما﴾ في قوله: ﴿ما لكم﴾ اسم استفهام إنكاري، والمعنى: أي شيء، و ﴿لكم﴾ خبر عن الاستفهام أي: شيء ثبت لكم.

و ﴿إذا﴾ ظرف تعلق بمعنى الاستفهام الإنكاري على معنى: أن الإنكار حاصل في ذلك الزمان الذي قيل لهم فيه: انفروا، وليس مضمنا معنى الشرط لأنه ظرف مضي.

وجملة ﴿اثاقلتم﴾ في موضع الحال من ضمير الجماعة، وتلك الحالة هي محل الإنكار، أي: ما لكم متثاقلين. يقال: مالك فعلت كذا، ومالك تفعل كذا كقوله: ﴿ما لكم لا يتناصرون﴾ [الصافات:٢٥]،

ومالك فاعلا، كقوله: ﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ [النساء:٨٨].

والنفر: الخروج السريع من موضع إلى غيره لأمر يحدث، وأكثر ما يطلق على الخروج إلى الحرب، ومصدره حينئذ النفير.

وسبيل الله: الجهاد، سمي بذلك لأنه كالطريق الموصل إلى الله، أي إلى رضاه

و ﴿اثاقلتم﴾ أصله تثاقلتم قلبت التاء المثناة ثاء مثلثة لتقارب مخرجيهما طلبا للإدغام، واجتلبت همزة الوصل لإمكان تسكين الحرف الأول من الكلمة عند إدغامه.

(والتثاقل) تكلف الثقل، أي إظهار أنه ثقيل لا يستطيع النهوض.

والثقل حالة في الجسم تقتضي شدة تطلبه للنزول إلى اسفل، وعسر **انتقاله**، وهو مستعمل هنا في البطء مجازا مرسلا، وفيه تعريض بأن بطأهم ليس عن عجز، ولكنه عن تعلق بالإقامة في بلادهم وأموالهم.

وعدي التثاقل ب ﴿إلى﴾ لأنه ضمن معنى الميل والإخلاد، كأنه تثاقل يطلب فاعله الوصول إلى الأرض للقعود والسكون بها.

والأرض ما يمشي عليه الناس.

ومجموع قوله: ﴿اثاقلتم إلى الأرض﴾ تمثيل لحال الكارهين للغزو المتطلبين للعذر عن الجهاد كسلا وجبنا بحال من يطلب منه النهوض والخروج، فيقابل ذلك الطلب". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٧٩/١٠

(٢) التحرير والتنوير ٩٥/١٠

١٧٣-"والاستطاعة القدرة: أي لسنا مستطيعين الخروج، وهذا اعتذار منهم وتأكيد لاعتذارهم.
وجملة ﴿لخرجنا معكم﴾ جواب ﴿لو﴾ .
والخروج **الانتقال** من المقر إلى مكان قريب أو بعيد ويعدى إلى المكان المقصود ب(إلى)، وإلى المكان المتروك ب(من)، وشاع إطلاق الخروج على السفر للغزو. وتقييده بالمعية إشعار بأن أمر الغزو لا يهمهم ابتداء، وأنهم إنما يخرجون لو خرجوا إجابة لاستنفار النبي صلى الله عليه وسلم: خروج الناصر لغيره، تقول العرب: خرج بنو فلان وخرج معهم بنو فلان، إذا كانوا قاصدين نصرهم.
وجملة ﴿يهلكون أنفسهم﴾ حال، أي يحلفون مهلكين أنفسهم، أي موقعينها في الهلك. والهلك الفناء والموت، ويطلق على الأضرار الجسيمة وهو المناسب هنا، أي يتسببون في ضر أنفسهم بالأيمان الكاذبة، وهو ضر الدنيا وعذاب الآخرة.
وفي هذه الآية دلالة على أن تعمد اليمين الفاجرة يفضي إلى الهلاك، ويؤيده ما رواه البخاري في كتاب الديات من خبر الهذليين الذين حلفوا أيمان القسامة في زمن عمر، وتعمدوا الكذب، فأصابهم مطر فدخلوا غارا في جبل فانهجم عليهم الغار فماتوا جميعا.
وجملة ﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ حال، أي هم يفعلون ذلك في حال عدم جدواه عليهم، لأن الله يعلم كذبهم، أي ويطلع رسوله على كذبهم، فما جنوا من الحلف إلا هلاك أنفسهم.
وجملة ﴿إنهم لكاذبون﴾ سدت مسد مفعولي ﴿يعلم﴾ .
[٤٣] ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ .
استأذن فريق من المنافقين النبي صلى الله عليه وسلم، أن يتخلفوا عن الغزوة، منهم عبد الله بن أبي ابن سلول، والجد بن قيس، ورفاعة بن التابوت، وكانوا تسعة وثلاثين واعتذروا بأعذار كاذبة وأذن النبي صلى الله عليه وسلم لمن استأذنه حملا للناس على الصدق، إذ كان ظاهر حالهم الإيمان، وعلما بأن المعتذرين إذا ألجئوا إلى الخروج لا يغنون شيئا، كما قال تعالى: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا﴾ [التوبة:٤٧] فعاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم في أن أذن لهم،". (١)

١٧٤-"الآية السالفة ﴿إنما يريد الله أن ليعذبهم﴾ [التوبة:٥٥] بذكر لام التعليل وحذف (أن) بعدها وقد اجتمع الاستعمالان في قوله تعالى: ﴿يريد الله ليبين لكم﴾ - إلى قوله - ﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾ في سورة النساء [٢٦،٢٧]. وحذف حرف الجر مع (أن) كثير. وهنالك قدرت أن بعد اللام وتقدير (أن) بعد اللام كثير. ومن محاسن التأكيد الاختلاف في اللفظ وهو تفنن على أن تلك اللام ونحوها قد اختلف فيها فقيل هي زائدة، وقيل: تفيد التعليل. وسماها بعض أهل اللغة ﴿لام أن﴾ ، وتقدم الكلام عليها عند قوله تعالى: ﴿يريد الله ليبين لكم﴾ في سورة النساء [٢٦].
رابعها: أنه جاء في هذه الآية ﴿أن يعذبهم بها في الدنيا﴾ وجاء في الآية السالفة ﴿في الحياة الدنيا﴾ [التوبة:٥٥] ونكتة ذلك أن الآية السالفة ذكرت حالة أموالهم في حياتهم فلم تكن حاجة إلى ذكر الحياة. وهنا ذكرت حالة أموالهم بعد مماتهم

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٦/١٠

لقوله: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا﴾ [التوبة:٨٤] فقد صاروا إلى حياة أخرى وانقطعت حياتهم الدنيا وأصبحت حديثا.

وبقية تفسير هذه الآية كتفسير سالفتها.

[٨٦] ﴿وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين﴾ .

هذا عطف غرض على غرض قصد به **الانتقال** إلى تقسيم فرق المتخلفين عن الجهاد من المنافقين وغيرهم وأنواع معاذيرهم ومراتبها في القبول. دعا إليه الإغلاظ في تقريع المتخلفين عن الجهاد نفاقا وتخذيلا للمسلمين، ابتداء من قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض﴾ [التوبة:٣٨] ثم قوله: ﴿لو كان عرضا قريبا﴾ [التوبة:٤٢] وكل ذلك مقصود به المنافقون.

ولأجل كون هذه الآية غرضا جديدا ابتدئت بذكر نزول سورة داعية إلى الإيمان والجهاد. والمراد بها هذه السورة، أي سورة براءة، وإطلاق اسم السورة عليها في أثنائها قبل إكمالها مجاز متسع فيه كإطلاق الكتاب على القرآن في أثناء نزوله في نحو قوله: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ [البقرة:٢] وقوله: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾ [الأنعام:٩٢] فهذا الوصف وصف مقدر شبيه بالحال المقدرة.

وابتدئي بذكر المتخلفين من المنافقين بقوله: ﴿استأذنك أولوا الطول منهم﴾ .". (١)

١٧٥-"محذوف أي حزنوا لأنهم لا يجدون ما ينفقون.

والآية نزلت في نفر من الأنصار سبعة وقيل: فيهم من غير الأنصار واختلف أيضا في أسمائهم بما لا حاجة إلى ذكره ولقبوا بالبكائين لأنهم بكوا لما لم يجدوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الحملان حزنا على حرمانهم من الجهاد. وقيل: نزلت في أبي موسى الأشعري ورهط من الأشعريين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك يستحملونه فلم يجد لهم حمولة وصادفوا ساعة غضب من النبي صلى الله عليه وسلم فخلف أن لا يحملهم ثم جاءه نهب إبل فدعاهم وحملهم وقالوا: استغفلنا رسول الله يمينه لا نفلح أبدا، فرجعوا وأخبروه فقال: "ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم وإني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا كفرت عن يميني وفعلت الذي هو خير" والظاهر أن هؤلاء غير المعنيين في هذه الآية لأن الأشعريين قد حملهم النبي - عليه الصلاة والسلام - وعن مجاهد أنهم بنو مقرن من مزينه، وهم الذين قيل: إنه نزل فيهم قوله تعالى: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ [التوبة:٩٩] الآية.

[٩٣] ﴿إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون﴾ .

لما نفت الآيتان أن يكون سبيل على المؤمنين الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون والذين لم يجدوا حمولة، حصرت هذه الآية السبيل في كونه على الذين يستأذنون في التخلف وهم أغنياء، وهو **انتقال** بالتخلص إلى العودة إلى أحوال

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/١٧٣

المنافقين كما دل عليه قوله بعد ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم﴾ [التوبة:٩٤]، فالقصر إضافي بالنسبة للأصناف الذين نفي أن يكون عليهم سبيل.
وفي هذا الحصر تأكيد للنفي السابق، أي لا سبيل عقاب إلا على الذين يستأذنونك وهم أغنياء. والمراد بهم المنافقون بالمدينة الذين يكرهون الجهاد إذ لا يؤمنون بما وعد الله عليه من الخيرات وهم أولو الطول المذكورون في قوله: ﴿وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله﴾ [التوبة:٨٦] الآية.
والسبيل: حقيقته الطريق. ومر في قوله: ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ [التوبة:٩١]، وقوله: ﴿إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء﴾ مستعار لمعنى السلطان والمؤاخذة بالتبعة، شبه السلطان والمؤاخذة بالطريق لأن السلطة يتوصل بها من هي له إلى". (١)

١٧٦-"أن هداهم حتى يبين لهم الحق.
[١١٦] ﴿إن الله له ملك السماوات والأرض يحي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ .
تذييل ثان في قوة التأكيد لقوله: ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ [التوبة:١١٥]، ولذلك فصل بدون عطف لأن ثبوت ملك السماوات والأرض لله تعالى يقتضي أن يكون عليما بكل شيء لأن تخلف العلم عن التعلق ببعض المتملكات يفضي إلى إضاعة شؤونها.
فافتتاح الجملة ب(إن) مع عدم الشك في مضمون الخبر يعين أن (إن) لمجرد الاهتمام فتكون مفيدة معنى التفريع بالفاء والتعليل.
ومعنى الملك: التصرف والتدبير. وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿مالك يوم الدين﴾ [الفاتحة:٤].
وزيادة جملتي: ﴿يحي ويميت﴾ لتصوير معنى الملك في أتم مظاهره المحسوسة للناس المسلم بينهم أن ذلك من تصرف الله تعالى لا يستطيع أحد دفع ذلك ولا تأخيره.
وعطف جملة: ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ لتأييد المسلمين بأنهم منصورون في سائر الأحوال لأن الله وليهم فهو نصير لهم، ولإعلامهم بأنهم لا يخشون الكفار لأن الكافرين لا مولى لهم لأن الله غاضب عليهم فهو لا ينصرم. وذلك مناسب لغرض الكلام المتعلق باستغفارهم للمشركين بأنه لا يفيدهم.
وتقدم الكلام على الولي عند قوله تعالى: ﴿قل أغير الله أتخذ وليا﴾ في أول سورة الأنعام [١٤].
والنصير: الناصر. وتقدم معنى النصر عند قوله تعالى: ﴿ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾ في سورة البقرة [٤٨].
[١١٧] ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير ١٨١/١٠

انتقال من التحريض على الجهاد والتحذير من التقاعس والتوبيخ على التخلف، وما". (١)

١٧٧-"شرف الغاية منها. وذلك بأن جعل لهم عليها ثوابا كما جعل للأعمال المقصود بها القربة، كما ورد أن نوم الصائم عبادة. وقد دل على هذا المعنى التذييل الذي أفاد التعليل بقوله: ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ .
ودل هذا التذييل على أنهم كانوا بتلك الأعمال محسنين فدخلوا في عموم قضية ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ بوجه الإيجاز.
[١٢١] ﴿ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾ .
عطف على جملة ﴿لا يصيبهم ظمأ﴾ ، وهو انتقال من عداد الكلف التي تصدر عنهم بلا قصد في سبيل الله إلى بعض الكلف التي لا تخلو عن استشعار من تحل بهم بأنهم لقوها في سبيل الله، فالنفقة في سبيل الله لا تكون إلا عن قصد يتذكر به المنفق أنه يسعى إلى ما هو وسيلة لنصر الدين، والنفقة الكبيرة أدخل في القصد، فلذلك نبه عليهما وعلى النفقة الصغيرة ليعلم بذكر الكبيرة حكم النفقة الصغيرة لأن العلة في الكبيرة أظهر وكان هذا الإطناب في عد مناقبهم في الغزو لتصوير ما بذلوه في سبيل الله.
وقطع الوادي: هو اجتيازه. وحقيقة القطع: تفريق أجزاء الجسم. وأطلق على الاجتياز على وجه الاستعارة.
والوادي: المنفرج يكون بين جبال أو إكام فيكون منفذا لسيول المياه، ولذلك اشتق من ودي بمعنى سال. وقطع الوادي أثناء السير من شأنه أن يتذكر السائرون بسببه أنهم سائرون إلى غرض ما لأنه يجدد حالة في السير لم تكن من قبل. ومن أجل ذلك ندب الحجيج إلى تجديد التلبية عندما يصعدون شرفا أو ينزلون واديا أو يلاقون رفاقا.
والضمير في ﴿كتب﴾ عائد إلى ﴿عمل صالح﴾ [التوبة: ١٢٠]. ولام التعليل متعلقة ب(كتب)، أي كتب الله لهم صالحا ليجزيهم عن أحسن أعمالهم.
ولما كان هذا جزاء عن عملهم المذكور علم أن عملهم هذا من أحسن أعمالهم.
وانتصب ﴿أحسن﴾ على نزع الخافض، أي عن أحسن ما كانوا يعملون أو بأحسن ما كانوا يعملون كقوله تعالى: ﴿ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله﴾ [النور:٣٨] وأما قوله: ﴿ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ [القصص:٢٥] فالظاهر أنه من غير هذا القبيل". (٢)

١٧٨-"الملاقي من الشر المتوقع من بين كثير من المتناكرين. ولذلك كان اللفظ الشائع هو لفظ السلام الذي هو الأمان، فكان من المناسب التصريح بأن الأمان على المخاطب تحقيقا لمعنى تسكين روعه، وذلك شأن قديم أن الذي يضمر شرا لملاقيه لا يفاتحه بالسلام، ولذلك جعل السلام شعار المسلمين عند اللقاء تعميما للأمن بين الأمة الذي هو من آثار

(١) التحرير والتنوير ٢١٨/١٠
(٢) التحرير والتنوير ٢٢٦/١٠

الاخوة الإسلامية. وكذلك شأن القرى في الحضارة القديمة فإن الطارق إذا كان طارق شر أو حرب يمتنع عن قبول القرى، كما حكى الله تعالى عن إبراهيم: ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة﴾ [هود: ٧٠].

وفيه تنويه بشأن هذا اللفظ الذي هو شعار المسلمين عند ملاقاتهم لما فيه من المعاني الجامعة للإكرام، إذ هو دعاء بالسلامة من كل ما يكدر، فهو أبلغ من أحياك الله لأنه دعاء بالحياة وقد لا تكون طيبة، والسلام يجمع الحياة والصفاء من الأكدار العارضة فيها.

وإضافة التحية إلى ضمير (هم) معناها التحية التي تصدر منهم، أي من بعضهم لبعض.

ووجه ذكر تحيتهم في هذه الآية الإشارة إلى أنهم في أنس وحبور، وذلك من أعظم لذات النفس.

وجملة: ﴿وآخر دعواهم﴾ بقية الجمل الحالية. وجعل حمد الله من دعائهم كما اقتضته ﴿أن﴾ التفسيرية المفسرة به: ﴿آخر دعواهم﴾ لأن في دعواهم معنى القول إذ جعل آخر أقوال.

ومعنى: ﴿آخر دعواهم﴾ أنهم يختمون به دعاءهم فهم يكررون ﴿سبحانك اللهم﴾ فإذا أرادوا الانتقال إلى حالة أخرى من أحوال النعيم نهوا دعاءهم بجملة ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ .

وسياق الكلام وترتيبه مشعر بأنهم يدعون مجتمعين، ولذلك قرن ذكر دعائهم بذكر تحيتهم، فلعلهم إذا تراءوا ابتدروا إلى الدعاء بالتسبيح فإذا اقترب بعضهم من بعض سلم بعضهم على بعض. ثم إذا راموا الافتراق ختموا دعاءهم بالحمد، فأن تفسيرية لآخر دعواهم، وهي مؤذنة بأن آخر الدعاء هو نفس الكلمة ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ .

وقد دل على فضل هاتين الكلمتين قول النبيء صلى الله عليه وسلم: "كلمتان حبيبتان إلى الرحمان". [١]

١٧٩- ""إذا" وهنا لمجرد الظرفية وتوقيت جوابها بشرطها، وليست للاستقبال كما هو غالب أحوالها لأن المقصود هنا حكاية حال المشركين في دعائهم الله عند الاضطرار وإعراضهم عنه إلى عبادة إلهتهم عند الرخاء، بقرينة قوله: ﴿كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾ إذ جعلها حالا للمسرفين. وإذ عبر عن عملهم بلفظ ﴿كانوا﴾ الدال على أنه عملهم في ماضي أزمانهم، ولذلك جيء في شرطها وجوابها وما عطف عليهما بأفعال المضي لأن كون ذلك حالهم فيما مضى أدخل في تسجيله عليهم مما لو فرض ذلك من حالهم في المستقبل إذ لعل فيهم من يتعظ بهذه الآية فيقطع عن عمله هذا أو يساق إلى النظر في الحقيقة.

ولهذا فرع عليه جملة: ﴿فلما كشفنا عنه ضره مر﴾ لأن هذا التفريع هو المقصود من الكلام إذ الحالة الأولى وهي المفرع عليها حالة محمودة لولا ما يعقبها.

والكشف: حقيقته إظهار شيء عليه ساتر أو غطاء. وشاع إطلاقه على مطلق الإزالة. إما على طريقة المجاز المرسل بعلاقة الإطلاق، وإما على طريقة الاستعارة بتشبيه المزال بشيء ساتر لشيء.

والمرور: هنا مجازي بمعنى استبدال حالة بغيرها. شبه الاستبدال بالانتقال من مكان إلى آخر لأن الانتقال استبدال، أي

(١) التحرير والتنوير ٢٨/١١

انتقل إلى حال كحال من لم يسبق له دعاؤنا، أي نسي حالة اضطراره واحتياجه إلينا فصار كأنه لم يقع في ذلك الاحتياج.
و"كأن" مخففة كأن، واسمها ضمير الشأن حذف على ما هو الغالب. وعدي الدعاء بحرف "إلى" في قوله: ﴿إلى ضر﴾ دون اللام كما هو الغالب في نحو قوله:

دعوت لما نابني مسورا

على طريقة الاستعارة التبعية بتشبيه الضر بالعدو المفاجئ الذي يدعو إلى من فاجأه ناصرا إلى دفعه.
وجعل "إلى" بمعنى اللام بعد عن بلاغة هذا النظم وخلط للاعتبارات البلاغية.
وجملة: ﴿كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾ تذييل يعم ما تقدم وغيره، أي هكذا التزيين الشيطاني زين لهم ما كانوا يعملون من أعمالهم في ماضي أزمانهم في الدعاء وغيره من ضلالاتهم.
وتقدم القول في معنى وموقع "كذلك" في أمثال هذه الآية عند قوله تعالى: ﴿وكذلك". (١)

١٨٠-"الخطاب الصالحة لجميع السامعين، فلما تهيأت **للانتقال** إلى ذكر الضراء وقع **الانتقال** من ضمائر الخطاب إلى ضمير الغيبة لتلوين الأسلوب بما يخلصه إلى الإفضاء إلى ما يخص المشركين فقال: ﴿وجرين بهم﴾ على طريقة الالتفات، أي وجرين بكم. وهكذا أجريت الضمائر جامعة للفريقين إلى أن قال: ﴿فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق﴾ فإن هذا ليس من شيم المؤمنين فتمحض ضمير الغيبة هذا للمشركين، فقد أخرج من الخبر من عدا الذين يبغون في الأرض بغير الحق تعويلا على القرينة لأن الذين يبغون في الأرض بغير الحق لا يشمل المسلمين.
وهذا ضرب من الالتفات لم ينبه عليه أهل المعاني وهو كالتخصيص بطريق الرمز.
وقد عدت هذه الآية من أمثلة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في ضمائر الغيبة كلها تبعا "للكشاف" بناء على جعل ضمائر الخطاب للمشركين وجعل ضمائر الغيبة لهم أيضا، وما نحوته أنا أليق.
وابتدئ الإتيان بضمير الغيبة من آخر ذكر النعمة عند قوله: ﴿وجرين بهم بريح طيبة﴾ للتصريح بأن النعمة شملتهم، وللإشارة إلى أن مجيء العاصفة فجأة في حال الفرح مراد منه ابتلاؤهم وتخويفهم. فهو تمهيد لقوله: ﴿وجاءهم الموج من كل مكان﴾
.

والسير في البر معروف للعرب. وكذلك السير في البحر. كانوا يركبون البحر إلى اليمن وإلى بلاد الحبشة. وكانت لقريش رحلة الشتاء إلى اليمن وقد يركبون البحر لذلك. وقد وصف طرفة بن العبد السفن وسيرها، وذكرها عمرو بن كلثوم في معلقته، والنابغة في داليته.
وقرأ الجمهور ﴿يسيركم﴾ بتحتية في أوله مضمومة فسين مهملة بعدها تحتية بعدها راء من السير، أي يجعلكم تسيرون.
وقرأه ابن عامر وأبو جعفر ﴿ينشركم﴾ بتحتية مفتوحة في أوله بعدها نون ثم شين معجمة ثم راء من النشر، وهو التفريق على نحو قوله تعالى: ﴿إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ [الروم: ٢] وقوله: ﴿فانتشروا في الأرض﴾ [الجمعة: ١٠]. قال ابن عطية

---

(١) التحرير والتنوير ١١/٣٤

عن عوف بن أبي جميلة وأبي الزغل: كانوا أي أهل الكوفة يقرأون ﴿ينشركم﴾ فنظروا في مصحف عثمان بن عفان فوجدوها: ﴿يسيركم﴾ "أي بتحتية فسين مهملة فتحتية" فأول من كتبها كذلك الحجاج بن يوسف، أي أمر بكتبها في مصاحف أهل الكوفة.". (١)

١٨١-"والمولى: السيد، لأن بينه وبين عبده ولاء عهد الملك. ويطلق على متولي أمور غيره وموفر شؤونه.
والحق: الموافق للواقع والصدق، أي ردوا إلى الإله الحق دون الباطل. والوصف بالحق هو وصف المصدر في معنى إلحاق، أي إلحاق المولوية، أي دون الأولياء الذين زعموهم باطلا.
﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾
هذه الجملة مختصه بالمشركين كما هو واضح.
والضلال: الضياع.
و ﴿ما كانوا يفترون﴾ ما كانوا يكذبون من نسبتهم الإلهية إلى الأصنام، فيجوز أن يكون ما صدق "ما" الموصولة الأصنام، فيكون قد حذف العائد مع حرف الجر بدون أن يجر الموصول بمثل ما جر به العائد والحق جوازه، فالتقدير: ما كانوا يكذبون عليه أو له. وضلاله: عدم وجوده على الوصف المزعوم له.
ويجوز أن يكون ما صدق "ما" نفس الافتراء، أي الافتراء الذي كانوا يفترونه. وضلاله: ظهور نفيه وكذبه.
[٣١] ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾
انتقال من غرض إلى غرض في أفانين إبطال الشرك وإثبات توحد الله تعالى بالإلهية. وهذه الجملة تتنزل الاستدلال لقوله: ﴿مولاهم الحق﴾ [يونس: ٣٠] لأنها برهان على أنه المستحق للولاية.
فاحتج على ذلك بمواهب الرزق الذي به قوام الحياة، وبموهبة الحواس، وبنظام التناسل والتوالد الذي به بقاء الأنواع،وبتدبير نظام العالم وتقدير المقدرات، فهذه كلها مواهب من الله وهم كانوا يعلمون أن جميع ما ذكر لا يفعله إلا الله إذ لم يكونوا ينسبون إلى أصنامهم هذه الأمور، فلا جرم أن كان المختص بها هو مستحق الولاية والإلهية.
والاستفهام تقريري. وجاء الاستدلال بطريقة الاستفهام والجواب لأن ذلك في صورة الحوار، فيكون الدليل الحاصل به أوقع في نفوس السامعين، ولذلك كان من طرق". (٢)

١٨٢-"التعليم مما يراد رسوخه من القواعد العلمية أن يؤتى به في صورة السؤال والجواب.
وقوله: ﴿من السماء والأرض﴾ تذكير بأحوال الرزق ليكون أقوى حضورا في الذهن، فالرزق من السماء المطر، والرزق من

---

(١) التحرير والتنوير ٥٥/١١

(٢) التحرير والتنوير ٧١/١١

الأرض النبات كله من حب وثمر وكلأ.

و"أم" في قوله: ﴿ أمن يملك السمع﴾ للإضراب **الانتقالي** من استفهام إلى آخر.

ومعنى: ﴿يملك السمع والأبصار﴾ يملك التصرف فيهما، وهو ملك إيجاد تينك الحاستين وذلك استدلال وتذكير بأنفع صنع وأدقه.

وأفرد ﴿السمع﴾ لأنه مصدر فهو دال على الجنس الموجود في جميع حواس الناس. وأما ﴿الأبصار﴾ فجيء به جمعا لأنه اسم، فهو ليس نصا في إفادة العموم لاحتمال توهم بصر مخصوص فكان الجمع أدل على قصد العموم وأنفى لاحتمال العهد ونحوه بخلاف قوله: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾ [الإسراء: ٣٦] لأن المراد الواحد لكل مخاطب بقوله: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ [الإسراء: ٣٦]. وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم﴾ في سورة الأنعام[٤٦].

وإخراج الحي من الميت: هو تولد أطفال الحيوان من النطف ومن البيض؛ فالنطفة أو البيضة تكون لا حياة فيها ثم تتطور إلى الشكل القابل للحياة ثم تكون فيها الحياة. و"من" في قوله: ﴿من الميت﴾ للابتداء. وإخراج الميت من الحي إخراج النطفة والبيض من الحيوان.

والتعريف في ﴿الحي﴾ و ﴿الميت﴾ في المرتين تعريف الجنس.

وقد نظم هذا الاستدلال على ذلك الصنع العجيب بأسلوب الأحاجي والألغاز وجعل بمحسن التضاد، كل ذلك لزيادة التعجيب منه. وقد تقدم الكلام على نظيره في قوله: ﴿وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾ في سورة آل عمران[٢٧]. غير أن ما هنا ليس فيه رمز إلى شيء.

وقوله: ﴿ومن يدبر الأمر﴾ تقدم القول في نظيره في أوائل هذه السورة. وهو هنا تعميم بعد تخصيص ذكر ما فيه مزيد عبرة في أنفسهم كالعبرة في قوله: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ [الذاريات: ٢١، ٢٢].". (١)

١٨٣-"بالمصدر تنويها ببلوغه الغاية في هذه المعاني حتى اتحد بأجناسها.

و ﴿صديق الذي بين يديه﴾ كونه مصدقا للكتب السالفة، أي مبينا للصادق منها ومميزا له عما زيد فيها وأسيء من تأويلها كما قال تعالى: ﴿مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه﴾ كما تقدم في سورة العقود[٤٨]. وأيضا هو مصدق "بفتح الدال" بشهادة الكتب السالفة فيما أخذت من العهد على أصحابها أن يؤمنوا بالرسول الذي يجيء مصدقا وخاتما. فالوصف بالمصدر صالح للأمرين لأن المصدر يقتضي فاعلا ومفعولا.

والتفصيل: التبيين بأنواعه. والظاهر أن تعريف ﴿الكتاب﴾ تعريف الجنس فيستغرق الكتب كلها. ومعنى كون القرآن تفصيلا لها أنه مبين لما جاء مجملا في الكتب السالفة، وناسخ لما لا مصلحة للناس في دوام حكمه، ودافع للمتشابهات التي ضل بها أهل الكتاب، فكل ذلك داخل في معنى التفصيل، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ومهيمنا عليه﴾ في سورة العقود[٤٨]. وهذا

---

(١) التحرير والتنوير ٧٢/١١

غير معنى قوله: ﴿وتفصيل كل شيء﴾ [يوسف: ١١١]في الآية الأخرى.

وجملة: ﴿لا ريب فيه﴾ مستأنفة ردت مزاعم الذين زعموا أنه مفترى باقتلاع دعوى افترائه، وأنها مما لا يروج على أهل الفطن والعقول العادلة، فالريب المنفي عنه هو أن يكون من أحواله في ذاته ومقارناته ما يثير الريب، ولذلك كان ريب المرتابين فيه ريبا مزعوما مدعى وهم لو راجعوا أنفسهم لوجدوها غير مرتابة. وقد تقدم القول في نظير هذا في طالعة سورة البقرة[٢].

وموقع قوله: ﴿من رب العالمين﴾ محتمل وجوها أظهرها أنه ظرف مستقر في موضع الخبر عن مبتدإ محذوف هو ضمير القرآن، والجملة استئناف ثان، و"من" ابتدائية تؤذن بالمجيء، أي هو وارد من رب العالمين، أي من وحيه وكلامه، وهذا مقابل قوله: ﴿من دون الله﴾ .

[٣٨] ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ .

﴿أم﴾ للإضراب **الانتقالي** من النفي إلى الاستفهام الإنكاري التعجيبي، وهو ارتقاء بإبطال دعواهم أن يكون القرآن مفترى من دون الله.". (١)

١٨٤-"ولما اختصت: ﴿أم﴾ بعطف الاستفهام كان الاستفهام مقدرا معها حيثما وقعت، فالاستفهام الذي تشعر به "أم" استفهام تعجيبي إنكاري، والمعنى: بل أيقولون افتراه بعدما تبين لهم من الدلائل على صدقه وبراءته من الافتراء.

ومن بديع الأسلوب وبليغ الكلام أن قدم وصف القرآن بما يقتضي بعده عن الافتراء وبما فيه من أجل صفات الكتب، وبتشريف نسبته إلى الله تعالى ثم أعقب ذلك بالاستفهام عن دعوى المشركين افتراء ليتلقى السامع هذه الدعوى بمزيد الاشمئزاز والتعجب من حماقة أصحابها فلذلك جعلت دعواهم افتراءه في حيز الاستفهام الإنكاري التعجيبي.

وقد أمر الله نبيه أن يجيبهم عن دعوى الافتراء بتعجيزهم، وأن يقطع الاستدلال عليهم، فأمرهم بأن يأتوا بسورة مثله. والأمر أمر تعجيز، وقد وقع التحدي بإتيانهم بسورة تماثل سور القرآن، أي تشابهه في البلاغة وحسن النظم. وقد تقدم تقرير هذه المماثلة عند تفسير قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾ في سورة البقرة[٢٣].

وقوله: ﴿وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ هو كقوله في آية البقرة[٢٣]: ﴿وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ ، ومعنى: ﴿صادقين﴾ هنا، أي قولكم أنه افترى، لأنه إذا أمكنه أن يفتريه أمكنكم أنتم معارضته فإنكم سواء في هذه اللغة العربية.

وحذف مفعول ﴿استطعتم﴾ لظهوره من فعل "ادعوا"، أي من استطعتم دعوته لنصرتكم وإعانتكم على تأليف سورة مثل سور القرآن.

[٣٩] ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾

﴿بل﴾ إضراب **انتقالي** لبيان كنه تكذيبهم، وأن حالهم في المبادرة بالتكذيب قبل التأمل أعجب من أصل التكذيب إذ أنهم

---

(١) التحرير والتنوير ١١/٨٣

بادروا إلى تكذيبه دون نظر في أدلة صحته التي أشار إليها قوله: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾ [يونس: ٣٧].

والتكذيب: النسبة إلى الكذب، أو الوصف بالكذب سواء كان عن اعتقاد أم لم يكنه.". (١)

١٨٥-"والجمل الأربع هي من المقول المأمور به النبيء صلى الله عليه وسلم تبليغا عن الله تعالى.

وإذاقة العذاب إيصاله إلى الإحساس، أطلق عليه الإذاقة لتشبيهه بإحساس الذوق في التمكن من أقوى أعضاء الجسم حاسية لمس وهو اللسان.

والباء في ﴿بما كانوا يكفرون﴾ للتعليل.

وقوله: ﴿كانوا يكفرون﴾ يؤذن بتكرر ذلك منهم وتجدده بأنواع الكفر.

[٧١] ﴿واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون﴾

انتقال من مقارعة المشركين بالحجج الساطعة على بطلان دينهم، وبالدلائل الواضحة على تفنيد أكاذيبهم وتكذيبهم وما تخلل ذلك من الموعظة والوعيد بالعذاب العاجل والآجل والإرهاب، إلى التعريض لهم بذكر ما حل بالأمم المماثلة أحوالها لأحوالهم، استقصاء لطرائق الحجاج على أصحاب اللجاج؛ فإن نوحا عليه السلام مع قومه مثل لحال محمد صلى الله عليه وسلم مع المشركين من قومه في ابتداء الأمر وتطوره، ففي ذكر عاقبة قوم نوح عليه السلام تعريض للمشركين بأن عاقبتهم كعاقبة أولئك أو أنهم إنما يمتعون قليلا ثم يؤخذون أخذة رابية، كما متع قوم نوح زمنا طويلا ثم لم يفلتوا من العذاب في الدنيا، فذكر قصة نوح مع قومه عظة للمشركين وملقيا بالوجل والذعر في قلوبهم، وفي ذلك تأنيس للرسول صلى الله عليه وسلم وللمسلمين بأنهم إسوة بالأنبياء، والصالحين من أقوامهم، وكذلك قصة موسى عليه السلام عقبها كما ينبئ عن ذلك قوله في نهاية هذه القصص ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ [يونس: ٩٩] الآيات. وقوله: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك﴾ [يونس: ٩٤] الآيات.

وبهذا يظهر حسن موقع "إذ" من قوله: ﴿إذ قال لقومه يا قوم﴾ إلى آخره، فإن تقييد النبأ بزمن قوله: ﴿لقومه﴾ إيماء إلى أن محاورته قومه وإصرارهم على الإعراض هو محل العبرة، لأنه وجه الشبه بين المشركين وبين قوم نوح عليه السلام في صم آذانهم عن دعوة رسولهم، وقوله ذلك لهم إنما كان بعد أن كرر دعاءهم زمنا طويلا فكان ذلك آخر جدل بينه وبينهم، والنبيء صلى الله عليه وسلم قد دعا أهل مكة سنين وقت نزول هذه السورة ثم حاورهم وجادلهم ولأن ذلك الزمن هو أعظم موقف وقفه نوح عليه السلام مع قومه، وكان هو". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٨٤/١١

(٢) التحرير والتنوير ١٣٧/١١

١٨٦-"البيوت أمر بحالة مشعرة بترقب أخطار وتخوف فإنهم قالوا: ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة﴾ فأمر موسى أن يبشرهم بحسن العاقبة، وأنهم منصورون على عدوهم وناجون منه والمؤمنون هم قوم موسى الذين ذكروا في قوله: ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه﴾ وفي قوله: ﴿وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا﴾ [يونس: ٨٤، ٨٥].

[٨٨] ﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾.

عطف بقية ما جرى في القصة مما فيه عبرة وموعظة. وهذا مقدمة لخبر خروج موسى ومن معه من أرض مصر. فهذه المقدمة لتعريف كرامة موسى عليه السلام على ربه بأن استجاب له دعاءه، وأنفذ برسالته مراده تعالى من إنقاذ بني إسرائيل من الاستعباد.

ومهد موسى لدعائه تمهيدا يدل على أن ما سأله من الله لزجر فرعون وملئه إنما هو لمصلحة الدين لا للانتقام منه لقومه ولنفسه، فسأل الله سلب النعمة عن فرعون وملئه وحلول العذاب بهم لخضد شوكتهم وتذليل تجبرهم ليرجعوا عن ضلالهم ويسهل قبولهم الإيمان.

ولما كانت النعمة مغرية بالطغيان لأهل الجهالة والخباثة جعل موسى إمداد فرعون بالنعمة مغريا لفرعون بالاسترسال على الإعراض عن الدين فكان دعاء موسى عليهم استصلاحا لهم وتطلبا لإيمانهم بوسائل التشديد عليهم، ولكن الله علم من قلوبهم ما لم يعلمه موسى وقضى عليهم بالاستئصال.

وافتتح الدعاء بالنداء لمناسبته لمقام الدعاء. ونودي الله بوصف الربوبية تذللا لإظهار العبودية.

وقوله: ﴿إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا﴾ توطئة للدعاء عليهم فليس المقصود به حقيقة الإخبار ضرورة أن موسى يوقن بأن الله يعلم ذلك فتعين أن الخبر مستعمل في التمهيد لطلب سلب النعمة عنهم في قوله: ﴿ليضلوا عن سبيلك﴾ . ثم **الانتقال** إلى الدعاء بسلب ما أوتوه.". (١)

١٨٧-"المكذبين وهم المقصود، وإنما جاء الكلام بصيغة العموم ليكون تذييلا وإتيانا للغرض بما هو كالدليل، ولينتقل من ذلك العموم إلى تسلية النبيء صلى الله عليه وسلم بأن الله مطلع على مكر أولئك، وأنه وكيل على جزائهم وأن الله عالم ببذل النبيء جهده في التبليغ.

[١٣] ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾

﴿أم﴾ هذه منقطعة بمعنى "بل" التي للإضراب **للانتقال** من غرض إلى آخر، إلا أن "أم" مختصة بالاستفهام فتقدر بعدها همزة الاستفهام. والتقدير: بل أيقولون افتراه. والإضراب **الانتقالي** في قوة الاستئناف الابتدائي، فللجملة حكم الاستئناف. والمناسبة ظاهرة، لأن الكلام في إبطال مزاعم المشركين، فإنهم قالوا: هذا كلام مفترى، وقرعهم بالحجة. والاستفهام إنكاري.

---

(١) التحرير والتنوير ١١/١٦٣

والافتراء: الكذب الذي لا شبهة لصاحبه، فهو الكذب عن عمد، كما تقدم في قوله: ﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب﴾ في سورة العقود [١٠٣].

وجملة ﴿قل فأتوا﴾ جواب لكلامهم فلذلك فصلت على ما هو مستعمل في المحاورة سواء كانت حكاية المحاورة بصيغة حكاية القول أو كانت أمرا بالقول كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ [البقرة: ٣٠]. والضمير المستتر في "افتراه" عائد إلى النبيء صلى الله عليه وسلم المذكور في قوله: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك﴾ [هود: ١٢]. وضمير الغائب البارز المنصوب عائد إلى القرآن المفهوم من قوله: ﴿بعض ما يوحى إليك﴾ [هود: ١٢].

والإتيان بالشيء: جلبه، سواء كان بالاسترفاد من الغير أم بالاختراع من الجالب وهذا توسعة عليهم في التحدي.

وتحداهم هنا بأن يأتوا بعشر سور خلاف ما تحداهم في غير هذا المكان بأن يأتوا بسورة مثله، كما في سورة البقرة وسورة يونس. فقال ابن عباس وجمهور المفسرين: كان التحدي أول الأمر بأن يأتوا بعشر سور مثل القرآن. وهو ما وقع في سورة هود، ثم نسخ بأن يأتوا بسورة واحدة كما وقع في سورة البقرة وسورة يونس. فتخطى أصحاب هذا القول إلى أن قالوا إن سورة هود نزلت قبل سورة يونس، وهو الذي يعتمد عليه.". (١)

١٨٨-"وجملة ﴿هل يستويان مثلا﴾ واقعة موقع البيان للغرض من التشبيه وهو نفي استواء حالهما، ونفي الاستواء كناية عن التفضيل والمفضل منهما معلوم من المقام، أي معلوم تفضيل الفريق الممثل بالسميع والبصير على الفريق الممثل بالأعمى والأصم. والاستفهام إنكاري.

وانتصب ﴿مثلا﴾ على التمييز، أي من جهة حالهما، والمثل: الحال.

والمقصود تنبيه المشركين لما هم فيه من الضلالة لعلهم يتداركون أمرهم فلذلك فرع عليه بالفاء جملة ﴿أفلا تذكرون﴾ .

والهمزة استفهام وإنكار انتفاء تذكرهم واستمرارهم في ضلالهم.

وقرأ الجمهور "تذكرون" بتشديد الذال. وأصله تتذكرون، فقلبت التاء دالا لقرب مخرجيهما وليتأتى الإدغام تخفيفا. وقرأه حفص، وحمزة، والكسائي بتخفيف الذال على حذف إحدى التاءين من أول الفعل.

وفي مقابلة ﴿الأعمى والأصم﴾ ب ﴿البصير والسميع﴾ محسن الطباق.

[٢٥] [٢٦] ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾ .

انتقال من إنذار المشركين ووصف أحوالهم وما ناسب ذلك إلى موعظتهم بما أصاب المكذبين قبلهم من المصائب، وفي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بما لاقاه الرسل عليهم السلام قبله من أقوامهم.

فالعطف من عطف القصة على القصة وهي التي تسمى الواو الابتدائية.

وأكدت الجملة بلام القسم و ﴿قد﴾ لأن المخاطبين لما غفلوا عن الحذر مما بقوم نوح مع مماثلة حالهم نزلوا منزلة المنكر لوقوع رسالته.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٨/١١

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة ﴿إني﴾ بكسر الهمزة على أنه محكي بفعل قول محذوف في محل حال، أي قائلا.
وقرأه ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر، ويعقوب، وخلف بفتح الهمزة على تقدير حرف جر وهو الباء للملابسة، أي أرسلناه متلبسا بذلك، أي بمعنى". (١)

١٨٩-"يؤمنون بالبعث أصلا بله أن يزعموا أنهم يحضرون إلى الله وإلى غيره.

وتمثلت فيما قصة الله من قصة نوح - عليه السلام - مع قومه صورة واضحة من تفكير أهل العقول السخيفة التي ران عليها الضلال فقلب أفكارها إلى اعوجاج فظيع، وهي الصورة التي تتمثل في الأمم التي لم يثقف عقولها الإرشاد الديني فغلب عليها الانسياق وراء داعي لبهوى، وامتلكها الغرور بظن الخطأ صوابا، ومصانعة من تصأصئ عين بصيرته بلائح من النور، من يدعوه إلى إغماضها وعدمت الوازع النفساني فلم تعبأ إلا بالصور المحوسة ولم تهتم إلا باللذات وحب الذات ولا تزن بمعيار النقد الصحيح خلوص النفوس من دخل النقائص.
[٣٥] ﴿أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون﴾ .
جملة معترضة بين جملة أجزاء القصة وليست من القصة، ومن جعلها منها فقد أبعد، وهي تأكيد لنظيرها السابق في أول السورة. ومناسبة هذا الاعتراض أن تفاصيل القصة التي لا يعلمها المخاطبون تفاصيل عجيبة تدعو المنكرين إلى أن يتذكروا إنكارهم ويعيدوا ذكره.
وكون ذلك مطابقا لما حصل في زمن نوح عليه السلام وشاهدة به كتب بني إسرائيل يدل على صدق النبيء صلى الله عليه وسلم لأن علمه بذلك مع أميته وبعد قومه عن أهل الكتاب آية على أنه وحي من الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.
فالاستفهام الذي يؤذن به حرف ﴿أم﴾ المختص بعطف الاستفهام استفهام إنكاري. وموقع الإنكار بديع لتضمنه الحجة عليهم.
و ﴿أم﴾ هنا للإضراب للانتقال من غرض لغرض.
وضمير النصب عائد إلى القرآن المفهوم من السياق.
وجملة: ﴿قل﴾ مفصولة عن التي قبلها لوقوعها في سياق المحاورة كما تقدم غير مرة.
وأمر النبيء صلى الله عليه وسلم أن يعرض عن مجادلتهم بالدليل لأنهم ليسوا بأهل لذلك إذ قد أقيمت عليهم الحجة غير مرة فلم تغن فيهم شيئا، فلذلك أجيبوا بأنه لو فرض ذلك لكانت". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٧/١١
(٢) التحرير والتنوير ٢٥٣/١١

١٩٠-"والسلام: التحية. وتقدم في قوله: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم﴾ في سورة الأنعام [٥٤].

و ﴿سلاما﴾ مفعول مطلق وقع بدلا من الفعل. والتقدير: سلمنا سلاما.

و ﴿سلام﴾ المرفوع مصدر مرفوع على الخبر لمبتدأ محذوف، تقديره: أمري سلام، أي لكم، مثل ﴿فصبر جميل﴾ [يوسف: ١٨]. ورفع المصدر أبلغ من نصبه، لأن الرفع فيه تنامي معنى الفعل فهو أدل على الدوام والثبات. ولذلك خالف بينهما للدلالة على أن إبراهيم - عليه السلام - رد السلام بعبارة أحسن من عبارة الرسل زيادة في الإكرام.

قال ابن عطية: حيا الخليل بأحسن مما حيي به، أي نظرا إلى الأدب الإلهي الذي علمه لنا في القرآن بقوله: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ ، فحكي ذلك بأوجز لفظ في العربية أداء لمعنى كلام إبراهيم - عليه السلام - في الكلدانية.

وقرأ الجمهور ﴿قال سلام﴾ - بفتح السين وبألف بعد اللام -. وقرأه حمزة، والكسائي، وخلف ﴿قال سلم﴾ - بكسر السين وبدون ألف بعد اللام - وهو اسم المسالمة. وسميت به التحية كما سميت بمرادفه "سلام" فهو من باب اتحاد وزن فعال وفعل في بعض الصفات مثل: حرام وحرم، وحلال وحل.

والفاء في قوله: ﴿فما لبث﴾ للدلالة على التعقيب إسراعا في إكرام الضيف، وتعجيل القرى سنة عربية: ظنهم إبراهيم عليه السلام ناسا فبادر إلى قراهم.

واللبث في المكان يقتضي الانتقال عنه، أي فما أبطأ. و ﴿أن جاء﴾ يجوز أن يكون فاعل ﴿لبث﴾ ، أي فما لبث مجيئه بعجل حنيذ، أي فما أبطأ مجيئه مصاحبا له، أي بل عجل. ويجوز جعل فاعل ﴿لبث﴾ ضمير إبراهيم عليه السلام فيقدر جار ل ﴿جاء﴾ . والتقدير: فما لبث بأن جاء به. وانتفاء اللبث مبالغة في العجل.

والحنيذ: المشوي، وهو المحنوذ. والشي أسرع من الطبخ، فهو أعون على تعجيل إحضار الطعام للضيف.

و ﴿لا تصل إليه﴾ أشد في عدم الأخذ من "لا تتناوله".

ويقال: نكر الشيء إذا أنكره أي كرهه.

وإنما نكرهم لأنه حسب أن إمساكهم عن الأكل لأجل التبرؤ من طعامه، وإنما يكون". (١)

١٩١-"هذا قوي الاتصال بقوله تعالى: ﴿وكذلك أخذ ربك﴾ [هود: ١٠٢] فيجوز أن يكون تفريعا عليه ويكون ما بينهما اعتراضا دعا إليه الانتقال الاستطرادي في معان متماسكة. والمعنى فهلا كان في تلك الأمم أصحاب بقية من خير فنهوا قومهم عن الفساد لما حل بهم ما حل. وذلك إرشاد إلى وجوب النهي عن المنكر. ويجوز أن يكون تفريعا على قوله تعالى: ﴿فاستقم كما أمرت﴾ [هود: ١١٢] والآية تفريع على الأمر بالاستقامة والنهي عن الطغيان وعن الركون إلى الذين ظلموا، إذ المعنى: ولا تكونوا كالأمم من قبلكم إذ عدموا من ينهاهم عن الفساد في الأرض وينهاهم عن تكذيب

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩٤/١١

الرسل فأسرفوا في غلوائهم حتى حل عليهم غضب الله إلا قليلا منهم، فإن تركتم ما أمرتم به كان حالكم كحالهم، ولأجل هذا المعنى أتي بفاء التفريع لأنه في موقع التفصيل والتعليل لجملة ﴿فاستقم كما أمرت﴾ [هود: ١١٢] وما عطف عليها؛ كأنه قيل: وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم فلولا كان منهم بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلى آخره، أي فاحذروا أن تكونوا كما كانوا فيصيبكم ما أصابهم، وكونوا مستقيمين ولا تطغوا ولا تركنوا إلى الظالمين وأقيموا الصلاة، فغير نظم الكلام إلى هذا الأسلوب الذي في الآية لتفنن فوائده ودقائقه واستقلال أغراضه مع كونها آيلة إلى غرض يعممها. وهذا من أبدع أساليب الإعجاز الذي هو كرد العجز على الصدر من غير تكلف ولا ظهور قصد.

ويقرب من هذا المعنى قول النبيء صلى الله عليه وسلم: "ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم" .

و"لولا" حرف تحضيض بمعنى "هلا". وتحضيض الفائت لا يقصد منه إلا تحذير غيره من أن يقع فيما وقعوا فيه والعبرة بما أصابهم.

والقرون: الأمم. وتقدم في أول الأنعام.

والبقية: الفضل والخير. وأطلق على الفضل البقية كناية غلبت فسارت مسرى الأمثال لأن شأن الشيء النفيس أن صاحبه لا يفرط فيه.

وبقية الناس: سادتهم وأهل الفضل منهم، قال رويشد بن كثير الطائي:

إن تذنبوا ثم تأتيني بقيتكم ... فما علي بذنب منكم فوت

ومن أمثالهم "في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا". فمن هنالك أطلقت على الفضل والخير في صفات الناس فيقال: في فلان بقية، والمعنى هنا: أولو فضل ودين وعلم". (١)

١٩٢-"هي توهمات تخيلوها.

ومعنى قصرها على أنها أسماء قصرا إضافيا، أنها أسماء لا مسميات لها فليس لها في الوجود إلا أسماؤها.

وقوله: ﴿أنتم وآباؤكم﴾ جملة مفسرة للضمير المرفوع في ﴿سميتموها﴾. والمقصود من ذلك الرد على آبائهم سدا لمنافذ الاحتجاج لأحقيتها بأن تلك الآلهة معبودات آبائهم، وإدماجا لتلقين المعذرة لهما ليسهل لهما الإقلاع عن عبادة آلهة متعددة.

وإنزال السلطان: كناية عن إيجاد دليل إلهيتها في شواهد العالم. والسلطان: الحجة.

وجملة ﴿إن الحكم إلا لله﴾ إبطال لجميع التصرفات المزعومة لآلهتهم بأنها لا حكم لها فيما زعموا أنه من حكمها وتصرفها.

وجملة ﴿أمر ألا تعبدوا إلا إياه﴾ **انتقال** من أدلة إثبات انفراد الله تعالى بالإلهية إلى التعليم بامتثال أمره ونهيه، لأن ذلك نتيجة لإثبات الإلهية والوحدانية له، فهي بيان لجملة ﴿إن الحكم إلا لله﴾ من حيث ما فيها من معنى الحكم.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٥/١١

وجملة ﴿ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ خلاصة لما تقدم من الاستدلال، أي ذلك الدين لا غيره مما أنتم عليه وغيركم. وهو بمنزلة رد العجز على الصدر لقوله: ﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾ — إلى – ﴿لا يشكرون﴾ [سورة يوسف: ٣٨].

[٤١] ﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾.

افتتح خطابهما بالنداء اهتماما بما يلقيه إليهما من التعبير، وخاطبهما بوصف ﴿صاحبي السجن﴾ أيضا.

ثم إذا كان الكلام المحكي عن يوسف – عليه السلام – في الآية صدر منه على نحو النظم الذي نظم به في الآية وهو الظاهر كان جمع التأويل في عبارة واحدة مجملة، لأن في تأويل إحدى الرؤيين ما يسوء صاحبها قصدا لتلقيه ما يسوء بعد تأمل قليل كيلا يفجأه من أول الكلام، فإنه بعد التأمل يعلم أن الذي يسقي ربه خمرا هو رائي عصر الخمر، وأن". (١)

١٩٣–"على طريقة الإيجاز. والتقدير: فرجعوا إلى أبيهم فقالوا ذلك الكلام الذي لقنه إياهم "روبين" قال أبوهم: بل سولت... الخ.

وقوله هنا كقوله لهم حين زعموا أن يوسف – عليه السلام – أكله الذئب، فهو تهمة لهم بالتغرير بأخيهم. قال ابن عطية ظن بهم سوءا فصدق ظنه في زعمهم في يوسف – عليه السلام – ولم يتحقق ما ظنه في أمر "بنيامين"، أي أخطأ في ظنه بهم في قضية بنيامين، ومستنده في هذا الظن علمه أن ابنه لا يسرق، فعلم أن في دعوى السرقة مكيدة. فظنه صادق على الجملة لا على التفصيل. وأما تهمته أبناءه بأن يكونوا تمالؤوا على أخيهم بنيامين فهو ظن مستند إلى القياس على ما سبق من أمرهم في قضية يوسف – عليه السلام – فإنه كان قال لهم: ﴿قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾ [سورة يوسف: ٦٤]. ويجوز على النبي الخطأ في الظن في أمور العادات كما جاء في حديث ترك إبار النخل.

ولعله أتهم روبين أن يكون قد اختفى لترويج دعوى إخوته. وضمير ﴿بهم﴾ ليوسف – عليه السلام – وبنيامين وروبين. وهذا كشف منه إذ لم ييأس من حياة يوسف – عليه السلام –.

وجملة ﴿إنه هو العليم الحكيم﴾ تعليل لرجائه من الله بأن الله عليم فلا تخفى عليه مواقعهم المتفرقة. حكيم فهو قادر على إيجاد أسباب جمعهم بعد التفرق.

[٨٤ – ٨٧] ﴿وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾.

انتقال إلى حكاية حال يعقوب – عليه السلام – في انفراده عن أبنائه ومناجاته نفسه، فالتولي حاصل عقب المحاورة. و ﴿تولى﴾: انصرف، وهو انصراف غضب.

---

(١) التحرير والتنوير ٦٦/١٢

ولما كان التولي يقتضي الاختلاء بنفسه ذكر من أحواله تجدد أسفه على يوسف – عليه السلام – فقال: ﴿يا أسفى على يوسف﴾. والأسف: أشد الحزن، أسف كحزن.". (١)

١٩٤–"وأشار إلى مصائبه السابقة من الإبقاء في الجب، ومشاهدة مكر إخوته به بقوله: ﴿من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي﴾، فكلمة ﴿بعد﴾ اقتضت أن ذلك شيء انقضى أثره. وقد ألم به إجمالا اقتصارا على شكر النعمة وإعراضا عن التذكير بتلك الحوادث المكدرة للصلة بينه وبين إخوته فمر بها مر الكرام وباعدها عنهم بقدر الإمكان إذ ناطها بنزغ الشيطان.

والمجيء في قوله: ﴿وجاء بكم من البدو﴾ نعمة، فأسنده إلى الله تعالى وهو مجيئهم بقصد الاستيطان حيث هو.

والبدو: ضد الحضر، سمي بدوا لأن سكانه بادون، أي ظاهرون لكل وارد، إذ لا تحجبهم جدران ولا تغلق عليهم أبواب.

وذكر ﴿من البدو﴾ إظهار لتمام النعمة، لأن **انتقال** أهل البادية إلى المدينة ارتقاء في الحضارة.

والنزغ: مجاز في إدخال الفساد في النفس. شبه بنزغ الراكب الدابة وهو نخسها. وتقدم عند قوله تعالى: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ﴾ في سورة الأعراف[٢٠٠].

وجملة ﴿إن ربي لطيف لما يشاء﴾ مستأنفة استئنافا ابتدائيا لقصد الاهتمام بها وتعليم مضمونها.

واللطف: تدبير الملائم. وهو يتعدى باللام على تقدير لطيف لأجل ما يشاء اللطف به، ويتعدى بالباء قال تعالى: ﴿الله لطيف بعباده﴾ [سورة الشورى: ١٩]. وقد تقدم تحقيق معنى اللطف عند قوله تعالى: ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ في سورة الأنعام[١٠٣].

وجملة ﴿إنه هو العليم الحكيم﴾ مستأنفة أيضا أو تعليل لجملة ﴿إن ربي لطيف لما يشاء﴾. وحرف التوكيد للاهتمام. وتوسيط ضمير الفصل للتقوية.

وتفسير ﴿العليم﴾ تقدم عند قوله تعالى: ﴿إنك هو العليم الحكيم﴾ في سورة البقرة[٣٢]. و ﴿الحكيم﴾ تقدم عند قوله: ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ أواسط سورة البقرة[٢٠٩].

[١٠١] ﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين﴾.

أعقب ذكر نعمة الله عليه بتوجهه إلى مناجاة ربه بالاعتراف بأعظم نعم الدنيا والنعمة". (٢)

١٩٥–"من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين﴾.

انتقال من سوق هذه القصة إلى العبرة بتصميم المشركين على التكذيب بعد هذه الدلائل البينة، فالواو للعطف على جملة

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٧/١٢

(٢) التحرير والتنوير ١٢٠/١٢

﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾ [سورة يوسف:١٠٢] باعتبار إفادتها أن هذا القرآن وحي من الله وأنه حقيق بأن يكون داعيا سامعيه إلى الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم. ولما كان ذلك من شأنه أن يكون مطعما في إيمانهم عقب بإعلام النبي صلى الله عليه وسلم بأن أكثرهم لا يؤمنون.

و ﴿الناس﴾ يجوز حمله على جميع جنس الناس، ويجوز أن يراد به ناس معينون وهم القوم الذين دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم بمكة وما حولها، فيكون عموما عرفيا.

وجملة ﴿ولو حرصت﴾ في موضع الحال معترضة بين اسم ﴿ما﴾ وخبرها.

﴿ولو﴾ هذه وصلية، وهي التي تفيد أن شرطها هو أقصى الأسباب لجوابها. وقد تقدم بيانها عند قوله تعالى: ﴿فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به﴾ في سورة آل عمران[٩١].

وجواب ﴿لو﴾ هو ﴿وما أكثر الناس﴾ مقدم عليها أو دليل الجواب.

والحرص: شدة الطلب لتحصيل شيء ومعاودته. وتقدم في قوله تعالى: ﴿حريص عليكم﴾ في آخر سورة براءة[١٢٨].

وجملة ﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾ معطوفة على جملة ﴿وما أكثر الناس﴾ إلى آخرها باعتبار ما أفادته من التأييس من إيمان أكثرهم، أي لا يسوءك عدم إيمانهم فلست تبتغي أن يكون إيمانهم جزاء على التبليغ بل إيمانهم لفائدتهم، كقوله: ﴿قل لا تمنوا علي إسلامكم﴾ [سورة الحجرات: ١٧].

وضمير الجمع في قوله: ﴿وما تسألهم﴾ عائد إلى الناس، أي الذين أرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم.

وجملة ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ بمنزلة التعليل لجملة ﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾. والقصر إضافي، أي ما هو إلا ذكر للعالمين لا لتحصيل أجر مبلغه.

وضمير ﴿عليه﴾ عائد إلى القرآن المعلوم من قوله: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾ [سورة يوسف: ١٠٢].". (١)

١٩٦-"لا يشعرون﴾.

اعتراض بالتفريع على ما دلت عليه الجملتان قبله من تفظيع حالهم وجرأتهم على خالقهم والاستمرار على ذلك دون إقلاع. فكأنهم في إعراضهم عن توقع حصول غضب الله بهم آمنون أن تأتيهم غاشية من عذابه في الدنيا أو تأتيهم الساعة بغتة فتحول بينهم وبين التوبة ويصيرون إلى العذاب الخالد.

والاستفهام مستعمل في التوبيخ.

والغشي والغشيان: الإحاطة من كل جانب ﴿وإذا غشيهم موج كالظلل﴾ [سورة لقمان: ٣٢]. وتقدم في قوله تعالى: ﴿يغشي الليل النهار﴾ في سورة الأعراف [٥٤].

والغاشية: الحادثة التي تحيط بالناس. والعرب يؤنثون هذه الحوادث مثل الطامة والصاخة والداهية والمصيبة والكارثة والحادثة والواقعة والحاقة.

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٣/١٢

والبغتة: الفجأة. وتقدمت عند قوله تعالى: ﴿حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة﴾ في آخر سورة الأنعام [٣١].

[١٠٨] ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾.

استئناف ابتدائي للانتقال من الاعتبار بدلالة نزول هذه القصة للنبي صلى الله عليه وسلم الأمي على صدق نبوءته وصدقه فيما جاء به من التوحيد إلى الاعتبار بجميع ما جاء به من هذه الشريعة عن الله تعالى، وهو المعبر عنه بالسبيل على وجه الاستعارة لإبلاغها إلى المطلوب وهو الفوز الخالد كإبلاغ الطريق إلى المكان المقصود للسائر. وهي استعارة متكررة في القرآن وفي كلام العرب.

والسبيل يؤنث كما في هذه الآية، ويذكر أيضا كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا﴾ في سورة الأعراف [١٤٦].

والجملة استئناف ابتدائي معترضة بين الجمل المتعاطفة.

والإشارة إلى الشريعة بتنزيل المعقول منزلة المحسوس لبلوغه من الوضوح للعقول حدا لا يخفى فيه إلا عمن لا يعد مدركا.

وما في جملة ﴿هذه سبيلي﴾ من الإبهام قد فسرته جملة ﴿أدعو إلى الله على". (١)

١٩٧-"تتضمن آيات عظيمة يجلوها النظر الصحيح والتفكير المجرد عن الأوهام. ولذلك أجرى صفة التفكير على لفظ قوم إشارة إلى أن التفكير المتكرر المتجدد هو صفة راسخة فيهم بحيث جعلت من مقومات قوميتهم، أي جبلتهم كما بيناه في دلالة لفظ ﴿قوم﴾ على ذلك عند قوله تعالى: ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ في سورة البقرة [١٦٤].

وفي هذا إيماء إلى أن الذين نسبوا أنفسهم إلى التفكير من الطبائعيين فعللوا صدور الموجودات عن المادة ونفوا الفاعل المختار ما فكروا إلا تفكيرا قاصرا مخلوطا بالأوهام ليس ما تقتضيه جبلة العقل إذ اشتبهت عليهم العلل والمواليد بأصل الخلق والإيجاد.

وجيء في التفكير بالصيغة الدالة على التكلف وبصيغة المضارع للإشارة إلى تفكير شديد ومكرر.

والتفكير تقدم عند قوله تعالى: ﴿أفلا تتفكرون﴾ في سورة الأنعام [٥٠].

[٤] ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.

لله بلاغة القرآن في تغيير الأسلوب عند الانتقال إلى ذكر النعم الدالة على قدرة الله تعالى فيما ألهم الناس من العمل في الأرض بفلحها وزرعها وغرسها والقيام عليها، فجاء ذلك معطوفا على الأشياء التي أسند جعلها إلى الله تعالى، ولكنه لم يسند إلى الله حتى بلغ إلى قوله: ﴿ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾، لأن ذلك بأسرار أودعها الله تعالى فيها هي موجب تفاضلها. وأمثال هذه العبر، ولفت النظر مما انفرد به القرآن من بين سائر الكتب.

وأعيد اسم ﴿الأرض﴾ الظاهر دون ضميرها الذي هو المقتضى ليستقل الكلام ويتجدد الأسلوب، وأصل انتظام الكلام

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/١٢٥

أن يقال: جعل فيها زوجين اثنين، وفيها قطع متجاوزات، فعدل إلى هذا توضيحا وإيجازا.
والقطع: جمع قطعة بكسر القاف، وهي الجزء من الشيء تشبيها لها بما يقتطع. وليس وصف القطع متجاورات مقصودا بالذات في هذا المقام إذ ليس هو محل العبرة بالآيات، بل المقصود وصف محذوف دل عليه السياق تقديره؛ مختلفات الألوان". (١)

١٩٨-"صفة الإنذار وهو قصر إضافي، أي أنت منذر لا موجد خوارق عادة. وبهذا يظهر وجه قصره على الإنذار دون البشارة لأنه قصر إضافي بالنسبة لأحواله نحو المشركين.
وجملة ﴿ولكل قوم هاد﴾ تذييل بالأعم. أي إنما أنت منذر لهؤلاء لهدايتهم. ولكل قوم هاد أرسله الله ينذرهم لعلهم يهتدون. فما كنت بدعا من الرسل وما كان للرسل من قبلك آيات على مقترح أقوامهم بل كانت آياتهم بحسب ما أراد الله أن يظهره على أيديهم. على أن معجزات الرسل تأتي على حسب ما يلائم حال المرسل إليهم.
ولما كان الذين ظهرت بينهم دعوة محمد صلى الله عليه وسلم عربا أهل فصاحة وبلاغة جعل الله معجزته العظمى القرآن بلسان عربي مبين. وإلى هذا المعنى يشير قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح "ما من الأنبياء نبي إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي فارجوا أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة".
وبهذا العموم الحاصل بالتذييل والشامل للرسول صلى الله عليه وسلم صار المعنى إنما أنت منذر لقومك هاد إياهم إلى الحق. فإن الإنذار والهدي متلازمان فما من إنذار إلا وهو هداية وما من هداية إلا وفيها إنذار، والهداية أعم من الإنذار. ففي هذا احتباك بديع.
وقرأ الجمهور ﴿هاد﴾ بدون ياء في آخره في حالتي الوصل والوقف. أما في الوصل فلالتقاء الساكنين سكون الياء وسكون التنوين الذي يجب النطق به في حالة الوصل، وأما في حالة الوقف فتبعا لحالة الوصل، وهو لغة فصيحة وفيه متابعة رسم المصحف.
وقرأه ابن كثير في الوصل مثل الجمهور. وقراه بإثبات الياء في الوقف لزوال موجب حذف الياء وهو لغة صحيحة.
[٨] [٩] ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾.
انتقال إلى الاستدلال على تفرد الله تعالى بالإلهية، فهو متصل بجملة ﴿الله الذي رفع السماوات﴾ [الرعد: ٢] الخ.
وهذه الجملة استئناف ابتدائي. فلما قامت البراهين العديدة بالآيات السابقة على وحدانية الله تعالى بالخلق والتدبير وعلى عظيم قدرته التي أودع بها في المخلوقات دقائق". (٢)

(١) التحرير والتنوير ١٢/١٤١
(٢) التحرير والتنوير ١٢/١٤٩

١٩٩-"ولكون الاستفهام غير حقيقي جاء جوابه من قبل المستفهم. وهذا كثير في القرآن وهو من بديع أساليبه، كقوله: ﴿عم يتساءلون عن النبأ العظيم﴾ [سورة النبأ: ١-٢] وتقدم عند قوله تعالى: ﴿قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة﴾ في سورة الأنعام [١٢].

وإعادة فعل الأمر بالقول في ﴿قل أفاتخذتم من دونه أولياء﴾ الذي هو تفريع على الإقرار بأن الله رب السماوات والأرض لقصد الاهتمام بذلك التفريع لما فيه من الحجة الواضحة.

فالاستفهام تقرير وتوبيخ وتسفيه لرأيهم بناء على الإقرار المسلم. وفيه استدلال آخر على عدم أهلية أصنامهم للإلهية فأن اتخاذهم أولياء من دونه معلوم لا يحتاج إلى الاستفهام عنه.

وجملة ﴿لا يملكون﴾ صفة ل ﴿أولياء﴾. والمقصود منها تنبيه السامعين للنظر في تلك الصفة فإنهم إن تدبروا علموها وعلموا أن من كانت تلك صفته فليس بأهل لأن يعبد.

ومعنى الملك هنا القدرة كما في قوله تعالى: ﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا﴾ في سورة العقود [٧٦]. وفي الحديث "أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة".

وعطف الضر على النفع استقصاء في عجزهم لأن شأن الضر أنه أقرب للاستطاعة وأسهل.

﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور﴾.

إعادة الأمر بالقول للاهتمام الخاص بهذا الكلام لأن ما قبله إبطال لاستحقاق آلهتهم العبادة. وهذا إظهار لمزية المؤمنين بالله على أهل الشرك، ذلك أن قوله: ﴿قل من رب السماوات والأرض قل الله﴾ تضمن أن الرسول – عليه الصلاة والسلام – دعا إلى إفراد الله بالربوبية وأن المخاطبين أثبتوا الربوبية للأصنام فكان حالهم وحاله كحال الأعمى والبصير وحال الظلمات والنور.

ونفي التسوية بين الحالين يتضمن تشبيها بالحالين وهذا من صيغ التشبيه البليغ.

و ﴿أم﴾ للإضراب الانتقالي في التشبيه، فهي لتشبيه آخر بمنزلة ﴿أو﴾ في قول لبيد:". (١)

٢٠٠-"أو رجع واشمة أسف نؤورها

وقوله تعالى: ﴿أو كصيب من السماء﴾.

وأظهر حرف ﴿هل﴾ بعد ﴿أم﴾ لأن فيه إفادة تحقيق الاستفهام. وذلك ليس مما تغني فيه دلالة ﴿أم﴾ على أصل الاستفهام ولذلك لا تظهر الهمزة بعد ﴿أم﴾ اكتفاء بدلالة ﴿أم﴾ على تقدير استفهام.

وجمع الظلمات وإفراد النور تقدم عند قوله تعالى: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ في أول سورة الأنعام [١].

واختير التشبيه في المتقابلات العمى والبصر، والظلمة والنور، لتمام المناسبة لأن حال المشركين أصحاب العمى كحال الظلمة في انعدام إدراك المبصرات، وحال المؤمنين كحال البصر في العلم وكحال النور في الإفاضة والإرشاد.

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٣/١٢

وقرأ الجمهور ﴿تستوي الظلمات﴾ بفوقية في أوله مراعاة لتأنيث الظلمات. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وخلف بتحية في أوله وذلك وجه في الجمع غير المذكر السالم.

[١٦] ﴿أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار﴾.

﴿أم﴾ للإضراب **الانتقالي** في الاستفهام مقابلة قوله: ﴿أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا﴾. فالكلام بعد "أم"استفهام حذفت أداته لدلالة "أم" عليها. والتقدير: أم جعلوا لله شركاء. والتفت عن الخطاب إلى الغيبة إعراضا عنهم لما مضى من ذكر ضلالهم.

والاستفهام مستعمل في التهكم والتغليط. فالمعنى: لو جعلوا لله شركاء يخلقون كما يخلق الله لكانت لهم شبهة في الاغترار واتخاذهم آلهة، أي فلا عذر لهم في عبادتهم، فجملة ﴿خلقوا﴾ صفة ل ﴿شركاء﴾.

وشبه جملة ﴿كخلقه﴾ في معنى المفعول المطلق، أي خلقوا خلقا مثل ما خلق الله. والخلق في الموضعين مصدر.

وجملة فتشابه عطف على جملة ﴿خلقوا كخلقه﴾ فهي صفة ثانية ل ﴿شركاء﴾،". (١)

٢٠١-"والإخراج: مستعار للنقل من حال إلى حال. شبه **الانتقال** بالخروج فشبه النقل بالإخراج.

و ﴿الظلمات والنور﴾ استعارة للكفر والإيمان، لأن الكفر يجعل صاحبه في حيرة فهو كالظلمة في ذلك، والإيمان يرشد إلى الحق فهو كالنور في إيضاح السبيل. وقد يستخلص السامع من ذلك تمثيل حال المنغمس في الكفر بالمتحير في ظلمة، وحال **انتقاله** إلى الإيمان بحال الخارج من ظلمة إلى مكان نير.

وجمع ﴿الظلمات﴾ وإفراد ﴿النور﴾ تقدم في أول سورة الأنعام [١].

والباء في ﴿بإذن ربهم﴾ للسببية، والأذن: الأمر بفعل يتوقف على رضي الآمر به، وهو أمر الله إياه بإرساله إليهم لأنه هو الإذن الذي يتعلق بجميع الناس، كقوله: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾. ولما كان الإرسال لمصلحتهم أضيف الإذن إلى وصف الرب المضاف إلى ضمير الناس، أي بإذن الذي يدبر مصالحهم.

وقوله: ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾ [سورة إبراهيم: ١] بدل من ﴿النور﴾ بإعادة الجار للمبدل منه لزيادة بيان المبدل منه اهتماما به، وتأكيد للعامل كقوله تعالى: ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم﴾ في سورة الأعراف[٨٨].

ومناسبة الصراط المستعار للدين الحق، لاستعارة الإخراج والظلمات والنور ولما يتضمنه من التمثيل، ظاهرة.

واختيار وصف ﴿العزيز الحميد﴾ من بين الصفات العلى لمزيد مناسبتها للمقام، لأن الذي لا يغلب. وإنزال الكتاب برهان على أحقية ما أراده الله من الناس فهو به غالب للمخالفين مقيم الحجة عليهم.

والحميد: بمعنى المحمود، لأن في إنزال هذا الكتاب نعمة عظيمة ترشد إلى حمده عليه، وبذلك استوعب الوصفان الإشارة إلى الفريقين من كل منساق إلى الاهتداء من أول وهلة ومن مجادل صائر إلى الاهتداء بعد قيام الحجة ونفاذ الحيلة.

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/١٦٤

[٢، ٣] ﴿الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله". (١)

٢٠٢-"ويبغونها عوجا أولئك في ضلال بعيد﴾.

﴿الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض﴾.

قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر برفع اسم الجلالة على أنه خبر عن مبتدإ محذوف. والتقدير: هو أي ﴿العزيز الحميد﴾ الله الموصوف بالذي له ما في السماوات والأرض. وهذا الحذف جار على حذف المسند إليه عند علماء المعاني تبعا للسكاكي بالحذف لمتابعة الاستعمال، أي استعمال العرب عند ما يجري ذكر موصوف بصفات أن ينتقلوا من ذلك إلى الإخبار عنه بما هو أعظم مما تقدم ذكره ليكسب ذلك **الانتقال** تقريرا للغرض، كقول إبراهيم الصولي:

سأشكر عمرا إن تراخت منيتي ... أيادي لم تمنن وإن هي جلت

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ... ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

أي هو فتى من صفته كيت وكيت.

وقرأه الباقون إلا رويسا عن يعقوب بالجر على البدلية من ﴿العزيز الحميد﴾ ، وهي طريقة عربية. ومآل القراءتين واحد وكلتا الطريقتين تفيد أن المستقل إليه أجدر بالذكر عقب ما تقدمه، فإن اسم الجلالة أعظم من بقية الصفات لأنه علم الذات الذي لا يشاركه موجود في إطلاقه ولا في معناه الأصلي المنقول منه إلى العلمية إلا أن الرفع أقوى وأفخم.

وقرأه رويس عن يعقوب بالرفع إذا وقف على قوله: ﴿الحميد﴾ وابتدئ باسم ﴿الله﴾ ، فإذا وصل ﴿الحميد﴾ باسم ﴿الله﴾ جر اسم الجلالة على البدلية.

وإجراء الوصف بالموصول على اسم الجلالة لزيادة التفخيم لا للتعريف. لأن ملك سائر الموجودات صفة عظيمة والله معروف بها عند المخاطبين. وفيه تعريض بأن صراط غير الله من طرق آلهتهم ليس بواصل إلى المقصود لنقصان ذويه. وفي ذكر هذه الصلة إدماج تعريض بالمشركين الذين عبدوا ما ليس له السماوات والأرض.

﴿وويل للكافرين من عذاب شديد الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أولئك في ضلال بعيد﴾.". (٢)

٢٠٣-"استئناف بياني ناشئ عن جملة ﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾ فإن هلاك فئة كاملة شديدة القوة والمرة أمر عجيب يثير في النفوس السؤال: كيف تهلك فئة مثل هؤلاء؟ فيجاب بأن الله الذي قدر على خلق السماوات والأرض في عظمتها قادر على إهلاك ما هو دونها، فمبدأ الاستئناف هو قوله: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٦/١٢

(٢) التحرير والتنوير ٢١٧/١٢

وموقع جملة ﴿ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق﴾ موقع التعليل لجملة الاستئناف، قدم عليها كما تجعل النتيجة مقدمة في الخطابة والجدال على دليلها. وقد بيناه في كتاب "أصول الخطابة".

ومناسبة موقع هذا الاستئناف ما سبقه من تفرق الرماد في سوم عاصف.

والخطاب في ﴿ألم تر﴾ لكل من يصلح للخطاب غير معين، وكل من يظن به التساؤل عن إمكان إهلاك المشركين.

والرؤية: مستعملة في العلم الناشئ عن النظر والتأمل، لأن السماوات والأرض مشاهدة لكل ناظر، وأما كونها مخلوقة لله فمحتاج إلى أقل تأمل لسهولة **الانتقال** من المشاهدة إلى العلم، وأما كون ذلك ملتبسا بالحق فمحتاج إلى تأمل عميق. فلما كان أصل ذلك كله رؤية المخلوقات المذكورة علق الاستدلال على الرؤية. كقوله تعالى: ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض﴾ [سورة يونس: ١٠١].

والحق هنا: الحكمة، أي ضد العبث، بدليل مقابلته به في قوله تعالى: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ [سورة الدخان: ٣٨، ٣٩].

وقرأ الجمهور ﴿خلق﴾ بصيغة الفعل على أن ﴿السماوات﴾ مفعوله ﴿والأرض﴾ عطف على المفعول بالنصب.

وقراه حمزة، والكسائي، وخلف ﴿خلق السماوات والأرض﴾ بصيغة اسم الفاعل مضافا إلى ﴿السماوات﴾ ويخفض ﴿الأرض﴾.

والخطاب في ﴿يذهبكم﴾ لجماعة من جملتهم المخاطب ب ﴿ألم تر﴾. والمقصود: التعريض بالمشركين خاصة. تأكيدا لوعيدهم الذي اقتضاه قوله: ﴿لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم﴾، أي إن شاء أعدم الناس كلهم وخلق ناسا آخرين.

وقد جيء في الاستدلال على عظيم القدرة بالحكم الأعم إدماجا للتعليم بالوعيد وإظهار لعظيم القدرة. وفيه إيماء إلى أنه يذهب الجبابرة المعاندين ويأتي في مكانهم في سيادة الأرض بالمؤمنين ليمكنهم من الأرض.". (١)

٢٠٤-"شدة التبري من إشراكهم إياه في العبادة، فإن أراد من مضى فعل ﴿كفرت﴾ مضي الأزمنة كلها، أي كنت غير راض بإشراككم إياي فهو كذب منه أظهر به التذلل، وإن كان مراده من المضي إنشاء عدم الرضى بإشراكهم إياه فهو ندامة بمنزلة التوبة حيث لا يقبل متاب. و ﴿من قبل﴾ على التقديرين متعلق ب ﴿أشركتمون﴾.

والإشراك الذي كفر به إياه في العبادة بأن عبدوه مع الله لأن من المشركين من يعبدون الشياطين والجن، فهؤلاء يعبدون جنس الشيطان مباشرة، ومنهم من يعبدون الأصنام فهم يعبدون الشياطين بواسطة عبادة آلهته.

وجملة ﴿إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ من الكلام المحكي عن الشيطان. وهي في موقع التعليل لما تقدم من قوله: ﴿ما أنا بمصرخكم﴾ ، أي لأنه لا يدفع عنك العذاب دافع فهو واقع بكم.

[٢٣] ﴿وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام﴾.

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/٢٤٢

عطف على جملة ﴿وبرزوا لله جميعا﴾ ، وهو **انتقال** لوصف حال المؤمنين يومئذ بمناسبة ذكر حال المشركين لأن حال المؤمنين يومئذ من جملة الأحوال المقصودة بالوصف إظهار لتفاوت الأحوال، فلم يدخل المؤمنون يومئذ في المنازعة والمجادلة تنزيها لهم عن الخوض في تلك الغمرة، مع التنبيه على أنهم حينئذ في سلامة ودعه.

ويجوز جعل الواو للحال، أي برزوا وقال الضعفاء وقال الكبراء وقال الشيطان إلخ وقد أدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات، فيكون إشارة إلى أنهم فازوا بنزل الكرامة من أول وهلة.

وقوله: ﴿بإذن ربهم﴾ إشارة إلى العناية والاهتمام، فهو إذن أخص من أمر القضاء العام.

وقوله: ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ تقدم نظيره في أول سورة يونس.

[٢٤ – ٢٦] ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من". (١)

٢٠٥–"الاستدلال على أهل الجاهلية، كما يدل عليه تعقيبه بقوله: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾ [سورة إبراهيم: ٣٥]. فجيء في هذه الآية بنعم عامة مشهودة محسوسة لا يستطاع إنكارها إلا أنها للتذكير بأن المنعم بها وموجدها هو الله تعالى.

وافتتح الكلام باسم الموجد لأن تعينه هو الغرض الأهم. وأخبر عنه بالموصول لأن الصلة معلومة الانتساب إليه والثبوت له، إذ لا ينازع المشركون في أن الله هو صاحب الخلق ولا يدعون أن الأصنام تخلق شيئا، كما قال: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾ [سورة لقمان: ٢٥]، فخلق السماوات والأرض دليل على إلهية خالقها وتمهيد للنعم المودعة فيها، فإنزال الماء من السماء إلى الأرض، وإخراج الثمرات من الأرض، والبحار والأنهار من الأرض. والشمس والقمر من السماء، والليل والنهار من السماء ومن الأرض، وقد مضى بيان هذه النعم في آيات مضت.

والرزق: القوت. والتسخير: حقيقته التذليل والتطويع، وهو مجاز في جعل السيء قابلا لتصرف غيره فيه، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾ في سورة الأعراف [٥٤]. وقوله: ﴿لتجري في البحر﴾ هو علة تسخير صنعها.

ومعنى تسخير الفلك: تسخير ذاتها بإلهام البشر لصنعها وشكلها بكيفية تجري في البحر بدون مانع.

وقوله: ﴿بأمره﴾ بـ ﴿تجري﴾.

والأمر: هنا الإذن، أي تيسير جريها في البحر، وذلك بكف العواصف عنها وبإعانتها بالريح الرخاء، وهذا كقوله: ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره﴾ [سورة الحج: ٦٥]. وعبر هذا الأمر بالنعمة في قوله: ﴿ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمت الله﴾ [سورة لقمان: ٣١]، وقد بينته آية ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إن

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٨/١٢

يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره﴾ الآية[سورة الشورى: ٣٢-٣٣].
وتسخير الأنهار: خلقها على كيفية تقتضي **انتقال** الماء من مكان إلى مكان وقراره في بعض المنخفضات فيسقى منه من تمر عليه وينزل على ضفافه حيث تستقر مياهه، وخلق بعضها مستمرة القرار كالدجلة والفرات والنيل للشرب ولسير السفن فيها.". (١)

٢٠٦-"مجازا، والمراد به محمد صلى الله عليه وسلم.
والقريب: القليل الزمن. شبه الزمان بالمسافة، أي أخرنا مقدار ما نجيب به دعوتك.
﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾.
لما ذكر قبل هذه الجملة طلب الذين ظلموا من ربهم تعين أن الكلام الواقع بعدها يتضمن الجواب عن طلبهم فهو بتقدير قول محذوف، أي يقال لهم. وقد عدل عن الجواب بالإجابة أو الرفض إلى التقرير والتوبيخ لأن ذلك يستلزم رفض ما سألوه. وافتتحت جملة الجواب بواو العطف تنبيها على معطوف عليه مقدر هو رفض ما سألوه، حذف إيجازا لأن شأن مستحق التوبيخ أن لا يعطى سؤله. فالتقدير: كلا وألم تكونوا أقسمتم... الخ.
والزوال: **الانتقال** من المكان. وأريد به هنا الزوال من القبور إلى الحساب.
وحذف متعلق ﴿زوال﴾ لظهور المراد، قال تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾ [سورة النحل: ٣٨].
وجملة ﴿ما لكم من زوال﴾ بيان لجملة ﴿أقسمتم﴾. وليست على تقدير قول محذوف ولذلك لم يراع فيها طريق ضمير المتكلم فلم يقل: ما لنا من زوال، بل جيء بضمير الخطاب المناسب لقوله: ﴿أولم تكونوا أقسمتم﴾.
وهذا القسم قد يكون صادرا من جميع الظالمين حين كانوا في الدنيا لأنهم كانوا يتلقون تعاليم واحدة في الشرك يتلقاها الخلف عن سلفهم.
ويجوز أن يكون ذلك صادرا من معظم هذه الأمم أو بعضها ولكن بقيتهم مضمرون لمعنى هذا القسم.
وكذلك الخطاب في قوله: ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ فإنه يعم جميع أمم الشرك عدا الأمة الأولى منهم.
وهذا من تخصيص العموم بالعقل إذ لا بد أن تكون الأمة الأولى من أهل الشرك لم تسكن في مساكن مشركين.
والمراد بالسكنى: الحلول، ولذلك عدي بحرف الظرفية خلافا لأصل فعله المتعدي". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٨/١٢
(٢) التحرير والتنوير ٢٦٩/١٢

٢٠٧-"اعتقادهم، فالمجنون اسم مفعول مشتق من الفعل المبني للمجهول وهو من الأفعال التي لم ترد إلا مسندة للمجهول.

وتأكيد الجملة ب "إن" واللام لقصدهم تحقيق ذلك له لعله يرتدع عن الاستمرار فيه أو لقصدهم تحقيقه للسامعين حاضري مجالسهم.

وجملة ﴿لو ما تأتينا بالملائكة﴾ استدلال على ما اقتضته الجملة قبلها باعتبار أن المقصود منها تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم لأن ما يصدر من المجنون من الكلام لا يكون جاريا على مطابقة الواقع فأكثره كذب.

و ﴿لو ما﴾ حرف تخصيص بمنزلة لولا التحضيضية. ويلزم دخولها الجملة الفعلية.

والمراد بالإتيان بالملائكة حضورهم عندهم ليخبرهم بصدقة في الرسالة. وهذا كما حكى الله في الآية الأخرى بقوله تعالى: ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلا﴾ [الاسراء:٩٢].

و ﴿من الصادقين﴾ أي من الناس الذين صفتهم الصدق، وهو أقوى من "إن كنت صادقا"، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ في سورة براءة [٢١٩]، وفي قوله: ﴿قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ في سورة البقرة [٦٧].

[٨] ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين﴾

مستأنفة ابتدائية جوابا لكلامهم وشبهاتهم ومقترحاتهم.

وابتدئ في الجواب بإزالة شبهتهم إذ قالوا: ﴿لو ما تأتينا بالملائكة﴾ [سورة الحجر:٧]. أريد منه إزالة جهالتهم إذ سألوا نزول الملائكة علامة على التصديق لأنهم وإن طلبوا ذلك بقصد التهكم فهم مع ذلك معتقدون أن نزول الملائكة هو آية صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، فكان جوابهم مشوبا بطرف من الأسلوب الحكيم، وهو صرفهم إلى تعليمهم الميز بين آيات الرسل وبين آيات العذاب، فأراد الله أن لا يدخرهم هديا وإلا فهم أحرياء بأن لا يجابوا.

والنزول:التدلي من علو إلى سفل. والمراد به هنا **انتقال** الملائكة من العالم العلوي إلى العالم الأرضي نزولا مخصوصا. وهو نزولهم لتنفيذ أمر الله بعذاب يرسله على". (١)

٢٠٨-"الدلائل الواضحة من خلق السماوات والأرض، ثم أعقبها بدلائل إمكان البعث من خلق الحياة والموت وانقراض أمم وخلفها بأخرى في قوله تعالى: ﴿وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون﴾ [سورة الحجر:٢٣] الآية. وصادف ذلك مناسبة ذكر فتح أبواب السماء في تصوير غلوائهم بعنادهم، فكان **الانتقال** إليه تخلصا بديعا.

وفيه ضرب من الاستدلال على مكابرتهم فإنهم لو أرادوا الحق لكان لهم في دلالة ما هو منهم غنية عن تطلب خوارق العادات.

والخبر مستعمل في التذكير والاستدلال لأن مدلول هذه الأخبار معلوم لديهم.

وافتتح الكلام بلام القسم وحرف التحقيق تنزيلا للمخاطبين الذاهلين عن الاستدلال بذلك منزلة المتردد فأكد لهم الكلام

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/١٥

بمؤكدين. ومرجع التأكيد إلى تحقيق الاستدلال وإلى الإلجاء إلى الإقرار بذلك.

والبروج: جمع برج – بضم الباء –. وحقيقته البناء الكبير المتخذ للسكنى أو للتحصن. وهو يرادف القصر،قال تعالى: ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ في سورة النساء [٧٨].

وأطلق البرج على بقعة معينة من سمت طائفة من النجوم غير السيارة "وتسمى النجوم الثوابت" متجمع بعضها بقرب بعض على أبعاد بينها لا تتغير فيما يشاهد من الجو، فتلك الطائفة تكون بشكل واحد يشابه نقطا لو خططت بينها خطوط لخرج منها شبه صورة حيوان أو آلة سموا باسمها تلك النجوم المشابحة لهيئتها وهي واقعة في خط سير الشمس.

وقد سماها الأقدمون من علماء التوقيت بما يرادف معنى الدار أو المكان. وسماها العرب بروجا ودارات على سبيل الاستعارة المجعولة سببا لوضع الاسم؛ تخيلوا أنها منازل للشمس لأنهم وقتوا بجهتها سمت موقع الشمس من قبة الجو نهارا فيما يخيل للناظر أن الشمس تسير في شبه قوس الدائرة. وجعلوها اثني عشر مكانا بعدد شهور السنة الشمسية وما هي في الحقيقة إلا سموت لجهات تقابل كل جهة منها الأرض من جهة وراء الشمس مدة معينة. ثم إذا انتقل موقع الأرض من مدارها كل شهر من السنة تتغير الجهة المقابلة لها. فبما كان لها من النظام تسنى أن تجعل علامات لمواقيت حلول الفصول الأربعة وحلول الأشهر الاثني عشر، فهم ضبطوا لتلك العلامات حدودا وهمية عينوا مكانها في الليل من جهة موقع الشمس في النهار وأعادوا رصدها يوما فيوما.وكلما". (١)

٢٠٩-"**انتقال** من الاستدلال بالآيات السماوية إلى الاستدلال بالآيات الأرضية لمناسبة المضادة.

وتقدم الكلام على معنى ﴿مددناها﴾ وعلى "الرواسي" في سورة الرعد.

والموزون: مستعار للمقدر المضبوط.

و ﴿معايش﴾: جمع معيشة. وبعد الألف ياء تحتية لا همزة كما تقدم في صدر سورة الأعراف.

﴿ومن لستم له برازقين﴾ عطف على الضمير المجرور في ﴿لكم﴾، إذ لا يلزم للعطف على الضمير المجرور المنفصل الفصل بضمير منفصل على التحقيق، أي جعلنا لكم أيها المخاطبين في الأرض معايش، وجعلنا في الأرض معايش لمن لستم له برازقين، أي لمن لستم له بمطعمين.

وما صدق ﴿من﴾ الذي يأكل طعامه مما في الأرض، وهي الموجودات التي تقتات من نبات الأرض ولا يعقلها الناس.

والإتيان ب ﴿من﴾ التي الغالب استعمالها للعاقل للتغليب.

ومعنى ﴿لستم له برازقين﴾ نفي أن يكونوا رازقيه لأن الرزق الإطعام. ومصدر رزقه الرزق – بفتح الراء –. وأما الرزق – بكسر الراء – فهو الاسم وهو القوت.

[٢١] ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾

هذا اعتراض ناشئ عن قوله: ﴿وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾ [سورة الحجر:١٩]، وهو تذييل.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/١٣

والمراد بالشيء ما هو نافع للناس بقرينة قوله: ﴿وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾ الآية. وفي الكلام حذف الصفة كقوله تعالى: ﴿يأخذ كل سفينة غصبا﴾ [سورة الكهف:٧٩] أي سفينة صالحة.
والخزائن تمثيل لصلوحية القدرة الإلهية لتكوين الأشياء النافعة. شبهت هيئة إيجاد الأشياء النافعة بهيئة إخراج المخزونات من الخزائن على طريقة التمثيلية المكنية، ورمز إلى الهيئة المشبه بها بما هو من لوازمها وهو الخزائن. وتقدم عند قوله تعالى: ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ في سورة الأنعام [٥٠].
وشمل ذلك الأشياء المتفرقة في العالم التي تصل إلى الناس بدوافع وأسباب تستتب". (١)

٢١٠-"في أحوال مخصوصة، أو بتركيب شيء مع شيء مثل نزول البرد من السحاب وانفجار العيون من الأرض بقصد أو على وجه المصادفة.
وقوله: ﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ أطلق الإنزال على تمكين الناس من الأمور التي خلقها الله لنفعهم، قال تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾ في سورة البقرة [٢٩]، إطلاقا مجازيا لأن ما خلقه الله لما كان من أثر أمر التكوين الإلهي شبه تمكين الناس منه بإنزال شيء من علو باعتبار أنه من العالم اللدني، وهو علو معنوي. أو باعتبار أن تصاريف الأمور كائن في العوالم العلوية، وهذا كقوله تعالى: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية﴾ في سورة الزمر [٦]. وقوله تعالى: ﴿يتنزل الأمر بينهن﴾ في سورة الطلاق [١٢].
والقدر - بفتح الدال -: التقدير. وتقدم عند قوله تعالى: ﴿فسالت أودية بقدرها﴾ في سورة الرعد [١٧].
والمراد بـ ﴿معلوم﴾ أنه معلوم تقديره عند الله تعالى.
[٢٢] ﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾
انتقال من الاستدلال بظواهر السماء وظواهر الأرض إلى الاستدلال بظواهر كرة الهواء الواقعة بين السماء والأرض، وذلك للاستدلال بفعل الرياح والمنة بما فيها من الفوائد.
والإرسال: مجاز في نقل الشيء من مكان إلى مكان. وهذا يدل على أن الرياح مستمرة الهبوب في الكرة الهوائية. وهي تظهر في مكان آتية إليه من مكان آخر وهكذا...
و ﴿لواقح﴾ حال من ﴿الرياح﴾. وقع هذا الحال إدماجا لإفادة معنيين كما سيأتي عن مالك - رحمه الله -.
و ﴿لواقح﴾ صالح لأن يكون جمع لاقح وهي الناقة الحبلى. واستعمل هنا استعارة للريح المشتملة على الرطوبة التي تكون سببا في نزول المطر، كما استعمل في ضدها العقيم ضد اللاقح في قوله تعالى: ﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ [سورة الذاريات:٤١].". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/١٣
(٢) التحرير والتنوير ٣٠/١٣

٢١١-"الحجر:٤٠]، فكلما حدث في جبلته فصل من تلك الماهية صدر منه قول يدل عليه؛ فهو شبيه بنطق الجوارح بالشهادة على أهل الضلالة يوم الحساب.

وأما الأقوال الإلهية التي أجيبت بها أقوال الشيطان فمظهر للأوامر التكوينية التي قدرها الله تعالى في علمه لتطور أطوار إبليس المقومة لماهية الشيطنة، وللألطاف التي قدرها الله لمن يعتصم بها من عباده لمقاومة سلطان الشيطان. وليست تلك الأقوال كلها بمناظرة بين الله وأحد مخلوقاته ولا بغلبة من الشيطان لخالقه، فإن ضعفه تجاه عزة خالقه لا يبلغ به إلى ذلك.

[٤٥-٤٨] ﴿إن المتقين في جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين﴾

استئناف ابتدائي، **انتقال** من وعيد المجرمين إلى بشارة المتقين على عادة القرآن في التفنن.

والمتقون: الموصوفون بالتقوى. وتقدمت عند صدر سورة البقرة.

و الجنات: جمع جنة. وقد تقدمت عند قوله تعالى: ﴿أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ في أول سورة البقرة [٢٥].

و العيون: جمع عين اسم لثقب أرضي يخرج منه الماء من الأرض. فقد يكون انفجارها بدون عمل الإنسان. وأسبابه كثيرة تقدمت عند قوله تعالى: ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار﴾ في سورة البقرة [٧٤]. وقد يكون بفعل فاعل وهو التفجير.

وجملة ﴿ادخلوها﴾ معمولة لقول محذوف يقدر حالا من ﴿المتقين﴾ والقرينة ظاهرة. والتقدير: يقال لهم ادخلوها. والقائل هو الملائكة عند إدخال المتقين الجنة.

والباء من ﴿بسلام﴾ للمصاحبة.

والسلام: التحية. وتقدم في قوله: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم﴾ في سورة الأنعام [٥٤].

والأمن النجاة من الخوف.". (١)

٢١٢-"عن مستحقه ولو غاب وتأخر، وإن كان نظام حوادث الدنيا قد يعطل ظهور الحق في نصابه وتخلفه عن أربابه.

فعلم أن وراء هذا النظام نظاما مدخرا يتصل فيه الحق بكل مستحق إن خيرا وإن شرا، فلا يحسبن من فات من الذين ظلموا قبل حلول العذاب بهم مفلتا من الجزاء فإن الله قد أعد عالما آخر يعطي فيه الأمور مستحقيها.

فلذلك أعقب الله و ﴿وما خلقنا السماوات والأرض﴾ بآية ﴿وإن الساعة لآتية﴾، أي أن ساعة إنفاذ الحق آتية لا محالة فلا يريبك ما تراه من سلامة مكذبيك وإمهالهم كما قال تعالى: ﴿وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾ [سورة يونس:٤٦]. والمقصود من هذا تسلية النبي صلى الله عليه وسلم على ما لقيه من أذى المشركين وتكذيبهم واستمرارهم على ذلك إلى أمد معلوم.

---

(١) التحرير والتنوير ٤٤/١٣

وقد كانت هذه الجملة في مقتضى الظاهر حرية بالفصل وعدم العطف لأن حقها الاستئناف ولكنها عطفت لإبرازها في صورة الكلام المستقل اهتماما بمضمونها، ولأنها تسلية للرسول - عليه الصلاة والسلام - على ما يلقاه من قومه، وليصح تفريع أمره بالصفح عنهم في الدنيا لأن جزاءهم موكول إلى الوقت المقدر.

وفي إمهال الله تعالى المشركين ثم في إنجائهم من عذاب الاستئصال حكمة تحقق بها مراد الله من بقاء هذا الدين وانتشاره في العالم بتبليغ العرب إياه وحمله إلى الأمم.

والمراد بالساعة ساعة البعث وذلك الذي افتتحت به السورة. وذلك **انتقال** من تهديدهم ووعيدهم بعذاب الدنيا إلى تهديدهم بعذاب الآخرة. وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾ في سورة الأحقاف [٣].

وتفريع ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ على قوله تعالى: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ باعتبار المعنى الكنائي له، وهو أن الجزاء على أعمالهم موكول إلى الله تعالى فلذلك أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن أذاهم وسوء تلقيهم للدعوة.

و ﴿الصفح﴾: العفو. وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿فاعف عنهم واصفح﴾ في سورة العقود [١٣]. وهو مستعمل هنا في لازمه وهو عدم الحزن والغضب من صنيع أعداء الدين وحذف متعلق الصفح لظهوره، أي عمن كذبك وآذاك.". (١)

٢١٣-"وقد أفاد ﴿وتحمل أثقالكم﴾ معنى تحملكم وتبلغكم، بطريقة الكناية القريبة من التصريح. ولذلك عقب بقوله تعالى: ﴿لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾.

وجملة ﴿لم تكونوا بالغيه﴾ صفة لـ ﴿بلد﴾، وهي مفيدة معنى البعد، لأن بلوغ المسافر إلى بلد بمشقة هو من شان البلد البعيد، أي لا تبلغونه بدون الأنعام الحاملة أثقالكم.

والشق - بكسر الشين - في قراءة الجمهور: المشقة. والباء للملابسة. والمشقة: التعب الشديد.

وما بعد أداة الاستثناء مستثنى من أحوال لضمير المخاطبين.

وقرأ أبو جعفر ﴿إلا بشق الأنفس﴾ - بفتح الشين - وهو لغة في الشق المكسور الشين.

وقد نفت الجملة أن يكونوا بالغيه إلا بمشقة، فأفاد ظاهرها أنهم كانوا يبلغونه بدون الرواحل بمشقة وليس مقصودا، إذ كان الحمل على الأنعام مقارنا للأسفار **بالانتقال** إلى البلاد البعيدة، بل المراد: لم تكونوا بالغيه لولا الإبل أو بدون الإبل، فحذف لقرينة السياق.

وجملة ﴿إن ربكم لرؤوف رحيم﴾ تعليل لجملة ﴿والأنعام خلقها﴾ ، أي خلقها لهذه المنافع لأنه رؤوف رحيم بكم.

[٨] ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾

﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٦١/١٣

و ﴿الخيل﴾ معطوف على ﴿والأنعام خلقها﴾ [سورة النحل:٥] فالتقدير: وخلق الخيل.
والقول في مناط الاستدلال وما بعده من الامتنان والعبرة في كل كالقول فيما تقدم من قوله تعالى: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء﴾ الآية.
والفعل المحذوف يتعلق به ﴿لتركبوها وزينة﴾ ، أي خلقها الله لتكونا مراكب للبشر، ولولا ذلك لم تكن في وجودها فائدة لعمران العالم.". (١)

٢١٤-"[١٢] ﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾
آيات أخرى على دقيق صنع الله تعالى وعلمه ممزوجة بامتنان.
وتقدم ما يفسر هذه الآية في صدر سورة يونس. وتسخير هذه الأشياء تقدم عند قوله تعالى: ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر﴾ في أوائل سورة الأعراف [٥٤] وفي أوائل سورة الرعد وفي سورة إبراهيم.
وهذا **انتقال** للاستدلال بإتقان الصنع على وحدانية الصانع وعلمه. وإدماج بين الاستدلال والامتنان. ونيطت الدلالات بوصف العقل لأن أصل العقل كاف في الاستدلال بها على الوحدانية والقدرة، إذ هي دلائل بينة واضحة حاصلة بالمشاهدة كل يوم وليلة.
وتقدم وجه إقحام لفظ "قوم" آنفا، وأن الجملة تذييل.
وقرأ الجمهور جميع هذه الأسماء منصوبة على المفعولية لفعل"سخر". وقرأ ابن عامر ﴿والشمس والقمر والنجوم﴾ بالرفع على الابتداء ورفع ﴿مسخرات﴾ على أنه خبر عنها. فنكتة اختلاف الإعراب الإشارة إلى الفرق بين التسخيرين. وقرأ حفص برفع ﴿النجوم﴾ ﴿مسخرات﴾. ونكتة اختلاف الأسلوب الفرق بين التسخيرين من حيث إن الأول واضح والآخر خفي لقلة من يرقب حركات النجوم.
والمراد بأمره أمر التكوين للنظام الشمسي المعروف.
وقد أبدى الفخر في كتاب "درة التنزيل" وجها للفرق بين إفراد آية في المرة الأولى والثالثة وبين جمع آيات في المرة الثانية: بان ما ذكر أول وثالثا يرجع إلى ما نجم من الأرض، فجميعه آية واحدة تابعة لخلق الأرض وما تحتويه "أي وهو كله ذو حالة واحدة وهي حالة النبات في الأرض في الأول وحالة واحدة وهي حالة الذرء في التناسل في الحيوان في الآية الثالثة" وأما ما ذكر في المرة الثانية فإنه راجع إلى اختلاف أحوال الشمس والقمر والكواكب، وفي كل واحد منها نظام يخصه ودلائل تخالف دلائل غيره، فكان ما ذكر في ذلك مجموع آيات "أي لأن بعضها أعراض كالليل والنهار وبعضها أجرام لها أنظمة مختلفة ودلالات متعددة".

---

(١) التحرير والتنوير ٨٥/١٣

[١٣] ﴿وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم". (١)

٢١٥-"لقصد مخالفة الأسلوب للتعجيب من تسخير السير في البحر باستحضار الحالة العجيبة بواسطة فعل الرؤية. وهو يستعمل في التعجيب كثيرا بصيغ كثيرة نحو: ولو ترى، و أرأيت، وماذا ترى. واجتلاب فعل الرؤية في أمثاله يفيد الحث على معرفة ذلك. فهذا النظم للكلام لإفادة هذا المعنى ولولاها لكان الكلام هكذا: وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وتبتغوا من فضله في فلك مواخر.

وعطف ﴿ولتبتغوا﴾ على ﴿وتستخرجوا﴾ ليكون من جملة النعم التي نشأت عن حكمة تسخير البحر. ولم يجعل علة لمخر الفلك كما جعل في سورة فاطر [١٢] ﴿وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله﴾ لأن تلك لم تصدر بمنة تسخير البحر بل جاءت في غرض آخر.

وأعيد حرف التعليل في قوله تعالى: ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ لأجل البعد بسبب الجملة المعترضة.

والابتغاء من فضل الله: التجارة كما عبر عنها بذلك في قوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ في سورة البقرة [١٩٨].

وعطف ﴿ولعلكم تشكرون﴾ على بقية العلل لأنه من الحكم التي سخر الله بها البحر للناس حملا لهم على الاعتراف لله بالعبودية ونبذهم إشراك غير به فيها. وهو تعريض بالذين أشركوا.

[١٥،١٦] ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾

انتقال إلى الاستدلال والامتنان بما على سطح الأرض من المخلوقات العظيمة التي في وجودها لطف بالإنسان. وهذه المخلوقات لما كانت مجعولة كالتكملة للأرض وموضوعة على ظاهر سطحها عبر عن خلقها ووضعها بالإلقاء الذي هو رمي شيء على الأرض. ولعل خلقها كان متأخرا عن خلق الأرض، إذ لعل الجبال انبثقت باضطرابات أرضية كالزلزال العظيم ثم حدثت الأنهار بتهاطل الأمطار. وأما السبل والعلامات فتأخر وجودها ظاهر، فصار خلق هذه الأربعة شبيها بإلقاء شيء في شيء بعد تمامه.

ولعل أصل تكوين الجبال كان من شظايا رمت بها الكواكب فصادفت سطح". (٢)

٢١٦-"تعالى: ﴿وأضله الله على علم﴾ [الجاثية:٢٣] إلى قوله: ﴿فمن يهديه من بعد الله﴾ [الجاثية:٢٣].

ومعنى ﴿وما لهم من ناصرين﴾ ما لهم ناصر ينجيهم من العذاب، أي كما أنهم ما لهم منقذ من الضلال الواقعين فيه ما لهم ناصر يدفع عنهم عواقب الضلال.

[٣٩] ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾

(١) التحرير والتنوير ٩٣/١٣

(٢) التحرير والتنوير ٩٦/١٣

انتقال لحكاية مقالة أخرى من شنيع مقالاتهم في كفرهم، واستدلال من أدلة تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يخبر به إظهار لدعوته في مظهر المحال، وذلك إنكارهم الحياة الثانية والبعث بعد الموت. وذلك لم يتقدم له ذكر في هذه السورة سوى الاستطراد بقوله: ﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ [النحل:٢٢].

والقسم على نفي البعث أرادوا به الدلالة على يقينهم بانتفائه.

وتقدم القول ﴿جهد أيمانهم﴾ عند قوله تعالى: ﴿أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ في سورة العقود﴾ [٥٣].

وإنما أيقنوا بذلك وأقسموا عليه لأنهم توهموا أن سلامة الأجسام وعدم انخرامها شرط لقبولها الحياة، وقد رأوا أجساد الموتى معرضة للاضمحلال فكيف تعاد كما كانت.

وجملة ﴿لا يبعث الله من يموت﴾ عطف بيان لجملة ﴿أقسموا﴾ وهي ما أقسموا عليه.

والبعث تقدم آنفا في قوله تعالى: ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾ [النحل:٢١].

والعدول عن "الموتى" إلى ﴿من يموت﴾ لقصد إيذان الصلة بتعليل نفي البعث، فإن الصلة أقوى دلالة على التعليل من دلالة المشتق على علية الاشتقاق، فهم جعلوا الاضمحلال منافيا لإعادة الحياة، كما حكي عنهم ﴿وقال الذين كفروا أإذا كنا ترابا وآباؤنا أإنا لمخرجون﴾ [النمل:٦٧].

و ﴿بلى﴾ حرف لإبطال النفي في الخبر والاستفهام، أي بل يبعثهم الله. وانتصب ﴿وعدا﴾ على المفعول المطلق مؤكدا لما دل عليه حرف الإبطال من حصول البعث بعد الموت. ويسمى هذا النوع من المفعول المطلق مؤكدا لنفسه، أي مؤكدا لمعنى فعل هو". (١)

٢١٧-"فقال عمر - رضي الله عنه -: "أيها الناس عليكم بديوانكم لا يضل، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم".

وتفرع ﴿فإن ربكم لرؤوف رحيم﴾ على الجمل الماضية تفريع العلة على المعلل. وحرف "إن" هنا مفيد للتعليل ومغن عن وفاء التفريع كما بينه عبد القاهر، فهي مؤكدة لما أفادته الفاء. والتعليل هنا لما فهم من مجموع المذكورات في الآية من أنه تعالى قادر على تعجيل هلاكهم وأنه أمهلهم حتى نسوا بأس الله فصاروا كالآمنين منه بحيث يستفهم عنهم: أهم آمنون من ذلك أم لا.

[٤٨] ﴿أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون﴾

بعد أن نهضت براهين انفراده تعالى بالخلق بما ذكر من تعداد مخلوقاته العظيمة جاء الانتقال إلى دلالة من حال الأجسام التي على الأرض كلها مشعرة بخضوعها لله تعالى خضوعا مقارنا لوجودها وتقلبها آنا فآنا علم بذلك من علمه وجهله من جهله. وأنبأ عنه لسان الحال بالنسبة لما لا علم له، وهو ما خلق الله عليه النظام الأرضي خلقا ينطق لسان حاله بالعبودية لله تعالى، وذلك في أشد الأعراض ملازمة للذوات، ومطابقة لأشكالها وهو الظل.

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٣/١٣

وقد مضى تفصيل هذا الاستدلال عند قوله تعالى: ﴿وظلالهم بالغدو والآصال﴾ في سورة الرعد [١٥].

فالجملة معطوفة على الجمل التي قبلها عطف القصة على القصة.

والاستفهام إنكاري، أي قد رأوا، والرؤية بصرية.

وقرأ الجمهور ﴿أولم يروا﴾ بتحتية. وقراه حمزة والكسائي وخلف ﴿أولم يروا﴾ بالمثناة الفوقية على الخطاب على طريقة الالتفات.

و ﴿من شيء﴾ بيان للإبهام الذي في "ما" الموصولة، وإنما كان بيانا باعتبار ما جرى عليه من الوصف بجملة ﴿يتفيأ ظلاله﴾ الآية.

والتفيؤ: تفعل من فاء الظل فيئا، أي عاد بعد أن أزاله ضوء الشمس. لعل أصله من فاء إذا رجع بعد مغادرة المكان، وتفيؤ الظلال تنقلها من جهات بعد شروق الشمس وبعد". (١)

٢١٨-"إلهين اثنين﴾ أي نهى الله عن اتخاذ إلهين لأن الله واحد، لأي والله هو مسمى إله فاتخاذ إلهين اثنين قلب لحقيقة الإلهية.

وحصر صفة الوحدانية في علم الجلالة بالنظر إلى أن مسمى ذلك العلم مساو لمسمى إله، إذ الإله منحصر في مسمى ذلك العلم.

وتفريع ﴿فإياي فارهبون﴾ يجوز أن يكون تفريعا على جملة ﴿لا تتخذوا إلهين اثنين﴾ فيكون ﴿فإياي فارهبون﴾ من مقول القول، ويكون في ضمير المتكلم من قوله: ﴿فارهبون﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب.

ويجوز أن يكون تفريعا على فعل ﴿وقال الله﴾ فلا يكون من مقول القول، أي قال الله لا تتخذوا إلهين فلا ترهبوا غيري. وليس في الكلام التفات على هذا الوجه.

وتفرع على ذلك قوله تعالى: ﴿فإياي فارهبون﴾ بصيغة القصر، أي قصر قلب إضافيا، أي قصر الرهبة التامة منه عليه فلا اعتداد بقدرة غيره على ضر أحد. وهو رد على الذين يرهبون إله الشر فالمقصود هو المرهوب.

والاقتصار على الأمر بالرهبة وقصرها على كونها من الله يفهم منه الأمر بقصر الرغبة عليه لدلالة قصر الرهبة على اعتقاد قصر القدرة التامة عليه تعالى فيفيد الرد على الذين يطعمون في إله الخير بطريق الأولى، وإنما اقتصر على الرهبة لأن شأن المزكية أن تكون عبادتهم عن خوف إله الشر لأن إله الخير هم في أمن منه فإنه مطبوع على الخير.

ووقع في ضمير ﴿فإياي﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم لمناسبة **انتقال** الكلام من تقرير دليل وحدانية الله على وجه كلي إلى تعيين هذا الواحد أنه الله منزل القرآن تحقيقا لتقرير العقيدة الأصلية. وفي هذا الالتفات اهتمام بالرهبة لما في الالتفات من هر فهم المخاطبين. وتقدم تركيب نظيره بدون التفات في سورة البقرة.

واقتران فعل ﴿فارهبون﴾ بالفاء ليكون تفريعا على تفريع فيفيد مفاد التأكيد لأن تعلق فعل" ارهبون "بالمفعول لفظا يجعل

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٥/١٣

الضمير المنفصل المذكور قبله في تقدير معمول لفعل آخر، فيكون التقدير: فإياي ارهبوا فارهبون، أي أمرتكم بأن تقصروا رهبتكم علي فارهبون امتثالا للأمر.

[٥٢] ﴿وله ما في السماوات والأرض وله الدين واصبا أفغير الله تتقون﴾.". (١)

٢١٩-"وتفرع على هاتين الجملتين التوبيخ على تقواهم غيره، وذلك أنهم كانوا يتقون إله الشر ويتقربون إليه ليأمنوا شره

[٥٣-٥٤] ﴿وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون﴾ عطف خبر على خبر. وهو **انتقال** من الاستدلال بمصنوعات الله الكائنة في ذات الإنسان وفيما يحيط به من الموجودات إلى الاستدلال بما ساق الله من النعم؛ فمن الناس معرضون عن التدبر فيها وعن شكرها وهم الكافرون، فكان في الأدلة الماضية القصد إلى الاستدلال ابتداء متبوعا بالامتنان.

وتغير الأسلوب هنا فصار المقصود الأول هو الامتنان بالنعم مدمجا فيه الاعتبار بالخلق. فالخطاب موجه إلى الأمة كلها، ولذلك جاء عقبه قوله تعالى: ﴿إذا فريق منكم بربهم يشركون﴾.

وابتدئ بالنعم على وجه العموم إجمالا ثم ذكرت مهمات منها.

والخطاب موجه إلى المشركين تذكيرا لهم بأن الله هو ربهم لا غيره لأنه هو المنعم.

وموقع قوله تعالى: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ هنا أنه لما أبطل في الآية السابقة وجود إلهين اثنين "أحدهما فعله الخير والآخر فعله الشر" أعقبه هنا بأن الخير والضر من تصرفات الله تعالى، وهو يعطي النعمة وهو كاشف الضر.

والباء للملابسة، أي ما لابسكم واستقر عندكم، و ﴿من نعمة﴾ لبيان إبهام ﴿ما﴾ الموصولة.

و "من" في قوله تعالى:ل ﴿فمن الله﴾ ابتدائية، أي واصلة إليكم من الله، أي من عطاء الله، لأن النعمة لا تصدر عن ذات الله ولكن عن صفة قدرته أو عن صفة فعله عند مثبتي صفات الأفعال. ولما كان" ما بكم من نعمة "مفيدا للعموم كان الإخبار عنه بأنه من عند الله مغنيا عن الإتيان بصيغة قصر.

و ﴿ثم﴾ في قوله تعالى: ﴿ثم إذا مسكم الضر﴾ للتراخي الرتبي كما هو شانها الغالب في عطفها الجمل، لأن اللجأ إلى الله عند حصول الضر أعجب إخبارا من الإخبار". (٢)

٢٢٠-"سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا؛ قال: "اذهب فاسقه عسلا"، فذهب فسقاه عسلا ثم جاء، فقال: يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقا، فقال رسول الله: "صدق الله وكذب بطن أخيك؛ فذهب فسقاه عسلا فبرى".

إذ المعنى أن الشفاء الذي أخبر الله عنه بوجوده في العسل ثابت، وأن مزاج أخي السائل لم يحصل فيه معارض ذلك، كما

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٠/١٣

(٢) التحرير والتنوير ١٤٢/١٣

دل عليه أمر النبي صلى الله عليه وسلم إياه أن يسقيه العسل، فإن خبره يتضمن أن العسل بالنسبة إليه باق على ما جعل الله فيه من الشفاء.

ومن لطيف النوادر ما في"الكشاف": أن من تأويلات الروافض أن المراد بالنحل في الآية علي وآله. وعن بعضهم أنه قال عند المهدي: إنما النحل بنو هاشم يخرج من بطونهم العلم، فقال له رجل: جعل الله طعامك وشرابك أضحوكة من أضاحيكهم.

قلت: الرجل الذي أجاب الرافضي هو بشار بن برد. وهذه القصة مذكورة في أخبار بشار.

وجملة ﴿إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ مثل الجملتين المماثلتين لها. وهو تكرير لتعداد الاستدلال، واختير وصف التفكر هنا لأن الاعتبار بتفصيل ما أجملته الآية في نظام النحل محتاج إلى إعمال فكر دقيق، ونظر عميق.

[٧٠] ﴿والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئا إن الله عليم قدير﴾

انتقال من الاستدلال بدقائق صنع الله على وحدانيته إلى الاستدلال بتصرفه في الخلق التصرف الغالب لهم الذي لا يستطيعون دفعه، على انفراده بربوبيتهم، وعلى عظيم قدرته. كما دل عليه تذييلها بجملة ﴿إن الله عليم قدير﴾ فهو خلقهم بدون اختيار منهم ثم يتوفاهم كرها عليهم أو يردهم إلى حالة يكرهونها فلا يستطيعون ردا لذلك ولا خلاصا منه، وبذلك يتحقق معنى العبودية بأوضح مظهر.

وابتدئت الجملة باسم الجلالة للغرض الذي شرحناه عند قوله تعالى: ﴿والله أنزل من السماء ماء﴾ [النحل:٦٥]. وأما إعادة اسم الجلالة هنا دون الإضمار فلأن مقام الاستدلال يقتضي تكرير اسم المستدل – بفتح الدال – على إثبات صفاته تصريحا". (١)

٢٢١-"والرزق: هنا اسم للشيء المرزوق به.

والحسن: الذي لا يشوبه قبح في نوعه مثل قلة وجدان وقت الحاجة، أو إسراع فساد إليه كسوس البر، أو رداءة كالحشف.

ووجه الشبه هو المعنى الحاصل في حال المشبه به من الحقارة وعدم أهلية التصرف والعجز عن كل عمل، ومن حال الحرية والغنى والتصرف كيف يشاء.

وجعلت جملة ﴿فهو ينفق منه﴾ مفرعة على التي قبلها دون أن تجعل صفة للرزق للدلالة على أن مضمون كلتا الجملتين مقصود لذاته كمال في موصوفه، فكونه صاحب رزق حسن كمال، وكونه يتصرف في رزقه بالإعطاء كمال آخر، وكلاهما بضد نقائص المملوك الذي لا يقدر على شيء من الإنفاق ولا ما ينفق منه.

وجعل المسند فعلا للدلالة على التقوي، أي ينفق إنفاقا ثابتا. وجعل الفعل مضارعا للدلالة على التجدد والتكرر، أي ينفق ويزيد.

﴿سرا وجهرا﴾ حالان من ضمير ﴿ينفق﴾ ، وهما مصدران مؤولان بالصفة، أي مسرا وجاهرا بإنفاقه. والمقصود من ذكرهما

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/١٦٩

تعميم الإنفاق، كناية عن استقلال التصرف وعدم الوقاية من مانع إياه عن الإنفاق.

وهذا مثل لغنى الله تعالى وجوده على الناس.

وجملة ﴿هل يستوون﴾ بيان لجملة ﴿ضرب الله مثلا﴾ فبين غرض التشبيه بأن المثل مراد منه عدم تساوي الحالتين ليستدل به على عدم مساواة أصحاب الحالة الأولى لصاحب الصفة المشبهة بالحالة الثانية.

والاستفهام مستعمل في الإنكار.

وأما جملة ﴿الحمد لله﴾ فمعترضة بين الاستفهام المفيد للنفي وبين الإضراب بـ ﴿بل﴾ **الانتقالية**. والمقصود من هذه الجملة أنه تبين من المثل اختصاص الله بالإنعام فوجب أن يختص بالشكر وأن أصنامهم لا تستحق أن تشكر.

ولما كان الحمد مظهرا من مظاهر الشكر في مظهر النطق جعل كناية عن الشكر هنا، إذ كان الكلام على إخلال المشركين بواجب الشكر إذ أثنوا على الأصنام وتركوا الثناء". (١)

٢٢٢-"على الله وفي الحديث "الحمد رأس الشكر". ١

جيء بهذه الجملة البليغة الدلالة المفيدة انحصار الحمد في ملك الله تعالى، وهو إما حصر ادعائي لأن الحمد إنما يكون على نعمة، وغير الله إذا أنعم فإنما إنعامه مظهر لنعمة الله تعالى التي جرت على يديه، كما تقدم في صدر سورة الفاتحة، وإما قصر إضافي قصر إفراد للرد على المشركين إذ قسموا حمدهم بين الله وبين آلهتهم.

ومناسبة هذا الاعتراض هنا تقدم قوله تعالى: ﴿وبنعمت الله هم يكفرون﴾ [النحل:٧٢] ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا﴾ [النحل:٧٣]. فلما ضرب لهم المثل المبين لخطئهم وأعقب بجملة ﴿هل يستوون﴾ ثني عنان الكلام إلى الحمد لله لا للأصنام.

وجملة ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ إضراب **للانتقال** من الاستدلال عليهم إلى تجهيلهم في عقيدتهم.

وأسند نفي العلم إلى أكثرهم لأن منهم من يعلم الحق ويكابر استبقاء للسيادة واستجلابا لطاعة دهمائهم، فهذا ذم لأكثرهم بالصراحة وهو ذم لأقلهم بوصمة المكابرة والعناد بطريق التعريض.

وهذا نظير قوله تعالى في سورة الزمر [٢٩] ﴿ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾.

وإنما جاءت صيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿هل يستوون﴾ لمراعاة أصحاب الهيئة المشبهة، لأنها أصنام كثيرة كل واحد منها مشبه بعبد مملوك لا يقدر على شيء، فصيغة الجمع هنا تجريد للتمثيلية، أي هل يستوي أولئك مع الإله الحق القادر المتصرف. وإنما أجري ضمير جمعهم على صيغة جمع العالم تغليبا لجانب أحد التمثيلين وهو جانب الإله القادر.

[٧٦] ﴿وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/١٨١

-

١رواه عبد الرزاق عن عبد الله بن عمر مرفوعا وفي سنده انقطاع،وروى الديلمي ما يؤيد معنى هذا الحديث من حديث أنس بن مالك مرفوعا.". (١)

٢٢٣-"إلى مشاهدتها حواس المخلوقات الأرضية.

والإخبار بأنها ملك لله يقتضي بطريق الكناية أيضا أنه عالم بها.

وتقديم المجرور أفاد الحصر، أي له لا لغيره. ولام الملك أفادت الحصر، فيكون التقديم مفيدا تأكيد الحصر أو هو للاهتمام.

و ﴿أمر الساعة﴾: شأنها العظيم فالأمر: الشأن المهم، كما في قوله تعالى: ﴿أتى أمر الله﴾ [النحل:١]، وقول أبي بكر - رضي الله عنه -: "ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر"، أي شأن وخطب.

و ﴿الساعة﴾: علم الغلبة على وقت فناء العالم، وهي من جملة غيب الأرض.

ولمح البصر: توجهه إلى المرئي لأن اللمح هو النظر. ووجه الشبه هو كونه مقدورا بدون كلفة، لأن لمح البصر هو أمكن وأسرع حركات الجوارح فهو أيسر وأسرع من نقل الأرجل في المشي ومن الإشارة باليد.

وهذا التشبيه أفصح من الذي في قول زهير:

فهن ووادي الرس كاليد للفم

ووجه الشبه يجوز أن يكون تحقق الوقوع بدون مشقة ولا أنظار عند إرادة الله تعالى ووقوعه، وبذلك يكون الكلام إثباتا لإمكان الوقوع وتحذيرا من الاغترار بتأخيره.

ويجوز أن يكون وجه الشبه السرعة، أي سرعة الحصول عند إرادة الله أي يحصل فجأة بدون أمارات كقوله تعالى: ﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾ [ألأعراف:١٨٧].

والمقصود: إنذارهم وتحذيرهم من أن تبغتهم الساعة ليقلعوا عما هم فيه من وقت الإنذار. ولا يتوهم أن يكون البصر تشبيها في سرعة الحصول إذ احتمال معطل لأن الواقع حارس منه.

و ﴿أو﴾ في ﴿أو هو أقرب﴾ للإضراب **الانتقالي**، إضرابا عن التشبيه الأول بأن المشبه أقوى في وجه الشبه من المشبه به، فالمتكلم يخيل للسامع أنه يريد تقريب المعنى إليه بطريق التشبيه ثم يعرض عن التشبيه بأن المشبه أقوى في وجه الشبه وأنه لا يجد له شبيها فيصرح بذلك فيحصل التقريب ابتداء ثم الإعراب عن الحقيقة ثانيا.

ثم المراد بالقرب في قوله تعالى: ﴿أقرب﴾ على الوجه الأول في تفسير لمح البصر". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٢/١٣

(٢) التحرير والتنوير ١٨٥/١٣

٢٢٤-"البديهية إنما يحصل عند حدوث تصور موضوعاتها وتصور محمولاتها. وحدوث هذه التصورات إنما هو بسبب إعانة الحواس على جزئياتها، فكانت الحواس الخمس هي السبب الأصلي لحدوث هذه العلوم، وكان السمع والبصر أول الحواس تحصيلا للتصورات وأهمها.

وهذه العلوم نعمة من الله تعالى ولطف، لأن بها إدراك الإنسان لما ينفعه وعمل عقله فيما يدله على الحقائق، ليسلم من الخطأ المفضي إلى الهلاك والأرزاء العظيمة، فهي نعمة كبرى. ولذلك قال تعالى عقب ذكرها ﴿لعلكم تشكرون﴾، أي هي سبب لرجاء شكرهم واهبها سبحانه.

والكلام على معنى ﴿لعلكم تشكرون﴾ مضى غير مرة في نظيره ومماثله.

[٧٩] ﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾

موقع هذه الجملة موقع التعليل والتدليل على عظيم قدرة الله وبديع صنعه وعلى لطفه بالمخلوقات، فإنه لما ذكر موهبة العقل والحواس التي بها تحصيل المنافع ودفع الأضرار نبه الناس إلى لطف يشاهدونه أجلى مشاهدة لأضعف الحيوان، بأن تسخير الجو للطير وخلقها صالحة لأن ترفرف فيه بدون تعليم هو لطف بها اقتضاه ضعف بنياتها، إذ كانت عادمة وسائل الدفاع عن حياتها، فجعل الله لها سرعة **الانتقال** مع الابتعاد عن تناول ما يعدو عليها من البشر والدواب.

فلأجل هذا الموقع لم تعطف الجملة على التي قبلها لأنها ليس في مضمونها نعمة على البشر، ولكنها آية على قدرة الله تعالى وعلمه، بخلاف نظيرتها في سورة الملك [١٩] ﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات﴾ فإنها عطفت على آيات دالة على قدرة الله تعالى من قوله: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ [الملك:٥] ثم قال: ﴿وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير﴾ [الملك:٦] ثم قال: ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض﴾ [الملك:١٦] ثم قال: ﴿أولم يروا إلى الطير﴾ الآية. ولذلك المعنى عقبت هذه وحدها بجملة ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾.

والتسخير: التذليل للعمل. وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿والنجوم مسخرات بأمره﴾ في سورة الأعراف [٥٤]." (١)

٢٢٥-"وبيوت: يجوز فيه ضم الموحدة وكسرها، وهو جمع بيت. وضم الموحدة هو القياس لأنه على وزن فعول، وهو مطرد في جمع فعل - بفتح الفاء وسكون العين -. وأما لغة كسر الباء فلمناسبة وقوع الياء التحتية بعد الموحدة المضمونة، لأن **الانتقال** من حركة الضم إلى النطق بالياء ثقيل. وقال الزجاج: أكثر النحويين لا يعرفون الكسر "أي لا يعرفونه لغة" وبين أبو علي جوازه. وتقدم في سورة البقرة.

وبالكسر قرأ الجمهور. وقرأها بالضم أبو عمرو وورش عن نافع و حفص عن عاصم.

والبيت: مكان يجعل له بناء وفسطاط يحيط به يعين مكانه ليتخذه جاعله مفرا يأوي إليه ويستكن به من الحر و القر. وقد يكون محيطه من حجر وطين ويسمى جدارا، أو من أخشاب أو قصب أو غير ذلك وتسمى أيضا الأخصاص. ويوضع فوق محيطه غطاء ساتر من أعلاه يسمى السقف، يتخذ من أعواد ويطين عليها، وهذه بيوت أهل المدن والقرى.

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٨/١٣

وقد يكون المحيط بالبيت متخذا من أديم مدبوغ ويسمى القبة، أو من أثواب تنسج من وبر أو شعر أو صوف ويسمى الخيمة أو الخباء، وكلها يكون بشكل قريب من الهرمي تلتقي شقتاه أو شققه من أعلاه معتمدة على عمود وتنحدر منه متسعة على شكل مخروط. وهذه بيوت الأعراب في البوادي أهل الإبل والغنم يتخذونها لأنها أسعد لهم في انتجاعهم، فينقلونها معهم إذا انتقلوا يتتبعون مواقع الكلأ لإنعامهم والكمأة لعيشهم. وقد تقدم ذكر البيت عند قوله تعالى: ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا﴾ في سورة البقرة [١٢٥].

و ﴿جعل﴾ هنا بمعنى أوجد، فتتعدى إلى مفعول واحد.

والسكن: اسم بمعنى المسكون. والسكنى: مصدر سكن فلان البيت. إذا جعله مقرا له، وهو مشتق من السكون، أي القرار.

وانتصب قوله تعالى: ﴿سكنا﴾ على المفعولية لـ ﴿جعل﴾.

وقوله: ﴿من بيوتكم﴾ بيان للسكن، فتكون ﴿من﴾ بيانية، أو تجعل ابتدائية ويكون الكلام من قبيل التجريد بتنزيل البيوت منزلة شيء آخر غير السكن، كقولهم: لئن لقيت فلانا لتقين منه بحرا. وأصل التركيب: والله جعل لكم بيوتكم سكنا.

وقيل: إن ﴿سكنا﴾ مصدر وهو قول ضعيف، وعليه فيكون الامتنان بالإلهام الذي". (١)

٢٢٦-"دل عليه السكون، وتكون ﴿من﴾ ابتدائية، لأن أول السكون يقع في البيوت.

وشمل البيوت هنا جميع أصنافها.

وخص بالذكر القباب والخيام في قوله تعالى: ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا﴾ لأن القباب من أدم والخيام من منسوج الأوبار والأصواف والأشعار، وهي ناشئة من الجلد، لأن الجلد هو الإهاب بما عليه، فإذا دبغ وأزيل منه الشعر فهو الأديم.

وهذا امتنان خاص بالبيوت القابلة **للانتقال** والارتحال والبشر كلهم لا يعدون أن يكونوا أهل قرى أو قبائل رحلا.

والسين والتاء في ﴿تستخفونها﴾ للوجدان، أي تجدونها خفيفة، أي خفيفة المحمل حين ترحلون، إذ يسهل نقضها من مواضعها وطيها وحملها على الرواحل، وحين تنيخون إناخة الإقامة في الموضع المنتقل إليه فيسهل ضربها وتوثيقها في الأرض.

والظعن - بفتح الظاء والعين وتسكن العين -. وقد قرأه بالأول نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب، وبالثاني الباقون، وهو السفر.

وأطلق اليوم على الحين والزمن، أي وقت سفركم.

والأثاث - بفتح الهمزة - اسم جمع للأشياء التي تفرش في البيوت من وسائد وبسط وزرابي، وكلها تنسج أو تحشى بالأصواف والأشعار والأوبار.

والمتاع أعم من الأثاث، فيشمل الأعدال و الخطم و الرحائل و اللبود والعقل.

فالمتاع: ما يتمتع به وينتفع، وهو مشتق من المتع، وهو الذهاب بالشيء، ولملاحظة استقاقه تعلق به إلى حين. والمقصود من هذا المتعلق الوعظ بأنها أو أنهم صائرون إلى زوال يحول دون الانتفاع بها ليكون الناس على أهبة واستعداد للآخرة فيتبعوا

---

(١) التحرير والتنوير ١٩١/١٣

ما يرضي الله تعالى، كما قال: ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾ [الاحقاف:٢٠].

[٨١] ﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾". [1]

٢٢٧-"عطف على أخواتها.

والقول في نظم ﴿والله جعل لكم﴾ كالقول في نظائره المتقدمة.

وهذا امتنان بنعمة الإلهام إلى التوقي من أضرار الحر والقر في حالة **الانتقال**، أعقبت به المنة بذلك في حال الإقامة والسكنى، وبنعمة خلق الأشياء التي يكون بها ذلك التوقي باستعمال الموجود وصنع ما يحتاج إليه الإنسان من اللباس، إذ خلق الله الظلال صالحة للتوقي من حر الشمس، وخلق الكهوف في الجبال ليمكن اللجأ إليها، وخلق مواد اللباس مع الإلهام إلى صناعة نسجها، وخلق الحديد لاتخاذ الدروع للقتال.

و "من" في ﴿مما خلق﴾ ابتدائية.

والظلال تقدم الكلام عليه عند قوله تعالى: ﴿يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل﴾ [النحل:٤٨] آنفا، لأن الظلال آثار حجب الأجسام ضوء الشمس من الوقوع على الأرض.

والأكنان: جمع كن - بكسر الكاف - وهو فعل بمعنى مفعول، أي مكنون فيه، وهي الغيران والكهوف.

و "من" في قوله تعالى: ﴿مما خلق﴾، و ﴿من الجبال﴾ ، للتبعيض. كانوا يأوون إلى الكهوف في شدة حر الهجير أو عند اشتداد المطر، كما ورد في حديث الثلاثة الذين سألوا الله بأفضل أعمالهم في"صحيح البخاري".

والسرابيل:جمع سربال، وهو القميص يقي الجسد حر الشمس، كما يقيه البرد.

وخص الحر هنا لأنه أكثر أحوال بلاد المخاطبين في وقت نزولها.على أنه لما ذكر الدفء في قوله تعالى: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء﴾ [النحل:٥] ذكر ضده هنا.

والسرابيل التي تقي البأس: هي دروع الحديد. ولها من أسماء القميص الدرع، والسربال، والبدن.

والبأس: الشدة في الحرب. وإضافة إلى الضمير على معنى التوزيع، أي تقي بعضكم بأس بعض، كما فسر به قوله تعالى: ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ [الأنعام:٦٥]، وقال تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ [الحديد:٢٥]، وهو". [2]

٢٢٨-"الجمعة وتجعل تلاوتها عوضا عما كانوا يأتونه في خطبة الجمعة من كلمات سب علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -. وفي تلاوة هذه الآية عوضا عن ذلك السب دقيقة أنها تقتضي النهي عن ذلك السب إذ هو من الفحشاء والمنكر والبغي.

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٢/١٣

(٢) التحرير والتنوير ١٩٣/١٣

ولم أقف على تعيين الوقت التي ابتدع فيه هذا السب ولكنه لم يكن في خلافة معاوية - رضي الله عنه -.

وفي"السيرة الحلبية"أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام ألف كتابا سماه"الشجرة"بين فيه أن هذه الآية اشتملت على جميع الأحكام الشرعية في سائر الأبواب الفقهية وسماه السبكي في الطبقات"شجرة المعارف".

وجملة ﴿يعظكم﴾ في موضع الحال من اسم الجلالة.

والوعظ: كلام يقصد منه إبعاد المخاطب به عن الفساد وتحريضه على الصلاح. وتقدم عند قوله تعالى: ﴿فأعرض عنهم وعظهم﴾ في سورة النساء [٦٣].

والخطاب للمسلمين لأن الموعظة من شأن من هو محتاج للكمال النفساني، ولذلك قارنها بالرجاء بـ ﴿لعلكم تذكرون﴾.

والتذكر: مراجعة المنشي المغفول عنه، أي رجاء أن تتذكروا، أي تتذكروا بهذه الموعظة ما اشتملت عليه فإنها جامعة باقية في نفوسكم.

[٩١] ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون﴾ لما أمر الله المؤمنين بملاك المصالح ونهاهم عن ملاك المفاسد بما أومأ إليه قوله: ﴿يعظكم لعلكم تذكرون﴾ [النحل:٩٠]، فكان ذلك مناسبة حسنة لهذا **الانتقال** الذي هو من أغراض تفنن القرآن، وأوضح لهم أنهم قد صاروا إلى كمال وخير بذلك الكتاب المبين لكل شيء. ولا جرم ذكرهم الوفاء بالعهد الذي عاهدوا الله عليه عندما أسلموا. وهو ما بايعوا عليه النبي صلى الله عليه وسلم مما فيه: أن لا يعصوه في معروف. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ البيعة على كل من أسلم من وقت ابتداء الإسلام في مكة.

وتكررت البيعة قبيل الهجرة وبعدها على أمور أخرى، مثل النصرة التي بايع عليها الأنصار ليلة العقبة، ومثل بيعة الحديبية.". (١)

٢٢٩-"المسند وهي جملة ﴿وأولئك هم الكاذبون﴾.

وافتتحت باسم الإشارة، بعد إجراء وصف انتفاء الإيمان بآيات الله عنهم، لينبه على أن المشار إليهم جديرون بما يرد من الخبر بعد اسم الإشارة، وهو قصرهم على الكذب، لأن من لا يؤمن بآيات الله يتخذ الكذب ديدنا له متجددا.

وجعل المسند في هذه الجملة معرفا باللام ليفيد أن جنس الكاذبين اتحد بهم وصار منحصرا فيهم، أي الذين تعرف أنهم طائفة الكاذبين هم هؤلاء. وهذا يؤول إلى معنى قصر جنس المسند على المسند إليه، فيحصل قصران في هذه الجملة: قصر موصوف على صفة، وقصر تلك الصفة على ذلك الموصوف. والقصران الأولان الحاصلان من قوله ﴿إنما يفتري﴾ وقوله ﴿وأولئك هم﴾ إضافيان، أي لا غيرهم الذي رموه بالافتراء وهو محاشى منه. والثالث ﴿وأولئك هم الكاذبون﴾ قصر حقيقي ادعائي للمبالغة. إذ نزل بلوغ الجنس فيهم مبلغا قويا منزلة انحصاره فيهم.

واختير في الصلة صيغة ﴿لا يؤمنون﴾ دون: لم يؤمنوا. لتكون على وزان ما عرفوا به سابقا في قوله ﴿إن الذين لا يؤمنون

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/٢٠٩

بآيات الله﴾، ولما في المضارع من الدلالة على أنهم مستمرون على انتفاء الإيمان لا يثبت لهم ضد ذلك.

[١٠٦] ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالأيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾ [النحل:١٠٦] لما سبق التحذير من نقض عهد الله الذي عاهدوه، وأن لا يغرهم ما لأمة المشركين من السعة والربو، والتحذير من زلل القدم بعد ثبوتها، وبشروا بالوعد بحياة طيبة، وجزاء أعمالهم الصالحة من الإشارة إلى التمسك بالقرآن والاهتداء به، وأن لا تغرهم شبه المشركين وفتونهم في تكذيب القرآن، عقب ذلك بالوعيد على الكفر بعد الإيمان، فالكلام استئناف ابتدائي.

ومناسبة **الانتقال** أن المشركين كانوا يحاولون فتنة الراغبين في الإسلام والذين أسلموا. فلذلك رد عليهم بقوله: ﴿قل نزله روح القدس﴾ إلى قوله: ﴿ليثبت الذين آمنوا﴾ [النحل:١٠٢]، وكانوا يقولون: ﴿إنما يعلمه بشر﴾ فرد عليهم بقوله: ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي﴾ [النحل: من الآية١٠٣].

وكان الغلام الذي عنوه بقولهم: ﴿إنما يعلمه بشر﴾ قد أسلم ثم فتنه المشركون فكفر، وهو جبر مولى". (١)

٢٣٠-"بجهالة﴾ في سورة النساء [١٧].

وقوله: ﴿إن ربك من بعدها﴾ تأكيد لفظي لقوله: ﴿ثم إن ربك﴾ لزيادة الاهتمام بالخبر على الاهتمام الحاصل بحرف التوكيد ولام الابتداء. ويتصل خبر ﴿إن﴾ باسمها لبعد ما بينهما.

ووقع الخبر بوصف الله بصفة المبالغة في المغفرة والرحمة، وهو كناية عن غفرانه لهم ورحمته إياهم في ضمن وصف الله بهاتين الصفتين العظيمتين.

والباء في ﴿بجهالة﴾ للملابسة، وهي في موضع الحال من ضمير ﴿عملوا﴾.

وضمير ﴿من بعدها﴾ عائد إلى الجهالة أو إلى التوبة.

[١٢٠-١٢٢] ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾

استئناف ابتدائي **للانتقال** إلى غرض التنويه بدين الإسلام بمناسبة قوله: ﴿ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾ [النحل:١٩] المقصود به أنهم كانوا في الجاهلية ثم اتبعوا الإسلام، فيعد أن بشرهم بأنه غفر لهم ما عملوه من قبل زادهم فضلا ببيان فضل الدين الذي اتبعوه.

وجعل الثناء على إبراهيم عليه السلام مقدمة لذلك لبيان أن فضل الإسلام فضل زائد على جميع الأديان بان مبدأه برسول ومنتهاه برسول. وهذا فضل لم يحظ به دين آخر.

فالمقصود بعد هذا التمهيد و هاته المقدمة هو الإفضاء إلى قوله: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا﴾ [النحل:١٢٣]، وقد قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل﴾ [الحج:٧٨].

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/٢٣٥

والأصل الأصيل الذي تفرع عنه وعن فروعه هذا **الانتقال** ما ذكر في الآية قبلها من تحريم أهل الجاهلية على أنفسهم كثيرا مما أنعم الله به على الناس.

ونظرهم باليهود إذ حرم الله عليهم أشياء، تشديدا عليهم، فجاء بهذا **الانتقال** لإفادة أن كلا الفريقين قد حادوا عن الحنيفية التي يزعمون أنهم متابعوها، وأن الحنيفة هي ما". (١)

٢٣١-"أفادت قوة النفي ومباعدة المنفي. وحسبك أنها يبنى عليها الجحود في نحو: ما كان ليفعل كذا.

فحصل من قوله السابق: ﴿ولم يك من المشركين﴾ [النحل:١٢٠] ومن قوله هنا: ﴿وما كان من المشركين﴾ ثلاث فوائد: نفي الإشراك عن إبراهيم في جميع أزمنة الماضي، وتجدد نفي الإشراك تجددا مستمرا، وبراءته من الإشراك براءة تامة.

وقد علم من هذا أن دين الإسلام منزه عن أن تتعلق به شوائب الإشراك لأنه جاء كما جاء إبراهيم معلنا توحيدا لله بالإلهية ومجتثا لوشيج الشرك. والشرائع الإلهية كلها وإن كانت تحذر من الإشراك فقد امتاز القرآن من بينها بسد المنافذ التي يتسلل منها الإشراك بصراحة أقواله وفصاحة بيانه، وأنه لم يترك في ذلك كلاما متشابها كما قد يوجد في بعض الكتب الأخرى، مثل ما جاء في التوراة من وصف اليهود بأبناء الله، وما في الأناجيل من موهم بنوة - عيسى عليه السلام - لله سبحانه عما يصفون.

وقد أشار إلى هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع: "أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه (أي أرض الإسلام) أبدا، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم".

ومعنى اتباع محمد ملة إبراهيم الواقع في كثير من آيات القرآن أن دين الإسلام بني على أصول ملة إبراهيم، وهي أصول الفطرة، والتوسط بين الشدة واللين، كما قال تعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم﴾ [الحج:٧٨].

وفي قضية أمر إبراهيم بذبح ولده - عليهما السلام -، ثم فدائه بذبح شاة رمز إلى **الانتقال** من شدة الأديان الأخرى في قرابينها إلى سماحة دين الله الحنيف في القربان بالحيوان دون الآدمي. ولذلك قال تعالى: ﴿وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم﴾ [الصافات:١٠٧]

فالشريعة التي تبنى تفاصيلها وتفاريعها على أصول شريعة تعتبر كأنها تلك الشريعة. ولذلك قال المحققون من علمائنا: إن الحكم الثابت بالقياس في الإسلام يصح أن يقال إنه دين الله وإن كان لا يصح أن يقال: قاله الله. وليس المراد أن جميع ما جاء به الإسلام قد جاء به إبراهيم - عليه السلام - إذ لا يخطر ذلك بالبال، فإن الإسلام شريعة قانونية". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٣/١٣

(٢) التحرير والتنوير ٢٥٧/١٣

٢٣٢-"أم كان بروحه في رؤيا هي مشاهدة روحانية كاملة ورؤيا الأنبياء حق. والجمهور قالوا: هو إسراء بالجسد في اليقظة، وقالت عائشة ومعاوية والحسن البصري وابن إسحاق رضي الله عنهم أنه إسراء بروحه في المنام ورؤيا الأنبياء وحي. واستدل الجمهور بان الامتنان في الآية وتكذيب قريش بذلك دليلان على أنه ما كان الإخبار به إلا على أنه بالجسد. واتفق الجميع على أن قريشا استوصفوا من النبي صلى الله عليه وسلم علامات في بيت المقدس وفي طريقه فوصفها لهم كما هي، ووصف لهم عيرا لقريش قافلة في طريق معين ويوم معين فوجدوه كما وصف لهم.

ففي "صحيح البخاري" أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "بينما أنا في المسجد الحرام بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل..." إلى آخر الحديث. وهذا أصح وأوضح مما روي في حديث آخر أن الإسراء كان من بيته أو كان من بيت أم هاني بنت أبي طالب أو من شعب أبي طالب.

والتحقيق حمل ذلك على أنه إسراء آخر، وهو الوارد في حديث المعراج إلى السماوات وهو غير المراد في هذه الآية. فالنبي صلى الله عليه وسلم كرامتان: أولاهما الإسراء وهو المذكور هنا، والأخرى المعراج وهو المذكور في حديث الصحيحين مطولا وأحاديث غيره. وقد قيل: إنه هو المشار إليه في سورة النجم.

[٢] ﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا﴾ [الإسراء:٢] ﴿سبحان الذي أسرى﴾ [الإسراء: من الآية١]

عطف على جملة ﴿سبحان الذي أسرى﴾ [الإسراء:١]الخ فهي ابتدائية. والتقدير: الله أسرى بعبده محمد وآتى موسى الكتاب. فهما مئتان عظيمتان على جزء عظيم من البشر. وهو **انتقال** إلى غرض آخر لمناسبة ذكر المسجد الأقصى، فإن أطوار المسجد الأقصى تمثل ما تطور به حال بني إسرائيل في جامعتهم من أطوار الصلاح والفساد، والنهوض والركود، ليعتبر بذلك المسلمون فيقتدوا أو يحذروا.

ولمناسبة قوله: ﴿لنريه من آياتنا﴾ [الإسراء:١]ولمناسبة قوله فإن من آيات الله التي أوتيها إلى النبي صلى الله عليه وسلم آية القرآن، فكان ذلك في قوة أن يقال: وآتيناه القرآن وآتينا موسى الكتاب أي التوراة ، كما يشهد به قوله بعد ذلك ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ [الإسراء:٩]أي للطريقة التي هي أقوم من طريقة التوراة وإن كان كلاهما هدى، على ما في حالة". (١)

٢٣٣-"لأنه لا يوقع في غرور، وتعلم المساواة بطريق لحن الخطاب أو فحواه. وقد جاء في القرآن ما يومي إلى أن المتسبب لأحد في هدي ينال من ثواب المهتدي قال تعالى: ﴿واجعلنا للمتقين إماما﴾ [الفرقان:٧٤] وفي الحديث:"إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم بثه في صدور الرجال، وولد صالح يدعو له بخير".

ومن التخليط توهم أن حمل الدية في قتل الخطأ على العاقلة مناف لهذه الآية، فإن ذلك فرع قاعدة أخرى وهي قاعدة التعاون والمواساة وليست من حمل التبعات.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/١٤

و ﴿تزر﴾ تحمل الوزر، وهو الثقل. والوازرة: الحاملة، وتأنيثها باعتبار أنها نفس لقوله قبله ﴿من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها﴾ [فصلت:٤٦].

وأطلق عليها﴿وازرة﴾ على معنى الفرض والتقدير، أي لو قدرت نفس ذات وزر لا تزاد على وزرها وزر غيرها، فعلم أن النفس التي لا وزر لها لا تزر وزر غيرها بالأولى.

والوزر: الإثم لتشبيهه بالحمل الثقيل لما يجره من التعب لصاحبه في الآخرة، كما أطلق عليه الثقل، قال تعالى: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم﴾ [العنكبوت:١٣].

﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾

عطف على آية ﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾ الآية.

وهذا استقصاء في الإعذار لأهل الضلال زيادة على نفي مؤاخذتهم بأجرام غيرهم، ولهذا اقتصر على قوله: ﴿وما كنا معذبين﴾ دون أن يقال: ولا مثيبين. لأن المقام مقام إعذار وقطع حجة وليس مقام امتنان بالإرشاد.

والعذاب هنا عذاب الدنيا بقرينة السياق وقرينة عطف ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها﴾ [الإسراء:١٦]الآية. ودلت على ذلك آيات كثيرة، قال الله تعالى: ﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين﴾ [الشعراء:٢٠٩] وقال: ﴿فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾ [يونس:٤٧].

على أن معنى ﴿حتى﴾ يؤذن بان بعثة الرسول متصلة بالعذاب شان الغاية، وهذا اتصال عرفي بحسب ما تقتضيه البعثة من مدة للتبليغ والاستمرار على تكذيبهم الرسول والإمهال للمكذبين، ولذلك يظهر أن يكون العذاب هنا عذاب الدنيا وكما يقتضيه **الانتقال** إلى الآية بعدها.". (١)

٢٣٤-"والوجه أن تحديد ذلك بالمقدار حوالة على ما لا ينضبط وأن محمل الحديث مع اختلاف روايتيه على أن الأم أرجح على الإجمال.

ثم أمر بالدعاء لهما برحمة الله إياهما وهي الرحمة التي لا يستطيع الولد إيصالها إلى أبويه إلا بالابتهال إلى الله تعالى.

وهذا قد انتقل إليه **انتقالا** بديعا من قوله: ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ فكان ذكر رحمة العبد مناسبة **للانتقال** إلى رحمة الله، وتنبيها على أن التخلق بمحبة الولد الخير لأبويه يدفعه إلى معاملته إياهما به فيما يعلمانه وفيما يخفى عنهما حتى فيما يصل إليهما بعد مماتهما. وفي الحديث"إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم بثه في صدور الرجال، وولد صالح يدعو له بخير".

وفي الآية إيماء إلى أن الدعاء لهما مستجاب لأن الله أذن فيه. والحديث المذكور مؤيد ذلك إذ جعل دعاء الولد عملا لأبويه. وحكم هذا الدعاء خاص بالأبوين المؤمنين بأدلة أخرى دلت على التخصيص كقوله: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ [التوبة:١١٣] الآية.

---

(١) التحرير والتنوير ٤٢/١٤

والكاف في قوله: ﴿كما ربياني صغيرا﴾ للتشبيه المجازي يعبر عنه النحاة بمعنى التعليل في الكاف، ومثاله قوله تعالى: ﴿واذكروه كما هداكم﴾ [البقرة:١٩٨]، أي ارحمهما رحمة تكافئ ما ربياني صغيرا.

و ﴿صغيرا﴾ حال من ياء المتكلم.

والمقصود منه تمثيل حالة خاصة فيها الإشارة إلى تربية مكيفة برحمة كاملة فإن الأبوة تقتضي رحمة الوالد، وصغر الولد يقتضي الرحمة به ولو لم يكن ولدا فصار قوله: ﴿كما ربياني صغيرا﴾ قائما مقام قوله: كما ربياني ورحماني بتربيتهما. فالتربية تكملة للوجود، وهي وحدها تقتضي الشكر عليها. والرحمة حفظ للوجود من اجتناب انتهاكه وهو مقتضى الشكر، فجمع الشكر على ذلك كله بالدعاء لهما بالرحمة.

والأمر يقتضي الوجوب. وأما مواقع الدعاء لهما فلا تنضبط وهو بحسب حال كل امرئ في أوقات ابتهاله. وعن سفيان بن عيينة إذا دعا لهما في كل تشهد فقد امتثل.

ومقصد الإسلام من الأمر ببر الوالدين وبصلة الرحم ينحل إلى مقصدين:". (١)

٢٣٥-"لهذا كانت جملة ﴿قل كونوا حجارة أو حديدا﴾ الخ غير معطوفة، جريا على طريقة المحاورات التي بينتها عند قوله تعالى: ﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ في سورةالبقرة:[٣٠].

وإن كان قوله: ﴿قل﴾ ليس مبدأ محاورة بل المحاورة بالمقول الذي بعده؛ ولكن الأمر بالجواب أعطي حكم الجواب فلذلك فصلت جملة ﴿قل﴾ .

واعلم أن ارتباط رد مقالتهم بقوله: ﴿كونوا حجارة﴾ الخ غامض، لأنهم إنما استبعدوا أو أحالوا إرجاع الحياة إلى أجسام تفرقت أجزاؤها وانخرم هيكلها، ولم يعللوا الإحالة بأنها صارت أجساما ضعيفة، فيرد عليهم بأنها لو كانت من أقوى الأجسام لأعيدت لها الحياة.

فبنا أن نبين وجه الارتباط بين الرد على مقالتهم وبين مقالتهم المردودة، وفي ذلك ثلاثة وجوه:

أحدها: أن تكون صيغة الأمر في قوله: ﴿كونوا﴾ مستعملة في معنى التسوية، ويكون دليلا على جواب محذوف تقديره: إنكم مبعوثون سواء كنتم عظاما و رفاتا أو كنتم حجارة أو حديدا، تنبيها على أن قدرة الله تعالى لا يتعاصى عليها شيء. وذلك إدماج يجعل الجملة في معنى التذييل.

الوجه الثاني: أن تكون صيغة الأمر في قوله: ﴿كونوا﴾ مستعملة في الفرض، أي لو فرض أن يكون الأجساد من الأجسام الصلبة وقيل لكم: إنكم مبعوثون بعد الموت لأحلتم ذلك واستبعدتم إعادة الحياة فيها. وعلى كلا الوجهين يكون قوله: ﴿مما يكبر في صدوركم﴾ نهاية الكلام، ويكون قوله: ﴿فسيقولون من يعيدنا﴾ مفرعا على جملة ﴿وقالوا أإذا كنا﴾ [الإسراء:٤٩] الخ تفريعا على الاستئناف، وتكون الفاء للاستئناف وهي بمعنى الواو على خلاف في مجيئها للاستئناف، والكلام **انتقال** لحكاية تكذيب آخر من تكذيباتهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٥٩/١٤

الوجه الثالث:أن يكون قوله: ﴿قل كونوا حجارة﴾ كلاما مستأنفا ليس جوابا على قولهم: ﴿أإذا كنا عظاما ورفاتا﴾ [الإسراء:٤٩]الخ وتكون صيغة الأمر مستعملة في التسوية. وفي هذا الوجه يكون قوله: ﴿ فسيقولون من يعيدنا﴾ متصلا بقوله: ﴿كونوا حجارة أو حديدا﴾ الخ، ومفرعا على كلام محذوف بدل عليه قوله: ﴿كونوا حجارة﴾ ،". (١)

٢٣٦-"والجانب: هو الشق. وجعل البر جانبا لإرادة الشق الذي ينجيهم إليه، وهو الشاطئ الذي يرسون عليه، إشارة إلى إمكان حصول الخوف لهم بمجرد حلولهم بالبر بحيث يخسف بهم ذلك الشاطئ، أي أن البر والبحر في قدرة الله تعالى سيان، فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله في البر والبحر. وإضافة الجانب إلى البر إضافة بيانية.

والباء في ﴿يخسف بكم﴾ لتعدية ﴿يخسف﴾ بمعنى المصاحبة.

والحاصب: الرامي بالحصباء، وهي الحجارة. يقال: حصبه، وهو هنا صفة، أي يرسل عليكم عارضا حاصبا، تشبيها له بالذي يرمي الحصباء، أي مطر حجارة، أي برد يشبه الحجارة، وقيل: الحاصب هنا بمعنى ذي الحصباء، فصوغ اسم فاعل له من باب فاعل الذي هو بمعنى النسب مثل لابن وتامر.

والوكيل: الموكل إليه القيام بمهم موكله، والمدافع عن حق موكله، أي لا تجدوا لأنفسكم من يجادلنا عنكم أو يطالبنا بما ألحقناه بكم من الخسف أو الإهلاك بالحاصب، أي لا تجدوا من قومكم وأوليائكم من يثأر لكم كشأن من يلحقه ضر في قومه أن يدافع عنه ويطالب بدمه أولياؤه وعصابته. وهذا المعنى مناسب لما يقع في البر من الحدثان.

و(أم)عاطفة الاستفهام، وهي للإضراب **الانتقالي**، أي بل أ أمنتم، فالاستفهام مقدر مع أم لأنها خاصة به. أي أو هل كنتم آمنين من العود إلى ركوب البحر مرة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح.

والتارة: المرة المتكررة، قيل عينه همزة ثم خففت لكثرة الاستعمال. وقيل: هي واو. والأول أظهر لوجوده مهموزا وهم لا يهمزون حرف العلة في اللغة الفصحى، وأما تخفيف المهموز فكثير مثل: فأس وفاس، وكأس وكاس.

ومعنى ﴿أن يعيدكم﴾ أن يوجد فيكم الدواعي إلى العود تهيئة لإغراقكم وإرادة للانتقام منكم. كما يدل عليه السياق وتفريع ﴿فيرسل﴾ عليه.

والقاصف: التي تقصف، أي تكسر. وأصل القصف: الكسر. وغلب وصف الريح به، فعومل معاملة الصفات المختصة بالمؤنث فلم يلحقوه علامة التأنيث، مثل ﴿عاصف﴾ في قوله: ﴿جاءتها ريح عاصف﴾ في سورة يونس[٢٢]. والمعنى: فيرسل عليكم ريحا قاصفا، أي تقصف الفلك، أي تعطبه بحيث يغرق، ولذلك قال: ﴿فيغرقكم﴾ .

قرأ الجمهور ﴿من الريح﴾ بالإفراد.وقرأ أبو جعفر ﴿من الرياح﴾ بصيغة الجمع.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٠/١٤

(٢) التحرير والتنوير ١٢٩/١٤

٢٣٧-"مسألة التفضيل بين البشر والملائكة المختلف في تفاصيلها بيننا وبين المعتزلة. وقد فرضها الزمخشري هنا على عادته من التحكك على أهل السنة والتعسف لإرغام القرآن على تأييد مذهبه، وقد تجاوز حد الأدب في هذه المسألة في هذا المقام، فاستوجب الغضاضة والملام.

ولا شك أن إقحام لفظ ﴿كثير﴾ في قوله تعالى: ﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ مراد منه التقيد والاحتراز والتعليم الذي لا غرور فيه، فيعلم منه أن ثم مخلوقات غير مفضل عليها بنو آدم تكون مساوية أو أفضل إجمالا أو تفضيلا، وتبيينه يتلقى من الشريعة فيما بيته من ذلك، وما سكتت فلا نبحث عنه.

والإتيان بالمفعول المطلق في قوله: ﴿تفضيلا﴾ لإفادة ما في التنكير من التعظيم أي تفضيلا كبيرا.

﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلا ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا﴾

انتقال من غرض التهديد بعاجل العذاب في الدنيا الذي في قوله: ﴿ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر﴾ إلى قوله: ﴿ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا﴾ [الإسراء:٦٦-٦٩]إلى ذكر حال الناس في الآخرة تبشيرا وإنذارا، فالكلام استئناف ابتدائي، والمناسبة ما علمت. ولا يحسن لفظ(يوم)للتعلق بما قبله من قوله: ﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ [الإسراء:٧٠]على أن يكون تخلصا من ذكر التفضيل إلى ذكر اليوم الذي تظهر فيه فوائد التفضيل، فترجح أنه ابتداء مستأنف استئنافا ابتدائيا، ففتحه ﴿يوم﴾ إما فتحه إعراب على أنه مفعول به لفعل شائع الحذف في ابتداء العبر القرانية وهو فعل"اذكر"فيكون ﴿يوم﴾ هنا اسم زمان مفعولا للفعل المقدر وليس ظرفا.

والفاء في قوله: ﴿فمن أوتي﴾ للتفريع لأن فعل(اذكر)المقدر يقتضي أمرا عظيما مجملا فوقع تفضيله بذكر الفاء وما بعدها فإن التفصيل ينفرع على الإجمال.

وإما أن تكون فتحته بناء الإضافة اسم الزمان إلى الفعل، وهو إما في محل رفع بالابتداء، وخبره وجملة.وزيدت الفاء في الخبر على رأي الأخفش، وقد حكي ابن هشام عن ابن برهان أن الفاء تزداد في الخبر عند جميع البصريين". [١]

٢٣٨-"(أفعل) ليتأتى ذكر السبيل. لما في الضلال عن السبيل من تمثيل حال العمى وإيضاحه، لأن ضلال فاقد البصر عن الطريق فيحال السير أشد وقعا في الأضرار منه وهو قابع بمكانه، فعدل عن اللفظ الوجيز إلى التركيب المطنب لما في الإطناب من تمثيل الحال وإيضاحه وإفظاعه وهو إطناب بديع. وقد أفيد بذلك أن عماه في الدارين عمى ضلال عن السبيل الموصل. ومعنى المفاضلة راجع إلى مفاضلة إحدى حالتيه على الأخرى في الضلال وأثره لا إلى حال غيره. فالمعنى: وأضل سبيلا منه في الدنيا.

ووجه كون ضلاله في الآخرة أشد أن ضلاله في الدنيا كان في مكنته أن ينجو منه بطلب ما يرشده إلى السبيل الموصل من هدي الرسول والقرآن مع كونه خليا عن لحاق الألم به. وأما ضلاله في الآخرة فهو ضلال لا خلاص منه وهو مقارن للعذاب

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٢/١٤

الدائم. فلا جرم كان ضلاله في الآخرة أدخل في حقيقة الضلال وماهيته.

﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا﴾

حكاية فن من أفنين ضلالهم وعماهم في الدنيا، فالجملة عطف على جملة ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى﴾ [الإسراء: من الآية٧٢]ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى. وهو **انتقال** من وصف حالهم وإبطال مقالهم في تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذكر حال آخر من حال معارضتهم وإعراضهم، وهي حال طمعهم في أن يستنزلوا النبي صلى الله عليه وسلم لأن يقول قولا فيه حسن ذكر لألهتهم ليتنازلوا إلى مصالحته وموافقته إذا وافقهم في بعض ما سألوه.

وضمائر الغيبة مراد منها كفار قريش، أي متولو تدبير أمورهم.

وغير الأسلوب من خطابهم في آيات ﴿ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر﴾ [لاسراء: من الآية٦٦]ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر إلى الإقبال على خطاب النبي صلى الله عليه وسلم لتغير المقام من مقام استدلال إلى مقام امتنان.

والفتن والفتون: معاملة يلحق منها ضر واضطراب النفس في أنواع من المعاملة يعسر دفعها، من تغلب على القوة وعلى الفكر، وتقدم في قوله تعالى ﴿والفتنة أشد من القتل﴾ [البقرة: من الآية١٩١]

وعدي ﴿يفتنونك﴾ بحرف عن لتضمينه معنى فعل كان الفتن لأجله، وهو ما فيه". (١)

٢٣٩-"غير قياسية. والينبوع مشتقة من مادة النبع؛ غير أن الأسماء الواردة على هذه الصيغة مختلفة، فبعضها ظاهر اشتقاقه كالينبوع والينبوت، وبعضها خفي كاليعبوب للفرس الكثير الجري. وقيل: اشتق من العب المجازي. ومنه أسماء معربة جاء تعريبها على وزن يفعول مثل: يكسوم اسم قائد حبشي، ويرموك اسم نهر. وقد استقرى الحسن الصاغاني ما جاء من الكلمات في العربية على وزن يفعول في مختصر له مرتب على حروف العجم. وقال السيوطي في"المزهر": إن ابن دريد عقد له في"الجمهرة"بابا.

والجنة، والنخيل، والعنب، والأنهار تقدمت في قوله: ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار﴾ في سورة البقرة[٢٦٦].

وخصوا هذه الجنة بأن تكون له، لأن شأن الجنة أن تكون خاصة لملك واحد معين، فأروه أنهم لا يبتغون من هذا الاقتراح نفع أنفسهم ولكنهم يبتغون حصوله ولو كان لفائدة المقترح عليه. والمقترح هو تفجير الماء في الأرض القاحلة. وإنما ذكروا وجود الجنة تمهيدا لتفجير أنهار خلالها فكأنهم قالوا: حتى تفجر لنا ينبوعا يسقي الناس كلهم، أو تفجر أنهارا تسقي جنة واحدة تكون تلك الجنة وأنهارها لك. فنحن مقتنعون بحصول ذلك لا بغية الانتفاع منه. وهذا كقولهم: ﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾ [الإسراء:٩٣].

وذكر المفعول المطلق بقوله: ﴿تفجيرا﴾ للدلالة على التكثير لأن ﴿تفجر﴾ قد كفى في الدلالة على المبالغة في الفجر،

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٣٥

فتعين أن يكون الإتيان بمفعوله المطلق للمبالغة في العدد، كقوله تعالى: ﴿ونزلناه تنزيلا﴾ [الإسراء:١٠٦]،وهو المناسب لقوله: ﴿خلالها﴾ ، لأن الجنة تتخللها شعب النهر لسقي الأشجار. فجمع الأنهار باعتبار تشعب ماء النهر إلى شعب عديدة. ويدل لهذا المعنى إجماع القراء على قراءة ﴿فتفجر﴾ هنا بالتشديد مع اختلافهم في الذي قبله. وهذا من لطائف معاني القراءات المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم فهي من أفانين إعجاز القرآن.

وقولهم: ﴿أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا﴾ انتقال من تحديه بخوارق فيها منافع لهم إلى تحديه بخوارق فيها مضرتهم، يريدون بذلك التوسيع عليه، أي فليأتهم بآية على ذلك ولو في مضرتهم. وهذا حكاية لقولهم كما قالوا. ولعلهم أرادوا به الإغراق في التعجيب من ذلك فجمعوا بين جعل الإسقاط لنفس السماء. وعززوا تعجيبهم بالجملة المعترضة وهي ﴿كما زعمت﴾ إنباء بأن ذلك لا يصدق به أحد. وعنوا به قوله تعالى: ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء﴾ [سبأ: ٩] وبقوله: ﴿وإن". (١)

٢٤٠-"﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الأنفاق وكان الأنسان قتورا﴾ اعتراض ناشئ عن بعض مقترحاتهم التي توهموا عدم حصولها دليلا على انتفاء إرسال بشير، فالكلام استئناف لتكملة رد شبهاتهم. وهذا رد لما تضمنه قولهم ﴿حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا﴾ إلى قوله ﴿تفجيرا﴾ [الإسراء: من الآية٩١) وقولهم ﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾ [الإسراء: من الآية٩٣] من تعذر حصول ذلك لعظيم قيمته.

ومعنى الرد: أن هذا ليس بعظيم في جانب خزائن رحمة الله لو شاء أن يظهره لكم.

وأدمج في هذا الرد بيان ما فيهم من البخل عن الإنفاق في سبيل الخير. وأدمج في ذلك أيضا تذكيرهم بأن الله أعطاهم من خزائن رحمته فكفروا نعمته وشكروا الأصنام التي لا نعمة لها. ويصلح لأن يكون هذا خطابا للناس كلهم مؤمنهم وكافرهم كل على قدر نصيبه.

وشأن (و)أن يليها الفعل ماضيا في الأكثر أو مضارعا في اعتبارات، فهي مختصة بالدخول على الأفعال، فإذا أوقعوا الاسم بعدها في الكلام وأخروا الفعل عنه فإنما يفعلون ذلك لقصد بليغ: إما لقصد التقوي والتأكيد للإشعار بأن ذكر الفعل بعد الأداة ثم ذكر فاعله ثم ذكر الفعل مرة ثانية تأكيد وتقوية؛ مثل قوله ﴿وإن أحد من المشركين استجارك﴾ [التوبة: من الآية٦] وإما للانتقال من التقوي إلى الاختصاص، بناء على أنه ما قدم الفاعل من مكانه إلا لقصد طريق غير مطروق. وهذا الاعتبار هو الذي يتعين التخريج عليه في هذه الآية ونحوها من الكلام البليغ، ومنه قول عمر لأبي عبيدة "لو غيرك قالها" .

والمعنى: لو أنتم أخصصتم بملك خزائن رحمة الله دون الله لما أنفقتم على الفقراء شيئا. وذلك أشد في التقريع وفي الامتنان بتخييل أن إنعام غيره كالعدم.

وكلا الاعتبارين لا يناكد اختصاص لو بالأفعال للاكتفاء بوقوع الفعل في حيزها غير موال إياها وموالاته إياها أمر أغلبي،

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٦٤

ولكن لا يجوز أن يقال: لو أنت عالم لبذذت الأقران.
واختير الفعل المضارع لأن المقصود فرض أن يملكوا ذلك في المستقبل.
و ﴿لأمسكتم﴾ هنا منزل منزلة اللازم فلا يقدر له مفعول، لأن المقصود: إذن لاتصفتم". (١)

٢٤١-"زينة الدنيا لعلهم يشكرونه، وأنهم بطروا النعمة، فأن الله يسلب عنه النعمة فتصير بلادهم قاحلة. وهذا تعريض بأن سيحل بهم قحط السنين السبع التي سأل الله رسول الله ربه أن يجعلها على المشركين كسنين يوسف عليه السلام.
ولهذا اتصال بقوله: ﴿لينذر بأسا شديدا من لدنه﴾ [الكهف: ٢].
وموقع ﴿إن﴾ صدر هذه الجملة موقع التعليل للتسلية التي تضمنها قوله تعالى ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم﴾ [الكهف: ٢].
ويحصل من ذلك تذكير بعضهم قدرة الله تعالى، وخاصة ما كان منها إيجادا للأشياء وأضدادها من حياة الأرض وموتها المماثل لحياة الناس وموتهم، والمماثل للحياة المعنوية والموت المعنوي من إيمان وكفر، ونعمة ونقمة، كلها عبر لمن يعتبر بالتغير ويأخذ إلى **الانتقال** من حال إلى حال فلا يثق بقوته وبطشه، ليقيس الأشياء بأشباهها نفسه على معيار الفضائل وحسنى العواقب.
وأوثر الاستدلال بحال الأرض التي عليها الناس لأنها أقرب إلى حسهم وتعلقهم، كما قال تعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت﴾ [لغاشية: ١٧-٢٠] وقال: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ [الذريات:٢٠]
وقد جاء نظم هذا الكلام على أسلوب الإعجاز في جمع معان كثيرة يصلح اللفظ لها من مختلف الأعراض المقصودة، فإن الإخبار عن خلق ما على الأرض زينة يجمع الامتنان على الناس والتذكير ببديع صنع الله إذ وضع هذا العالم على أتقن مثال ملائم لما تحبه النفوس من الزينة والزخرف. والامتنان بمثل هذا كثير، مثل قوله: ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾ [النحل: ٦]، وقال: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث﴾ [آل عمران: ١٤]
ولا تكون الأشياء زينة إلا وهي مبثوثة فيها الحياة التي بها نماؤها وازدهارها. وهذه الزينة مستمرة على وجه الأرض منذ رآها الإنسان، واستمرارها باستمرار أنواعها وإن كان الزوال يعرض لأشخاصها فتخلفها أشخاص أخرى من نوعها. فيتضمن هذا امتنانا ببث الحياة في الموجودات الأرضية.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٥/١٤
(٢) التحرير والتنوير ١٧/١٥

٢٤٢-"ومن لوازم هذه الزينة أنها توقظ العقول إلى النظر في وجود منشئها وتسبر غور النفوس في مقدار الشكر لخالقها وجاعلها لهم، فمن موف بحق الشكر، ومقصر فيه وجاحد كافر بنعمة هذا المنعم ناسب إياها إلى غير موجدها. ومن لوازمها أيضا أنها تثير الشهوات لاقتطافها وتناولها فتستشار من ذلك مختلف الكيفيات في تناولها وتعارض الشهوات في الاستيثار بها مما يفضي إلى تغالب الناس بعضهم بعضا واعتداء بعضهم على بعض. وذلك الذي أوجد حاجتهم إلى الشرائع لتضبط لهم أحوال معاملاتهم، ولذلك علل جعل ما على الأرض زينة بقوله: ﴿لنبلوهم أيهم أحسن عملا﴾ ، أي أفوت في حسن من عمل القلب الراجع إلى الإيمان والكفر، وعمل الجسد المتبدي في الامتثال للحق والحيدة عنه.

فمجموع الناس متفاوتون في حسن العمل. ومن درجات التفاوت في هذا الحسن تعلم بطريق الفحوى درجة انعدام الحسن من أصله وهي حالة الكفر وسوء العمل، كما جاء في حديث "مثل المنافق الذي يقرأ القرآن ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن..." .

والبلو: الاختبار والتجربة. وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت﴾ في سورة يونس[٣٠]. وهو هنا مستعار لتعلق علم الله التنجيزي بالمعلوم عند حصوله بقرينة الأدلة العقلية والسمعية الدالة على إحاطة علم الله بكل شيء قبل وقوعه فهو مستغن عن الاختبار والتجربة. وفائدة هذه الاستعارة **الانتقال** منها إلى الكناية عن ظهور ذلك لكل الناس حتى لا يلتبس عليهم الصالح بضده. وهو كقول قيس بن الخطيم:

واقبلت والخطى يخطر بيننا

لأعلم من جبانها من شجاعها

وقوله ﴿وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا﴾ تكميل للعبرة وتحقيق لفناء العالم. فقوله: ﴿جاعلون﴾ اسم فاعل مراد به المستقبل، أي سنجعل ما على الأرض كله معدوما فلا يكون على الأرض إلا تراب جاف أجرد لا يصلح للحياة فوقه وذلك هو فناء العالم، قال تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾ [ابراهيم: ٤٨]

والصعيد: التراب. والجرز: القاحل الأجود. وسيأتي بيان معنى الصعيد عند قوله: ﴿فتصبح صعيدا زلقا﴾ [الكهف: ٤٠] في هذه السورة.

[٩] ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا﴾

﴿أم﴾ للإضراب **الانتقالي** من غرض إلى غرض. ولما كان هذا من المقاصد التي". (١)

٢٤٣-"أنزلت السورة لبيانها لم يكن هذا **الانتقال** اقتضابا بل هو **كالانتقال** من الديباجة والمقدمة إلى المقصود. على أن مناسبة **الانتقال** إليه تتصل بقوله تعالى: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ [الكهف: ٦]، إذ كان مما صرف المشركين عن الإيمان إحالتهم الإحياء بعد الموت، فكان ذكر أهل الكهف وبعثهم بعد خمودهم سنين طويلة مثالا لإمكان البعث.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/١٨

و ﴿أم﴾ هذه هي ﴿أم﴾ المنقطعة بمعنى ﴿بل﴾، وهي ملازمة لتقدير الاستفهام معها. يقدر بعدها حرف استفهام، وقد يكون ظاهرا بعدها كقول أفنون التغلبي:

أني جزوا عامرا سوءا بضعته

أم كيف يجزونني السوأى عن الحسن

والاستفهام المقدر بعد ﴿أم﴾ تعجيبي مثل الذي في البيت.

والتقدير هنا: أحسبت أن أصحاب الكهف كانوا عجبا من بين آياتنا،أي أعجب من بقية آياتنا، فإن إماتة الأحياء بعد حياتهم من عجب إنامة أهل الكهف، لأن في إنامتهم إبقاء للحياة في أجسامهم وليس في إماتة الأحياء إبقاء لشيء من الحياة فيهم على كثرتهم وانتشارهم. وهذا تعريض بغفلة الذين طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم بيان قصة أهل الكهف لاستعلام ما فيها من العجب، بأنهم سألوا عن عجيب وكفروا بما هو أعجب، وهو انقراض العالم، فإنهم كانوا يعرضون عن ذكر فناء العالم ويقولون: ﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحياوما يهلكنا إلا الدهر﴾ [الجاثية: ٢٤]. أي إن الحياة إلا حياتنا الدنيا لا حياة الآخرة وأن الدهر يهلكنا وهو باق.

وفيه لفت لعقول السائلين عن الاشتغال بعجائب القصص إلى أن الأولى لهم الاتعاظ بما فيها من العبر والأسباب وآثارها.

ولذلك ابتدئ ذكر أحوالهم بقوله: ﴿إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا﴾ [الكهف:١٠]، فأعلم الناس بثبات إيمانهم بالله ورجائهم فيه، وبقوله: ﴿إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾ [الكهف: ١٣] الآيات.. الدال على أنهم أبطلوا الشرك وسفهوا أهله تعريضا بأن حق السامعين أن يقتدوا بهداهم.

والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد: قومه الذين سألوا عن القصة، وأهل الكتاب الذين أغروهم بالسؤال عنها وتطلب بيانها. ويظهر أن الذين لقنوا قريشا السؤال عن أهل الكهف". (١)

٢٤٤-"﴿وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾

عطف على بقية القصة، وما بينهما اعتراض. والخطاب فيه كالخطاب في قوله: ﴿وترى الشمس﴾ [الكهف: ١٧]. وهذا **انتقال** إلى ما في حالهم من العبوة لمن لو رآهم من الناس مدمج فيه بيان كرامتهم وعظيم قدرة الله في شانهم، وهو تعجيب من حالهم لمن رآه من الناس.

ومعنى حسبانهم أيقاظا: أنهم في حالة تشبه حال اليقظة وتخالف حال النوم، فقيل: كانت أعينهم مفتوحة.

وصيغ فعل ﴿تحسبهم﴾ مضارعا للدلالة على أن ذلك يتكرر مدة طويلة.

والأيقاظ: جمع يقظ. بوزن كتف، وبضم القاف بوزن عضد.

والرقود: جمع راقد.

والتقليب: تغيير وضع الشيء من ظاهره إلى باطنه، قال تعالى: ﴿فأصبح يقلب كفيه﴾ [الكهف: ٤٢].

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/١٥

و ﴿ذات اليمين وذات الشمال﴾ أي إلى جهة أيمانهم وشمائلهم. والمعنى: أن الله أجرى عليهم حال الأحياء الأيقاظ فجعلهم تتغير أوضاعهم من أيمانهم إلى شمائلهم والعكس. وذلك لحكمة لعل لها أثرا في بقاء أجسامهم بحالة سلامة.

والإتيان بالمضارع للدلالة على التجدد بحسب الزمن المحكي. ولا يلزم أن يكونوا كذلك حين نزول الآية.

﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾

هذا يدل على أن تقليبهم لليمين وللشمال كرامة لهم بمنحهم حالة الأحياء وعناية بهم، ولذلك لم يذكر التقليب لكلبهم بل استمر في مكانه باسطا ذراعيه شأن جلسة الكلب.

والوصيد: مدخل الكهف، شبه بالباب الذي هو الوصيد لأنه يوصد ويغلق.

وعدم تقليب الكلب عن يمينه وشماله يدل على أن تقليبهم ليس من أسباب سلامتهم من البلى وإلا لكان كلبهم مثلهم فيه بل هو كرامة لهم. وقد يقال: إنهم لم يفنوا وأما كلبهم ففني وصار رمة مبسوطة عظام ذراعيه.". (١)

٢٤٥-"الحال من الضمير المنصوب في ﴿حشرناهم﴾ ، أي حشرناهم وقد عرضوا تنبيها على سرعة عرضهم في حين حشرهم.

وعدل عن الإضمار إلى التعريف بالإضافة في قوله: ﴿على ربك﴾ دون أن يقال علينا لتضمن الإضافة تنويها بشأن المضاف إليه بأن في هذا العرض وما فيه من التهديد نصيبا من الانتصار للمخاطب إذ كذبوه حين أخبرهم وأنذرهم بالبعث.

وجملة ﴿لقد جئتمونا﴾ مقول لقول محذوف دل عليه أن الجملة خطاب للمعروضين فتهين تقدير القول. وهذه الجملة في محل الحال. والتقدير: قائلين لهم لقد جئتمونا. وذلك بإسماعهم هذا الكلام من جانب الله تعالى وهم يعلمون أنه من جانب الله تعالى. والخطاب في قوله: ﴿لقد جئتمونا﴾ موجه إلى معاد ضمير ﴿عرضوا﴾ .

والخبر في قوله: ﴿لقد جئتمونا﴾ مستعمل في التهديد والتغليظ والتنديم على إنكارهم البعث. والمجيء: مجاز في الحضور، شبهوا حين موتهم بالغائبين وشبهت حياتهم بعد الموت بمجيء الغائب.

وقوله: ﴿كما خلقناكم أول مرة﴾ واقع موقع المفعول المطلق المفيد للمشابهة، أي جئتمونا مجيئا كخلقكم أول مرة. فالخلق الثاني أشبه الخلق الأول، أي فهذا خلق ثان. و ﴿ما﴾ مصدرية، أي كخلقنا إياكم المرة الأولى، قال تعالى: ﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد﴾ [ق:١٥]. والمقصود التعريض بخطئهم في إنكارهم البعث.

والإضراب في قوله: ﴿بل زعمتم ألن نجعل لكم موعدا﴾ **انتقال** من التهديد وما معه من التعريض بالتغليظ إلى التصريح بالتغليظ في قالب الإنكار؛ فالخبر مستعمل في التغليظ مجازا وليس مستعملا في إفادة مدلوله الأصلي.

والزعم: الاعتقاد المخطئ، أو الخبر المعرض للكذب. والموعد أصله: وقت الوعد بشئ أو مكان الوعد. وهو هنا الزمن الموعود به الحياة بعد الموت.

والمعنى: أنكم اعتقدتم باطلا أن لا يكون لكم موعد للبعث بعد الموت أبدا.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٦/١٥

[٤٩] ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا﴾". (١)

٢٤٦-"والمراد ب ﴿المضلين﴾ الشياطين، لأنهم أضلوا الناس بإلقاء خواطر الضلالة والفساد في النفوس، كما قال تعالى: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ [الأنعام: ١٢١].

وجملة ﴿وما كنت متخذ المضلين عضدا﴾ تذييل لجملة ﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض﴾ .

والعدول عن الإضمار بأن يقال: وما كنت متخذهم إلى ﴿المضلين﴾ لإفادة الذم، ولأن التذييل ينبغي أن يكون كلاما مستقلا.

والعضد بفتح العين وضم الضاد المعجمة في الأفصح، و بالفتح وسكون الضاد في لغة تميم. وفيه لغات أخرى أضعف. ونسب ابن عطية أن أبا عمرو قراه بضم العين وضم الضاد على أنها لغة في عضد وهي رواية هارون عن أبي عمرو وليست مشهورة. وهو: العظم الذي بين المرفق والكتف. وهو يطلق مجازا على المعين على العمل، يقال: فلان عضدي واعتضدت به.

والمعنى: لا يليق بالكمال الإلهي أن أتخذ أهل الإضلال أعوانا فأشركهم في تصرفي في الإنشاء، فإن الله مفيض الهداية وواهب الدراية فكيف يكون أعوانه مصادر الضلالة، أي لا يعين المعين إلا على عمل أمثاله، ولا يكون إلا قرينا لأشكاله.

[٥٢] ﴿ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا﴾

عطف على جملة ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ فيقدر: واذكر يوم يقول نادوا شركائي، أو على جملة ﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض﴾ [الكهف: ٥١] فالتقدير: ولا أشهدت شركاءهم جميعا ولا تنفعهم شركاؤهم يوم الحشر، فهو **انتقال** من إبطال معبودية الشيطان والجن إلى إبطال إلهية جميع الآلهة التي عبدها دهماء المشركين مع بيان ما يعتريهم من الخيبة واليأس يومئذ. وقد سلك في إبطال إلهيتها طريق المذهب الكلامي وهو الاستدلال على انتفاء الماهية بانتفاء لوازمها، فإنه إذا انتفى نفعها للذين يعبدونها استلزم ذلك انتفاء إلهيتها، وحصل بذلك تشخيص خيبتهم ويأسهم من النجاة.". (٢)

٢٤٧-"وفي هذه الحالة عبرة من اختلاف الأمم في الطبائع والعوائد وسيرتهم على نحو مناخهم.

[٩١] ﴿كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا﴾ .

﴿كذلك﴾ .

الكاف للتشبيه، والمشبه به شيء تضمنه الكلام السابق بلفظة أو معناه.

والكاف ومجرورها يجوز أن يكون شبه جملة وقع صفة لمصدر محذوف يدل عليه السياق، أي تشبيها مماثلا لما سمعت.

---

(١) التحرير والتنوير ٨٠/١٥

(٢) التحرير والتنوير ٨٦/١٥

واسم الإشارة يشير إلى المحذوف لأنه كالمذكور لتقرر العلم به، والمعنى: من أراد تشبيهه لم يشبهه بأكثر من أن يشبهه بذاته على طريقة ما تقدم في قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ [البقرة: ١٤٣] في سورة البقرة.

ويجوز أن يكون جزء جملة حذف أحد جزأيها والمحذوف مبتدأ. والتقدير:أمر ذي القرنين كذلك، أي كما سمعت.

ويجوز أن يكون صفة ل ﴿قوما﴾ أي قوما كذلك القوم الذين وجدهم في مغرب الشمس، أي في كونهم كفارا، وفي تخييره في إجراء أمرهم على العقاب أو على الإمهال. ويجوز أن يكون المجرور جزء جملة أيضا جلبت **للانتقال** من كلام إلى كلام فيكون فصل خطاب كما يقال: هذا الأمر كذا.

وعلى الوجوه كلها فهو اعتراض بين جملة ﴿ثم أتبع سببا حتى إذا بلغ مطلع الشمس﴾ الخ وجملة ﴿ثم أتبع سببا حتى إذا بلغ بين السدين﴾ [الكهف: ٩٣,٩٢] الخ...

﴿ وقد أحطنا بما لديه خبرا﴾

هذه الجملة حال من الضمير المرفوع في ﴿ثم أتبع﴾ .

و ﴿بما لديه﴾ : ما عنده من عظمة الملك من جند وقوة وثروة.

والخبر بضم الخاء وسكون الموحدة: العلم والإحاطة بالخبر. كناية عن كون المعلوم عظيما بحيث لا يحيط به علما إلا علام الغيوب.

[٩٢-٩٨] ﴿ثم أتبع سببا حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا". (١)

٢٤٨-"الحديث أن الفردوس أعلى الجنة أو وسط الجنة. وذلك إطلاق آخر على هذا المكان المخصوص يرجع إلى أنه علم بالغلبة.

فإن حملت هذه الآية عليه كانت إضافة ﴿جنات﴾ إلى ﴿الفردوس﴾ إضافة حقيقية، أي جناب هذا المكان.

والنزل تقدم قريبا.

وقوله: ﴿لا يبغون عنها حولا﴾ أي ليس بعدما حوته تلك الجنات من ضروب اللذات والتمتع ما تتطلع النفوس إليه فتود مفارقة ما هي فيه إلى ما هو خير منه. أي هم يجدون فيها كل ما يخامر أنفسهم من المشتهى.

والحول: مصدر بوزن العوج والصغر. وحرف العلة يصحح في هذه الضيغة لكن الغالب فيما كان على هذه الزنة مصدرا التصحيح مثل: الحول، وفيما كان منها جمعا الإعلال نحو: الحيل جمع حيلة. وهو من ذوات الواو مشتق من التحول.

[١٠٩] ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا﴾ .

لما ابتدئت هذه السورة بالتنويه بشأن القرآن ثم أفيض فيها من أفانين الإرشاد والإنذار والوعد والوعيد، وذكر فيها من أحسن القصص ما فيه غيره وموعظة، وما هو خفي من أحوال الأمم، حول الكلام إلى الإيذان بأن كل ذلك قليل من عظيم علم الله تعالى.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/١٣٠

فهذا استئناف ابتدائي وهو **انتقال** إلى التنويه بعلم الله تعالى مفيض العلم على رسوله صلى الله عليه وسلم لأن المشركين لما سألوه عن أشياء يظنونها مفحمة للرسول وأن لا قبل له بعلمها علمه الله إياها، وأخبر عنها أصدق خبر، وبينها بأقصى ما تقبله أفهامهم وبما يقصر عنه علم الذين أغروا المشركين بالسؤال عنها، وكان آخرها خبر ذي القرنين، أتبع ذلك بما يعلم منه سعة علم الله تعالى وسعة ما يجري على وفق علمه من الوحي إذا أراد إبلاغ بعض ما في علمه إلى أحد من رسله. وفي هذا رد عجز السورة على صدرها.

وقيل: نزلت لأجل قول اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تقول، أي في سورة الإسراء ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ [الاسراء: ٨٥] وقد أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرا". (١)

٢٤٩-"والعتي بضم العين في قراءة الجمهور: مصدر عتا العود إذا يبس، وهو بوزن فعول أصله عتوو، والقياس فيه أن تصحح الواو لأنها إثر ضمة ولكنهم لما استقلوا توالي ضمتين بعدهما وأوان وهما بمنزلة ضمتين تخلصوا من ذلك الثقل بإبدال ضمة العين كسرة ثم قلبوا الواو الأولى ياء لوقوعها ساكنة إثر كسرة فلما قلبت ياء اجتمعت تلك الياء مع الواو التي هي لام. وكأنهم ما كسروا التاء في عتي بمعنى اليبس إلا لدفع الالتباس بينه وبين العتو الذي هو الطغيان فلا موجب لطلب تخفيف أحدهما دون الآخر.

شبه عظامه بالأعواد اليابسة على طريقة السكنية، وإثبات وصف العتي لها استعارة تخييلية.

[٩] ﴿قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا﴾

فصلت جملة ﴿قال كذلك﴾ لأنها جرت على طريقة المحاورة وهي جواب عن تعجبه. والمقصود منه إبطال التعجب الذي في قوله: ﴿وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا﴾ . فضمير ﴿قال﴾ عائد إلى الرب من قوله ﴿قال رب أنى يكون لي غلام﴾ [مريم: ٨].

والإشارة في قوله: ﴿كذلك﴾ إلى قول زكريا: ﴿وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا﴾ والجار والمجرور مفعول لفعل ﴿قال ربك﴾ ، أي كذلك الحال من كبرك وعقر امرأتك قدر ربك، ففعل ﴿قال ربك﴾ مراد به القول التكويني، أي التقديري، أي تعلق الإرادة والقدرة. والمقصود من تقديره التمهيد لإبطال التعجب الدال عليه قوله: ﴿هو علي هين﴾ [مريم: من الآية٩] فجملة ﴿هو علي هين﴾ [مريم: من الآية٩] استئناف بياني جوابا لسؤال ناشئ عن قوله: ﴿كذلك﴾ لأن تقرير منشأ التعجب يثير ترقب السامع أن يعرف ما يبطل ذلك التعجب المقرر، وذلك كونه هينا في جانب قدرة الله تعالى العظيمة.

ويجوز أن يكون المشار إليه بقول: ﴿كذلك﴾ هو القول المأخوذ من ﴿قال ربك﴾ ، أي أن قول ربك: ﴿هو علي هين﴾ بلغ غاية الوضوح في بابه بحيث لا يبين بأكثر ما علمت، فيكون جاريا على طريقة التشبيه كقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ [البقرة: من الآية١٤٣]، وقد تقدم في سورة البقرة. وعلى هذا الاحتمال فجملة ﴿هو علي هين﴾ [مريم: من

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٥/١٥

الآية٩] تعليل لإبطال التعجب إبطالا مستفادا من قوله: ﴿كذلك قال ربك﴾ ، ويكون **الانتقال** من الغيبة في قوله". (١)

٢٥٠-"وفسر أيضا ﴿سويا﴾ بأنه حال من ضمير المخاطب، أي حال كونك سويا، أي بدون عاهة الخرس والبكم. ولكنها آية لك اقتضتها الحكمة، التي بيناها في سورة آل عمران. وعلى هذا فذكر الوصف لمجرد تأكيد الطمأنينة، ولألا فإن تأجيله بثلاث ليال كاف في الاطمئنان على انتفاء العاهة.

[١١] ﴿فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا﴾

الظاهر أن المعنى أنه خرج على قومه ليصلي على عادته،فكان في محرابه في صلاة خاصة ودعاء خفي، ثم خرج لصلاة الجماعة إذ هو الحبر الأعظم لهم.

وضمن ﴿خرج﴾ معنى ﴿طلع﴾ فعدي ب ﴿على﴾ كقوله تعالى ﴿فخرج على قومه في زينته﴾ [القصص: من الآية٧٩].

والمحراب: بيت أو محتجر يخصص للعبادة الخاصة. قال الحريري: فمحرابي أحرى بي.

والوحي: الإشارة بالعين أو بغيرها، والإيماء لإفادة معنى شأنه أن يفاد بالكلام.

و [أن] تفسيرية. وجملة ﴿سبحوا بكرة وعشيا﴾ تفسير ل ﴿أوحى﴾، لأن [أوحى] فيه معنى القول دون حروفه.

وإنما أمرهم بالتسبيح لئلا يحسبوا أن زكريا لما لم يكلمهم قد نذر صمتا فيقتدوا به فيصمتوا، وكان الصمت من صنوف العبادة في الأمم السالفة. كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا﴾ [مريم: من الآية٢٦].

فأومأ إليهم أن يشرعوا فيما اعتادوه من التسبيح، أو أراد أن يسبحوا الله تسبيح شكر على أن وهب نبيهم ابنا يرث علمه. ولعلهم كانوا علموا ترقبه استجابة دعوته، أو أنه أمرهم بذلك أمرا مبهما يفسره عندما تزول حبسة لسانه.

[١٢- ١٤] ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا * وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا * وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا﴾

مقول قول محذوف، بقرينة أن هذا الكلام خطاب ليحيى، فلا محالة أنه صادر من قائل، ولا يناسب إلا أن يكون قولا من الله تعالى، وهو **انتقال** من البشارة به إلى نبوءته. والأظهر أن هذا من إخبار القرآن للأمة لا من حكاية ما قيل لزكريا. فهذا ابتداء ذكر". (٢)

٢٥١-"ومعنى ﴿وهم لا يؤمنون﴾ استمرار عدم إيمانهم إلى حلول قضاء الأمر يوم الحسرة. فاختيار صيغة المضارع فيه دون صيغة اسم الفاعل لما يدل عليه المضارع من استمرار الفعل وقتا فوقتا استحضارا لذلك الاستمرار العجيب في طوله وتمكنه.

[٤٠] ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/١٦

(٢) التحرير والتنوير ١٧/١٦

تذييل لختم القصة على عادة القرآن في تذييل الأغراض عند **الانتقال** منها إلى غيرها. والكلام موجه إلى المشركين لإبلاغه إليهم.

وضمير ﴿يرجعون﴾ عائد إلى ﴿من عليها﴾ وإلى ما عاد إليه ضمير الغيبة في ﴿وأنذرهم﴾

وحقيقة الإرث: مصير مال الميت إلى من يبقى بعده. وهو هنا مجاز في تمحض التصرف في الشيء دون مشارك، فإن الأرض كانت في تصرف سكانها من الإنسان والحيوان كل بما يناسبه. فإذا هلك الناس والحيوان فقد صاروا في باطن الأرض وصارت الأرض في غير تصرفهم فلم يبق تصرف فيها إلا لخالقها، وهو تصرف كان في ظاهر الأمر مشتركا بمقدار ما خولهم الله التصرف فيها إلى أجل معلوم، فصار الجميع في محض تصرف الله، ومن جملة ذلك تصرفه بالجزاء.

وتأكيد جملة ﴿إنا نحن نرث الأرض﴾ بحرف التوكيد لدفع الشك لأن المشركين ينكرون الجزاء، فهم ينكرون أن الله يرث الأرض ومن عليها بهذا المعنى.

وأما ضمير الفصل في قوله: ﴿نحن نرث الأرض﴾ فهو لمجرد التأكيد ولا يفيد تخصيصا، إذ لا يفيد رد اعتقاد مخالف لذلك. وظهر لي: أن مجيء ضمير الفصل لمجرد التأكيد كثير إذا وقع ضمير الفصل بعد ضمير آخر نحو قوله ﴿إنني أنا الله﴾ طه: من الآية١٤] في سورة طه. وقوله: ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ في سورة يوسف [٣٧].

وأفاد هذا التذييل التعريف بتهديد المشركين بأنهم لا مفر لهم من الكون في قبضة الرب الواحد الذي أشركوا بعبادته بعض ما على الأرض، وأن آلهتهم ليست بمرجوة لنفعهم إذ ما هي إلا مما يرثه الله.". (١)

٢٥٢-"وجملة ﴿تلك الجنة﴾ مستأنفة ابتدائية، واسم الإشارة لزيادة التمييز تنويها بشأنها وأجريت عليها الصفة بالموصول وصلته تنويها بالمتقين وأنهم أهل الجنة كما قال تعالى: ﴿أعدت للمتقين﴾ .

و ﴿نورث﴾ نجعل وارثا، أي نعطي الإرث. وحقيقة الإرث: **انتقال** مال القريب إلى قريبه بعد موته لأنه أولى الناس بماله فهو **انتقال** مقيد بحالة. واستعير هنا للعطية المدخرة لمعطاها، تشبيها بمال لموروث الذي يصير إلى وارثه آخر الأمر.

وقرأ الجمهور ﴿نورث﴾ بسكون الواو بعد الضمة وتخفيف الراء. وقرأه رويس عن يعقوب: نورث بفتح الواو وتشديد الراء من ورثه المضاعف.

[٦٤] ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا﴾

موقع هذه الآية هنا غريب. فقال جمهور المفسرين: إن سبب نزولها أن جبريل عليه السلام أبطأ أياما عن النزول إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأن النبي ود أن تكون زيارة جبريل له أكثر مما هو يزوره فقال لجبريل: ألا تزورنا أكثر مما تزورنا، فنزلت ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك﴾ إلى آخر الآية، أي إلى قوله: ﴿نسيا﴾ ، رواه البخاري والترمذي عن ابن عباس. وظاهره أنه رواية وهو أصح ما روي في سبب نزولها وأليقه بموقعها هنا. ولا يلتفت إلى غيره من الأقوال في سبب نزولها.

والمعنى: أن الله أمر جبريل عليه السلام أن يقول هذا الكلام جوابا عنه، فالنظم نظم القرآن بتقدير: وقل ما نتنزل إلا بأمر

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/٤٢

ربك، أي قل يا جبريل، فكان هذا خطابا لجبريل ليبلغه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قرآنا. فالواو عاطفة فعل القول المحذوف على الكلام الذي قبله عطف قصة على قصة مع اختلاف المخاطب، وأمر الله رسوله أن يقرأها هنا، ولأنها نزلت لتكون من القرآن.

ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك لجبريل عليه السلام عند انتهاء قصص الأنبياء في هذه السورة فأثبتت الآية في الموضع الذي بلغ إليه نزول القرآن.

والضمير لجبريل والملائكة، أعلم الله نبيه على لسان جبريل أن نزول الملائكة لا يقع إلا عن أمر الله تعالى وليس لهم اختيار في النزول ولقاء الرسل، قال تعالى: ﴿لا". (١)

٢٥٣-"أثقل صلاة على المنافقين" . فلذلك لما أمر الله رسوله بالصبر على العبادة كلها وفيها أصناف جمة تحتاج إلى ثبات العزيمة، نزل القائم بالعبادة منزلة المغالب لنفسه، فعدي الفعل باللام كما يقال: اثبت لعداتك.

وجملة ﴿هل تعلم له سميا﴾ واقعة موقع التعليل للأمر بعبادته والاصطبار عليها.

والسمي هنا الأحسن أن يكون بمعنى المسامي، أي المماثل في شؤونه كلها. فعن ابن عباس أنه فسره بالنظير، مأخوذا من المساماة فهو فعيل بمعنى فاعل، لكنه أخذ من المزيد كقول عمرو بن معد يكرب:

أمن ريحانة الداعي السمي

أي المسمع. وكما سمي تعالى ﴿الحكيم﴾، أي المحكم للأمور، فالسمي هنا بمعنى المماثل في الصفات بحيث تكون المماثلة في الصفات كالمساماة.

والاستفهام إنكاري، أي لا مسامي لله تعالى، أي ليس من يساميه، أي يضاهيه، موجودا.

وقيل السمي: المماثل في الاسم، كقوله في ذكر يحيى ﴿لم نجعل له من قبل سميا﴾ . والمعنى: لا تعلم له مماثلا في اسمه الله فإن المشركين لم يسموا شيئا من أصنامهم الله باللام وإنما يقولون للواحد منها إله، فانتفاء تسمية غيره من الموجودات المعظمة باسمه كناية عن إتراف الناس بأن لا مماثل له في صفة الخالقية، لأن المشركين لم يجترئوا على أن يدعوا لآلهتهم الخالقية قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾ . وبذلك يتم كون الجملة تعليلا للأمر بإفراده بالعبادة على هذا الوجه أيضا.

وكني بانتفاء العلم بسميه عن انتفاء وجود سمي له، لأن العلم يستلزم وجود المعلوم، وإذا انتفى مماثلة انتفى من يستحق العبادة غيره.

[٦٦-٧٦] ﴿ويقول الأنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا * أولا يذكر الأنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا﴾ .

لما تضمن قوله: ﴿فاعبده واصطبر لعبادته﴾ إبطال عقيدة الإشراك به ناسب **الانتقال** إلى إبطال أثر من آثار الشرك، وهو

---

(١) التحرير والتنوير ٦٢/١٦

نفي المشركين وقوع البعث بعد الموت حتى". (١)

٢٥٤-"لتجزي كل نفس بما تسعى، ثم فرع عليه النهي عن أن يصده عنها من لا يؤمن بها، ثم فرع على النهي أنه إن ارتكب ما نهي عنه هلك وخسر.

[١٧ – ٢١] ﴿وما تلك بيمينك يا موسى * قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى * قال ألقها يا موسى * فألقاها فإذا هي حية تسعى * قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾

بقية ما نودي به موسى. والجملة معطوفة على الجمل قبلها **انتقالا** إلى محاورة أراد الله منها أن يري موسى كيفية الاستدلال على المرسل إليهم بالمعجزة العظيمة، هي انقلاب العصا حية تأكل الحيات التي يظهرونها.

وإبراز انقلاب العصا حية في خلال المحاورة لقصد تثبيت موسى، ودفع الشك عن أن يتطرقه لو أمره بذلك دون تجربة لأن مشاهد الخوارق تسارع بالنفس بادئ ذي بدء إلى تأويلها وتدخل عليها الشك في إمكان استتار المعتاد بساتر خفي أو تخييل، فلذلك ابتدئ بسؤاله عما بيده ليوقن أنه ممسك بعصاه حتى إذا انقلبت حية لم يشك في أن تلك الحية هي التي كانت عصاه. فالاستفهام مستعمل في تحقيق حقيقة المسؤول عنه.

والقصد من ذلك زيادة اطمئنان قلبه بأنه في مقام الاصطفاء، وأن الكلام الذي سمعه كلام من قبل الله بدون واسطة متكلم معتاد ولا في صورة المعتاد، كما دل عليه قوله بعد ذلك: ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾ [طه: ٢٣].

فظاهر الاستفهام أنه سؤال عن شيء أشير إليه، وبينت الإشارة بالظرف المستقر وهو قوله: ﴿بيمينك﴾ ، ووقع الظرف حالا من اسم الإشارة، أي ما تلك حال كونها بيمينك؟.

ففي هذا إيماء إلى أن السؤال عن أمر غريب في شأنها، ولذلك أجاب موسى عن هذا الاستفهام ببيان ماهية المسؤول عنه جريا على الظاهر، وببيان بعض منافعها استقصاء لمراد السائل أن يكون قد سأل عن وجه اتخاذه العصا بيده لأن شأن الواضحات أن لا يسأل عنها إلا والسائل يريد من سؤاله أمرا غير ظاهر، ولذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع: "أي يوم هذا؟ سكت الناس وظنوا أنه سيسميه بغير اسمه. وفي رواية أنهم قالوا: "الله ورسوله أعلم. فقال: أليس يوم الجمعة؟.." إلى آخره.

فابتدأ موسى ببيان الماهية بأسلوب يؤذن بانكشاف حقيقة المسؤول عنه، وتوقع أن". (٢)

٢٥٥-"ذلك أنه يبلغ أخاه أن الله أمره بمرافقته، لأن هارون لم يكن حاضرا حين كلم الله موسى في البقعة المباركة من الشجرة. ولأنه لم يكن الوقت وقت الشروع في الذهاب إلى فرعون، فتعين أن الأمر لطلب حصول الذهاب المستقبل عند الوصول إلى مصر بلد فرعون وعند لقائه أخاه هارون وإبلاغه أمر الله إياه، فقرينة عدم إرادة الفور هنا قائمة.

---

(١) التحرير والتنوير ٦٥/١٦

(٢) التحرير والتنوير ١٠٩/١٦

والباء للمصاحبة لقصد تطين موسى بأنه سيكون مصاحبا لآيات الله، أي الدلائل التي تدل على صدقة لدى فرعون.
ومعنى ﴿ولا تنيا﴾ لا تضعفا. يقال: ونى يني ونى، أي ضعف في العمل أي لا تن أنت وأبلغ هارون أن لا يني، فصيغة النهي مستعملة في حقيقتها ومجازها.

[٤٣-٤٤] ﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾

يجوز أن يكون **انتقال** إلى خطاب موسى وهارون. فيقتضي أن هارون كان حاضرا لهذا الخطاب. وهو ظاهر قوله بعده ﴿قالا ربنا إننا نخاف﴾ . وكان حضور هارون عند موسى بوحي من الله أوحاه إلى هارون في أرض جاسان حيث منازل بني إسرائيل من أرض قرب طيبة. قال في التوراة وفي الإصحاح الرابع من سفر الخروج وقال أي الله هاهو هارون خارجا لاستقبالك فتكلمه أيضا. وفيه أيضا وقال الرب لهارون اذهب إلى البرية لاستقبال موسى فذهب والتقيا في جبل الله أي جبل حوريب، فيكون قد طوي ما حدث بين تكليم الله تعالى موسى في الوادي عند النار وما بين وصول موسى مع أهله إلى جبل حوريب في طريقه إلى أرض مصر، ويكون قوله ﴿قالا ربنا إننا نخاف﴾ الخ، جوابا عن قول الله تعالى لهما ﴿اذهب إلى فرعون﴾ ، الخ. ويكون فصل جملة ﴿قالا ربنا إننا نخاف﴾ الخ.. لوقوعها في أسلوب المحاورة.
ويجوز أن تكون جملة ﴿اذهبا إلى فرعون﴾ بدلا من جملة ﴿اذهب أنت وأخوك﴾ فيكون قوله ﴿اذهبا﴾ أمرا لموسى بأن يذهب وأن يأمر أخاه بالذهاب معه وهارون غائب. وهذا أنسب لسياق الجمل. وتكون جملة ﴿قالا ربنا إننا نخاف﴾ مستأنفة استئنافا ابتدائيا، وقد طوى ما بين خطاب الله موسى وما بين حكاية ﴿قالا ربنا إننا نخاف﴾ الخ. والتقدير: فذهب موسى ولقي أخاه هارون، وأبلغه أمر الله له بما أمره، فقالا ربنا إننا نخاف الخ.". (١)

٢٥٦-"وهنا انتهى تكليم الله تعالى موسى عليه السلام.

[٤٥-٤٨] ﴿قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى * قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى * فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى * إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى﴾

فصلت الجملتان لوقوعهما موقع المحاورة بين موسى مع أخيه وبين الله تعالى على كلا الوجهين اللذين ذكرناهما آنفا، أي جمعا أمرهما وعزم موسى وهارون على الذهاب إلى فرعون فناجيا ربهما ﴿قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾ ، لأن غالب التفكير في العواقب والموانع يكون عند العزم على الفعل والآخذ في التهيؤ له، ولذلك أعيد أمرهما بقوله تعالى: ﴿فأتياه﴾
و ﴿يفرط﴾ معناه يعجل ويسبق، ويقال: فرط يفرط من باب نصر. والفارط: الذي يسبق الواردة إلى الحوض للشرب. والمعنى: نخاف أن يعجل بعقابنا بالقتل أو غيره من العقوبات قبل أن نبلغه ونحجه.
والطغيان: التظاهر بالتكبر. وتقدم آنفا عند قوله: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ ، أي نخاف أن يخامره كبره فيعد ذكرنا

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٣/١٦

إلها دونه تنقيصا له وطعنا في دعواه الإلهية فيطغى، أي يصدر منه ما هو أثر الكبر من التحقير والإهانة. فذكر الطغيان بعد الفرط إشارة إلى أنهما لا يطيقان ذلك، فهو **انتقال** من الأشد إلى الأضعف لأن ﴿نخاف﴾ يؤول إلى معنى النفي. وفي النفي يذكر الأضعف بعد الأقوى بعكس الإثبات ما لم يوجد ما يقتضي عكس ذلك.

وحذف متعلق ﴿يطغى﴾ فيحتمل أن حذفه لدلالة نظيره عليه، وأوثر بالحذف لرعاية الفواصل. والتقدير: أو أن يطغي علينا. ويحتمل أن متعلقه ليس نظير المذكور قبله بل هو متعلق آخر لكون التقسيم التقديري دليلا عليه، لأنها لما ذكر متعلق ﴿يفرط علينا﴾ وكان الفرط شاملا لأنواع العقوبات حتى الإهانة بالشتم لزم أن يكون التقسيم بـ"أو" منظورا فيه إلى حالة أخرى وهي طغيانه على من لا يناله عقابه، أي أن يطغي على الله بالتنقيص كقوله،: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ [القصص: من الآية٣٨] وقوله: ﴿لعلي أطلع إلى إله موسى﴾ [القصص: من الآية٣٨]، فحذف متعلق ﴿يطغي﴾ حينئذ لتنزيهه على التصريح به في هذا المقام، والتقدير: أو أن يطغي عليك فيتصلب في كفره ويعسر صرفه عنه. وفي التحرز من ذلك". (١)

٢٥٧-"الأمر المرغوب، وإنما يطرد ذلك في عاقبة خير الآخرة. وقد تكون العاقبة في خير الدنيا أيضا للتقوى.

وهذه الجملة تذييل لما فيها من معنى العموم. أي لا تكون العاقبة إلا للتقوى. فهذه الجملة أرسلت مجرى المثل.

[١٣٣] ﴿وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى﴾

رجوع إلى التنويه بشأن القرآن، وبأنه أعظم المعجزات. وهو الغرض الذي انتقل منه إلى أغراض مناسبة من قوله ﴿وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا﴾ [طه: ١١٣]

والمناسبة في **الانتقال** هو ما تضمنه قوله ﴿فاصبر على ما يقولون﴾ [طه: ١٣٠] فجيء هنا بشنع من أقوالهم التي أمر الله رسوله بأن يصبر عليها في قوله: ﴿فاصبر على ما يقولون﴾ فمن أقوالهم التي يقصدون منها التعنت والمكابرة أن قالوا: لولا يأتينا بآية من عند ربه فتؤمن برسالته، كما قال تعالى ﴿فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ [الانبياء: ٥].

ولولا حرف تحضيض. وجملة ﴿أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى﴾ في موضع الحال، والواو للحال، أي قالوا ذلك في حال أنهم أتتهم بينة ما في الصحف الأولى. فالاستفهام إنكاري؛ أنكر به نفي إتيان آية لهم الذي اقتضاه تحضيضهم على الإتيان بآية.

والبينة: الحجة.

و ﴿الصحف الأولى﴾ : كتب الأنبياء السابقين. كقوله تعالى: ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى* صحف إبراهيم وموسى﴾ [الأعلى:١٨-١٩]

والصحف: جمع صحيفة. وهي قطعة من ورق أو كاغد أو خرقة يكتب فيها. ولما كان الكتاب مجموع صحف أطلق الصحف على الكتب.

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٥/١٦

ووجه اختيار ﴿الصحف﴾ هنا على الكتب أن في كل صحيفة من الكتب علما، وأن جميعه حواه القرآن، فكان كل جزء من القرآن آية ودليلا.". (١)

٢٥٨-"﴿بل﴾ الأولى من كلام الله تعالى إضراب **انتقال** من حكاية قول فريق منهم ﴿أفتأتون السحر وأنتم تبصرون﴾ إلى حكاية قول آخر من أقوال المشركين، وهو زعمهم أن ما يخبر عنه ويحكيه هو أحلام يراها فيحكيها، فضمير ﴿قالوا﴾ لجماعة المشركين لا لخصوص القائلين الأولين.

و ﴿بل﴾ الثانية يجوز أن تكون من الكلام المحكي عنهم وهي إضراب **انتقال** فيما يصفون به القرآن. والمعنى: بل افتراه واختلقه من غير أحلام، أي هو كلام مكذوب.

ثم انتقلوا فقالوا ﴿هو شاعر﴾ أي كلامه شعر، فحرف "بل" الثالثة إضراب منهم عن كلامهم وذلك مؤذن باضطرابهم وهذا الاضطراب ناشئ عن ترددهم مما ينتحلونه من الاعتلال عن القرآن. وذلك شأن المبطل المباهت أن يتردد في حجته كما قيل: الباطل لجلج، أي ملتبس متردد فيه.

ويجوز أن تكون "بل" الثانية والثالثة مثل "بل" الأولى **للانتقال** في حكاية أقوالهم. والتقدير: بل قالوا افتراه بل قالوا هو شاعر، وحذف فعل القول لدلالة القول الأول عليهما، وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون المحكي كلام جماعات من المشركين انتحلت كل جماعة اعتلالا.

والأضغاث: جمع ضغث بكسر الضاد، وهو الحزمة من أعواد أو عشب أو حشيش مختلط ثم أطلق على الأخلاط مطلقا كما في سورة يوسف [٤٤] ﴿قالوا أضغاث أحلام﴾ أرادوا أن ما يخبركم به من أنه أوحي إليه ومن أخبار البعث والحساب ويوم القيامة هو أحلام يراها.

وفرعوا على ترددهم أو فرع كل فريق على مقالته نتيجة واحدة وهي المطالبة أن يأتيهم بمعجزة دل على صدقة غير هذا القرآن من نوع ما يحكى عن الرسل السابقين أنهم أتوا به مثل انقلاب العصا حية.

ومن البهتان أن يسألوا الإتيان بآية يكون الادعاء بأنها سحر أروج في مثلها فإن من أشهر أعمال السحرة إظهار ما يبدو أنه خارق عادة. وقديما قال آل فرعون في معجزات موسى: إنها سحر، بخلاف آية إعجاز القرآن.

ودخلت لام الأمر على فعل الغائب لمعنى إبلاغ الأمر إليه، أي فقولوا له: ائتنا بآية. والتشبيه في قوله: ﴿كما أرسل الأولون﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿يأتنا﴾ أي". (٢)

٢٥٩-"في جميع الليل والنهار.

وتسبيح الملائكة بأصوات مخلوقة فيهم لا يعطلها تبليغ الوحي ولا غيره من الأقوال.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٩/١٦

(٢) التحرير والتنوير ١٣/١٧

والفتور: الانقطاع عن الفعل.

[٢١] ﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون﴾

"أم" هذه منقطعة عاطفة الجملة على الجملة عطف إضراب **انتقالي** هو **انتقال** من إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وحجية دلالة القرآن إلى إبطال الإشراك، **انتقالا** من بقية الغرض السابق الذي تهيأ السامع **للانتقال** منه بمقتضى التخلص، الذي في قوله تعالى: ﴿وله من في السماوات والأرض ومن عنده﴾ كما تقدم، إلى التمحض لغرض إبطال الإشراك وإبطال تعدد الآلهة. وهذا **الانتقال** وقع اعتراضا بين جملة: ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ وجملة: ﴿لا يسأل عما يفعل﴾ وليس إضراب **الانتقال** بمقتض عدم الرجوع إلى الغرض المنتقل إليه، و"أم" تؤذن بأن الكلام بعدها مسوق الاستفهام وهو استفهام إنكاري، أنكر عليه اتخاذهم آلهة.

وضمير "اتخذوا" عائد إلى المشركين المتبادرين من المقام في مثل هذه الضمائر. وله نظائر كثيرة في القرآن. ويجوز جعله التفاتا عن ضمير ﴿ولكم الويل مما تصفون﴾ ، ويجوز أن يكون متناسقا مع ضمائر ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام﴾ وما بعده.

ووصف الآلهة بأنها من الأرض تهكم بالمشركين، وإظهار لأفن رأيهم، أي جعلوا لأنفسهم آلهة من عالم الأرض أو مأخوذة من أجزاء الأرض من حجارة أو خشب تعريضا بأن ما كان مثل ذلك لا يستحق أن يكون معبودا، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿أتعبدون ما تنحتون﴾ في الصافات.

وذكر الأرض هنا مقابلة لقوله تعالى: ﴿ومن عنده﴾ لأن المراد أهل السماء، وجملة: ﴿هم ينشرون﴾ صفة ثانية لـ ﴿آلهة﴾.

واقترانها بضمير الفصل يفيد التخصيص أن لا ينشر غير تلك الآلهة.

والمراد: إنشار". (١)

٢٦٠-"انكشافا متماثلا فلا يريد أحدهما إلا ما يريده الآخر فلا يقع بينهما تمانع. ولذلك استدل في المقاصد على لزوم حصول الاختلاف بينهما بحكم اللزوم العادي.

بقي النظر في كيفية صدور الفعل عنهما فذلك **انتقال** إلى ما بنيت عليه الطريقة الأولى.

وإن احتمال اتفاق الإلهين على إرادة الأشياء إذا كانت المصلحة فيها بناء على أن الإلهين حكيمان لا تختلف إرادتهما، وإن كان احتمالا صحيحا لكن يصير به تعدد الإله عبثا لأن تعدد ولاة الأمور ما كان إلا لطلب ظهور الصواب عند اختلافهما، فإذا كانا لا يختلفان فلا فائدة في التعدد، ومن المحال بناء صفة أعلى الموجودات على ما لا أثر له في نفس الأمر. فالآية دليل قطعي.

ثم رجع عن ذلك في شرح النسفية فحقق أنها دليل إقناعي على التقديرين، وقال المحقق الخيالي إلى أنها لا تكون دليلا قطعيا إلا بالنظر إلى تحقيق معنى الظرفية من قوله تعالى: ﴿فيهما﴾ ، وعين أن تكون الظرفية ظرفية التأثير، أي لو كان مؤثر فيهما، أي السماوات والأرض غير الله تكون الآية حجة قطعية. وقد بسطه عبد الحكيم في حاشيته على الخيالي ولا حاجة بنا إلى

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/٢٨

إثبات كلامه هنا.

والاستثناء في قوله تعالى: ﴿إلا الله﴾ استثناء من أحد طرفي القضية لا من النسبة الحكيمة، أي هو استثناء من المحكوم عليه لا من الحكم. وذلك من مواقع الاستثناء لأن أصل الاستثناء هو الإخراج من المستثنى منه فالغالب أن يكون الإخراج من المستثنى باعتبار تسلط الحكم عليه قبل الاستثناء وذلك في المفرغ وفي المنصوب، وقد يكون باعتباره قبل تسلط الحكم عليه وذلك في غير المنصوب ولا المفرغ فيقال حينئذ إن "إلا" بمعنى غير والمستثنى يعرب بدلا من المستثنى منه.

وفرع على هذا الاستدلال إنشاء تنزيه الله تعالى عن المقالة التي أبطلها الدليل بقوله تعالى: ﴿فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾ أي عما يصفونه به من وجود الشريك.

وإظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار لتربية المهابة.

ووصفه هنا برب العرش للتذكير بأنه انفرد بخلق السماوات وهو شيء ينازعون فيه بل هو خالق أعظم السماوات وحاويها وهو العرش تعريضا بهم بإلزامهم لازم قولهم بانفراده بالخلق أن يلزم انتفاء الشركاء له فيما دون ذلك.". (١)

٢٦١-"[٢٣] ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾

الأظهر أن هذه الجملة حال مكملة لمدلول قوله تعالى: ﴿لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض﴾ الخ. فالمعنى أن من عنده وهم المقربون من المخلوقات هم مع قربهم يسألون عما يفعلون ولا يسألونه عما يفعل، أي لم يبلغ بهم قربهم إلى حد الإدلال عليه وانتصابهم لتعقب أفعاله. فلما كان الضمير المرفوع بالنيابة عن الفاعل مشعرا بفاعل حذف لقصد التعميم، أي لا يسأل سائل الله تعالى عما يفعل. وكان ممن يشملهم الفاعل المحذوف هم من عنده من المقربين، صح كون هذه الجملة حالا من "من عنده"، على أن جملة: ﴿لا يسأل عما يفعل﴾ تمهيد لجملة: ﴿وهم يسألون﴾.

على أن تقديمه على جملة: ﴿وهم يسألون﴾ اقتضته مناسبة الحديث عن تنزيهه تعالى عن الشركاء فكان **انتقالا** بديعا بالرجوع إلى بقية أحوال المقربين.

فالمقصود أن من عنده مع قربهم ورفعة شأنهم يحاسبهم الله على أعمالهم فهم يخافون التقصير فيما كلفوا به من الأعمال ولذلك كانوا لا يستحسرون ولا يفترون.

وبهذا تعلم أن ليس ضمير ﴿وهم يسألون﴾ براجع إلى ما رجع إليه ضمير ﴿يصفون﴾ لأن أولئك لا جدوى للإخبار بأنهم يسألون إذ لا يتردد في العلم بذلك أحد، ولا براجع إلى ﴿آلهة من الأرض﴾ لعدم صحة سؤالهم، وذلك هو ما دعانا إلى اعتبار جملة: ﴿لا يسأل عما يفعل﴾ حالا من ﴿من عنده﴾ .

والسؤال هنا بمعنى المحاسبة، وطلب بيان سبب الفعل، وإبداء المعذرة عن فعل بعض ما يفعل، وتخلص من ملام أو عتاب على ما يفعل. وهو مثل السؤال في الحديث "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته". فكونهم يسألون كناية عن العبودية لأن

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣/١٧

العبد بمظنة المؤاخذة على ما يفعل وما لا يفعل وبمظنة للخطأ في بعض ما يفعل.

وليس المقصود هنا نفي سؤال الاستشارة أو تطلب العلم كما في قوله تعالى: ﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ في البقرة، ولا سؤال الدعاء، ولا سؤال الاستفادة والاستنباط مثل أسئلة المتفقهين أو المتكلمين عن الحكم المبثوثة في الأحكام الشرعية أو في النظم الكونية لأن ذلك استنباط وتتبع وليس مباشرة بسؤال الله تعالى، ولا لتطلب". (١)

٢٦٢-"مخلص من ملام. وفي هذا إبطال لإلهية المقربين التي زعمها المشركون الذين عبدوا الملائكة وزعموهم بنات الله تعالى، بطريقة انتفاء خاصية الإله الحق عنهم إذ هم يسألون عما يفعلون وشأن الإله أن لا يسأل. وتستخرج من جملة ﴿لا يسأل عما يفعل﴾ كناية عن جريان أفعال الله تعالى على مقتضى الحكمة بحيث إنها لا مجال فيها لانتقاد منتقد إذا أتقن الناظر التدبر فيها أو كشف له عما خفي منها.

[٢٤] ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون﴾

جملة: ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة﴾ تأكيد لجملة: ﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض﴾ . أكد ذلك الإضراب **الانتقالي** بمثله استعظاما لفظاعته وليبنى عليه استدلال آخر كما بني على نظيره السابق؛ فإن الأول بني عليه دليل استحالة من طريق العقل، وهذا بني عليه دليل بطلان بشهادة الشرائع سابقها ولاحقها، فلقن الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول: ﴿هاتوا برهانكم﴾ أي، هاتوا دليلا على أن لله شركاء من شواهد الشرائع والرسل.

والبرهان: الحجة الواضحة. وتقدم في قوله تعالى: ﴿يا أيهاالناس قد جاءكم برهان من ربكم﴾ في سورة النساء.

والإشارة في قوله تعالى: ﴿هذا ذكر من معي﴾ إلى مقدر في الذهن يفسره الخبر. والمقصود من الإشارة تمييزه وإعلانه بحيث لا يستطيع المخاطب المغالطة فيه ولا في مضمونه، كقوله تعالى: ﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾ في سورة لقمان، أي أن كتب الذكر أي الكتب الدينية في متناول الناس فانظروا هل تجدون في أحد منها أن لله شركاء وأن الله أذن باتخاذهم آلهة. وإضافة ﴿ذكر﴾ إلى ﴿من معي﴾ من إضافة المصدر إلى مفعوله وهم المذكورون بفتح الكاف.

والمعية في قوله تعالى: ﴿من معي﴾ معية المتابعة، أي من معي من المسلمين، فما صدق "من" الموصولة الأمم، أي هذا ذكر الأمة التي هي معي، أي الذكر المنزل لأجلكم. فالإضافة من إضافة المصدر إلى المفعول كقوله تعالى: ﴿لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم﴾ . والمراد بقوله تعالى: ﴿هذا ذكر من معي﴾ القرآن، وأما قوله تعالى: ﴿وذكر من قبلي﴾ فمعناه ذكر الأمم الذين هم قبلي يشمل جميع الكتب السالفة المعروفة: التوراة والزبور والإنجيل وكتاب لقمان. وهذا كقوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤/١٧

(٢) التحرير والتنوير ٣٥/١٧

٢٦٣-"بأنهم يتربصون بك ريب المنون من فرط غرورهم، فالتفريع كان على ما في الجملة الأولى من القول بالموجب، أي ما هم بخالدين حتى يوقنوا أنهم يرون موتك. وفي الإنكار الذي هو في معنى النفي إنذار لهم بأنهم لا يرى موته منهم أحد.

[٣٥] ﴿كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾

جمل معترضات بين الجملتين المتعاطفتين.

ومضمون الجملة الأولى مؤكد لمضمون الجملة المعطوف عليها، وهي ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ . ووجه إعادتها اختلاف القصد فإن الأولى للرد على المشركين وهذه لتعليم المؤمنين.

واستعير الذوق لمطلق الإحساس الباطني لأن الذوق إحساس باللسان يقارنه ازدراد إلى بالباطن.

وذوق الموت ذوق آلام مقدماته وأما بعد حصوله فلا إحساس للجسد.

والمراد بالنفس النفوس الحالة في الأجساد كالإنسان والحيوان. ولا يدخل فيه الملائكة لأن إطلاق النفوس عليهم غير متعارف في العربية بل هو اصطلاح الحكماء وهو لا يطلق عندهم إلا مقيدا بوصف المجردات، أي التي لا تحل في الأجساد ولا تلابس المادة. وأما إطلاق النفس على الله تعالى فمشاكلة: إما لفظية كما في قوله تعالى: "تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك" في سورة المائدة، وإما تقديرية كما في قوله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ في آل عمران.

وجملة: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ عطف على الجملة المعترضة بمناسبة أن ذوق الموت يقتضي سبق الحياة، والحياة مدة يعتري فيها الخير والشر جميع الأحياء، فعلم الله تعالى المسلمين أن الموت مكتوب على كل نفس حتى لا يحسبوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم مخلد. وقد عرض لبعض المسلمين عارض من ذلك، ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد قال يوم **انتقال** النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى: "ليرجعن رسول الله فيقطع أيدي قوم وأرجلهم" حتى حضر أبو بكر رضي الله عنه وثبته الله في ذلك الهول فكشف عن وجه النبي صلى الله عليه وسلم وقبله وقال: طبت حيا وميتا والله لا يجمع الله عليك موتتين. وقد قال عبد بني الحسحاس وأجاد:". (١)

٢٦٤-"آلهتهم مما يسوءهم، فإن الذكر يكون بخير وبشر فإذا لم يصرح بمتعلقه يصار إلى القرينة كما هنا في قوله تعالى: الآتي ﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم﴾. وكلامهم مسوق مساق الغيظ والغضب، ولذلك أعقبه الله بجملة الحال وهي ﴿وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾، أي يغضبون من أن تذكر آلهتهم بما هو كشف لكنهها المطابق للواقع في حال غفلتهم عن ذكر الرحمان الذي هو الحقيق بأن يذكروه. فالذكر الثاني مستعمل في الذكر بالثناء والتمجيد بقرينة المقام. والأظهر أن المراد بذكر الرحمان هنا القرآن، أي الذكر الوارد من الرحمان. والمناسبة **الانتقال** من ذكر إلى ذكر. ومعنى كفرهم بذكر الرحمان إنكارهم أن يكون القرآن آية دالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فقالوا ﴿فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ . وأيضا كفرهم بما جاء به القرآن من إثبات البعث.

---

(١) التحرير والتنوير ٤٧/١٧

وعبر عن الله تعالى باسم ﴿الرحمن﴾ توركا عليهم إذ كانوا يأبون أن يكون الرحمان اسما لله تعالى ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا﴾ في سورة الفرقان.

وضمير الفصل في قوله تعالى: ﴿هم كافرون﴾ يجوز أن يفيد الحصر، أي هم كافرون بالقرآن دون غيرهم ممن أسلم من أهل مكة وغيرهم من العرب لإفادة أن هؤلاء باقون على كفرهم مع توفر الآيات والنذر.

ويجوز أن يكون الفصل لمجرد التأكيد تحقيقا لدوام كفرهم مع ظهور ما شأنه أن يقلعهم عن الكفر.

[٣٧] ﴿خلق الأنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون﴾

جملة: ﴿خلق الأنسان من عجل﴾ معترضة بين جملة: ﴿وإذا رآك الذين كفروا﴾ وبين جملة: ﴿سأريكم آياتي﴾ ، جعلت مقدمة لجملة: ﴿سأريكم آياتي﴾ . أما جملة: ﴿سأريكم آياتي﴾ فهي معترضة بين جملة: ﴿وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا﴾ وبين جملة: ﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾ ، لأن قوله تعالى: ﴿وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا﴾ يثير في نفوس المسلمين تساؤلا عن مدى إمهال المشركين، فكان قوله تعالى: ﴿سأريكم آياتي فلا تستعجلون﴾ استئنافا بيانيا جاء معترضا بين الجمل التي تحكي أقوال المشركين وما تفرع عليها. إلى المسلمين الذين كانوا يستبطئون حلول الوعيد الذي توعد الله تعالى به المكذبين.". (١)

٢٦٥-"وجملة: ﴿لا يكفون﴾ مضاف إليها ﴿حين﴾ . وضمير ﴿يكفون﴾ فيه وجهان: أحدهما بدا لي أن يكون الضمير عائد إلى ملائكة العذاب فمعاد الضمير معلوم من المقام، ونظائر هذا المعاد كثيرة في القرآن وكلام العرب. ومعنى الكف على هذا الوجه: الإمساك وهو حقيقته، أي حين لا يمسك الملائكة اللفح بالنار عن وجود المشركين. وتكون هذه الآية في معنى قوله تعالى: في سورة الأنفال ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق﴾ فإن ذلك ضرب بسياط من نار ويكون ما هنا إنذارا بما سيلقونه يوم بدر كما أن آية الأنفال حكاية لما لقوه يوم بدر.

وذكر الوجوه والأدبار للتنكيل بهم وتخويفهم لأن الوجوه أعز الأعضاء على الناس كما قال عباس بن مرداس:

نعرض للسيوف إذا التقينا ... وجوها لا تعرض للطام

ولأن الأدبار يأنف الناس من ضربها لأن ضربها إهانة وخزي، ويسمى الكسع.

والوجه الثاني: أن يكون ضمير ﴿يكفون﴾ عائدا إلى الذين كفروا، والكف بمعنى الدرء والستر مجازا بعلاقة اللزوم، أي حين لا يستطيعون أن يدفعوا النار عن وجوههم بأيديهم ولا عن ظهورهم. أي حين تحيط بهم النار مواجهة ومدابرة. وذكر الظهور بعد ذكر الوجوه عن هذا الاحتمال احتراس لدفع توهم أنهم قد يكفونها عن ظهورهم إن لم تشتغل أيديهم بكفها عن وجوههم.

هذا الوجه هو الذي اقتصر عليه جميع من لدينا كتبهم من المفسرين. والوجه الأول أرجح معنى، لأنه المناسب مناسبة تامة

---

(١) التحرير والتنوير ٤٩/١٧

للكافرين الحاضرين المقرعين ولتكذيبهم بالوعيد بالهلاك في قولهم ﴿متى هذا الوعد﴾ ولقوله تعالى: ﴿سأريكم آياتي﴾ كما تقدم.

وقوله تعالى: ﴿ولا هم ينصرون﴾ عطف على ﴿لا يكفون﴾ ، أي لا يكف عنهم نفح النار، أو لا يدفعون عن أنفسهم نفح النار ولا يجدون لهم ناصرا ينصرهم فهم واقعون في ورطة العذاب. وفي هذا إيماء إلى أنهم ستحل بهم هزيمة بدر فلا يستطيعون خلاصا منها ولا يجدون نصيرا من أحلافهم.

و ﴿بل﴾ للإضراب **الانتقالي** من تهويل ما أعد لهم، إلى التهديد بأن ذلك يحل بهم بغتة وفجأة، وهو أشد على النفوس لعدم التهيؤ له والتوطن عليه، كما قال كثير:". (١)

٢٦٦-"إلى آخرها ظاهرة.

وقد تقدم نظير هذه الآية في أوائل سورة الأنعام.

[٤٢-٤٤] ﴿قل من يكلأكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون﴾

﴿قل من يكلأكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر﴾

بعد أن سلي الرسول صلى الله عليه وسلم على استهزائهم بالوعيد أمر أن يذكرهم بأن غرورهم بالإمهال من قبل الله رحمة منه بهم كشأنه في الرحمة بمخلوقاته بأنهم إذا نزل بهم عذابه لا يجدون حافظا لهم من العذاب غيره ولا تمنعهم منه آلهتهم.والاستفهام إنكار وتقريع، أي لا يكلؤكم منه أحد فكيف تجهلون ذلك، تنبيها لهم إذ نسوا نعمه.

وذكر الليل والنهار لاستيعاب الأزمنة كأنه قيل: من يكلؤكم في جميع الأوقات.

وقدم الليل لأنه زمن المخاوف لأن الظلام يعين أسباب الضر على الوصول إلى مبتغاها من إنسان وحيوان وعلل الأجسام.

وذكر النهار بعده للاستيعاب.

ومعنى ﴿من الرحمن﴾ من بأسه وعذابه.

وجيء بعد هذا التفريع بإضرابات ثلاثة **انتقالية** على سبيل التدريج الذي هو شأن الإضراب.

فالإضراب الأول قوله تعالى: ﴿بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ ، وهو ارتقاء من التقريع المجعول للإصلاح إلى التأييس من صلاحهم بأنهم عن ذكر ربهم معرضون فلا يرجى منهم الانتفاع بالقوارع، أي أخر السؤال والتقريع واتركهم حتى إذا تورطوا

---

(١) التحرير والتنوير ٥٢/١٧

في العذاب عرفوا أن لا كالئ لهم.". (١)

٢٦٧-"بالوحي﴾ عطف استئناف على استئناف لأن التذييل من قبيل الاستئناف.

والتعريف في ﴿الصم﴾ للاستغراق. والصم مستعار لعدم الانتفاع بالكلام المفيد تشبيها لعدم الانتفاع بالمسموع بعدم ولوج الكلام صماخ المخاطب به. وتقدم في قوله تعالى: ﴿صم بكم عمي﴾ في سورة البقرة. ودخل في عمومه المشركون المعرضون عن القرآن وهم المقصود من سوق التذييل ليكون دخولهم في الحكم بطريقة الاستدلال بالعموم على الخصوص.

وتقييد عدم السماع بوقت الإعراض عند سماع الإنذار لتفظيع إعراضهم عن الإنذار لأنه إعراض يفضي بهم إلى الهلاك فهو أفظع من عدم سماع البشارة أو التحديث، ولأن التذييل مسوق عقب إنذارات كثيرة.

واختير لفظ الدعاء لأنه المطابق للغرض إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم داعيا كما قال: ﴿أدعوا إلى الله على بصيرة﴾.

والأظهر أن جملة: ﴿ولا يسمع الصم الدعاء﴾ كلام مخاطب به الرسول صلى الله عليه وسلم وليس من جملة المأمور بأن يقوله لهم.

وقرأ الجمهور ﴿ولا يسمع﴾ بتحتية في أوله ورفع ﴿الصم﴾ . وقرأه ابن عامر ﴿ولا تسمع﴾ بالتاء الفوقية المضمومة ونصب ﴿الصم﴾ خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم. وهذه القراءة نص في انفصال الجملة عن الكلام المأمور بقوله لهم.

[٤٦] ﴿ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾

عطف على جملة: ﴿قل إنما أنذركم بالوحي﴾ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، أي أنذرهم بأنهم سيندمون عندما ينالهم أول العذاب في الآخرة. وهذا **انتقال** من إنذارهم بعذاب الدنيا إلى إنذارهم بعذاب الآخرة.

وأكد الشرط بلام القسم لتحقيق وقوع الجزاء.

والمس: اتصال بظاهر الجسم.

والنفحة: المرة من الرضخ في العطية، يقال نفحه بشيء إذا أعطاه.". (٢)

٢٦٨-"وأصل الأمة: الجماعة التي حالها واحد، فأطلقت على ما تكون عليه الجماعة من الدين بقرينة أن الأمم ليست واحدة.

و ﴿أمة واحدة﴾ حال من ﴿أمتكم﴾ مؤكدة لما أفادته الإشارة التي هي العامل في صاحب الحال. وأفادت التمييز والتشخيص لحال الشرائع التي عليها الرسل أو التي دعا إليها محمد صلى الله عليه وسلم.

ومعنى كونها واحدة أنها توحد الله تعالى فليس دونه إله. وهذا حال شرائع التوحيد وبخلافها أديان الشرك فإنها لتعدد آلهتها تتشعب إلى عدة أديان لأن لكل صنم عبادة وأتباعا وإن كان يجمعها وصف الشرك فلذلك جنس عام وقد أومأ إلى هذا

---

(١) التحرير والتنوير ٥٤/١٧

(٢) التحرير والتنوير ٥٨/١٧

قوله تعالى: ﴿وأنا ربكم﴾ ، أي لا غيري. وسيأتي بسط القول في عربية هذا التركيب في تفسير سورة المؤمنين.
وأفاد قوله تعالى: ﴿وأنا ربكم﴾ الحصر، أي أنا لا غيري بقرينة السياق والعطف على ﴿أمة واحدة﴾ ، إذ المعنى: وأنا ربكم ربا واحدا، ولذلك فرع عليه الأمر بعبادته، أي فاعبدون دون غيري. وهذا الأمر مراعي فيه ابتداء حال السامعين من أمم الرسل، فالمراد من العبادة التوحيد بالعبادة والمحافظة عليها.
[٩٣] ﴿وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون﴾
عطف على جملة: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ أي أعرضوا عن قولنا و ﴿تقطعوا﴾ وضمائر الغيبة عائدة إلى مفهوم من المقام وهم الذين من الشأن التحدث عنهم في القرآن المكي بمثل هذه المذام، وهم المشركون. ومثل هذه الضمائر المراد منها المشركون كثير في القرآن. ويجوز أن تكون الضمائر عائدة إلى أمم الرسل. فعلى الوجه الأول الذي قدمناه في ضمائر الخطاب في قوله تعالى: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ يكون الكلام **انتقالا** من الحكاية عن الرسل إلى الحكاية عن حال أممهم في حياتهم أو الذين جاءوا بعدهم مثل اليهود والنصارى إذ نقضوا وصايا أنبيائهم. وعلى الوجه الثاني تكون ضمائر الغيبة التفاتا.
ثم يجوز أن تكون الواو عاطفة قصة على قصة لمناسبة واضحة كما عطف نظيرها بالفاء في سورة المؤمنين. ويجوز كونها للحال، أي أمرنا الرسل بملة الإسلام، وهي الملة الواحدة، فكان من ضلال المشركين أن تقطعوا أمرهم وخالفوا الرسل وعدلوا عن دين". (١)

٢٦٩-"والفزع: نفرة النفس وانقباضها مما تتوقع أن يحصل لها من الألم وهو قريب من الجزع، والمراد به هنا فزع الحشر حين لا يعرف أحد ما سيؤول إليه أمره، فيكونون في أمن من ذلك بطمأنة الملائكة إياهم.
وذلك مفاد قوله تعالى: ﴿وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ فهؤلاء الذين سبقت لهم الحسنى هم المراد من الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾.
والتلقي: التعرض للشيء عند حلوله تعرض كرامة. والصيغة تشعر بتكلف لقائه وهو تكلف تهيؤ واستعداد.
وجملة: ﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ مقول لقول محذوف، أي يقولون لهم: هذا يومكم الذي كنتم توعدون، تذكيرا لهم بما وعدوا في الدنيا من الثواب، لئلا يحسبوا أن الموعود به يقع في يوم آخر. أي هذا يوم تعجيل وعدكم. والإشارة باسم إشارة القريب لتعيين اليوم وتمييزه بأنه اليوم الحاضر.
وإضافة "يوم" إلى ضمير المخاطبين لإفادة اختصاصه بهم وكون فائدتهم حاصلة فيه كقول جرير:
يا أيها الراكب المزجي مطيته ... هذا زمانك إني قد خلا زمني.
أي هذا الزمن المختص بك، أي لتتصرف فيه.
[١٠٤] ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين﴾

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/١٠٣

جملة مستأنفة قصد منها إعادة ذكر البعث والاستدلال على وقوعه وإمكانه إبطالا لإحالة المشركين وقوعه بعلة أن الأجساد التي يدعى بعثها قد انتابها الفناء العظيم ﴿وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد﴾.

والمناسبة في هذا **الانتقال** هو ما جرى من ذكر الحشر والعقاب والثواب من قوله تعالى: ﴿لهم فيها زفير﴾ وقوله تعالى: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ الآية.

وقد رتب نظم الجملة على التقديم والتأخير لأغراض بليغة. وأصل الجملة: نعيد". (١)

٢٧٠-"﴿ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه﴾

اسم الإشارة مستعمل هنا للفصل بين كلامين أو بين وجهين من كلام واحد. والقصد منه التنبيه على الاهتمام بما سيذكر بعده. فالإشارة مراد بها التنبيه، وذلك حيث يكون ما بعده غير صالح لوقوعه خبرا عن اسم الإشارة فيتعين تقدير خبر عنه في معنى: ذلك بيان، أو ذكر، وهو من أساليب الاقتضاب في **الانتقال**. والمشهور في هذا الاستعمال لفظ هذا كما في قوله تعالى: ﴿هذا وإن للطاغين لشر مئاب﴾ وقول زهير:

هذا وليس كمن يعيا بخطبته ... وسط الندي إذا ما قائل نطقا

وأوثر في الآية اسم إشارة البعيد للدلالة على بعد المنزلة كناية عن تعظيم مضمون ما قبله.

فاسم الإشارة مبتدأ حذف خبره لظهور تقديره، أي ذلك بيان ونحوه. وهو كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض الأغراض فإذا أراد الخوض في غرض آخر، قال: هذا وقد كان كذا وكذا.

وجملة: ﴿ومن يعظم﴾ الخ معترضة عطفا على جملة: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ عطف الغرض على الغرض. وهو **انتقال** إلى بيان ما يجب الحفاظ عليه من الحنيفية والتنبيه إلى أن الإسلام بني على أساسها.

وضمير ﴿فهو﴾ عائد إلى التعظيم المأخوذ من فعل ﴿ومن يعظم حرمات الله﴾ . والكلام موجه إلى المسلمين تنبيها لهم على أن تلك الحرمات لم يعطل الإسلام حرمتها، فيكون **الانتقال** من غرض إلى غرض ومن مخاطب إلى مخاطب آخر. فإن المسلمين كانوا يعتمرون ويحجون قبل إيجاب الحج عليهم. أي قبل فتح مكة.

والحرمات: جمع حرمة بضمتين: وهي ما يجب احترامه.

والاحترام: اعتبار الشيء ذا حرم، كناية عن عدم الدخول فيه، أي عدم انتهاكه بمخالفة أمر الله في شأنه، والحرمات يشمل كل ما أوصى الله بتعظيم أمره فتشمل مناسك الحج كلها.

وعن زيد بن أسلم: الحرمات خمس: المسجد الحرام، والبيت الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام، والمحرم ما دام محرما. فقصره على الذوات دون الأعمال.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١١٥/١٧

(٢) التحرير والتنوير ١٨٢/١٧

٢٧١-"والتصدير باسم الإشارة في قوله: ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾ " للتنبيه على أن المخبر عنهم جديرون بما سيرد بعد اسم الإشارة من الحكم لأجل ما ذكر قبله من الأوصاف، أي هم أصحاب الجحيم لأنهم سعوا في آياتنا معاجزين. ومن أحسن ما يفسر هذه الآية ما جاء في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وأنا النذير العريان١ فالنجاء النجاء، فأطاعته طائفة من قومه فأدلجوا٢ وانطلقوا على مهلهم٣. وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم. فذلك مثلي ومثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق".

[٥٢-٥٤] ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾

عطف على جملة: ﴿قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين﴾ ، لأنه لما أفضى الكلام السابق إلى تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وتأنيس نفسه فيما يلقاه من قومه من التكذيب بأن تلك شنشنة الأمم الظالمة من قبلهم فيما جاء عقب قوله: ﴿وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة﴾ الخ، وأنه مقصور على النذارة فمن آمن فقد نجا ومن كفر فقد هلك، أريد **الانتقال** من ذلك إلى تفصيل تسليته وتثبيته بأنه لقي ما لقيه سلفه من الرسل والأنبياء "عليهم السلام" وأنه لم يسلم أحد منهم من محاولة الشيطان أن يفسد بعض ما يحاولونه من هدي الأمم وأنهم لقوا من أقوامهم مكذبين ومصدقين سنة الله في رسله "عليهم السلام".

فقوله: ﴿من رسول ولا نبي﴾ نص في العموم، فأفاد أن ذلك لم يعد أحد من

-

١ العريان: المجرد من الثياب - والنذير العريان مثل أصله: أن أحد القوم إذا رأى عدوا يريد غرة قومه ولم يجد شيئا يشير به نزع ثوبه فألوى به أي لوح.

٢ أدلجوا بهمزة قطع مفتوحة وبسكون الدال أي: ساروا في دلجة الليل، أي: ظلامه.

٣ المهل - بفتحتين - عدم العجلة، أي: انطلقوا غير فزعين.". (١)

٢٧٢-"﴿ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه﴾.

وجملة: ﴿ومن عاقب﴾ الخ، معطوفة على جملة: ﴿والذين هاجروا في سبيل الله﴾ الآية.

والغرض منها التهيئة للجهاد والوعد بالنصر الذي أشير إليه سابقا بقوله تعالى: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾ إلى قوله: ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾ ، فأنه قد جاء معترضا في خلال النعي على

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/٢١٤

تكذيب المكذبين وكفر هو النعم، فأكمل الغرض الأول بما فيه من **انتقالات**، ثم عطف الكلام إلى الغرض الذي جرت منه لمحة فعاد الكلام هنا إلى الوعد بنصر الله القوم المعتدي عليهم كما وعدهم بأن يدخلهم في الآخرة مدخلا يرضونه.

وجيء بإشارة الفصل للتنبيه على أهمية ما بعده.

وما صدق "من" الموصولة العموم لقوله فيما سلف ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا﴾ ، فنبه على أن القتال المأذون فيه هو قتال جزاء على اعتداء سابق كما دل عليه أيضا قوله: ﴿بأنهم ظلموا﴾ وتغيير أسلوب الجمع الذي في قوله: ﴿أذن للذين يقاتلون﴾ إلى أسلوب الإفراد في قوله: ﴿ومن عاقب﴾ للإشارة إلى إرادة العموم مكن هذا الكلام ليكون بمنزلة القاعدة الكلية لسنة من سنن الله تعالى في الأمم.

ولما أتى في الصلة هنا بفعل ﴿عاقب﴾ مع قصد شمول عموم الصلة للذين أذن لهم بأنهم ظلموا علم السامع أن القتال المأذون لهم به قتال جزاء على ظلم سابق.

وفي ذلك تحديد لقانون العقاب أن يكون مماثلا للعدوان المجزي عليه، اي أن لا يكون أشد منه.

وسمي اعتداء المشركين على المؤمنين عقابا في قوله تعالى: ﴿بمثل ما عوقب به﴾ لأن الذي دفع المعتدين إلى الاعتداء قصد العقاب على خروجهم عن دين الشرك ونبذ عبادة أصنامهم. ويعلم أن ذلك العقاب ظلم بقوله فيما مضى ﴿الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾.

ومعنى ﴿بمثل ما عوقب به﴾ المماثلة في الجنس فإن المشركين آذوا المسلمين". (١)

٢٧٣-"الكلام السابق.

وعلو الله: مستعار للجلال والكمال التام.

والكبر: مستعار لتمام القدرة، أي هو العلي الكبير دون الأصنام التي تعبدونها إذ ليس لها كمال ولا قدرة ببرهان المشاهدة.

[٦٣] ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير﴾

انتقال إلى التذكير بنعم الله تعالى على الناس بمناسبة ما جرى من قوله: ﴿ذلك بأن الله يولج الليل في النهار﴾ الآية.

والمقصود: التعريض بشكر الله على نعمه وأن لا يعبدوا غيره كما دل عليه التذييل عقب تعداد هذه النعم بقوله: ﴿إن الأنسان لكفور﴾ ، أي الإنسان المشرك. وفي ذلك كله إدماج الاستدلال على انفراده بالخلق والتدبير فهو الرب الحق المستحق للعبادة. والمناسبة هي ما جرى من أن لله هو الحق وأن ما يدعونه الباطل، فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا.

والخطاب لكل من تصلح منه الرؤية لأن المرئي مشهور.

والاستفهام: إنكاري، نزلت غفلة كثير من الناس عن الاعتبار بهذه النعمة والاعتداد بها منزلة عدم العلم بها. فأنكر ذلك لعدم على الناس الذين أهملوا الشكر والاعتبار.

وإنما حكي الفعل المستفهم عنه الإنكاري مقترنا بحرف "لم" الذي يخلصه إلى المضي، وحكي متعلقة بصيغة الماضي في قوله:

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/٢٢٥

﴿أنزل من السماء ماء﴾ وهو الإنزال بصيغة الماضي كذلك ولم يراع فيهما معنى تجدد ذلك لأن موقع إنكار عدم العلم بذلك هو كونه أمرا متقررا ماضيا لا يدعى جهله.

و ﴿تصبح﴾ بمعنى تصير فإن خمسا من أخوات "كان" تستعمل بمعنى: صار.

واختير في التعبير عن النبات الذي هو مقتضى الشكر لما فيه من إقامة أقوات الناس والبهائم بذكر لونه الأخضر لأن ذلك اللون ممتع للأبصار فهو أيضا موجب شكر على ما خلق الله من جمال المصنوعات في المرأى كما قال تعالى: ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾ .

وإنما عبر عن مصير الأرض خضراء بصيغة ﴿تصبح مخضرة﴾ مع أن ذلك مفرع على". (١)

٢٧٤-"﴿جعلناه﴾ عائد إلى الإنسان باعتبار أنه من السلالة، فالمعنى: جعلنا السلالة في قرار مكين، أي وضعناها فيه حفظا لها، ولذلك غير في الآية التعبير عن فعل الخلق إلى فعل الجعل المتعدي بفي بمعنى الوضع.

والقرار في الأصل: مصدر قر إذا ثبت في مكانه. وقد سمي به هنا المكان نفسه. والمكين: الثابت في المكان بحيث لا يقلع من مكانه، فمقتضى الظاهر أن يوصف بالمكين الشيء الحال في المكان الثابت فيه. وقد وقع هنا وصفا لنفس المكان الذي استقرت فيه النطفة، على طريقة المجاز العقلي للمبالغة، وحقيقته مكين حاله. وقد تقدم قوله تعالى: ﴿أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة﴾ في سورة الكهف وقوله ﴿فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة﴾ في سورة الحج.

ويجوز أن يراد بالإنسان في قوله: ﴿ولقد خلقنا الأنسان﴾ آدم. وقال بذلك قتادة فتكون السلالة الطينة الخاصة التي كون الله منها آدم وهي الصلصال الذي ميزه من الطين في مبدإ الخليقة، فتلك الطينة مسلولة سلا خاصا من الطين ليتكون منها حي، وعليه فضمير ﴿جعلناه نطفة﴾ على هذا الوجه عائد إلى الإنسان باعتبار كونه نسلا لآدم فيكون في الضمير استخدام، ويكون معنى هذه الآية كمعنى قوله تعالى: ﴿وبدأ خلق الأنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾ .

وحرف ثم في قوله تعالى: ﴿ثم خلقنا النطفة علقة﴾ للترتيب الرتبي إذ كان خلق النطفة علقة أعجب من خلق النطفة إذ صير الماء السائل دما جامدا فتغير بالكثافة وتبدل اللون من عوامل أودعها الله في الرحم.

ومن إعجاز القرآن العلمي تسمية هذا الكائن العلقة فإنه وضع بديع لهذا الاسم إذ قد ثبت في علم التشريح أن هذا الجزء الذي استحالت إليه النطفة هو كائن حي له قوة امتصاص القوة من دم الأم بسبب التصاقه بعروق في الرحم تدفع إليه قوة الدم. والعلقة: قطعة من دم عاقد.

والمضغة: القطعة الصغيرة من اللحم مقدار اللقمة التي تمضغ. وقد تقدم في أول سورة الحج كيفية تخلق الجنين.

وعطف جعل العلقة مضغة بالفاء لأن **الانتقال** من العلقة إلى المضغة يشبه تعقيب شيء عن شيء إذ اللحم والدم الجامد

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٩/١٧

متقاربان فتطورهما قريب وإن كان مكث كل طور". (١)

٢٧٥-"**انتقال** من الاستدلال بخلق الإنسان إلى الاستدلال بخلق العوالم العلوية لأن أمرها أعجب، وإن كان الإنسان إلى نظيره أقرب، فالجملة عطف على جملة ﴿ولقد خلقنا الأنسان من سلالة من طين﴾ . وانما ذكر هذا عقب قوله: ﴿ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ للتنبيه على أن الذي خلق هذا العالم العلوي ما خلقه إلا الحكمة، وأن الحكيم لايهمل ثواب الصالحين على حسناتهم، ولا جزاء المسيئين على سيئاهم، وأن جعله تلك الطرائق فوقنا بحيث نراها ليدلنا على أن لها صلة بنا لأن عالم الجزاء كائن فيها ومخلوقاته مستقرة فيها، فالإشارة بهذا الترتيب مثل الإشارة بعكسه في قوله: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين﴾ .
والطرائق: جمع طريقة وهي اسم للطريق تذكر وتؤنث. والمراد بها هنا طرائق سير الكواكب السبعة وهي أفلاكها، أي الخطوط الفرضية التي ضبط الناس بها سموت سير الكواكب. وقد أطلق على الكواكب اسم الطارق في قوله تعالى: ﴿والسماء والطارق﴾ من أجل أنه ينتقل في سمت يسمى طريقة فإن الساير في طريق يقال له: طارق، ولا شك أن الطرائق تستلزم سائرات فيها، فكان المعنى: خلقنا سيارات وطرائقها.
وذكر فوقكم للتنبيه على وجوب النظر في أحوالها للاستدلال بها على قدرة الخالق لها تعالى فإنها بحالة إمكان النظر إليها والتأمل فيها.
ولأن كونها فوق الناس مما سهل انتفاعهم بها في التوقيت ولذلك عقب بجملة ﴿وما كنا عن الخلق غافلين﴾ المشعر بأن في ذلك لطفا بالخلق وتيسيرا عليهم في شؤون حياتهم، وهذا امتنان. فالواو في جملة ﴿وما كنا عن الخلق غافلين﴾ للحال، والجملة في موضع الحال. وفيه تنبيه للنظر في أن عالم الجزاء كائن بتلك العوالم قال تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ .

والخلق مفعول سمي بالمصدر، أي ما كنا غافلين عن حاجة مخلوقاتنا يعني البشر. ونفي الغفلة كناية عن العناية والملاحظة، فأفاد ذلك أن في خلق الطرائق السماوية لما خلقت له لطفا بالناس أيضا إذ كان نظام خلقها صالحا لانتفاع الناس به في مواقيتهم وأسفارهم في البر والبحر كما قال: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾ . وأعظم تلك الطرائق طريقة الشمس مع ما زادت به من النفع بالإنارة وإصلاح الأرض والأجساد فصار المعنى: خلقنا فوقكم سبع طرائق لحكمة لا". (٢)

٢٧٦-"العاشر: ما في جمعه.
الحادي عشر: ما في لفظ به من الدلالة على أن يمسكه فلا مرسل له.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/١٨

(٢) التحرير والتنوير ٢٣/١٨

الثاني عشر: إخلاؤه من التعقيب بإطماع وهنالك ذكر الإتيان المطمع.

الثالث عشر: تقديم ما في الإيعاد وهو الذهاب على ما هو كالمتعلق له أو متعلقه على المذهبين البصري والكوفي.

الرابع عشر: ما بين الجملتين الاسمية والفعلية من التفاوت ثباتا وغيره.

الخامس عشر: ما في لفظ أصبح من الدلالة على **الانتقال** والصيرورة.

السادس عشر: أن الإذهاب ههنا مصرح به وهنالك مفهوم من سياق الاستفهام.

السابع عشر: أن هنالك نفي ماء خاص أعني المعين بخلافه ههنا.

الثامن عشر: اعتبار مجموع هذه الأمور التي يكفي كل منها مؤكدا وزاد الألوسي في تفسيره فقال: التاسع عشر: إخباره تعالى نفسه به من دون أمر للغير ههنا بخلافه هنالك فإنه سبحانه أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يقول ذلك.

العشرون:عدم تخصيص مخاطب ههنا وتخصيص الكفار بالخطاب هنالك.

الحادي والعشرون: التشبيه المستفاد من جعل الجملة حالا فإنه يفيد تحقيق القدرة ولا تشبيه ثمة. الثاني والعشرون: إسناد القدرة إليه تعالى مرتين.

ونقل الألوسي عن عصريه المولى محمد الزهاوي وجوها وهي:

الثالث والعشرون: تضمين الإيعاد هنا إيعادهم بالإبعاد عن رحمة الله تعالى لأن ذهب به يستلزم مصاحبة الفاعل المفعول، وذهاب الله تعالى عنهم مع الماء بمعنى ذهاب رحمته سبحانه عنهم ولعنهم وطردهم عنها ولا كذلك ما هناك.

الرابع والعشرون: أنه ليس الوقت للذهاب معينا هنا بخلافه في ﴿إن أصبح﴾ فإنه يفهم منه أن الصيرورة في الصبح على أحد استعمالي أصبح ناقصا.". (١)

٢٧٧-"ويجوز أن يكون معنى ﴿تخرج﴾ تظهر وتعرف، فيكون أول اهتداء الناس إلى منافع هذه الشجرة **وانتقالهم** إياها كان من الزيتون الذي بطور سيناء. وهذا كما نسمي الديك الرومي في بلدنا بالديك الهندي لأن الناس عرفوه من بلاد الهند، وكما تسمى بعض السيوف في بلاد العرب بالمشرفية لأنها عرفت من مشارف الشام، وبعض الرماح الخطية لأنها ترد إلى بلاد العرب من مرفأ يقال له: الخط، وبعض السيوف بالمهند لأنه يجلب من الهند، وقد كان الزيت يجلب إلى بلاد العرب من الشام ومن فلسطين.

وأياما كان فليس القصد من ذكر أنها تخرج من طور سيناء إلا التنبيه على أنه منبتها الأصلي وإلا فإن الامتنان بها لم يكن موجها يومئذ لسكان طور سيناء. وما كان هذا التنبيه إلا للتنويه بشرف منبتها وكرم الموطن الذي ظهرت فيه، ولم تزل شجرة الزيتون مشهورة بالبركة بين الناس. ورأيت في لسان العرب عن الأصمعي عن عبد الملك بن صالح: أن كل زيتونة بفلسطين من غرس أمم يقال لهم اليونانيون ١ هـ. والظاهر أنه يعني به زيتون زمانهم الذي أخلفوا به أشجارا قديمة بادت.

وفي أساطير اليونان ميثولوجيا أن منيرفا ونبتون الربين في اعتقاد اليونان تنازعا في تعيين أحدهما ليضع اسما لمدينة بناها

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/١٨

ككرابيسفحكمت الأرباب بينهما بأن هذا الشرف لا يناله إلا من يصنع أنفع الأشياء. فأما نبتون فأوجد فرسا بحريا عظيم القوة، وأما مينيرفا فصنعت شجرة الزيتون بثمرتها، فحكم الأرباب لها بأنها أحق، فلذلك وضعوا للمدينة اسم اثينا الذي هو اسم منيرفا. وزعموا أن هيركول لما رجع من بعض غزواته جاء معه بأغصان من الزيتون فغرسها في جبل أولمبوس وهو مسكن آلهتهم في زعمهم.

فقد كان زيت الزيتون مستعملا عند اليونان من عهد هوميروس إذ ذكر في الإلياذة أن أخيل سكب زيتا على شلو فطر قليوس وشلو هكتور.

وكان الزيت نادرا في معظم بلاد العرب إذ كان يجلب إلى بلاد العرب من الشام.

وقد ضرب الله بزيت الزيتونة مثلا لنوره في قوله: ﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور﴾ .

والتعبير بالمضارع في قوله: ﴿تخرج من طور سيناء﴾ لاستحضار الصورة العجيبة المهمة التي كونت بها تلك الشجرة في أول تكوينها حتى كأن السامع يبصرها خارجة". (١)

٢٧٨-"أن يضرب لهم بقوم نوح مثل تحذيرا مما أصاب قوم نوح من العذاب. وقد جرى في أثناء الاستدلال والامتنان ذكر الحمل في الفلك فكان ذلك مناسبة **للانتقال** فحصل بذلك حسن التخلص، فيعتبر ذلك قصص الرسل إما استطرادا في خلال الاستدلال على الوحدانية، وإما **انتقالا** كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار﴾ .

وتصدير الجملة بلام القسم تأكيد للمضمون التهديدي من القصة، فالمعنى تأكيد الإرسال إلى نوح وما عقب به ذلك.

وعطف مقالة نوح على جملة إرساله بفاء التعقيب لإفادة أدائه رسالة ربه بالفور من أمره وهو شأن الامتثال.

وأمره قومه بأن يعبدوا الله يقتضي أنهم كانوا معرضين عن عبادة الله بأن أقبلوا على عبادة أصنامهم ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر حتى أهملوا عبادة الله ونسوها. وكذلك حكيت دعوة نوح قومه في أكثر الآيات بصيغة أمر بأصل عبادة الله دون الأمر بقصر عبادتهم على الله مع الدلالة على أنهم ما كانوا ينكرون وجود الله ولذلك عقب كلامه بقوله: ﴿ما لكم من إله غيره﴾ .

ويدل على هذا قولهم ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾ فهم مثبتون لوجود الله. فجملة ﴿ما لكم من إله غيره﴾ في موقع التعليل للأمر بعبادته وهو تعليل أخص من المعلل، وهو أوقع لما فيه من الإيجاز لاقتضائه معنى: اعبدوا الله وحده. فالمعنى: اعبدوا الله الذي تركتم عبادته وهو إلهكم دون غيره فلا يستحق غيره العبادة فلا تعبدوا أصنامكم معه.

و ﴿غيره﴾ نعت ل ﴿إله﴾ قرأه الجمهور بالرفع على اعتبار محل المنعوت ب غير لأن المنعوت مجرور بحرف جر زائد. وقرأه الكسائي بالجر على اعتبار اللفظ المجرور بالحرف الزائد.

وفرع على الأمر بإفراده بالعبادة استفهام إنكار على عدم اتقائهم عذاب الله تعالى. وقد خولفت في حكاية جواب الملإ من

---

(١) التحرير والتنوير ٣١/١٨

قومه الطريقة المألوفة في القرآن في حكاية المحاورات وهي ترك العطف التي جرى عليها قوله: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ في سورة البقرة. فعطف هنا جواب الملإ من قومه بالفاء لوجهين:". (١)

٢٧٩-"القسم لما في جواب القسم من مشابهة الجزاء لاسيما متى اقترن القسم بحرف شرط.

والاستفهام في قوله: ﴿أيعدكم﴾ للتعجب، وهو **انتقال** من تكذيبه في دعوى الرسالة إلى تكذيبه في المرسل به.

وقوله: ﴿أنكم إذا متم﴾ إلى آخره مفعول ﴿يعدكم﴾ أي يعدكم إخراج مخرج إياكم. والمعنى: يعدكم إخراجكم من القبور بعد موتكم وفناء أجسامكم.

وأما قوله: ﴿أنكم مخرجون﴾ فيجوز أن يكون إعادة لكلمة أنكم الأولى اقتضى إعادتها بعد ما بينها وبين خبرها. وتفيد إعادتها تأكيدا للمستفهم عنه استفهام استبعاد تأكيدا لاستبعاده. وهذا تأويل الجرمي والمبرد.

ويجوز أن يكون ﴿أنكم مخرجون﴾ مبتدأ. ويكون قوله: ﴿إذا متم وكنتم ترابا وعظاما﴾ خبرا عنه مقدما عليه وتكون جملة ﴿إذا متم﴾ إلى قوله: ﴿مخرجون﴾ خبرا عن أن من قوله ﴿أنكم﴾ الأولى.

وجعلوا موجب الاستبعاد هو حصول أحوال تنافي أنهم مبعوثون بحسب قصور عقولهم، وهي حال الموت المنافي للحياة، وحال الكون ترابا وعظاما المنافي لإقامة الهيكل الإنسان ي بعد ذلك.

وأريد بالإخراج إخراجهم أحياء بهيكل إنساني كامل أي مخرجون للقيامة بقرينة السياق.

وجملة ﴿هيهات﴾ بيان لجملة ﴿يعدكم﴾ فلذلك فصلت ولم تعطف.

و ﴿هيهات﴾ كلمة مبنية على فتح الآخر وعلى كسره أيضا. وقرأها الجمهور بالفتح، وقرأها أبو جعفر بالكسر. وتدل على البعد. وأكثر ما تستعمل مكررة مرتين كما في هذه الآية أو ثلاثا كما جاء في شعر لحميد الأرقط وجرير يأتيان.

واختلف فيها أهي فعل أم اسم؛ فجمهور النحاة ذهبوا إلى أن هيهات اسم فعل للماضي من البعد، فمعنى هيهات كذا: بعد. فيكون ما يلي هيهات فاعلا. وقيل هي اسم للبعد، أي فهي مصدر جامد وهو الذي اختاره الزجاج في تفسيره. قال الراغب: قالب البعض: غلط الزجاج في تفسيره واستهواه اللام في قوله تعالى: ﴿هيهات هيهات لما توعدون﴾ .". (٢)

٢٨٠-"وقد بسطنا القول في معنى ﴿وتقطعوا أمرهم بينهم﴾ في سورة الأنبياء.

والأمر هنا بمعنى الشأن والحال وما صدقه أمور دينهم.

والزبر بضم الزاي وضم الموحدة كما قرأ به الجمهور جمع زبور وهو الكتاب. استعير اسم الكتاب للدين لأن شأن الدين أن يكون لأهله كتاب، فيظهر أنها استعارة تهكمية إذ لم يكن لكل فريق كتاب ولكنهم اتخذوا لأنفسهم أديانا وعقائد لو سجلت لكانت زبرا.

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٣٤

(٢) التحرير والتنوير ١٨/٤٤

وقرأه أبو عمرو بخلاف عنه ﴿زبرا﴾ بضم الزاء وفتح الموحدة وهو جمع زبرة بمعنى قطعة.
وجملة ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ تذييل لما قبله لأن التقطع يقتضي التحزب فذيل بأن كل فريق منهم فرح بدينه، ففي الكلام صفة محذوفة ل ﴿حزب﴾ أي كل حزب منهم، بدلالة المقام.
والفرح: شدة المسرة، أي راضون جذلون بأنهم اتخذوا طريقتهم في الدين. والمعنى: أنهم فرحون بدينهم عن غير دليل ولا تبصر بل لمجرد العكوف على المعتاد، وذلك يومئ إليه ﴿لديهم﴾ المقتضي أنه متقرر بينهم من قبل، أي بالدين الذي هو لديهم فهم لا يرضون على من خالفهم ويعادونه، وذلك يفضي إلى التفريق والتخاذل بين الأمة الواحدة وهو خلاف مراد الله ولذلك ذيل به قوله: ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ . وقديما كان التحزب مسببا لسقوط الأديان والأمم وهو من دعوة الشيطان التي يلبس فيها الباطل في صورة الحق.
والحزب: الجماعة المجتمعون على أمر من اعتقاد أو عمل، أو المتفقون عليه.
[٥٤] ﴿فذرهم في غمرتهم حتى حين﴾
انتقال بالكلام إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم. وضمير الجمع عائد إلى معروف من السياق وهم مشركو قريش فإنهم من جملة الأحزاب الذين تقطعوا أمرهم بينهم زبرا، أو هم عينهم: فمنهم اتخذ إلهه العزى. ومنهم من اتخذ مناة، ومنهم من اتخذ ذا الخلصة إلى غير ذلك.
والكلام ظاهره المتاركة، والمقصود منه الإملاء لهم وإنذارهم بما يستقبلهم من سوء". (١)

٢٨١-"الخواطر المنكسرة من أهل الإيمان الذين لم يلحقوا غيرهم لعجز أو خصاصة.
ولمراعاة هذا المعنى عطف قوله: ﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق﴾ وهو معنى إحاطة العلم بأحوالهم ونواياهم. فالكتاب هنا هو الأمر الذي فيه تسجيل الأعمال من حسنات وسيئات وإطلاق الكتاب عليه لإحاطته. وفي قوله: ﴿لدينا﴾ دلالة على أن ذلك محفوظ لا يستطيع أحد تغييره بزيادة ولا نقصان. والنطق مستعار للدلالة، ويجوز أن يكون نطق الكتاب حقيقة بأن تكون الحروف المكتوبة فيه ذات أصوات وقدرة الله لا تحد.
وأما قوله: ﴿وهم لا يظلمون﴾ فالمناسب أن يكون مسوقا لمؤاخذة المفرطين والمعرضين فيكون الضمير عائدا إلى ما عاد إليه ضمير ﴿فتقطعوا أمرهم﴾ وأشباهه من الضمائر والاعتماد على قرينة السياق، وقوله: ﴿بل قلوبهم في غمرة من هذا﴾ وما بعده من الضمائر. والظلم على هذا الوجه محمول على ظاهره وهو حرمان الحق والاعتداء.
ويجوز أن يكون الضمير عائدا إلى عموم الأنفس في قوله: ﴿ولا نكلف نفسا إلا وسعها﴾ فيكون قوله: ﴿وهم لا يظلمون﴾ من بقية التذييل، والظلم على هذا الوجه مستعمل في النقص من الحق كقوله تعالى: ﴿كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا﴾ فيكون وعيدا لفريق ووعدا لفريق. وهذا أليق الوجهين بالإعجاز.
[٦٣] ﴿بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٦٠

إضراب انتقال إلى ما هو أغرب مما سبق وهو وصف غمرة أخرى انغمس فيها المشركون فهم في غمرة غمرت قلوبهم وأبعدتها عن أن تتخلق بخلق الذين هم من خشية ربهم مشفقون كيف وأعمالهم إلى الضد من أعمال المؤمنين تناسب كفرهم، فكل يعمل على شاكلته.

فحرف من في قوله: ﴿من هذا﴾ يوهم البدلية، أي في غمرة تباعدهم عن هذا.

والإشارة ب ﴿هذا﴾ إلى ما ذكر آنفا من صفات المؤمنين في قوله: ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ إلى قوله: ﴿وهم لها سابقون﴾ .

و ﴿دون﴾ تدل على المخالفة لأحوال المؤمنين، أي ليسوا أهلا للتحلي بمثل تلك المكارم.". (١)

٢٨٢-"أغراضه، فما كان استمرار عنادهم إلا لأنهم لم يدبروا القول. وهذا أحد العلل التي غمرت بهم في الكفر.

والاستفهام الثاني هو المقدر بعد أم وقوله: ﴿أم لم يعرفوا رسولهم﴾ . فأم حرف إضراب انتقالي من استفهام إلى غيره وهي أم المنقطعة بمعنى بل ويلزمها تقدير استفهام بعدها لا محالة، فقوله: ﴿جاءهم ما لم يأت آباءهم﴾ تقديره: بل أجاءهم. والمجيء مجاز في الإخبار والتبليغ وكذلك الإتيان.

وما الموصولة صادقة على دين. والمعنى: أجاءهم دين لم يأت آباءهم الأولين وهو الدين الداعي إلى توحيد الإله وإثبات البعث، ولذلك كانوا يقولون: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾ . ولهذا قال الله تعالى: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ .

ثم إنه إن كان المراد ظاهر معنى الصلة وهي ﴿ما لم يأت آباءهم الأولين﴾ من أن الدين الذي جاءهم لا عهد لهم به تعين أن يكون في الكلام تهكم بهم إذ قد أنكروا دينا جاءهم ولم يسبق مجيئه لآباءهم. ووجه التهكم أن شأن كل رسول جاء بدين أن يكون دينه أنفا ولو كان للقوم مثله لكان مجيئه تحصيل حاصل.

وإن كان المراد من الصلة أنه مخالف لما كان عليه آباؤهم لأن ذلك من معنى: لم يأت آباءهم، كان الكلام مجرد تغليط، أي لا اتجاه لكفرهم به لأنه مخالف لما كان عليه آباؤهم إذ لا يكون الدين إلا مخالفا للضلالة ويكون في معنى قوله تعالى: ﴿أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾ .

وأما الاستفهام الثالث المقدر بعد أم الثانية في قوله: ﴿أم لم يعرفوا رسولهم﴾ فهو استفهام عن عدم معرفتهم الرسول بناء على ان عدم المعرفة به هو أحد احتمالين في شأنهم إذ لا يخلون عن أحدهما، فأما كونهم يعرفونه فهو المظنون بهم فكان الأجدر بالاستفهام وهو عدم معرفتهم به إذ تفرض كما يفرض الشيء المرجوح لأنه محل الاستغراب المستلزم للتغليط؛ فإن رميهم الرسول بالكذب وبالسحر والشعر يناسب أن لا يكونوا يعرفونه من قبل إذ العارف بالمرء لا يصفه بما هو منه بريء

(١) التحرير والتنوير ٦٥/١٨

ولذلك تفرع على عدم". (١)

٢٨٣-"بالذكر إعراضهم عنه. والمعنى: أرسلنا إليهم القرآن ليذكرهم.

وقيل: إضافة الذكر إلى ضميرهم معنوية، أي الذكر الذي سألوه حين كانوا يقولون: ﴿لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين﴾ فيكون الذكر على هذا مصدرا بمعنى الفاعل، أي ما يتذكرون به. والفاء على هذا الوجه فاء فصيحة، أي فها قد أعطيناهم كتابا فأعرضوا عن ذكرهم الذي سألوه كقوله تعالى: ﴿لو أن عندنا ذكرا من الأولين﴾ أي من رسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم ﴿لكنا عباد الله المخلصين فكفروا به﴾ ، وقول عباس ابن الأحنف:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ... ثم القفول فقد جئنا خراسان

وقوله تعالى: ﴿أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير﴾ .

والتعبير عن إعراضهم بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات إعراضهم وتمكنه منهم. وتقديم المجرور على عامله للاهتمام بذكرهم ليكون إعراضهم عنه محل عجب.

[٧٢] ﴿أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين﴾

أم عاطفة على ﴿أم يقولون به جنة﴾ وهلى **للانتقال** إلى استفهام آخر عن دواعي إعراضهم عن الرسول واستمرار قلوبهم في غمرة.

والاستفهام المقدر هنا إنكاري، أي ما تسألهم خرجا فيعتذروا بالإعراض عنك لأجله شحا بأموالهم. وهذا في معنى قوله تعالى: ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله﴾ على سبيل الفرض، والتقدير: إن كنت سألتكم أجرا فقد رددته عليكم فماذا يمنعكم من اتباعي. وقوله: ﴿أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون﴾ كل ذلك على معنى التهكم. وأصرح منهما قوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾ .

وهذا **الانتقال** كان إلى غرض نفي أن يكون موجب إعراضهم عن دعوة الرسول جائيا من قبله وتسببه بعد أن كانت الاستفهامات السابقة الثلاثة متعلقة بموجبات الإعراض الجائية من قبلهم، فالاستفهام الذي في قوله: ﴿أم تسألهم خرجا﴾ إنكاري إذ لا يجوز أن يصدر عن الرسول ما يوجب إعراض المخاطبين عن دعوته فانحصرت تبعة الإعراض". (٢)

٢٨٤-"والمراد بالعذاب الشديد عذاب مستقبل. والأرجح: أن المراد به عذاب السيف يوم بدر. وعن مجاهد: أنه عذاب الجوع.

وقيل: عذاب الآخرة. وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون الباب حقيقة وهو باب من أبواب جهنم كقوله تعالى: ﴿حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير ٧٢/١٨

(٢) التحرير والتنوير ٧٨/١٨

والإبلاس: شدة اليأس من النجاة. قال: أبلس، إذا ذل ويئس من التخلص، وهو ملازم للهمزة ولم يذكروا له فعلا مجردا. فالظاهر أنه مشتق من البلاس كسحاب وهو المسح، وأن أصل أبلس صار ذا بلاس. وكان شعار من زهدوا في النعيم. يقال: لبس المسوح، إذا ترهب.

وهنا انتهت الجمل المعترضة المبتدأة بجملة: ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه﴾ وما تفرع عليها من قوله: ﴿فذرهم في غمرتهم حتى حين﴾ إلى قوله: ﴿إذا هم فيه مبلسون﴾ .

[٧٨] ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون﴾

هذا رجوع إلى غرض الاستدلال على انفراد الله تعالى بصفات الإلهية والامتنان بما منح الناس من نعمة لعلهم يشكرون بتخصيصه بالعبادة، وذلك قد انتقل عنه من قوله: ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ فانتقل إلى الاعتبار بآية فلك نوح عليه السلام فأتبع بالاعتبار بقصص أقوام الرسل عقب قوله تعالى: ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ فالجملة إما معطوفة على جملة ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة﴾ والغرض واحد وما بينهما **انتقالات**.

وإما مستأنفة رجوعا إلى غرض الاستدلال والامتنان وقد تقدمت الإشارة إلى هذا عند قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه﴾ .

وفي هذا **الانتقال** من أسلوب إلى أسلوب ثم الرجوع إلى الغرض تجديد لنشاط الذهن وتحريك للإصغاء إلى الكلام وهو من أساليب كلام العرب في خطبهم وطوالهم. وسماه السكاكي: قرى الأرواح، وجعله من آثار كرم العرب.

وقوله: ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع﴾ تذكير بواحدانية الله تعالى.

والأظهر أن يكون ضمير الجلالة مسندا واسم الموصول مسندا إليه لأنهم علموا أن". (١)

٢٨٥-"هذا إدماج لذكر أصل آخر من أصول الشرك وهو إحالة البعث بعد الموت. وبل للإضراب الإبطالي إبطالا لكونهم يعقلون، وإثبات لإنكارهم البعث مع بيان ما بعثهم على إنكاره وهو تقليد. والمعنى: أنهم لا يعقلون الأدلة لكنهم يتبعون أقوال آبائهم.

والكلام جرى على طريقة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة لأن الكلام انتقل من التقريع والتهديد إلى حكاية ضلالهم فناسب هذا **الانتقال** مقام الغيبة لما في الغيبة من الإبعاد فالضمير عائد إلى المخاطبين.

والقول هنا مراد به ما طابق الاعتقاد لأن الأصل في الكلام مطابقة اعتقاد قائله، فالمعنى: بل ظنوا مثل ما ظن الأولون.

والأولون: أسلافهم في النسب أو أسلافهم في الدين من الأمم المشركين.

وجملة: ﴿قالوا أإذا متنا﴾ إلخ. بدل مطابق من جملة: ﴿قالوا مثل ما قال الأولون﴾ تفصيل لإجمال المماثلة، فالضمير الذي مع ﴿قالوا﴾ الثاني عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿قالوا﴾ الأول وليس عائدا على ﴿الأولون﴾ . ويجوز جعل قالوا الثاني استئنافا بيانيا لبيان ﴿ما قال الأولون﴾ ويكون الضمير عائدا إلى ﴿الأولون﴾ . والمعنى واحد على التقديرين. وعلى كلا

---

(١) التحرير والتنوير ٨٤/١٨

الوجهين فإعادة فعل ﴿قالوا﴾ من قبيل إعادة الذي عمل به في المبدل منه. ونكتته هنا التعجيب من هذا القول.

وقرأ الجمهور: ﴿أإذا متنا﴾ بهمزتين على أنه استفهام عن الشرط. وقرأه ابن عامر بهمزة واحدة على صورة الخبر والاستفهام مقدر في جملة: ﴿أإنا لمبعوثون﴾ .

وقرأ الجمهور: ﴿أإنا لمبعوثون﴾ بهمزتين على تأكيد همزة الاستفهام الأولى بإدخال مثلها على جواب الشرط. وقرأه نافع وأبو جعفر بدون همزة استفهام ووجود همزة الاستفهام داخلة على الشرط كاف في إفادة الاستفهام عن جوابه.

والاستفهام إنكاري، وإذا ظرف لقوله: ﴿لمبعوثون﴾ .

والجمع بين ذكر الموت والكون ترابا وعظاما لقصد تقوية الإنكار بتفظيع إخبار القرآن بوقوع البعث، أي الإحياء بعد ذلك التلاشي القوي.

وأما ذكر حرف إن في قولهم: ﴿أإنا لمبعوثون﴾ فالمقصود منه حكاية دعوى البعث". (١)

٢٨٦-"همزات الشياطين منهم.

والهمز حقيقته: الضغط باليد والطعن بالإصبع ونحوه، ويستعمل مجازا بمعنى الأذى بالقول أو بالإشارة، ومنه قوله تعالى: ﴿هماز مشاء بنميم﴾ وقوله: ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾ .

ومحمله هنا عندي على المعنى المجازي على كلا الوجهين في المراد من الشياطين. وهمز شياطين الجن ظاهر، وأما همز شياطين الإنس فقد كان من أذى المشركين النبي صلى الله عليه وسلم لمزه والتغامز عليه والكيد له.

ومعنى التعوذ من همزهم: التعوذ من آثار ذلك فإن من ذلك أن يغمزوا بعض سفهائهم إغراء لهم بأذاه، كما وقع في قصة إغرائهم من أتى بسلا جزور فألقاه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في صلاته حول الكعبة. وهذا الوجه في تفسير الشياطين هو الأليق بالغاية في قوله: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت﴾ كما سيأتي.

وأما قوله: ﴿وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ فهو تعوذ من قربهم لأنهم إذا اقتربوا منه لحقه أذاهم.

[٩٩,١٠٠] ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ .

حتى ابتدائية وقد علمت مفادها غير مرة، وتقدمت في سورة الأنبياء؛ ولا تفيد أن مضمون ما قبلها مغيا بها فلا حاجة إلى تعليق حتى بيصفون. والوجه أن حتى متصلة بقوله: ﴿وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾ . فهذا **انتقال** إلى وصف ما يلقون من العذاب في الآخرة بعد أن ذكر عذابهم في الدنيا فيكون قوله هنا: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت﴾ وصفا أنفا لعذابهم في الآخرة. وهو الذي رجحنا به أن يكون ما سبق ذكره من العذاب ثلاث مرات عذابا في الدنيا لا في الآخرة. فإن حملت العذاب السابق الذكر على عذاب الآخرة كان ذلك إجمالا وكان قوله: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت﴾ إلى آخره تفصيلا له.

---

(١) التحرير والتنوير ٨٧/١٨

وضمائر الغيبة عائدة إلى ما عادت عليه الضمائر السابقة من قوله: ﴿قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون﴾ إلى ما هنا وليست عائدة إلى الشياطين.". (١)

٢٨٧-"والموصول في قوله: ﴿الذي آتاكم﴾ يجوز أن يكون وصفا ل ﴿مال الله﴾ ويكون العائد محذوفا تقديره: آتاكموه. ويجوز أن يكون وصفا لاسم الجلالة فيكون امتنانا وحثا على الامتثال بتذكير أنه ولي النعمة ويكون مفعولا ﴿آتاكم﴾ محذوفا للعموم، أي آتاكم على الامتثال بتذكير أنه ولي النعمة، ويكون مفعول ﴿آتاكم﴾ محذوفا للعموم، أي آتاكم نعما كثيرة كقوله: ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ .

وأحكام الكتابة وعجز المكاتب عن أداء نجومه ورجوعه مملوكا وموت المكاتب وميراث الكتابة وأداء أبناء المكاتب نجوم كتابته مسبوطة في كتب الفروع.

﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾ .

انتقال إلى تشريع من شؤون المعاملات بين الرجال والنساء التي لها أثر في الأنساب ومن شؤون حقوق الموالي والعبيد، وهذا **الانتقال** لمناسبة ما سبق من حكم الاكتساب المنجر من العبيد لمواليهم وهو الكتابة فانتقل إلى حكم البغاء.

والبغاء مصدر: باغت الجارية. إذا تعاطت الزنى بالأجر حرفة لها، فالبغاء الزنى بأجرة. واشتقاق صيغة المفاعلة فيه للمبالغة والتكرير ولذلك لا يقال إلا: باغت الأمة. ولا يقال: بغت. وهو مشتق من البغي بمعنى الطلب كما قال عياض في المشارق لأن سيد الأمة بغى بها كسبا. وتسمى المرأة المحترفة له بغيا بوزن فعول بمعنى فاعل ولذلك لا تقترن به هاء التأنيث. فأصل بغي بغوي فاجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء.

وقد كان هذا البغاء مشروعا في الشرائع السالفة فقد جاء في سفر التكوين في الإصحاح٣٨: فخلعت عنها ثياب ترملها وتغطت ببرقع وتلففت وجلست في مدخل عينائم التي على الطريق ثم قال: فنظرها يهوذا وحسبها زانية لأنها كانت قد غطت وجهها فمال إليها على الطريق وقال: هاتي أدخل عليك. فقالت: ماذا تعطيني؟ فقال: أرسل لك جدي معزى من الغنم.. ثم قال ودخل عليها فحبلت منه.

وقد كانت في المدينة إماء بغايا منهن ست إماء لعبد الله بن أبي بن سلول وهن: معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة، وكان يكرههن على البغاء بعد الإسلام. قال ابن العربي: روى مالك عن الزهري: أن رجلا من أسرى قريش في يوم بدر قد جعل عند". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٩٩/١٨

(٢) التحرير والتنوير ١٧٧/١٨

٢٨٨-"قبلها وبين جملة ﴿مثل نوره كمشكاة﴾ وأن جملة ﴿مثل نوره كمشكاة﴾ بيان لجملة ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات﴾ كما سيأتي في تفسيرها فتكون جملة ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ تمهيدا لجملة ﴿مثل نوره كمشكاة﴾ .
ومناسبة موقع جملة ﴿مثل نوره كمشكاة﴾ بعد جملة ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات﴾ أن آيات القرآن نور قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليكم نورا مبينا﴾ في سورة النساء، وقال: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ في سورة المائدة، فكان قوله: ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ كلمة جامعة لمعاني جمة تتبع معاني النور في إطلاقه في الكلام.

وموقع الجملة عجيب من عدة جهات، **وانتقال** من بيان الأحكام إلى غرض آخر من أغراض الإرشاد وأفانين من الموعظة والبرهان.

والنور: حقيقته الإشراق والضياء. وهو اسم جامد لمعنى، فهو كالمصدر لأنا وجدناه أصلا لاشتقاق أفعال الإنارة فشابهت الأفعال المشتقة من الأسماء الجامدة نحو: استنوق الجمل، فأن فعل أنار مثل فعل أفلس، وفعل استنار مثل فعل استحجر الطين. وبذلك كان الإخبار به بمنزلة الإخبار بالمصدر أو باسم الجنس في إفادة المبالغة لأنه اسم ماهية من المواهي فهو والمصدر سواء في الاتصاف. فمعنى ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ أن منه ظهورهما. والنور هنا صالح لعدة معان تشبه بالنور، وإطلاق اسم النور عليها مستعمل في اللغة.

فالإخبار عن الله تعالى بأنه نور إخبار بمعنى مجازي للنور لا محالة بقرينة أصل عقيدة الإسلام أن الله تعالى ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا يتردد في ذلك أحد من أصحاب اللسان العربي ولا تخلو حقيقة معنى النور عن كونه جوهرا أو عرضا.

وأسعد إطلاقات النور في اللغة بهذا المقام أن يراد به جلاء الأمور التي شأنها أن تخفي عن مدارك الناس وتلتبس فيقل الاهتداء إليها، فإطلاقه على ذلك مجاز بعلامة التسبب في الحس والعقل وقال الغزالي في رسالته المعروفة بمشكاة الأنوار١ : النور هو الظاهر الذي به كل ظهور، أي الذي تنكشف به الأشياء وتنكشف له وتنكشف منه وهو النور الحقيقي وليس فوقه نور. وجعل اسمه تعالى النور دالا على التنزه عن العدم وعلى إخراج

–

١ التي جعلها فيما يستخلص من آية ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ ." (١)

٢٨٩-"والإتيان بضمير جمع العقلاء تغليب. وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم﴾ في سورة البقرة وقوله: ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن﴾ في سورة الأنعام.
[٤٢] ﴿ولله ملك السماوات والأرض وإلى الله المصير﴾ .
تحقيق لما دل عليه الكلام السابق من إعطائه الهدى للعجماوات في شؤونه وحرمانه إياه فريقا من العقلاء فلو كان ذلك جاريا على حسب الاستحقاق لكان هؤلاء أهدى من الطير في شأنهم.
وتقديم المعمولين للاختصاص، أي أن التصرف في العوالم لله لا لغيره.

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/١٨٥

وفي هذا انتقال إلى دلالة أحوال الموجودات على تفرد الله تعالى بالخلق ولذلك أعقب بقوله:

[٤٣] ﴿ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾ .

أعقب الدلالة على إعطاء الهدى في قوانين الإلهام في العجاوات بالدلالة على خلق الخصائص في الجماد بحيث تسير على السير الذي قدره الله لها سيرا لا يتغير، فهي بذلك أهدى من فريق الكافرين الذين لهم عقول وحواس لا يهتدون بها إلى معرفة الله تعالى والنظر في أدلتها، وفي ذلك دلالة على عظم القدرة وسعة العلم ووحدانية التصرف. وهذا استدلال بنظام بعض حوادث الجو حتى آل إلى قوله: ﴿فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء﴾ .

وقد حصل من هذا حسن التخلص للانتقال إلى الاستدلال على عظم القدرة وسمو الحكمة وسعة العلم الإلهي.

و ﴿يزجي﴾ يسوق. يقال: أزجى الإبل إزجاء.

وأطلق الإزجاء على دنو بعض السحاب من بعض بتقدير الله تعالى الشبيه بالسوق حتى يصير سحابا كثيفا، فانضمام بعض السحاب إلى بعض عبر عنه بالتأليف بين أجزائه". (١)

٢٩٠-"قوارع ومصائب.

ومن أجل اختلاف المقامين وضع التعبير هنا ب﴿يذهب بالأبصار﴾ وهنالك بقوله: ﴿يخطف أبصارهم﴾ لأن في الخطف من معنى النكاية بهم والتسلط عليهم ما ليس في ﴿يذهب﴾ إذ هو مجرد الاستلاب.

وأما التعبير هنا بالأبصار معرفا باللام فلأن المقصود أن البرق مقارب أن يزيل طائفة من جنس الأبصار إذ اللام هنا لام الحقيقة كما في قوله: ﴿أن يأكله الذئب﴾ وقولهم: ادخل السوق، لأن الحكم على حالة البرق الشديد من حيث هي. بخلاف آية البقرة فإنها في مقام التوبيخ لهم بأن ما شأنه أن ينتفع الناس به قد أشرف على الضر بهم فلذلك ذكر لفظ أبصار مضافا إلى ضميرهم مع ما في هذا التخالف من تفنين الكلام الواحد على أفانين مختلفة حتى لا يكون الكلام معادا وإن كان المعنى متحدا ولا تجد حق الإيجاز فائتا فإن هذين الكلامين في حد التساوي في الحرف والنطق. وهكذا نرى بلاغة القرآن وإعجازه وحلاوة نظمه.

وقرأ الجمهور ﴿يذهب﴾ بفتح التحتية وفتح الهاء، فالباء للتعدية، أي يذهب الأبصار. وقرأه أبو جعفر وحده بضم التحتية وكسر الهاء فتكون الباء مزيدة لتأكيد اللصوق مثل: ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾ .

[٤٤] ﴿يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ .

التقليب تغيير هيئة إلى ضدها. ومنه ﴿فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها﴾ أي يدير كفيه من ظاهر إلى باطن، فتقليب الليل والنهار تغيير الأفق من حالة الليل إلى حالة الضياء ومن حالة النهار إلى حالة الظلام، فالمقلب هو الجو بما يختلف عليه من الأعراض ولكن لما كانت حالة ظلمة الجو تسمى ليلا وحالة نوره تسمى نهارا عبر عن الجو في حالتيه بهما، وعدي

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٨/١٨

التقليب إليهما بهذا الاعتبار.

ومما يدخل في معنى التقليب تغيير هيئة الليل والنهار بالطول والقصر. ولرعي تكرر التقلب بمعنييه عبر بالمضارع المقتضي للتكرر والتجدد.

والكلام استئناف. وجيء به مستأنفا غير معطوف على آيات الاعتبار المذكور قبله لأنه أريد **الانتقال** من الاستدلال بما قد يخفى على بعض الأبصار إلى الاستدلال بما يشاهده كل ذي بصر كل يوم وكل شهر فهو لا يكاد يخفى على ذي بصر. وهذا تدرج في". (١)

٢٩١-"**الانتقالي** كشأنها إذا عطفت الجمل الاستفهامية فإنها إذا عطفت الجمل لم تكن لطلب التعيين كما هي في عطف المفردات لأن المتعاطفات بها حينئذ ليست مما يطلب تعيين بعضه دون بعض، وأما معنى الاستفهام فملازم لها لأنه يقدر بعد أم.

والانتقال هنا تدرج في عد أخلاقهم. فالمعنى انه سأل سائل عن اتصافهم بخلق من هذه المذكورات علم المسؤول أنهم متصفون به، فكان الاستفهام المكرر ثلاث مرات مستعملا في التنبيه مجازا مرسلا، ومنه قوله تعالى: ﴿ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها﴾ في سورة الأعراف.

والقلوب: العقول. والمرض مستعار للفساد أو للكفر قال تعالى: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا﴾ أو للنفاق.

وأتي في جانب هذا الاستفهام بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات المرض في قلوبهم وتأصله فيها بحيث لم يدخل الإيمان في قلوبهم.

والارتياب: الشك. والمراد: ارتابوا في حقية الإسلام، أي حدث لهم ارتياب بعد أن آمنوا إيمانا غير راسخ.

وأتي في جانبه بالجملة الفعلية المفيدة للحدوث والتجدد، أي حدث لهم ارتياب بعد أن اعتقدوا الإيمان اعتقادا مزلزلا. وهذا يشير إلى أنهم فريقان: فريق لم يؤمنوا ولكنهم أظهروا الإيمان وكتموا كفرهم، وفريق آمنوا إيمانا ضعيفا ثم ظهر كفرهم بالإعراض.

والحيف: الظلم والجور في الحكومة. وجيء في جانبه بالفعلين المضارعين للإشارة إلى أنه خوف في الحال من الحيف في المستقبل كما يقتضيه دخول أن، وهي حرف الاستقبال، على فعل ﴿يحيف﴾ . فهم خافوا من وقوع الحيف بعد نشر الخصومة فمن ثمة أعرضوا عن التحاكم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

وأسند الحيف إلى الله ورسوله بمعنى أن يكون ما شرعه الإسلام حيفا لا يظهر الحقوق. وهذا كناية عن كونهم يعتقدون أنه غير منزل من الله وأن يكون حكم الرسول بغير ما أمر الله، فهم يطعنون في الحكم وفي الحاكم وما ذلك إلا لأنهم لا يؤمنون بأن شريعة الإسلام منزلة من الله ولا يؤمنون بأن محمدا عليه الصلاة والسلام مرسل من عند الله، فالكلام كناية عن إنكارهم

---

(١) التحرير والتنوير ٢١١/١٨

أن تكون الشريعة إلهية وأن يكون الآتي بها صادقا فيما أتى به.". (١)

٢٩٢-"واعلم أن المنافقين اتصفوا بهذه الأمور الثلاثة وكلها ناشئة عن عدم تصديقهم الرسول سواء في ذلك من حلت به قضية ومن لم تحل.

وفيما فسرنا به قوله تعالى: ﴿أفي قلوبهم مرض﴾ ما يثلج صدر الناظر ويخرج به من سكوت الساكت وحيرة الحائر.

وبل للإضراب **الانتقالي** من الاستفهام التنبيهي إلى خبر آخر. ولم يؤت في هذا الإضراب بأم لأن أم لا بد معها من معنى الاستفهام، وليس المراد عطف كونهم ظالمين على الاستفهام المستعمل في التنبيه بل المراد به إفادة اتصافهم بالظلم دون غيرهم لأنه قد اتضح حالهم فلا داعي لإيراده بصيغة استفهام التنبيه. وليست بل هنا للإبطال لأنه لا يستقيم إبطال جميع الأقسام المتقدمة فإن منها مرض قلوبهم وهو ثابت، ولا دليل على قصد إبطال القسم الأخير خاصة، ولا على إبطال القسمين الآخرين.

وجملة ﴿أولئك هم الظالمون﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا لأن السامع بعد أن ظنت بأذنه تلك الاستفهامات الثلاثة ثم أعقبت بحرف الإضراب يترقب ماذا سيرسي عليه تحقيق حالهم فكان قوله: ﴿أولئك هم الظالمون﴾ بيانا لما يترقبه السامع.

والمعنى: أنهم يخافون أن يحيف الرسول عليهم ويظلمهم. وليس الرسول بالذي يظلم بل هم الظالمون. فالقصر الحاصل من تعريف الجزأين ومن ضمير الفصل حسر مؤكد، أي هم الظالمون لا شرع الله ولا حكم رسوله.

وزار اسم الإشارة تأكيدا للخبر فحصل فيه أربعة مؤكدات: اثنان من صيغة الحصر إذ ليس الحصر والتخصيص إلا تأكيدا على تأكيد، والثالث ضمير الفصل، والرابع اسم الإشارة.

واسم الإشارة الموضوع للتمييز استعمل هنا مجازا لتحقيق اتصافهم بالظلم، فهم يقيسون الناس على حسب مايقيسون أنفسهم، فلما كانوا أهل ظلم ظنوا بمن هو أهل الإنصاف أنه ظالم كما قال أبو الطيب:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ... وصدق ما يعتاده من توهم

ولا تعلق لهذه الآية بحكم من دعي إلى القاضي للخصومة فامتنع لأن الذم والتوبيخ فيها كانا على امتناع ناشئ عن كفرهم ونفاقهم.". (٢)

٢٩٣-"علمت.

وقوله: ﴿ومأواهم النار﴾ أي هم في الآخرة معلوم أن مأواهم النار فقد خسروا الدارين.

[٥٨,٥٩] ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٧/١٨

(٢) التحرير والتنوير ٢١٨/١٨

طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم﴾ .

استئناف **انتقالي** إلى غرض من أحكام المخالطة والمعاشرة. وهو عود إلى الغرض الذي ابتدئت به السورة وقطع عند قوله: ﴿وموعظة للمتقين﴾ كما تقدم.

وقد ذكر في هذه الآية شرع الاستئذان لأتباع العائلة ومن هو شديد الاختلاط إذا أراد دخول بيت، فهو من متممات ما ذكر في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا﴾ وهو بمفهوم الزمان يقتضي تخصيص عموم قوله: ﴿لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم﴾ الآيات لأن ذلك عام في الأعيان والأوقات فكان قوله: ﴿الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم﴾ إلى قوله: ﴿ومن بعد صلاة العشاء﴾ تشريعا لاستئذانهم في هذه الأوقات وهو يقتضي عدم استئذانهم في غير تلك الأوقات الثلاثة، فصار المفهوم مخصصا لعموم النهي في قوله: ﴿لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا﴾ . وأيضا هذا الأمر مخصص بعموم ﴿ما ملكت أيمانهن﴾ وعموم ﴿الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾ من قوله تعالى: ﴿ولا يبدين زينتهن﴾ الخ المتقدم آنفا.

وقد روى أن أسماء بنت مرثد دخل عليها عبد لها كبير في وقت كرهت دخوله فيه فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إنما خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حالة نكرهها. فنزلت الآية، يعني أنها اشتكت إباحة ذلك لهم. ولو صحت هذه الرواية لكانت هذه الآية نسخا لعموم ﴿أو ما ملكت أيمانهن﴾ وعموم ﴿أو الطفل﴾ لأنها تقتضي أنه وقع العمل بذلك العموم ثم خصص بهذه الآية. والتخصيص إذا ورد بعد العمل بعموم العام صار". (١)

٢٩٤-"ظلما وزورا﴾ .

انتقال من ذكر كفرهم في أفعالهم إلى ذكر كفرهم بأقوالهم الباطلة.

والإظهار هنا لإفادة أن مضمون الصلة هو علة قولهم هذا، أي ما جرأهم على هذا البهتان إلا إشراكهم وتصلبهم فيه، ليس ذلك لشبهة تبعثهم على هذه المقالة لانتفاء شبهة ذلك، بخلاف ما حكي آنفا من كفرهم بالله فإنهم تلقوه من آبائهم، فالوصف الذي أجري عليهم هنا مناسب لمقالتهم لأنها أصل كفرهم.

وهذه الجملة مقابلة جملة ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده﴾ [الفرقان: ١] فهي المقصود من افتتاح الكلام كما آذنت بذلك فاتحة السورة. وإنما أخرت هذه الجملة التي تقابل الجملة الأولى مع أن مقتضى ظاهر المقابلة أن تذكر هذه الجملة قبل جملة ﴿واتخذوا من دونه آلهة﴾ [الفراقن: ٣] اهتماما بإبطال الكفر المتعلق بصفات الله كما تقدم آنفا.

والقصر المشتمل عليه كلامهم المستفاد من "إن" النافية و"لا" قصر قلب؛ زعموا به رد دعوى أن القرآن منزل من عند الله. وممن قال هذه المقابلة النضر بن الحارث، وعبد الله بن أمية، ونوفل بن خويلد. فإسناد هذا القول إلى جميع الكفار لأنه واقع بين ظهرانيهم وكلهم يتناقلونه. وهذه طريقة مألوفة في نسبة أمر إلى القبيلة كما يقال: بنو أسد قتلوا حجرا.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٣/١٨

واسم الإشارة إلى القرآن حكاية لقولهم حين يسمعون آيات القرآن.
والضمير المرفوع في ﴿افتراه﴾ عائد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم المعلوم من قوله ﴿على عبده﴾ .
والإفك: الكذب. وتقدم عند قوله تعالى ﴿إن الذين جاءوا بالأفك﴾ في سورة النور. والافتراء: اختلاق الأخبار، أي ابتكارها وهو الكذب عن عمد، وتقدم في قوله ﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب﴾ في [سورة العقود: ١٠٣].
﴿وأعانه عليه﴾ أي على ما يقوله من القرآن قوم آخرون لقنوه بعض ما يقوله. وأرادوا بالقوم الآخرين اليهود. روي هذا التفسير عن مجاهد وعن ابن عباس: أشاروا إلى عبيد أربعة كانوا للعرب من الفرس وهم: عداس مولى حويطب ابن عبد العزى، ويسار أبو". (١)

٢٩٥-"[٦] ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما﴾ .
لقن الله رسوله الجواب لرد بهتان القائلين إن هذا القرآن إلا إفك، وإنه أساطير الأولين، بأنه أنزله الله على رسوله.
وعبر عن منزل القرآن بطريق الموصول لما تقتضيه الصلة من استشهاد الرسول الله على ما في سره لأن الله يعلم كل سر في كل مكان.
فجملة الصلة مستعملة في لازم الفائدة وهو كون المتكلم، أي الرسول، عالما بذلك. وفي ذلك كناية عن مراقبته الله فيما يبلغه عنه. وفي ذلك إيقاظ لهم بأن يتدبروا في هذا الذي زعموه إفكا أو أساطير الأولين ليظهر لهم اشتماله على الحقائق الناصعة التي لا يحيط بها إلا الله الذي يعلم السر، فيوقنوا أن القرآن لا يكون إلا من إنزاله، وليعلموا براءة الرسول صلى الله عليه وسلم من الاستعانة بمن زعموهم يعينونه.
والتعريف في ﴿السر﴾ تعريف الجنس يستغرق كل سر، ومنه إسرار الطاعنين في القرآن عن مكابرة وبهتان، أي يعلم أنهم يقولون في القرآن ما لا يعتقدونه ظلما وزورا منهم، وبهذا يعلم موقع جملة ﴿إنه كان غفورا رحيما﴾ ترغيبا لهم في الإقلاع عن هذه المكابرة وفي اتباع دين الحق ليغفر الله لهم ويرحمهم، وذلك تعريض بأنهم إن لم يقلعوا ويتوبوا حق عليهم الغضب والنقمة.
[٧ - ٩] ﴿وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا﴾ .
انتقال من حكاية مطاعنهم في القرآن وبيان إبطالها إلى حكاية مطاعنهم في الرسول عليه الصلاة والسلام.". (٢)

---
(١) التحرير والتنوير ١٣/١٩
(٢) التحرير والتنوير ١٦/١٩

٢٩٦-"فلما أريد الإعراض عن باطلهم والإقبال على خطاب الرسول بتثبيته وتثبيت المؤمنين أعيد اللفظ الذي ابتدئت به السورة على طريقة وصل الكلام بقوله ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك﴾ .
وهذه الجملة استئناف واقع موقع الجواب عن قولهم ﴿أو تكون له جنة﴾ الخ، أي إن شاء جعل لك خيرا من الذي اقترحوه، أي أفضل منه، أي إن شاء عجله لك في الدنيا، فالإشارة إلى المذكور من قولهم، فيجوز أن يكن المراد بالجنات والقصور جنات في الدنيا وقصورا فيها، أي خيرا من الذي اقترحوه دليلا على صدقك في زعمهم بأن تكون عدة جنات وفيها قصور. وبهذا فسر جمهور المفسرين. وعلى هذا التأويل تكون "إن" الشرطية واقعة موقع "لو"، أي أنه لم يشأ ولو شاءه لفعله ولكن الحكمة اقتضت عدم البسط للرسول في هذه الدنيا ولكن المشركين لا يدركون المطالب العالية.
وقال ابن عطية: يحتمل أن يكون المراد بالجنات والقصور ليست التي في الدنيا، أي هي جنات الخلد وقصور الجنة فيكون وعد من الله لرسوله.
واقترن هذا الوعد بشرط المشيئة جار على ما تقتضيه العظمة الإلهية وإلا فسياق الوعد يقتضي الجزم بحصوله، فالله شاء ذلك لا محالة، بأن يقال: تبارك الذي جعل لك خيرا من ذلك. فموقع ﴿إن شاء﴾ اعتراض.
وأصل المعنى: تبارك الذي جعل لك خيرا من ذلك جنات إلى آخره. ويساعد هذا قراءة ابن كثير وابن عامر وأبي بكر عن عاصم ﴿ويجعل لك قصورا﴾ برفع ﴿يجعل﴾ على الاستئناف دون إعمال حرف الشرط، وقراءة الأكثر بالجزم عطفا على فعل الشرط وفعل الشرط محقق الحصول بالقرينة، وهذا المحمل أشد تبكيتا للمشركين وقطعا لمجادلتهم، وقرينة ذلك قوله بعده ﴿بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا﴾ [الفرقان: ١١]، وهو ضد ومقابل لما أعده لرسوله والمؤمنين.
والقصور: المباني العظيمة الواسعة على وجه الأرض وتقدم في قوله ﴿تتخذون من سهولها قصورا﴾ في سورة الأعراف، وقوله ﴿وقصر مشيد﴾ في [سورة الحج: ٤٥].
[١١] ﴿بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا﴾ .
﴿بل﴾ للإضراب، فيجوز أن يكون إضراب انتقال من ذكر ضلالهم في صفة". (١)

٢٩٧-"والسوء بفتح السين: الضر والعذاب، وأما بضم السين فهو ما يسوء. والفتح هو الأصل في مصدر ساءه؛ وأما السوء بالضم فهو اسم مصدر، فغلب استعمال المصدر في الذي يسوء بضر، واستعمال اسم المصدر في ضد الإحسان. وتفرع على تحقيق إتيانهم على القرية مع عدم انتفاعهم به استفهام صوري عن انتفاء رؤيتهم إياها حينما يأتون عليها، لأنهم لما لم يتعظوا بها كانوا بحال من يسأل عنهم: هل رأوها، فكان الاستفهام لإيقاظ العقول للبحث عن حالهم. وهو استفهام إما مستعمل في الإنكار والتهديد، وإما مستعمل في الإيقاظ سبب عدم اتعاظهم.
وقوله ﴿بل كانوا لا يرجون نشورا﴾ يجوز أن يكون ﴿بل﴾ للإضراب الانتقالي انتقالا من وصف تكذيبهم بالنبي صلى الله عله وسلم وعدم اتعاظهم بما حل بالمكذبين من الأمم إلى ذكر تكذيبهم بالبعث، فيكون انتهاء الكلام عند قوله ﴿أفلم

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/٢٠

يكونوا يرونها﴾ وهو الذي يجري على الوجه الأول في الاستفهام. وعبر عن إنكارهم البعث بعدم رجائه لأن منكر البعث لا يرجو منه نفعا ولا يخشى منه ضرا، فعبر عن إنكار البعث بأحد شقي الإنكار تعريضا بأنهم ليسوا مثل المؤمنين يرجون رحمة الله .

والنشور: مصدر نشر الميت أحياه، فنشر، أي حيي. وهو من الألفاظ التي جرت في كلام العرب على معنى التخيل لأنهم لا يعتقدونه، ويروي للمهلهل في قتاله لبني بكر بن وائل الذي قتلوا أخاه كليبا قوله:

يا لبكر انشروا لي كليبا

...

يا لبكر أين أين الفرار

فإذا صحت نسبة البيت إليه كان مراده من ذلك تعجيزهم ليتوسل إلى قتالهم.

والمعنى: أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث فلم يكن لهم استعداد للاعتبار، لأن الاعتبار ينشأ عن المراقبة ومحاسبة النفس لطلب النجاة، وهؤلاء المشركون لما نشأوا على إهمال الاستعداد لما بعد الموت قصرت أفهامهم على هذا العالم العاجل فلم يعنوا إلا بأسباب وسائل العاجلة، فهم مع زكانتهم في تفرس الذوات والشيات ومراقبة سير النجوم وأنواء المطر والريح ورائحة أتربة منازل الأحياء، هم مع ذلك كله معرضون بأنظارهم عن توسم الالهيات وحياة الأنفس ونحو ذلك. وأصل ذلك الضلال كله انجر لهم من إنكار البعث فلذلك جعل هنا علة لانتفاء اعتبارهم بمصير أمة كذبت رسولها وعصت ربها. وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾ أي دون من لا". (١)

٢٩٨-"عوضا عن المفعول الثاني لفعل ﴿أرأيت﴾ ، والفعل معلق عن العمل فيه بسبب الاستفهام عن نحو قوله تعالى ﴿أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار﴾ [الزمر: ١٩] وعليه لا يوقف على قوله ﴿هواه﴾ بل يوصل الكلام. وهذا النظم هو الذي مشى عليه كلام "الكشاف".

وإن كانت كل جملة من الجملتين مستقلة عن الأخرى في نظم الكلام كان الاستفهام الذي في الجملة الأولى مستعملا في التعجيب من حال الذين اتخذوا إلههم هواهم تعجيبا مشوبا بالإنكار، وكانت الفاء في الجملة الثانية للتفريع على ذلك التعجيب والإنكار، وكان الاستفهام الذي في الجملة الثانية من قوله ﴿أفأنت تكون عليه وكيلا﴾ إنكاريا بمعنى: إنك لا تستطيع قلعه عن ضلاله كما أشار إليه قوله قبله ﴿من أضل سبيلا﴾ [الفرقان: ٤٢].

و ﴿من﴾ صادقة على الجمع المتحدث عنه في قوله ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب﴾ [الفرقان: ٤٢]، وروعي في ضمائر الصلة لفظ ﴿من﴾ فأفردت الضمائر. والمعنى: من اتخذوا هواهم إلها لهم أو من اتخذوا آلهة لأجل هواهم.

و"إله" جنس يصدق بعدة آلهة إن أريد معنى اتخذوا آلهة لأجل هواهم. وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله ﴿أنت تكون عليه وكيلا﴾ للتقوي إشارة إلى إنكار ما حمل الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه من الحرص والحزن في طلب إقلاعهم

---

(١) التحرير والتنوير ٥٥/١٩

عن الهوى كقوله تعالى ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ [يونس: ٩٩]. والمعنى: تكون وكيلا عليه في حال إيمانه بحيث لا تفارق إعادة دعوته إلى الإيمان حتى تلجئه إليه.

[٤٤] ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾ .

انتقال عن التأييس من اهتادئهم لغلبة الهوى على عقولهم إلى التحذير من أن يظن بهم إدراك الدلائل والحجج، وهذا توجيه ثان للإعراض عن مجادلتهم التي أنبأ عنها قوله تعالى ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا﴾ [الفرقان: ٤٢]، ف ﴿أم﴾ منقطعة للإضراب **الانتقالي** من إنكار على إنكار وهي مؤذنة باستفهام عطفته على الاستفهام الذي قبلها. والتقدير: أم أتحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون.

والمراد من نفي ﴿أن أكثرهم يسمعون﴾ نفي أثر السماع وهو فهم الحق لأن ما يلقيه الرسول صلى الله عليه وسلم لا يرتاب فيه إلا من هو كالذي لم يسمعه. وهذا كقوله تعالى ﴿ولا". (١)

٢٩٩-"تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين﴾ .

وعطف ﴿أو يعقلون﴾ على ﴿يسمعون﴾ لنفي أن يكونوا يعقلون الدلائل غير المقالية وهي دلائل الكائنات قال تعالى ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ .

وإنما نفي فهم الأدلة السمعية والعقلية عن أكثرهم دون جميعهم، لأن هذا حال دهمائهم ومقلديهم، وفيهم معشر عقلاء يفهمون ويستدلون بالكائنات ولكنهم غلب عليهم حب الرئاسة وأنفوا من ان يعودوا أتباعا للنبي صلى الله عليه وسلم ومساوين للمؤمنين من ضعفاء قريش وعبيدهم مثل عمار، وبلال.

وجملة ﴿إن هم إلا ٧٤ كالأنعام﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا لأن ما تقدم إنكار أنهم يسمعون يثير في نفس السامعين سؤالا عن نفي فهمهم لما يسمعون مع سلامة حواس السمع منهم، فكان تشبيههم بالأنعام تبيينا للجمع بين حصول اختراق أصوات الدعوى آذانهم مع عدم انتفاعهم بها لعدم تهيئهم للاهتمام بها، فالغرض من التشبيه التقريب والإمكان كقول أبي الطيب:

فإن تفق الأنام وأنت منهم

...

فإن المسك بعض دم الغزال

وضمائر الجمع عائدة إلى أكثرهم باعتبار معنى لفظه كما عاد عليه ضمير ﴿يسمعون﴾ .

وانتقل في صفة حالهم إلى ما هو أشد من حال الأنعام بأنهم أضل سبيلا من الأنعام. وضلال السبيل عدم الاهتداء للمقصود لأن الأنعام تفقه بعض ما تسمعه من أصوات الزجر ونحوها من رعاتها وسائقيها وهؤلاء لا يفقهون شيئا من أصوات مرشدهم وسائسهم وهو الرسول عليه الصلاة والسلام. وهذا كقوله تعالى ﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة

---

(١) التحرير والتنوير ٦٠/١٩

لما يتفجر منه الأنهار﴾ [البقرة: ٧٤] الآية.

[٤٥ – ٤٦] ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا﴾ .

استئناف ابتدائي فيه **انتقال** من إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وإثبات ان القرآن من عند الله أنزله على رسوله، وصفات الرسل وما تخلل ذلك من الوعيد وهو من هذا الاعتبار". (١)

٣٠٠–"متصل بقوله ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ [الفرقان: ٣٢] الآية.

وفيه **انتقال** إلى الاستدلال على بطلان شركهم وإثبات الوحدانية لله وهو من هذه الجهة متصل بقوله في أول السورة ﴿واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا﴾ [الفرقان: ٣] الآية.

وتوجيه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقتضي أن الكلام متصل بنظيره من قوله تعالى ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض﴾ [الفرقان: ٢٠]. وما عطف عليه ﴿قل أذلك خير﴾ ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين﴾ ﴿وكفى بربك هاديا﴾ [الفرقان: ٣١] فكلها مخاطبات للنبي صلى الله عليه وسلم. وقد جعل مد الظل وقبضه تمثيلا لحكمه التدريج في التكوينات الإلهية والعدول بها عن الطفرة في الإيجاد ليكون هذا التمثيل بمنزلة كبرى القياس للتدليل على أن تنزيل القرآن منجما جار على حكمة التدرج لأنه أمكن في حصول المقصود، وذلك ما دل عليه قوله سابقا ﴿كذلك لنثبت به فؤادك﴾ [الفرقان: ٣٢]. فكان في قوله ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل..﴾ [الفرقان: ٤٥] الآية زيادة في التعليل على ما في قوله ﴿كذلك لنثبت به فؤادك﴾ [الفرقان: ٣٢] .

ويستتبع هذا إيماء إلى تمثيل نزول القرآن بظهور شمس في المواضع التي كانت مظللة إذ قال تعالى ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلا﴾ فإن حال الناس في الضلالة قبل نزول القرآن تشبه بحال امتداد ظلمة الظل، وصار ما كان مظللا ضاحيا بالشمس وكان زوال ذلك الظل تدريجا حتى ينعدم الفيء.

فنظم الآية بما اشتمل عليه من التمثيل أفاد تمثيل هيئة تنزيل القرآن منجما بهيئة مد الظل مدرجا ولو شاء لجعله ساكنا. وكان نظمها بجمله على حقيقة تركيبه مفيدا العبرة بمد الظل وقبضة في إثبات دقائق قدرة الله تعالى، وهذان المفادان من قبيل استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه الذي ذكرناه في المقدمة التاسعة. وكان نظم الكلام بمعنى ما فيه من الاستعارة التصريحية من تشبيه الهداية بنور الشمس. وبهذا النكتة عطف قوله ﴿ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا﴾ إلى قوله ﴿وجعل النهار نشورا﴾ [الفرقان: ٤٧].

والاستفهام تقرير فهو صالح لطبقات السامعين: من غافل يسأل عن غفلته ليقر بها". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٦١/١٩

(٢) التحرير والتنوير ٦٢/١٩

٣٠١-"مناسبة **الانتقال** من الاستدلال باعتبار أحوال الظل والضحاء إلى الاعتبار بأحوال الليل والنهار ظاهرة فالليل يشبه الظل في أنه ظلمة تعقب نور الشمس.

ومورد الاستدلال المقصد المستفاد من تعريف جزأي الجملة وهو قصر إفراد، أي لا يشركه غيره في جعل الليل والنهار. أما كون الجعل المذكور بخلق الله فهم يقرون به؛ ولكنهم لما جعلوا له شركاء على الإجمال أبطلت شركتهم بقصر التصرف في الأزمان على الله تعالى لأنه إذا بطل تصرفهم في بعض الموجودات اختلت حقيقة الإلهية عنهم إذ الإلهية لا تقبل التجزئة.

و ﴿لكم﴾ متعلق بـ ﴿جعل﴾ أي من جملة ما خلق له الليل أنه يكون لباسا لكم. وهذا لا يقتضي أن الليل عود الظلمة إلى جانب من الكرة الأرضية المحتجب عن شعاع الشمس باستداراته فتحصل من ذلك فوائد جمة منها ما في قوله تعالى بعد هذا ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار...﴾ الخ.

وقد رجع أسلوب الكلام من المتكلم إلى الغيبة على طريقة الالتفات.

و ﴿لباسا﴾ مشبه به على طريقة التشبيه البليغ، أي ساترا لكم يستر بعضكم عن بعض، وفي هذا الستر منن كثيرة لقضاء الحوائج التي يجب إخفاؤها.

وتقديم الاعتبار بحالة ستر الليل على الاعتبار بحالة النوم لرعي مناسبة الليل بالظل كما تقدم، بخلاف قوله ﴿وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا الليل لباسا﴾ في سورة [النبأ: ٨ - ١٠]، فإن نعمة النوم أهم من نعمة الستر، ولأن المناسبة بين نعمة خلق الأزواج وبين النوم أشد.

وقد جمعت الآية استدلالا وامتنانا فهي دليل على عظم قدرة الخالق، وهي أيضا تذكير بنعمه، فإن في اختلاف الليل والنهار آيات جمة لما يدل عليه حصول الظلمة من دقة نظام دوران الأرض حول الشمس ومن دقة نظام خلق الشمس، ولما يتوقف عليه وجود النهار من تغير دوران الأرض ومن فوائد نور الشمس، ثم ما في خلال ذلك من نظام النوم المناسب للظلمة حين ترتخي أعصاب الناس فيحصل لهم بالنوم تجدد نشاطهم، ومن الاستعانة على التستر بظلمة الليل ومن نظام النهار من تجدد النشاط وانبعاث الناس للعمل وسآمتهم من الدعة، مع ما هو ملائم لذلك من النور الذي به إبصار ما يقصده العاملون.

والسبات له معان متعددة في اللغة ناشئة عن التوسع في مادة السبت وهو القطع.". (١)

٣٠٢-"وأنسب المعاني بمقام الامتنان هو معنى الراحة وإن كان في كلا المعنيين اعتبار بدقيق صنع الله تعالى. وفسر الزمخشري السبات بالنوم على طريقة التشبيه البليغ ناظرا في ذلك إلى مقابلته بقوله ﴿وجعل النهار نشورا﴾ .

وإعادة فعل ﴿جعل﴾ في قوله ﴿وجعل النهار نشورا﴾ دون أن يعاد في قوله ﴿والنوم سباتا﴾ مشعرة بأنه تنبيه إلى أنه جعل مخالف لجعل الليل لباسا. وذلك أنه أخبر عنه بقوله ﴿نشورا﴾ ، والنشور: بعث الأموات، وهو إدماج للتذكير بالبعث وتعريض بالاستدلال على من أحالوه، بتقريبه بالهبوب في النهار. وفي هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم إذا أصبح "الحمد لله الذي أحيانا بعد إذ أماتنا وإليه النشور".

---

(١) التحرير والتنوير ٦٧/١٩

والنشور: الحياة بعد الموت، وتقدم قريبا عند قوله تعالى ﴿بل كانوا لا يرجون نشورا﴾ [الفرقان: ٤٠]. وهو هنا يحتمل عنيين أن يكون مرادا به البروز والانتشار فيكون ضد اللباس في قوله ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباسا﴾ فيكون الإخبار به عن النهار حقيقيا، والمنة في أن النهار ينتشر فيه الناس لحوائجهم واكتسابهم. ويحتمل أن يكون مرادا به بعث الأجساد بعد موتها فيكون الإخبار على طريقة التشبيه البليغ.

[٤٨ - ٥٠] ﴿وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا﴾ .

استدلال على الانفراد بالخلق وامتنان بتكوين الرياح والأسحبة والمطر. ومناسبة **الانتقال** من حيث ما في الاستدلال الذي قبله من ذكر حال النشور والامتنان به فانتقل إلى ما في الرياح من النشور بذكر وصفها بأنها نشر على قرأه الجمهور، أو لكونها كذلك في الواقع على قراءة عاصم. ومردود الاستدلال قصر إرسال الرياح وما عطف عليه على الله تعالى إبطالا لا دعاء الشركاء له في الإلهية بنفي الشركة في التصرف في هذه الكائنات وذلك ما لا ينكره المشركون كما تقدم مثله في قوله ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباسا﴾ الخ...

وأطلق على تكوين الرياح فعل ﴿أرسل﴾ الذي هو حقيقته في بعث شيء وتوجيهه، لأن حركة الرياح تشبه السير. وقد شاع استعمال الإرسال في إطلاق العنان لخيل السباق.

وهذا استدلال بدقيق خلق الله في تكوين الرياح، فالعامة يعتبرون بما هو داخل تحت". (١)

٣٠٣-"ونفي الضر بعد نفي النفع للتنبيه على انتفاء شبهة عبدة الأصنام في شركهم لأن موجب العبادة إما رجاء النفع وإما اتقاء ضر المعبود وكلاهما منتف عن الأصنام بالمشاهدة.

والتعبير بالفعل المضارع للدلالة على تجدد عبادتهم الأصنام وعدم إجداء الدلائل المقلعة عنها في جانبهم.

وجملة ﴿وكان الكافر على ربه ظهيرا﴾ تذييل لما قبله، فاللام في تعريف ﴿الكافر﴾ للاستغراق، أي على كل كافر على ربه ظهير.

وجعل الخبر عن الكافر خبرا لـ ﴿كان﴾ للدلالة على إن اتصافه بالخبر أمر متقرر معتاد من كل كافر.

والظهير: المظاهر، أي المعين، وتقدم في قوله تعالى ﴿ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ في [سورة الإسراء: ٨٨] وهو فعيل بمعنى مفاعل، أي مظاهر مثل حكيم بمعنى محكم، وعوين بمعنى معاون. وقول عمر بن معد يكرب:

أمن ريحانة الداعي السميع.

أي المسمع. قال في الكشاف "ومجيء فعيل بمعنى مفاعل غير عزيز". وهو مشتق من: ظاهر عليه، إذا أعان من يغالبه على غلبه، وأصله الأصيل مشتق من اسم جامد وهو اسم الظهر من الإنسان أو الدابة لأن المعاون أحدا على غلب غيره كأنه يحمل الغالب على المغلوب كما يحمل على ظهر الحامل، جعل المشرك في إشراكه مع وضوح دلالة عدم استئهال الأصنام

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/٦٨

للإلهية كأنه ينصر الأصنام على ربه الحق. وفي ذكر الرب تعريض بأن الكافر عاق لمولاه. وعن أبي عبيدة: ظهير بمعنى مظهور، أي كفر الكافر هين على الله، يعني أي فعيلا فيه بمعنى مفعول، أي مظهور عليه وعلى هذا يكون ﴿على﴾ متعلقا بفعل ﴿كان﴾ أي كان على الله هينا.

[٥٦ - ٥٧] ﴿وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا﴾

لما أفضى الكلام بأفانين **انتقالاته** إلى التعجيب من استمرارهم على أن يعبدوا ما لا يضرهم ولا ينفعهم أعقب بما يومئ إلى استمرارهم على تكذيبهم محمد صلى الله عليه وسلم في دعوى". (١)

٣٠٤-"والنهار خلفة: أي كل واحد منهما خلفة عن الآخر، أي فيما يعمل فيها من التدبر في أدلة العقيدة والتعبد والتذكر.

واللام في ﴿لمن أراد أن يذكر﴾ لام التعليل وهي متعلقة بـ ﴿جعل﴾ ، فأفاد ذلك أن هذا الجعل نافع من أراد أن يذكر أو أراد شكورا.

والتذكر: تفعل من الذكر، أي تكلف الذكر. والذكر جاء في القرآن بمعنى التأمل في أدلة الدين، وجاء بمعنى: تذكر فائت أو منسي، ويجمع المعنيين استظهار ما احتجب عن الفكر.

والشكور: بضم الشين مصدر مرادف الشكر، والشكر: عرفان إحسان المحسن. والمراد به هنا العبادة لأنها شكر لله تعالى. فتفيد الآية معنى: لينظر في اختلافهما المتفكر فيعلم أن لابد **لانتقالهما** من حال إلى حال مؤثر حكيم فيستدل بذلك على توحيد الخالق ويعلم أنه عظيم القدرة فيوقن بأنه لا يستحق غيره الإلهية، وليشكر الشاكر على ما في اختلاف الليل والنهار من نعم عظيمة منها ما ذكر في قوله تعالى ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا﴾ فيكثر الشاكرون على اختلاف أحوالهم ومناسباتهم، وتفيد معنى: ليتدارك الناسي ما فاته في الليل بسبب غلبة النوم أو التعب فيقضيه في النهار أو ما شغله عنه شواغل العمل في النهار فيقضيه بالليل عند التفرغ فلا يرزؤه ذلك ثواب أعماله. روي أن عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى يوما فقيل له: صنعت شيئا لم تكن تصنعه ؟ فقال: إنه بقي علي من وردي شيء فأحببت أن أقضيه وتلا قوله تعالى ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة﴾ الآية. ولمن أراد أن يتقرب إلى الله شكرا له بصلاة أو صيام فيكون الليل أسعد ببعض ذلك والنهار أسعد ببعض، فهذا مفاد عظيم في إيجاز بديع.

وجيء في جانب المتذكرين بقوله ﴿أن يذكر﴾ لدلالة المضارع على التجدد. واقتصر في جانب الشاكرين على المصدر بقوله ﴿أو أراد شكورا﴾ لأن الشكر يحصل دفعة. ولأجل الاختلاف بين النظمين أعيد فعل ﴿أراد﴾ إذ لا يلتئم عطف ﴿شكورا﴾ على ﴿أن يذكر﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿أن يذكر﴾ بتشديد الذال مفتوحة، وأصله: يتذكر فأدغمت التاء في الذال لتقاربهما. وقرأ حمزة وخلف ﴿أن

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/٧٨

يذكر﴾ بسكون الذال وضم الكاف وهو بمعنى". (١)

٣٠٥-"واعلم أن هذه الصلات التي أجريت على ﴿عباد الرحمن﴾ جاءت على أربعة أقسام: قسم هو من التحلي بالكمالات الدينية وهي التي ابتدئ بها من قوله تعالى ﴿والذين يمشون على الأرض هونا﴾ إلى قوله ﴿سلاما﴾ [الفرقان: ٧٥].

وقسم هو من التخلي عن ضلالات أهل الشرك وهو الذي من قوله ﴿والذين لا يدعون مع الله إلها آخر﴾ [الفرقان: ٦٨].

وقسم هو من الاستقامة على شرائع الإسلام وهو قوله ﴿والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما﴾ [الفرقان: ٦٤]، وقوله ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا﴾ [الفرقان: ٦٧] الآية، وقوله ﴿ولا يقتلون النفس﴾ إلى قوله ﴿لا يشهدون الزور﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٢] الخ.

وقسم من تطلب الزيادة من صلاح الحال في هذه الحياة وهو قوله ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا﴾ إلى قوله ﴿للمتقين إماما﴾ [الفرقان: ٧٤].

وظاهر قوله ﴿يمشون على الأرض هونا﴾ أنه مدح لمشية بالأرجل وهو الذي حمل عليه جمهور المفسرين.

وجوز الزجاج أن يكون قوله ﴿يمشون﴾ عبارة عن تصرفاتهم في معاشرة الناس فعبر عن ذلك **بالانتقال** في الأرض وتبعه ابن عطية وهذا الذي ذكره مأخوذ مما روي عن زيد بن أسلم كما سيأتي. فعلى الوجه الأول يكون تقييد المشي بأنه على الأرض ليكون في وصفه بالهون ما يقتضي أنهم يمشون كذلك اختيارا وليس ذلك عند المشي في الصعدات أو على الجنادل.

والهون: اللين والرفق. ووقع هنا صفة لمصدر المشي محذوف تقديره "مشيا" فهو منصوب على النيابة عن المفعول المطلق.

والمشي الهون: هو الذي ليس فيه ضرب بالأقدام وخفق النعال فهو مخالف لمشي المتجبرين المعجبين بنفوسهم وقوتهم. وهذا الهون ناشئ عن التواضع لله تعالى والتخلق بآداب النفس العالية وزوال بطر أهل الجاهلية فكانت هذه المشية من خلال الذين آمنوا على الضد من مشي أهل الجاهلية. وعن عمر بن الخطاب أنه رأى غلاما يتبختر في مشيته فقال له "إن البخترة مشية تكره إلا في سبيل الله". وقد مدح الله تعالى أقواما بقوله سبحانه ﴿يمشون على الأرض هونا﴾ فاقصد من مشيتك، وحكى الله تعالى عن لقمان لابنه ﴿ولا تمش في الأرض مرحا﴾ [الإسراء: ٣٧].". (٢)

٣٠٦-"و ﴿بل﴾ في حكاية جواب القوم لإضراب **الانتقال** من مقام إثبات صفاتهم إلى مقام قاطع للمجادلة في نظرهم وهو أنهم ورثوا عبادة هذه الأصنام، فلما طووا بساط المجادلة في صفات آلهتهم وانتقلوا إلى دليل التقليد تفاديا من كلفة النظر والاستدلال بالمصير إلى الاستدلال بالاقتداء بالسلف.

وقوله ﴿كذلك يفعلون﴾ تشبيه فعل الآباء بفعلهم وهو نعت لمصدر محذوف، والتقدير: يفعلون فعلا كذلك الفعل وقدم

---

(١) التحرير والتنوير ٨٦/١٩

(٢) التحرير والتنوير ٨٨/١٩

الجار والمجرور على ﴿يفعلون﴾ للاهتمام بمدلول اسم الإشارة.

واقتصر إبراهيم في هذا المقام "الذي رجحنا أنه أول مقام قام فيه الدعوة" على أن أظهر قلة اكتراثه بهذه الأصنام فقال ﴿فإنهم عدو لي﴾ لأنه أيقن بأن سلامته بعد ذلك تدل على أن الأصنام لا تضر وإلا لضرته

وضمير ﴿فإنهم﴾ عائد إلى ﴿ما كنتم تعبدون﴾ . وقوله ﴿وآباؤكم﴾ عطف على اسم ﴿كنتم﴾ . والعدو: مشتق من العدوان، وهو الإضرار بالفعل أو القول. والعدو: المبغض، فعدو: فعول بمعنى فاعل يلازم الإفراد والتذكير فلا تلحقه علامات التأنيث "إلا نادرا كقول عمر لنساء من الأنصار: يا عدوات أنفسهن". قال في "الكشاف": حملا على المصدر الذي على وزن فعول كالقبول والولوع.

والأصنام لا إدراك لها فلا توصف بالعداوة. ولذلك فقوله ﴿فإنهم عدو لي﴾ من قبيل التشبيه البليغ، أي هم كالعدو لي في أني أبغضهم وأضرهم. وهذا قريب من قوله تعالى ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾ أي عاملوه معاملة العدو عدوه. وبهذا الاعتبار جمع بين قوله ﴿لكم عدو﴾ وقوله ﴿فاتخذوه عدوا﴾ .

والتعبير عن الأصنام بضمير جمع العقلاء في قوله ﴿فإنهم﴾ دون ﴿فإنها﴾ جري على غالب العبارات الجارية بينهم عن الأصنام لأنهم يعتقدونها مدركة.

وجملة ﴿قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون﴾ مفرعة على جمل كلام القوم المتضمنة عبادتهم الأصنام وأنهم مقتدون في ذلك بآبائهم. فالفاء في ﴿أفرأيتم﴾ للتفريع وقدم عليها همزة الاستفهام اتباعا للاستعمال المعروف وهو صدارة أدوات الاستفهام. وفعل الرؤية قلبي.

ومثل هذا التركيب يستعمل في التنبيه على ما يجب أن يعلم على إرادة التعجيب مما يعلم من شأنه. ولذلك كثر إردافه بكلام يشير إلى شيء من عجائب أحوال مفعول الرؤية كقوله تعالى ﴿أفرأيت الذي تولى وأعطى قليلا﴾ [النجم: ٣٣ – ٣٤] الآية، ومنه تعقيب قوله". (١)

٣٠٧-"وفي قوله ﴿ما خلق لكم ربكم﴾ إيماء إلى الاستدلال بالصلاحية الفطرية لعمل على بطلان عمل يضاده، لأنه مناف للفطرة. فهو من تغيير الشيطان وإفساده لسنة الخلق والتكوين قال تعالى حكاية عنه ﴿ولآمرنهم فليغيرن خلق الله﴾ [النساء: ١١٩].

و ﴿بل﴾ لإضراب **الانتقال** من مقام الموعظة والاستدلال إلى مقام الذم تغليظا للإنكار بعد لينه لأن شرف الرسالة يقتضي الإعلان بتغيير المنكر والأخذ بأصرح مراتب الإعلان فإنه إن استطاع بلسانه غليظ الإنكار لا ينزل منه إلى لينه وأنه يبتدئ باللين فإن لم ينفع انتقل منه إلى ما هو أشد ولذلك انتقل لوط من قوله ﴿أتأتون الذكران﴾ إلى قوله ﴿بل أنتم قوم عادون﴾ .

وفي الإتيان بالجملة الاسمية في قوله ﴿أنتم قوم عادون﴾ دون أن يقول: بل كنتم عادين، مبالغة في تحقيق نسبة العدوان

(١) التحرير والتنوير ١٥١/١٩

إليهم. وفي جعل الخبر ﴿قوم عادون﴾ دون اقتصار على ﴿عادون﴾ تنبيه على أن العدوان سجية فيهم حتى كأنه من مقومات قوميتهم كما تقدم في قوله تعالى ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ في [سورة البقرة: ١٦٤].

والعادي: هو الذي تجاوز حد الحق إلى الباطل، يقال: عدا عليه، أي ظلمه، وعدوانهم خروجهم عن الحد الموضوع بوضع الفطرة إلى ما هو مناف لها محفوف بمفاسد التغيير للطبع.

[١٦٧ - ١٧٣] ﴿قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين قال إني لعملكم من القالين رب نجني وأهلي مما يعملون فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزا في الغابرين ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين﴾ .

قولهم كقول قوم نوح لنوح إلا أن هؤلاء قالوا ﴿لتكونن من المخرجين﴾ فهددوه بالإخراج من مدينتهم لأنه كان من غير أهل المدينة بل كان مهاجرا بينهم وله صهر فيهم.

وصيغة ﴿من المخرجين﴾ أبلغ من: لنخرجنك، كما تقدم في قوله تعالى ﴿لتكونن من المخرجين﴾ . وكان جواب لوط على وعيدهم جواب مستخف بوعيدهم إذ أعاد الإنكار ﴿قال إني لعملكم من القالين﴾ أي من المبغضين. وقوله ﴿من القالين﴾ أبلغ في الوصف من أن يقول: إني لعلمكم قال، كما تقدم في قوله تعالى ﴿قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ في [سورة البقرة: ٦٧]. وذلك أكمل في الجناس لأنه يكون جناسا تاما فقد حصل بين ﴿قال﴾ وبين ﴿القالين﴾ جناس مذيل ويسمى مطرفا.". (١)

٣٠٨-"إلى الإيمان يبرأ من هذا الحكم. وصيغ الخبر عنهم بالخسران في صيغة الجملة الاسمية وقرن بضمير الفصل للدلالة على ثبات مضمون الجملة وعلى انحصار مضمونها فيهم كما تقدم في قوله ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ [النمل: ٣].

وجاء المسند اسم تفضيل للدلالة على أنهم أوحدون في الخسران لا يشبهه خسران غيرهم لأن الخسران في الآخرة متفاوت المقدار والمدة وأعظمه فيهما خسران المشركين.

[٦] ﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ .

عطف على جملة ﴿تلك آيات القرآن﴾ **انتقال** من التنويه بالقرآن إلى التنويه بالذي أنزل عليه بأن القرآن آيات دالة على أنه كتاب مبين. وذلك آية أنه من عند الله، ثم بأنه آية على صدق من أنزل عليه إذ أنبأه بأخبار الأنبياء والأمم الماضين التي ما كان يعلمها هو ولا قومه قبل القرآن. وما كان يعلم خاصة أهل الكتاب إلا قليلا منها وأكثره محرف. وأيضا فهذا تميهد لما يذكر بعده من القصص.

و ﴿تلقى﴾ مضارع لقاه مبني للمجهول، أي جعله لاقيا. واللقي واللقاء: وصول أحد الشيئين إلى شيء آخر قصد أو مصادفة. والتلقية: جعل الشيء لاقيا غيره، قال تعالى ﴿ولقاهم نضرة وسرورا﴾ [الإنسان: ١١]، وهو هنا تمثيل لحال إنزال القرآن إلى النبي صلى الله عليه وسلم بحال التقلية كأن جبريل سعى للجمع بين النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن.

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٦/١٩

وإنما بني الفعل إلى غير مذكور للعلم بأنه لله أو جبريل، والمعنى واحد: وهو يكون التأكيد موجها إلى السامعين من الكفار على طريقة التعريض.

وفي إقحام اسم ﴿لدن﴾ بين ﴿من﴾ و ﴿حكيم﴾ تنبيه على شدة انتساب القرآن إلى جانب الله تعالى فإن أصل ﴿لدن﴾ الدلالة على المكان مثل "عند" ثم شاع إطلاقها على ما هو من خصائص ما تضاف هي إليه تنويها بشأنه، قال تعالى ﴿وعلمناه من لدنا علما﴾ [الكهف: ٦٥].

والحكيم: القوي الحكمة، والعليم: الواسع العلم. وفي التنكير إيذان بتعظيم هذا". (١)

٣٠٩-"الحكيم العليم كأنه قيل: من حكيم أي حكيم، وعليم أي عليم.

وفي الوصفين الشريفين مناسبة للمعطوف عليه وللممهد إليه، فإن ما في القرآن دليل على حكمة وعلم من أوحى به، وأن ما يذكر هنا من القصص وما يستخلص منها من المغازي والأمثال والموعظة، من آثار حكمة وعلم حكيم عليم وكذلك ما في ذلك من تثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم.

[٧] ﴿إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون﴾ .

قال الزجاج والزمخشري وغيرهما: انتصب ﴿إذ﴾ بفعل مضمر تقديره: اذكر، أي أن ﴿إذ﴾ مجرد عن الظرفية مستعمل بمعنى مطلق الوقت، ونصبه على المفعول به، أي اذكر قصة زمن قال موسى لأهله، يعني أنه جار على طريقة ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [البقرة: ٣٠].

فالجملة استئناف ابتدائي. ومناسبة موقعها إفادة تنظير تلقي النبي صلى الله عليه وسلم القرآن بتلقي موسى عليه السلام كلام الله إذ نودي ﴿يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾ [النمل: ٩].

وذلك من بديع التخلص إلى ذكر قصص هؤلاء الأنبياء عقب التنويه بالقرآن، وأنه من لدن حكيم عليم. والمعنى: أن الله يقص عليك من أنباء الرسل ما فيه مثل لك ولقومك وما يثبت به فؤادك.

وفي ذلك **انتقال** لنوع آخر من الإعجاز وهو الإخبار عن المغيبات وهو ما عددناه في الجهة الرابعة من جهات إعجاز القرآن في المقدمة العاشرة من المقدمات.

وجملة ﴿قال موسى لأهله﴾ إلى آخرها تمهيدا لجملة ﴿فلما جاءها نودي أن بورك من في النار﴾ [النمل: ٨] الخ. وزمان قول موسى لأهله هذه المقالة وهو وقت اجتلابه للمبادرة بالوحي إليه. فهذه القصة مثل ضربه الله لحال رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومه، ابتدئت بما تقدم رسالة موسى من الأحوال إدماجا للقصة في الموعظة.

والأهل: مراد به زوجه، ولم يكن معه إلا زوجه وابنان صغيران. والمخاطب بالقول زوجه، ويكنى عن الزوجة بالأهل. وفي الحديث "والله ما علمت على أهلي إلا خيرا" .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٣/١٩

ولم تظهر النار إلا لموسى دون غيره من أهله لأنها لم تكن نارا معتادة لكنها من". (١)

٣١٠-"سبعين سنة.

فخلفه سليمان فهو وارث ملكه القائم في مقامه في سياسة الأمة وظهور الحكمة ونبوءة بني إسرائيل والسمعة العظيمة بينهم. فالإرث هنا مستعمل في معناه المجازي وهو تشبيه الأحوال الجليلة بالمال وتشبيه الخلفة بانتقال ملك الأموال لظهور أن ليس غرض الآية إفادة من انتقلت إليه أموال داود بعد قوله ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا﴾ [النمل: ١٥]فتعين أن إرث المال غير مقصود فإنه غرض تافه.

وقد كان لداود أحد عشر ولدا فلا يختص إرث ماله بسليمان وليس هو أكبرهم، وكان داود قد أقام سليمان ملكا على إسرائيل. وبهذا يظهر أن ليس في الآية ما يحتج به أن يورث مال النبي وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا نورث ما تركناه صدقة" ، وظاهره أنه أراد من الضمير جماعة الأنبياء وشاع على ألسنة العلماء: إنا أو نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ولا يعرف بهذا اللفظ ووقع في كلام عمر بن الخطاب مع العباس وعلي في شأن صدقة النبي صلى الله عليه وسلم قال عمر أنشدكما الله هل تعلمان أن رسول الله قال: لا نورث ما تركنا صدقة، يريد رسول الله نفسه وكذلك قالت عائشة، فإذا أخذنا بظاهر الآية كان هذا حكما في شرع من قبلنا فينسخ بالإسلام، وإذا أخذنا بالتأويل فظاهر. وقد أجمع الخلفاء الراشدون وغيرهم على ذلك، خلافا للعباس وعلي ثم رجعا حين حاجهما عمر. والعلة هي سد ذريعة خطور تمني موت النبي في نفس بعض ورثته.

﴿وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين﴾ .

قال سليمان هذه المقالة في مجمع عظيم لأن لهجة هذا الكلام لهجة خطبته في مجمع من الناس الحاضرين مجلسه من الخاصة والسامعين من العامة. فهذه الجملة متضمنة شكر الله تعالى ما منحه من علم وملك، وليقدر الناس قدره ويعلموا واجب طاعته إذ كان الله قد اصطفاه لذلك، وأطلعه على نوايا أنفر الحيوان وأبعده عن إلف الإنسان وهو الطير، فما ظنك بمعرفة نوايا الناس من رعيته وجنده فإن تخطيط رسوم الملك وواجباته من المقاصد لصلاح المملكة بالتفاف الناس حول ملكهم وصفاء النيات نحوه، وبمقدار ما يحصل ذلك من جانبهم يكون التعاون على الخير وتنزل السكينة الربانية، فلما حصل من جانب سليمان الاعتراف بهذا الفضل لله تعالى فقد أدى واجبه نحو أمته فلم يبق". (٢)

٣١١-"فالاستفهام عما حصل له في هذه الحال، أي عن المانع لرؤية الهدهد. والكلام موجه إلى خفرائه. يعني: أكان انتفاء رؤيتي الهدهد من عدم إحاطة نظري أم من اختفاء الهدهد ؟ فالاستفهام حقيقي وهو كناية عن عدم ظهور الهدهد.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٤/١٩

(٢) التحرير والتنوير ٢٣٤/١٩

و ﴿أم﴾ منقطعة لأنها تقع بعد همزة الاستفهام التي يطلب بها تعيين أحد الشيئين. و ﴿أم﴾ لا يفارقها تقدير معنى الاستفهام بعدها فأفادت هنا إضراب **الانتقال** من استفهام إلى استفهام آخر. والتقدير: بل أكان من الغائبين؟ وليست ﴿أم﴾ المنقطعة خاصة بالوقوع بعد الخبر بل كما تقع بعد الخبر تقع بعد الاستفهام.

وصاحب المفتاح مثل بهذه الآية لاستعمال الاستفهام في التعجب والمثال يكفي فيه الفرض. ولما كان قول سليمان هذا صادرا بعد تقصيه أحوال الطير ورجح ذلك عنده أنه غاب فقال: ﴿لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه﴾ لأن تغيبه من دون إذن عصيان يقتضي عقابه وذلك موكول لاجتهاد سليمان في المقدار الذي يراه استصلاحا له إن كان يرجى صلاحه أو إعداما له لئلا يلقن بالفساد غيره فيدخل الفساد في الجند ويكون عقابه نكالا لغيره. فصمم سليمان على أنه يفعل به عقوبة جزاء على عدم حضوره في الجنود. ويؤخذ من هذا جواز عقاب الجندي إذا خالف ما عين له من عمل أو تغيب عنه.

وأما عقوبة الحيوان فإنما تكون عند تجاوزه المعتاد في أحواله. قال القرافي في "تنقيح الفصول" في آخر فصوله: سئل الشيخ عز الدين بن عبد السلام عن قتل الهر الموذي هل يجوز؟ فكتب وأنا حاضر: إذا خرجت أذيته عن عادة القطط وتكرر ذلك منه قتل اه. قال القرافي: فاحترز بالقيد الأول عما هو في طبع الهر من أكل اللحم إذا ترك فإذا أكله لم يقتل لأنه طبعه، واحترز بالقيد الثاني عن أن يكون ذلك منه على وجه القلة فإن ذلك لا يوجب قتله. قال القرافي: وقال أبو حنيفة إذا آذت الهرة وقصد قتلها لا تعذب ولا تخنق بل تذبح بموسى حادة لقوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة" اهـ. وقال الشيخ ابن أبي زيد في الرسالة: ولا بأس إن شاء الله بقتل النمل إذا آذت ولم يقدر على تركها. فقول سليمان ﴿لأعذبنه عذابا شديدا﴾ شريعة منسوخة.

أما العقاب الخفيف للحيوان لتربيته وتأديبه كضرب الخيل لتعليم السير ونحو ذلك فهو مأذون فيه لمصلحة السير، وكذلك السبق بين الخيل مع ما فيه من إتعابها لمصلحة السير عليها في الجيوش.". (١)

٣١٢-"فاعل ﴿جاء﴾ الركب المعهود في إرسال هدايا أمثال الملوك.

وقد أبى سليمان قبول الهدية لأن الملكة أرسلتها بعد بلوغ كتابه ولعلها سكتت عن الجواب عما تضمنه كتابه من قوله ﴿وأتوني مسلمين﴾ فتبين له قصدها من الهدية أن تصرفه عن محاولة ما تضمنه الكتاب، فكانت الهدية رشوة لتصرفه عن بث سلطانه على مملكة سبأ.

والخطاب في ﴿أتمدونن﴾ لوفد الهدية لقصد تبليغه إلى الملكة لأن خطاب الرسل إنما يقصد به من أرسلهم فيما يرجع إلى الغرض المرسل فيه.

والاستفهام إنكاري لأن حال إرسال الهدية والسكوت عن الجواب يقتضي محاولة صرف سليمان عن طلب ما طلبه بما بذل له من المال، فيقتضي أنهم يحسبونه محتاجا إلى مثل ذلك المال فيقتنع بما وجه إليه.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٣/١٩

ويظهر أن الهدية كان ذهبا ومالا.

وقرأ الجمهور ﴿أتمدونني﴾ بنونين. وقرأه حمزة وخلف بنون واحدة مشددة بالإدغام. والفاء لتفريع الكلام الذي بعدها على الإنكار السابق، أي أنكرت عليكم ظنكم فرحي بما وجهتم لي لأن ما أعطاني الله خير مما أعطاكم، أي فهو أفضل منه في صفات الأموال من نفاسة ووفرة.

وسوق التعليل يشعر بأنه علم أن الملكة لا تعلم أن لدى سليمان من الأموال ما هو خير مما لديها لأنه لو كان يظن أنها تعلم ذلك لما احتاج إلى التفريع.

وهذا من أسرار الفرق في الكلام البليغ بين الواو والفاء في هذه الجملة فلو قال: وما آتاني الله خير مما آتاكم، لكان مشعرا بأنها تعلم ذلك لأن الواو تكون واو الحال.

و ﴿بل﴾ للإضراب **الانتقالي** وهو **انتقال** من إنكاره عليهم إمداده بمال إلى رد ذلك المال وإرجاعه إليهم.

وإضافة ﴿هديتكم﴾ تشبيه، تحتمل أن تكون من إضافة الشيء إلى ما هو في معنى المفعول، أي مما تهدونه. ويجوز أن يكون شبيهة بالإضافة إلى ما هو في معنى المفعول، أي بما يهدى إليكم. والخبر استعمل كناية عن رد الهدية للمهدي.

ومعنى ﴿تفرحون﴾ يجوز أن يكون تسرون، ويجوز أن يكون تفتخرون، أي أنتم". (١)

٣١٣-"وجملة ﴿قالت رب إني ظلمت نفسي﴾ جواب عن قول سليمان ﴿إنه صرح ممرد من قوارير﴾ ولذلك لم تعطف.

والإسلام: الانقياد إلى الله تعالى. وتقلد بلقيس للتوحيد كان في خاصة نفسها لأنها دانت لله بذلك إذ لم يثبت أن أهل سبأ انخلعوا عن عبادة الأصنام كما يأتي في سورة سبأ. وأما دخول اليهودية بلاد اليمن فيأتي في سورة البروج. وسكت القرآن عن بقية خبرها ورجوعها إلى بلادها وللقصاصين أخبار لا تصح فهذا تمام القصة.

ومكان العبرة منها الاتعاظ بحال هذه الملكة، إذ لم يصدها علو شأنها وعظمة سلطانها مع ما أوتيته من سلامة الفطرة وذكاء العقل عن أن تنظر في دلائل صدق الداعي إلى التوحيد وتوقن بفساد الشرك وتعترف بالوحدانية لله، فما يكون إصرار المشركين على شركهم بعد أن جاءهم الهدي الاسلامي إلا لسخافة أحلامهم أو لعمايتهم عن الحق وتمسكهم بالباطل وتصلبهم فيه. ولا أصل لما يذكره القصاصون وبعض المفسرين من أن سليمان تزوج بلقيس ولا أن له ولدا منها. فان رحبعام ابنه الذي خلفه في الملك كان من زوجة عمونية.

[٤٥] ﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون﴾ .

هذا مثل ثالث ضربه الله لحال المشركين مع المؤمنين وجعله تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن له أسوة بالرسل والأنبياء من قبله.

والانتقال من ذكر ملك سليمان وقصة ملكة سبأ إلى ذكر ثمود ورسولهم دون ذكر عاد لمناسبة جوار البلاد لأن ديار ثمود

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦٢/١٩

كانت على تخوم مملكة سليمان وكانت في طريق السائر من سبأ إلى فلسطين.
ألا ترى أنه أعقب ذكر ثمود بذكر قوم لوط وهم أدنى إلى بلاد فلسطين فكان سياق هذه القصص مناسبا لسياق السائر من بلاد اليمن إلى فلسطين. ولما كان ما حل بالقوم أهم ذكرا في هذا المقام قدم المجرور على المفعول لأن المجرور هو محل العبرة، وأما المفعول فهو محل التسلية، والتسلية غرض تبعي.
ولام القسم لتأكيد الإرسال باعتبار ما اتصل به من بقية الخبر؛ فإما أن يكون التأكيد". (١)

٣١٤-"ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلونذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون﴾
﴿أم﴾ منقطعة بمعنى ﴿بل﴾ للإضراب **الانتقالي** من غرض إلى غرض مع مراعاة وجود معنى الاستفهام أو لفظه بعدها لأن ﴿أم﴾ لا تفارق معنى الاستفهام. انتقل بهذا الإضراب من الاستفهام الحقيقي التهكمي إلى الاستفهام التقريري، ومن المقدمة الإجمالية وهي قوله ﴿آلله خير أما يشركون﴾ ، إلى الغرض المقصود وهو الاستدلال. عدد الله الخيرات والمنافع من آثار رحمته ومن آثار قدرته. فهو استدلال مشوب بامتنان لأنه ذكرهم بخلق السماوات والأرض فشمل ذلك كل الخلائق التي تحتوي عليها الأرض من الناس والعجماوات، فهو امتنان بنعمة إيجادهم وإيجاد ما به قوام شؤونهم في الحياة، وبسابق رحمته، كما عددها في موضع آخر عليهم بقوله ﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ .
و ﴿من﴾ للاستفهام. وهي مبتدأ والخبر جملة ﴿خلق السماوات..﴾ الخ وهو استفهام تقريري على أن الله إله واحد لا شريك له، ولا تقدير في الكلام. وذهب الزمخشري وجميع متابعيه إلى أن ﴿من﴾ موصولة وأن خبرها محذوف دل عليه قوله فيما تقدم ﴿آلله خير﴾ [النمل: ٥٩] وأن بعد "أم" همزة استفهام محذوفة، والتقدير: بل أمن خلق السماوات الخ خير أم ما تشركون. وهو تفسير لا داعي إليه ولا يناسب معنى الإضراب لأنه يكون في جملة الغرض الأول على ما فسر به في "الكشاف" فلا يجدر به إضراب **الانتقال**.
فالاستفهام تقرير كما دل عليه قوله في نهايته في ﴿أإله مع الله﴾ فهو تقرير لإثبات أن الخالق والمنبت والرازق هو الله، وهو مشوب بتوبيخ، فلذلك ذيل بقوله ﴿بل هم قوم يعدلون﴾ كما سيأتي، أي من غرض الدليل الإجمالي إلى التفصيل.
والخطاب بـ ﴿لكم﴾ موجه إلى المشركين للتعويض بأنهم ما شكروا نعمة الله.
وذكر إنزال الماء لأنه من جملة ما خلقه الله، ولقطع شبهة أن يقولوا: إن المنبت للشجر الذي فيه رزقنا هو الماء، اغترارا بالسبب فبودروا بالتذكير بأن الله خلق الأسباب وهو الأسباب وهو خالق المسببات بإزالة الموانع والعوارض العارضة لتأثير الأسباب وبتوفير القوى الحاصلة في الأسباب، وتقدير المقادير المناسبة للانتقاء بالأسباب، فقد ينزل الماء بإفراط فيجرف

---
(١) التحرير والتنوير ٢٧٠/١٩

الزرع والشجر أو يقتلهما، ولذلك جمع بين قوله ﴿وأنزلنا﴾ وقوله ﴿فأنبتنا﴾ تنبيها". (١)

٣١٥-"وأيا ما كان فالمقصود توبيخهم على الإشراك مع وضوح دلالية خلق السماوات والأرض وما ينزل من السماء إلى الأرض من الماء.

ولما كانت تلك الدلالة أوضح الدلالات المحسوسة الدالة على انفراد الله بالخلق وصف الذين أشركوا مع الله غيره بأنهم في إشراكهم معرضون إعراض مكابرة عدولا عن الحق الواضح قال تعالى ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾ [لقمان: ٢٥].

والإخبار عنهم بالمضارع لإفادة أنهم مستمرون على شركهم لم يستنيروا بدليل العقل ولا أقلعوا بعد التذكير بالدلائل. وفي الإخبار عنهم بأنهم قوم إيماء إلى تمكن صفة العدول عن الحق منهم حتى كأنها من مقومات قوميتهم كما تقدم غير مرة.

[٦١] ﴿أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ ﴿أم﴾ للإضراب **الانتقالي** مثل أختها السابقة. وهذا **انتقال** من الاستدلال المشوب بالامتنان إلى الاستدلال المجرد بدلائل قدرته وعلمه بأن خلق المخلوقات العظيمة وتدبيره نظامها حتى لا يطغى بعضها على بعض فيختل نظام الجميع.

ولأجل كون الغرض من هذا الاستدلال إثبات عظم القدرة وحكمة الصنع لم يجيء خلاله بخطاب للمشركين كما جاء في قوله في الآية قبلها ﴿وأنزل لكم من السماء ماء﴾ [النمل: ٦٠] الآية، وإن كان هذا الصنع العجيب لا يخلو من لطف بالمخلوقات أراده خالقها، ولكن ذلك غير مقصود بالقصد الأول من سوق الدليل هنا.

والقرار: مصدر قر، إذا ثبت وسكن. ووصف الأرض به للمغالبة، أي ذات قرار. والمعنى جعل الأرض ثابتة قارة غير مضطربة. وهذا تدبير عجيب ولا يدرك تمام هذا الصنع العجيب إلا عند العلم بأن هذه الأرض سابحة في الهواء متحركة في كل لحظة وهي مع ذلك قارة فيما يبدو لسكانها فهذا تدبير أعجب، وفيه مع ذلك رحمة ونعمة، ولولا قرارها لكان الناس عليها متزلزلين مضطربين ولكانت أشغالهم معنتة لهم.

ومع جعلها قرارا شق فيها الأنهار فجعلها خلالها. وخلال الشيء: منفرج ما بين أجزائه. والأنهار تشق الأرض في أخاديد فتجري خلالها الأرض.". (٢)

٣١٦-"[٦٣] ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون﴾

﴿بل﴾ لإضراب **الانتقال** من نوع دلائل التصرف في أحوال عامة الناس إلى دلائل التصرف في أحوال المسافرين منهم في

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/٢٨٥

(٢) التحرير والتنوير ١٩/٢٨٧

البر والبحر فإنهم أدرى بهذه الأحوال وأقدر لما في خلالها من النعمة والامتنان.

ذكر الهداية في ظلمات الليل في البر والبحر. وإضافة الظلمات إلى البر والبحر على معنى ﴿في﴾ . والهدى في هذه الظلمات بسير النجوم كما قال تعالى ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾ . فالله الهادي للسير في تلك الظلمات بأن خلق النجوم على نظام صالح للهداية في ذلك، وبأن ركب في الناس مدارك للمعرفة بإرصاد سيرها وصعودها وهبوطها، وهداهم أيضا بمهاب الرياح، وخولهم معرفة اختلافها بإحساس جفافها ورطوبتها، وحرارتها وبردها.

وبهذه المناسبة أدمج الامتنان بفوائد الرياح في إثارة السحاب الذي به المطر وهو المعني برحمة الله. وإرساله الرياح هو خلق أسباب تكونها.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿نشرا﴾ بضمتين وبالنون وقرأه ابن عامر بضم فسكون. وقرأ عاصم ﴿بشرا﴾ بالموحدة وبسكون الشين مع التنوين. وقرأه حمزة والكسائي بفتح النون وسكون الشين. وقد تقدم في سورة الفرقان: ٤٨] ﴿وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته﴾ ، وتقدم في [سورة الأعراف: ٥٧] ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته﴾ ، وتوجيه هذه القراءات هنالك.

وذيل هذا الدليل بتنزيه الله تعالى عن إشراكهم معه آلهة لأن هذا خاتمة الاستدلال عليهم بما لا ينازعون في أنه من تصرف الله فجيء بعده بالتنزيه عن الشرك كله وذلك تصريح بما أشارت إليه التذييلات السابقة.

[٦٤] ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ هذا **انتقال** إلى الاستدلال بتصرف الله تعالى بالحياة الأولى والثانية وبإعطاء المدد لدوام الحياة الأولى مدة مقدرة. وفيه تذكير بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد. والاستفهام". (١)

٣١٧-"﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٧]. فأضاف "غيب" إلى ضمير الجلالة.

وأردف هذا الخبر بإدماج انتفاء علم هؤلاء الزاعمين علم الغيب أنهم لا يشعرون بوقت بعثهم بل جحدوا وقوعه إثارة للتذكير بالبعث لشدة عناية القرآن بإثباته وتسفيه الذين أنكره. فلذلك موقع قوله ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾ ، أي أن الذين يزعمون علم الغيب ما يشعرون بوقت بعثهم.

و ﴿أيان﴾ اسم استفهام عن الزمان وهو معلق فعل ﴿يشعرون﴾ عن العمل في مفعوليه. وهذا تورك وتعيير للمشركين فإنهم لا يؤمنون بالبعث بلة شعورهم بوقته.

و ﴿بل﴾ للإضراب **الانتقالي** من الإخبار عنهم ب ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾ وهو ارتقاء إلى ما هو أغرب وأشد ارتقاء من تعييرهم بعدم شعورهم بوقت بعثهم إلى وصف علمهم بالآخرة التي البعث من أول أحوالها وهو الواسطة بينها وبين الدنيا بأنه علم متدارك أو مدرك.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩١/١٩

وقرأ الجمهور ﴿أدارك﴾ بهمز وصل في أوله وتشديد الدال على أن أصله "تدارك" فأدغمت تاء التفاعل في الدال لقرب مخرجيها بعد أن سكنت واجتلب همز الوصل للنطق بالساكن. قال الفراء وشمر: وهو تفاعل من الدرك بفتحتين وهو اللحاق. وقد امتلكت اللغويين والمفسرين حيرة في تصوير معنى الآية على هذه القراءة تثار منه حيرة للناظر في توجيه الإضرابين اللذين بعد هذا الإضراب وكيف يكونان ارتقاء على مضمون هذا **الانتقال**، وذكروا وجوها مثقلة بالتكلف.

والذي أراه في تفسيرها على هذا الاعتبار اللغوي أن معنى التدارك هو أن علم بعضهم لحق علم بعض آخر في أمر الآخرة لأن العلم، وهو جنس، لما أضيف إلى ضمير الجماعة حصل من معناه علوم عديدة بعدد أصنام الجماعات التي هي مدلول الضمير فصار المعنى: تداركت علومهم بعضها بعضا.

وذلك صالح لمعنيين: أولهما أن يكون التدارك وهو التلاحق الذي هو استعمال مجازي يساوي الحقيقة، أي تداركت علوم الحاضرين مع علوم أسلافهم، أي تلاحقت وتتابعت فتلقى الخلف عن السلف علمهم في الآخرة وتقلدوها عن غير بصيرة ولا نظر، وذلك أنهم أنكروا البعث ويشعر لذلك قوله تعالى عقبه ﴿وقال الذين كفروا أإذا كنا ترابا". (١)

٣١٨-"عن بعض ما يعلمون في شأن الآخرة وهو ما اشتهر عنهم من إنكار الحياة الآخرة، أو قد اضطرب ما يعلمونه في شأن الآخرة وأنهم سيعلمون ذلك لا محالة في يوم الدار الآخرة.

وحاصل المعنى على قراءة ابن كثير وأبي عمرو وأبي جعفر: ما يشعرون أيان يبعثون فإنهم لا علم لهم بالحياة الآخرة، أي جهلوا الحياة الآخرة.

أما عدد القراءات الشاذة في هذه الجملة فبلغت عشرا.

وأما جملة ﴿بل هم في شك منها بل هم منها﴾ فهو إضراب **انتقال** للارتقاء من كونهم اضطرب علمهم في الآخرة، أو تقلد خلفهم ما لقنه سلفهم، أو من أنهم انتفى علمهم في الآخرة إلى أن ذلك الاضطراب في العلم قد أثار فيهم شكا من وقوع الآخرة. و"من" للابتداء المجازي، أي في شك ناشئ عن أمر الآخرة. وجيء بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات الخبر ودوامه، والظرفية للدلالة على إحاطة الشك بهم.

وجملة ﴿بل هم منها عمون﴾ ارتقاء ثالث وهو آخر درجات الارتقاء في إثبات ضلالهم وهو أنهم عميان عن شأن الآخرة. و ﴿عمون﴾ : جمع عم بالتنوين وهو فعل من العمى، صاغوا له مثال المبالغة للدلالة على شدة العمى، وهو تشبيه عدم العلم بالعمى، وعادم العلم بالأعمى. وقال زهير:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله

...

ولكنني عن علم ما في غد عم

فشبه ضلالهم عن البعث بالعمى في عدم الاهتداء إلى المطلوب تشبيه المعقول بالمحسوس.

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/٢٩٤

و"من" في قوله ﴿منها عمون﴾ للابتداء المجازي، جعل عماهم وضلالهم في إثبات الآخرة كأنه ناشئ لهم من الآخرة إذ هي سبب عماهم، أي إنكارها سبب ضلالهم. وفي الكلام مضاف محذوف تقديره: من إنكار وجودها عمون، فالمجرور متعلق بـ ﴿عمون﴾ . وقدم على متعلقة للاهتمام بهذا المتعلق وللرعاية على الفاصلة. وصيغت الجملة الاسمية للدلالة على الثبات كما في قوله ﴿بل هم في شك منها﴾ .

وترتيب هذه الإضرابات الثلاثة ترتيب لتنزيل أحوالهم؛ فوصفوا أولا بأنهم لا يشعرون بوقت البعث، ثم بأنهم تلقفوا في شأن الآخرة التي البعث من شؤونها علما مضطربا أو جهلا فخبطوا في شك ومرية، فأعقبهم عمى وضلالة بحيث إن هذه **الانتقالات** مندرجة متصاعدة حتى لو قيل: بل أدارك علمهم في الآخرة فهم في شك منها فهم منها". [١]

٣١٩-"عمون لحصل المراد. ولكن جاءت طريقة التدرج بالإضراب **الانتقالي** أجزل وأبهج وأروع وأدل على أن كل من هذه الأحوال المرتبة جدير بأن يعتبر فيه المعتبر باستقلاله لا بكونه متفرعا على ما قبله، وهذا البيان هو ما أشرت إليه آنفا عند الكلام على قراءة الجمهور ﴿أدارك﴾ من خفاء توجيه الإضرابين اللذين بعد الإضراب الأول.

وضمائر جمع الغائبين في قوله ﴿يشعرون، يبعثون، علمهم، هم في شك، هم منها عمون﴾ عائدة إلى "من" الموصولة في قوله تعالى ﴿قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله﴾ . و"من" هذه وإن كانت من صيغ العموم فالضمائر المذكورة عائدة إليها بتخصيص عمومها ببعض من في الأرض وهم الذين يزعمون أنهم يعلمون الغيب من الكهان والعرافين وسدنة الأصنام الذين يستقسمون للناس بالأزلام ، وهو تخصيص لفظي من دلالة السياق وهو من قسم المخصص المنفصل اللفظي. والخلاف الواقع بين علماء الأصول في اعتبار عود الضمير إلى بعض أفراد العام مخصصا للعموم يقرب من أن يكون خلافا لفظيا. الضمير إلى أفراد العام مخصصا للعموم يقرب من أن يكون خلافا لفظيا. ومنه قوله تعالى ﴿وبعولتهن أحق بردهن﴾ [البقرة: ٢٢٨] فإن ضمير ﴿بعولتهن﴾ عائد إلى المطلقات الرجعيات من قوله تعالى ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن﴾ [البقرة: ٢٢٨] الذي هو عام للرجعيات وغيرهن.

وبهذا تعلم أن التعبير بـ ﴿الذين كفروا﴾ هنا ليس من الإظهار في مقام الإضمار لأن الذين كفروا أعم من ما صدق "من" في قوله ﴿لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب﴾ .

[٦٧ - ٦٨] ﴿وقال الذين كفروا أإذا كنا ترابا وآباؤنا أإنا لمخرجون لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين﴾

أعقب وصف عماية الزاعمين علم الغيب بذكر شبهتهم التي أرتهم البعث مستحيل الوقوع، ولذلك أسند القول هنا إلى جميع الذين كفروا دون خصوص الذين يزعمون علم الغيب، ولذلك عطف الجملة لأنها غايرت التي قبلها بأنها أعم.

والتعبير عنهم باسم الموصول لما في الموصول من الإيماء إلى علة قولهم هذه المقالة وهي ما أفادته الصلة من كونهم كافرين

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/٢٩٦

فكأنه قيل: وقالوا بكفرهم أإذا كنا ترابا..إلى آخره استفهاما بمعنى الإنكار.". (١)

٣٢٠-"[القصص: ٥٦] وقوله ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ . وسيجيء في تفسير نظير هذه الآية من سورة الروم توجيه لتعداد التشابيه الثلاثة زائدا على ما هنا فأنظره.

وقرأ حمزة وحده ﴿وما أنت تهدي﴾ بمثناه فوقية في موضع الموحدة وبدون ألف بعد الهاء.

﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾

استئناف بياني لترقب السامع معرفة من يهتدون بالقرآن.

والإسماع مستعمل في معناه المجازي كما تقدم.

وأوثر التعبير بالمضارع في قوله ﴿من يؤمن﴾ ليشمل من آمنوا من قبل فيفيد المضارع استمرار إيمانهم ومن سيؤمنون.

وقد ظهر من التقسيم الحاصل من قوله ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ إلى هنا، أن الناس قسمان منهم من طبع الله على قلبه وعلم أنه لا يؤمن حتى يعاجله الهلاك ومنهم من كتب الله له السعادة فيؤمن سريعا أو بطيئا قبل الوفاة.

وفرع عليه ﴿فهم مسلمون﴾ المفيد للدوام والثبات لأنهم إذا آمنوا فقد صار الإسلام راسخا فيهم ومتمكنا منهم، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

[٨٢] ﴿وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾

هذا انتقال إلى التذكير بالقيامة وما ادخر لهم من الوعيد. فهذه الجملة معطوفة على الجمل قبلها عطف قصة على قصة. ومناسبة ذكرها ما تقدم من قوله ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ إلى قوله ﴿عن ضلالتهم﴾ . والضمير عائد إلى الموتى والصم والعمي وهم المشركون.

و ﴿القول﴾ أريد به أخبار الوعيد التي كذبوها متهكمين باستبطاء وقوعها بقولهم ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ فالتعريف فيه للعهد يفسره المقام.

والوقوع مستعار لحلول وقته وذلك من وقت تهيؤ العالم للفناء إلى أن يدخل الجنة الجنة وأهل النار النار.". (٢)

٣٢١-"في قوله تعالى بعد هذا ﴿ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض﴾ [النمل: ٨٧] وهو في معنى قوله تعالى ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ [يس: ٥٩] فيحشر من كل أمة مكذبو رسولها.

والفوج: الجماعة من الناس. و ﴿من﴾ الداخلة على ﴿كل أمة﴾ تبعيضية. وأما ﴿من﴾ الداخلة على ﴿من يكذب﴾ فيجوز جعلها بيانية فيكون فوج كل أمة. وهذا الفوج هو زعماء المكذبين وأئمتهم فيكونون في الرعيل الأول إلى العذاب. وهذا قول ابن عباس إذ قال: مثل أبي جهل والوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة يساقون بين يدي أهل مكة، وكذلك يساق

(١) التحرير والتنوير ٢٩٧/١٩

(٢) التحرير والتنوير ٣٠٩/١٩

أمام كل طائفة زعماؤها. وتقدم تفسير ﴿فهم يوزعون﴾ في قصة سليمان من هذه السورة.

والمعنى هنا: أنهم يزجرون إغلاظا عليهم كما يفعل بالأسرى.

والقول في ﴿حتى إذا جاءوا﴾ كالقول في ﴿حتى إذا أتوا على واد النمل﴾ ولم يذكر الموضع الذي جاءوه لظهوره وهو مكان العذاب، أي جهنم كما قال في الآية ﴿حتى إذا ما جاءوها﴾ في [سورة فصلت: ٢٠].

و ﴿حتى﴾ في ﴿حتى إذا ما جاءوها﴾ ابتدائية. و ﴿إذا﴾ الواقعة بعد ﴿حتى﴾ ظرفية والمعنى: حتى حين جاءوا.

وفعل ﴿قال أكذبتم بآياتي﴾ هو صدر الجملة في التقدير وما قبله مقدم من تأخير للاهتمام. والتقدير: وقال أكذبتم بآياتي يوم نحشر من كل أمة فوجا وحين جاءوا. وفي ﴿قال﴾ التفات من التكلم إلى الغيبة.

وقوله ﴿أكذبتم بآياتي﴾ قول صادر من جانب الله تعالى يسمعونه أو يبلغهم إياه الملائكة.

والاستفهام يجوز أن يكون توبيخا مستعملا في لازمه وهو الإلجاء إلى الاعتراف بأن المستفهم عنه واقع منهم تبكيتا لهم، ولهذا عطف عليه قوله ﴿أماذا كنتم تعملون﴾ . فحرف ﴿أم﴾ فيه بمعنى "بل" **للانتقال** ومعادل همزة الاستفهام المقدرة محذوف دل عليه قوله ﴿أم ماذا كنتم تعملون﴾ . والتقدير: أكذبتم بآياتي أم لم تكذبوا فماذا كنتم تعملون إن لم". (١)

٣٢٢-"الواو للحال من ضمير ﴿لأخته﴾ [القصص: ١١]. والتحريم: المنع، وهو تحريم تكويني، أي قدرنا في نفس الطفل الامتناع من التقام أثداء المراضع وكراهتها ليضطر آل فرعون إلى البحث عن مرضع يتقبل ثديها؛ لأن فرعون وامرأته حريصان على حياة الطفل، ومن مقدمات ذلك أن جعل الله إرضاعه من أمه مدة تعود فيها بثديها.

ومعنى ﴿من قبل﴾ من قبل التقاطه وهو إيذان بأن ذلك التحريم مما تعلق به علم الله وإرادته في الأزل.

والفاء في قوله ﴿فقالت﴾ فاء فصيحة تؤذن بجملة مقدرة، أي فأظهرت أخته نفسها كأنها مرت بهم عن غير قصد. وإنما قالت ذلك بعد أن فشا في الناس طلب المراضع له وتبديل مرضعة عقب أخرى حتى عرض على عدد كثير في حصة قصيرة، وذلك بسرعة مقدرة آل فرعون وكثرة تفتيشهم على المراضع حتى ألفوا عددا كثيرا في زمن يسير، وأيضا لعرض المراضع أنفسهن على آل فرعون لما شاع أنهم يتطلبون مرضعا.

وعرضت سعيها في ذلك بطريق الاستفهام المستعمل في العرض تلطفا مع آل فرعون وإبعادا للظنة عن نفسها.

ومعنى ﴿يكفلونه﴾ يتعهدون بحفظه وإرضاعه. فيدل هذا على أن عادتهم في الإرضاع أن يسلم الطفل إلى المرأة التي ترضعه يكون عندها كما كانت عادة العرب لأن النساء الحرائر لم يكن يرضين بترك بيوتهن **والانتقال** إلى بيوت آل الأطفال الرضعاء. كما جاء في خبر إرضاع محمد صلى الله عليه وسلم عند حليمة بنت وهب في حي بني سعد بن بكر. قال صاحب (الكشاف): فدفعه فرعون إليها وأجرى لها وذهبت به إلى بيتها.

والعدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية في قوله ﴿وهم له ناصحون﴾ لقصد تأكيد أن النصح من سجاياهم ومما ثبت لهم فلذلك لم يقل: وينصحون له كما قيل ﴿يكفلونه لكم﴾ لأن الكفالة أمر سهل بخلاف النصح والعناية.

---

(١) التحرير والتنوير ٣١١/١٩

وتعليق ﴿له﴾ بـ ﴿ناصحون﴾ ليس على معنى التقييد بل لأنه حكاية الواقع. فالمعنى: أن النصح من صفاتهم فهو حاصل له كما يحصل لأمثاله حسب سجيتهم. والنصح: العمل الخالص الخلي من التقصير والفساد.

[١٣] ﴿فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾". (١)

٣٢٣-"وسادسه: أنه لا يجوز بحكم التعقل أن تستأصل أمة كاملة لتوقع مفسد فيها لعدم التوازن بين المفسدتين، ولأن الإحاطة بأفراد أمة كاملة متعذرة فلا يكون المتوقع فساده إلا في الجانب المغفول عنه من الأفراد فتحصل مفسدتان هما أخذ البريء وانفلات المجرم.

وسابعه: تعليم أن الله بالغ أمره بتهيئة الأسباب المفضية إليه ولو شاء الله لأهلك فرعون ومن معه بحادث سماوي ولما قدر لإهلاكهم هذه الصورة المرتبة ولأنجى موسى مبني إسرائيل إنجاء أسرع ولكنه أراد أن يحصل ذلك بمشاهدة تنقلات الأحوال ابتداء من إلقاء موسى في اليم إلى أن رده إلى أمه فتكون في ذلك عبرة للمشركين الذين ﴿قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال: ٣٢] وليتسموا من بوارق ظهور النبي محمد صلى الله عليه وسلم **وانتقال** أحوال دعوته في مدارج القوة أن ما وعدهم به واقع بأخرة.

وثامنه: العبرة بأن وجود الصالحين من بين المفسدين فإن وجود امرأة فرعون كان سببا في صد فرعون عن قتل الطفل مع أنه تحقق أنه إسرائيل فقالت امرأته ﴿لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا﴾ [القصص: ٩] كما قدمنا تفسيره.

وتاسعه: ما في قوله ﴿ولتعلم أن وعد الله حق﴾ من الإيماء إلى تذكير المؤمنين بأن نصرهم حاصل بعد حين، ووعيد المشركين بأن وعيدهم لا مفر لهم منه.

وعاشره: ما في قوله ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ من الإشارة إلى أن المرء يؤتي من جهله النظر في أدلة العقل.

ولما في هذه القصة من العبر اكتفى مصعب بن الزبير بطالعها عن الخطبة التي حقه أن يخطب بها في الناس حين حلوله بالعراق من قبل أخيه عبد الله بن الزبير مكتفيا بالإشارة مع التلاوة فقال ﴿طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا في الأرض﴾ وأشار إلى جهة الشام يريد عبد الملك بن مروان ﴿وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾ وأشار بيده نحو الحجاز، يعني أخاه عبد الله بن الزبير وأنصاره ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما (وأشار إلى العراق يعني الحجاج) ﴿منهم ما كانوا يحذرون﴾ .

[القصص : ١- ٦] .". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٢٥

(٢) التحرير والتنوير ٢٠/٢٧

٣٢٤-"الله فلا تسمع أحدا من المشركين يقول: الحمد للعزى، مثلا.

فاللام في ﴿له﴾ للملك، أي لا يملك الحمد غيره، وتقديم المجرور لإفادة الاختصاص وهو اختصاص حقيقي.

تعريف ﴿الحمد﴾ تعريف الجنس المفيد للاستغراق، أي له كل حمد.

و ﴿الأولى﴾ هي الدنيا وتخصيص الحمد به في الدنيا اختصاص لجنس الحمد به لأن حمد غيره مجاز كما تقدم في أول الفاتحة.

وأما الحمد في الآخرة فهو ما في قوله ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده﴾ . واختصاص الجنس به في الآخرة حقيقة.

وقوله ﴿وله الحكم﴾ اللام فيه أيضا للملك. والتقديم للاختصاص أيضا. والحكم: القضاء وهو تعيين نفع أو ضر للغير. وحذف المتعلق بالحكم لدلالة قوله ﴿في الأولى والآخرة﴾ عليه، أي له الحكم في الدارين. والاختصاص مستعمل في حقيقته ومجازه لأن الحكم في الدنيا يثبت لغير الله على المجاز، وأما الحكم في الآخرة فمقصود على الله. وفي هذا إبطال لتصرف آلهة المشركين فيما يزعمونه من تصرفاتها وإبطال لشفاعتها التي يزعمونها في قولهم ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ أي في الآخرة إن كان ما زعمتم من البعث.

وأما جملة ﴿وإليه ترجعون﴾ فمسوقة مساق التخصيص بعد التعميم، فبعد أن أثبت لله كل حمد وكل حكم، أي أنكم ترجعون إليه في الآخرة فتمجدونه ويجري عليكم حكمه. والمقصود بهذا إلزامهم بإثبات البعث.

وتقديم المجرور في ﴿وإليه ترجعون﴾ للرعاية على الفاصلة وللاهتمام بالانتهاء إليه أي إلى حكمه.

﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون﴾

انتقال من الاستدلال على انفراده تعالى بالإلهية بصفات ذاته إلى الاستدلال على ذلك ببديع مصنوعاته، وفي ضمن هذا الاستدلال إدماج الامتنان على الناس وللتعويض". (١)

٣٢٥-"وفيه إيماء إلى تعظيم شأن الرسول صلى الله عليه وسلم

ومعنى ﴿فرض عليك القرآن﴾ اختاره لك من قولهم: فرض له كذا، إذا عين له فرضا، أي نصيبا. ولما ضمن ﴿فرض﴾ معنى (أنزل) لأن فرض القرآن هو إنزاله، عدي فرض بحرف (على).

والرد: إرجاع شيء إلى حاله أو مكانه. والمعاد: اسم مكان العود، أي الأول كما يقتضيه حرف الانتهاء. والتنكير في ﴿معاد﴾ للتعظيم كما يقتضيه مقام الوعد والبشارة، وموقعهما بعد قوله ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ ١ [القصص: ٨٤]، أي إلى معاد أي معاد.

والمعاد يجوز أن يكون مستعملا في معنى آخر أحوال الشيء وقراره الذي لا **انتقال** منه تشبيها بالمكان العائد إليه بعد أن صدر منه أو كناية عن الأخارة فيكون مرادا به الحياة الآخرة. قال ابن عطية: وقد اشتهر يوم القيامة بالمعاد نه معاد الكل

---

(١) التحرير والتنوير ٩٨/٢٠

اه. أي فأبشر بما تلقى في معادك من الكرامة التي لا تعادلها كرامة والتي لا تعطى لأحد غيرك. فتنكير ﴿معاد﴾ أفاد أنه عظيم الشأن، وترتبه على الصلة أفاد أنه لا يعطى لغيره مثله كما أن القرآن لم يفرض على أحد مثله.

ويجوز أن يراد بالمعاد معناه المشهود القريب من الحقيقة. وهو ما يعود إليه المرء إن غاب عنه، فيراد هنا بلده الذي كان به وهو مكة. وهذا الوجه يقتضي انه كناية عن خروجه منه ثم عوده إليه لأن الرد يستلزم المفارقة. وإذ قد كانت السورة مكية ورسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة فالوعد بالرد كناية عن الخروج منه قبل أن يرد عليه. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أري في النوم أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل كما في حديث البخاري، وكان قال له ورقة بن نوفل: يا ليتني أكون معك إذ يخرجك قومك وغن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا، فما كان ذلك كله ليغيب عن علم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه قد قيل: إن هذه الآية نزلت عليه وهو في الجحفة في طريقه إلى الهجرة كما تقدم في أول السورة فوعد بالرد عليها وهو دخوله إليها فاتحا لها ومتمكنا منها. فقد روي عن ابن عباس تفسير المعاد بذلك وكلا الوجهين يصح أن يكون مرادا على ما تقرر في المقدمة التاسعة.

_

١ في المطبوعة (عشر أمثالها)". (١)

٣٢٦-"في معتقداتهم ومن ترفع عن رذائلهم. والمعنى: أحسب الذين قالوا آمنا أن يتركهم أعداء الدين دون أن يفتنوهم. ومن فسروا الفتون هنا بما شمل التكاليف الشاقة مثل الهجرة والجهاد قد ابتعدوا عن مهيع المعنى واللفظ وناكدوا ما تفرع عنه من قوله ﴿فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ .

وإنما لم نقدر فاعل ﴿يتركوا﴾ و ﴿يفتنون﴾ أنه الله تعالى تحاشيا مع التشابه مع وجود مندوحة عنه.

وهذه الفتنة مراتب أعظمها التعذيب كما فعل ببلال، وعمار بن ياسر وأبويه.

[٣] ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾

انتقال إلى التنويه بالفتون لأجل الإيمان بالله بأنه سنة الله في سالف أهل الإيمان وتأكيد الجملة بلام القسم وحرف التحقيق لتنزيل المؤمنين حين استظعفوا ما نالهم من الفتنة من المشركين واستبطأوا النصر على الظالمين، وذهولهم عن سنة الكون في تلك الحالة منزلة من ينكر أن من يخالف الدهماء في ضلالهم ويتجافى عن أخلاقهم ورذالتهم لا بد أن تلحقه منهم فتنة.

ولما كان هذا السنن من آثار ما طبع الله عليه عقول غالب البشر وتفكيرهم غير المعصوم بالدلائل وكان حاصلا في الأمم السالفة كلها أسند فتون تلك الأمم إلى الله تعالى إسنادا مجازيا لأنه خالق أسبابه كما خلق أسباب العصمة منه لمن كان أهلا للعصمة من مثله، وفي هذا الإسناد إيماء إلى ان الذي خلق أسباب تلك الفتن قريبها وبعيدها قادر على صرفها بأسباب تضادها. وإلى هذا يشير دعاء موسى عليه السلام المحكي في [سورة يونس: ٨٨]﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/١٢٠

يروا العذاب الأليم﴾ فسأل الله أن يخلق ضد الأسباب التي غرت فرعون وملأه وغشيت على قلبه بالضلال.
والمقصود التذكير بما لحق صالحي الأمم السالفة من الأذى والاضطهاد كما لقي صالحو النصارى من مشركي الرومان في عصور المسيحية الأولى، وقد قص القرآن بعض ذلك في سورة البروج.
وحكمها سار في حال كل من يتمسك بالحق بين قوم يستخفون به من المسلمين لأن". (١)

٣٢٧-"من إثبات تعلقين لعلم الله تعالى: أحدهما قديم، والآخر تنجيزي حادث. ولا يفضي ذلك إلى اتصاف الله تعالى بوصف حادث لأن تعلق الصفة تحقق مقتضاها في الخارج لا في ذات موصوفها، وتقدم عند قوله تعالى ﴿إلا لنعلم من يتبع الرسول﴾ في [سورة البقرة: ١٤٣]، وقوله ﴿وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء﴾ في [آل عمران: ١٤٠]. ولك أن تجعل العلم هنا مكنى به عن وعد الصادقين ووعيد الكاذبين لأن العلم سبب للجزاء بما يقتضيه فكانت الكناية مقصودة وهو المعنى الأهم.
وقد عدل في قوله ﴿فليعلمن الله﴾ عن طريق التكلم إلى طريق الغيبة بإظهار اسم الجلالة على أسلوب الالتفات لما في هذا الإظهار من الجلالة ليعلم أن الجزاء على ذلك جزاء مالك الملك.
وتعريف المتصدقين بصدق الإيمان بالموصول والصلة الماضوية لإفادة أنهم اشتهروا بحدثان صدق الإيمان وان صدقهم محقق.
وأما تعريف المتصفين بالكذب بطريق التعريف باللام وبصيغة اسم الفاعل فلإفادة أنهم عهدوا بهذا الوصف وتميزوا به مع ما في ذلك من التفنن والرعاية على الفاصلة.
روى الطبري عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: نزلت هذه الآية ﴿الم أحسب الناس أن يتركوا﴾ إلى قوله ﴿وليعلمن الكاذبين﴾ [العنكبوت: ١-٣] في عمار بن ياسر غذ كان يعذب في الله، أي وأمثاله عياش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، وسلمة ابن هشام ممن كانوا يعذبون بمكة وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو لهم الله بالنجاة لهم وللمستضعفين من المؤمنين.
[٤] ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون﴾
أعقب تثبيت المؤمنين على ما يصيبهم من فتون المشركين وما في ذلك من الوعد والوعيد بزجر المشركين على ما يعملونه من السيئات في جانب المؤمنين وأعظم تلك السيئات فتونهم المسلمين. فالمراد بالذين يعملون السيئات الفاتنون للمؤمنين. وهذا ووعيدهم بان الله لا يفلتهم. وفي هذا أيضا زيادة تثبيت للمؤمنين بأن الله ينصرهم من أعدائهم.
ف ﴿أم﴾ للإضراب **الانتقالي** ويقدر بعدها استفهام إنكاري.
و ﴿السيئات﴾ : الأعمال السوء. وهي التنكيل والتعذيب وفتون المسلمين.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٠/٢٠
(٢) التحرير والتنوير ١٣٢/٢٠

٣٢٨-"إن الله على كل شيء قدير﴾

اعتراض **انتقالي** من الإنكار عليهم ترك الاستدلال بما هو بمرأى منهم، إلى إرشادهم للاستدلال بما هو بعيد عنهم من أحوال إيجاد المخلوقات وتعاقب الأمم وخلف بعضها عن بعض، فإن تعود الناس بما بين أيديهم يصرف عقولهم عن التأمل فيما وراء ذلك من دلائل دقائقها على ما تدل عليه، فلذلك أمر الله رسوله أن يدعوهم إلى السير في الأرض ليشاهدوا آثار خلق الله الأشياء من عدم فيوقنوا أن إعادتها بعد زوالها ليس بأعجب من ابتداء صنعها.

وإنما أمر بالسير في الأرض لأن السير يدني إلى الرائي مشاهدات جمة من مختلف الأرضين بجبالها وأنهارها ومحتوياتها ويمر به على منازل الأمم حاضرها وبائدها فيرى كثيرا من أشياء وأحوال لم يعتد رؤية أمثالها، فإذا شاهد ذلك جال نظر فكره في تكوينها بعد العدم جولانا لم يكن يخطر له ببال حينما كان يشاهد أمثال تلك المخلوقات في ديار قومه، لأنه لما نشأ فيها من زمن الطفولة فما بعده قبل حدوث التفكير في عقله اعتاد أن يمر ببصره عليها دون استنتاج من دلائلها حتى إذا شاهد أمثالها مما كان غائبا عن بصره جالت في نفسه فكرة الاستدلال، فالسير في الأرض وسيلة جامعة لمختلف الدلائل فلذلك كان الأمر به لهذا الغرض من جوامع الحكمة. وجيء في جانب بدء الخلق بالفعل الماضي لأن السائر ليس له من قرار في طريقه فنذر أن يشهد حدوث بدء مخلوقات، ولكنه يشهد مخلوقات مبدوءة من قبل فيفطن إلى أن الذي أوجدها إنما أوجدها بعد أن لم تكن وأنه قادر على إيجاد أمثالها فهو بالأحرى قادر على إعادتها بعد عدمها.

والاستدلال بالأفعال التي مضت أمكن لأن للشيء المتقرر تحققا محسوسا.

وجيء في هذا الاستدلال بفعل النظر لأن إدراك ما خلقه الله حاصل بطريق البصر وهو بفعل النظر أولى وأشهر لينتقل منه إلى إدراك أنه ينشئ النشأة الآخرة.

ولذلك أعقب بجملة ﴿ثم الله ينشئ النشأة الآخرة﴾ فهي جملة مستقلة. و ﴿ثم﴾ للترتيب الرتبي كما تقدم في قوله ﴿ثم يعيده﴾ .

وإظهار اسم الجلالة بعد تقدم ضميره في قوله ﴿كيف بدأ الخلق﴾ وكان مقتضى الظاهر أن يقول: ثم ينشئ. قال في الكشاف: لأن الكلام كان واقعا في الإعادة فلما قررهم في الإبداء بأنه من الله احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء، فالذي لم يعجزه". (١)

٣٢٩-"في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾

﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾

هذا الكلام عقبت به قصة إبراهيم تبيانا لفضله إذ لا علاقة له بالقصة. والظاهر أن يكون المراد بـ ﴿وهبنا، وجعلنا﴾ الإعلام بذلك فيكون من تمام القصة كما في سورة هود. وتقدم نظير هذه الآية في الأنعام في ذكر فضائل إبراهيم. والكتاب مراد به الجنس فالتوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن كتب نزلت في ذرية إبراهيم.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/١٥٣

[٢٧] ﴿وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾
جمع الله له أجرين: أجرا في الدنيا بنصره على أعدائه وبحسن السمعة وبث التوحيد ووفرة النسل، وأجرا في الآخرة وهو كونه في زمرة الصالحين، والتعريف للكمال، أي من كمل الصالحين.
[٢٨-٣٠] ﴿ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين قال رب انصرني على القوم المفسدين﴾
الانتقال من رسالة إبراهيم إلى قومه إلى رسالة لوط لمناسبة أنه شابه إبراهيم في أن أنجاه الله من عذاب الرجز. والقول في صدر هذه الآية كالقول في آية ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه﴾ المتقدم آنفا. وتقدم نظيرها في سورة النمل وفي سورة الشعراء.
وما بين الآيات من تفاوت هو تفنن في حكاية القصة للغرض الذي ذكرته في المقدمة السابعة، إلا قوله هنا ﴿إنكم لتأتون الفاحشة﴾ فإنه لم يقع له نظير فيما مضى.
وقوم لوط من الكنعانيين وتقدم ذكرهم في سورة الأعراف.
وتوكيد الجملة بـ(إن) واللام توكيد لتعلق النسبة بالمفعول لا تأكيد للنسبة، فالمقصود". (١)

٣٣٠-"مضى بيانه في سورة هود.
[٣٥] ﴿ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون﴾
عطف على جملة ﴿ولوطا إذ قال لقومه﴾ الخ عطف آية على آية لأن قصة لوط آية بما تضمنته من الخبر، وآثار قرية قومه آية أخرى بما يمكن مشاهدته لأهل البصر. ويجوز أن تكون جملة معترضة في آخر القصة. وعلى كلا الوجهين فهو من كلام الله. ونون المتكلم المعظم ضمير الجلالة وليست ضمير الملائكة. والآية: العلامة الدالة على أمر.
ومفعول ﴿تركنا﴾ يجوز أن يكون ﴿آية﴾ فيجعل (من) حرف جر وهو مجرور وصفا لـ ﴿آية﴾ قدم على موصوفه للاهتمام فيجعل حالا من ﴿ آية ﴾ .
ويجوز أن تكون (من) للابتداء، أي تركنا صادرة من آثارها ومعرفة خبرها، وهي آية واضحة دائمة على طول الزمان إلى الآن ولذلك وصفت بـ ﴿بينة﴾ ، ولم توصف آية السفينة بـ ﴿بينة﴾ في قوله ﴿وجعلناها آية للعالمين﴾ ، لأن السفينة قد بليت ألواحها وحديدها أو بقي منها لا يظهر إلا بعد تفتيش إن كان.
ويجوز جعل (من) اسما بمعنى بعض على رأي من رأى ذلك من المحققين، فتكون (من) مفعولا مضافا إلى ضمير (قرية). وتقدم بيان ذلك عند قوله تعالى ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله﴾ الآية في [سورة البقرة: ٨]. والمعنى: ولقد تركنا من القرية آثارا دالة لقوم يستعملون عقولهم في الاستدلال بالآثار على أحوال أهلها. وهذه العلامة هي بقايا قريتهم مغمورة بماء بحيرة لوط تلوح من تحت المياه شواهد القرية، وبقايا لون الكبريت والمعدن التي رجمت بها قريتهم وفي ذلك عدة أدلة باختلاف

---

(١) التحرير والتنوير ١٦١/٢٠

مدارك المستدلين.

ويتعلق قوله ﴿لقوم يعقلون﴾ بقوله ﴿تركنا﴾ ، أو يجعل ظرفا مستقرا صفة لـ ﴿آية﴾ .

[٣٦] ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾

عطف على ﴿ولوطا﴾ [العنكبوت: ٢٨] المعطوف على ﴿نوحا﴾ [العنكبوت: ١٤] المعمول لـ ﴿أرسلنا﴾ [العنكبوت: ١٤]. فالتقدير: وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبا.

والمناسبة في **الانتقال** من قصة لوط وقومه إلى قصة مدين ورسولهم أن مدين". [(١)]

٣٣١-"والإحياء، والإماتة، من أجل ذلك عقبت بأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بان يحمده بكلام يدل على تخصيصه بالحمد.

[٦٣] ﴿قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾

لما اتضحت الحجة على المشركين بأن الله منفرد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، ولزم من ذلك أن ليس لأصنامهم شرك في هذه الأفعال التي هي أصول نظام ما على الأرض من الموجودات فكان ذلك موجبا لإبطال شركهم بما لا يستطيعون إنكاره ولا تأويله بعد أن قرعت أسماعهم دلائله وهم واجمون لا يبدون تكذيبا فلزم من ذلك صدق الرسول عليه الصلاة والسلام فيما دعاهم إليه. وكذبهم فيما تطاولوا به عليه في أمر الله ورسوله بأن يحمده على أن نصره بالحجة نصرا يؤذن بأنه سينصره بالقوة. وتلك نعمة عظيمة تستحق أن يحمد الله عليها إذ هو الذي لقنها رسوله صلى الله عليه وسلم بكتابه وما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان.

فهذا الحمد المأمور به متعلقه محذوف تقديره: الحمد لله على ذلك. وهو الحجج المتقدمة، وليس خاصا بحجة إنزال الماء من السماء، وكذلك شأن القيود الواردة بعد جمل متعددة أن ترجع إلى جميعها، وكذلك ترجع معها متعلقاتها بكسر اللام وقرينة المقام كنار على علم، ألا ترى أن كل حجة من تلك الحجج تستأهل أن يحمد الله على إقامتها فلا تختص بالحمد حجة إنزال المطر فقد قال تعالى في [سورة لقمان: ٢٥] ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ فلذلك لا يجعل قوله ﴿قل الحمد لله﴾ اعتراضا.

و ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ إضراب **انتقال** من حمد الله على وضوح الحجج إلى ذم المشركين بأن أكثرهم لا يتفطنون لنهوض تلك الحجج الواضحة فكأنهم لا عقل لهم لأن وضوح الحجج يقتضي أن يفطن لنتائجها كل ذي مسكة من عقل فنزلوا منزلة من لا عقول لهم.

وإنما أسند عدم العقل إلى أكثرهم دون جميعهم لأن من عقلائهم وأهل الفطن منهم من وضحت له تلك الحجج فمنهم من آمنوا، ومنهم من أصروا على الكفر عنادا.

[٦٤] ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/١٦٧

هذا الكلام مبلغ إلى الفريقين اللذين تضمنهما قوله تعالى ﴿بل أكثرهم لا يعقلون﴾". (١)

٣٣٢-"أفادت الفاء تفريع ما بعدها على ما قبلها، والمفرع عليه محذوف ليس هو واحدا من الأخبار المتقدمة بخصوصه ولكنه مجموع ما تدل عليه قوة الحديث عنهم وما تقتضيه الفاء. والتقدير: هم أي المشركون على ما وصفوا به من الغفلة عن دلائل الوحدانية وإلغائهم ما في أحوالهم من دلائل الاعتراف لله بها لا يضرعون إلا إلى الله فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله، فضمائر جمع الغائبين عائدة إلى المشركين.

وهذا **انتقال** إلى إلزامهم بما يقتضيه دعاؤهم حين لا يشركون فيه إلها آخر مع الله بعد إلزامهم بموجبات اعترافاتهم فإنهم يدعون أصنامهم في شؤون من أحوالهم ويستنصرونهم ولكنهم إذا أصابهم هول توجهوا بتضرعهم إلى الله.

وإنما خص بالذكر حال خوفهم من هول البحر في هذه الآية وفي آيات كثيرة مثل ما في سورة يونس وما في سورة الإسراء لأن أسفارهم في البر كانوا لا يعتريهم فيها خوف يعم جميع السفر لأنهم كانوا يسافرون قوافل، معهم سلاحهم، ويمرون بسبل يألفونها فلا يعترضهم خوف عام، فأما سفرهم في البحر فإنهم يفرقون من هوله ولا يدفعه عنهم وفرة عدد ولا قوة عدد، فهم يضرعون إلى الله بطلب النجاة ولعلهم لا يدعون أصنامهم حينئذ.

فأما تسخير المخلوقات فما كانوا يطمعون به إلا من الله تعالى، وأيضا كان يخامرهم الخوف عند ركوبهم في البحر لقلة إلفهم بركوبه إذ كان معظم أسفارهم في البراري.

وقد تقدم تعدية الركوب بحرف (في) عند قوله ﴿وقال اركبوا فيها﴾ في [سورة هود: ٤١]. والإخلاص: التمحيض والإفراد. والدين: المعاملة. والمراد به هنا الدعاء، أي دعوا الله غير مشركين معه أصنامهم. ويفسر ذلك قوله ﴿فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ .

فجيء بحرف المفاجأة للدلالة على أنهم ابتدروا إلى الإشراك في حين حصولهم في البر، أي أسرعوا إلى ما اعتادوه من زيارة أصنامهم والذبح لها. والمفاجأة عرفية بحسب ما يقتضيه الإرساء في البر والوصول إلى مواطنهم فكانوا يبادرون بإطعام الطعام عند الرجوع من السفر.

واللام في ﴿ليكفروا﴾ لام التعليل وهي لام كي وهي متعلقة بفعل ﴿يشركون﴾ . والكفر هنا ليس هو الشرك ولكنه كفران النعمة بقرينة قوله ﴿بما آتيناهم﴾ فإن الإيتاء بمعنى الإنعام وبقرينة تفريعه على ﴿يشركون﴾ فالعلة مغايرة للمعلول وكفران النعمة مسبب عن". (٢)

٣٣٣-"الغيب وذما لجهلهم به بأنه أوقعهم في ورطة إهمال رجاء الآخرة وإهمال الاستعداد لما يقتضيه ذلك الرجاء، فذلك موقع قوله: ﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ ؛ فجملة ﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا﴾ بدل من جملة ﴿لا يعلمون﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠١/٢٠

(٢) التحرير والتنوير ٢٠٣/٢٠

بدل اشتمال باعتبار ما بعد الجملة من قوله: ﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ لأن علمهم يشتمل على معنى نفي علم بمغيبات الآخرة وإن كانوا يعلمون ظواهر الحياة الدنيا.
وجملة ﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ يجوز أن تجعلها عطفا على جملة ﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا﴾ فحصل الإخبار عنهم بعلم أشياء وعدم العلم بأشياء، ولك أن تجعل جملة ﴿وهم عن الآخرة﴾ الخ في موقع الحال، والواو واو الحال.
وعبر عن جهلهم الآخرة بالغفلة كناية عن نهوض دلائل وجود الحياة الآخرة لو نظروا في الدلائل المقتضية وجود حياة آخرة فكان جهلهم بذلك شبيها بالغفلة لأنه بحيث ينكشف لو اهتموا بالنظر فاستعير له ﴿غافلون﴾ استعارة تبعية.
﴿وهم﴾ الأولى في موضع مبتدأ و ﴿هم﴾ الثانية ضمير فصل. والجملة الاسمية دالة على تمكنهم من الغفلة عن الآخرة وثباتهم في تلك الغفلة، وضمير الفصل لإفادة الاختصاص بهم، أي هم الغافلون عن الآخرة دون المؤمنين.
ومن البديع الجمع بين ﴿لا يعلمون﴾ و ﴿يعلمون﴾ . وفيه الطباق من حيث ما دل عليه اللفظان لا من جهة متعلقهما.
وقريب منه قوله تعالى: ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾ [البقرة: ١٠٢].
[٨] ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾ [٨]﴾.
عطف على جملة ﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ [الروم: ٧] لأنهم نفوا الحياة الآخرة فسيق إليهم هذا الدليل على أنها من مقتضى الحكمة.
فضمير ﴿يتفكروا﴾ عائد إلى الغافلين عن الآخرة وفي مقدمتهم مشركو مكة. والاستفهام تعجيبي من غفلتهم وعدم تفكرهم.
والتقدير: هم غافلون وعجيب عدم تفكرهم. ومناسبة هذا **الانتقال** أن لإحالتهم رجوع الدالة إلى الروم بعد انكسارهم سببين:
أحدهما: اعتيادهم قصر أفكارهم على الجولان في المألوفات دون دائرة الممكنات، وذلك من أسباب إنكارهم البعث وهو أعظم ما أنكروه لهذا السبب.". (١)

٣٣٤-"والإيتاء: إعطاء النافع، أي بما أنعمنا عليهم من النعم التي هي نعمة الإيجاد والرزق وكشف الضر عنهم. ثم التفت عن الغيبة إلى الخطاب بقوله: ﴿فتمتعوا﴾ توبيخا لهم وإنذارا. وجيء بفاء التفريع في قوله: ﴿فتمتعوا﴾ لأن الإنذار والتوبيخ مفرعان عن الكلام السابق. والأمر في "تمتعوا" مستعمل في التهديد والتوبيخ. والتمتع: الانتفاع بالملائم وبالنعمة مدة تنقضي.
والفاء في ﴿فسوف تعلمون﴾ تفريع للإنذار على التوبيخ، وهو رشيق. و"سوف تعلمون" إنذار بأنهم يعلمون في المستقبل شيئا عظيما، والعلم كناية عن حصول الأمر الذي يعلم، أي عن حلول مصائب بهم لا يعلمون كنهها الآن، وهو إيماء إلى

(١) التحرير والتنوير ١٥/٢١

عظمتها وأنها غير مترقبة لهم. وهذا إشارة إلى ما سيصابون به يوم بدر من الاستئصال والخزي وهم كانوا يستعجلون بعذاب من جنس ما عذب به الأمم الماضية مثل عاد وثمود، وكانت الغاية واحدة؛ فإن إصابتهم بعذاب سيوف المسلمين أبلغ في كون استئصالهم بأيدي المؤمنين مباشرة، وأظهر في إنجاء المؤمنين من عذاب لا يصيب الذين ظلموا خاصة وذلك هو المراد في قوله تعالى: ﴿إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾ [الدخان: ١٥، ١٦]. والبطشة الكبرى: بطشة يوم بدر.

[٣٥] ﴿أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون﴾ [٣٥]

﴿أم﴾ منقطعة، فهي مثل "بل" للإضراب وهو إضراب **انتقالي**. وإذ كان حرف ﴿أم﴾ حرف عطف فيجوز أن يكون ما بعدها إضرابا عن الكلام السابق فهو عطف قصة على قصة بمنزلة ابتداء، والكلام توبيخ ولوم متصل بالتوبيخ الذي أفاده قوله: ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ [الروم: ٣٤]. وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضا عن مخاطبتكم إلى مخاطبة المسلمين تعجيبا من حال أهل الشرك. ويجوز أن يكون ما بعدها متصلا بقوله: ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم﴾ [الروم: ٢٩] فهو عطف ذم على ذم وما بينهما اعتراض.

وحيثما وقعت ﴿أم﴾ فالاستفهام مقدر بعدها لأنها ملازمة لمعنى الاستفهام. فالتقدير: بل أنزلنا عليهم سلطانا وهو استفهام إنكاري، أي ما أنزلنا عليهم سلطانا، ومعنى الاستفهام الإنكاري أنه تقرير على الإنكار كأن السائل يسأل المسؤول ليقر بنفي المسؤول عنه.". (١)

٣٣٥-"في التنديم على ما حل بالمكذبين المخاطبين من ضر ليعلموا أن ذلك عقاب من الله تعالى فيقلعوا عنه خشية أن يحيط بهم ما هو أشد منه، كما يؤذن به قوله عقب ذلك ﴿لعلهم يرجعون﴾ . فالإتيان بلفظ الناس في قوله: ﴿بما كسبت أيدي الناس﴾ إظهار في مقام الإضمار لزيادة إيضاح المقصود، ومقتضى الظاهر أن يقال "بما كسبت أيديهم". فالآية تشير إلى مصائب نزلت ببلاد المشركين وعطلت منافعها، ولعلها مما نشأ عن الحرب بين الروم وفارس، وكان العرب منقسمين بين أنصار هؤلاء وأنصار أولئك، فكان من جراء ذلك أن انقطعت سبل الأسفار في البر والبحر فتعطلت التجارة وقلت الأقوات بمكة والحجاز كما يقتضيه سوق هذه الموعظة في هذه السورة المفتتحة بـ ﴿غلبت الروم﴾ [الروم: ٢].

فموقع هذه الجملة على هذا الوجه موقع الاستئناف البياني لسبب مس الضر إياهم حتى لجأوا إلى الضراعة إلى الله، وما بينها وبين جملة ﴿وإذا مس الناس ضر﴾ [الروم: ٣٣] إلى آخره اعتراض واستطراد تخلل في الاعتراض. ويجوز أن يكون موقعها موقع الاعتراض بين ذكر ابتهال الناس إلى الله إذا أحاط بهم ضر ثم إعراضهم عن عبادته إذا أذاقهم منه رحمة وبين ذكر ما حل بالأمم الماضية اعتراضا ينبئ أن الفساد الذي يظهر في العالم ما هو إلا من جراء اكتساب الناس وأن لو استقاموا لكان حالهم على صلاح.

و ﴿الفساد﴾ : سوء الحال، وهو ضد الصلاح، ودل قوله: ﴿في البر والبحر﴾ على أنه سوء الأحوال في ما ينتفع به الناس

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٥٥

من خيرات الأرض برها وبحرها. ثم التعريف في ﴿الفساد﴾ : إما أن يكون تعريف العهد لفساد معهود لدى المخاطبين، وإما أن يكون تعريف الجنس الشامل لكل فساد ظهر في الأرض برها وبحرها أنه فساد في أحوال البر والبحر، لا في أعمال الناس بدليل قوله: ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾ .

وفساد البر يكون بفقدان منافعه وحدوث مضاره، مثل حبس الأقوات من الزرع والثمار والكلأ، وفي موتان الحيوان المنتفع به، وفي انتقال الوحوش التي تصاد من جراء قحط الأرض إلى أرضين أخرى، وفي حدوث الجوائح من جراد وحشرات وأمراض.

وفساد البحر كذلك يظهر في تعطيل منافعه من قلة الحيتان واللؤلؤ والمرجان فقد كانا من أعظم موارد بلاد العرب ، وكثرة الزوابع الحائلة عن الأسفار في البحر، ونضوب مياه الأنهار وانحباس فيضانها الذي به يستقي الناس. وقيل: أريد بالبر البوادي وأهل الغمور وبالبحر المدن والقرى، وهو عن مجاهد وعكرمة وقال: إن العرب تسمي الأمصار". (١)

٣٣٦-"والكريم: النفيس في نوعه، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿إني ألقي إلي كتاب كريم﴾ في سورة النمل [٢٩].

وقد أدمج في أثناء دلائل صفة الحكمة الامتنان بما في ذلك من منافع للخلق بقوله: ﴿ان تميد بكم وبث فيها من كل دابة﴾ فإن من الدواب المبثوثة ما ينتفع به الناس من أكل لحوم أوانسها ووحوشها والانتفاع بألبانها وأصوافها وجلودها وقرونها وأسنانها والحمل عليها والتجمل بها في مرابطها وغدوها ورواحها، ثم من نعمة منافع النبات من الحب والثمر والكلأ والكمأة. وإذ كانت البحار من جملة الأرض فقد شمل الانتفاع بدواب البحر فالله كما أبدع الصنع أسبغ النعمة فأرانا آثار الحكمة والرحمة.

وجملة ﴿هذا خلق الله﴾ إلى آخرها نتيجة الاستدلال بخلق السماء والأرض والجبال والدواب وإنزال المطر. واسم الإشارة إلى ما تضمنه قوله: ﴿خلق السماوات﴾ إلى قوله: ﴿من كل زوج كريم﴾ . والإتيان به مفردا بتأويل المذكور والانتقال من التكلم إلى الغيبة في قوله: ﴿خلق الله﴾ التفاتا لزيادة التصريح بأن الخطاب وارد من جانب الله بقرينة قوله: ﴿هذا خلق الله﴾ . وكذلك يكون الانتقال من التكلم إلى الغيبة في قوله: ﴿ماذا خلق الذين من دونه﴾ التفاتا لمراعاة العود إلى الغيبة في قوله: ﴿خلق الله﴾ . ويجوز أن تكون الرؤية من قوله: ﴿فأروني﴾ علمية، أي فأنبئوني، والفعل معلقا عن العمل بالاستفهام ب ﴿ماذا﴾ . فيتعين أن يكون ﴿فأروني﴾ تهكما لأنهم لا يمكن لهم أن يكافحوا الله زيادة على كون الأمر مستعملا في التعجيز، لكن التهكم أسبق للقطع بأنهم لا يتمكنون من مكافحة الله قبل أن يقطعوا بعجزهم عن تعيين مخلوق خلقه من دون الله قطعا نظريا.

وصوغ أمر التعجيز من مادة الرؤية البصرية أشد في التعجيز لاقتضائها الاقتناع منهم بأن يحضروا شيئا يدعون أن آلهتهم خلقته. وهذا كقول حطائط بن يعقر النهشلي١ وقيل حاتم الطائي:

أريني جوادا مات هزلا٢ لعلني ... أرى ما ترين أو بخيلا مخلدا

---

(١) التحرير والتنوير ٦٤/٢١

أي: أحضرني جوادا مات من الهزال وأرينيه لعلي أرى مثل ما رأيتيه.
والعرب يقصدون في مثل هذا الغرض الرؤية البصرية، ولذلك يكثر أن يقول: ما

-

١ حطائط بضم الحاء: القصير.

٢ هزلا بفتح الهاء: الهزال.". (١)

٣٣٧-"رأت عيني، وانظر هل ترى. وقال امرؤ القيس:

فلله عينا من رأى من تفوق ... أشت وأنأى من فراق المحصب

وإجراء اسم موصول العقلاء على الأصنام مجازاة للمشركين إذ يعدنهم عقلاء. و ﴿من دونه﴾ صلة الموصول. و"دون" كناية عن الغير، و ﴿من﴾ جارة لاسم المكان على وجه الزيادة لتأكيد الاتصال بالظرف.

و ﴿بل﴾ للإضراب **الانتقالي** من غرض المجادلة إلى غرض تسجيل ضلالهم، أي في اعتقادهم إلهية الأصنام، كما يقال في المناظرة: دع عنك هذا وانتقل إلى كذا.

و ﴿الظالمون﴾ : المشركون. والضلال المبين: الكفر الفظيع، لأنهم أعرضوا عن دعوة الإسلام للحق، وذلك ضلال، وأشركوا مع الله غيره في الإلهية، فذلك كفر فظيع. وجيء بحرف الظرفية اكتناف الضلال بهم في سائر أحوالهم، أي شدة ملابسته إياهم.

[١٢] ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد﴾

الواو عاطفة قصة لقمان على قصة النضر بن الحارث المتقدمة في قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله﴾ [لقمان: ٦] باعتبار كونها تضمنت عجيب حاله في الضلالة من عنايته بلهو الحديث ليضل عن سبيل الله ويتخذ سبيل الله هزؤا، وباعتبار كون قصة لقمان متضمنة عجيب حال لقمان في الاهتداء والحكمة، فهما حالان متضادان؛ فقطع النظر عن كون قصة النضر سيقت مساق المقدمة والمدخل إلى المقصود لأن الكلام لما طال في المقدمة خرجت عن سنن المقدمات إلى المقصودات بالذات فلذلك عطفت عطف القصص ولم تفصل فصل النتائج عقب مقدماتها. وقد تتعدد الاعتبارات للأسلوب الواحد فيتخير البليغ في رعيها كقوله تعالى: ﴿يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم﴾ في سورة البقرة [٤٩]، ﴿ويذبحون أبناءكم﴾ في سورة إبراهيم [٦]. وافتتاح القصة بحر في التوكيد: لام القسم و"قد" للإنباء بأنها خبر عن أمر مهم واقع.

و ﴿لقمان﴾ اسم رجل حكيم صالح. وأكبر الروايات في شانه التي يعضد بعضها وإن كانت أسانيدها ضعيفة تقتضي أنه

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٩٤

كان من السود، فقيل هو من بلاد النوبة، وقيل من الحبشة.". (١)

٣٣٨-"قال لابنه فهو في وقت قوله ذلك لابنه قد أوتي حكمة فكان ذلك القول من الحكمة لا محالة، وكل حالة تصدر عنه فيها حكمة هو فيها قد أوتي حكمة.

و ﴿إذ﴾ ظرف متعلق بالفعل المقدر الذي دلت عليه واو العطف، أي والتقدير: وآتيناه الحكمة إذ قال لابنه. وهذا انتقال من وصفه بحكمة الاهتداء إلى وصفه بحكمة الهدي والإرشاد. ويجوز أن يكون ﴿إذ قال﴾ ظرفا متعلقا بفعل "اذكر" محذوفا. وفائدة ذكر الحال يقوله: ﴿وهو يعظه﴾ الإشارة إلى أن قوله هذا كان لتلبس ابنه بالإشراك، وقد قال جمهور المفسرين: إن ابن لقمان كان مشركا فلم يزل لقمان يعظه حتى آمن بالله وحده، فإن الوعظ زجر مقترن بتخويف قال تعالى: ﴿فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا﴾ [النساء: ٦٣] ويعرف المزجور عنه بمتعلق فعل الموعظة فتعين أن الزجر هنا عن الإشراك بالله. ولعل ابن لقمان كان يدين بدين قومه من السودان فلما فتح الله على لقمان بالحكمة والتوحيد أبى ابنه متابعته فأخذ يعظه حتى دان بالتوحيد، وليس استيطان لقمان بمدينة داود مقتضيا أن تكون عائلته تدين بدين اليهودية.

وأصل النهي عن الشيء أن يكون حين التلبس بالشيء المنهي عنه أو عند مقاربة التلبس به، والأصل ان لا ينهي عن شيء منتف عن المنهي. وقد ذكر المفسرون اختلافا في اسم ابن لقمان فلا داعي إليه.

وقد جمع لقمان في هذه الموعظة أصول الشريعة وهي: الاعتقادات، والأعمال، وأدب المعاملة، وأدب النفس.

وافتتاح الموعظة بنداء المخاطب الموعوظ مع أن توجيه الخطاب مغن عن ندائه لحضوره بالخطاب، فالنداء مستعمل مجازا في طلب حضور الذهن لوعي الكلام وذلك من الاهتمام بالغرض المسوق له الكلام كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا﴾ [يوسف: ٤] وقوله: ﴿يا بني لا تقصص رؤياك﴾ في سورة يوسف [٥] وقوله: ﴿إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾ في سورة العقود [١١٢] وقوله تعالى: ﴿إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر﴾ في سورة مريم [٤٢].

و ﴿بني﴾ تصغير "ابن" مضافا إلى ياء المتكلم فلذلك كسرت الياء. وقرأه الجمهور بكسر ياء ﴿بني﴾ مشددة. وأصله: يا بنييي بثلاث ياءات إذ أصله الأصيل يا بنيوي لأن كلمة ابن واوية اللام الملتزمة حذفها فلما صغر رد إلى أصله، ثم لما التقت ياء التصغير ساكنة قبل واو الكلمة المتحركة بحركة الإعراب قلبت الواو ياء لتقاربهما وأدغمتا، ولما". (٢)

٣٣٩-"وتنوين ﴿كل﴾ هو المسمى تنوين العوض عن المضاف إليه، والتقدير: كل من الشمس والقمر يجري إلى أجل.

والجري: المشي السريع؛ استعير لانتقال الشمس في فلكها وانتقال الأرض حول الشمس وانتقال القمر حول الأرض،

---

(١) التحرير والتنوير ٩٥/٢١

(٢) التحرير والتنوير ١٠٠/٢١

تشبيها بالمشي السريع لأجل شسوع المسافات التي تقطع في خلال ذلك.

وزيادة قوله: ﴿إلى أجل مسمى﴾ للإشارة إلى أن لهذا النظام الشمسي أمدا يعلمه الله فإذا انتهى ذلك الأمد بطل ذلك التحرك والتنقل، وهو الوقت الذي يؤذن بانقراض العالم؛ فهذا تذكير بوقت البعث. فيجوز أن يكون ﴿إلى أجل﴾ ظرفا لغوا متعلقا بفعل ﴿يجري﴾ ، أي: ينتهي جريه، أي سيره عند أجل معين عند الله لانتهاء سيرهما. ويجوز أن يكون ﴿إلى أجل﴾ متعلقا بفعل ﴿سخر﴾ أي: جعل نظام تسخير الشمس والقمر منتهيا عند أجل مقدر.

وحرف ﴿إلى﴾ على التقديرين للانتهاء. وليست ﴿إلى﴾ بمعنى اللام عند صاحب "الكشاف" هنا خلافا لبن مالك وابن هشام، وسيأتي بيان ذلك عند قوله تعالى: ﴿وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾ في سورة فاطر[١٣].

و ﴿أن الله بما تعملون خبير﴾ عطف على ﴿أن الله يولج الليل في النهار﴾ ، فهو داخل في الاستفهام الإنكاري بتنزيل العالم منزلة غيره لعدم جريه على موجب العلم، فهم يعلمون أن الله خبير بما يعملون ولا يجرون على ما يقتضيه هذا العلم في شيء من أحوالهم.

[٣٠] ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير﴾

كاف الخطاب المتصل باسم الإشارة موجه إلى غير معين، والمقصود به المشركون بقرينة قوله: ﴿وأن ما يدعون من دونه الباطل﴾ بتاء الخطاب في قراءة نافع وابن كثير وابن عامر وأبي بكر عن عاصم. والمشار إليه هو المذكور آنفا وهو الإيلاج والتسخير. وموقع هذه الجملة موقع النتيجة من الدليل فلها حكم بدل الاشتمال ولذلك فصلت ولم تعطف فإنهم معترفون بأن الله هو فاعل ذلك فلزمهم الدليل ونتيجته.". (١)

٣٤٠-"كقول جرير:

كانت حنيفة أثلاثا فثلثهم ... من العبيد وثلث من مواليها

أي: والثلث الآخر من أنفسهم.

والختار: الشديد الختر، والختر: أشد الغدر.

وجملة ﴿وما يجحد﴾ إلى آخرها تذييل لأنها تعم كل جاحد سواء من جحد آية سير الفلك وهول البحر ويجحد نعمة الله عليه بالنجاة ومن يجحد غير ذلك من آيات الله ونعمه. والمعنى: ومنهم جاحد بآياتنا. وفي **الانتقال** من الغيبة إلى التكلم في قوله: ﴿بآياتنا﴾ التفات.

والباء في ﴿بآياتنا﴾ لتأكيد تعدية الفعل إلى المفعول مثل قوله: ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾ [المائدة: ٦] وقول النابغة:

لك الخير إن وارت بك الأرض واحدا

وقوله تعالى: ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفا﴾ [الإسراء: ٥٩].

[٣٣] ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٦/٢١

فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾
إن لم يكن ﴿يا أيها الناس﴾ خطابا خاصا بالمشركين فهو عام لجميع الناس كما تقرر في أصول الفقه، فيعم المؤمن والمشرك والمعطل في ذلك الوقت وفي سائر الأزمان إذ الجميع مأمورون بتقوى الله وأن الخطوات الموصلة إلى التقوى متفاوتة على حسب تفاوت بعد السائرين عنها، وقد كان فيما سبق من السورة حظوظ للمؤمنين وحظوظ للمشركين فلا يبعد أن تعقب بما يصلح لكلا الفريقين، وإن كان الخطاب خاصا بالمشركين جريا على ما روي عن ابن عباس أن ﴿يا أيها الناس﴾ خطاب لأهل مكة، فالمراد بالتقوى: الإقلاع عن الشرك.
وموقع هذه الآية بعد ما تقدمها من الآيات موقع مقصد الخطبة بعد مقدماتها إذ كانت المقدمات الماضية قد هيأت النفوس إلى قبول الهداية والتأثر بالموعظة الحسنة، وإن لاصطياد الحكماء فرصا يحرصون على عدم إضاعتها، وأحسن مثلها قول الحريري في". (١)

٣٤١-"والمعنى: من عنده ووحيه، كما تقول: جاءني كتاب من فلان. ووقعت جملة ﴿لا ريب فيه﴾ بأسلوب المعلوم المقرر فلم تجعل خبرا ثانيا عن المبتدأ لزيادة التشويق إلى الخبر ليقرر كونه من رب العالمين.
ومعنى ﴿لا ريب فيه﴾ أنه ليس أهلا لأن يرتاب أحد في تنزيله من رب العالمين لما حف بتنزيله من الدلائل القاطعة بأنه ليس من كلام البشر بسبب إعجاز أقصر سورة منه فضلا عن مجموعه، وما عضده من حال المرسل به من شهرة الصدق والاتسقامة، ومجئ مثله من مثله مع ما هو معلوم من وصف الأمية. فمعنى نفي أن يكون الريب مظروفا في هذا الكتاب أنه لا يشتمل على ما يثير الريب، فالذين ارتابوا بل كذبوا أن يكون من عند الله فهم لا يعدون أن يكونوا متعنتين على علم، أو جهالا يقولون قبل أن يتأملوا وينتظروا، والأولون زعماؤهم والأخيرون دهماؤهم، وقد تقدم ذلك في أول سورة البقرة.
واستحضار الجلالة بطريق الإضافة بوصف ﴿رب العالمين﴾ دون الاسم العلم وغيره من طرق التعريف لما فيه من الإيماء إلى عموم الشريعة وكون كتابها منزلا للناس كلهم بخلاف ما سبق من الكتب الإلهية، كما قال تعالى: ﴿مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه﴾ [المائدة: ٤٨]. وفيه إيماء إلى أن من جملة دواعي تكذيبهم به أنه كيف خص الله برسالته بشرا منهم حسدا من عند أنفسهم لأن ربوبية الله للعالمين تنبئ عن أنه لا يسأل عما يفعل وأنه أعلم حيث يجعل رسالاته.
[٣] ﴿أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون﴾ .
جاءت ﴿أم﴾ للإضراب عن الكلام السابق إضراب **انتقال**، وهي ﴿أم﴾ المنقطعة التي بمعنى بل التي للإضطراب. وحيثما وقعت ﴿أم﴾ فهي مؤذنة باستفهام بالهمزة بعدها الملتزم حذفها بعد ﴿أم﴾ . والاستفهام المقدر بعدها هنا تعجيبي لأنهم قالوا هذا القول الشنيع وعلمه الناس عنهم فلا جرم كانوا أحقاء بالتعجيب من حالهم ومقالهم لأنهم أبدوا به أمرا غريبا يقضي منه العجب لدى العقلاء وذوي الأحلام الراجحة والنفوس المنصفة، إذ دلائل انتفاء الريب عن كونه من رب العالمين واضحة بله الجزم بأنه مفترى على الله تعالى.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/١٣١

وصيغ الخبر عن قولهم العجيب بصيغة المضارع لاستحضار حالة ذلك القول تحقيقا". (١)

٣٤٢-"استوى على العرش﴾ وبيان تأويل ﴿ثم استوى على العرش﴾ في سورة الأعراف [٥٤].
وفرع على هذا الدليل إنكار على عدم تدبرهم في ذلك وإهمالهم النظر بقوله: ﴿أفلا تتذكرون﴾ فهو استفهام إنكاري.
والتذكر: مشتق من الذكر الذي هو يضم الذال وهو التفكر والنظر بالعقل.
[٥] ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾ .
جملة ﴿يدبر الأمر﴾ في موضع الحال من اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿الله الذي خلق السماوات والأرض﴾ [السجدة: ٤]، أي: خلق تلك الخلائق مدبرا أمرها. ويجوز أن تكون الجملة استئنافا، وقوله: ﴿من السماء﴾ متعلق بـ ﴿يدبر﴾ أو صفة للأمر أو حال منه، و ﴿من﴾ ابتدائية. والمقصود من حرفي الابتداء والانتهاء شمول تدبير الله تعالى الأمور كلها في العالمين العلوي والسفلي تدبيرا شاملا لها من السماء إلى الأرض، فأفاد حرف الانتهاء شمول التدبير لأمور كل ما في السماوات والأرض وفيما بينهما.
والتدبير: حقيقته التفكير في إصدار فعل متقن أوله وآخره وهو، مشتق من دبر الأمر، أي آخره لأن التدبير النظر في استقامة الفعل ابتداء ونهاية. وهو إذا وصف به الله تعالى كناية عن لازم حقيقته وهو تمام الإتقان، وتقدم شيء من هذا في أول سورة يونس وأول سورة الرعد.
و ﴿الأمر﴾ : الشأن للأشياء ونظامها وما به تقومها. والتعريف فيه للجنس وهو مفيد لاستغراق الأمور كلها لا يخرج عن تصرفه شيء منها، فجميع ما نقل عن سلف المفسرين في تفسير ﴿الأمر﴾ يرجع إلى بعض هذا العموم.
والعروج: الصعود. وضمير ﴿يعرج﴾ عائد على ﴿الأمر﴾ ، وتعديته بحرف الانتهاء مفيدة أن تلك الأمور المدبرة تصعد إلى الله تعالى؛ فالعروج هنا مستعار للمصير إلى تصرف الخالق دون شائبة تأثير من غيره ولو في الصورة كما في أحوال الدنيا من تأثير الأسباب. ولما كان الجلال يشبه بالرفعة في مستعمل الكلام شبه المصير إلى ذي الجلال **بانتقال** الذوات إلى المكان المرتفع وهو المعبر عنه في اللغة بالعروج، كما قال تعالى: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ [فاطر: ١٠]، أي يرفعه إليه.". (٢)

٣٤٣-"والمهين: الشيء الممتهن الذي لا يعبأ به. والغرض من إجراء هذا الوصف عليه الاعتبار بنظام التكوين إذ جعل الله تكوين هذا الجنس المكتمل التركيب العجيب الآثار من نوع ماء مهراق لا يعبأ به ولا يصان.
والتسوية: التقويم، قال تعالى ﴿لقد خلقنا الأنسان في أحسن تقويم﴾ [التين: ٤]. والضمير المنصوب في ﴿سواه﴾ عائد إلى ﴿نسله﴾ لأنه أقرب مذكور ولأنه ظاهر العطف بـ ﴿ثم﴾ وإن كان آدم قد سوي ونفخ فيه من الروح، قال تعالى: ﴿فإذا

(١) التحرير والتنوير ١٤٢/٢١

(٢) التحرير والتنوير ١٤٧/٢١

سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [ص: ٧٢]. وذكر التسوية ونفخ الروح في جانب النسل يؤذن بأن أصله كذلك، فالكلام إيجاز.

وإضافة الروح إلى ضمير الجلالة للتنويه بذلك السر العجيب الذي لا يعلم تكوينه إلا هو تعالى، فالإضافة تفيد أنه من أشد المخلوقات اختصاصا بالله تعالى وإلا فالمخلوقات كلها لله.

والنفخ: تمثيل لسريان اللطيفة الروحانية في الكثيفة الجسدية مع سرعة الإيداع، وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾ في سورة الحجر [٢٩].

والانتقال من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿وجعل لكم﴾ التفات لأن المخاطبين من أفراد الناس وجعل السمع والأبصار والأفئدة للناس كلهم غير خاص بالمخاطبين فلما انتهض الاستدلال على عظيم القدرة وإتقان المراد من المصنوعات المتحدث عنهم بطريقة الغيبة الشامل للمخاطبين وغيرهم ناسب أن يلتفت إلى الحاضرين بنقل الكلام إلى الخطاب لأنه آثر بالامتنان وأسعد بما يرد بعده من التعريض بالتوبيخ في قوله: ﴿قليلا ما تشكرون﴾ . والامتنان بقوى الحواس وقوى العقل أقوى من الامتنان بالخلق وتسويته لأن الانتفاع بالحواس والإدراك متكرر متجدد فهو محسوس بخلاف التكوين والتقويم فهو محتاج إلى النظر في آثاره.

والعدول عن أن يقال: وجعلكم سامعين مبصرين عالمين إلى ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ لأن ذلك أعرق في الفصاحة، ولما تؤذن به اللام من زيادة المنة في هذا الجعل إذ كان جعلا لفائدتهم ولأجلهم، ولما في تعليق الأجناس من السمع والأبصار والأفئدة بفعل الجعل من الروعة والجلال في تمكن التصرف، ولأن كلمة ﴿الأفئدة﴾ أجمع من كلمة عاقلين لأن الفؤاد يشمل الحواس الباطنة كلها والعقل بعض منها". (١)

٣٤٤-"وهلما وهلموا وهلممن. وتقدم في قوله تعالى: ﴿قل هلم شهداءكم﴾ في سورة الأنعام [١٥٠]. والمعنى: انخزلوا عن جيش المسلمين وأقبلوا إلينا.

وجملة ﴿ولا يأتون البأس إلا قليلا﴾ كلام مستقل فيجوز أن تكون الجملة حالا من القائلين لإخوانهم ﴿هلم إلينا﴾ . ويجوز أن تكون عطفا على المعوقين والقائلين لأن الفعل يعطف على المشتق كقوله تعالى: ﴿فالمغيرات صبحا فأثرن﴾ [العاديات: ٣، ٤] وقوله: ﴿إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله﴾ [الحديد: ١٨]، فالتقدير هنا: قد يعلم الله المعوقين والقائلين وغير الآتين البأس، أو والذين لا يأتون البأس. وليس في تعدية فعل العلم إلى ﴿لا يأتون﴾ إشكال لأنه على تأويل كما أن عمل الناسخ في قوله: ﴿وأقرضوا﴾ [الحديد: ١٨] على تأويل، أي: يعلم الله أنهم لا يأتون البأس إلا قليلا، أي يعلم أنهم لا يقصدون بجمع إخوانهم معهم الاعتضاد بهم في الحرب ولكن عزلهم عن القتال.

ومعنى ﴿إلا قليلا﴾ إلا زمانا قليلا، وهو زمان حضورهم مع المسلمين المرابطين، وهذا كقوله: ﴿فلا يؤمنون إلا قليلا﴾ [النساء: ٤٦]، أي: إيمانا ظاهرا، ومثل قوله تعالى: ﴿أم بظاهر من القول﴾ [الرعد: ٣٣]. و ﴿قليلا﴾ صفة لمصدر

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/١٥١

محذوف، أي: إتيانا قليلا، وقلته تظهر في قلة زمانه وفي قلة غنائه.

و ﴿البأس﴾ : الحرب وتقدم في قوله تعالى: ﴿لتحصنكم من بأسكم﴾ في سورة الأنبياء [٨٠]. وإتيان الحرب مراد به إتيان أهل الحرب أو موضعها. والمراد: اليأس مع المسلمين، أي: مكرا بالمسلمين لا جبنا.

و ﴿أشحة﴾ جمع شحيح بوزن أفعلة على غير قياس وهو فصيح وقباسه أشحاء. وضمير الخطاب في قوله: ﴿عليكم﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام وللمسلمين، وهو **انتقال** من القول الذي أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يقوله لهم إلى كشف أحوالهم للرسول والمسلمين بمناسبة **الانتقال** من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿ولا يأتون البأس﴾ . وتقدم الشح عند قوله تعالى: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ في سورة النساء [١٢٨].

و ﴿أشحة﴾ حال من ضمير ﴿يأتون﴾ . والشح: البخل بما في الوسع مما ينفع الغير. وأصله: عدم بذل المال، ويستعمل مجازا في منع المقدور من النصر أو الإعانة، وهو يتعدى إلى الشيء المبخول به بالباء و ب ﴿على﴾ قال تعالى: ﴿أشحة على الخير﴾ ويتعدى إلى الشخص الممنوع ب ﴿على﴾ أيضا لما في الشح من معنى الاعتداء فتعديته في قوله تعالى: ﴿أشحة عليكم﴾ من التعدية إلى الممنوع.". (١)

٣٤٥-"زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا﴾.

﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ .

و ﴿إذ﴾ اسم زمان مفعول لفعل محذوف تقديره: اذكر، وله نظائر كثيرة. وهو من الذكر بضم الذال الذي هو بمعنى التذكر فلم يأمره الله بأن يذكر ذلك للناس إذ لا جدوى في ذلك لكنه ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرتب عليه قوله: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ . والمقصود بهذا الاعتبار بتقدير الله الأسباب لمسبباتها لتحقيق مراده سبحانه، ولذلك قال عقبه: ﴿فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها﴾ إلى قوله: ﴿وكان أمر الله مفعولا﴾ وقوله: ﴿وكان أمر الله قدرا مقدورا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وهذا مبدأ المقصود من **الانتقال** إلى حكم إبطال التبني ودحض ما بناه المنافقون على أساسه الباطل بناء على كفر المنافقين الذين غمزوا مغامز في قضية تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة فقالوا: تزوج حليلة ابنه وقد نهى عن تزوج حلائل الأبناء. ولذلك ختمت هذه القصة وتوابعها بالثناء على المؤمنين بقوله: ﴿هو الذي يصلي عليكم﴾ [الأحزاب: ٤٣] الآية. وبالإعراض عن المشركين والمنافقين وعن أذاهم.

وزيد هو المعني بقوله تعالى: ﴿للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه﴾ ، فالله أنعم عليه بالإيمان والخلاص من أيدي المشركين بأن يسر دخوله في ملك رسول الله صلى الله عليه وسلم والرسول عليه الصلاة والسلام أنعم عليه بالعتق والتبني والمحبة، ويأتي التصريح باسمه العلم إثر هذه الآية في قوله: ﴿فلما قضى زيد منها وطرا﴾ وهو زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي من

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٧/٢١

كلب بن وبرة وبنو كلب من تغلب. كانت خيل من بني القين بن جسر أغاروا على أبيات من بني معن خرجت به إلى قومها تزورهم فسبقته الخيل المغيرة وباعوه في سوق حباشة "بضم الحاء المهملة" بناحية مكة فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته خديجة لرسول اله صلى الله عليه وسلم "وزيد يومئذ ابن ثمان سنين" وذلك قبل البعثة، فحج ناس من كلب فرأوا زيدا بمكة فعرفوه وعرفهم فأعلموا أباه ووصفوا موضعه وعند من هو، فخرج أبوه حارثة وعمه كعب لفدائه فدخلا مكة وكلما النبيء صلى الله عليه وسلم في فدائه فأتى به النبيء صلى الله عليه وسلم إليهما فعرفهما، فقال له النبيء". (١)

٣٤٦-"ليعرف أنهن حرائر فلا يتعرض إليهن شباب الدعار يحسبهن إماء أو يتعرض إليهن المنافقون استخفافا بهن بالأقوال التي تخجلهن فيتأذين من ذلك وربما يسببن الذين يؤذونهن فيحصل أذى من الجانبين. فهذا من سد الذريعة.
والإشارة بـ ﴿ذلك﴾ إلى الإدناء المفهوم من ﴿يدنين﴾ ، أي ذلك اللباس أقرب إلى يعرف أنهن حرائر بشعار الحرائر فيتجنب الرجال إيذاءهن فيسلموا وتسلمن. وكان عمر بن الخطاب مدة خلافته يمنع الإماء من التقنع كي لا يلتبسن بالجرائر ويضرب من تتقنع منهن بالدرة ثم زال ذلك بعده،فذلك قول كثير:
هن الحرائر لا ربات أخمرة ... سود المحاجر لا يقرأن بالسور
والتذليل بقوله: ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ صفح عما سبق من أذى الحرائر قبل تنبيه الناس إلى هذا الأدب الإسلامي، والتذييل يقتضي إنهاء الغرض.
[٦٠، ٦١] ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا﴾.
انتقال من زجر قوم عرفوا بأذى الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والمؤمنات، ومن توعدهم بغضب الله عليهم في الدنيا والآخرة إلى تهديدهم بعقاب في الدنيا يشرعه الله لهم إن هم لم يقلعوا عن ذلك للعلم بأن لا ينفع في أولئك وعيد الآخرة لأنهم لا يؤمنون بالبعث،وأولئك هم المنافقون الذين أبتدئ التعريض بهم من قوله تعالى: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عظيما﴾ [الأحزاب: ٥٣]، ثم من قوله: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله﴾ إلى قوله: ﴿ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾ [الأحزاب: ٥٧- ٥٩].
وصرح هنا بما كني عنه في الآيات السالفة إذ عبر عنه بالمنافقين فعلم أن الذين يؤذون الله ورسوله هم المنافقون ومن لف لفهم.
و ﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ قد ذكرناهم في أول السورة وهم المنطوون على النفاق أو التردد في الإيمان.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٩/٢١

و ﴿المرجفون في المدينة﴾ : هم المنافقون، فالأوصاف الثلاثة لشيء واحد قاله أبو رزين.". (١)

٣٤٧-"فيجوز أن تكون الأمانة أمانة الإيمان، أي توحيد الله، وهي العهد الذي أخذه الله على جنس بني آدم وهو الذي في قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾ وتقدم في سورة الأعراف [١٧٢]. فالمعنى: أن الله أودع في نفوس الناس دلائل الوحدانية فهي ملازمة للفكر البشري فكأنها عهد الله لهم به وكأنه أمانة ائتمنهم عليها لأنه أودعها في الجبلة ملازمة لها، وهذه الأمانة لم تودع في السماوات والأرض والجبال لأن هذه الأمانة من قبيل المعارف والمعارف من العلم الذي لا يتصف به إلا من قامت به صفة الحياة لأنها مصححة الإدراك لمن قامت به، ويناسب هذا المحمل قوله: ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات﴾ [الأحزاب: ٧٣]، فإن هذين الفريقين خالون من الإيمان بوحدانية الله.

ويجوز أن تكون الأمانة هي العقل وتسميته أمانة تعظيم لشأنه ولأن الأشياء النفسية تودع عند من يحتفظ بها.

والمعنى: أن الحكمة اقتضت أن يكون الإنسان مستودع العقل من بين الموجودات العظيمة لأن خلقته ملائمة لأن يكون عاقلا فإن العقل يبعث على التغير **والانتقال** من حال إلى حال ومن مكان إلى غيره، فلو جعل ذلك في سماء من السماوات أو في الأرض أو في جبل من الجبال أو جميعها لكان سببا في اضطراب العوالم واندكاكها. وأقرب الموجودات التي تحمل العقل أنواع الحيوان ما عدا الإنسان فلو أودع فيها العقل لما سمحت هيئات أجسامها بمطاوعة ما يأمرها العقل به.فلنفرض أن العقل يسول للفرس أن لا ينتظر علفه أو سومه وأن يخرج إلى حناط يشتري منه علفا، فإنه لا يستطيع في الإفهام ثم لا يتمكن من تسليم العوض بيده إلى فرس غيره. وكذلك إذا كانت معاملته مع أحد من نوع الإنسان.

ومناسبة قوله: ﴿ليعذب الله المنافقين﴾ [الأحزاب: ٧٣] الآية لهذا المحمل نظير مناسبته للمحمل الأول.

ويجوز أن تكون الأمانة ما يؤتمن عليه،وذلك أن الإنسان مدني بالطبع مخالط لبني جنسه فهو لا يخلو عن ائتمان أو أمانة فكان الإنسان متحملا لصفة الأمانة بفطرته والناس متفاوتون في الوفاء لما ائتمنوا عليه كما في الحديث: "إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة" أي إذا انقرضت الأمانة كان انقراضها علامة على اختلال الفطرة، فكان في جملة". (٢)

٣٤٨-"ما أعرب عنه قول بي خراش الهذلي خالطا فيه الجد بالهزل:

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل ... سوى العدل شيئا فاستراح العواذل

فإنهم كانوا إذا لقوا النبيء صلى الله عليه وسلم أشرقت عليهم أنوار النبوة فملأتهم حكمة وتقوى. وقد قال النبئ صلى الله عليه وسلم لأحد أصحابه: "لو كنتم في بيوتكم كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة بأجنحتها". وبفضل ذلك ساسوا الأمة وافتتحوا الممالك وأقاموا العدل بين الناس مسلمهم وذميهم ومعاهدهم وملأوا أعين ملوك الأرض مهابة. وعلى هذا

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢٩/٢١

(٢) التحرير والتنوير ٣٤٧/٢١

المحمل حمل: ﴿الذين أوتوا العلم﴾ في سورة الحج [٥٤] ويؤيده قوله تعالى: ﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان﴾ في سورة الروم [٥٦].

وجملة: ﴿ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ في موضع المعطوف على المفعول الثاني لـ ﴿يرى﴾ . والمعنى: يرك الذين أتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هاديا إلى العزيز الحميد، وهو من عطف الفعل على الاسم الذي فيه مادة الاشتقاق وهو ﴿الحق﴾ فإن المصدر في قوة الفعل لأنه إما مشتق أو هو أصل الاشتقاق. والعدول عن الوصف إلى صيغة المضارع لإشعارها بتجدد الهداية وتكررها. وإيثار وصفي ﴿العزيز الحميد﴾ هنا دون بقية الأسماء الحسنى إيماء إلى أن بقية المؤمنين حين يؤمنون بأن القرآن هو الحق والهداية استشعروا من الإيمان أنه صراط يبلغ به إلى العزة قال تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ [المنافقون: ٨]، ويبلغ إلى الحمد، أي الخصال الموجبة للحمد، وهي الكمالات من الفضائل والفواضل.

[٧، ٨] ﴿وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد [٧] أفترى على الله كذبا أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد [٨]﴾.

انتقال إلى قولة أخرى من شناعة أهل الشرك معطوفة على: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة﴾ [سبأ: ٣]. وهذا القول قائم مقام الاستدلال على القول الأول لأن قولهم: ﴿لا تأتينا الساعة﴾ دعوى وقولهم: ﴿هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد﴾ مستند تلك الدعوى، ولذلك حكي بمثل الأسلوب الذي حكيت به الدعوى في المسند والمسند إليه.

وأدمجوا في الاستدلال التعجيب من الذي يأتي بتقيض دليلهم، ثم إرداف ذلك". (١)

٣٤٩-"وجملة: ﴿إن في ذلك لآية لكل عبد منيب﴾ تعليل للتعجيب الإنكاري باعتبار ما يتضمنه من الحث على التأمل والتدبر كما تقدم آنفا، فموقع حرف التوكيد هنا لمجرد التعليل، كقول بشار:

إن ذاك النجاح في التبكير

ولك أن تجعل الجملة تذييلا. والمشار إليه هو ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض، أي من الكائنات فيهما.

والآية: الدليل. والتعريف للجنس،فالمفرد المعرف مساو للجمع، أي لآيات كثيرة.

والمنيب: الراجع بفكره إلى البحث عما فيه كماله النفساني وحسن مصيره في الآخرة فهو يقدر المواعظ حق قدرها ويتلقاها بالشك في الحالة التي وعظ من أجلها فيعاود النظر حتى يهتدي ولا يرفض نصح الناصحين وإرشاد المرشدين مترديا برداء المتكبرين فهو لا يخلو من النظر في دلائل قدرة الله، ومن أكبر المنيبين المؤمنون مع رسولهم.

[١٠، ١١] ﴿ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد [١٠] أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير [١١]﴾.

مناسبة **الانتقال** من الكلام السابق إلى ذكر داود خفية. فقال ابن عطية: ذكر الله نعمته على داود وسليمان احتجاجا

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/٢٢

على ما منح محمد، أي لا تستعبدوا هذا فقد تفضلنا على عبيدنا قديما.

وقال الزمخشري عند قوله: ﴿إن في ذلك لآية لكل عبد منيب﴾ [سبأ: ٩] لأن المنيب لا يخلوا من النظر في آيات الله على أنه قادر على كل شيء من البعث ومن عقاب من يكفر به اهـ. فقال الطيبي: فيه إشارة إلى نظام بيان هذه الآية بقوله: ﴿ولقد آتينا داود منا فضلا﴾ لأنه كالتخلص منه إليه، لأن من المنيبين المتفكرين في آيات الله قال تعالى: ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب﴾ [ص: ١٧] اهـ يريد الطيبي أن داود من أشهر المثل في المنيبين بما أشتهر به من انقلاب حاله بعد أن كان راعيا غليظا إلى أن اصطفاه الله نبيا وملكا صالحا مصلحا لأمة عظيمة، فهو مثل المنيبين كما قال تعالى: ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب﴾ وقال ﴿فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب﴾ [ص: ٢٤]، فلإنابته وتأويبه أنعم الله عليه بنعم الدنيا والآخرة وباركه وبارك نسله.وفي ذكر فضله عبر للناس بحسن عناية الله بالمنيبين تعريضا بضد ذلك للذين لم يعتبروا بآيات الله، وفي هذا". (١)

٣٥٠-"إيماء إلى بشارة النبيء صلى الله عليه وسلم بأنه بعد تكذيب قومه وضيق حاله منهم سيؤول شأنه إلى عزة عظيمة وتأسيس ملك أمة عظيمة كما آلت حال داود، وذلك الإيماء أوضح في قوله تعالى: ﴿اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب﴾ الآية في سورة ص.[١٧]. وسمي الطيبي هذا **الانتقال** إلى ذكر داود وسليمان تخلصا، والوجه أن يسميه استطرادا أو اعتراضا وإن كان طويلا، فأن الرجوع إلى ذكر أحوال المشركين بعد ما ذكر من قصة داود وسليمان وسبأ يرشد إلى أن إبطال أحوال أهل الشرك هي المقصود من هذه السورة كما سننبه عليه عند قوله تعالى: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه﴾ [سبأ: ٢٠].

وتقديم التعريف بداود عليه السلام عند قوله تعالى: ﴿وآتينا داود زبورا﴾ في سورة النساء [١٦٣] وعند قوله: ﴿ومن ذريته داود﴾ في سورة الأنعام [٨٤].

و"من" في قوله: ﴿منا﴾ ابتدائية متعلقة بـ ﴿آتينا﴾ ، أي من لدنا ومن عندنا، وذلك تشريف للفضل الذي أوتيه داود، كقوله تعالى: ﴿رزقا من لدنا﴾ [القصص: ٥٧]. وتنكير ﴿فضلا﴾ لتعظيمه وهو فضل النبوة وفضل الملك، وفضل العناية بإصلاح الأمة، وفضل القضاء بالعدل، وفضل الشجاعة في الحرب، وفضل سعة النعمة عليه، وفضل إغنائه عن الناس بما ألهمه من صنع دروع الحديد، وفضل إيتائه الزبور، وإيتائه حسن الصوت، وطول العمر في الصلاح وغير ذلك.

وجملة: ﴿يا جبال أوبي معه﴾ مقول قول محذوف، وحذف القول استعمال شائع، وفعل القول المحذوف جملة مستأنفة استئنافا بيانيا لجملة: ﴿آتينا داود منا فضلا﴾ .

هذا الأسلوب الذي نظمت عليه الآية من الفخامة وجلالة الخالق وعظم شأن داود مع وفرة المعاني وإيجاز الألفاظ وإفادة معنى المعية بالواو دون لو ما كانت حرف عطف.

والأمر في: ﴿أوبي معه﴾ أمر تكوين وتسخير.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٤

والتأويب: الترجيع، أي ترجيع الصوت، وقيل التأويب بمعنى التسبيح لغة حبشية فهو من المعرب باللغة العبرية، وتقدم ذكر تسبيح الجبال مع داود في سورة الأنبياء.
و ﴿الطير﴾ منصوب بالعطف على المنادى لأن المعطوف المعرف على المنادى يجوز نصبه ورفعة والنصب أرجح عند يونس وأبو عمرو وعيسى ابن عمر والجرمي وهو أوجه، وجوز أن يكون ﴿والطير﴾ مفعولا معه لـ ﴿أوبي﴾ ،والتقدير: أوبي معه ومع الطير، فيفيد أن الطير تأوب معه أيضا.". (١)

٣٥١-"بذواتهم انقلبت من ذوات مشاهدة إلى كونها أخبارا مسموعة. والمعنى: انهم هلكوا وتحدث الناس بهم. وهذا نظير قولهم: دخلوا في خبر كان، وإلا فإن الحديث لا يخلوا منها أحد ولا جماعة. وقد يكون في المدح كقوله:
هاذي قبورهم وتلك قصورهم ... وحديثهم مستودع الأوراق
أو أريد: فجعلناهم أحاديث اعتبار وموعظة، أي فأصبناهم بأمر غريب من شأنه أن يتحدث به الناس فيكون ﴿أحاديث﴾ موصوفا بصفة مقدرة دل عليها السياق مثل قوله تعالى: ﴿يأخذ كل سفينة غصبا﴾ [الكهف: ٧٩]، أي كل سفينة صالحة بقرينة قوله: ﴿فأردت أن أعيبها﴾ [الكهف: ٧٩].
والتمزيق: تقطيع الثوب قطعا، استعير هنا للتفريق تشبيها لتفريق جامعة القوم شذر مذر بتمزيق الثوب قطعا.
و ﴿كل﴾ منصوب على المفعولية المطلقة لأنه بمعنى الممزق كله، فاكتسب معنى المفعولية المطلقة من إضافته إلى المصدر.
ومعنى: ﴿كل﴾ كثيرة التمزيق لأن "كلا" ترد كثيرا بمعنى الكثير لا بمعنى الجميع، قال تعالى: ﴿ولو جاءتهم كل آية﴾ [يونس: ٩٧] وقال النابغة:
بها كل ذيال
وأشارت الآية إلى التفرق الشهير الذي أصيبت به قبيلة سبا إذ حملهم خراب السد وقحولة الأرض إلى مفارقة تلك الأوطان مفارقة وتفريقا ضربت به العرب المثل في قولهم: ذهبوا، أو تفرقوا أيدي سبا، أو أيادي سبا، بتخفيف همزة سبا لتخفيف المثل. وفي لسان العرب في مادة "يدي" قال المعري: لم يهمزوا سبا لأنهم جعلوه مع ما قبله بمنزلة الشيء الواحد. هكذا ولعله التباس أو تحريف، وإنما ذكر المعري عدم إظهار الفتحة على ياء "أيادي" أو "أيدي" كما هو مقتضى التعليل لأن التعليل يقتضي التزام فتح همزة سبأ كشأن المركب المزجي.قال في "لسان العرب": وبعضهم ينونه إذا خففه، قال ذو الرمة:
فيا لك من دار تفرق أهلها ... أيادي سبا عنها وطال **انتقالها**
والأكثر عدم تنوينه قال كثير:
أيادي سبا يا عز ما كنت بعدكم ... فلم يحل بالعينين بعدك منظر". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٥

(٢) التحرير والتنوير ٢٢/٤٥

٣٥٢-"التعلق ولم يعين قائله. وخولف في النظم بين الصلتين فجاءت جملة ﴿من يؤمن بالآخرة﴾ فعلية،وجاءت جملة ﴿هو منها في شك﴾ اسمية لأن الإيمان بالآخرة طارئ على كفرهم السابق ومتجدد ومتزايد آنا فآنا، فكان مقتضى الحال إيراد الفعل في صلة أصحابه. وأما شكهم في الآخرة فبخلاف ذلك هو أمر متأصل فيهم فاجتلبت لأصحابه الجملة الاسمية.

وجيء بحرف الظرفية للدلالة على إحاطة الشك بنفوسهم ويتعلق قوله: ﴿منها﴾ بقوله: ب"شك". وجملة ﴿وربك على كل شيء حفيظ﴾ تذييل. والحفيظ: الذي لا يخرج عن مقدرته ما هو في حفظه، وهو يقتضي العلم والقدرة إذ بمجموعها تتقوم ماهية الحفظ ولذلك يتبع الحفظ بالعلم كثيرا كقوله تعالى: ﴿إني حفيظ عليم﴾ [يوسف: ٥٥]. وصيغة فعيل تدل على قوة الفعل وأفاد عموم ﴿كل شيء﴾ أنه لا يخرج عن علمه شيء من الكائنات فتنزل هذا التذييل منزلة الاحتراس عن غير المعنى الكنائي من قوله: ﴿لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك﴾ ، أي ليظهر ذلك لكل أحد فتقوم الحجة لهم وعليهم.

[٢٢، ٢٣] ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير [٢٢] ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير [٢٣]﴾.

كانت قصة سبأ قد ضربت مثلا وعبرة للمشركين من قريش وكان في أحوالهم مثيل لأحوال المشركين في أمن بلادهم وتيسير أرزاقهم وتأمين سبلهم في أسفارهم مما أشار إليه قوله تعالى: ﴿أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء﴾ [القصص: ٥٧] وقوله: ﴿لإيلاف قريش﴾ [قريش: ١] إلى آخر السورة، ثم فيما قابلوا به نعمة الله بالشراك به وكفران نعمته وإفحامهم دعاة الخير الملهمين من لدنه إلى دعوتهم، فلما تقضى خبرهم لينتقل منه إلى تطبيق العبرة على من قصد اعتبارهم انتقالا مناسبته بينة وهو أيضا عود إلى إبطال أقوال المشركين، وسيق لهم من الكلام ما هو فيه توقيف على أخطائهم، وأيضا فلما جرى من استهواء الشيطان أهل سبا فاتبعوه وكان الشيطان مصدر الضلال وعنصر الإشراك أعقب ذكره بذكر فروعه وأولياءه.

وافتتح الكلام بأمر النبيء صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما هو متتابع في بقية هذه الآيات". (١)

٣٥٣-"وفي حديث ابن عباس من الترمذي: "إذا قضي ربنا أمرا سبح له حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم" قال: "ثم أهل كل سماء" الحديث. وذلك لا يقتضي أنه المراد في آية سورة سبأ وإنما هذه صفة تلتقي الملائكة أمر الله في الدنيا والآخرة فكانت أقوالهم على سنة واحدة.

وليس تخريج البخاري والترمذي هذا الحديث في الكلام على تفسير سورة سبأ مرادا به أنه وارد في ذلك، وإنما يريد أن من صور معناه ما ذكر في سورة سبأ.وهذا يغنيك عن الالتجاء إلى تكلفات تعسفوها في تفسير هذه الآية وتعلقها بما قبلها.

[٢٤] ﴿قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين [٢٤]﴾.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٥١

انتقال من دمغ المشركين بضعف آلهتهم وانتفاء جدواها عليهم في الدنيا والآخرة إلى إلزامهم بطلان عبادتها بأنها لا تستحق العبادة لأن مستحق العبادة هو الذي يرزق عبادة فإن العبادة شكر ولا يستحق الشكر إلا المنعم، وهذا احتجاج بالدليل النظري بأن الله هو الرزاق يستلزم انفراده بإلهيته إذ لا يجوز أن ينفرد ببعض صفات الإلهية ويشارك في بعض آخر فإن الإلهية حقيقة لا تقبل التجزئة والتبعيض.

وأعيد الأمر بالقول لزيادة الاهتمام بالمقول فإن أصل الأمر بالقول في مقام التصدي للتبليغ دال على الاهتمام، وإعادة ذلك الأمر زيادة في الاهتمام.

و ﴿من﴾ استفهام للتنبيه على الخطأ ولذلك أعقب بالجواب من طرف السائل بقوله: ﴿قل الله﴾ لتحقق أنهم لا ينكرون ذلك الجواب كما في قوله تعالى: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار﴾ إلى قوله: ﴿فسيقولون الله﴾ في سورة يونس [٣١]. وتقدم نظير صدر الآية في سورة الرعد.

وعطف على الاستفهام إبراز المقصد بطريقة خفية توقع الخصم في شرك المغلوبية وذلك بترديد حالتي الفريقين بين حالة هدى وحالة ضلال لأن حالة كل فريق لما كانت على الضد من حال الفريق الآخر بين موافقة الحق وعدمها، تعين أن أمر الضلال والهدى دائر بين الحالتين لا يعدوهما. ولذلك جيء بحرف ﴿أو﴾ المفيد للترديد المنتزع من الشك.". (١)

٣٥٤-"بطلان الشرك فهو كالنتيجة لجملة ﴿قل من يرزقكم من السماوات والأرض﴾ .

والأمر في قوله: ﴿أروني﴾ مستعمل في التعجيز، وهو تعجيز للمشركين عن إبداء حجة لإشراكهم، وهو انتقال من الاحتجاج على بطلان إلهية الأصنام بدليل النظير في قوله: ﴿قل من يرزقكم﴾ إلى إبطال ذلك بدليل البداهة.

وقد سلك من طرق الجدل أن يكون الاستفسار، والمصطلح عليه عند أهل الجل أن يكونه الاستفسار مقدما على طرائق المناظرة وإنما أخر هنا لأن كان مفضيا إلى إبطال دعوى الخصم بحذافرها فأريد تأخيره لئلا يفوت افتضاح الخصم بالأدلة السابقة تبسيطا لبساط المجادلة حتى يكون كل دليل مناديا على غلط الخصوم وباطلهم. وافتضاح الخطأ من مقاصد المناظر الذي قامت حجته.

والإراءة هنا من الرؤية البصرية فيتعدى إلى مفعولين: أحدهما بالأصالة، والثاني بهمزة التعدية.

والمقصود: أروني شخوصهم لنبصر هل عليها ما يناسب صفة الإلهية، أي أن كل من يشاهد الأصنام بادئ مرة يتبين له أنها خلية عن صفات الإلهية إذ يرى حجارة لا تسمع ولا تبصر ولا تفقه لأن انتفاء الإلهية عن الأصنام بديهي ولا يحتاج إلى أكثر من رؤية حالها كقول البحتري:

أن يرى مبصر ويسمع واع

والتعبير عن المرئي بطريق الموصلية لتنبيه المخاطبين على خطئهم في جعلهم إياهم شركاء لله تعالى في الربوبية على نحو قول عبدة بن الطيب:

---

(١) التحرير والتنوير ٥٧/٢٢

إن الذين ترونهم إخوانكم ... يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا

وفي جعل الصلة ﴿ألحقتم﴾ إيماء إلى أن تلك الأصنام لم تكن موصوفة بالإلهية وصفا ذاتيا حقا ولكن المشركين ألحقوها بالله تعالى، فتلك خلعة خلعها عليهم أصحاب الأهواء.

وتلك حالة تخالف صفة الإلهية لأن الإلهية صفة ذاتية قديمة، وهذا الإلحاق اخترعه لهم عمرو بن لحي ولم يكن عند العرب من قبل، وضمير ﴿به﴾ عائد إلى أسم الجلالة من جملة ﴿قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله﴾ [سبأ: ٢٤]." (١)

٣٥٥-"وانتصب: ﴿شركاء﴾ على الحال من اسم الموصول. والمعنى: شركاء له.

ولما أعرض عن الخوض في آثار هذه الإراءة علم أنهم مفتضحون عند تلك الإراءة فقدرت حاصلة، وأعقب طلب تحصيلها بإثبات أثرها وهو الردع عن اعتقاد إلهيتها، وإبطالها عنهم بإثباتها لله تعالى وحده فلذلك جمع بين حرفي الردع والإبطال ثم **الانتقال** إلى تعيين الإله الحق على طريقة قوله: ﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم﴾ [الفجر: ١٧].

وضمير: ﴿هو الله﴾ ضمير الشأن. والجملة بعده تفسير لمعنى الشأن و ﴿العزيز الحكيم﴾ خبران، أي بل الشأن المهم الله العزيز الحكيم لا آلهتكم، ففي الجملة قصر العزة والحكم على الله تعالى كناية عن قصر الإلهية عليه تعالى قصر إفراد.

ويجوز أن يكون الضمير عائدا إلى الإله المفهوم من قوله: ﴿الذين ألحقتم به شركاء﴾ وهو مبتدأ والجملة بعده خبر. ويجوز أن يكون عائدا إلى المستحضر في الذهن وهو الله. وتفسيره قوله: ﴿الله﴾ فاسم الجلالة عطف بيان. و ﴿العزيز الحكيم﴾ خبران عن الضمير. والفرق بين هذا الوجه وبين الوجه الأول يظهر في اختلاف مدلول الضمير المنفصل واختلاف موقع اسم الجلالة بعده، واختلاف موقع الجملة بعد ذلك.

والعزة: الاستغناء عن الغير.و ﴿الحكيم﴾ : وصف من الحكمة وهي منتهى العلم، أو من الإحكام وهو إتقان الصنع، شاع في الأمرين. وهذا إثبات لافتقار أصنامهم وانتفاء العلم عنها. وهذا قول إبراهيم عليه السلام: ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا﴾ [مريم: ٤٢].

[٢٨] ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون [٢٨]﴾.

انتقال من إبطال ضلال المشركين في أمر الربوبية إلى إبطال ضلالهم في شأن صدق الرسول صلى الله عليه وسلم.

وغير أسلوب الكلام من الأمر بمحاجة المشركين إلى الإخبار برسالة النبيء صلى الله عليه وسلم تشريفا له بتوجيه هذا الإخبار بالنعمة العظيمة إليه، ويحصل إبطال مزاعم المشركين بطريق التعريض.

وفي هذه الآية إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإثبات عمومها على". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٦١/٢٢

(٢) التحرير والتنوير ٦٢/٢٢

٣٥٦-"وهذه الآية **انتقال** إلى ذكر طعن المشركين في القرآن وهي معطوفة على جملة ﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾ [سبأ: ٢٩].

والاقتصار على حكاية مقالتهم دون تعقيب بما يبطلها إيماء إلى أن بطلانها باد لكل من يسمعها حيث جمعت التكذيب بجميع الكتب والشرائع وهذا بهتان واضح.

وحكاية مقالتهم هذه بصيغة الماضي تؤذن بأنهم أقلعوا عنها.

وجيء بحرف ﴿لن﴾ لتأكيد نفي إيمانهم بالكتب المنزلة على التأبيد تأييسا للنبي والمسلمين من الطمع في إيمانهم به.

واسم الإشارة مشار به إلى حاضر في الأذهان لأن الخوض في القرآن شائع بين الناس من مؤيد ومنكر فكأنه مشاهد.

وليس في اسم الإشارة معنى التحقير لأنهم ما كانوا ينبزون القرآن بالنقصان، ألا قول الوليد ابن المغيرة: "إن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمعدق" ، وقول عبد الله بن أبي بعد ذلك: "لا أحسن مما تقول أيها المرء"، وأن عتبة بن ربيعة لما قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن وقال له: "هل ترى بما أقول بأسا؟" فقال: "لا والدماء" . وكيف وقد تحداهم الإتيان بسورة مثله فلم يفعلوا،ولو كانوا ينبزونه بنقص أو سخف لقالوا: نحن نترفع عن معالجة الإتيان بمثله.

ومعنى: ﴿بين يديه﴾ القريب منه سواء كان سابقا كقوله تعالى: ﴿إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾ [سبأ: ٤٦] وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "بعثت بين يدي الساعة" ١ أم كان جائيا بعده كما حكى الله عن عيسى عليه السلام: ﴿ومصدقا لما بين يدي من التوراة﴾ في سورة آل عمران [٥٠]. وليس مرادا هنا لأنه غير مفروض ولا مدعى.

﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول﴾.

أردفت حكايات أقوالهم وكفرانهم بعد استيفاء أصنافها بذكر جزاءهم وتصوير فظاعته بما في قوله: ﴿ولو ترى إذ الظالمون﴾ الآية من الإبهام المفيد للتهويل.

والمناسبة ما تقدم من قوله: ﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾ [سبأ: ٢٩] فإنه بعد أن ألقمهم الحجر بقوله: ﴿قل لكم ميعاد يوم﴾ [سبأ: ٣٠] الخ أتبعه بتصوير حالهم فيه.

والخطاب في ﴿ولو ترى﴾ لكل من يصلح لتلقي الخطاب ممن تبلغه هذه الآية، أي

-

١ رواه أحمد في "مسنده" وأبو يعلى والطبراني.". (١)

٣٥٧-"﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾ [[الأحزاب: ٦٧].

ومن غرر المسائل أن الشيخ ابن عرفة لما كان عرض عليه في درس التفسير عند قوله تعالى: ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل﴾ [غافر: ٧١] فسأله بعض الحاضرين: هل يستقيم أن نأخذ من هذه الآية ما يؤيد فعل الأمراء أصلحهم الله من الإتيان بالمحاربين ونحوهم مغلولين من أعناقهم مع قول مالك رحمه الله بجواز القياس في العقوبات على فعل الله تعالى:

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٦٧

"في حدث الفاحشة" فأجابه الشيخ بأن لا دلالة فيها لأن مالكا إنما أجاز القياس على فعل الله في الدنيا، وهذا من تصرفات الله في الآخر فلا بد لجوازه من دليل.

[٣٤] ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون [٣٤]﴾.

اعتراض **للانتقال** إلى تسلية النبي صلى الله عليه وسلم مما مني به من المشركين من أهل مكة وخاصة ما قابله به سادتهم وكبراؤهم من التأليب عليه بتذكيره أن تلك سنة الرسل من قبله فليس في ذلك غضاضة عليه ولذلك قال في الآية في الزخرف: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ [٢٣] الخ، أي وكذلك التكذيب الذي كذبك أهل هذه القرية. والتعويض بقومه الذي عادوه بتذكيرهم عاقبة أمثالهم من أهل القرى التي كذب أهلها وأغراهم بذلك زعمائهم.

والمترفون: الذين أعطوا الترف، والترف: النعيم وسعة العيش، وهو مبني للمفعول بتقدير: إن الله أترفهم كما في قوله تعالى: ﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا﴾ في سورة الأنبياء [٣٣].

وفي بنائه للمفعول تعريض بالتذكير بنعمة الله عليهم لعلهم يشكروها ويقلعون عن الإشراك به، وبعض أهل اللغة يقول تقديره: أترفتهم النعمة، أي أبطرتهم.

و ﴿إنا بما أرسلتم﴾ حكاية للقول بالمعنى: أي قالوا مترفو كل قرية لرسولهم: إنا بما أرسلت به كافرون. وهذا من مقابلة الجمع بالجمع التي يراد منها التوزيع على آحاد الجمع.

وقولهم: ﴿أرسلتم به﴾ تهكم بقرينة قولهم: ﴿كافرون﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿وقالوا". [(١)]

٣٥٨-"وأولادا﴾ [سبأ: ٣٥] فتكون ضمائر الخطاب موجهة إلى الذين قالوا: ﴿نحن أكثر أموالا وأولادا﴾.

ويجوز أن تكون عطفا على جملة: ﴿إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء﴾ [سبأ: ٣٦]، فيكون مما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم ويبلغه عن الله تعالى، ويكون في ضمير: ﴿عندنا﴾ التفات، وضمائر الخطاب تكون عائدة إلى الذين قالوا: ﴿نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين﴾ [سبأ: ٣٥] وفيها وجه ثالث ننبه عليه قريبا.

وهو ارتقاء من إبطال الملازمة إلى الاستدلال على أنهم ليسوا بمحل الرضي من الله تعالى على طريقة النقض التفصيلي المسمى بالمناقضة أيضا في علم المناظرة. وهو مقام **الانتقال** من المنع إلى الاستدلال على إبطال دعوى الخصم،فقد أبطلت الآية أن تكون أموالهم وأولادهم مقرة عند الله تعالى وأنه لا يقرب إلى الله إلا الإيمان والعمل الصالح.

وجيء بالجملة المنفية في صيغة حصر بتعريف المسند إليه والمسند،لأن هذه الجملة أريد منها نفي قولهم: ﴿نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين﴾ أي لا أنتم، فكان كلامهم في قوة حصر التقريب إلى الله في كثرة الأموال والأولاد فنفي ذلك بأسره.

وتكرير ﴿لا﴾ النافية بعد العاطف في: ﴿ولا أولادكم﴾ لتأكيد تسلط النفي على كلا المذكورين ليكون كل واحدا مقصودا

---

(١) التحرير والتنوير ٧٥/٢٢

بنفي كونه مما يقرب إلى الله ومتلفتا إليه.

ولما كانت الأموال والأولاد جمعي تكسير عوملا معاملة المفرد المؤنث فجيء بخبرهما اسم موصول المفرد المؤنث على تأويل جماعة الأموال وجماعة الأولاد ولم يتلفت إلى تغلب الأولاد على الأموال فيخبر عنهما معا ب"الذين" ونحوه.

وعدل عن أن يقال: بالتي تقربكم إلينا، إلى: ﴿تقربكم عندنا﴾ لأن التقريب هنا مجاز في التشريف والكرامة لا تقريب مكان.

والزلفى: اسم للقرب مثل الرجعي وهو مفعول مطلق نائب عن المصدر، أي تقربكم تقريبا، ونظيره: ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتا﴾ [نوح: ١٧].

وقوله: ﴿إلا من آمن وعمل صالحا﴾ استثناء منقطع. و ﴿إلا﴾ بمعنى "لكن" المخففة النون التي هي للاستدراك وما بعدها كلام مستأنف وذلك من استعمالات الاستثناء المنقطع؛ فإنه إذا كان ما بعد ﴿إلا﴾ ليس من جنس المستثنى منه كان الاستثناء منقطعا، ثم إن كان ما بعد ﴿إلا﴾ مفردا فإن ﴿إلا﴾ تقدر بمعنى "لكن" أخت "إن" عند أهل الحجاز". (١)

٣٥٩-"صالحا لمعنى فاعل ولمعنى مفعول. فيقع اسم الولي على الموالى بكسر اللام وعلى الموالي بفتحها وقد ورد بالمعنيين في القرآن وكلام العرب كثيرا.

فمعنى: ﴿أنت ولينا﴾ لا نوالي غيرك،أي لا نرضى به وليا، والعبادة ولاية بين العابد والمعبود، ورضي المعبود بعبادة عابده إياه ولاية بين المعبود وعابده، فيقول الملائكة: ﴿سبحانك﴾ تبرؤ من الرضى بأن يعبدهم المشركون لأن الملائكة لما جعلوا أنفسهم موالين لله فقد كذبوا المشركين الذين زعموا لهم الإلهية، لأن العابد لا يكون معبودا. ولقد تقدم الكلام على لفظ "ولي" عند قوله تعالى: ﴿قل أغير الله أتخذ وليا﴾ في سورة الأنعام [١٤] وفي آخر سورة الرعد.

و ﴿من﴾ زائدة للتوكيد و"دون" اسم لمعنى غير، أي أنت ولينا وهم ليس أولياء لنا ولا نرضى بهم لكفرهم ف ﴿من دونهم﴾ تأكيد لما أفادته جملة: ﴿أنت ولينا﴾ من الحصر لتعريف الجزءين.

و ﴿بل﴾ للإضراب **الانتقالي انتقالا** من التبرؤ منهم إلى الشهادة عليهم وعلى الذين سولوا لهم عبادة غير الله تعالى، وليس إضراب إبطال لأن المشركين المتحدث عنهم كانوا يعبدون الملائكة، والمعنى بل كان أكثر هؤلاء يعبدون الجن وكان الجن راضين بعبادتهم إياهم. وحاصل المعنى، أنا منكرون عبادتهم إيانا ولم نأمرهم بها ولكن الجن سولت لهم عبادة غير الله فعبدوا الجن وعبدوا الملائكة.

وجملة: ﴿أكثرهم﴾ للمشركين وضمير: ﴿بهم﴾ للجن والمقام يرد كل ضمير إلى معاده ولو تماثلت الضمائر كما في قول عباس بن مرداس يوم حنين:

عدنا ولولا نحن أحدق جمعهم ... بالمسلمين وأحرزوا ما جمعوا

أي أحرز جمع المشركين ما جمعه المسلمون من مغانم.

---

(١) التحرير والتنوير ٧٨/٢٢

وقرأ الجمهور: ﴿نحشرهم﴾ و ﴿نقول﴾ بنون العظمة. وقرأ حفص عن عاصم بياء الغائب فيهما، والضمير عائد إلى ﴿ربي﴾ من قوله: ﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾ .
[٤٢] ﴿فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون [٤٢]﴾.". (١)

٣٦٠-"وتنديمهم.
وقد علق التكذيب هنا بنفس النار فجيء باسم الموصول المناسب لها ولم يعلق بالعذاب كما في آية سورة السجدة [٢٠] ﴿وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾ لأن القول المخبر عنه هنا هو قو ل الله تعالى وحكمه وقد أذن بهم إلى جهنم وشاهدوها كما قال تعالى: آنفا: ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾ [سبأ: ٣٣] فإن الذي يرى هو ما به العذاب، وأما القول المحكي في سورة السجدة [٢٠] فهو قول ملائكة العذاب بليل قوله: ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾ .
وتقديم المجرور للاهتمام والرعاية على الفاصلة.
[٤٣] ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين [٤٣]﴾.
انتقال من حكاية كفرهم وغرورهم وازدهائهم بأنفسهم وتكذيبهم بأصول الديانة إلى حكاية تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم، واتبع ذلك بحكاية تكذيبهم الكتاب والدين الذي جاء به فكان كالفذلكة لمل تقدم من كفرهم.
وجملة: ﴿إذا تتلى﴾ معطوفة على جملة: ﴿يوم نحشرهم جميعا﴾ [سبأ: ٤٠]عطف القصة على القصة. وضمير: ﴿عليهم﴾ عائد إلى: ﴿الذين كفروا﴾ [سبأ: ٣١] وهم المشركون من أهل مكة.
وإيراد حكاية تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم مقيدة بالزمن الذي تتلى عليه فيه آيات الله البينات تعجيب من وقاحتهم حيث كذبوه في أجدر الأوقات بأن يصدقوه عندها لأن وقت ظهور حجة صدقة لكل عاقر متبصر.
وللاهتمام بهذا الظرف والتعجيب من متعلقة قدم الظرف على عامله والتشويق إلى الخبر الآتي بعده وأنه من قبل البهتان والكفر البواح.
والمراد بالآيات البينات آيات القرآن، ووصفها بالبيان لأجلل ظهور أنها من عند الله لإعجازها إياهم من معارضتها، ولما اشتملت عليه معانيها من الدلائل الواضحة على". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٨٥/٢٢
(٢) التحرير والتنوير ٨٧/٢٢

٣٦١-"الإطناب، فصادف أن كان مضمون الجملتين متحدا اتحاد السبب لمسببين أو العلة لمعلولين كعلة السرقة للقطع والغرم. وبني النظم على هذا الأسلوب الشيق تجنبا لثقل إعادة الجملة إعادة ساذجة ففرعت الثانية على الأولى واظهر فيها مفعول: ﴿كذب﴾ وبني عليه الاستفهام التقريري التفظيعي، أو فرع للتكذيب الخاص على التكذيب الذي هو سجيتهم العامة على الوجه الثاني في معنى: ﴿وكذب الذين من قبلهم﴾ كما تقدم، ونظيره قوله تعالى: ﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر﴾ [القمر: ٩].

والتنكير: اسم للإنكار وهو عد الشيء منكرا، أي مكروها،واستعمل هنا كناية عن الغضب وتسليط العقاب على الآتي بذلك المنكر فهي كناية رمزية.

والمعنى: فكيف كان عقابي لهم على ما جاءوا به مما أنكره، أي كان عقابا عظيما على وفق إنكارنا تكذيبهم.

و ﴿نكير﴾ بكسر الراء وهو مضاف إلى ياء المتكلم، وحذفت الياء للتخفيف مع التنبيه عليها ببقاء الكسرة على آخر الكلمة وليناسب الفاصلة وأختها. وكتب في المصحف بدون ياء وبوقف عليه السكون.

[٤٦] ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد [٤٦]﴾.

افتتح بالأمر بالقول هنا وفي الجمل الأربع بعده للاهتمام بما احتوت عليه. وهذا استئناف **للانتقال** من حكاية أحوال كفر المشركين وما تخلل ذلك من النقض والاستدلال والتسلية والتهديد ووصف صدودهم ومكابرتهم إلى دعوتهم للإنصاف في النظر والتأمل في الحقائق ليتضح لهم خطؤهم فيما ارتكبوه من العسف في تلقي دعوة الإسلام وما ألصقوا به وبالداعي إليه، وأرشدوا إلى كيفية النظر في شأنهم والاختلاء بأنفسهم لمحاسبتها على سلوكها، استقصاء لهم في الحجة وإعذارا لهم في المجادلة: ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾ [الأنفال: ٤٢].

ولذلك اجتلبت صيغة الحصر بـ ﴿إنما﴾ ، أي ما أعظكم إلا بواحدة، طيا لبساط المناظرة وإرسال على الخلاصة من المجادلات الماضية، وتقريبا لشقة الخلاف بيننا وبينكم.". (١)

٣٦٢-"و ﴿أنى﴾ اسم استفهام يجيء بمعنى استفهام عن الحالة أو عن المكان أو عن الزمان. والاستفهام عن حالة انصرافهم هو المتعين هنا وهو استفهام مستعمل في التعجيب من انصرافهم عن الاعتراف بالوحدانية تبعا لمن يصرفهم وهم أولياؤهم وكبراؤهم.

و ﴿تؤفكون﴾ مبني للمجهول من أفكه من باب ضربه، إذا صرفه وعدل به، فالمصروف مأفوك. وحذف الفاعل هنا لأن آفكيهم أصناف كثيرون، وتقدم في قوله تعالى: ﴿قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ في سورة براءة [٣٠].

[٤] ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور [٤]﴾.

عطف على جملة ﴿اذكروا نعمت الله عليكم﴾ أي وإن استمروا على انصرافهم عن قبول دعوتك ولم يشكروا النعمة ببعثك

---

(١) التحرير والتنوير ٩٢/٢٢

فلا عجب فقد كذب أقوام من قبلهم رسلا من قبل. وهو **انتقال** من خطاب الناس إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم لمناسبة جريان خطاب الناس على لسانه فهو مشاهد لخطابهم، فلا جرم أن يوجه إليه الخطاب بعد توجيهه إليهم إذ المقام واحد كقوله تعالى: ﴿يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك﴾ [يوسف: ٢٩].

وإذ قد أبان لهم الحجة على انفراد الله تعالى بالإلهية حين خاطبهم بذلك نقل الإخبار عن صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أنكروا قبوله منه فإنه لما استبان صدقه في ذلك بالحجة ناسب أن يعرض إلى الذين كذبوه بمثل عاقبة الذين كذبوا الرسل من قبله وقد أدمج في خلال ذلك تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على تكذيب قومه إياه بأنه لم يكن مقامه في ذلك دون مقام الرسل السابقين.

وجيء في هذا الشرط بحرف ﴿إن﴾ الذي أصله أن يعلق به شرط غير مقطوع بوقوعه تنزيلا لهم بعد ما قدمت إليهم الحجة على وحدانية الله المصدقة لما جاءهم به الرسول عليه الصلاة والسلام فكذبوه فيه، منزلة من أيقن بصدق الرسول فلا يكون فرض استمرارهم على تكذيبه إلا كما يفرض المحال.

وهذا وجه إيثار الشرط هنا بالفعل المضارع الذي في حيز الشرط يتمخض للاستقبال، أي إن حدث منهم تكذيب بعد ما قرع أسماعهم من البراهين الدامغة.

والمذكور جوابا للشرط إنما هو سبب لجواب محذوف إذ التقدير: وإن يكذبوك فلا يحزنك تكذيبهم إذ قد كذبت رسل من قبلك فاستغني بالسبب عن المسبب لدلالته عليه.". (١)

٣٦٣-"وقد ورد هنا الإشكال العام الناشئ عن التعارض بين أدلة جريان كل شيء على ما هو سابق في علم الله في الأزل، وبين إضافة الأشياء إلى أسباب وطلب اكتساب المرغوب من تلك الأسباب واجتناب المكروه منها فكيف يثبت في هذه الآية للأعمار زيادة ونقص مع كونها في كتاب وعلم لا يقبل التغيير. وكيف يرغب بالصدقة مثلا أنها تزيد في العمر، أن صلة الرحم تطيل في العمر.

والمخلص من هذا ونحوه هو القاعدة الأصلية الفارقة بين كون الشيء معلوم لله تعالى وبين كونه مرادا،فإن العلم يتعلق بالأشياء الموجودة والمعدومة، والإرادة تتعلق بإيجاد الأشياء على وفق العلم بأنها توجد، فالناس مخاطبون بالسعي لما تتعلق به الإرادة بالشيء علمنا أن الله علم وقوعه، وما تصرفات الناس ومساعيهم إلا أمارات على ما علمه الله لهم، فصدقة المتصدق أمارة على أن الله علم تعميره،والله تعالى يظهر معلوماته في مظاهر تكريم أو تحقير ليتم النظام الذي أسس الله عليه هذا العالم ويلتئم جميع ما أراده الله من هذا التكوين على وجوه لا يخل بعضها ببعض وكل ذلك الحكمة العالية. ولا مخلص من هذا الإشكال إلا هذا الجواب وجميع ما سواه وإن أقنع ابتدأ الإشكال.

[١٢] ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون [١٢]﴾.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/١١٥

انتقال من الاستدلال بالأحوال في الأجواء بين السماء والأرض على تفرد الله تعالى بالإلهية إلى الاستدلال بما على الأرض من بحار وأنهار وما في صفاتها من دلالة زائدة على دلالة وجود أعيانها، على عظم مخلوقات الله تعالى، فصيغ هذا الاستدلال على أسلوب بديع إذ اقتصر فيه على التنبيه على الحكمة الربانية في المخلوقات وهي ناموس تمايزها بخصائص مختلفة واتحاد أنواعها في خصائص متماثلة استدلالا على دقيق صنع الله تعالى كقوله: ﴿تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ [الرعد: ٤] ويتضمن ذلك الاستدلال بخلق البحرين أنفسها لأن ذكر اختلاف مذاقهما يستلزم تذكر تكوينهما. فالتقدير: وخلق البحرين العذب والأجاج على صورة واحدة وخالف بين أعراضها، ففي الكلام إيجاز حذف، وإنما قدم من هذا الكلام تفاوت البحرين في المذاق واقتصر عليه". (١)

٣٦٤-"بقوله: ﴿تأكلون... وتستخرجون حلية﴾ وقوله: ﴿لتبتغوا من فضله﴾ فكان المقصد الأول من سياقها الاستدلال على عظيم الصنع فهو الأهم هنا. ولما كان طفو الفلك على الماء حتى لا يغرق فيه أظهر في الاستدلال على عظيم الصنع من الذي ذكر من النعمة والامتنان قدم ما يدل عليه وهو الظرفية في البحر. والمخر في البحر آية صنع الله أيضا بخلق وسائل ذلك والإلهام له، إلا أن خطور السفر من ذلك الوصف أو ما يتبادر إلى الفهم فأخر هنا لأنه من مستتبعات الغرض لا من مقصده فهو يستتبع نعمة تيسير الأسفار لقطع المسافات التي لو قطعت بسير القوافل لطالب مدة الأسفار.

ومن هنا يلمع بارق الفرق بين هذه الآية وآية سورة النحل في كون فعل ﴿لتبتغوا﴾ غير معطوف بالواو هنا ومعطوفا نظيره في آية النحل لأن الابتغاء علق هنا بـ ﴿مواخر﴾ إيقافا على الغرض من تقديم الظرف، وفي آية النحل ذكر المخر في عداد الامتنان لأن به تيسير الأسفار، ثم فصل بين ﴿مواخر﴾ وعلته بظرف ﴿فيه﴾ ، فصارما يومئ إليه الظرف فصلا بغرض أدمج إدماجا وهو الاستدلال على عظيم الصنع بطفو الفلك على الماء، فلما أريد الانتقال منه إلى غرض أخر وهو العود إلى الامتنان بالمخر لنعمة التجارة في البحر عطف المغاير في الغرض.

[١٣، ١٤] ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير [١٣] إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير [١٤]﴾.

﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾.

استدلال عليهم بما في مظاهر السماوات من الدلائل على بديع صنع الله في أعظم المخلوقات ليتذكروا بذلك أنه الإله الواحد.

وتقدم الكلام على نظير هذه الآية في سورة لقمان، سوى أن هذه الآية جاء فيها ﴿كل يجري لأجل﴾ فعدي فعل ﴿يجري﴾ باللام وجيء في آية سورة لقمان تعدية فعل ﴿يجري﴾ بحرف ﴿إلى﴾ ، فقيل اللام تكون بمعنى ﴿إلى﴾ في الدلالة على

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/١٣٥

الانتهاء، فالمخالفة بين الآيتين تفنن في النظم. وهذا أباه الزمخشري في سورة لقمان وردة أغلظ رد فقال:". (١)

٣٦٥-"وقدم تشبيه حال الكافر وكفره على تشبيه حال المؤمن وإيمانه ابتداء لأن الغرض الأهم من هذا التشبيه هو تفظيع حال الكافر ثم **الانتقال** إلى حسن حال ضده لأن هذا التشبيه جاء لإيضاح ما أفاده القصر في قوله: ﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ [فاطر: ١٨] كما تقدم آنفا من أنه قصر إضافي قصر قلب، فالكافر شبيه بالأعمى في اختلاط أمره بين عقل وجهالة، كاختلاط أمر الأعمى بين إدراك وعدمه.

والمقصود: أن الكافر وإن كان ذا عقل يدرك به الأمور فإن عقله تمحض لإدراك أحوال الحياة الدنيا وكان كالعدم في أحوال الآخرة كقوله تعالى: ﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ [الروم: ٧]، فحاله المقسم بين انتفاع بالعقل وعدمه يشبه حال الأعمى في إدراكه أشياء وعدم إدراكه.

والعمى يعبر به عن الضلال، قال ابن رواحة:

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع

ثم شبه الكفر بالظلمات في أنه يجعل الذي أحاط هو به غير متبين للأشياء، فإن من خصائص الظلمة إخفاء الأشياء، والكافر خفيت عنه الحقائق الاعتيادية، وكلما بينها له القرآن لم ينتقل إلى أجلى، كما لو وصفت الطريق للسائر في الظلام.

وجيء في ﴿الظلمات﴾ بلفظ الجمع لأنه الغالب في الاستعمال فهم لا يذكرون الظلمة إلا بصيغة الجمع. وقد تقدم في قوله: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ في الأنعام [١].

وضرب الظل مثلا لأثر الإيمان، وضده وهو الحرور مثلا لأثر الكفر، فالظل مكان نعيم في عرف السامعين الأولين، وهم العرب أهل البلاد الحارة التي تتطلب الظل للنعيم غالبا إلا في بعض فصل الشتاء، وقوبل بالحرور لأنه مؤلم ومعذب في عرفهم كما علمت، وفي مقابلته بالحرور إيذان تشبيه بالظل في حالة استطابته.

و ﴿الحرور﴾ : حر الشمس، ويطلق أيضا على الريح الحارة وهي السموم، أو الحرور: الريح الحارة التي تهب بليل والسموم تهب بالنهار.

وقدم في هذه الفقرة ما هو من حال المؤمنين على عكس الفقرات الثلاث التي قبلها لأجل الرعاية على الفاصلة بكلمة ﴿الحرور﴾ . وفواصل القرآن من متممات فصاحته، فلها حظ من الإعجاز.

فحال المؤمن يشبه حال الظل تطمئن فيه المشاعر، وتصدر فيه الأعمال عن تبصر وتريث وإتقان. وحال الكافر يشبه الحرور تضطرب فيه النفوس ولا تتمكن معه القول من". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٧/٢٢

(٢) التحرير والتنوير ١٤٨/٢٢

٣٦٦-"و ﴿من﴾ ابتدائية، أي شيئا ناشئا من الأرض، أو تبعيضية على أن المراد بالأرض ما عليها كإطلاق القرية على سكانها في قوله: ﴿واسأل القرية﴾ [يوسف: ٨٢].

و ﴿أم﴾ منقطعة للإضراب **الانتقالي**، وهي تؤذن باستفهام بعدها. والمعنى: بل ألهم شرك في السماوات.

والشرك بكسر الشين: اسم للنصيب المشترك به في ملك شيء.

والمعنى: ألهم شرك مع الله في ملك السماوات وتصريف أحوالهما كسير الكواكب وتعاقب الليل والنهار وتسخير الرياح وإنزال المطر.

ولما كان مقر الأصنام في الأرض كان من الراجح أن تتخيل للهم الأوهام تصرفا كاملا في الأرض فكأنهم آلهة أرضية، وقد كان مزاعم العرب واعتقاداتهم أفانين شي مختلطة من اعتقاد الصابئة ومن اعتقاد الفرس واعتقاد الروم فكانوا أشباها لهم فلذلك قيل لأشباههم في الإشراك ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾ ، أي فكان تصرفهم في ذلك تصرف الخالقية، فأما السماوات فقلما يخطر ببال المشركين أن للأصنام تصرفا في شؤونها، ولعلهم لم يدعوا ذلك ولكن جاء قوله: ﴿أم لهم شرك في السماوات ﴾ مجيء تكملة الدليل على الفرض والاحتمال، كما يقال في آداب البحث "فإن قلت". وقد كانوا ينسبون للأصنام بنوة لله تعالى قال تعالى: ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ [النجم: ٢٣].

فمن أجل ذلك جيء في جانب الاستدلال على انتفاء تأثير الأصنام في العوالم السماوية بإبطال أن يكون لها شرك في السماوات لأنهم لا يدعون لها في مزاعمهم أكثر من ذلك.

ولما قضي حق البرهان العقلي على انتفاء إلهية الذين يدعون من دون الله تعالى المثبتة آلة دونه لأن الله اعلم بشركائه وأنداده لو كانوا، فقال تعالى: ﴿أم آتيناهم كتابا فهم على بينات منه﴾ المعنى: بل آتيناهم كتابا فهم يتمكنون من حجة فيه تصرح بإلهية هذه الآلهة المزعومة.

وقرأ نافع وأبن عامر والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿على بينات﴾ بصيغة الجمع. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم ويعقوب ﴿على بينة﴾ بصيغة الإفراد.". (١)

٣٦٧-"فأما قراءة الجمع فوجهها أن شأن الكتاب أن يشتمل على أحكام عديدة ومواعظ مكررة ليتقرر المراد من إيتاء الكتب من الآلة القاطعة بحيث لا تحتمل تأويلا ولا مبالغة ولا نحوها على حد قول علماء الأصول في دلالة الأخبار المتواترة دلالة قطعية، وإما قراءة الإفراد فالمراد منها جنس البينة الصادق بأفراد كثيرة.

ووصف البينات أو البينة ب ﴿منه﴾ لآلة على أن المراد وكون الكتاب المفروض إيتاؤه مشتملا على حجة لهم تثبت إلهية الأصنام. وليس مطلق كتاب يؤتونه أمارة من الله على أنه بأنه راض منهم بما هم عليه كدلالة المعجزات على صدق الرسول، وليست الخوارق ناطقة بأنه صادق فأريد: أآتياهم كتابا ناطقا مثل مال آتينا المسلمين القرآن.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/١٧٧

ثم كر على كله الإبطال بواسطة ﴿بل﴾ ، بأن ذلك كله منتصف وأنهم لا باعث لهم على مزاعمهم الباطلة إلا وعد بعضهم بعضا مواعيد كاذبة يغر بعضهم بها بعضا.

والمراد بالذين يعدونهم رؤساء المشركين وقادتهم بالموعودين عامتهم ودهماؤهم، أو أريد أن كلا الفريقين واعد وموعود في الرؤساء وأئمة الكفر يعدون العامة نفع الأصنام وشفاعتها وتقريبها إلى الله ونصرها غرورا بالعامة تعد رؤساءها التصميم على الشرك قال تعالى: حكاية عنهم ﴿إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها﴾ [الفرقان: ٤٢].

و ﴿إن﴾ نافية، والاستثناء مفرع عن جنس الوعد محذوفا.

وانتصب ﴿غرورا﴾ على أنه صفة للمثنى المحذوف. والتقدير: إن يعد الظالمون بعضهم بعضا وعدا إلا وعدا غرورا.

والغرور تقدم معناه عند قوله تعالى: ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد﴾ في آل عمران [١٩٦].

[٤١] ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا [٤١]﴾.

انتقال من نفي أن يكون لشركائهم خلق أو شركة تصرف في الكائنات التي في السماء والأرض إلى إثبات أنه تعالى هو القيوم على السماوات والأرض لتبقيا موجودتين فهو الحافظ بقدرته نظام بقائها. وهذا الإمساك هو الذي يعبر عنه علم الهيئة بنظام الجاذبية بحيث لا يعتريه خلل.". (١)

٣٦٨-"[١٢] ﴿إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين [١٢]﴾.

لما اقتضى القصر في قوله: ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب﴾ [يس: ١١] نفي أن يتعلق الإنذار بالذين لم يتبعوا الذكر ولم يخشوا الرحمان، وكان في ذلك كناية تعريضية بأن الذين لم ينتفعوا بالإنذار بمنزلة الأموات لعدم انتفاعهم بما ينفع كل عاقل، كما قال تعالى: ﴿لتنذر من كان حيا﴾ [يس: ٧٠] وكما قال ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ [النمل: ٨٠] استطرد عقب ذلك بالتخلص إلى إثبات البعث فإن التوفيق الذي حف بمن اتبع الذكر وخشي الرحمان هو كإحياء الميت لن حالة الشرك حالة ضلال يشبه الموت، والإخراج منه كإحياء الميت، فهذه الآية اشتملت بصريحتها على علم بتحقيق البعث واشتملت بتعريضها على رمز واستعارتين ضمنيتين: استعارة الموتى للمشركين، واستعارة الأحياء للإنقاذ من الشرك، والقرينة هي الانتقال من كلام إلى كلام لما يومئ إليه الانتقال من سبق الحضور في المخيلة فيشمل المتكلم مما كان يتكلم في شأنه إلى الكلام فيما خطر له. وهذه الدلالات من مستتبعات المقام وليست من لوازم معنى التركيب. وهذا من أدق التخلص بحرف "إن" لأن المناسبة بين المنتقل منه والمنتقل إليه تحتاج إلى فطنة، وهذا مقام خطاب الذكي المذكور في مقدمة علم المعاني.

فيكون موقع جملة "إنا نحيي الموتى" استئنافا ابتدائيا لقصد إنذار الذين لم يتبعوا الذكر، ولم يخشوا الرحمان، وهم الذين اقتضاهم جانب النفي في صيغة القصر.

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٨/٢٢

ويجوز ان يكون الإحياء مستعارا للإنقاذ من الشرك، والموتى: استعارة لأهل الشرك، فإحياء الموتى توفيق من آمن من الناس إلى الإيمان كما قال تعالى: ﴿أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات﴾ [الأنعام: ١٢٢] الآية.

فتكون الجملة امتنانا على المؤمنين بتيسير الإيمان لهم، قال تعالى: ﴿فمن فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ [الأنعام: ١٢٥] وموقع الجملة لقوله: ﴿فبشره بمغفرة وأجر كريم﴾ [يس: ١١].

والمراد بكتابة ما قدموا الكناية عن الوعد بالثواب على أعمالهم الصالحة والثواب على آثارهم.". (١)

٣٦٩-"وهذا الاعتبار يناسب الاستئناف الابتدائي ليكون **الانتقال** بابتداء كلام منبها السامع إلى ما اعتبره المتكلم في مطاوي كلامه.

والتأكيد بحرف "إن" منظور فيه إلى المعنى الصريح كما هو الشأن، و ﴿نحن﴾ ضمير فصل لا للتقوية وهو زيادة تأكيد. والمعنى: نحييهم للجزاء، فلذلك عطف ﴿ونكتب ما قدموا﴾ ، أي نحصى لهم أعمالهم من خير وشر قدموها في الدنيا لنجازيهم.

وعطف ذلك إدماج للإنذار والتهديد بأنهم محاسبون على أعمالهم ومجازون عليها.

والكناية: كناية عن الإحصاء وعدم غفلات شيء من أعمالهم أو إغفاله. وهي ما يعبر عنه بصحائف الأعمال التي يسجلها الكرام الكاتبون.

فالمرد بـ ﴿ما قدموا﴾ ما عملوا من العمال قبل الموت، شبهت أعمالهم في الحياة الدنيا بأشياء يقدمونها إلى الدار الآخرة كما يقدم المسافر ثقله وأحماله.

وأما الآثار فهي آثار الأعمال وليست عين الأعمال بقرينة مقابلته بـ ﴿ما قدموا﴾ مثل ما يتركون من خير أو يثير بين الناس وفي النفوس.

والمقصود بذلك ما علموه موافقا للتكاليف الشرعية أو مخالفا لها وآثارهم كذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أعمالهم شيئا".

فالآثار مسببات أسباب عملوا بها. وليس المراد كتابة كل ما عملوه لأن ذلك لا تحصل منه فائدة دينية يترتب عليها الجزاء. فهذا وعد ووعيد كل يأخذ بحظه منه.

وقد ورد عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغه أن بني سلمة أرادوا أن يتحولوا من منازلهم في أقصى المدينة إلى قرب المسجد وقالوا: البقاع خالية، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: "يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم" . مرتين رواه مسلم. ويعني آثار أرجلهم في المشي إلى صلاة الجماعة.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٠٣

وفي رواية الترمذي عن أبي سعيد زاد: أنه قرأ عليهم: ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ فجعل الآثار عاما للحسية والمعنوية، وهذا يلاقي الوجه الثاني في موقع جملة: ﴿إنا نحن". (١)

٣٧٠-"في إيمانهم، وأما المشركون فحظهم من المثل ما تقدم وما يأتي من قوله: ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾ [يس: ٢٩].

وفي قوله: ﴿قيل ادخل الجنة﴾ كناية عن قتله شهيدا في إعلاء كلمة الله لأن تعقيب موعظته بأمره بدخول الجنة دفعة بلا **انتقال** يفيد بدلالة الاقتضاء أنه مات وأنهم قتلوه لمخالفته دينهم، قال بعض المفسرين: قتلوه رجما بالحجارة، وقال بعضهم: أحرقوه، وقال بعضهم: حفروا له حفرة وردموه فيها حيا.

وإن هذا الرجل المؤمن قد أدخل الجنة عقب موته لأنه كان من الشهداء والشهداء لهم مزية التعجيل بدخول الجنة دخولا غير موسع. ففي الحديث: "إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تأكل من ثمار الجنة".

والقائل: ﴿ادخل الجنة﴾ هو الله تعالى.

والمقول له هو الرجل الذي جاء من أقصى المدينة وإنما لم يذكر ضمير المقول له مجرورا باللام لأن القول المذكور هنا قول تكويني لا يقصد منه المخاطب به بل يقصد حكاية حصوله لأنه إذا حصل حصل أثره كقوله تعالى: ﴿أن نقول له كن فيكون﴾ [النحل: ٤٠].

وإذ لم يقص في المثل أنه غادر مقامه الذي قام فيه بالموعظة كان ذلك إشارة إلى أنه مات في مقامه ذلك، ويفهم منه أنه مات قتيلا في ذلك الوقت أو بأثره.

وإنما سلك في هذا المعنى طريق الكناية ولم يصح بأنهم قتلوه إغماضا لهذا المعنى عن المشركين كيلا يسرهم أن قومه قتلوه فيجعلوه من جملة ما ضرب به المثل لهم وللرسول صلى الله عليه وسلم فيطمعوا فيه أنهم يقتلون الرسول صلى الله عليه وسلم فهذه الكناية لا يفهمها إلا أهل الإسلام الذين تقرر عندهم التلازم بين الشهادة في سبيل الله ودخول الجنة، أما المشركون فيحسبون أن ذلك في الآخرة. وقد تكون في الكلام البليغ خصائص يختص بنفعها بعض السامعين.

وجملة: ﴿قال يا ليت قومي يعلمون﴾ مستأنفة أيضا استئنافا بيانيا لأن السامع يترقب ماذا قال حين غمره الفرح بدخول الجنة. والمعنى: أنه لم يلهه دخول الجنة عن حال قومه، فتمنى أن يعلموا ماذا لقي من ربه ليعلموا فضيلة الإيمان فيؤمنوا وما تمنى هلاكهم ولا الشماتة بهم فكان متسما بكظم الغيظ وبالحلم على أهل الجهل، وذلك لأن عالم الحقائق لا تتوجه فيه النفس إلا إلى الصلاح المحض ولا قيمة للحظوظ الدنية وسفساف الأمور.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٤/٢٢

(٢) التحرير والتنوير ٢١٧/٢٢

٣٧١-"محضرون، لما كان تناف بين "أكثرهم" وبين "جميعهم" أي أكثرهم يحضر مجتمعين؛ فارتفع ﴿جميع﴾ على الخبرية في قراءة تخفيف ﴿لما﴾ وعل الاستثناء على قراءة تشديد ﴿لما﴾ . و ﴿محضرون﴾ نعت لـ ﴿جميع﴾ على القراءتين.
وروعي في النعت معنى المنعوت فألحقت به علامة الجماعة، كقول لبيد:
عريت وكان بها الجميع فأبكروا ... منها وغودر نؤيها وثمامها
والإحضار: الإحضار للحساب والجزاء والعقاب.
[٣٣] ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون [٣٣]﴾.
عطف على قصة ﴿واضرب لهم مثلا أصحاب القرية﴾ [يس: ١٣] فإنه ضرب لهم مثلا لحال إعراضهم وتكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وما تشتمل عليه تلك الحال من إشراك وإنكار للبعث وأذى للرسول صلى الله عليه وسلم وعاقبة ذلك كله. ثم أعقب ذلك التفصيل لإبطال ما اشتملت عليه تلك الاعتقادات من إنكار البعث ومن الإشراك بالله.
وابتدئ بدلالة تقريب البعث لمناسبة **الانتقال** من قوله: ﴿وإن كل لما جميع لدينا محضرون﴾ [يس: ٣٢] على أن هذه لا تخلو من دلالتها على الانفراد بالتصرف، وفي ذلك إثبات الوحدانية.
و ﴿وآية﴾ مبتدأ و ﴿لهم﴾ صفة ﴿آية﴾ ، و ﴿الأرض﴾ خبر ﴿آية﴾ ، و ﴿الميتة﴾ صفة ﴿الأرض﴾ . وجملة ﴿أحييناها﴾ في موضع الحال من ﴿الأرض﴾ وهي حال مقيدة لأن إحياء الأرض هو مناط للدلالة على إمكان البعث بعد الموت، أو يكون جملة ﴿أحييناها﴾ بيانا لجملة ﴿وآية لهم الأرض﴾ لبيان موقع الآية فيها، أو بدل اشتمال من جملة ﴿وآية لهم الأرض﴾ ، أو استئنافا بيانيا كأن سائلا سأل: كيف كانت الأرض الميتة؟
وموت الأرض: جفافها وجرازتها لخلوها من حياة النبات فيها، وأحياؤها: خروج النبات منها من العشب والكلأ والزرع.
وقرأ نافع وأبو جعفر ﴿الميتة﴾ بتشديد الياء. وقرأ الباقون بتخفيف الياء، والمعنى واحد وهما سواء في الاستعمال.
والحب: اسم جمع حبة، وهو بزرة النبت مثل البرة والشعيرة. وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل﴾ [البقرة: ٢٦١] في سورة البقرة.". (١)

٣٧٢-"تحت طي الخفاء من دقائق التكوين،فبهذا الشعور الإجمالي بها وقع عدها في ضمن الاعتبار بآية خلق الأزواج من جميع النواحي.
وإذا حمل ﴿الأزواج﴾ في قوله: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها﴾ على المعنى الثاني لهذا اللفظ وهو إطلاقه على الأصناف والأنواع كما في قوله: ﴿فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى﴾ [طه: ٥٣] كانت ﴿من﴾ في المواضع الثلاثة بيانية، والمجرور بها في فحوى عطف البيان، أو بدل مفصل من مجمل قوله ﴿الأزواج﴾ والمعنى: الأزواج كلها التي هي: ما تنبت الأرض، وأنفسهم، وما لا يعلمون. ويدل قوله: ﴿ومما لا يعلمون﴾ على محذوف تقديره: وما يعلمون، وذلك من دلالة الإشارة.
فخص بالذكر أصناف النبات لأن بها قوام معاش الناس ومعاش أنعامهم ودوابهم، وأصناف أنفس الناس لأن بها أقوى، قال

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٤/٢٢

تعالى: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [الذريات: ٢١]. ثم ذكر ما يعم المخلوقات مما يعلمه الناس وما لا يعلمونه في مختلف الأقطار والأجيال والعصور. وقدم ذكر النبات إيثارا له بالأهمية في هذا المقام لأنه أشبه بالبعث الذي أومأ إليه قوله: ﴿وإن كل لما جميع لدينا محضرون﴾ [يس: ٣٢].

وتكرير حرف ﴿من﴾ بعد واو العطف للتوكيد على كلا التفسيرين.

وضمير ﴿أنفسهم﴾ عائد إلى ﴿العباد﴾ في قوله: ﴿حسرة على العباد﴾ [يس: ٣٠]. والمراد بهم: المكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم.

[٣٧] ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون [٣٧]﴾.

انتقال إلى دلالة مظاهر العوالم على دقيق نظام الخلق فيها مما تؤذن به المشاهدة مع التبصر. وابتدئ منها بنظام الليل والنهار لتكرر وقوعه أمام المشاهدة لكل راء. وجملة ﴿نسلخ منه النهار﴾ تحتمل جميع الوجوه التي ذكرناها في جملة ﴿أحييناها﴾ [يس: ٣٣] آنفا.

والسلخ: إزالة الجلد عن حيوانه، وفعله يتعدى إلى الجلد المزال بنفسه على المفعولية، ولذلك يقال للجلد المزال من جسم الحيوان: سلخ "بكسر السين وسكون اللام" بمعنى مسلوخ، ولا يقال للجسم الذي أزيل جلده: سلخ. ويتعدى فعل سلخ إلى الجسم الذي أزيل جلده بحرف الجر، والأكثر أنه "من" الابتدائية، ويتعدى بحرف "عن" أيضا لما في السلخ من معنى المباعدة والمجاوزة بعد الاتصال. فمفعول ﴿نسلخ﴾ هنا هو". (١)

٣٧٣-"﴿يسبحون﴾ ، فبطل أن تكون أجرام الكواكب ملتصقة بأفلاكها ولزم من كونها سابحة أن طرائق سيرها دوائر وهمية لأن السبح هنا سبح في الهواء لا في الماء، والهواء لا تخطط فيه الخطوط ولا الأخاديد.

وجيء بضمير: ﴿يسبحون﴾ ضمير جمع مع أن التقدم ذكره شيئان هما الشمس والقمر لأن المراد إفادة تعميم هذا الحكم للشمس والقمر وجميع الكواكب وهي حقيقة علمية سبق بها القرآن.

وجملة ﴿وكل في فلك﴾ فيها محسن الطرد والعكس فإنها تقرأ من آخرها كما تقرأ من أولها.

[٤١- ٤٤] ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون [٤١] وخلقنا لهم من مثله ما يركبون [٤٢] وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون [٤٣] إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين [٤٤]﴾.

انتقال من عد آيات في السماء إلى عد آية في البحر تجمع بين العبرة والمنة وهي آية تسخير الفلك أن تسير على الماء وتسخير الماء لتطفو عليه دون أن يغرقها.

وقد ذكر الله الناس بآية عظيمة اشتهرت حتى كانت كالمشاهدة عندهم وهي آية إلهام نوح صنع السفينة ليحمل الناس الذين آمنوا ويحمل من كل أنواع الحيوان زوجين لينجي الأنواع من الهلاك والاضمحلال بالغرق في حادث الطوفان. ولما كانت هذه الآية حاصلة لفائدة حمل أزواج من أنواع الحيوان جعلت الآية نفس الحمل إدماجا للمنة في ضمن العبرة فكأنه

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٢٨

قيل:وآية لهم صنع الفلك لنحمل ذرياتهم فيه فحملناهم.

وأطلق الحمل على الإنجاء من الغرق على وجه المجاز المرسل لعلاقة السببية والمسببية، أي أنجينا ذرياتهم من الغرق بحملهم في الفلك حين الطوفان.

والذريات: جمع ذرية وهي نسل الإنسان. و ﴿الفلك المشحون﴾ : هو المعهود بين البشر في قصة الطوفان، وهو هنا مفرد بقرينة وصفه وهو ﴿المشحون﴾ ولم يقل: المشحونة كما قال: ﴿وترى الفلك فيه مواخر﴾ [فاطر: ١٢] وهو فلك نوح فقد اشتهر بهذا الوصف في القرآن كما في سورة الشعراء [١١٩] ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون﴾ ولم يوصف غير فلك نوح بهذا الوصف.". (١)

٣٧٤-"والاستفهام تقريري، وخطبوا بعنوان ﴿بني آدم﴾ لأن مقام التوبيخ على عبادتهم الشيطان يقتضي تذكيرهم بأنهم أبناء الذي جعله الشيطان عدوا له، كقول النابغة:

لئن كان للقبرين قبر بجلق ... وقبر بصيدا الذي عند حارب

وللحارث الجفني سيد قومه ... ليلتمس بالجيش دار المحارب

يعني بلاد من حارب أصوله.

والعهد: الوصاية، ووصاية الله آدم بألا يعبدوا الشيطان هي ما تقرر واشتهر في الأمم بما جاء به الرسل في العصور الماضية فلا يسع إنكاره. وبهذا الاعتبار صح الإنكار عليهم في حالهم الشبيه بحال من يجحد هذا العهد.

واعلم أن في قوله تعالى: ﴿أعهد﴾ تولي العين والهاء حرفان متقاربا المخرج من حروف الحلق إلا أن تواليهما لم يحدث ثقلا في النطق بالكلمة ينافي الفصاحة بموجب تنافر الحروف لأن **انتقال** النطق في مخرج العين من وسط الحلق إلى مخرج الهاء من أقصى الحلق خفف النطق بهما، وكذلك **الانتقال** من سكون إلى حركة زاد ذلك خفة. ومثله قوله تعالى: ﴿وسبحه﴾ [الانسان: ٢٦] المشتمل على حاء وهي من وسط الحلق وهاء وهي من أقصاه إلا أن الأولى ساكنة والثانية متحركة وهما متقاربا المخرج، ولا يعد هذا من تنافر الحروف، ومثل له بقول أبي تمام:

كريم متى أمدحه ... معي وإذا ما لمته لمته وحدي

فإن كلمة "امدحه" لا تعد متنافرة الحروف على أن تكريرها أحدث عليها ثقلا ما فلا يكون ذلك مثل قول امرئ القيس:

غدائره مستشزرات إلى العلى ١

المجعول مثالا للتنافر فإن تنافر حروفه انجر إليه من تعاقب ثلاثة حروف: السين والشين والزاي، ولولا الفصل بين السين والشين بالتاء لكان اشد تنافرا.

وموجبات التنافر كثيرة ومرجعها إلى سرعة **انتقال** اللسان في مخارج حروف شديد التقارب أو التباعد مع عوارض تعرض لها من صفات الحروف من: جهر وهمس، أو شدة ورخو، أو استعلاء واستفال، أو انفتاح وانطباق، أو إصمات واندلاق.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٦/٢٢

ومن حركاتها

–

١ تمامه: تضل العقاص في مثنى ومرسل.". (١)

٣٧٥-"والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا وقوله: ﴿اليوم﴾ ظرف متعلق بـ ﴿نختم﴾ .

والقول في لفظ ﴿اليوم﴾ كالقول في نظائره الثلاثة المتقدمة، وهو تنويه بذكره بحصول هذا الحال العجيب فيه، وهو **انتقال** النطق من موضعه المعتاد إلى الأيدي والأرجل.

وضمائر الغيبة في ﴿أفواههم ، أيديهم ، أرجلهم ، يكسبون﴾ عائدة على الذين خوطبوا بقوله: ﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ [يس: ٦٣] على طريقة الالتفات. وأصل النظم: اليوم نختم على أفواهكم وتكلمنا أيديكم وتشهد أرجلكم بما كنتم تكسبون. ومواجهتهم بهذا الإعلام تأسيس لهم بأنهم لا ينعهم إنكار ما أطلعوا عليه من صحائف إعمالهم كما قال تعالى: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾ [الإسراء: ١٤].

وقد طوي في هذه الآية ما ورد تفصيله في آي أخر فقد قال تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام: ٢٢- ٢٣] وقال ﴿وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾ [يونس: ٢٨- ٢٩] .

وفي "صحيح مسلم" عن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يخاطب العبد ربه يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني، فيقول الله: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا، فيختم على فيه. فيقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل" ، وإنما طوي ذكر الداعي إلى خطابهم بهذا الكلام لأنه لم يتعلق به غرض هنا فاقتصر على المقصود.

وقد يخيل تعارض بين هذه الآية وبين قوله: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ [النور: ٢٤] ولا تعارض لأن آية يس في أحوال المشركين وآية سورة النور في أحوال المنافقين. والمراد بتكلم الأيدي تكلهما بالشهادة، والمراد بشهادة الأرجل نطقها بالشهادة، ففي كلتا الجملتين احتباك. والتقدير: وتكلمنا أيديهم فتشهد وتكلمنا أرجلهم فتشهد.

ويتعلق: ﴿بما كانوا يكسبون﴾ بكل من فعلي ﴿تكلمنا، وتشهد﴾ على وجه التنازع. وما يكسبونه: هو الشرك وفروعه. وتكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وما ألحقوا به من الأذى.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٥٣

(٢) التحرير والتنوير ٢٢/٢٥٦

٣٧٦-"بشاعر. وانتصب ﴿الشعر﴾ على أنه مفعول ثان لفعل ﴿علمناه﴾ ، وهذا الفعل من أفعال العلم، ومجرده يتعدى إلى مفعول واحد غالبا نحو علم المسألة. ويتعدى إلى مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر، فإذا دخله التضعيف صار متعديا إلى مفعولين فقط اعتدادا بأن مجرده متعد إلى واحد كقوله تعالى: ﴿وإذ علمتك الكتاب والحكمة﴾ [المائدة: ١١٠] في سورة العقود، وقوله: ﴿وما علمناه الشعر﴾ في هذه السورة يس وهذه تفرقة في الاستعمال موكولة إلى اختبار أهل اللسان نبه عليه الرضي في "شرح الكافية" في باب تعدية أفعال القلوب إلى مفعولين بأن أصله متعد إلى واحد. فتقدير المعنى: نحن علمناه القرآن وما علمناه الشعر، فالقرآن موحى إليه بتعليم من الله والذي أوحى به إليه ليس بشعر، وإذن فالمعنى: أن القرآن ليس من الشعر في شيء، فكانت هاته الجملة ردا على قولهم: هو شاعر على طريقة الكناية لأنها **انتقال** من اللازم إلى الملزوم.

ودل على أن هذا هو المقصود من قوله: ﴿وما علمناه الشعر﴾ قوله عقبة ﴿إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ ، أي ليس الذي علمناه إياه إلا ذكرا وقرآنا وما هو بشعر. والتعليم هنا بمعنى الوحي، أي وما أوحينا إليه الشعر فقد أطلق التعليم على الوحي في قوله تعالى: ﴿إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى﴾ [النجم: ٤، ٥] وقال ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾ [النساء: ١١٣].

وكيف يكون القرآن شعرا والشعر كلام موزون مقفى له معان مناسبة لأغراضه التي أكثرها هزل وفكاهة، فأين الوزن في القرآن، وأين التقفية، وأين المعاني التي ينتجها الشعر، وأين نظم كلامهم من نظمه، وأساليبهم من أساليبه. ومن العجيب في الوقاحة أن يصدر عن أهل اللسان والبلاغة قول هذا ولا شبهة لهم فيه بحال، فما قولهم ذلك إلا بهتان.

وما بني عليه أسلوب القرآن من تساوي الفواصل لا يجعلها موازية للقوافي كما يعلمه أهل الصناعة منهم وكل من زاول مبادئ القافية من المولدين، ولا أحسبهم دعوه شعرا إلا تعجلا في الإبطال، أو تمويها على الإغفال، فأشاعوا في العرب أن محمدا صلى الله عليه وسلم شاعر، وأن كلامه شعر، وينبني عن هذا الظن خبر أنيس بن جنادة الغفاري أخي أبي ذر، فقد روى البخاري عن ابن عباس، ومسلم عن عبد الله ابن الصامت، يزيد أحدهما على الآخر قالا: "قال أبو ذر لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء واستمع من قوله ثم ائتني، فانطلق الأخ حتى قدم". (١)

٣٧٧-"وجيء باسم العاقل وهو ﴿من﴾ الموصولة تغليبا للعاقلين من المخلوقات.

وجملة ﴿إنا خلقناهم من طين لازب﴾ في موضع العلة لما يتولد من معنى الاستفهام في قوله: ﴿أهم أشد خلقا أم من خلقنا﴾ من الإقرار بأنهم أضعف خلقا من خلق السماوات وعوالمها احتجاجا عليهم بأن تأتي خلقهم بعد بعد الفناء أهون من تأتي المخلوقات العظيمة المذكورة آنفا ولم تكن مخلوقة قبل فإنهم خلقوا من طين لأن أصلهم وهو آدم خلق من طين كما هو مقرر لدى جميع البشر فكيف يحيلون البعث بمقالاتهم التي منها قولهم: ﴿أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٦٢

[الصافات:١٦].

والطين:التراب المخلوط بالماء.

واللازب:اللاصق بغيره ومنه أطلق على الأمر الواجب "لازب" في قول النابغة:

ولا يحسبون الشر ضربة لازب

وقد قيل:إن باء لازب بدل من ميم لازم،والمعنى: أنه طين عتيق صار حمأة.

وضمير ﴿إنا خلقناهم﴾عائد إلى المشركين وهو على حذف مضاف،أي خلقنا أصلهم وهو آدم فإنه الذي خلق من طين لازب،فإذا كان أصلهم قد أنشئ من تراب فكيف ينكرون إمكان إعادة كل آدمي من تراب.

[١٤،١٢] ﴿بل عجبت ويسخرون وإذا ذكروا لا يذكرون وإذا رأوا آية يستسخرون﴾

﴿بل﴾ للإضراب الانتقالي من التقرير التوبيخي إلى أن حالهم عجب.

وقرأ الجمهور ﴿بل عجبت﴾ بفتح التاء للخطاب.والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم المخاطب بقوله: ﴿فاستفتهم﴾ [الصافات:١١].وفعل المضي مستعمل في معنى الأمر وهو من استعمال الخبر في معنى الطلب للمبالغة كما يستعمل الخبر في إنشاء صيغ العقود نحو:بعث.والمعنى:اعجب لهم.ويجوز أن يكون العجب قد حصل من النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى إعراضهم وقلة إنصافهم فيكون الخبر مستعملا في حقيقته.ويجوز أن يكون الكلام لى تقدير همزة الاستفهام،أي بل أعجبت.

والمعنى على الجميع:أن حالهم حرية بالتعجب كقوله تعالى: ﴿وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا ترابا أإنا لفي خلق جديد﴾ في سورة الرعد[٥]." (١)

٣٧٨-"هنا.وضمير ﴿عليها﴾ عائد إلى ﴿شجرة الزقوم﴾ بتأويل ثمرها.و"على" بمعنى "مع"،ويصح أن تكون للاستعلاء لأن الحميم يشربونه بعد الأكل فينزل عليه في الأمعاء.

والحميم:القيح السائل من الدمل،وتقدم عند قوله تعالى: ﴿لهم شراب من حميم﴾ في سورة الأنعام.

والقول في عطف ﴿ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾ كالقول في عطف ﴿ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم﴾ .

والمرجع:مكان الرجوع،أي المكان الذي يعود إليه الخارج منه بعد أن يفارقه.وقد يستعار للانتقال من حالة طارئة إلى حالة أصلية تشبيها بمغادرة المكان ثم العود إليه كقول عمر بن الخطاب في كلامه مع هنيىء صاحب الحمى:"فإنها إن تهلك ماشيتهما يرجعان إلى نخل وزرع"،يعني عثمان بن عفان وعبد الرحمان بن عوف،فإنه إنما عنى أنهما ينتقلان من الانتفاع بالماشية إلى الانتفاع بالنخل والزرع وكذلك ينبغي أن يفسر الرجوع في الآية لان المشركين حين يطعمون من شجرة الزقوم ويشربون الحميم لم يفارقوا الجحيم فأريد التنبيه على أن عذاب الأكل من الزقوم والشراب من الحميم زيادة على عذاب الجحيم،ألا ترى إلى قوله: ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم﴾ فليس ثمة مغادرة للجحيم حتى يكون الرجوع حقيقة، مثله

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/٢٣

النبي صلى الله عليه وسلم حين رجوعه من إحدى مغازيه:"رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر" يريد مجاهدة النفس فإنه لم يعن أنهم حين اشتغالهم بالجهاد قد تركوا مجاهدة أنفسهم وإنما عنى أنهم كانوا في جهاد زائد فصاروا إلى الجهاد السابق.

[٦٩-٧٠] ﴿إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون﴾

تعليل لما جازاهم الله به من العذاب وإبداء للمناسبة بينه وبين جرمهم،فإن جرمهم كان تلقيا لما وجدوا عليه آبائهم من الشرك وشعبه بدون نظر ولا اختيار لما يختاره العاقل،فكان من جزائهم على ذلك أنهم يطعمون طعاما مؤلما ويسقون شرابا قذرا بدون اختيار كما تلقوا دين آبائهم تقليدا واعتباطا.

فموقع "إن" موقع فاء السببية،ومعناها معنى لام التعليل،وهي لذلك مفيدة ربط الجملة بالتي قبلها كما تربطها الفاء ولام التعليل كما تقدم غير مرة.". (١)

٣٧٩-"والتولي:الإعراض والمفارقة.

لم ينطق إبراهيم بإن النجوم دلته على أنه سقيم ولكنه لما جعل قوله: ﴿إني سقيم﴾ مقارنا لنظره في النجوم أوهم قومه أنه عرف ذلك من دلالة النجوم حسب أوهامهم.

و ﴿مدبرين﴾ حال،أي ولوه أدبارهم،أي ظهورهم.والمعنى:ذهبوا وخلفوه وراء ظهورهم بحيث لا ينظرونه.وقد قيل:إن ﴿مدبرين﴾حال مؤكدة وهو من التوكيد الملازم لفعل التولي غالبا لدفع توهم أنه تولي مخالفة وكراهة دون **انتقال**.وما وقع في التفاسير في معنى نظره في النجوم وفي تعيين سقمه المزعوم كلام لا يمتع بين موازين المفهوم،وليس في الآية ما يدل على أن للنجوم دلالة على حدوث شيء من حوادث الأمم ولا الأشخاص ومن يزعم ذلك فقد ضل دينا، واختل نظرا وتخمينا.وقد دونوا كذبا كثيرا في ذلك وسموه علم أحكام الفلك أو النجوم.

وقد ظهر من نظم الآية أن قوله: ﴿إني سقيم﴾ لم يكن مرضا ولذلك جاء الحديث الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات اثنتين منهن في ذات الله عز وجل قوله : ﴿إني سقيم﴾ ،وقوله: ﴿قال بل فعله كبيرهم هذا﴾ [الأنبياء:٦٣] ،وبينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فسأله عن سارة فقال:"هي أختي" الحديث،فورد عليه إشكال من نسبة الكذب إلى نبي.

ودفع الإشكال:أن تسمية هذا الكلام كذبا منظور فيه إلى ما يفهمه أو يعطيه ظاهر الكلام وما هو بالكذب الصراح بل هو من المعاريض،أي أني مثل السقيم في التخلف عن الخروج،أو في التألم من كفرهم وأن قوله:"هي أختي" أراد أخوة الإيمان،وأنه أراد التهكم في قوله: ﴿قال بل فعله كبيرهم هذا﴾ [الأنبياء:٦٣]لظهور قرينة أن مراده التغليط.

وهذه الأجوبة لا تدفع إشكالا يتوجه على تسمية النبي صلى الله عليه وسلم هذا الكلام بأنه كذبات.وجوابه عندي:أنه لم يكن في لغة قوم إبراهيم التشبيه البليغ،ولا المجاز،ولا التهكم،فكان ذلك عند قومه كذبا وان الله أذن له فعل ذلك وأعلمه بتأويله كما أذن لأيوب أن يأخذ ضغثا من عصي فيضرب به ضربة واحدة ليبر قسمه إذ لم تكن الكفارة مشروعة في دين

---

(١) التحرير والتنوير ٤٣/٢٣

أيوب عليه السلام.

وفعل "راغ" معناه:حاد عن الشيء،ومصدره الروغ والروغان،وقد أطلق هنا على الذهاب إلى أصنامهم مخاتلة لهم ولأجل الإشارة إلى تضمينه معنى الذهاب عدي بـ ﴿إلى﴾ .". (١)

٣٨٠-"دون الذكور،أي اختار لذاته البنات دون البنين والبنون أفضل عندكم؟

وجملة ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿أصطفى البنات على البنين﴾ فإن إنكار اصطفاء البنات يقتضي عدم الدليل في حكمهم ذلك،فأبدل ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾ من إنكار ادعائهم اصطفاء الله البنات لنفسه.وقوله: ﴿ما لكم﴾ : ﴿ما﴾ استفهام عن ذات وهي مبتدأ و ﴿لكم﴾ خبر.

والمعنى:أي شيء حصل لكم؟وهذا إبهام فلذلك كانت كلمة "ما لك" ونحوها في الاستفهام يجب أن يتلى بجملة حال تبين الفعل المستفهم عنه نحو ﴿ما لكم لا تنطقون﴾ [الصافات:٩٢]ونحو ﴿ما لك لا تأمننا على يوسف﴾ [يوسف:١١]وقد بنيت هنا بما تضمنته جملة استفهام ﴿كيف تحكمون﴾ فإن ﴿كيف﴾ اسم استفهام عن الحال وهي في موضع الحال من ضمير ﴿تحكمون﴾ قدمت لأجل صدارة الاستفهام.وجملة ﴿تحكمون﴾ حال من ضمير ﴿لكم﴾ في قوله تعالى: ﴿ما لكم﴾ فحصل استفهامان:أحدهما عن الشيء الذي حصل لهم فحكموا هذا الحكم.وثانيهما عن الحالة التي اتصفوا بها لما حكي هذا الحكم الباطل.وهذا إيجاز حذف إذ التقدير:ما لكم تحكمون هذا الحكم،كيف تحكمونه.وحذف متعلق ﴿تحكمون﴾ لما دل عليه الاستفهامان من كون ما حكموا به منكرا يحق العجب منه فكلا الاستفهامين إنكار وتعجيب.

وفرع عليه الاستفهام الإنكاري عن تذكرهم،أي استعمال ذكرهم . بضم الذال وهو العقل ـأي فمنكر عدم تفهمكم فيما يصدر من حكمكم.

و ﴿أم لكم سلطان مبين﴾ إضراب انتقالي فـ ﴿أم﴾ منقطعة بمعنى "بل" التي معناها الإضراب الإبطالي والإضراب الانتقالي.والسلطان:الحجة.والمبين:الموضح للحق.والاستفهام الذي تقتضيه ﴿أم﴾ بعدها إنكاري أيضا.فالمعنى:ما لكم سلطان مبين،أي على ما قلتم:إن الملائكة بنات الله.

وتفرع على إنكار أن تكون لهم حجة بما قالوا أن خوطبوا بالإتيان بكتاب على ذلك فأنتم غير صادقين.والأمر في قوله: ﴿فأتوا﴾ أمر تعجيز مثل قوله: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾ [البقرة:٢٣].

وإضافة الكتاب إليهم على معنى المفعولية،أي كتاب مرسل إليكم.ومجادلتهم بهذه". (٢)

٣٨١-"الجمل المتفننة رتبت على قانون المناظرة؛فابتدأهم بما يشبه الاستفسار عن دعويين:دعوى أن الملائكة بنات الله، ودعوى أن الملائكة إناث بقوله: ﴿فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثا﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٥٧/٢٣

(٢) التحرير والتنوير ٩١/٢٣

[الصافات:١٤٩,١٥٠].

ثم لما كان تفسيرهم لذلك معلوما من متكرر أقوالهم نزلوا منزلة المجيب بأن الملائكة بنات الله وأن الملائكة إناث.وإنما أريد من استفسارهم صورة الاستفسار مضايقة لهم ولينتقل من مقام الاستفسار إلى مقام المطالبة بالدليل على دعواهم،فذلك **الانتقال** ابتداء من قوله: ﴿وهم شاهدون﴾ [الصافات:١٥٠]وهو اسم فاعل من شهد إذا حضر ورأى،ثم قوله: ﴿أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾ فرددهم بين أن يكونوا قد استندوا إلى دليل المشاهدة أو إلى دليل غيره وهو هنا متعين لأن يكون خبرا مقطوعا بصدقه ولا سبيل إلى ذلك إلا من عند الله تعالى،لأن مثل هذه الدعوى لا سبيل إلى إثباتها غير ذلك،فدليل المشاهدة منتف بالضرورة،ودليل العقل والنظر منتف أيضا إذ لا دليل من العقل يدل على أن الملائكة إناث ولا على أنهم ذكور.

فلما علم أن دليل العقل غير مفروض هنا انحصر الكلام معهم في دليل السمع وهو الخبر الصادق لأن أسباب العلم للخلق منحصرة في هذه الأدلة الثلاثة:أشير إلى دليل الحس بقوله: ﴿وهم شاهدون﴾ وإلى دليلي العقل والسمع بقوله: ﴿أم لكم سلطان مبين﴾ ،ثم فرع عليه قوله: ﴿فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾ وهو دليل السمع.فأسقط بهذا التفريع احتمال دليل العقل لأن انتفاءه مقطوع إذ لا طريق إليه وانحصر دليل السمع في أنه من عند الله كما علمت إذ لا يعلم ما في غيب الله غيره.

ثم خوطبوا بأمر التعجيز بأن يأتوا بكتاب أي كتاب جاءهم من عند الله.وإنما عين لهم ذلك لأنهم يعتقدون استحالة مجيء رسول من عند الله واستحالة أن يكلم الله أحدا من خلقه،فانحصر الدليل المفروض من جانب السمع أن يكون إخبارا من الله في أن ينزل عليهم كتاب من السماء لأنهم كانوا يجوزون ذلك لقولهم: ﴿ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه﴾ [الإسراء:٩٣]،ولن يستطيعوا أن يأتوا بكتاب.

فذكر لفظ "كتابكم" إظهار في مقام الإضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقال:فأتوا به،أي السلطان المبين فإنه لا يحتمل إلا أن يكون كتابا من عند الله.وإضافة كتاب إلى ضميرهم من إضافة ما فيه معنى المصدر إلى معنى المفعول على طريقة الحذف والإيصال،والتقدير:بكتاب إليكم،لأن ما فيه مادة الكتابة لا يتعدى إلى المكتوب إليه بنفسه بل". (١)

٣٨٢-"عقب قوله: ﴿فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين﴾ [الصافات:١٦١,١٦٢]،أي ما أنتم بفاتنين لنا فلا يلتبس علينا فضل الملائكة فنرفعه إلى مقام النبوة لله تعالى ولا نشبه اعتقادكم في تصرف الجن أن تبلغوا بهم مقام المصاهرة لله تعالى والمداناة لجلاله كقوله: ﴿وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم﴾ [الأنعام:١٠٠].

فقوله: ﴿وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون﴾ أي وإنا معشر المسلمين،الصافون أي الواقفون لعبادة الله صفوفا بالصلاة.ووصف وقوفهم في الصلاة بالصف تشبها بنظام الملائكة.قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث مسلم: "جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة" ،والمراد بالمسبحين المنزهون لله تعالى عن أن يتخذ ولدا أو يكون خلق صهرا له أو صاحبة خلافا

---

(١) التحرير والتنوير ٩٢/٢٣

لشرككم إذ عبادتكم مكاء وتصدية وخلافا لكفركم إذ تجعلون له صواحب وبنات وأصهارا.وحذف متعلق ﴿الصافون... المسبحون﴾ لدلالة قوله: ﴿ما أنتم عليه بفاتنين﴾ [بالصافات:١٦٢]عليه،أي الصافون لعبادته المسبحون له،فإن الكلام في هذه الآيات كلها متعلق بشؤون الله تعالى.وتعريف جزأي الجملة، وضمير الفصل من قوله: ﴿لنحن﴾ يفيدان قصرا مؤكدا فهو قصر قلب،أي دون ما وصفتموه به من النبوة لله.

[١٦٧.١٧٠] ﴿وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين فكفروا به فسوف يعلمون﴾

انتقال من ذكر كفر المشركين بتعدد الإله وبإنكار البعث وما وصفوا به الرسول صلى الله عليه وسلم من السحر والجنون ثم بما نسبوا لله مما لا يليق بإلهيته وما تخلل ذلك من المواعظ والوعيد لهم والوعد للمؤمنين والعبرة بمصارع المكذبين السابقين وما لقيه رسل الله من أقوامهم.

فانتقل الكلام إلى ذكر ما كفر به المشركون من تكذيب القرآن الذي أنزله الله هدى لهم،فالمقصود من هذا هو قوله: ﴿فكفروا به﴾ أي الذكر،وإنما قدم له في نظم الكلام ما فيه تسجيل عليهم تهافتهم في القول إذ كانوا قبل أن يأتيهم محمد صلى الله عليه وسلم بالكتاب المبين يودون أن يشرفهم الله بكتاب لهم كما شرف الأولين ويرجون لو كان ذلك أن يكونوا عبادا لله مخلصين له فلما جاءهم ما رغبوا فيه كفروا به وذلك أفظع الكفر لأنه كفر بما كانوا على بصيرة من أمره إذ كانوا يتمنونه لأنفسهم ويغبطون الأمم التي أنزل عليهم مثله فلم يكن كفرهم عن مباغتة ولا عن قلة تمكن من النظر.". (١)

٣٨٣-"الحقيقية وهي العزة التي لا يشوبها افتقار، فإضافة ﴿رب﴾ إلى ﴿العزة﴾ على معنى لام الاختصاص كما يقال:صاحب صدق،لمن اختص بالصدق وكان عريقا فيه.وفي **الانتقال** من الآيات السابقة إلى التسليح والتسليم إيذان بانتهاء السورة على طريقة براعة الختم مع كونها من جوامع الكلم.

والتعريف في ﴿العزة﴾ كالتعريف في ﴿الحمد﴾هو تعريف الجنس فيقتضي انفراده تعالى به لأن ما يثبت لغيره من ذلك الجنس كالعدم كما تقدم في سورة الفاتحة.

وتنكير ﴿سلام﴾ للتعظيم.ووصف ﴿المرسلين﴾ يشمل الأنبياء والملائكة فإن الملائكة مرسلون فيما يقومون به من تنفيذ أمر الله.

روى القرطبي في تفسيره بسنده إلى يحي بين يحيى التميمي النيسابوري إلى أبي سعيد الخدري قال:" سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ولا مرتين يقول آخر صلاته أو حين ينصرف ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين﴾ .

ومن المروي عن علي بن أبي طالب:"من أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾ إلى آخر السورة،وفي بعض أسانيده أنه رفعه إلى رسول الله صلى الله عليه

---

(١) التحرير والتنوير ٩٩/٢٣

وسلم ولم يصح".". (١)

٣٨٤-"[٢] ﴿بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾

و ﴿بل﴾ للإضراب الإبطالي وهذا نوع من الإضراب الإبطالي نبه عليه الرغب في "مفردات القرآن" وأشار إليه في "الكشاف"،وتحريره أنه ليس إبطالا محضا للكلام السابق بحيث يكون حرف ﴿بل﴾ فيه بمنزلة حرف النفي كما هو غلاب الإضراب الإبطالي،ولا هو إضراب **انتقالي**،ولكن هذا إبطال لتوهم ينشأ عن الكلام الذي قبله إذ دل وصف القرآن بـ ﴿ذي الذكر﴾ [ص:١]أن القرآن مذكر سامعيه تذكيرا ناجعا،فعقب بإزالة توهم من يتوهم أن عدم تذكر الكفار ليس لضعف في تذكير القرآن ولكن لأنهم متعززون مشاقون،فحرف ﴿بل﴾ في مثل هذا بمنزلة حرف الاستدراك،والمقصود منه تحقيق أنه ذو ذكر،وإزالة الشبهة التي قد تعرض في ذلك.

ومثله قوله تعالى: ﴿ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ [ق:٢,١]،أي ليس امتناعهم من الإيمان بالقرآن لنقص في علوه ومجده ولكن لأنهم عجبوا أن جاءهم به رجل منهم.

ولك أن تجعل ﴿بل﴾ إضراب **انتقال** من الشروع في التنويه بالقرآن إلى بيان سبب إعراض المعرضين عنه،لأن في بيان ذلك السبب تحقيقا للتنويه بالقرآن كما يقال:دع ذا وخذ في حديث..،كقول امرئ القيس:

فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة ... ذمول إذا صام النهار وهجرا

وقال زهير:

دع ذا وعد القول في هرم ... خير البداة وسيد الحضر

وقول الأعشى:

فدع ذا ولكن ما ترى رأي كاشح ... يرى بيننا من جهله دق منشم

وقول العجاج:

دع ذا وبهج حسبا مبهجا

ومعنى ذلك أن الكلام أخذ في الثناء على القرآن ثم انقطع عن ذلك إلى ما هو أهم وهو بيان سبب أعراض المعرضين عنه لاعتزازهم بأنفسهم وشقاقهم،فوقع العدول عن جواب القسم استغناء بما يفيد مفاد ذلك الجواب.". (٢)

٣٨٥-"اعتذر الأئمة عن وقوع التاء متصلة بـ ﴿حين﴾ في بعض نسخ المصحف الإمام بأن رسم المصحف قد يخالف القياس، على أن ذلك لا يوجد في غير المصحف الذي رآه أبو عبيد من المصاحف المعاصرة لذلك المصحف والمرسومة بعده.والمناص:النجاء والفوت،وهو مصدر ميمي،يقال:ناصة،إذا فاته.

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٥/٢٣

(٢) التحرير والتنوير ١٠٩/٢٣

والمعنى:فنادوا مبتهلين في حال ليس وقت نجاء وفوت، أي قد حق عليهم الهلاك كما قال تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده﴾ [غافر:٨٥].

[٥.٤] ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب﴾

﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾

عطف على جملة ﴿الذين كفروا في عزة وشقاق﴾ [ص:٢]فهو من الكلام الواقع الإضراب للانتقال إليه كما وقع في قوله تعالى: ﴿ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ [ق:٢,١].

والمعنى:أنه استقر في نفوسهم استحالة بعثة رسول منهم فذلك سبب آخر لانصرافهم عن التذكير بالقرآن.

والعجب حقيقته:انفعال في النفس ينشأ عن علم بأمر غير مترقب وقوعه عن النفس،ويطلق عن إنكار شيء نادر على سبيل المجاز بعلاقة اللزوم كما في قوله تعالى: ﴿قالوا أتعجبين من أمر الله﴾ في سورة هود[٧٣]فإن محل العتاب هو كون امرأة إبراهيم أحالت أن تلد،وهي عجوز وكذلك إطلاقه هنا.والمعنى:وأنكروا وأحالوا أن جاءهم منذر منهم.

والمنذر:الرسول،أي منذرهم لهم بعذاب على أفعال متلبسون بها.

طلبوا صلحنا ولات أوان ... فأجبنا أن ليس حين بقاء

وإلى قول جميل:

نولي قبل ناي داري جمانا ... وحلينا كما زعمت قلانا". (١)

٣٨٦-"ضمير ﴿عليه﴾ ،فأنكروا أن يخص محمد صلى الله عليه وسلم بالإرسال وإنزال القرآن دون غيره منهم،وهذا هو المحكي في قوله تعالى: ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف:٣١]أي من مكة أو الطائف ولم يريدوا بهذا الإنكار تجويز أصل الرسالة عن الله وإنما مرادهم استقصاء الاستبعاد فإنهم أنكروا أصل الرسالة كما اقتضاه قوله تعالى: ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ [ص:٤]وغيره من الآيات،وهذا الأصل الثاني من أصول كفرهم التي تقدم ذكرها عند قوله تعالى: ﴿أجعل الآلهة إلها واحدا﴾ [ص:٥]وهو أصل إنكار بعثة رسول منهم.

﴿بل هم في شك من ذكري﴾

يجوز أن يكون هذا جوابا عن قولهم: ﴿أأنزل عليه الذكر من بيننا﴾ أي ليس قصدهم الطعن في اختصاصك بالرسالة ولكنهم شاكون في أصل إنزاله،فتكون ﴿بل﴾ إضرابا إبطاليا تكذيبا لما يظهر من إنكارهم إنزال الذكر عليه من بينهم على ما تقدم،أي إنما قصدهم الشك في أن الله يوحي إلى أحد بالرسالة، فيكون معنى ﴿في شك من ذكري﴾ شكا من وقوعه.والشك يطلق على اليقين مجازا مرسلا بعلاقة الإطلاق والتقيد فيكون كمعنى قوله تعالى: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ [الأنعام:٣٣].ويجوز أن يكون **انتقالا** من خبر عنهم إلى خبر آخر فيكون استئنافا وتكون ﴿بل﴾ للإضراب **الانتقالي**،والمعنى:وهم في شك من ذكري،أي في شك من كنه القرآن،فمرة يقولون: افتراه،ومرة

---

(١) التحرير والتنوير ١١٢/٢٣

يقولون:شعر،ومرة:سحر،ومرة:أساطير الأولين،ومرة:قول كاهن.فالمراد بالشك حقيقته أي التردد في العلم.وإضافة الذكر إلى ضمير المتكلم وهو الله تعالى إضافة تشريف ولتحقيق كونه من عند الله.والذكر على هذا الوجه هو عين المراد من قوله: ﴿أأنزل عليه الذكر﴾ وإنما وقع التعبير عنه بالظاهر دون الضمير توصلا إلى التنويه به بأنه من عند الله.

و ﴿في﴾ للظرفية المجازية،جعلت ملابسة الشك إياهم بمنزلة الظرف المحيط بمحويه في أنه لا يخلو منه جانب من جوانبه.

و ﴿من﴾ في قوله: ﴿من ذكري﴾ ابتدائية لكون الشك صفة لهم،أي نشأ لهم الشك من شأن ذكري،أي من جانب نفي وقوعه،آو في جانب ما يصفونه به.

﴿بل لما يذوقوا عذاب﴾

أتبع ذلك الإضراب بإضراب آخر يبين أن الذي جرأهم على هذا الشقاق أنهم لما". (١)

٣٨٧-"تأخر حلول العذاب بهم ظنوا وعيده كاذبا فأخذوا في البذاءة والاستهزاء ولو ذاقوا العذاب لألقمت أفواههم بالحجر.

و ﴿لما﴾ حرف نفي بمعنى "لم" إلا أن في ﴿لما﴾ خصوصية،وهي إنها تدل على المنفي بها متصل الانتفاء إلى وقت التكلم بخلاف "لم" فلذلك كان النفي بـ ﴿لما﴾ قد يفهم منه ترقب حصول المنفي بعد ذلك قال صاحب "الكشاف" في قوله تعالى: ﴿ولما يدخل الأيمان في قلوبكم﴾ في سورة الحجرات[١٤]:"ما في ﴿لما﴾ من معنى التوقع دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد،أي دال بطريقة المفهوم الحاصل من معنى غاية النفي إلى زمن المتكلم،أي لا أضمن ما بعد ذلك،وقد ذاقوا عذاب السيف يوم بدر بعد نزول هذه الآية بأربع سنين".

وإضافة ﴿عذاب﴾ إلى ياء المتكلم لاختصاصه بالله لأنه مقدره وقاض بهم عليهم ولوقعه على حالة غير جارية على المعتاد إذ الشأن أن يستأصل الجيش القوي الجيش القليل.وحذفت ياء المتكلم تخفيفا للفاصلة،وأبقيت الكسرة دليلا عليها وهو حذف كثير في الفواصل والشعر على نحو حذفها من المنادى.

[٩] ﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب﴾

﴿أم﴾ منقطعة وهي للإضراب أيضا وهو إضراب انتقالي فإن ﴿أم﴾ مشعرة باستفهام بعدها هو للإنكار والتوبيخ إنكارا لقولهم: ﴿أأنزل عليه الذكر من بيننا﴾ [ص:٨]أي ليست خزائن فضل الله تعالى عندهم فيتصدوا لحرمان من يشاءون حرمانه من مواهب الخير فإن المواهب من الله يصيب بها من يشاء فهو يختار للنبوءة من يصطفيه وليس الاختيار لهم فيجعلوا من لم يقدموه عليهم في دينهم غير أهل لأن يختاره الله.

وتقديم الظرف للاهتمام لأنه مناط الإنكار وهو كقوله تعالى: ﴿أهم يقسمون رحمت ربك﴾ [الزخرف:٣٢].

والخزائن:جمع خزانة بكسر الخاء.وهي البيت الذي يخزن فيه المال أو الطعام،ويطلق أيضا على صندوق من خشب أو حديد يخزن فيه المال.

---

(١) التحرير والتنوير ١١٧/٢٣

والخزن:الحفظ والحرز.والرحمة:ما به رفق بالغير وإحسان إليه،شبهت رحمة الله بالشيء النفيس المخزون الذي تطمح إله النفوس في أنه لا يعطي إلا بمشيئة خازنه على طريقة الاستعارة المكنية. وإثبات الخزائن:تخييل مثلى إثبات الأظفار للمنية،". (١)

٣٨٨-"والإضافة على معنى لام الاختصاص.والعدول عن اسم الجلالة إلى وصف لأن له مزيد مناسبة للغرض الذي الكلام فيه إيماء إلى أن تشريفه إياه بالنبوءة من آثار صفة ربوبيته له لأن وصف الرب مؤذن بالعناية والإبلاغ إلى الكمال.وأجري على الرب صفة ﴿العزيز﴾ لإبطال تدخلهم في تصرفاته، وصفة ﴿الوهاب﴾ لإبطال جعلهم الحرمان من الخير تابعا لرغباتهم دون موادة الله تعالى.

و ﴿العزيز﴾ :الذي لا يغلبه شيء، ﴿الوهاب﴾ :الكثير المواهب فإن النبوءة رحمة عظيمة فلا يخول إعطائها إلا لشديد العزة وافر الموهبة.

[١٠] ﴿أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب﴾

إضراب انتقالي إلى رد يأتي على جميع مزاعمهم ويشمل بإجماله جميع النقوض التفصيلية لمزاعمهم بكلمة جامعة كالحوصلة فيشبه التذييل لما يتضمنه من عموم الملك وعموم الأماكن المقتضي عموم العلم وعموم التصرف ينعى عليهم قولهم في المغيبات بلا علم وتحكمهم في مراتب الموجودات بدون قدرة ولا غنى.

والاستفهام المقدر بعد ﴿أم﴾ المنقطعة تهكمي وليس إنكاري لأن تفريغ أمر التعجيز عليه يعين أنه تهكمي.فالمعنى:إن كان لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فكان لهم شيء من ذلك فليصدعوا إن استطاعوا في أسباب السماوات ليخبروا حقائق الأشياء فيتكلموا عن علم في كنه الإله وصفاته وفي إمكان البعث وعدمه وفي صدق الرسول صلى الله عليه وسلم أو ضده وليفتحوا خزائن الرحمة فيفيضوا منها على من يعجبهم ويحرموا من لا يرمقونه بعين استحسان.

والأمر في ﴿فليرتقوا﴾ للتعجيز مثل قوله: ﴿فليمدد بسبب إلى السماء﴾ [الحج:١٥]

والتعريف في ﴿الأسباب﴾لعهد الجنس لأن المعروف أن لكل محل مرتفع أسبابا يصعد بها إليه كقول زهير:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... وإن يرق أسباب السماء بسلم

وقول الأعشى:

فلو كنت في حب ثمانين قامة ... ورقيت أسباب السماء بسلم

والسبب:الحبل الذي يتعلق به الصاعد إلى النخلة للجذاذ،فإن جعل من حبلين". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١١٨/٢٣

(٢) التحرير والتنوير ١١٩/٢٣

٣٨٩-"دلالة الالتزام لأن من أنكر البعث والجزاء فقد تقلد أن ما هو جار في أحوال الناس الباطل، والناس من خلق الله فباطلهم إذا لم يؤاخذهم خالقهم عليه الكون مما أقره خالقهم، فيكون في خلق السماء والأرض وما بينهما شيء من الباطل،فتنتقض كلية قوله: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا﴾ ،وهو ما ألزمهم إياه قوله تعالى: ﴿ذلك ظن الذين كفروا﴾ .والإشارة إلى القضية المنفية لا إلى نفيها،أي خلق المذكورات باطلا هو ظن الذين كفروا،أي اعتقادهم.وأطلق الظن على العلم لأن ظنهم علم مخالف للواقع فهو باسم الظن أجدر لأن إطلاق الظن يقع عليه أنواع من العلم المشبه والباطل.وفي هذه الآية دليل على أن لازم القول يعتبر قولا،وأن لازم المذهب مذهب وهو الذي نحاه فقهاء المالكية في موجبات الردة من أقوال وأفعال.

وفرع على هذا الاستدلال وعدم جري المشركين على مقتضاه قوله: ﴿فويل للذين كفروا من النار﴾ أي نار جهنم.وعبر عنهم بالوصول لما تشير إليه الصلة من أنهم استحقوا العقاب على سوء اعتقادهم وسوء أعمالهم،وأن ذلك أيضا من آثار انتفاء الباطل عن خلق السماوات والأرض وما بينهما،لأنهم كانوا على باطل في إعراضهم عن الاستدلال بنظام السماوات والأرض،وفي ارتكابهم مفاسد عوائد الشرك وملته،وقد تمتعوا بالحياة الدنيا أكثر مما تمتع بها الصالحون فلا جرم استحقوا جزاء أعمالهم.

ولفظ:"ويل" يدل على أشد السوء.وكلمة:ويل له،تقال للتعجيب من شدة سوء حالة المتحدث عنه،وهي هنا كناية عن سدة عذابهم في النار.و ﴿من﴾ابتدائية كما في قوله تعالى: ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم﴾ [البقرة:٧٩]،وقول النبي صلى الله عليه والسلم لابن الزبير حين شرب دم حجامته: "ويل لك من الناس وويل للناس منك" .

[٢٨] ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ ﴿أم﴾ منقطعة أفادت إضرابا **انتقاليا** وهو ارتقاء في الاستدلال على ثبوت البعث وبيان لما هو من مقتضى خلق السماء والأرض بالحق،بعد أن سيق ذلك بوجه الاستدلال الجملي،وقد كان هذا الانتفاء بناء على ما اقتضاه قوله: ﴿ذلك ظن الذين كفروا﴾ [ص:٢٧]فلأجل ذلك بني على استفهام مقدر بعد ﴿أم﴾ وهو من لوازم استعمالها،وهو استفهام إنكاري.والمعنى:لو انتفى البعث والجزاء كما تزعمون لاستوت عند الله أحوال". (١)

٣٩٠-"الصالحين وأحوال المفسدين.

والتشبيه في قوله: ﴿كالمفسدين﴾ للتسوية.والمعنى:إنكار أن يكونوا سواء في جعل الله،أي إذا لم يجاز كل فريق بما يستحقه على عمله، فالمشاهد في هذه الحياة الدنيا خلاف ذلك فتعين أن يكون الجزاء في عالم آخر وهو الذي يسلك له الناس بعد البعث.وقد اخذ في الاستدلال جانب المساواة بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين المفسدين في الأرض،لأنه يوجد كثير من الفريقين متساوين في حالة الحياة الدنيا في النعمة أو في التوسط أو في البؤس والخصاصة،فحالة المساواة كافية لتكون مناط الاستدلال على إبطال ظن الذين كفروا بقطع النظر عن حالة أخرى أولى بالدلالة،وهي المقابلة بين فريق

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/١٤٦

المفسدين أولى النعمة وفريق الصالحين أولي البؤس،وعن حالة دون ذلك وهي فريق المفسدين أصحاب البؤس والخصاصة وفريق الصالحين أولي النعمة لأنها لا تسترعي خاطر الناظر.

و ﴿أم﴾ الثانية منقطعة أيضا ومفادها إضراب **انتقال** ثان للارتقاء في الاستدلال على أن الربانية بمراعاة الحق وانتفاع الباطل في الخلق تقتضي الجزاء والبعث لأجله.

ومعنى الاستفهام الذي تقتضيه ﴿أم﴾ الثانية:الإنكار كالذي اقتضته ﴿أم﴾ الأولى.وهذا الارتقاء في الاستدلال لقصد زيادة التشنيع على منكري البعث والجزاء بأن ظنهم ذلك يقتضي أن جعل الله المتقين مساوين للفجار في أحوال وجود الفريقين،وتقريره مثل ما قرر به الاستدلال الأول.

والمتقون:هم الذين كانت التقوى شعارهم.والتقوى: ملازمة اتباع المأمورات واجتناب المنهيات في الظاهر والباطن،وقد تقدم في أول سورة البقرة.

والفجار:الذين شعارهم الفجور،وهو أشد المعصية.والمراد به:الكفر وأعماله التي لا تراقب أصحابها التقوى كما في قوله تعالى: ﴿أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ [عبس:٤٢]وقد تقدم تفصيل من هذا عند قوله تعالى: ﴿إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون هو الذي جعل الشمس ضياء﴾ إلى قوله: ﴿ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾ [يونس:٤,٥].

والمقصود من هذا الإطناب زيادة التهويل والتفظيع على الذين ظنوا ظنا يفضي إلى". (١)

٣٩١-"أن الله خلق شيئا من السماء والأرض وما بينهما باطلا فإن في **الانتقال** من دلالة الأضعف إلى دلالة الأقوى وفي تكرير أداة الإنكار شأنا عظيما من فضح أمر الضالين.

[٢٩] ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾

عقب الإمعان في تهديد المشركين وتجهيلهم على إعراضهم عن التدبر بحكمة الجزاء ويوم الحساب عليه والاحتجاج عليهم،أعرض الله خطابهم ووجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه والسلم بالثناء على الكتاب المنزل عليه،وكان هذا القرآن قد بين لهم ما فيه لهم مقنع، وحجاجا هو لشبهاتهم مقلع، وأنه إن حرم المشركون أنفسهم من الانتفاع به فقد انتفع به أولو الألباب وهم المؤمنون.وفي ذلك إدماج الاعتزاز بهذا الكتاب لمن أنزل عليه ولمن تمسك به واهتدى بهديه من المؤمنين.وهذا نظير قوله تعالى عقب ذكر خلق الشمس والقمر ﴿ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ في أول سورة يونس[٥].

والجملة استئناف معترض وفي هذا الاستئناف نظر إلى قوله في أول السورة ﴿والقرآن ذي الذكر﴾ [ص:١]إعادة للتنويه بشأن القرآن كما سيعاد ذلك في قوله تعالى: ﴿هذا ذكر﴾ [ص:٤٩]. فقوله: ﴿كتاب﴾ يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف،والتقدير:هذا كتاب،وجملة ﴿أنزلناه﴾ صفة ﴿كتاب﴾ .ويجوز أن يكون مبتدأ وجملة ﴿أنزلناه﴾ صفة ﴿كتاب﴾

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٧/٢٣

و ﴿مبارك﴾ خبرا عن ﴿كتاب﴾ . وتنكير ﴿كتاب﴾ للتعظيم،لأن الكتاب معلوم فما كان تنكيره إلا لتعظيم شأنه وهو مبتدأ سوغ الابتداء به وصفة بجملة ﴿أنزلناه﴾ و ﴿مبارك﴾ هو الخبر.ولك أن تجعل ما في التنكير من معنى التعظيم مسوغا للابتداء وتجعل جملة ﴿أنزلناه﴾ خبرا أول و ﴿مبارك﴾ خبرا ثانيا و ﴿ليدبروا﴾ متعلق بـ ﴿أنزلناه﴾ ولكن لا يجعل ﴿كتاب﴾ خبر مبتدأ محذوف وتقدره:هذا الكتاب،إذ ليس هذا بمحز كبير من البلاغة.

والمبارك:المنبثة فيه البركة وهي الخير الكثير،وكل آيات القرآن مبارك فيها لأنها:إما مرشدة إلى خير، وإما صارفة عن شر وفساد،وذلك سبب الخير في العاجل والآجل ولا بركة أعظم من ذلك.

والتدبر:التفكر والتأمل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني،وإنما يكون". (١)

٣٩٢-"وتنوين ﴿كل﴾ في قوله: ﴿وكل من الأخيار﴾ عوض عن المضاف إليه،أي وكل أولئك الثلاثة من الأخيار. وتقدم ذكر اليسع في سورة الأنعام،وذكر ذي الكفل في سورة الأنبياء.

[٤٩.٥٢] ﴿هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب جنات عدن مفتحة لهم الأبواب متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب وعندهم قاصرات الطرف أتراب﴾

﴿هذا ذكر﴾ جملة فصلت الكلام السابق عن الكلام الآتي بعدها قصدا لانتقال الكلام من غرض إلى غرض مثل جملة:أما بعد فكذا ومثل اسم الإشارة المجرد نحو ﴿هذا وإن للطاغين لشر مآب﴾ [ص:٥٥]،وقوله: ﴿ذلك ومن يعظم حرمات الله﴾ [الحج:٣٠]، ﴿ذلك ومن يعظم حرمات الله﴾ [الحج:٣٠]في سورة الحج[٣٢].قال في "الكشاف":"وهو كما يقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر:هذا وقد كان كيت وكيت"اهـ.وهذا الأسلوب من الانتقال هو المسمى في عرف علماء الأدب بالاقتضاب وهو طريقة العرب ومن يليهم من المخضرمين،ولهم في مثله طريقتان:أن يذكروا الخبر كما في هذه الآية وقول المؤلفين:هذا باب كذا،وأن يحذفوا الخبر لدلالة الإشارة على المقصود،كقوله تعالى: ﴿ذلك ومن يعظم حرمات الله﴾ [الحج:٣٠]،أي ذلك شأن الذين عملوا بما دعاهم إليه إبراهيم وذكروا اسم الله على ذبائحهم ولم يذكروا أسماء الأصنام،وقوله ﴿ذلك ومن يعظم حرمات الله﴾ ،أي ذلك مثل الذين أشركوا بالله،وقوله بعد آيات ﴿هذا وإن للطاغين لشر مآب﴾ [ص:٥٥]أي هذا مئات المتقين،ومنه قول الكاتب:هذا وقد كان كيت وكيت،وإنما صرح بالخبر في قوله: ﴿هذا ذكر﴾للاهتمام بتعيين الخبر،وأن المقصود من المشار إليه التذكر والاقتداء فلا يأخذ السامع اسم الإشارة مأخذ الفصل المجرد والانتقال الاقتضابي،مع إرادة التوجيه بلفظ ﴿ذكر﴾ بتحميله معنى حسن السمعة،أي ذكر لأولئك المسمين في الآخرين مع أنه تذكرة للمقتدين على نحو المعنيين في قوله تعالى: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ في سورة الزخرف[٤٤]. ومن هنا احتمل أن تكون الإشارة بـ ﴿هذا﴾إلى القرآن،أي القرآن ذكر،فتكون الجملة استئنافا ابتدائيا للتنويه بشأن القرآن راجعا إلى غرض قوله تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٨/٢٣

والواو في ﴿وإن للمتقين﴾ الخ،يجوز أن تكون للعطف الذكرى،أي انتهى الكلام". (١)

٣٩٣-"والإشارة إذن إلى ما هو مشاهد عندهم من النعيم.

وقرأ الجمهور: ﴿توعدون﴾ بتاء الخطاب فهو على الاحتمال الأول التفات من الغيبة إلى الخطاب لتشريف المتقين بعز الحضور لخطاب الله تعالى،وعلى الاحتمال الثاني الخطاب لهم على ظاهره.وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحده ﴿يوعدون﴾ بياء الغيبة فهو على الاحتمال الأول التفات عن توجيه الخطاب إليهم إلى توجيهه للطاغين لزيادة التنكيل عليهم.والإشارة إلى المذكور من "حسن المآب"، وعلى الاحتمال الثاني كذلك وجه الكلام إلى أهل المحشر لتنديم الطاغين وإدخال الحسرة والغم عليهم. والإشارة إلى النعيم المشاهد.

واللام في ﴿ليوم الحساب﴾ لام العلة،أي وعدتموه لأجل يوم الحساب.والمعنى لأجل الجزاء يوم الحساب،فلما كان الحساب مؤذنا بالجزاء جعل اليوم هو العلة.وهذه اللام تفيد معنى التوقيت تبعا كقوله تعالى: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ [الإسراء:٧٨]تنزيلا للوقت منزلة العلة.ولذلك قال الفقهاء:أوقات الصلوات أسباب.

[٥٤] ﴿إن هذا لرزقنا ما له من نفاد﴾

يجري محمل اسم الإشارة هذا على الاحتمالين المذكورين في الكلام السابق.

والعدول عن الضمير إلى اسم الإشارة لكمال العناية بتمييزه وتوجيه ذهن السامع إليه.وأطلق الرزق على النعمة كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم:"لو أن أحدهم قال حين يضاجع أهله:اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ثم ولد لهما ولد لم يمسه شيطان أبدا"فسمى الولد رزقا.

والتوكيد بـ ﴿إن﴾ للاهتمام.والنفاد:الانقطاع والزوال.

[٥٥.٥٦] ﴿هذا وإن للطاغين لشر مآب جهنم يصلونها فبئس المهاد﴾

اسم الإشارة ﴿هذا﴾ مستعمل في **الانتقال** من غرض إلى غرض تنهية للغرض الذي قبله.والقول فيه كالقول في ﴿هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب﴾ .والتقدير:هذا شأن المتقين،أو هذا الشأن،أو هذا كما ذكر.

وجملة ﴿يصلونها﴾ حال من ﴿جهنم﴾ وهي حال مؤكد لمعنى اللام الذي هو عامل في "الطاغين" فإن معنى اللام أنهم تختص بهم جهنم واختصاصها بهم هو ذوق عذابها لأن". (٢)

٣٩٤-"وإتباع ذلك بصفة ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ تصريح بعموم ربوبيته وأنه لا شريك له في شيء منها.ووصف ﴿العزيز﴾ تمهيد للوصف بـ ﴿الغفار﴾ ،أي الغفار عن عزة ومقدرة لا عن عجز وملق أو مراعاة جانب مساو.والمقصود من وصف ﴿الغفار﴾ هنا استدعاء المشركين إلى التوحيد بعد تهديدهم بمفاد وصف ﴿القهار﴾ لكي لا

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٣/٢٣

(٢) التحرير والتنوير ١٧٦/٢٣

ييأسوا من قبول التوبة بسبب كثرة ما سيق إليهم من الوعيد جريا على عادة القرآن في تعقيب الترهيب بالترغيب والعكس.

[٦٩.٦٧] ﴿قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين﴾

إعادة الأمر بالقول هنا مستأنفا.والعدول عن الإتيان بحرف يعطف المقول أعني ﴿هو نبأ عظيم﴾ على المقول السابق أعني ﴿أنا منذر﴾ [ص:٦٥]،عدول يشعر بالاهتمام بمقول هنا كي لا يؤتي به تابعا لمقول آخر فيضعف تصعدي السامعين لوعيه.

وجملة ﴿قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون﴾ يجوز أن تكون في موقع الاستئناف الابتدائي **انتقالا** من غرض وصف أحوال أهل المحشر إلى غرض قصة خلق آدم وشقاء الشيطان،فيكون ضمير ﴿هو﴾ ضمير شأن يفسره ما بعده وما يبين به ما بعده من قوله: ﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين﴾ [ص:٧١]جعل هذا كالمقدمة للقصة تشويقا لتلقيها فيكون المراد بالنبأ نبأ خلق آدم وما جرى بعده، ويكون ضمير ﴿يختصمون﴾ عائدا إلى الملأ الأعلى لأن الملأ جماعة.ويراد بالاختصام الاختلاف الذي جرى بين الشيطان وبين من بلغ إليه من الملائكة أمر الله بالسجود لآدم،فالملائكة هم الملأ الأعلى وكان الشيطان بينهم فعد منهم قبل أن يطرد من السماء.

ويجوز أن تكون جملة ﴿قل هو نبأ عظيم﴾ الخ تذييلا للذي سبق من قوله: ﴿وإن للمتقين لحسن مآب﴾ [ص:٤٩]إلى هنا،تذييلا يشعر بالتنويه به وبطلب الإقبال على التدبر فيه والاعتبار به.وعليه يكون ضمير ﴿هو﴾ ضميرا عائدا إلى الكلام السابق على تأويله بالمذكور فلذلك أتي لتعريفه بضمير المفرد.

والمراد بالنبأ:خبر الحشر وما أعد فيه للمتقين من حسن مآب،وللطاغين من شر مئاب،ومن سوء صحبة بعضهم لبعض،وتراشقهم بالتأنيب والخصام بينهم وهم في العذاب،وترددهم في سبب أن لم يجدوا معهم المؤمنين الذين كانوا يعدونهم من". (١)

٣٩٥-"**انتقال** إلى الاستدلال بخلق الناس وهو الخلق العجيب.وأدمج فيه الاستدلال بخلق أصلهم وهو نفس واحدة تشعب منها عدد عظيم وبخلق زوج آدم ليتقوم ناموس التناسل.والجملة يجوز أن تكون في موضع الحال من ضمير الجلالة،ويجوز أن تكون استئنافا ابتدائيا تكريرا للاستدلال.

والخطاب للمشركين بدليل قوله بعده: ﴿فأنى تصرفون﴾ ،وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب،ونكتته أنه لما أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم عنهم بطريق الغيبة أقبل على خطابهم ليجمع في توجيه الاستدلال إليهم بين طريقي التعريض والتصريح.وتقدم نظير هذه الجملة في سورة الأعراف،إلا أن في هذه الجملة عطف قوله: ﴿جعل منها زوجها﴾ بحرف ﴿ثم﴾ الدال على التراخي الرتبي لأن مساقها الاستدلال على الوحدانية وإبطال الشريك بمراتبه،فكان خلق آدم دليلا على عظيم قدرته تعالى وخلق زوجه من نفسه دليلا أخر مستقل الدلالة على عظيم قدرته.فعطف بحرف ﴿ثم﴾ الدال على عطف

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٥/٢٣

الجمل على التراخي الرتبي إشارة إلى استقلال الجملة المعطوفة بها بالدلالة مثل الجملة المعطوفة هي عليها،فكان خلق زوج آدم منه أدل على عظيم القدرة من خلق الناس من تلك النفس الواحدة ومن زوجها لأنه خلق لم تجر به عادة فكان ذلك الخلق أجلب لعجب السامع من خلق الناس فجيء له بحرف التراخي المستعمل في تراخي المنزلة لا في تراخي الزمن لأن زمن خلق زوج آدم سابق على خلق الناس.فأما آية الأعراف فمساقها مساق الامتنان على الناس بنعمة الإيجاد،فذكر الأصلان للناس معطوفا أحدهما على الآخر بحرف التشريك في الحكم الذي هو الكون أصلا لخلق الناس.

وقد تضمنت الآية ثلاث دلائل على عظم القدرة خلق الناس من ذكر وأنثى بالأصالة وخلق الذكر الأول بالإدماج وخلق الأنثى بالأصالة أيضا.

﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾

استدلال بما خلقه الله تعالى من الأنعام عطف على الاستدلال بخلق الإنسان لأن المخاطبين بالقرآن يومئذ قوام حياتهم بالأنعام ولا تخلو الأمم يومئذ من الحاجة إلى الأنعام ولم تزل الحاجة إلى الأنعام حافة بالبشر في قوام حياتهم.

وهذا اعتراض بين جملة ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ وبين ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم﴾ لمناسبة أزواج الأنعام لزوج النفس الواحدة.

وأدمج في هذا الاستدلال امتنان بما فيها من المنافع للناس لما دل عليه قوله:". (١)

٣٩٦-"والطوائف المحكوم عليها بالخلود في النار.

وأصحاب النار:هم الذين لا يفارقونها فإن الصحبة تشعر بالملازمة،فأصحاب النار:المخلدون فيها.

[٩] ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾

﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه﴾

قرأ نافع وابن كثير وحمزة وحدهم ﴿أمن﴾ بتخفيف الميم على أن الهمزة دخلت على "من" الموصولة فيجوز أن تكون الهمزة همزة استفهام و"من" مبتدأ والخبر محذوف دل عليه الكلام قبله من ذكر الكافر في قوله: ﴿وجعل لله أندادا﴾ إلى قوله: ﴿من أصحاب النار﴾ [الزمر:٨].والاستفهام إنكاري والقرينة على إرادة الإنكار تعقيبه بقوله: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ لظهور أن ﴿هل﴾ فيه للاستفهام الإنكاري وبقرينة صلة الموصول.تقديره:أمن هو قانت أفضل أم من هو كافر؟ والاستفهام حينئذ تقريري ويقدر له معادل محذوف دل عليه قوله عقبه: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ .

وجعل الفراء الهمزة للنداء و ﴿من هو قانت﴾ :النبي صلى الله عليه وسلم،ناداه الله بالأوصاف العظيمة الأربعة لأنها أوصاف له ونداء لمن هم من أصحاب هذه الأوصاف، يعني المؤمنين أن يقولوا: هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون،وعليه

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٤

فإفراد "قل" مراعاة للفظ "من" المنادى.

وقرأ الجمهور ﴿أمن هو قانت﴾ بتشديد ميم "من" على أنه لفظ مركب من كلمتين "أم" و"من" فأدغمت ميم "أم" في ميم "من".وفي معناه وجهان:

أحدهما:أن تكون "أم" معادلة لهمزة استفهام محذوفة مع جملتها دلت عليها "أم" لاقتضائها معادلا.ودل عليها تعقيبه بـ ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ لأن التسوية لا تكون إلا بين شيئين.فالتقدير:أهذا الجاعل لله أندادا الكافر خير أمن هو قانت،والاستفهام حقيقي والمقصود لازمه،وهو التنبيه على الخطأ عند التأمل.

والوجه الثاني:أن تكون "أم" منقطعة لمجرد الإضراب **الانتقالي**.و"أم" تقتضي استفهاما مقدرا بعدها. ومعنى الكلام:دع تهديدهم بعذاب النار وانتقل بهم إلى هذا". (١)

٣٩٧-"شأن ثواب الآخرة الذي لا يخطر على قلب بشر.

وفي ذكر التوفية وإضافة الأجر إلى ضميرهم تأنيس لهم بأنهم استحقوا ذلك لا منة عليهم فيه وإن كانت المنة لله على كل حال على نحو قوله تعالى: ﴿لهم أجر غير ممنون﴾ [الانشقاق:٢٥].

والحصر المستفاد من ﴿إنما﴾ منصب على القيد وهو ﴿بغير حساب﴾ والمعنى:ما يوفى الصابرون أجرهم إلا بغير حساب،وهو قصر قلب مبني على قلب ظن الصابرين أن أجر صبرهم بمقدار صبرهم،أي أن أجرهم لا يزيد على مقدار مشقة صبرهم.

والهجرة إلى الحبشة كانت سنة خمس قبل الهجرة إلى المدينة.وكان سببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى ما يصيب أصحابه من البلاء وأن عمه أبا طالب كان يمنع ابن أخيه من أضرار المشركين ولا يقدر أن يمنع أصحابه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه" ،فخرج معظم المسلمين مخافة الفتنة فخرج ثلاثة وثمانون رجلا وتسع عشرة امرأة سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا. وقد كان أبو بكر الصديق استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فأذن له فخرج قاصدا بلاد الحبشة فلقيه ابن الدغنة فصده وجعله في جواره.

ولما تعلقت إرادة الله تعالى بنشر الإسلام في مكة بين العرب لحكمة اقتضت ذلك وعذر بعض المؤمنين فيما لقوه من الأذى في دينهم أذن لهم بالهجرة وكانت حكمته مقتضية بقاء رسوله صلى الله عليه وسلم بين ظهراني المشركين لبث دعوة الإسلام لم يأذن له بالهجرة إلى موطن آخر حتى إذا تم مراد الله من توشج نواة الدين في تلك الأرض التي نشأ فيها رسوله صلى الله عليه وسلم،وأصبح **انتقال** الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بلد آخر أسعد بانتشار الإسلام في الأرض أذن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة بعد أن هيأ له بلطفه دخول أهلها في الإسلام وكل ذلك جرى بقدر وحكمة ولطف برسوله صلى الله عليه وسلم.

[١٢،١١] ﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤/٢٤

بعد أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بخطاب المسلمين بقوله: ﴿قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا﴾ [الزمر:١٠]أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك أن يقول قولا يتعين أنه مقول لغير المسلمين.

نقل الفخر عن مقاتل:أن كفار قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم:"ما يحملك على هذا الدين". (١)

٣٩٨-"للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ [الزمر:٢٧]توطئة لهذا المثل المضروب لحال أهل الشرك وحال أهل التوحيد،وفي هذا **الانتقال** تخلص أتبع تذكيرهم بما ضرب لهم في القرآن من كل مثل على وجه إجمال العموم استقصاء في التذكير ومعاودة للإرشاد،وتخلصا من وصف القرءان بأن فيه من كل مثل، إلى تمثيل حال الذين كفروا بحال خاص.

فهذا المثل متصل بقوله تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام﴾ إلى قوله: ﴿أولئك في ضلال مبين ﴾ [الزمر:٢٢]،فهو مثل لحال من شرح الله صدرهم للإسلام وحال من قست قلوبهم.

ومجيء فعل ﴿ضرب الله﴾ بصيغة الماضي مع أن ضرب هذا المثل ما حصل إلا في زمن نزول هذه الآية لتقريب زمن الحال من زمن الماضي لقصد التشويق إلى علم هذا المثل فيجعل كالإخبار عن أمر حصل لأن النفوس أرغب في عمله كقول المثوب:قد قامت الصلاة.وفيه التنبيه على أنه أمر محقق الوقوع كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وضرب الله مثلا قرية﴾ في سورة النحل[١١٢].

أما صاحب "الكشاف" فجعل فعل ﴿ضرب﴾ مستعملا في معنى الأمر إذ فسره بقوله:اضرب لهم مثلا وقل لهم ما تقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء،إلى آخر كلامه، فكان ظاهر كلامه أن الخبر هنا مستعمل في الطلب،فقرره شارحوه الطيبي والقزويني والتفتزاني بما حاصل مجموعه:أنه أراد أن النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع قوله: ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ [الزمر:٢٧]علم أنه سينزل عليه مثل من أمثال القرآن فأنبأه الله بصدق ما علمه وجعله لتحققه كأنه ماض.

وليلائم توجيه الاستفهام إليهم بقوله: ﴿هل يستويان مثلا﴾ "فإنه سؤال تبكيت" فتلتئم أطراف نظم الكلام،فعدل عن مقتضى الظاهر من إلقاء ضرب المثل بصيغة الأمر إلى إلقائه بصيغة المضي لإفادة صدق علم النبي صلى الله عليه وسلم،وكل هذا أدق معنى وأنسب ببلاغة القرآن من قول من جعل المضي في فعل ﴿ضرب﴾ على حقيقته وقال:إن معناه:ضرب المثل في علمه فأخبر به قومك.

فالذي دعا الزمخشري إلى سلوك هذا المعنى في خصوص هذه الآية هو رعي مناسبات اختص بها سياق الكلام الذي وقعت فيه،ولا داعي إليه في غيرها من نظائر صيغتها مما لم يوجد لله فيه مقتض لنحو هذا المحمل،ألا ترى أنه لا يتأتى في نحو قوله: ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة﴾ كما في سورة إبراهيم[٢٤]،وقد أشرنا إليه". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٤٣/٢٤

(٢) التحرير والتنوير ٧٩/٢٤

٣٩٩-"وجملة ﴿الحمد لله﴾ يجوز أن تكون جوابا للاستفهام التقريري بناء على أن أحد الطرفين المقرر عليهما محقق الوقوع لا يسع المقرر عليه إلا الإقرار به فيقدرون:أنهم أقروا بعدم استوائهما في الحالة،أي بأن أحدهما أفضل من الآخر، فإن مثل هذا الاستفهام لا ينتظر السائل جوابا عنه،فلذلك يصح أن يتولى الجواب عنه قبل أن يجيب المسؤول كقوله تعالى: ﴿عم يتساءلون عن النبأ العظيم﴾ [النبأ:١.٢]،وقد يبنى على أن لمسؤول اعترف فيؤتى بما يناسب اعترافه كما هنا،فكأنهم قالوا:لا يستويان،وذلك هو ما يبتغيه المتكلم من استفهامه،فلما وافق جوابهم بغية المستفهم حمد الله على نهوض حجته،فتكون الجملة استئنافا،فموقعها كموقع النتيجة بعد الدليل،وتكون جملة ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ قرينة على أنهم نزلوا منزلة من علم فأقر وأنهم ليسوا كذلك في نفس الأمر.ويجوز أن تكون معترضة إذا جعل الاستفهام إنكاريا فتكون معترضة بين الإنكار وبين الإضراب الانتقالي في قوله: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون عدم استواء الحالتين ولو علموا لاختاروا لأنفسهم الحسنى منهما،ولما أصروا على الإشراك.

وأفاد هذا أن ما انتحلوه من الشرك وتكاذيبه لا يمت إلى العلم بصلة فهو جهالة واختلاق.و ﴿بل﴾ للإضراب الانتقالي.وأسند عدم العلم لأكثرهم لأن أكثرهم عامة أتباع لزعمائهم الذين سنوا لهم الإشراك وشرائعه انتفاعا بالجاه والثناء الكاذب بحيث غشى ذلك على عملهم.

[٣١.٣٠] ﴿إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾

لما جرى الكلام من أول السورة في مهيع إبطال الشرك وإثبات الوحدانية للإله،وتوضيح الاختلاف بين حال المشركين وحال الموحدين المؤمنين بما ينبئ بتفضيل حال المؤمنين،وفي مهيع إقامة الحجة على بطلان الشرك وعلى أحقية الإيمان،وإرشاد المشركين إلى التبصر في هذا القرآن،وتخلل في ذلك ما يقتضي أنهم غير مقلعين عن باطلهم،وختم بتسجيل جهلهم وعدم علمهم،ختم هذا الغرض بإحالتهم على حكم الله بينهم وبين المؤمنين يوم القيامة حين لا يستطيعون إنكارا،وحين يلتفتون فلا يرون إلا نارا.

وقدم لذلك تذكيرهم بأن الناس كلهم صائرون إلى الموت فإن الموت آخر ما يذكر به السادر في غلوائه إذا كان قد اغتر بعظمة الحياة ولم يتفكر في اختيار طريق السلامة". (١)

٤٠٠-"للعموم العرفي،أي المتوكلون الحقيقيون إذ لا عبرة بغيرهم.

ويجوز أن تكون من كلام الله تعالى خاطب به رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يأمره بأن يقوله فتكون الجملة تعليلا للأمر بقول: ﴿حسبي الله﴾ ،أي اجعل الله حسبك،لأن أهل التوكل يتوكلون على الله دون غيره وهم الرسل والصالحون وإذ قد كنت من رفيقهم فكن مثلهم في ذلك على نحو قوله تعالى: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [بالأنعام:٩٠].وتقديم المجرور على ﴿يتوكل﴾ لإفادة الاختصاص لأن أهل التوكل الحقيقيين لا يتوكلون إلا على الله تعالى،وذلك تعريض بالمشركين إذ اعتمدوا في أمورهم على أصنامهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٨٢/٢٤

[٤٠.٣٩] ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾

لما أبلغهم الله من الموعظة لأقصى مبلغ،ونصب لهم من الحجج أسطع حجة،وثبت رسوله صلى الله عليه وسلم أرسخ تثبيت،لا جرم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يوادعهم موادعة مستقرب النصر،ويواعدهم ما أعد لهم من خسر.

وعدم عطف جملة ﴿قل﴾ هذه على جملة ﴿قل حسبي الله﴾ [الزمر:٣٨]لدفع توهم أن يكون أمره ﴿قل حسبي الله﴾ لقصد إبلاغه إلى المشركين نظير ترك العطف في البيت المشهور في علم المعاني:

وتظن سلمى أنني أبغي بها ... بدلا أراها في الضلال تهيم

لم يعطف جملة:أراها في الضلال،لئلا يتوهم أنها معطوفة على جملة:أبغي بها بدلا،ولأنها **انتقال** من غرض الدعوة والمحاجة إلى غرض التهديد.وابتدأ المقول بالنداء بوصف القوم لما يشعر به من الترقيق لحالهم والسف على ضلالهم لأن كونهم قومه يقتضي أن لا يدخرهم نصحا.

والمكانة:المكان،وتأنيثه روعي فيه معنى البقعة،استعير للحالة الحيطة بصاحبها إحاطة المكان بالكائن فيه.والمعنى:اعملوا على طريقتكم وحالكم من عداوتي،وتقدم نظيره في سورة الأنعام[١٣٥].

وقرأ الجمهور ﴿مكانتكم﴾ بصيغة المفرد.وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿مكاناتكم﴾ بصيغة الجمع بألف وتاء.

وقال تعالى هنا: ﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾ ليكون التهديد بعذاب خزي في الدنيا". (١)

٤٠١-"يصلح هذا أن يكون مثلا لحال ضلال الضالين وهدى المهتدين نشأ عن قوله: ﴿فمن اهتدى فلنفسه﴾ إلى قوله: ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ [الزمر:٤١].

والمعنى:أن استمرار الضال على ضلالة قد يحصل بعه اهتداء وقد يوافيه أجله وهو في ضلاله فضرب المثل لذلك بنوم النائم قد تعقبه إفاقة وقد يموت النائم في نومه،وهذا تهوين على نفس النبي صلى الله عليه وسلم برجاء إيمان كثير ممن هم يومئذ في ضلال وشرك كما تحقق ذلك.فتكون الجملة تعليلا للجملة قبلها ولها اتصال بقوله: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام﴾ [الزمر:٢٢]إلى قوله: ﴿أولئك في ضلال مبين﴾ [الزمر:٢٢].

ويجوز أن يكون **انتقالا** إلى استدلال على تفرد الله تعالى بالتصرف في الأحوال فإنه ذكر دليل التصرف بخلق الذوات ابتداء من قوله: ﴿خلق السماوات والأرض بالحق﴾ إلى قوله: ﴿في ظلمات ثلاث﴾ [الزمر:٥,٦]،ثم دليل التصرف بخلق أحوال ذوات وإنشاء ذوات من تلك الأحوال وذلك من قوله: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض﴾ إلى قوله: ﴿لأولي الألباب﴾ [الزمر:٢١]وأعقب كل دليل بما يظهر فيه أثره من الموعظة والعبرة والزجر عن مخالفة مقتضاه، فانتقل هنا إلى الاستدلال بحالة عجيبة من أحوال أنفس المخلوقات وهي حالة الموت وحالة النوم. وقد أنبأ عن الاستدلال قوله: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ ،فهذا دليل للناس من أنفسهم، قال تعالى: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [الذريات:٢١]وقال: ﴿ضرب لكم مثلا من أنفسكم﴾ [الروم:٢٨]،فتكون الجملة استئنافا ابتدائيا للتدرج في الاستدلال

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٩٦

ولها اتصال بجملة ﴿خلق السماوات والأرض بالحق﴾ وجملة ﴿ألم تر أن الله أنزل﴾ المتقدمتين،وعلى كلا الوجهين أفادت الآية إبراز حقيقتين عظميتين من نواميس الحياتين النفسية والجسدية وتقديم اسم الجلالة على الخبر الفعلي لإفادة تخصيصه بمضمون الخبر،أي الله يتوفى لا غيره فهو قصر حقيقي لإظهار فساد أن أشركوا به آلهة لا تملك تصرفا في أحوال الناس.

والتوفي:الإماتة،وسميت توفيا لأن الله إذا أمات أحدا فقد توفاه أجله فالله المتوفي وملك الموت متوف أيضا لأنه مباشر التوفي.

والميت:متوفى بصيغة المفعول،وشاع ذلك فصار التوفي مرادفا للإماتة والوفاة مرادفة للموت بقطع النظر عن كيفية تصريف ذلك واشتقاقه من مادة الوفاء.

وتقدم في قوله تعالى: ﴿والذين يتوفون منكم﴾ في سورة البقرة[٢٣٤]،وقوله: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت﴾ في سورة السجدة[١١].". (١)

٤٠٢-"﴿أم﴾ منقطعة وهي للإضراب **الانتقالي** **انتقالا** من تشنيع إشراكهم إلى إبطال معاذيرهم في شرهم، ذلك أنهم لما دمغتهم حجج القرآن باستحالة أن يكون لله شركاء تمحلوا تأويلا لشركهم فقالوا: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ [الزمر:٣]كما حكي عنهم في أول هذه السورة،فلما استوفيت الحجج على إبطال الشرك أقبل هن على إبطال تأويلهم منه ومعذرتهم.والاستفهام الذي تشعر به ﴿أم﴾ في جميع مواقعها هو هنا للإنكار بمعنى أن تأويلهم وعذرهم منكر كما كان المعتذر عنه منكرا فلم يقضوا بهذه المعذرة وطرا.وقد تقدم في أول السورة بيان مرادهم بكونهم شفعاء.

وأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم مقالة تقطع بهتانهم وهي ﴿أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون﴾ .

فالواو في ﴿أولو كانوا﴾ عاطفة كلام المجيب على كلامهم وهو من قبيل ما سمي بعطف التلقين في قوله تعالى: ﴿قال ومن ذريتي﴾ في سورة البقرة[١٢٤]،ولك أن تجعل الواو للحال كما هو المختار في نظيره.وتقدم في قوله: ﴿ولو افتدى به﴾ في سورة آل عمران[٩١].وصاحب الحال مقدر دل عليه ما قبله من قوله: ﴿اتخذوا من دون الله شفعاء﴾ .والتقدير:أيشفعون لو كانوا لا يملكون شيئا.والظاهر أن حكم تصدير الاستفهام قبل واو الحال كحكم تصديره قبل واو العطف.

وأفاد تنكير ﴿شيئا﴾ في سياق النفي عموم كل ما يملك فيدخل في عمومه جميع أنواعه الشفاعة.ولما كانت الشفاعة أمرا معنويا كان معنى لكها تحصيل إجابتها،والكلام تهكم إذ كيف يشفع من لا يعقل فإنه لعدم عقله لا يتصور خطور معنى الشفاعة عنده فضلا عن أن تتوجه إرادته إلى الاستشفاع فاتخاذهم شفعاء من الحماقة.

ولما نفي أن يكون لأصنامهم شيء من الشفاعة في عموم نفي ملك شيء من الموجودات عن الأصنام،قوبل بقوله: ﴿لله الشفاعة﴾ أي الشفاعة كلها لله.وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول ذلك لهم ليعلموا أن لا يملك الشفاعة إلا الله،أي هو مالك إجابة شفاعة الشفعاء الحق.وتقديم الخبر المجرور وهو ﴿لله﴾ على المبتدأ لإفادة الحصر.واللام للملك،أي قصر ملك الشفاعة على الله تعالى لا يملك أحد الشفاعة عنده.

و ﴿جميعا﴾ حال من الشفاعة مفيدة للاستغراق،أي لا يشذ جزئي من جزئيات حقيقية الشفاعة عن كونه ملكا لله وقد

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٩٩

تأكد بلازم هذه لحال ما دل عليه الحصر من انتفاء أن يكون شيء من الشفاعة لغير الله.". (١)

٤٠٣-"الخطابي:"روى هذا الحديث غير واحد عن عبد الله بن مسعود من طريق عبيدة فلم يذكروا قوله تصديقا لقول الحبر،ولعله من الراوي ظن وحسبان".اهـ،أي فهو من إدراج إبراهيم النخعي راوية عن عبيدة.وإنما كان ضحك النبي صلى الله عليه وسلم استهزاء بالحبر في ظنه أن الله يفعل ذلك حقيقة وأن له يدا وأصابع حسب اعتقاد اليهود التجسيم ولذلك أعقبه بقراءة ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ لأن افتتاحها يشتمل على إبطال ما توهمه الحبر ونظراؤه من الجسمية، وذلك معروف من اعتقادهم وقد رده القرآن عليهم غير مرة مما هو معلوم فلم يحتج النبي صلى الله عليه وسلم إلى التصريح بإبطاله واكتفى بالإشارة التي يفهمها المؤمنون، ثم أشار إلى أن ما توهمه اليهودي توزيعا على الأصابع إنما هو مجاز عن الأخذ والتصرف.وفي بعض روايات الحديث فنزل قوله تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ وهو وهم من بعض رواته وكيف وهذه مكية وقصة الحبر مدنية.

وجملة ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ إنشاء تنزيه لله تعالى عن إشراك المشركين له آلهة وهو يؤكد جملة ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ .

[٦٨] ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾

انتقال من إجمال عظمة القدرة يوم القيامة إلى تفصيلها لما فيه تهويل وتمثيل لمجموع الأحوال يومئذ مما ينذر الكافر ويبشر المؤمن.ويذكر بإقامة العدل والحق،ثم تمثيل إزجاء المشركين إلى جهنم وسوق المؤمنين إلى الجنة.

فالجملة من عطف القصة على القصة،ومناسبة العطف ظاهرة،وعبر بالماضي في قوله: ﴿ونفخ﴾ وقوله: ﴿فصعق﴾ مجازا لأنه محقق الوقوع مثل قوله: ﴿أتى أمر الله﴾ [النحل:١]،ويجوز أن تكون الواو للحال بتقدير "قد" أي والحال قد نفخ في الصور،فتكون صيغة الماضي في فعلي "نفخ وصعق" مستعملة في حقيقتها.

وابتدئت الجملة بحديث النفخ في الصور إذ هو ميقات يوم القيامة وما يتقدمه من موت كل حي على وجه الأرض.وتكرر ذكره في القرآن والسنة.

والصور:بوق ينادى به العبيد المتفرق مثل الجيش،ومثل النداء للصلاة فقد كان اليهود ينادون به: للصلاة الجامعة،كما جاء في حديث بدء الأذان في الإسلام.والمراد به هنا نداء الخلق لحضور الحشر أحيائهم وأمواتهم،وتقدم عند قوله: ﴿يوم ينفخ في الصور﴾ في الأنعام". (٢)

٤٠٤-"والمعنى: لأنهم أصحاب النار، فيكون ضمير ﴿أنهم﴾ عائدا إلى جميع ما ذكر قبله من قوم نوح والأحزاب من بعدهم ومن الذين كفروا.

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٢/٢٤

(٢) التحرير والتنوير ١٣١/٢٤

وقرأ الجمهور ﴿كلمت ربك﴾ بالإفراد. وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بصيغة الجمع، والإفراد هنا مساو للجمع لأن المراد به الجنس بقرينه أن الضمير المجرور بـ"على" تعلق بفعل ﴿حقت﴾ وهو ضمير جمع فلا جرم أن تكون الكلمة جنسا صادقا بالمتعدد بحسب تعدد أزمان كلمات الوعيد وتعدد الأمم المتوعدة.

[٧] ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم﴾

استئناف ابتدائي اقتضاه **الانتقال** من ذكر الوعيد المؤذن بذم الذين كفروا إلى الثناء على المؤمنين، فإن الكلام الجاري على ألسنة الملائكة مثل الكلام الجاري ألسنة الرسل إذا الجميع من وحي الله، والمناسبة المضادة بين الحالين والمقالين. والمعنى: لأنهم أصحاب النار، فيكون ضمير ﴿أنهم﴾ عائدا إلى جميع ما ذكر قبله من قوم نوح والأحزاب من بعدهم ومن الذين كفروا.

وقرأ الجمهور ﴿كلمت ربك﴾ بالإفراد. وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بصيغة الجمع، والإفراد هنا مساو للجمع لأن المراد به الجنس بقرينه أن الضمير المجرور بـ"على" تعلق بفعل ﴿حقت﴾ وهو ضمير جمع فلا جرم أن تكون الكلمة جنسا صادقا بالمتعدد بحسب تعدد أزمان كلمات الوعيد وتعدد الأمم المتوعدة.

[٧] ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم﴾

استئناف ابتدائي اقتضاه **الانتقال** من ذكر الوعيد المؤذن بذم الذين كفروا إلى الثناء على المؤمنين، فإن الكلام الجاري على ألسنة الملائكة مثل الكلام الجاري ألسنة الرسل إذا الجميع من وحي الله، والمناسبة المضادة بين الحالين والمقالين.

ويجوز أن يكون استئنافا بيانيا ناشئا عن وعيد المجادلين في آيات الله أن يسأل سائل عن حال الذين لا يجادلون في آيات الله فآمنوا بها.

وخص في هذه الآية طائفة من الملائكة موصوفة بأوصاف تقتضي رفعة شأنهم تذرعا من ذلك إلى التنويه بشأن المؤمنين الذين تستغفر لهم هذه الطائفة الشريفة من الملائكة، وإلا فإن الله قد أسند مثل هذا الاستغفار لعموم الملائكة في قوله في سورة الشورى[٥] ﴿والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض﴾ أي من المؤمنين بقرينه قوله فيها بعده: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم﴾ [الشورى: ٦].

و ﴿الذين يحملون العرش﴾ هم الموكلون برفع العرش المحيط بالسماوات وهو أعظم السماوات ولذلك أضيف إلى الله في قوله تعالى: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ [الحاقة: ١٧].

و ﴿من حوله﴾ طائفة من الملائكة تحف بالعرش تحقيقا لعظمته قال تعالى: ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم﴾ [الزمر: ٧٥]، ولا حاجة إلى الخوض في عددهم ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ [المدثر: ٣١].

والإخبار عن صنفي الملائكة بأنهم يسبحون ويؤمنون به توطئة وتمهيد للإخبار عنهم ويجوز أن يكون استئنافا بيانيا ناشئا عن وعيد المجادلين في آيات الله أن يسأل سائل عن حال الذين لا يجادلون في آيات الله فآمنوا بها.

وخص في هذه الآية طائفة من الملائكة موصوفة بأوصاف تقتضي رفعة شأنهم تذرعا من ذلك إلى التنويه بشأن المؤمنين الذين تستغفر لهم هذه الطائفة الشريفة من الملائكة، وإلا فإن الله قد أسند مثل هذا الاستغفار لعموم الملائكة في قوله في سورة الشورى[٥] ﴿والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض﴾ أي من المؤمنين بقرينه قوله فيها بعده: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم﴾ [الشورى: ٦].

و ﴿الذين يحملون العرش﴾ هم الموكلون برفع العرش المحيط بالسماوات وهو أعظم السماوات ولذلك أضيف إلى الله في قوله تعالى: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ [الحاقة: ١٧].

و ﴿من حوله﴾ طائفة من الملائكة تحف بالعرش تحقيقا لعظمته قال تعالى: ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم﴾ [الزمر: ٧٥]، ولا حاجة إلى الخوض في عددهم ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ [المدثر: ٣١].

والإخبار عن صنفي الملائكة بأنهم يسبحون ويؤمنون به توطئة وتمهيد للإخبار عنهم". (١)

٤٠٥-"[الأعراف: ١٣١]صيغت على وزن فيعلة في قيام الوصف بالموصوف مثل قيم وسيد وصيقل، فالمعنى: وقهم من كل ما يسوءهم.

فالتعريف في ﴿السيئات﴾ للجنس وهو صالح لإفادة الاستغراق، فوقوعه في سياق ما هو كالنفي وهو فعل الوقاية يفيد عموم الجنس، على أن بساط الدعاء يقتضي عموم الجنس ولو بدون لام نفي كقول الحريري:

يا أهل ذا المغنى وقيتم ضرا

وفي الحديث: "اللهم أعط منفقا خلفا، وممسكا تلفا" أي كل منفق وممسك.

والمراد إبلاغ هؤلاء المؤمنين أعلى درجات الرضى والقبول يوم الجزاء بحيث لا ينالهم العذاب ويكونون في بحبوحة النعيم ولا يعتريهم ما يكدرهم من نحو التوبيخ والفضيحة. وقد جاء هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم﴾ [الانسان: ١١].

وجملة ﴿ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته﴾ تذييل، أي وكل من وقي السيئات يوم القيامة فقد نالته رحمة الله، أي نالته الرحمة كاملة ففعل ﴿رحمته﴾ مراد به تعظيم مصدره.

وقد دل على هذا المراد في هذه الآية قوله: ﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾ إذ أشير إلى المذكور من وقاية السيئات إشارة للتنويه والتعظيم. ووصف الفوز بالعظيم لأنه فوز بالنعيم خالصا من الكدرات التي تنقص حلاوة النعمة.

وتنوين ﴿يومئذ﴾ عوض عن المضاف إليه، أي يوم إذ تدخلهم جنات عدن.

[١٠] ﴿إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الأيمان فتكفرون﴾

مقابلة سؤال الملائكة للمؤمنين بالنعيم الخالص يوم القيامة بما يخاطب به المشركون يومئذ من التوبيخ والتنديم وما يراجعون به من طلب العفو مؤذنة بتقدير معنى الوعد باستجابة دعاء الملائكة للمؤمنين، فطي ذكر ذلك ضرب من الإيجاز.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٢/٢٤

والانتقال منه إلى بيان ما سيحل بالمشركين يومئذ ضرب من الأسلوب الحكيم لأن قوله: ﴿إن الذين كفروا ينادون﴾ الآيات مستأنف استئنافا بيانيا كأن سائلا سأل عن تقبل دعاء الملائكة للمؤمنين فأجيب بأن الأهم أن يسأل عن ضد ذلك، وفي هذا الأسلوب". (١)

٤٠٦-"هذا استئناف ابتدائي إقبال على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بعد أن انقضى وصف ما يلاقي المشركون من العذاب، وما يدعون من دعاء لا يستجاب، وقرينه ذلك قوله: ﴿ولو كره الكافرون﴾ [غافر: ١٤].
ومناسبة الانتقال هي وصفا ﴿العلي الكبير﴾ [غافر: ١٢]لأن جملة ﴿يريكم آياته﴾ تناسب وصف العلو، وجملة ﴿وينزل لكم من السماء رزقا﴾ تناسب وصف ﴿الكبير﴾ بمعنى الغني المطلق.
والآيات: دلائل وجوده ووحدانيته. وهي المظاهر العظيمة التي تبدو للناس في هذا العالم كقوله: ﴿هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا﴾ [الرعد: ١٢]وقوله: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ [آل عمران: ١٩٠]. وتنزيل الرزق من السماء هو نزول المطر لأن المطر سبب الرزق وهو في نفسه آية أدمج معها امتنان، ولذلك عقب الأمران بقوله: ﴿وما يتذكر إلا من ينيب﴾ .
وصيغة المضارع في ﴿يريكم﴾ و ﴿وينزل﴾ تدل على أن المراد إراءة متجددة وتنزيل متجدد وإنما يكون ذلك في خطاب المشركين في جهنم، ويزيد ذلك تأييدا قوله: ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون﴾ [غافر: ١٤].
وعدي فعلا "يرى" و"ينزل" إلى ضمير المخاطبين وهم المؤمنون لأنهم الذين انتفعوا بالآيات فآمنوا وانتفعوا بالرزق فشكروا بالعمل بالطاعات فجعل غيرهم بمنزلة غير المقصودين بالآيات لأنهم لم ينتفعوا بها كما قال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ [العنكبوت: ٤٣]
فجعل غير العالمين كمن لا يعقل ولا يفقه.
ولذلك ذيلت إراءة الآيات وإنزال الرزق لهم بقوله: ﴿وما يتذكر إلا من ينيب﴾ أي من آمن ونبذ الشرك لأن الشرك يصد أهله عن الإنصاف وإعمال النظر في الأدلة.
والإنابة: التوبة، وفي صيغة المضارع إشارة إلى أن الإنابة المحصلة للمطلوب هي الإنابة المتجددة المتكررة، وإذا قد كان المخاطبون منيبين إلى الله كان قوله: ﴿وما يتذكر إلا من ينيب﴾ دالا بدلالة الاقتضاء على أنهم رأوا الآيات وطمأنوا بها وأنهم عرفوا قدر النعمة وشكروها فكان بين الإنابة وبين التذكر تلازم عادي، ولذلك فجملة ﴿وما يتذكر إلا من ينيب﴾ تذييل.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٦/٢٤

(٢) التحرير والتنوير ١٦٣/٢٤

٤٠٧-"التأكيد تحقيق للقصر. وقد ذكر التفتزاني في "شرح المفتاح" في مبحث ضمير الفصل أن القصر يؤكد.
وقرأ نافع وهشام عن ابن عامر ﴿تدعون﴾ بتاء الخطاب على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لقرع أسماع المشركين بذلك.
وقرأ الجمهور بياء الغيبة على الظاهر.
[٢٢.٢١] ﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب﴾
انتقال من إنذارهم بعذاب الآخرة على كفرهم إلى موعظتهم وتحذيرهم من أن يحل بهم عذاب الآخرة كما حل بأمم أمثالهم. فالواو عاطفة جملة ﴿أولم يسيروا في الأرض﴾ على جملة ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ [غافر: ١٨]الخ. والاستفهام تقريري على ما هو الشائع في مثله من الاستفهام الداخل على نفي في الماضي بحرف "لم"، والتقرير موجه للذين ساروا من قريش ونظروا آثار الأمم الذين أبادهم الله جزاء تكذيبهم رسلهم، فهم شاهدوا ذلك في رحلتيهم رحلة الشتاء ورحلة الصيف وإنهم حدثوا بما شاهدوه من تضمهم نواديهم ومجالسهم فقد صار معلوما للجميع، فبهذا الاعتبار أسند الفعل المقرر به إلى ضمير الجمع على جملة.
والمضارع الواقع بعد "لم" والمضارع الواقع في جوابه منقلبان إلى المضي بواسطة "لم". وتقدم شبيه هذه الآية في آخر سورة فاطر وفي سورة الروم.
والضمير المنفصل في قوله: ﴿كانوا هم﴾ وضمير فصل عائد إلى ﴿الظالمين﴾ [غافر: ١٨]وهم كفار قريش الذين أريدوا بقوله: ﴿وأنذرهم﴾ [غافر: ١٨]، وضمير الفصل لمجرد توكيد الحكم وتقويته وليس مرادا به قصر المسند على المسند إليه، أي قصر الأشدية على ضمير ﴿كانوا﴾ إذ ليس للقصر معنى هنا كما تقدم في قوله تعالى: ﴿إنني أنا الله﴾ في سورة طه[١٤]وهذا ضابط التفرقة بين ضمير الفصل الذي يفيد القصر وبين الذي يفيد مجرد التأكيد. واقتصار القزويني في "تلخيص المفتاح" على إفادة ضمير الفصل الاختصاص تقصير تبع فيه كلام "المفتاح" وقد نبه عليه سعد الدين في "شرحه على التلخيص"." (١)

٤٠٨-"أسلافهم في جبلتهم وتقرر في نفوسهم **فانتقاله** إليهم جيلا بعد جيل كما تقدم في خطاب بني إسرائيل في سورة البقرة[٤٩] ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون﴾ ونحوه.
﴿كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب[٣٤]الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار[٣٥]﴾
جرى أكثر المفسرين على أن هذه الجمل حكاية لبقية كلام المؤمن وبعضهم جعل بعضها من حكاية كلام المؤمن وبعضها كلاما من الله تعالى، وذلك من تجويز أن يكون قوله: ﴿الذين يجادلون﴾ الخ بدلا أو مبتدأ، وسكت بعضهم عن ذلك

(١) التحرير والتنوير ١٧٦/٢٤

مقتصرا على بيان المعنى دون تصد لبيان اتصالها بما قبلها.
والذي يظهر أن قوله: ﴿كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾ إلى قوله: ﴿جبار﴾ كله من كلام الله تعالى معترض بين كلام المؤمن وكلام فرعون فإن هذا من المعاني الإسلامية قصد منه العبرة بحال المكذبين بموسى تعريضا بمشركي قريش، أي كضلال قوم فرعون يضل الله من هو مسرف مرتاب أمثالكم، فكذلك يكون جزاؤكم، ويؤيد هذا الوجه قوله في آخرها ﴿وعند الذين آمنوا﴾ فإن مؤمن آل فرعون لم يكن معه مؤمن موسى وهارون غيره، وهذا من باب تذكر الشيء بضده،ومما يزيد يقينا بهذا أن وصف ﴿الذين يجادلون في آيات الله﴾ تكرر أربع مرات من أول السورة، ثم كان هنا وسطا في قوله: ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾ [غافر: ٥٦]، ثم كان خاتمة في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون﴾ [غافر: ٦٩].
والإشارة في قوله: ﴿كذلك﴾ إلى الضلال المأخوذ من قوله: ﴿يضل الله﴾ أي مثل ذلك الضلال يضل الله المسرفين المرتابين، أي أن ضلال المشركين في تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم مثل ضلال قوم فرعون في تكذيبهم موسى عليه السلام. والخطاب بالكاف المقترنة باسم الإشارة خطاب للمسلمين.
والمسرف: المفرط في فعل لا خير فيه. والمرتاب: شديد الريب، أي الشك.
وإسناد الإضلال إلى الله كإسناد نفي الهداية إليه في قوله: ﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾ [غافر: ٢٨]، وتقدم آنفا.". (١)

٤٠٩-"سنين حتى أكلوا الميتة، وآية السيف يوم بدر إذ استأصل صناديد المكذبين من أهل الطائف، وآية الأحزاب التي قال عنها: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها﴾ [الأحزاب: ٩]ثم قال: ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها وكان الله على كل شيء قديرا﴾ [الأحزاب: ٢٥،٢٧].
وفي إيثار ﴿قضي بالحق﴾ بالذكر دون غيره من نحو: ظهر الحق، أو تبين الصدق، ترشيح لما في قوله: ﴿أمر الله﴾ من التعريض بأنه أمر انتصاف من المكذبين. ولذلك عطف عليه ﴿وخسر هنالك المبطلون﴾ أي خسر الذين جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق.
والخسران: مستعار لحصول الضر لمن أراد النافع، كخسارة التاجر الذي أراد الربح فذهب رأس ماله، وقد تقدم معناه غير مرة، منها قول تعالى: ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ في أوائل سورة البقرة[١٦].
و ﴿هنالك﴾ أصله اسم إشارة إلى المكان، واستعير هنا للإشارة إلي الزمان المعبر عنه بـ"إذا" في قوله: ﴿فإذا جاء أمر الله﴾
.

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٤/٢٤

وفي هذه الاستعارة نكتة بديعية وهي الإيماء إلى أن المبطلين من قريش ستأتيهم الآية في مكان من الأرض وهو مكان بدر وغيره من مواقع إعمال السيف فيهم فكانت آيات محمد صلى الله عليه وسلم حجة على معانديه أقوى من الآيات السماوية نحو الصواعق أو الريح، وعن الآيات الأرضية نحو الغرق والخسف لأنها كانت مع مشاركتهم ومداخلتهم حتى يكون انغلابهم أقطع لحجتهم وأخزى لهم نظير آية عصا موسى مع عصي السحرة.

[٧٩.٨٠] ﴿الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون﴾

انتقال من الامتنان على الناس بما سخر لأجلهم من نظام العوالم العليا والسفلى، وبما منحهم من الإيجاد وتطوره وما في ذلك من الألطاف بهم وما أدمج فيه من الاستدلال على انفراده تعالى بالتصرف فكيف ينصرف عن عبادته الذين أشركوا به آلهة أخرى، إلى الامتنان بما سخر لهم من الإبل لمنافعهم الجمة خاصة وعامة، فالجملة استئناف سادس.". (١)

٤١٠-"والمنافع: جمع منفعة، وهي مفعلة من النفع، وهي: الشيء الذي ينتفع به، أي يستصلح به.

فالمنافع في هذه الآية أريد بها ما قابل منافع أكل لحومها في قوله: ﴿ومنها تأكلون﴾ مثل الانتفاع بأوبارها وألبانها وأثمانها وأعواضها في الديات والمهور، وكذلك الانتفاع بجلودها باتخاذها وغيرها وبالجلوس عليها، وكذلك الانتفاع بجمال مرآها في العيون في المسرح والمراح، والمنافع شاملة للركوب الذي في قوله: ﴿لتركبوا منها﴾ ، فذكر المنافع بعد ﴿لتركبوا منها﴾ تعميم بعد تخصيص كقوله تعالى: ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ [طه: ١٨]بعد قوله: ﴿هي عصاي أتوكأ عليها﴾ [طه: ١٨]، فذكر هنا الشائع المطروق عندهم ثم ذكر مثيلة في الشيوع وهو الأكل منها، ثم عاد إلى عموم المنافع، ثم خص من المنافع الأسفار فإن اشتداد الحاجة إلى الأنعام فيها تجعل الانتفاع بركوبها للسفر في محل الاهتمام. ولما كانت المنافع ليست منحصرة في أجزاء الأنعام جيء في متعلقها بحرف "في" دون "من" لأن "في" للظرفية المجازية بقرينة السياق فتشمل كل ما يعد كالشيء المحوي في الأنعام، كقول سبرة بن عمرو الفقعسي من شعراء الحماسة يذكر ما أخذه من الإبل في دية قريب:

نحابي بها أكفاءنا ونهينها ... ونشرب في أثمانها ونقامر

وأنبأ فعل ﴿لتبلغوا﴾ أن الحاجة التي في الصدور حاجة في مكان بعيد يطلبها صاحبها. والحاجة: النية والعزيمة.

والصدور أطلق على العقول اتباعا للمتعارف الشائع كما يطلق القلوب على العقول.

وأعقب الامتنان بالأنعام بالامتنان بالفلك لمناسبة قوله: ﴿ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم﴾ فقال: ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ ، وهو **انتقال** من الامتنان بجعل الأنعام، إلى الامتنان بنعمة الركوب في الفلك في البحار والأنهار فالمقصود هو قوله: ﴿وعلى الفلك تحملون﴾ . وأما قوله: ﴿وعليها﴾ فهو تمهيد له وهو اعتراض بالواو الاعتراضية تكريرا للمنة، على أنه قد يشمل حمل الأثقال على الإبل كقوله تعالى: ﴿وتحمل أثقالكم﴾ [النحل: ٧]فيكون إسناد الحمل إلى ضمير الناس تغليبا.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٢٥٣

ووجه الامتنان بالفلك أنه امتنان بما ركب الله في الإنسان من تدبير والذكاء الذي توصل به إلى المخترعات النافعة بحسب مختلف العصور والأجيال، كما تقدم في سورة البقرة[١٦٤]عند قوله تعالى: ﴿والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾ الآيات، وبينا هنالك أن العرب كانوا يركبون البحر الأحمر في التجارة ويركبون الأنهار أيضا قال". (١)

٤١١-"النابغة يصف الفرات:

يظل من خوفه الملاح معتصما ... بالخيزرانة بعد الأين والنجد

والجمع بين السفر بالإبل والسفر بالفلك جمع لطيف، فإن الإبل سفائن البر، وقديما سموها بذلك، قاله الزمخسري في تفسير سورة المؤمن.

وإنما قال: ﴿وعلى الفلك﴾ ولم يقل: وفي الفلك، كما قال: ﴿فإذا ركبوا في الفلك﴾ [العنكبوت: ٦٥] لمزاوجة والمشاكلة مع ﴿وعليها﴾ ، وإنما أعيد حرف "على" في الفلك لأنها هي المقصودة بالذكر وكان ذكر ﴿وعليها﴾ كالتوطئة لها فجاءت على مثالها.

وتقديم المجرورات في قوله: ﴿ومنها يأكلون﴾ وقوله: ﴿وعليها وعلى الفلك﴾ لرعاية على الفاصلة مع الاهتمام بما هو المقصود في السياق. وتقديم ﴿لكم﴾ على ﴿الأنعام﴾ مع أن المفعول أشد اتصالا بفعله من المجرور لقصد الاهتمام بالمنعم عليهم.

وأما تقديم المجرورين في قوله: ﴿ولكم فيها منافع﴾ فللاهتمام بالمنعم عليهم والمنعم بها لأنه الغرض الأول من قوله: ﴿الله الذي جعل لكم الأنعام﴾ .

[٨١] ﴿ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون﴾

عطف على جملة ﴿لكم الأنعام﴾ [غافر: ٧٩]أي الله الذي يريكم آياته. وهذا **انتقال** من متعدد الامتنان بما تقدم من قوله: ﴿الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه﴾ [غافر: ٦١] ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قرارا﴾ [غافر: ٦٤] ﴿هو الذي خلقكم من تراب﴾ [غافر: ٦٧] ﴿الله الذي جعل لكم الأنعام﴾ [غافر: ٧٩]، فإن تلك ذكرت في معرض الامتنان تذكيرا بالشكر، فنبه هنا على أن في تلك المنن آيات دالة على ما يجب لله من الوحدانية والقدرة والحكمة.

ولذلك كان قوله: ﴿ويريكم آياته﴾ مفيدا مفاد التذليل لما في قوله: ﴿آياته﴾ من العموم لأن الجمع المعرف بالإضافة من صيغ العموم، أي يريكم آياته في النعم المذكورات وغيرها من كل ما يدل على وجوب توحيده وتصديق رسله ونبذ المكابرة فيما يأتونهم به من آيات صدقهم.

وقد جيء في جانب إراءة الآيات بالفعل المضارع لدلالته على التجدد لأن الإنسان كلما انتفع بشيء من النعم علم ما في

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٢٥٥

ذلك من دلالة على وحدانية خالقها وقدرته". (١)

٤١٢-"وحكمته. والإراءة هنا بصرية، عبر بها عن العلم بصفات الله إذ كان طريق ذلك العلم هو مشاهدة تلك الأحوال المختلفة فمن تلك المشاهدة ينتقل العقل إلى الاستدلال، وفيه إشارة إلى أن دلالة وجود الخالق ووحدانيته وقدرته برهانية تنتهي إلى اليقين والضرورة.
وإضافة الآيات إلى ضمير الجلالة لزيادة التنويه بها، والإرشاد إلى إجادة النظر العقلي في دلائلها، وأما كونها جائية من لدن الله وكون إضافتها من الإضافة إلى ما هو في معنى الفاعل، فذلك أمر مستفاد من إسناد فعل ﴿يريكم﴾ إلى ضميره تعالى.
وفرع على إراءة الآيات استفهام إنكاري عليهم من أجل إنكارهم ما دلت عليه تلك الآيات.
و"أي" اسم استفهام يطلب به تمييز شيء عن مشاركة فيما يضاف إليه "أي"، وهو هنا مستعمل في إنكار أن يكون شيء من آيات الله يمكن أن ينكر دون غيره من الآيات فيفيد أن جميع الآيات صالح للدالة على وحدانية الله وقدرته لا مساغ لادعاء خفائه وأنهم لا عذر لهم في عدم الاستفادة من إحدى الآيات. والأكثر في استعمال "أي" إذا أضيف إلى اسم مؤنث اللفظ أن لا تلحقها هاء التأنيث اكتفاء بتأنيث ما تضاف إليه لأن الغالب في الأسماء التي ليست بصفات أن لا يفرق بين مذكرها ومؤنثها بالهاء نحو حمار فلا يقال للمؤنث حمارة. و"أي" اسم ويزيد بما فيه من الإبهام فلا يفسره إلا المضاف إليه فلذلك قال هنا: ﴿فأي آيات الله﴾ دون: فأية آيات الله، لأن إلحاق علامة التأنيث بـ"أي" في مثل هذا قليل، ومن غير الغالب تأنيث "أي" في قول الكميت:
بأي كتاب أم بأية سنة ... ترى حبهم عارا علي وتحسب
[٨٢-٨٣] ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ تفريع هذا الاستفهام عقب قوله: ﴿ويريكم آياته﴾ [غافر: ٨١]، يقتضي أنه مساوق للتفريغ الذي قبله وهو ﴿فأي آيات الله تنكرون﴾ [غافر: ٨١]فيقتضي أن السير المستفهم عنه بالإنكار على تركه هو سير تحصل فيه آيات ودلائل على وجود الله ووحدانيته وكلا التفريعين متصل بقوله: ﴿ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ [غافر: ٨٠]، فذلك هو مناسبة الانتقال إلى التذكير بعبرة آثار الأمم التي استأصلها الله". (٢)

٤١٣-"تعالى لما كذبت رسله وجحدت آياته ونعمه.
وحصل بذلك تكرير الإنكار الذي في قوله قبل هذا: ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة﴾ [غافر: ٢١]الآية، فكان ما تقدم انتقالا عقب آيات الإنذار والتهديد، وكان هذا انتقالا عقب

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٢٥٦
(٢) التحرير والتنوير ٢٤/٢٥٧

آيات الامتنان والاستدلال، وفي كلا الانتقالين تذكير وتهديد ووعيد. وهو يشير إلى أنهم إن لم يكونوا ممن تزعهم النعم عن كفران مسديها كشأن أهل النفوس الكريمة فليكونوا ممن يرعهم الخوف من البطش كشأن أهل النفوس اللئيمة فليضعوا أنفسهم حيث يختارون من إحدى الخطتين.

والقول في قوله: ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ إلى قوله: ﴿وآثارا في الأرض﴾ مثل القول في نظيره السابق في هذه السورة، وخولف في عطف جملة ﴿أفلم يسيروا﴾ بين هذه الآية فعطفت بالفاء للتفريغ لوقوعها بعدما يصلح لأن يفرع عنه إنكار عدم النظر في عاقبة الذين من قبلهم بخلاف نظيرها الذي قبلها فقد وقع بعد إنذارهم بيوم الآزفة.

وجملة ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ معترضة والفاء للتفريغ على قوله: ﴿كانوا أكثر منهم﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿هذا فليذوقوه حميم وغساق﴾ [ص: ٥٧]وقول عنترة:

ولقد نزلت فلا تظني غيره ... مني بمنزلة المحب المكرم

وفائدة هذا الاعتراض التعجيل بإفادة أن كثرتهم وقوتهم وحصونهم وجناتهم لم تغن عنهم من بأس الله شيئا.

وجملة ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ الآية مفرعة على جملة ﴿كانوا أكثر منهم﴾ أي كانوا كذلك إلى أن جاءتهم رسل الله إليهم بالبينات فلم يصدقوهم فرأوا بأسنا. وجعلها في "الكشاف" جارية مجرى البيان ولتفسير لقوله: ﴿فما أغنى عنهم﴾ ، وما سلكته أنا أحسن وموقع الفاء يؤيده.

وأما في "لما" من معنى التوقيت أفادت معنى أن الله لم يغير ما بهم من النعم العظمى حتى كذبوا رسله.

وجواب "لما" جملة ﴿فرحوا بما عندهم من العلم﴾ وما عطف عليها.

واعلم أن المفسرين ذهبوا في تفسير هذه الآية طرائق قددا ذكر بعضها الطبري عن بعض سلف المفسرين. وأنهاها "صاحب الكشاف" إلى ست، ومال صاحب "الكشاف" إلى". (١)

٤١٤-"أسلوب سورة غافر

أسلوبها أسلوب المحاجة والاستدلال على صدق القرآن وأنه منزل من عند الله، وإبطال ضلالة المكذبين وضرب مثلهم بالأمم المكذبة، وترهيبهم من التمادي في ضلالهم وترغيبهم في التبصر ليهتدوا. وافتتحت بالحرفين المقطعين من حروف الهجاء لأن أول أغراضها أن القرآن من عند الله ففي حرفي الهجاء رمز إلى عجزهم عن معارضته بعد أن تحداهم، لذلك فلم يفعلوا، كما تقدم في فاتحة سورة البقرة. وفي ذلك الافتتاح تشويق إلى تطلع ما يأتي بعده للاهتمام به.

وكان في الصفات التي أجريت على اسم منزل القرآن إيماء إلى أنه لا يشبه كلام البشر لأنه كلام العزيز العليم، وإيماء إلى تيسير إقلاعهم الاستهلال. ثم تخلص من الإماء والرمز إلى صريح وصف ضلال المعاندين وتنظيرهم بسابقيهم من الأمم التي استأصلها الله.

وخص بالذكر أعظم الرسل السالفين وهو موسى مع أمة من أعظم الأمم السالفة وهم أهل مصر وأطيل ذلك لشدة مماثلة

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٢٥٨

حالهم لحال المشركين من العرب في الاعتزاز بأنفسهم، وفي قلة المؤمنين منهم مثل آل فرعون، وتخلل ذلك ثبات موسى وثبات مؤمن آل فرعون إيماء إلى التنظير بثبات محمد صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، ثم انتقل إلى الاستدلال على الوحدانية وسعة القدرة على إعادة الأموات. وختمت بذكر أهل الضلال من الأمم السالفة الذين أوبقهم الإعجاب برأيهم وثقتهم بجهلهم فصمت آذانهم عن سماع حجج الحق، وأعمالهم عن النظر في دلائل الكون فحسبوا أنهم على كمال لا ينقصهم ما به حاجة إلى الكمال، فحاق بهم العذاب، وفي هذا رد العجز على الصدر. وخوف الله المشركين من الانزلاق في مهواة الأولين بأن سنة الله في عبادة الإمهال ثم المؤاخذة، فكان ذلك كلمة جامعة للغرض أذنت بانتهاء الكلام فكانت محسن الختام.

وتخلل في ذلك كله من المستطردات **والانتقالات** بذكر ثناء الملأ الأعلى عل المؤمنين وثنائهم على الكافرين، وذكر ما هم صائرون إليه من العذاب والندامة، وتمثيل الفارق بين المؤمنين والكافرين، وتشويه حال الكافرين في الآخرة، وتثبيت المؤمنين على إيمانهم وأن الله نصر رسوله والمؤمنين في الدنيا والآخرة، وأمرهم بالصبر والتوكل، وأن شأن الرسول صلى الله عليه وسلم كشأن الرسل من قبله في لقيان التكذيب وفي أنه يأتي بالآيات التي أجراها الله على يديه دون مقترحات المعاندين.". (١)

٤١٥-"﴿لا﴾ النافية تأكيد لأختها السابقة. وأحسن من اعتبار التأكيد أن يكون في الكلام إيجاز حذف مؤذن باحتباك في الكلام، تقديره: وما تستوي الحسنة والسيئة ولا السيئة والحسنة. فالمراد بالأول نفي أن تلتحق فضائل الحسنة مساوي السيئة، والمراد الثاني نفي أن تلتحق السيئة بشرف الحسنة. وذلك هو الاستواء في الخصائص، وفي ذلك تأكيد وتقوية لنفي المساواة ليدل على أنه نفي تام بين الجنسين: جنس الحسنة وجنس السيئة لا مبالغة فيه ولا مجاز، وقد تقدم الكلام على نظيره في سورة فاطر.

وفي التعبير بالحسنة والسيئة دون المحسن والمسيء إشارة إلى أن كل فريق من هذين قد بلغ الغاية في جنس وصفه من إحسان وإساءة على طريقة الوصف بالمصدر، وليتأتى **الانتقال** إلى موعظة تهذيب الخلاق في قوله ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ ، فيشبه أن يكون إيثار نفي المساواة بين الحسنة والسيئة توطئة **للانتقال** إلى قوله ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ ،. وقوله ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ ،. يجري موقعه على الوجهين المتقدمين في عطف جملة ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ .

فالجملة على الوجه الأول من وجهي موقع جملة ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ تخلص من غرض تفضيل الحسنة على السيئة إلى الأمر بخلق الدفع بالتي هي أحسن لمناسبة أن ذلك الدفع من آثار تفضيل الحسنة على السيئة إرشاد من الله لرسوله وأمته بالتخلق بخلق الدفع بالحسنى. وهي على الوجه الثاني من وجهي موقع جملة ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ واقعة موقع النتيجة من الدليل والمقصد من المقدمة، فمضمونها ناشئ عن مضمون التي قبلها.

وكلا الاعتبارين في الجملة الأولى مقتض أن تكون جملة ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ ،. مفصولة غير معطوفة.

وإنما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك لأن منتهى الكمال البشري خلقه كما قال "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦٢/٢٤

وقالت عائشة لما سئلت عن خلقه "كان خلقه القرآن" لأنه أفضل الحكماء. والإحسان كما ذاتي ولكنه قد يكون تركه محمودا في الحدود ونحوها فذلك معنى خاص. والكمال مطلوب لذاته فلا يعدل عنه ما استطاع ما لم يخش فوات كمال أعظم، ولذلك قالت عائشة ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله فيغضب". (١)

٤١٦-"على التقديرين مع اختلاف جهتها.

وجيء في هذا الشرط ب"إن" التي الأصل فيها عدم الجزم بوقوع الشرط ترفيعا لقدر النبي صلى الله عليه وسلم فإن نزغ الشيطان له إنما يفرض كما يفرض المحال، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ [الأعراف:٢٠١] فجاء في ذلك الشرط بحرف "إذا" التي الأصل فيها الجزم بوقوع الشرط أو بغلبة وقوعه. و"ما" زائدة بعد حرف الشرط لتوكيد الربط بين الشرط وجوابه وليست لتحقيق حصول الشرط فإنها تزداد كثيرا بعد "إن" دون أن تكون دالة على الجزم بوقوع فعل الشرط.

وضمير الفصل في قوله ﴿إنه هو السميع العليم﴾ لتقوية الحكم وهو هنا حكم كنائي لأن المقصود لازم وصف السميع العليم وهو مؤاخذة من تصدر منهم أقوال وأعمال في أذى النبي صلى الله عليه وسلم والكيد له ممن أمر بأن يدفع سيئاتهم بالتي هي أحسن. والمعنى: فإن سول لك الشيطان أن لا تعامل أعداءك بالحسنة وزين لك الانتقام وقال لك: كيف تحسن إلى أعداء الدين، وفي الانتقام منهم قطع كيدهم للدين، فلا تأخذ بنزغه وخذ بما أمرناك واستعذ بالله من أن يزلك الشيطان فإن الله لا يخفى عليه أمر أعدائك وهو يتولى جزاءهم.

[٣٧] ﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾

عطف على جملة ﴿قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين﴾ [فصلت:٩] الآية عطف القصة فإن المقصود من ذكر خلق العوالم أنها دلائل على انفراد الله بالإلهية، فلذلك أخبر هنا عن المذكورات في هذه الجملة بأنها من آيات الله انتقالا في أفانين الاستدلال فإنه انتقال من الاستدلال بذوات من مخلوقاته إلى الاستدلال بأحوال من أحوال تلك المخلوقات،فابتدئ ببعض الأحوال السماوية وهي حال الليل والنهار، وحال طلوع الشمس وطلوع القمر، ثم ذكر بعده بعض الأحوال الأرضية بقوله ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة﴾ [فصلت: ٣٩].

ويدل لهذا الانتقال أنه من أسلوب الغيبة من قوله ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة﴾ إلى قوله ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ إلى أسلوب خطابهم رجوعا إلى خطابهم الذي في قوله ﴿أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض﴾ [فصلت: ٩].". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٥٧/٢٥

(٢) التحرير والتنوير ٦٢/٢٥

٤١٧-"والنأي: البعد، وهو هنا مستعار لعدم التفكر في المنعم عليه، فشبه عدم اشتغاله بذلك بالبعد.
والجانب للإنسان: منتهى جسمه من إحدى الجهتين اللتين ليستا قبالة وجهه وظهره، ويسمى الشق، والعطف بكسر العين، والباء للتعدية. والمعنى: أبعد جانبه، كناية عن إبعاد نفسه، أي ولى معرضا غير ملتفت بوجهه إلى الشيء الذي ابتعد هو عنه.

ومعنى ﴿مسه الشر﴾ أصابه شر بسبب عادي. وعدل عن إسناد إصابة الشر إلى الله تعليما للأدب مع الله كما قال إبراهيم ﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾ [الشعراء:٧٨] إلخ. ثم قال ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ [الشعراء:٨٠] فلم يقل: وإذا أمرضني، وفي ذلك سر وهو أن النعم والخير مسخران للإنسان في أصل وضع خلقته فهما الغالبان عليه لأنهما من مظاهر ناموس بقاء النوع. وأما الشرور والأضرار فإن معظمها ينجر إلى الإنسان بسوء تصرفه وبتعرضه إلى ما حذرته منه الشرائع والحكماء الملهمون فقلما يقع فيهما الإنسان إلا بعمله وجرأته.

والدعاء: الدعاء لله بكشف الشر عنه. ووصفه بالعريض استعارة لأن العرض بفتح العين ضد الطول، والشيء العريض هو المتسع مساحة العرض، فشبه الدعاء المتكرر الملح فيه بالثوب أو المكان العريض. وعدل عن أن يقال: فداع، إلى ﴿ذو دعاء﴾ لما تشعر به كلمة ﴿ذو﴾ من ملازمة الدعاء له وتملكه منه.

والدعاء إلى الله من شيم المؤمنين وهم متفاوتون في الإكثار منه والإقلال على تفاوت ملاحظة الحقائق الإلهية. وتوجه المشركين إلى الله بالدعاء هو أقوال تجري على ألسنتهم توارثوها من عادات سالفة من أزمان تدينهم بالحنيفية قبل أن تدخل عليهم عبادة الأصنام وتتأصل فيهم فإذا دعوا الله غفلوا عن منافاة أقوالهم لعقائد شركهم.

[٥٢] ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد﴾

استئناف ابتدائي متصل بقوله ﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم﴾ إلى قوله ﴿لفي شك منه مريب﴾ [فصلت: من الآية٤٥] فهذا **انتقال** إلى المجادلة في شأن القرآن رجع به إلى الغرض الأصلي من هذه السورة وهو بيان حقية القرآن وصدقه وصدق من جاء به.وهذا استدعاء ليعملوا النظر في دلائل صدق القرآن مثل إعجازه وانتساقه وتأييد بعضه بعضا وكونه مؤيدا للكتب قبله، وكون تلك الكتب مؤيدة له.". (١)

٤١٨-"وهذا مسوق لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على تمنيهم أن يكون الناس كلهم مهتدين ويكون جميعهم في الجنة، وبذلك تعلم أن ليس المراد: لو شاء الله لجعلهم أمة واحدة في الأمرين الهدى والضلال، لأن هذا الشق الثاني لا يتعلق الغرض ببيانه هنا وإن كان في نفس الأمر لو شاء الله لكان. فتأويل هذه الآية بما جاء في قوله تعالى ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ [السجدة:١٣]

وقوله ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ [يونس:٩٩]

وقد دل على ذلك الاستدراك الذي في قوله ﴿ولكن يدخل من يشاء في رحمته﴾ أي ولكن شاء مشيئة أخرى جرت على

---

(١) التحرير والتنوير ٨٩/٢٥

وفق حكمته، وهي أن خلقهم قابلين للهدى والضلال بتصاريف عقولهم وأميالهم، ومكنهم من كسب أفعالهم وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر بالتكليف فكان منهم المهتدون وهم الذين شاء الله إدخالهم في رحمته، ومنهم الظالمون الذين ما لهم من ولي ولا نصير.

فقوله ﴿يدخل من يشاء في رحمته﴾ أحد دليلين على المعنى المستدرك إذ التقدير: ولكنه جعلهم فريقين فريقا في الجنة وفريقا في السعير ليدخل من يشاء منهم في رحمته وهي الجنة. وأفهم ذلك أنه يدخل منهم الفريق الآخر في عقابه، فدل عليه أيضا بقوله ﴿والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير﴾ لأن نفي النصير كناية عن كونهم في بؤس وضر ومغلوبية بحيث يحتاجون إلى نصير لو كان لهم نصير، فيدخل في الظالمين مشركو أهل مكة دخولا أوليا لأنهم سبب ورود هذا العموم.

وأصل النظم: ويدخل من يشاء في غضبه، فعدل عنه إلى ما في الآية للدلالة على أن سبب إدخالهم في غضبه هو ظلمهم، أي شركهم ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ [لقمان: ١٣] مع إفادة أنهم لا يجدون وليا يدفع عنهم غضبه ولا نصيرا يثأر لهم.

وضمير ﴿جعلهم﴾ عائد إلى فريق الجنة وفريق السعير باعتبار أفراد كل فريق.

[٩] ﴿أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾

﴿أم﴾ للإضراب الانتقالي كما يقال: دع الاهتمام بشأنهم وإنذارهم ولنعد إلى فظاعة حالهم في اتخاذهم من دون الله أولياء.

وتقدر بعد ﴿أم﴾ همزة استفهام إنكاري. فالمعنى: بل أأتخذوا من دونه أولياء، أي أتوا منكرا لما اتخذوا من دونه أولياء.

فضمير ﴿اتخذوا﴾". (١)

٤١٩-"وجملة ﴿إنه بكل شيء عليم﴾ استئناف بياني هو كالعلة لقوله ﴿لمن يشاء﴾ أي أن مشيئته جارية على حسب علمه بما يناسب أحوال المرزوقين من بسط أو قدر.

وبيان هذا في قوله الآتي ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ [الشورى: ٢٧] ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ [الشورى: ١٣] انتقال من الامتنان بالنعم الجثمانية إلى الامتنان بالنعمة الروحية بطريق الإقبال على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين للتنويه بدين الإسلام وللتعريض بالكفار الذين أعرضوا عنه. فالجملة ابتدائية.

ومعنى ﴿شرع﴾ أوضح وبين لكم مسالك ما كلفكم به. وأصل ﴿شرع﴾ جعل طريقا واسعة، وكثر إطلاقه على سن القوانين والأديان فسمي الدين شريعة. فشرع هنا مستعار للتبيين كما في قوله ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾ [الشورى: ٢١]، وتقدم في قوله تعالى ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾ في سورة العقود.[٤٨]

والتعريف في ﴿الدين﴾ تعريف الجنس، وهو يعم الأديان الإلهية السابقة. و ﴿من﴾ للتبعيض. والتوصية: الأمر بشيء مع تحريض على إيقاعه والعمل به. ومعنى كونه شرع للمسلمين من الدين ما وصى به نوحا أن الإسلام دين مثل ما أمر به نوحا وحضه عليه. فقوله ﴿ما وصى به نوحا﴾ مقدر فيه مضاف، أي مثل ما وصى به نوحا، أو هو بتقدير كاف التشبيه

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٩/٢٥

على طريقة التشبيه البليغ مبالغة في شدة المماثلة حتى صار المثل كأنه عين مثله. وهذا تقدير شائع كقول ورقة بن نوفل هذا هو الناموس الذي أنزل على عيسى.

والمراد: المماثلة في أصول الدين مما يجب لله تعالى من الصفات، وفي أصول الشريعة من كليات التشريع، وأعظمها توحيد الله، ثم ما بعده من الكليات الخمس". (١)

٤٢٠-"والمراد بالجمع في قوله ﴿الله يجمع بيننا﴾ الحشر لفصل القضاء، فيومئذ يتبين المحق من المبطل، وهذا كلام منصف. ولما كان مثل هذا الكلام لا يصدر إلا من الواثق بحقه كان خطابهم به مستعملا في المتاركة والمحاجزة، أي سأترك جدالكم ومحاجتكم لقلة جدواها فيكم وأفوض أمري إلى الله يقضي بيننا يوم يجمعنا، فهذا تعريض بأن القضاء سيكون له عليهم.

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله ﴿الله يجمع بيننا﴾ للتقوي، أي تحقيق وقوع هذا الجمع وإلا فإن المخاطبين وهم اليهود يثبتون البعث. و"بين" هنا ظرف موزع مثل الذي في قوله ﴿لا حجة بيننا وبينكم﴾ .

وجملة ﴿وإليه المصير﴾ عطف على جملة ﴿يجمع بيننا﴾ والتعريف في ﴿المصير﴾ للاستغراق، أي مصير الناس كلهم، فبذلك كانت الجملة تذييلا بما فيها من العموم، أي مصيرنا ومصيركم ومصير الخلق كلهم.

وهذه الجمل الأربع تقتضي المحاجزة بين المؤمنين وبين اليهود وهي محاجزة في المقاولة ومتاركة في المقاتلة في ذلك الوقت حتى أذن الله في قتالهم لما ظاهروا الأحزاب.

وليس في صيغ هذه الجمل ما يقتضي دوام المتاركة إذ ليس فيها ما يقتضي عموم الأزمنة فليس الأمر بقتال بعضهم بعد يوم الأحزاب ناسخا لهذه الآية.

[١٦] ﴿والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد﴾

عطف على جملة ﴿وقل آمنت بما أنزل الله﴾ [الشورى: ١٥] إلخ، وهو يقتضي انتقال الكلام، فلما استوفى حظ أهل الكتاب في شأن المحاجة معهم، رجع إلى المشركين في هذا الشأن بقوله ﴿والذين يحاجون في الله﴾ الآية.

وتغيير الأسلوب بالإتيان بالاسم الظاهر الموصول وكون صلته مادة الاحتجاج مؤذن بتغيير الغرض في المتحدث عنهم مع مناسبة ما ألحق به من قوله ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾ [الشورى: ١٨] وقوله ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾ [الشورى: ٢١]فالمقصود ب ﴿والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له﴾ المشركون لأنهم يحاجون في شأن الله وهو الوحدانية دون اليهود من أهل الكتاب فأنهم لا يحاجون في تفرد الله بالإلهية.

وعن مجاهد أنه قال ﴿الذين يحاجون في الله﴾ رجال طمعوا أن". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/١١٨

(٢) التحرير والتنوير ٢٥/١٣١

٤٢١-"ومعنى ﴿نؤته منها﴾ نقدر له من متاع الدنيا من: مدة حياة، وعافية ورزق لأن الله قدر لمخلوقاته أرزاقهم وأمدادهم في الدنيا، وجعل حظ الآخرة خاصا بالمؤمنين كما قال ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن﴾ وقد شملت آية سورة الإسراء فريقا آخر غير مذكور هنا، وهو الذي يؤمن بالآخرة ويبتغي النجاة فيها ولكنه لم يؤمن بالإسلام مثل أهل الكتاب، وهذا الفريق مذكور أيضا في سورة البلد بقوله تعالى ﴿فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام﴾ إلى قوله ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾

فلا يتوهمن متوهم أن هذه الآية ونحوها تحجر تناول المسلم حظوظ الدنيا إذا أدى حق الإيمان والتكليف، ولا أنها تصد عن خلط الحظوظ الدنيوية مع حظوظ الآخرة إذا وقع الإيفاء بكليهما، ولا أن الخلط بين الحظين ينافي الإخلاص كطلب التبرد مع الوضوء وطلب الصحة مع التطوع بالصوم إذا كان المقصد الأصلي الإيفاء بالحق الديني. وقد تعرض لهذه المسألة أبو إسحاق الشاطبي في فصل أول من المسألة السادسة من النوع الرابع من كتاب المقاصد من كتاب الموافقات. وذكر فيها نظرين مختلفين للغزالي وأبي بكر بن العربي ورجح فيها رأي أبي بكر بن العربي فانظره.

والنصيب: ما يعين لأحد من الشيء المقسوم، وهو فعيل من نصيب لأن الحظ ينصب، أي يجعل كالصبرة لصاحبه، وتقدم عند قوله تعالى ﴿أولئك لهم نصيب مما كسبوا﴾ في سورة البقرة.[٢٠٢]

﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم﴾

﴿أم﴾ للإضراب **الانتقالي** وهو **انتقال** من الكلام على تفرق أهل الشرائع السالفة في شرائعهم من انقرض منهم ومن بقي كأهل الكتابين إلى الكلام على ما يشابه ذلك من الاختلاف على أصل الديانة، وتلك مخالفة المشركين للشرائع كلها وتلقيهم دين الإشراك من أئمة الكفر وقادة الضلال.

ومعنى الاستفهام الذي تقضيه ﴿أم﴾ التي للإضراب هو هنا للتقريع والتهكم، فالتقريع راجع إلى أنهم شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله، والتهكم راجع إلى من شرعوا". (١)

٤٢٢-"والاقتراف:افتعال من القرف، وهو الاكتساب، فالاقتراف مبالغة في الكسب نظير الاكتساب، وليس خاصا باكتساب السوء وان كان قد غلب فيه، وأصله من قرف الشجرة، إذا قشر قرفها، بكسر القاف، وهو لحاؤها، أي قشر عودها، وتقدم عند قوله تعالى ﴿وليقترفوا ما هم مقترفون﴾ [الأنعام: ١١٣] في سورة الأنعام، وعند قوله ﴿وأموال اقترفتموها﴾ في سورة براءة [٢٤]

والحسنة: الفعلة ذات الحسن صفة مشبهة غلبت في استعمال القرآن والسنة على الطاعة والقربة فصارت بمنزلة الجوامد علما بالغلبة وهي مشتقة من الحسن وهو جمال الصورة. والحسن: ضد القبح وهو صفة في الذات تقتضي قبول منظرها في نفوس الرائين وميلهم إلى مداومة مشاهدتها. وتوصف المعنويات بالحسن فيراد به كون الفعل أو الصفة محمودة عند العقول مرغوبا في الاتصاف بها.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/١٤٠

ولما كانت الحسنة مأخوذة من الحسن جعلت الزيادة فيها من الزيادة في الحسن مراعاة لأصل الاشتقاق فكان ذكر الحسن من الجناس المعبر عنه بجناس الاشتقاق نحو قوله تعالى ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾ [الروم:٤٣] وصار المعنى نزد له فيها مماثلا لها ويتعين أن الزيادة فيها زيادة من غير عمله ولا تكون الزيادة بعمل يعمله غيره لأنها تصير عملا يستحق الزيادة أيضا فلا تنتهي الزيادة فتعين أن المراد الزيادة في جزاء أمثالها عند الله. وهذا معنى قوله تعالى ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ [الأنعام:١٦٠] وقوله ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "من هم بحسنة فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف" .

وجملة ﴿إن الله غفور شكور﴾ تذييل وتعليل للزيادة لقصد تحقيقها بأن الله كثيرة مغفرته لمن يستحقها، كثير شكره للمتقربين إليه. والمقصود بالتعليل هو وصف الشكور، وأما وصف الغفور فقد ذكر للاشارة إلى ترغيب المقترفين السيئات في الاستغفار والتوبة ليغفر لهم فلا يقنطوا من رحمة الله.

[٢٤] ﴿أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور﴾ [الشورى:٢٤]

إضراب **انتقالي** عطفا على قوله ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾ [الشورى: ٢١] وهو الكلام المضرب عنه والمنتقل منه، والمراد **الانتقال** إلى توبيخ". (١)

٤٢٣-"وذكر صفتي ﴿الولي الحميد﴾ دون غيرهما لمناسبتهما للإغاثة لأن الولي يحسن إلى مواليه والحميد يعطي ما يحمد عليه. ووصف حميد فعيل بمعنى مفعول. وذكر المهدوي تفسير ﴿وينشر رحمته﴾ بطلوع الشمس بعد المطر.

[٢٩] ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾

لما كان إنزال الغيث جامعا بين كونه نعمة وكونه آية دالة على بديع صنع الله تعالى وعظيم قدرته المقتضية انفراده بالإلهية، انتقل من ذكره إلى ذكر آيات دالة على انفراد الله تعالى بالإلهية وهي آية خلق العوالم العظيمة وما فيها مما هو مشاهد للناس دون قصد الامتنان. وهذا **الانتقال** استطراد واعتراض بين الأغراض التي سياق الآيات فيها.

والآيات: جمع آية، وهي العلامة والدليل على سيء. والسياق دال على أن المراد آيات الإلهية. والسماوات: العوالم العليا غير المشاهدة لنا والكواكب وما تجاوز الأرض من الجو. والأرض: الكرة التي عليها الحيوان والنبات. والبث: وضع الأشياء في أمكنة كثيرة.

والدابة: ما يدب على الأرض، أي يمشي فيشمل الطير لأن الطير يمشي إذا نزل وهو مما أريد في قوله هنا ﴿فيهما﴾ أي في الأرض وفي السماء، أي بعض ما يسمى بالسماء وهو الجو وهو ما يلوح للناظر مثل قبة زرقاء على الأرض في النهار، قال تعالى ﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء﴾ [النحل: ٧٩] فإطلاق الدابة على الطير باعتبار أن الطير يدب على الأرض كثيرا لالتقاط الحب وغير ذلك وأما الموجودات التي في السماوات العلى من الملائكة والأرواح فلا يطلق عليها اسم

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٨/٢٥

دابة. ويجوز أن تكون في بعض السماوات موجودات تدب فيها فإن الكواكب من السماوات. والعلماء يترددون في إثبات سكان في الكواكب، وجوز بعض العلماء المتأخرين أن في كوكب المريخ سكانا، وقال تعالى ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ [النحل: ٨]، على أنه قد يكون المراد من الظرفية في قوله ﴿فيهما﴾ ظرفية المجموع لا الجميع، أي ما بث في مجموع الأرض والسماء من دابة، فالدابة إنما هي على الأرض، ولما ذكرت الأرض والسماء مقترنتين وجاء ذكر الدواب جعلت الدواب مظروفة فيهما لأن الأرض محوطة بالسماوات ومتخيلة منها كالمظروف في ظرفه، والمظروف في ظرف مظروف في ظرف مظروفه كما قال تعالى". (١)

٤٢٤-"لإفادة تقوي الخبر، أي لا ينبغي أن يترددوا في الانتصار لأنفسهم.

وأوثر الخبر الفعلي هنا دون أن يقال: منتصرون، لإفادة معنى تجدد الانتصار كلما أصابهم البغي.

وأما مجيء الفعل مضارعا فلأن المضارع هو الذي يجيء معه ضمير الفصل.

[٤٠] ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين﴾

هذه جمل ثلاث معترضة الواحدة تلو الأخرى بين جملة ﴿والذين إذا أصابهم البغي﴾ [الشورى: ٣٩] الخ وجملة ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه﴾ . وفائدة هذا الاعتراض تحديد الانتصار والترغيب في العفو ثم ذم الظلم والاعتداء، وهذا **انتقال** من الإذن في الانتصار من أعداء الدين إلى تحديد أجرائه بين الأمة بقرينة تفريع ﴿فمن عفا وأصلح﴾ على جملة ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ إذ سمي ترك الانتصار عفوا وإصلاحا ولا عفو ولا إصلاح مع أهل الشرك.

وبقرينة الوعد بأجر من الله على ذلك العفو ولا يكون على الإصلاح مع أهل الشرك أجر.

و ﴿سيئة﴾ صفة لمحذوف، أي فعلة تسوء من عومل بها. ووزن ﴿سيئة﴾ فيعلة مبالغة في الوصف مثل: هينة، فعينها ياء ولامها همزة، لأنها من ساء، فلما صيغ منها وزن فيعلة التقت ياءان فأدغمتا، أي أن المجازي يجازي من فعل معه فعلة تسوءه بفعلة سيئة مثل فعلته في السوء، وليس المراد بالسيئة هنا المعصية التي لا يرضاها الله، فلا إشكال في إطلاق السيئة على الأذى الذي يلحق بالظالم.

ومعنى ﴿مثلها﴾ أنها تكون بمقدارها في متعارف الناس، فقد تكون المماثلة في الغرض والصورة وهي المماثلة التامة وتلك حقيقة المماثلة مثل القصاص من القاتل ظلما بمثل ما قتل به، ومن المعتدي بجراح عمد، وقد تتعذر المماثلة التامة فيصار إلى المشابهة في الغرض، أي مقدار الضر وتلك هي المقاربة مثل تعذر المشابهة التامة في جزاء الحروب مع عدو الدين إذ قد يلحق الضر بأشخاص لم يصيبوا أحدا بضر ويسلم أشخاص أصابوا الناس بضر، فالمماثلة في الحرب هي انتقام جماعة من جماعة بمقدار ما يشفي". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٨/٢٥

(٢) التحرير والتنوير ١٧٣/٢٥

٤٢٥-"أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾ [محمد:١٣]
والبطش: الإضرار القوي.
وانتصب ﴿بطشا﴾ على التمييز لنسبة الأشدية.
و ﴿مثل الأولين﴾ حالهم العجيبة. ومعنى ﴿مضى﴾ : انقرض، أي ذهبوا عن بكرة أبيهم، فمضي المثل كناية عن استئصالهم لأن مضي الأحوال يكون بمضي أصحابها، فهو في معنى قوله تعالى ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا﴾ [الأنعام: من الآية٤٥] وذكر ﴿الأولين﴾ إظهار في مقام الإضمار لتقدم قوله ﴿في الأولين﴾ .
ووجه إظهاره أن يكون الإخبار عنهم صريحا وجاريا مجرى المثل.
[٩] ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾
لما كان قوله ﴿وكم أرسلنا من نبي في الأولين﴾ [الزخرف:٦] موجها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم للتسلية والوعد بالنصر، عطف عليه خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم صريحا بقوله ﴿ولئن سألتهم﴾ الآية، لقصد التعجيب من حال الذين كذبوه فإنهم إنما كذبوه لأنه دعاهم إلى عبادة إله واحد ونبذ عبادة الأصنام، ورأوا ذلك عجبا مع أنهم يقرون لله تعالى بأنه خالق العوالم وما فيها. وهل يستحق العبادة غير خالق العابدين، ولأن الأصنام من جملة ما خلق الله في الأرض من حجارة، فلو سألهم الرسول صلى الله عليه وسلم في محاجته إياهم عن خالق الخلق لما استطاعوا غير الإقرار بأنه الله تعالى.
فجملة ﴿ولئن سألتهم﴾ معطوفة على جملة ﴿وكم أرسلنا من نبي في الأولين﴾ [الزخرف:٦] عطف الغرض، وهو **انتقال** إلى الاحتجاج على بطلان الإشراك بإقرارهم الضمني: أن أصنامهم خالية عن صفة استحقاق أن تعبد وتأكيد الكلام باللام الموطئة للقسم ولام الجواب ونون التوكيد لتحقيق أنهم يجيبون بذلك تنزيلا لغير المتردد في الخبر منزلة المتردد، وهذا التنزيل كناية عن جدارة حالتهم بالتعجيب من اختلال تفكيرهم وتناقض عقائدهم وإنما فرض الكشف عن عقيدتهم في صورة سؤالهم عن خالقهم للإشارة إلى أنهم غافلون عن ذلك في مجرى أحوالهم وأعمالهم ودعائهم حتى إذا سألهم السائل عن خالقهم لم يتريثوا أن يجيبوا بأنه الله ثم يرجعون إلى شركهم.". (١)

٤٢٦-"وإنما وصفت البلدة وهي مؤنث بالميت وهو مذكر لكونه على زنة الوصف الذي أصله مصدر نحو: عدل وزور فحسن تجريده من علامة التأنيث على أن الموصوف مجازي التأنيث.
وجملة ﴿كذلك تخرجون﴾ معترضة بين المتعاطفين وهو استطراد بالاستدلال على ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من إثبات البعث، بمناسبة الاستدلال على تفرد الله بالإلهية بدلائل في بعضها دلالة على إمكان البعث وإبطال إحالتهم إياه.
والإشارة بذلك إلى الانتشار المأخوذ من ﴿فأنشرنا﴾ ، أي مثل ذلك الانتشار تخرجون من الأرض بعد فنائكم، ووجه الشبه هو إحداث الحي بعد موته.
والمقصود من التشبيه إظهار إمكان المشبه كقول أبي الطيب:

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٧/٢٥

فإن تفق الأنام وأنت منهم ... فإن المسك بعض دم الغزال

وقرأ الجمهور ﴿تخرجون﴾ بالبناء للنائب. وقرأه حمزة والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر ﴿تخرجون﴾ بالبناء للفاعل والمعنى واحد.

﴿والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾

هذا **الانتقال** من الاستدلال والامتنان بخلق وسائل الحياة إلى الاستدلال بخلق وسائل الاكتساب لصلاح المعاش، وذكر منها وسائل الإنتاج وأتبعها بوسائل الاكتساب بالأسفار للتجارة.

وإعادة اسم الموصول لما تقدم في نظيره آنفا.

والأزواج: جمع زوج، وهو كل ما يصير به الواحد ثانيا، فيطلق على كل منهما أنه زوج للآخر مثل الشفع. وغلب الزوج على الذكر وأنثاه من الحيوان، ومنه ﴿ثمانية أزواج﴾ في سورة الأنعام[١٤٣]، وتوسع فيه فأطلق الزوج على الصنف ومنه قوله ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾ [الرعد: ٣] وكلا الإطلاقين يصح أن يراد هنا، وفي أزواج الأنعام منافع بألبانها وأصوافها وأشعارها ولحومها ونتاجها.

ولما كان المتبادر من الأزواج بادئ النظر أزواج الأنعام وكان من أهمها عندهم الرواحل عطف عليها ما هو منها وسائل للتنقل برا وأدمج معها وسائل السفر بحرا. فقال ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾ فالمراد ب ﴿ما تركبون﴾ بالنسبة إلى الأنعام". (١)

٤٢٧-"الإشارة بقوله ﴿من عباده﴾ أي من مخلوقاته، أو ليست العبودية الحقة إلا عبودية المخلوق جزءا، أي قطعة.

والجزء: بعض من كل، والقطعة منه. والولد كجزء من الوالد لأنه منفصل منه، ولذلك يقال للولد: بضعة. فهم جمعوا بين اعتقاد حدوث الملائكة وهو مقتضى أنها عباد الله وبين اعتقاد إلهيتها وهو مقتضى أنها بنات الله لأن البنوة تقتضي المشاركة في الماهية.

ولما كانت عقيدة المشركين معروفة لهم ومعروفة للمسلمين كان المراد من الجزء: البنات، لقول المشركين: ان الملائكة بنات الله من سروات الجن، أي أمهاتهم سروات الجن، أي شريفات الجن فسروات جمع سرية. وحكى القرطبي أن المبرد قال: الجزء هاهنا البنات، يقال: أجزأت المرأة، إذا ولدت أنثى. وفي اللسان عن الزجاج: أنه قال: أنشدت بيتا في أن معنى جزء معنى الإناث ولا أدري البيت أقديم أم مصنوع، وهو:

إن أجزأت حرة يوما فلا عجب ... قد تجزيء الحرة المذكار أحيانا

وفي تاج العروس:

أن هذا البيت أنشده ثعلب، وفي اللسان أنشد أبو حنيفة:

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢١/٢٥

زوجتها من بنات الأوس مجزئة ... للعوسج الرطب في أبياتها زجل

ونسبة الماوردي في تفسيره إلى أهل اللغة. وجزم صاحب الكشاف بأن هذا المعنى كذب على العرب وأن البيتين مصنوعان.

والجعل هنا معناه: الحكم على الشيء بوصف حكما لا مستند له فكأنه صنع باليد والصنع باليد يطلق عليه الجعل.

وجملة ﴿إن الأنسان لكفور مبين﴾ تذييل يدل على استنكار ما زعموه بأنه كفر شديد. والمراد ب ﴿الأنسان﴾ هؤلاء الناس خاصة.

والمبين: الموضح كفره في أقواله الصريحة في كفر نعمة الله.

[١٦،١٧] ﴿أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم﴾

﴿أم﴾ للإضراب وهو هنا انتقالي لانتقال الكلام من إبطال معتقدهم بنوة الملائكة لله تعالى بما لزمه من انتقاض حقيقة الإلهية، إلى إبطاله بما يقتضيه من انتقاص ينافي الكمال الذي تقتضيه الإلهية. والكلام بعد ﴿أم﴾ استفهام، وهو استفهام إنكاري كما اقتضاه قوله". (١)

٤٢٨-"إضراب انتقالي، عطف على جملة ﴿ما لهم بذلك من علم﴾ فبعد أن نفى أن يكون قولهم ﴿لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ [الزخرف: ٢٠] مستندا إلى حجة العقل، انتقل إلى نفي أن يكون مستندا إلى حجة النقل عن إخبار العالم بحقائق الأشياء التي هي من شؤونه.

واجتلب للإضراب حرف ﴿أم﴾ دون "بل" لما تؤذن به ﴿أم﴾ من استفهام بعدها، وهو إنكاري. والمعنى: وما آتيناهم كتابا من قبله. وضمير ﴿من قبله﴾ عائد إلى القرآن المذكور في أول السورة. وفي قوله ﴿وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾ [الزخرف:٤]

وفي هذا ثناء ثالث على القرآن ضمني لاقتضائه أن القرآن لا يأتي إلا بالحق الذي يستمسك به.

وهذا تمهيد للتخلص إلى قوله تعالى ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ [الزخرف: ٢٢]

و ﴿من﴾ مزيدة لتوكيد معنى ﴿قبل﴾ . والضمير المضاف إليه "قبل"ضمير القرآن ولم يتقدم له معاد في اللفظ ولكنه ظاهر من دلالة قوله ﴿كتابا﴾ .

و ﴿مستمسكون﴾ مبالغة في "ممسكون" يقال: أمسك بالشيء، إذا شد عليه يده، وهو مستعمل مجازا في معنى الثبات على الشيء كقوله تعالى ﴿فاستمسك بالذي أوحي إليك﴾ [الزخرف: ٤٣].

[٢٢] ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾

هذا إضراب إبطال عن الكلام السابق من قوله تعالى ﴿ فهم به مستمسكون﴾ [الزخرف: ٢١] فهو إبطال للمنفي لا للنفي، أي ليس لهم علم فيما قالوه ولا نقل. فكان هذا الكلام مسوقا مساق الذم لهم إذ لم يقارنوا بين ما جاءهم به الرسول وبين ما تلقوه من آبائهم فإن شأن العاقل أن يميز ما يلقى إليه من الاختلاف ويعرضه على معيار الحق.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٢٢٥

والأمة هنا بمعنى الملة والدين، كما في قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ وقول النابغة:
وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع
أي ذو دين.". (١)

٤٢٩-"وعليه يحمل ما ورد في صحاح الآثار من تعذيب عمرو بن لحي الذي سن عبادة الأصنام وما روي أن أمرأ القيس حامل لواء الشعراء إلى النار يوم القيامة وغير ذلك. وهذا الذي يناسب أن يكون نظر إليه أهل السنة الذين يقولون: إن معرفة الله واجبة بالشرع لا بالعقل وهو المشهور عن الأشعري، والذين يقولون منهم إن المشركين من أهل الفترة مخلدون في النار على الشرك. وأما الذين قالوا بأن معرفة الله واجبة عقلا وهو قول جميع الماتريدية وبعض الشافعية فلا إشكال على قولهم.
[٢٩] ﴿بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين﴾ [الزخرف:٢٩]
إضراب عن قوله ﴿لعلهم يرجعون﴾ [آل عمران: ٧٢]، وهو إضراب إبطال، أي لم يحصل ما رجاه إبراهيم من رجوع بعض عقبه إلى الكلمة التي أوصاهم برعيها. فإن أقدم أمة من عقبه لم يرجعوا إلى كلمته، وهؤلاء هم العرب الذين أشركوا وعبدوا الأصنام.
وبعد ﴿بل﴾ كلام محذوف دل عليه الإبطال وما بعد الإبطال، وتقدير المحذوف: بل لم يرجع هؤلاء وآباؤهم الأولون إلى التوحيد ولم يتبرأوا من عبادة الأصنام ولا أخذوا بوصاية إبراهيم.
وجملة ﴿متعت هؤلاء وآباءهم﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا لسائل يسأل عما عاملهم الله به جزاء على تفريطهم في وصاية إبراهيم وهلا استأصلهم. كما قال ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير﴾ إلى قوله ﴿فانتقمنا منهم﴾ [الزخرف: ٢٣,٢٥]، فأجيب بأن الله متعهم بالبقاء إلى أن يجيئهم رسول بالحق وذلك لحكمة علمها الله يرتبط بها وجود العرب زمنا طويلا بدون رسول، وتأخر مجيء الرسول إلى الإبان الذي ظهر فيه.
وبهذا الاستئناف حصل التخلص إلى ما بدا من المشركين بعد مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم من فظيع توغلهم في الإعراض عن التوحيد الذي كان عليه أبوهم فكان موقع "بل" في هذه الآية أبلغ من موقعها في قول لبيد:
بل ما تذكر من نوار وقد نأت
... وتقطعت أسبابها ورمامها
إذ كان **انتقاله** اقتضابا وكان هنا تخلصا حسنا.
و ﴿هؤلاء﴾ إشارة إلى غير مذكور في الكلام، وقد استقريت أن مصطلح القرآن أن يريد بمثله مشركي العرب، ولم أر من

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٣/٢٥

اهتدى للتنبيه عليه، وقد قدمته عند قوله تعالى". (١)

٤٣٠-"المناسبة بين وصفهم بالعشا وبين ما في هذا **الانتقال** لوصفهم بالصم العمي.

وعطف ﴿ومن كان في ضلال مبين﴾ فيه معنى التذييل لأنه أعم من كل من الصم والعمي باعتبار انفرادهما، وباعتبار أن الصمم والعمى لما كانا مجازين قد يكون تعلقهما بالمسموع والمبصر جزئيا في حالة خاصة فكان الوصف بالكون في الضلال المبين تنبيها على عموم الأحوال وهو مع ذلك ترشيح للاستعارة لأن اجتماع الصمم والعمى أبين ضلالا.

[٤٢,٤١] ﴿فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون﴾ تفريع على جملة ﴿أفأنت تسمع الصم﴾ [الزخرف: من الآية٤٠] إلى آخرها المتضمنة إيماء إلى التأسيس من اهتدائهم، والصريحة في تسلية النبي صلى الله عليه وسلم من شدة الحرص في دعوتهم، فجاء هنا تحقيق وعد بالانتقام منهم، ومعناه: الوعد بإظهار الدين إن كان في حياة النبي صلى الله عليه وسلم أو بعد وفاته، ووعيدهم بالعقاب في الدنيا قبل عقاب الآخرة، فلأجل الوفاء بهذين الغرضين ذكر في هذه الجملة أمران: الانتقام منهم لا محالة، وكون ذلك واقعا في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أو بعد وفاته.

والمفرع هو ﴿فإنا منهم منتقمون﴾ وما ذكر معه، فمراد منه تحقق ذلك على كل تقدير.

و"إما" كلمتان متصلتان أصلهما "إن" الشرطية و"ما" زائدة بعد "إن"، وأدغمت نون "إن" في الميم من حرف "ما"، وزيادة "ما" للتأكيد، ويكثر اتصال فعل الشرط بعد "إن" المزيدة بعدها "ما" بنون التوكيد زيادة في التأكيد، ويكتبونها بهمزة وميم وألف تبعا لحالة النطق بها.

والذهاب به هنا مستعمل للتوفي بقرينة قوله ﴿أو نرينك الذي وعدناهم﴾ لأن الموت مفارقة للأحياء فالإماتة **كالانتقال** به، أي تغييبه ولذلك يعبر عن الموت **بالانتقال**. والمعنى: فإما نتوفينك فإنا منهم منتقمون بعد وفاتك.

وقد استعمل ﴿منتقمون﴾ للزمان المستقبل استعمال اسم الفاعل في الاستقبال، وهو مجاز شائع مساو للحقيقة والقرينة قوله ﴿فإما نذهبن بك﴾

والمراد ب ﴿الذي وعدناهم﴾ الانتقام المأخوذ من قوله ﴿فإنا منهم منتقمون﴾ وقد أراه الله تعالى الانتقام منهم بقتل صناديدهم يوم بدر، قال تعالى ﴿يوم نبطش البطشة". (٢)

٤٣١-"مثل الملك حسب افتقادها هو من شعار الملوك عندهم أمارة على انتفاء الرسالة.

و ﴿أو﴾ للترديد، أي إن لم تلق عليه أساورة من ذهب فلتجئ معه طوائف من الملائكة شاهدين له بالرسالة.

ولم أقف على أنهم كانوا يثبتون وجود الملائكة بالمعنى المعروف عند أهل الدين الإلهي فلعل فرعون ذكر الملائكة مجاراة لموسى إذ لعله سمع منه أن لله ملائكة أو نحو ذلك في مقام الدعوة فأراد إفحامه بأن يأتي معه بالملائكة الذين يظهرون له.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤١/٢٥

(٢) التحرير والتنوير ٢٥٨/٢٥

و ﴿مقترنين﴾ حال من ﴿الملائكة﴾ أي مقترنين معه فهذه الحال مؤكدة لمعنى "معه" لئلا يحمل معنى المعية على إرادة أن الملائكة تؤيده بالقول من قولهم: قرنته به فاقترن، أي مقترنين بموسى وهو اقتران النصير لنصيره.

[٥٤] ﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين﴾

أي فتفرع عن نداء فرعون قومه أن أثر بتمويهه في نفوس ملئه فعجلوا بطاعته بعد أن كانوا متهيئين لاتباع موسى لما رأوا الآيات. فالخفة مستعارة **للانتقال** من حالة التأمل في خلع طاعة فرعون والتثاقل في اتباعه إلى التعجيل بالامتثال له كما يخف الشيء بعد التثاقل.

والمعنى يرجع إلى أنه استخف عقولهم فأسرعوا إلى التصديق بما قاله بعد أن صدقوا موسى في نفوسهم لما رأوا آياته نزولا ورفعا. والمراد ب ﴿قومه﴾ هنا بعض القوم، وهم الذين حضروا مجلس دعوة موسى هؤلاء هم الملأ الذين كانوا في صحبة فرعون.

والسين والتاء في ﴿استخف﴾ للمبالغة في أخف مثل قوله تعالى ﴿إنما استزلهم الشيطان﴾ [آل عمران: من الآية١٥٥]وقولهم: هذا فعل يستفز غضب الحليم.

وجملة ﴿إنهم كانوا قوما فاسقين﴾ في موضع العلة لجملة ﴿فأطاعوه﴾ كما هو شأن "إن" إذا جاءت في غير مقام التأكيد فإن كونهم قد كانوا فاسقين أمر بين ضرورة أن موسى جاءهم فدعاهم إلى ترك ما كانوا عليه من عبادة الأصنام فلا يقتضي في المقام تأكيد كونهم فاسقين، أي كافرين. والمعنى: أنهم إنما خفوا لطاعة رأس الكفر لقرب عهدهم بالكفر لأنهم كانوا يؤلهون فرعون فلما حصل لهم تردد في شأنه ببعثة موسى عليه السلام لم يلبثوا أن رجعوا إلى طاعة فرعون بأدنى سبب.". (١)

٤٣٢-"﴿جدلا﴾ على المفعول لأجله، أي ما ضربوه لشيء إلا للجدل، ويجوز أن ينصب على الحال بتأويله بمجادلين أي ما ضربوه في حال من أحوالهم إلا في حال أنهم مجادلون لا مؤمنون بذلك.

وقوله ﴿بل هم قوم خصمون﴾ إضراب **انتقالي** إلى وصفهم بحب الخصام وإظهارهم من الحجج ما لا يعتقدونه تمويها على عامتهم.

والخصم بكسر الصاد: شديد التمسك بالخصومة واللجاج مع ظهور الحق عنده، فهو يظهر أن ذلك ليس بحق.

وقرأ الجمهور ﴿أآلهتنا﴾ بتسهيل الهمزة الثانية. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي بتخفيفها.

[٥٩] ﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل﴾

لما ذكر ما يشير إلى قصة جدال ابن الزبعرى في قوله تعالى ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ [الانبياء: ٩٨]، وكان سبب جداله هو أن عيسى قد عبد من دون الله لم يترك الكلام ينقضي دون أن يردف بتقرير عبودية عيسى لهذه المناسبة، إظهارا لخطل رأي الذين ادعوا إلهيته وعبدوه وهم النصارى حرصا على الاستدلال للحق.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٢٧١

وقد قصر عيسى على العبودية على طريقة قصر القلب للرد على الذين زعموه إلها، أي ما هو إلا عبد لا إله لأن الإلهية تنافي العبودية. ثم كان قوله ﴿أنعمنا عليه﴾ إشارة إلى أنه قد فضل بنعمة الرسالة، أي فليست له خصوصية مزية على بقية الرسل، وليس تكوينه بدون أب إلا إرهاصا.

وأما قوله ﴿وجعلناه مثلا لبني إسرائيل﴾ فهو إبطال لشبهة الذين ألهوه بتوهمهم أن كونه خلق بكلمة من الله يفيد أنه جزء من الله فهو حقيق بالإلهية، أي كان خلقه في بطن أمه دون أن يقربها ذكر ليكون عبرة عجيبة في بني إسرائيل لأنهم كانوا قد ضعف إيمانهم بالغيب وبعد عهدهم بإرسال الرسل فبعث الله عيسى مجددا للإيمان بينهم، ومبرهنا بمعجزاته على عظم قدرة الله، ومعيدا لتشريف الله بني إسرائيل إذ جعل فيهم أنبياء ليكون ذلك سببا لقوة الإيمان فيهم، ومظهرا لفضيلة أهل الفضل الذين آمنوا به ولعناد الذين منعهم الدفع عن حرمتهم من الاعتراف بمعجزاته فناصبوه العداء وسعوا للتنكيل به وقتله فعصمه الله منهم ورفعه من بينهم فاهتدى به أقوام وافتتن به آخرون.

فالمثل هنا بمعنى". (١)

٤٣٣-"وضمير ﴿جئناكم﴾ للملائكة، والحق: الوحي الذي نزل به جبريل فنسب مالك المجيء بالحق إلى جمع الملائكة على طريقة اعتزاز الفريق والقبيلة بمزايا بعضها، وهي طريقة معروفة في كلام العرب كقول الحارث بن حلزة:

وفككنا غل امرئ القيس عنه ... بعد ما طال حبسه والعناء١

وإنما نسبت كراهة الحق إلى أكثرهم دون جميعهم لأن المشركين فريقان أحدهما سادة كبراء لملة الكفر وهم الذين يصدون الناس عن الإيمان بالإرهاب والترغيب مثل أبي جهل حين صد أبا طالب عند احتضاره عن قول لا إله إلا الله وقال أترغب عن ملة عبد المطلب ، وثانيهما دهماء وعامة وهم تبع لأئمة الكفر. وقد أشارت إلى ذلك آيات كثيرة منها قوله في سورة البقرة ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا﴾ الآيات فالفريق الأول هم المراد. من قوله ﴿ولكن أكثركم للحق كارهون﴾ وأولئك إنما كرهوا الحق لأنه يرمي إلى زوال سلطانهم وتعطيل منافعهم.

وتقديم ﴿للحق﴾ على ﴿كارهون﴾ للاهتمام بالحق تنويها به، وفيه إقامة الفاصلة أيضا.

[٧٩] ﴿أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون﴾

﴿أم﴾ منقطعة للإضراب الانتقالي من حديث إلى حديث مع اتحاد الغرض، انتقل من حديث ما أعد لهم من العذاب يوم القيامة إلى ما أعد لهم من الخزي في الدنيا.

الجملة عطف على جملة ﴿هل ينظرون إلا الساعة﴾ [الزخرف: ٦٦] إلخ.

والكلام بعد ﴿أم﴾ استفهام حذفت منه أداة استفهام وهو استفهام تقريري وتهديد، أي أأبرموا أمرا.

وضمير ﴿أبرموا﴾ مراد به المشركون الذين ناووا النبي صلى الله عليه وسلم. وضمير "إنا" ضمير الجلالة.

والفاء في قوله ﴿فإنا مبرمون﴾ للتفريع على ما اقتضاه الاستفهام من تقدير حصول المستفهم عنه فيؤول الكلام إلى معنى

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٧/٢٥

الشرط، أي أن أبرموا أمرا من الكيد فإن الله مبرم لهم أمرا من نقض الكيد وإلحاق الأذى بهم، ونظيره وفي معناه قوله ﴿أم يريدون كيدا

–

١ يريد امرأ القيس بن المنذر أخا عمرو بن هند وكان: أسره ملك من غسان فأغار عمرو بن هند أخوه في جيش من بكر بن وائل قبيلة الشاعر وقتلوا الملك وأنقذوا امرأ القيس.". (١)

٤٣٤–"ويجوز أن يكون وصفا ل ﴿رجز﴾ فيكون مجرورا كما قرأه ابن كثير وحفص عن عاصم.

[١٢] ﴿الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ استئناف ابتدائي **للانتقال** من التذكير بما خلق الله من العوالم وتصاريف أحوالها من حيث إنها دلالات على الوحدانية، إلى التذكير بما سخر الله للناس من المخلوقات وتصاريفها من حيث كانت منافع الناس تقتضي أن يشكروا مقدرها فجحدوا بها إذ توجهوا بالعبادة إلى غير المنعم عليهم، ولذلك علق بفعلي ﴿سخر﴾ في الموضعين مجرور بلام العلة بقوله ﴿لكم﴾ ؛ على أن هذه التصاريف آيات أيضا مثل اختلاف الليل والنهار، وما انزل الله من السماء من ماء، وتصريف الرياح، ولكن لوحظ هنا ما فيها من النعم كما لوحظ هنالك ما فيها من الدلالة، والفطن يستخلص من المقامين كلا الأمرين على ما يشبه الاحتباك. ومناسبة هذا **الانتقال** واضحة.

واسم الجلالة مسند إليه والموصول مسند، وتعريف الجزأين مفيد الحصر وهو قصر قلب بتنزيل المشركين منزلة من يحسب أن تسخير البحر وتسخير ما في السماوات والأرض إنعام من شركائهم كقوله تعالى ﴿هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء﴾ [الروم: ٤٠] فكان هذا القصر إبطالا لهذا الزعم الذي اقتضاه هذا التنزيل.

وقوله ﴿لتجري الفلك فيه﴾ بدل اشتمال من ﴿لكم﴾ لأن في قوله ﴿لكم﴾ إجمالا أريد تفصيله.

فتعريف ﴿الفلك﴾ تعريف الجنس، وليس جري الفلك في البحر بنعمة على الناس إلا باعتبار أنهما يجرونها للسفر في البحر فلا حاجة إلى جعل الألف واللام عوضا عن المضاف إليه من باب ﴿فإن الجنة هي المأوى﴾ [النازعات:٤١].

وعطف عليه ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ باعتبار ما فيه من عموم الاشتمال، فحصل من مجموع ذلك أن تسخير البحر لجري الفلك فيه للسفر لقضاء مختلف الحاجات حتى التنزه وزيارة الأهل.

وعطف ﴿ولعلكم تشكرون﴾ على قوله ﴿لتجري الفلك فيه﴾ لا باعتبار ما اشتمل عليه إجمالا، بل باعتبار لفظه في التعليق بفعله. وهذا مناط سوق هذا الكلام، أي لعلكم تشكرون فكفرتم، وتقدم نظير مفردات هذه الآية غير مرة ما أغنى عن أعادته.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩٤/٢٥

(٢) التحرير والتنوير ٣٥٦/٢٥

٤٣٥-"[٢١] ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾ [الجاثية:٢١]

انتقال من وصف تكذيبهم بالآيات واستهزائهم بها ثم من أمر المؤمنين بالصفح عنهم وإيكال جزاء صنائعهم إلى الله ثم من التثبيت على ملازمة الشريعة الإسلامية إلى وصف صنف آخر من ضلالهم واستهزائهم بالوعد والوعيد وإحالتهم الحياة بعد الموت والجزاء على الأعمال وتخييلهم للناس أنهم يصيرون في الآخرة، على الحال التي كانوا عليها في الدنيا، عظيمهم في الدنيا عظيمهم في الاخرة، وضعيفهم في الدنيا ضعيفهم في الآخرة، وهذا **الانتقال** رجوع إلى بيان قوله ﴿من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون﴾ [الجاثية:١٥]

فحرف ﴿أم﴾ للإضراب **الانتقالي**، والاستفهام الذي يلزم تقديره بعد ﴿أم﴾ استفهام إنكاري، والتقدير: لا يحسب الذين اجترحوا السيئات أنهم كالذين آمنوا لا في الحياة ولا في الممات.

و ﴿الذين اجترحوا السيئات﴾ في نقل عن ابن عباس: أنهم المشركون كما يؤذن به **الانتقال** من الغرض السابق إلى هذا الغرض وإنما عبر عنهم بهذا العنوان لما في الصلة من تعليل إنكار المشابهة والمساواة بينهم وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند الله في عالم الخلد ولأن اكتساب السيئات من شعار أهل الشرك إذ ليس لهم دين وازع يزعهم عن السيئات ولا هم مؤمنون بالبعث والجزاء، فيكون إيمانهم به مرغبا في الجزاء، ولذلك كثر في القرآن الكناية عن المشركين بالتلبس بالسيئات كقوله ﴿ويل للمطففين﴾ إلى قوله ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم﴾ [المطففين: ١-٥] وكقوله ﴿ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين﴾ [المدثر: ٤٢-٤٦] وقوله ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين﴾ [الماعون: ١-٣] ونظيره ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون﴾ [العنكبوت:٤]، فإن ذلك حال الكفار، وأما المؤمن العاصي فلا تبلغ به حاله أن يحسب أنه مفلت من قدرة الله. قيل: نزلت في قوم من المشركين. قال البغوي: نزلت في نفر من مشركي مكة قالوا للمؤمنين: لئن كان ما تقولون حقا لنفضلن عليكم في الآخرة كما فضلنا عليكم في الدنيا. وعن الكلبي: أن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة قالوا لعلي وحمزة وبعض المسلمين: والله ما أنتم على شيء ولئن كان ما تقولون حقا أي إن كان البعث حقا لحالنا أفضل من حالكم". (١)

٤٣٦-"يخلق شيئا وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون﴾ [في سورة الأعراف.١٩١,١٩٢]

و ﴿أم﴾ حرف إضراب **انتقالي**. والاستفهام المقدر بعد ﴿أم﴾ المنقطعة استفهام إنكاري أي ليس لهم شرك مع الله في السماوات. وإنما أوثر انتفاء الشركة بالنسبة للشركة في السماوات دون انتفاء الخلق كما أوثر انتفاء الخلق بالنسبة إلى الأرض لأن مخلوقات الأرض مشاهدة للناس ظاهر تطورها وحدوثها وأن ليس لما يدعونهم دون الله أدنى عمل في إيجادها، وأما الموجودات السماوية فهي محجوبة عن العيون لا عهد للناس بظهور وجودها ولا تطورها فلا يحسن الاستدلال بعدم تأثير

---

(١) التحرير والتنوير ٣٦٩/٢٥

الأصنام في إيجاد شيء منها ولكن لما لم يدع المشركون تصرفا للأصنام إلا في أحوال الناس في الأرض من جلب نفع أو دفع ضر اقتصر في نفي تصرفهم في السماوات على الاستدلال بنفي أن يكون للأصنام شركة في أمور السماوات لأن انتفاء ذلك لا ينازعون فيه. وتقدم نظير هذه الآية في سورة فاطر [٤٠] ﴿قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله﴾ الآية فانظر ذلك.

ثم انتقل من الاستدلال بالمشاهدة وبالإقرار إلى الاستدلال بالأخبار الصادقة بقوله ﴿ائتوني بكتاب من قبل هذا﴾ الخ.

فجملة ﴿ائتوني بكتاب﴾ في موقع مفعول ثان لفعل ﴿أرأيتم﴾ ، كرر كما يتعدد خبر المبتدأ. ومناط الاستدلال أنه استدلال على إبطال دعوى المدعي بانعدام الحجة على دعواه ويسمى الإفحام كما تقدم. والمعنى: نفي أن يكون لهم حجة على إلهية الأصنام لا بتأثيرها في المخلوقات، ولا بأقوال الكتب، فهذا قريب من قوله في سورة فاطر [٤٠] ﴿أم آتيناهم كتابا فهم على بينت منه﴾

والمراد ب"كتاب" أي كتاب من الكتب المقروءة. وهذا قاطع لهم فإنهم لا يستطيعون ادعاء أن لأصنامهم في الكتب السابقة ذكرا غير الإبطال والتحذير من عبادتها، فلا يوجد في الكتب إلا أحد أمرين: إما إبطال عبادة الأصنام كما في الكتب السماوية، وإما عدم ذكرها البتة ويدل على أن المراد ذلك قوله بعده ﴿أو أثارة من علم﴾

والإتيان مستعار للإحضار ولو كان في مجلسهم على ما تقدم في قوله تعالى ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ في سورة البقرة. [٢٣] والإشارة في قوله ﴿من قبل هذا﴾ إلى القرآن لأنه حاضر في أذهان أصحاب المحاجة فإنه يقرأ عليهم معاودة. ووجه تخصيص الكتاب بوصف أن يكون من قبل القرآن ليسد عليهم باب المعارضة بأن يأتوا بكتاب يصنع لهم، كما قالوا ﴿لو نشاء لقلنا مثل". (١)

٤٣٧-"علمت وهم يثبتون يوم القيامة.

وضميرا ﴿كانوا﴾ في الموضعين يجوز أن يعودا إلى ﴿ممن يدعو من دون الله﴾ فإن المشركين يعادون أصنامهم يوم القيامة إذ يجدونها من أسباب شقائهم. ويجوز أن يعودا إلى ﴿من لا يستجيب له﴾ فإن الأصنام يجوز أن تعطى حياة يومئذ فتنطق بالتبري من عبادها ومن عبادتهم إياها، قال تعالى ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ [فاطر: من الآية١٤] وقال ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا فقد كذبوكم بما تقولون﴾ [الفرقان: ١٧-١٩]

ويجوز أن يكون قوله ﴿كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ جاريا على التشبيه البليغ لمشابهتها للأعداء والمنكرين للعبادة في دلالتها على ما يفضي الى شقائهم وكذبهم كقوله تعالى ﴿وما زادوهم غير تتبيب﴾ [هود: من الآية١٠١].

وعطف جملة ﴿وإذا حشر الناس﴾ الخ على ما قبلها لمناسبة ذكر يوم القيامة. ومن بديع تفنن القرآن توزيع معاد الضمائر

---

(١) التحرير والتنوير ٩/٢٦

في هذه الآية مع تماثلها في اللفظ وهذا يتدرج في محسن الجمع مع التفريق وأدق.

[٧] ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين﴾

عطف على جملة ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له﴾ [الاحقاف:٥] وقد علمت أن هذا مسوق مساق العد لوجود فرط ضلالهم فإن آيات القرآن تتلى عليهم صباح مساء تبين لهم دلائل خلو الأصنام عن مقومات الإلهية فلا يتدبرونها وتحدوا بهم إلى الحق فيغالطون أنفسهم بأن ما فهموه منها تأثر سحري، وأنها سحر، ولم يكتفوا بذلك بل زادوا بهتانا فزعموا أنه مبين، أي واضح كونه سحرا.

وهذا **انتقال** إلى إبطال ضلال آخر من ضلالهم وهو ضلال التكذيب بالقرآن فهو مرتبط بقوله ﴿حم تنزيل الكتاب من الله﴾ [الأحقاف: ١,٢] الخ.

وقوله ﴿الذين كفروا﴾ إظهار في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بالكفر وبأنه سبب قولهم ذلك.". (١)

٤٣٨-"واللام في قوله ﴿للحق﴾ لام العلة وليست لام تعدية فعل القول إلى المقول له أي قال بعض الكافرين لبعض في شأن الذين آمنوا ومن أجل إيمانهم.

والحق: هو الآيات، فعدل عن ضمير الآيات إلى إظهار لفظ الحق للتنبيه على أنها حق وأن رميها بالسحر بهتان عظيم.

﴿ولما جاءهم﴾ توقيت لمقالتهم، أي يقولون ذلك بفور سماع الآيات وكلما جاءتهم، أي دون تدبر ولا إجالة فكر.

[٨] ﴿أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم﴾ [الاحقاف:٨]

إضراب **انتقال** إلى نوع آخر من ضلال أقوالهم.

وسلك في **الانتقال** مسلك الإضراب دون أن يكون بالعطف بالواو لأن الإضراب يفيد أن الغرض الذي سينتقل إليه له مزيد اتصال بما قبله، وأن المعنى: دع قولهم ﴿هذا سحر مبين﴾ [الاحقاف: من الآية٧] واستمع لما هو أعجب وهو قولهم ﴿افتراه﴾ ، أي افترى نسبته إلى الله ولم يرد به السحر.

والاستفهام الذي يقدر بعد ﴿أم﴾ للإنكار على مقالتهم والنفي الذي يقتضيه الاستفهام الإنكاري يتسلط على سبب الإنكار، أي كون القرآن مفترى وليس متسلطا على نسبة القول إليهم لأنه صادر منهم وإنما المنفي الافتراء المزعوم.

والضمير المنصوب في ﴿افتراه﴾ عائد إلى الحق في قوله ﴿ قال الذين كفروا للحق﴾ [الاحقاف: من الآية٧]، أو الى القرآن لعلمه من المقام، أي افترى القرآن فزعم أنه وحي من عند الله.

وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بجواب مقالتهم بما يقلعها من جذرها، فكان قوله تعالى ﴿قل﴾ جملة جارية مجرى جواب المقاولة لوقوعها في مقابلة حكاية قولهم. وقد تقدم ذلك في قوله ﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ في أوائل سورة البقرة. [٣٠]

---

(١) التحرير والتنوير ١١/٢٦

وجعل الافتراء مفروضا بحرف ﴿إن﴾ الذي شأنه أن يكون شرطه نادر الوقوع إشارة إلى أنه مفروض في مقام مشتمل على دلائل تقلع الشرط من أصله.

وانتصب ﴿شيئا﴾ على المفعولية لفعل ﴿تملكون﴾ أي شيئا يملك، أي يستطاع، والمراد: شيء من الدفع فلا تقدرون على أن تردوا عني شيئا يرد علي من الله. وتقدم معنى "لا أملك شيئا" عند قوله تعالى ﴿قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك". (١)

٤٣٩-"عساكر : لما ذكر الله التوحيد والاستقامة عطف الوصية بالوالدين كما هو مقرون في غير ما أية من القرآن.

وكلا هذين القولين غير مقنع في وجه الاتصال.

ووجه الاتصال عندي أن هذا **الانتقال** إلى قول آخر من أقوال المشركين وهو كلامهم في إنكار البعث وجدالهم فيه فإن ذلك من أصول كفرهم بمحل القصد من هذه الآيات قوله ﴿والذي قال لوالديه أف لكما﴾ إلى قوله ﴿خاسرين﴾ . [الأحقاف: ١٧,١٨]

وصيغ هذا في أسلوب قصة جدال بين والدين مؤمنين وولد كافر، وقصة جدال بين ولد مؤمن ووالدين كافرين لأن لذلك الأسلوب وقعا في أنفس السامعين مع ما روي إن ذلك إشارة إلى جدال جرى بين عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق قبل إسلامه وبين والديه كما سيأتي. ولذلك تعين أن يكون ما قبله توطئة وتمهيدا لذكر هذا الجدال.

وقد روى الواحدي عن ابن عباس أن قوله ﴿ووصينا الأنسان بوالديه إحسانا﴾ إلى قوله ﴿يوعدون﴾ [الأحقاف: ١٥,١٦] نزل في أبي بكر الصديق. وقال ابن عطية وغير واحد: نزلت في أبي بكر وأبيه أبي قحافة وأمه أم الخير أسلم أبواه جميعا.

وقد تكررت الوصاية ببر الوالدين في القرآن وحرض عليها النبي صلى الله عليه وسلم في مواطن عديدة فكان البر بالوالدين أجلى مظهرا في هذه الآمة منه في غيرها وكان من بركات أهلها بحيث لم يبلغ بر الوالدين مبلغا في أمة مبلغه في المسلمين.

وتقدم ﴿ووصينا الأنسان بوالديه إحسانا﴾ في سورة العنكبوت.[٨]

والمراد بالإنسان الجنس، أي وصينا الناس وهو مراد به خصوص الناس الذين جاءتهم الرسل بوصايا الله والذين آمنوا وعملوا الصالحات وذلك هو المناسب لقوله في آخرها ﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا﴾ [الاحقاف: من الآية١٦] الآية.

وكذلك هو فيما ورد من الآيات في هذا الغرض كما في سورة العنكبوت وفي سورة لقمان بصيغة واحدة.

والحسن: مصدر حسن، أي وصيناه بحسن المعاملة. وقرأه الجمهور كذلك. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف ﴿إحسانا﴾ . والنصب على القراءتين إما بنزع الخافض وهو الباء وإما بتضمين ﴿وصينا﴾ معنى: ألزمنا.

والكره: بفتح الكاف وبضمها مصدر أكره، إذا امتعض من شيء، أي كان حمله مكروها له، أي حالة حمله وولادته لذلك.

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/٢٦

وقرأ الجمهور ﴿كرها﴾ في الموضعين بفتح". (١)

٤٤٠-"أحسن أعمالهم ويتجاوز عن سيئاتهم، وذكر هذا للتنويه بهم بأنهم من الفريق المشرفين كما يقال: أكرمه في أهل العلم.

وانتصب ﴿وعد الصدق﴾ على الحال من التقبل والتجاوز المفهوم من معاني ﴿يتقبل﴾ و﴿يتجاوز﴾، فجاء الحال من المصدر المفهوم من الفعل كما أعيد عليه الضمير في قوله تعالى ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ [المائدة: من الآية٨]، أي العدل أقرب للتقوى.

والوعد: مصدر بمعنى المفعول، أي ذلك موعدهم الذي كانوا يوعدونه.

وإضافة ﴿وعد﴾ إلى ﴿الصدق﴾ إضافة على معنى "من"، أي وعد من الصدق إذ لا يتخلف.

و ﴿الذي كانوا يوعدون﴾ صفة وعد الصدق، أي ذلك هو الذي كانوا يوعدونه في الدنيا بالقرآن في الآيات الحاثة على بر الوالدين وعلى الشكر وعلى إصلاح الذرية.

[١٧] ﴿والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين﴾

هذا الفريق المقصود من هذه الآيات المبدوءة بقوله تعالى ﴿ووصينا الأنسان﴾ [الاحقاف: من الآية١٥] وهذا الفريق الذي كفر بربه وأساء إلى والديه، وقد علم أن والديه كانا مؤمنين من قوله ﴿أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي﴾ الآية.

فجملة ﴿والذي قال لوالديه﴾ الأحسن أن تكون معطوفة على جملة ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات﴾ [الاحقاف: من الآية٧] الخ **انتقال** إلى مقالة أخرى من أصول شركهم وهي مقالة إنكار البعث.

وأما قوله ﴿الذي قال لوالديه﴾ فالوجه جعله مفعولا لفعل مقدر تقديره: واذكر الذي قال لوالديه، لأن هذا الوجه يلائم كل الوجوه.

ويجوز جعله مبتدأ وجملة ﴿أولئك الذين حق عليهم القول في أمم﴾ خبرا عنه على أحد الوجهين الاثنين في مرجع اسم الإشارة من قوله ﴿أولئك الذين حق عليهم القول﴾

و"الذي" هنا اسم صادق على الفريق المتصف بصلته. وهذا وصف لفئة من أبناء من المشركين أسلم آباؤهم ودعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم وأغلظوا لهم القول فضموا إلى الكفر بشنيع عقوق الوالدين وهو قبيح لمنافاته الفطرة التي فطر الله الناس عليها لأن حال الوالدين مع أبنائهما يقتضي معاملتها بالحسنى، ويدل لعدم اختصاص قوله في آخرها ﴿أولئك الذين

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٥

حق عليهم القول﴾ إلى آخره.". (١)

٤٤١-"أعمالهم.

[٢٠] ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾

انتقال إلى وعيد الكافرين على الكفر بحذافره، وذلك زائد على الوعيد المتقدم المتعلق بإنكارهم البعث مع عقوقهم الوالدين المسلمين.

فالجملة معطوفة على جملة ﴿والذي قال لوالديه أف لكما﴾ [الاحقاف: من الآية١٧] الآيات.

والكلام مقول قول محذوف تقديره: ويقال للذين كفروا يوم يعرضون على النار ﴿أذهبتم طيباتكم﴾ ، ومناسبة ذكره هنا أنه تقرير لمعنى ﴿لا يظلمون﴾ [الاحقاف: من الآية١٩] أي لا يظلمون في جزاء الآخرة مع أننا أنعمنا عليهم في الدنيا ولو شئنا لعجلنا لهم الجزاء على كفرهم من الحياة الدنيا، ولكن الله لم يحرمهم من النعمة في الحياة الدنيا فإن نعمة الكافر في الدنيا نعمة عند المحققين من المتكلمين. وعن الأشعري: أن الكافر غير منعم عليه في الدنيا، وتؤول بأنه خلاف لفظي، أي باعتبار أن عاقبتها سيئة. ونعمة الله في الدنيا معاملة بفضل الربوبية وجزاؤهم على أعمالهم في الآخرة معاملة بعدل الإلهية والحكمة.

وانتصب ﴿ويوم يعرض﴾ على الظرفية لفعل القول المحذوف.

والعرض تقدم في قوله ﴿أولئك يعرضون على ربهم﴾ في سورة هود[١٨] وقوله ﴿النار يعرضون عليها﴾ في سورة غافر وفي قوله ﴿وتراهم يعرضون عليها﴾ في سورة الشورى.[٤٥]

وإذهاب الطيبات مستعار لمفارقتها كما أن إذهاب المرء إبعاد له عن مكانه له. والذهاب: المبارحة.

والمعنى: استوفيتم ما لكم من الطيبات بما حصل لكم من نعيم الدنيا ومتعتها فلم تبق لكم طيبات بعدها لأنكم لم تعملوا لنوال طيبات الآخرة، وهو إعذار لهم وتقرير لكونهم لا يظلمون فرتب عليه قوله ﴿فاليوم تجزون عذاب الهون﴾

فالفاء فصيحة. والتقدير: إن كان كذلك فاليوم لم يبق لكم إلا جزاء سيء أعمالكم، وليست الفاء للتفريع ولا للتسبب.

وليس في الآية ما يقتضي منع المسلم من تناول الطيبات في الدنيا إذا توخى حلالها وعمل بواجبه الديني فيما عدا ذلك وإن كان الزهد في الاعتناء بذلك أرفع درجة وهي درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاصة من أصحابه.

وروى الحسن عن الأحنف بن قيس أنه سمع عمر بن الخطاب يقول: لأنا أعلم". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٣١/٢٦

(٢) التحرير والتنوير ٣٦/٢٦

٤٤٢-"ينصره على الله ويحميه منه، فهو نفي أن يكون له سبيل إلى النجاة بالاستعصام بمكان لا تبلغ إليه قدرة الله، ولا بالاحتماء بمن يستطيع حمايته من عقاب الله. وذكر هذا تعريض للمشركين.

واسم الإشارة في ﴿أولئك في ضلال مبين﴾ للتنبيه على أن من هذه حالهم جديرون بما يرد بعد اسم الإشارة من الحكم لتسبب ما قبل اسم الإشارة فيه كما في قوله ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ [لقمان: ٥]

والظرفية المستفادة من ﴿في ضلال مبين﴾ مجازية لإفادة قوة تلبسهم بالضلال حتى كأنهم في وعاء هو الضلال. والمبين: الواضح، لأنه ضلال قامت الحجج والأدلة على أنه باطل.

[٣٣] ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾

عود إلى الاستدلال على إمكان البعث فهو متصل بقوله ﴿والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي﴾ إلى قوله ﴿أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والأنس إنهم كانوا خاسرين﴾ [الاحقاف:١٨]فهو **انتقال** من الموعظة بمصير أمثالهم من الأمم إلى الاستدلال على إبطال ضلالهم في شركهم وهو الضلال الذي جرأهم على إحالة البعث، بعد أن أطيل في إبطال تعدد الآلهة وفي إبطال تكذيبهم بالقرآن وتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذا عود على بدء فقد ابتدئت السورة بالاحتجاج على البعث بقوله تعالى ﴿ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ [الاحقاف: ٣] الآية ويتصل بقوله ﴿والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج﴾ إلى قوله ﴿أساطير الأولين﴾ [الاحقاف: ١٧].

والواو عاطفة جملة الاستفهام، وهو استفهام إنكاري، والرؤية علمية. واختير هذا الفعل من بين أفعال العلم هنا لأن هذا العلم عليه حجة بينة مشاهدة، وهي دلالة خلق السماوات والأرض من عدم، وذلك من شأنه أن يفرض بالعقل إلى أن الله كامل القدرة على ما هو دون ذلك من إحياء الأموات.

ووقعت ﴿أن﴾ مع اسمها وخبرها سادة مسد مفعولي ﴿يروا﴾ . ودخلت الباء الزائدة على خبر ﴿أن﴾ وهو مثبت وموكد، وشأن الباء الزائدة أن تدخل على الخبر المنفي، لأن ﴿أن﴾ وقعت في خبر المنفي وهو﴿ألم يروا﴾.". (١)

٤٤٣-"ورجع هو وأتباعه وكانوا ثلث الجيش وذلك سنة ثلاث من الهجرة، أي بعد نزول هذه الآية بنحو ثلاث سنين.

وقوله ﴿فلو صدقوا الله﴾ جواب كما تقدم، وفي الكلام إيجاز لأن قوله ﴿لكان خيرا﴾ يؤذن بأنه إذا عزم الأمر حصل لهم ما لا خير فيه. ولفظ ﴿خيرا﴾ ضد الشر بوزن فعل، وليس هو هنا بوزن أفعل.

[٢٢] ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٥٣

مقتضى تناسق النظم أن هذا مفرع على قوله ﴿فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم﴾ [محمد: من الآية٢١] لأنه يفهم منه أنه إذا عزم الأمر تولوا عن القتال وانكشف نفاقهم فتكون إتماما لما في الآية السابقة من الإنباء بما سيكون من المنافقين يوم أحد. وقد قال عبد الله بن أبي: علام نقتل أنفسنا هاهنا؟ وربما قال في كلامه: وكيف نقاتل قريشا وهم من قومنا، وكان لا يرى على أهل يثرب أن يقاتلوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ويرى الاقتصار على أنهم آووه. والخطاب موجه إلى الذين في قلوبهم مرض على الالتفات.

والاستفهام مستعمل في التكذيب لما سيعتذرون به لانخزالهم ولذلك جيء فيه ب ﴿هل﴾ الدالة على التحقيق لأنها في الاستفهام بمنزلة "قد" في الخبر، فالمعنى: أفيتحقق إن توليتم أنكم تفسدون في الأرض وتقطعون أرحامكم وأنتم تزعمون أنكم توليتم إبقاء على أنفسكم وعلى ذوي قرابة أنسابكم على نحو قوله تعالى ﴿قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا﴾ [البقرة: من الآية٢٤٦] وهذا توبيخ كقوله تعالى ﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم﴾ [البقرة: من الآية٨٥] والمعنى: أنكم تقعون فيما زعمتم التفادي منه وذلك بتأييد الكفر وإحداث العداوة بينكم وبين قومكم من الأنصار. فالتولي هنا هو الرجوع عن الوجهة التي خرجوا لها كما في قوله تعالى ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم﴾ [البقرة: من الآية٢٤٦] وقوله ﴿أفرأيت الذي تولى﴾ [النجم:٣٣] وقوله ﴿فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى﴾ [طه:٦٠]. وبمثله فسر ابن جريج وقتادة على تفاوت بين التفاسير. ومن المفسرين من حمل التولي على أنه مطاوع ولاه إذا أعطاه ولاية، أي ولاية الحكم والإمارة على الناس وبه فسر أبو العالية والكلبي وكعب الأحبار. وهذا بعيد من اللفظ ومن النظم وفيه تفكيك لاتصال نظم الكلام **وانتقال** بدون مناسبة، وتجاوز بعضهم ذلك فأخذ يدعي أنها نزلت في الحرورية ومنهم من جعلها فيما يحدث بين بني أمية وبني". (١)

٤٤٤-"﴿أم﴾ للإضراب **الانتقالي**. والمعنى: بل على قلوبهم أقفال وهذا الذي سلكه جمهور المفسرين وهو الجاري على كلام سيبويه في قوله تعالى ﴿أفلا تبصرون أم أنا خير من هذا الذي هو مهين﴾ في سورة الزخرف[٥١,٥٢] ، خلافا لما يوهمه أو توهمه ابن هشام في مغني اللبيب.

والتدبر: التفهم في دبر الأمر، أي ما يخفى منه وهو مشتق من دبر الشيء، أي خلفه.

والأقفال: جمع قفل، وهو استعارة مكنية إذ شبهت القلوب، أي العقول في عدم إدراكها المعاني بالأبواب أو الصناديق المغلقة، والأقفال تخييل كالأظفار للمنية في قول أبي ذؤيب الهذلي:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع

وتنكير ﴿قلوب﴾ للتنويع أو التبعيض، أي على نوع من القلوب أقفال.

والمعنى: بل بعض القلوب عليها أقفال. وهذا من التعريض بأن قلوبهم من هذا النوع لأن إثبات هذا النوع من القلوب في أثناء التعجيب من عدم تدبر هؤلاء القرآن يدل بدلالة الالتزام أن قلوب هؤلاء من هذا النوع من القلوب ذوات الأقفال.

---

(١) التحرير والتنوير ٩٤/٢٦

فكون قلوبهم من هذا النوع مستفاد من الإضراب **الانتقالي** في حكاية أحوالهم.

ويدنو من هذا قول لبيد:

تراك أمكنة إذا لم أرضها ... أو يعتلق بعض النفوس حمامها

يريد نفسه لأنه وقع بعد قوله: تراك أمكنة البيت، أي أنا تراك أمكنة.

وإضافة "أقفال" إلى ضمير ﴿قلوب﴾ نظم بديع أشار إلى اختصاص الأقفال بتلك القلوب، أي ملازمتها لها فدل على أنها قاسية.

[٢٥] ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم﴾ لم يزل الكلام على المنافقين فالذين ارتدوا على أدبارهم منافقون، فيجوز أن يكون مرادا به قوم من أهل النفاق كانوا قد آمنوا حقا ثم رجعوا إلى الكفر لأنهم كانوا ضعفاء الإيمان قليلي الاطمئنان وهم الذين مثلهم الله في سورة البقرة بقوله ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم﴾ الآية.". (١)

٤٤٥-"وفرع على اتباعهم ما أسخط الله وكراهتهم رضوانه قال ﴿فأحبط أعمالهم﴾ فكان اتباعهم ما أسخط الله وكراهتهم رضوانه سببا في الأمرين: ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند الوفاة، وإحباط أعمالهم.

والإحباط: إبطال العمل، أي أبطل انتفاعهم بأعمالهم التي عملوها مع المؤمنين من قول كلمة التوحيد ومن الصلاة والزكاة وغير ذلك. وتقدم ما هو بمعناه في أول السورة.

[٢٩] ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم﴾

انتقال من التهديد والوعيد إلى الإنذار بأن الله مطلع رسوله صلى الله عليه وسلم على ما يضمره المنافقون من الكفر والمكر والكيد ليعلموا أن أسرارهم غير خافية فيوقنوا أنهم يكدون عقولهم في ترتيب المكائد بلا طائل وذلك خيبة لآمالهم.

و ﴿أم﴾ منقطعة في معنى "بل" للإضراب **الانتقالي**، والاستفهام المقدر بعد ﴿أم﴾ للإنكار.

وحرف "لن" لتأييد النفي، أي لا يحسبون انتفاء إظهار أضغانهم في المستقبل، كما انتفى ذلك فيما مضى، فلعل الله أن يفضح نفاقهم.

واستعير المرض إلى الكفر بجامع الإضرار بصاحبه، ولكون الكفر مقره العقل المعبر عنه بالقلب كان ذكر القلوب مع المرض ترشيحا للاستعارة لأن القلب مما يناسب المرض الخفي إذ هو عضو باطن فناسب المرض الخفي.

والإخراج أطلق على الإظهار والإبراز على وجه الاستعارة لأن الإخراج استلال شيء من مكمنه، فاستعير بخبر خفي.

والأضغان: جمع ضغن بكسر الضاد المعجمة وسكون الغين المعجمة وهو الحقد والعداوة.

والمعنى أنه يخرجها من قلوبهم وكان العرب يجعلون القلوب مقر الأضغان قال الشاعر، وهو من شواهد المفتاح للسكاكي ولا يعرف قائله:

---

(١) التحرير والتنوير ٩٦/٢٦

الضاربين بكل أبيض مخذم ... والطاعنين مجامع الأضغان

﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم﴾

﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم﴾". (١)

٤٤٦-"هذه الجملة بدل اشتمال من مضمون جملة ﴿وينصرك الله نصرا عزيزا﴾ وحصل منها **الانتقال** إلى ذكر حظ المسلمين من هذا الفتح فإن المؤمنين هم جنود الله الذين قد نصر النبي صلى الله عليه وسلم بهم كما قال تعالى ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾ [الأنفال: ٦٢] فكان في ذكر عناية الله بإصلاح نفوسهم وإذهاب خواطر الشيطان عنهم وإلهامهم إلى الحق في ثبات عزمهم، وقرارة إيمانهم تكوين لأسباب نصر النبي صلى الله عليه وسلم والفتح الموعود به ليندفعوا حين يستنفرهم إلى العدو بقلوب ثابتة، ألا ترى أن المؤمنين تبلبلت نفوسهم من صلح الحديبية إذ انصرفوا عقبه عن دخول مكة بعد أن جاؤوا للعمرة بعدد عديد حسبوه لا يغلب، وأنهم إن أرادهم العدو بسوء أو صدهم عن قصدهم قابلوه فانتصروا عليه وأنهم يدخلون مكة قسرا. وقد تكلموا في تسمية ما حل بهم يومئذ فتحا كما علمت مما تقدم فلما بين لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ما فيه من الخير اطمأنت نفوسهم بعد الاضطراب ورسخ يقينهم بعد خواطر الشك فلولا ذلك الاطمئنان والرسوخ لبقوا كاسفي البال شديدي البلبال، فذلك الاطمئنان هو الذي سماه الله بالسكينة، وسمي إحداثه في نفوسهم إنزالا للسكينة في قلوبهم فكان النصر مشتملا على أشياء من أهمها إنزال السكينة، وكان إنزال السكينة بالنسبة إلى هذا النصر نظير التأليف بين قلوب المؤمنين مع اختلاف قبائلهم وما كان بينهما من الأمن في الجاهلية بالنسبة للنصر الذي في قوله تعالى ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم﴾ [الأنفال: ٦٣,٦٢]

وإنزالها: إيقاعها في العقل والنفس وخلق أسبابها الجوهرية والعارضة، وأطلق على ذلك الإيقاع فعل الإنزال تشريفا لذلك الوجدان بأنه كالشيء الذي هو مكان مرتفع فوق الناس فألقي إلى قلوب الناس، وتلك رفعة تخييلية مراد بها شرف ما أثبتت له على طريقة التخييلية. ولما كان من عواقب تلك السكينة أنها كانت سببا لزوال ما يلقيه الشيطان في نفوسهم من التأويل لوعد الله إياهم بالنصر على غير ظاهره، وحمله على النصر المعنوي لاستبعادهم أن يكون ذلك فتحا، فلما أنزل الله عليهم السكينة اطمأنت نفوسهم، فزال ما خامرها وأيقنوا أنه وعد الله وأنه واقع فانقشع عنهم ما يوشك أن يشكك بعضهم فيلتحق بالمنافقين الظانين بالله ظن السوء فإن زيادة الأدلة تؤثر رسوخ المستدل عليه في العقل وقوة التصديق. وهذا اصطلاح شائع في القرآن وجعل ذلك الازدياد كالعلة لإنزال السكينة في قلوبهم لأن الله علم أن السكينة إذا حصلت في قلوبهم رسخ إيمانهم، فعومل المعلوم حصوله من الفعل معاملة العلة وأدخل عليه حرف التعليل وهو لام كي وجعلت قوة الإيمان بمنزلة إيمان آخر دخل على الإيمان الأسبق لأن الواحد من أفراد الجنس إذا انضم". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٠١/٢٦

(٢) التحرير والتنوير ١٢٦/٢٦

٤٤٧-"من إضافة الموصوف إلى الصفة.

والمراد: ظنهم بالله أنهم لم يعد الرسول صلى الله عليه وسلم بالفتح ولا أمره بالخروج إلى العمرة ولا يقدر للرسول صلى الله عليه وسلم النصر لقلة أتباعه وعزة أعدائه، فهذا ظن سوء بالرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا المناسب لقراءته بالفتح.

وأما ﴿دائرة السوء﴾ في قراءة الجمهور فهي الدائرة التي تسوء أولئك الظانين بقرينة قوله ﴿عليهم﴾، ولا التفات إلى كونها محمودة عند المؤمنين إذ ليس المقام لبيان ذلك والإضافة مثل إضافة ﴿ظن السوء﴾ ، وأما في قراءة ابن كثير وأبي عمرو فإضافة ﴿دائرة﴾ المضموم من إضافة الأسماء، أي الدائرة المختصة بالسوء والملازمة له لا من إضافة الموصوف. وليس في قراءتهما خصوصية زائدة على قراءة الجمهور ولكنها جمعت بين الاستعمالين ففتح السوء الأول متعين وضم الثاني جائز وليس براجح والاختلاف اختلاف في الرواية.

وجملة ﴿عليهم دائرة السوء﴾ دعاء أو وعيد، ولذلك جاءت بالاسمية لصلوحيتها لذلك بخلاف جملة ﴿وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم﴾ فإنها إخبار عما جنوه من سوء فعلهم فالتعبير بالماضي منه أظهر.

[٧] ﴿ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما﴾

هذا نظير ما تقدم آنفا إلا أن هذا أوثر بصفة عزيز دون عليم لأن المقصود من ذكر الجنود هنا الإنذار والوعيد بهزائم تحل بالمنافقين والمشركين فكما ذكر ﴿ولله جنود السماوات والأرض﴾ فيما تقدم للإشارة إلى أن نصر النبي صلى الله عليه وسلم يكون بجنود المؤمنين وغيرهما ذكر ما هنا للوعيد بالهزيمة فمناسبة صفة عزيز، أي لا يغلبه غالب.

[٩،٨] ﴿إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا﴾

لما أريد **الانتقال** من الوعد بالفتح والنصر وما اقتضاه ذلك مما اتصل به ذكره، إلى تبيين ما جرى في حادثة الحديبية وإبلاغ كل ذي حظ من تلك القضية نصيبه المستحق ثناء أو غيره صدر ذلك بذكر مراد الله من إرسال رسوله صلى الله عليه وسلم ليكون ذلك كالمقدمة للقصة وذكرت حكمة الله تعالى في إرساله ما له مزيد اختصاص بالواقعة المتحدث عنها، فذكرت". (١)

٤٤٨-"والسعير: النار المسعرة وهو من أسماء جهنم.

[١٤] ﴿ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما﴾ عطف على جملة ﴿فمن يملك لكم من الله شيئا﴾ فهو من أجزاء القول، وهذا **انتقال** من التخويف الذي أوهمه ﴿فمن يملك لكم من الله شيئا﴾ [الفتح: من الآية١١] إلى إطماعهم بالمغفرة التي سألوها، ولذلك قدم الضر على النفع في الآية الأولى فقيل ﴿إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا﴾ ليكون احتمال إرادة الضر بهم أسبق في نفوسهم.

وقدمت المغفرة هنا بقوله ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ ليتقرر معنى الإطماع في نفوسهم فيبتدروا إلى استدراك ما فاتهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/١٣٠

وهذا تمهيد لوعدهم الآتي في قوله ﴿قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد﴾ إلى قوله ﴿فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا﴾ [الفتح: ١٦].

وزاد رجاء المغفرة تأكيدا بقوله ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ أي الرحمة والمغفرة أقرب من العقاب، وللأمرين مواضع ومراتب في القرب والبعد، والنوايا والعوارض، وقيمة الحسنات والسيئات، قد أحاط الله بها وقدرها تقديرا.

ولفظ ﴿من يشاء﴾ في الموضعين إجمال للمشيئة وأسبابها وقد بينت غير مرة في تضاعيف القرآن والسنة ومن ذلك قوله ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: ٤٨]

[١٥] ﴿سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا﴾ [الفتح:١٥]

هذا استئناف ثان بعد قوله ﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا﴾ [الفتح: ١١] وهو أيضا إعلام للنبي صلى الله عليه وسلم بما سيقوله المخلفون عن الحديبية يتعلق بتخلفهم عن الحديبية وعذرهم الكاذب، وأنهم سيندمون على تخلفهم حين يرون اجتناء أهل الحديبية ثمرة غزوهم، ويتضمن تأكيد تكذيبهم في اعتذارهم عن التخلف بأنهم حين يعلمون أن هنالك مغانم من قتال غير شديد يحرصون على الخروج ولا تشغلهم أموالهم". (١)

٤٤٩-"و ﴿بل﴾ هنا للإضراب عن قول الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿لن تتبعونا﴾ وهو إضراب إبطال نشأ عن فورة الغضب المخلوط بالجهالة وسوء النظر، أي ليس بكم الحفاظ على أمر الله، بل بكم أن لا نقاسمكم في المغانم حسدا لنا على ما نصيب من المغانم.

والحسد: كراهية أن ينال غيرك خيرا معينا أو مطلقا سواء كان مع تمني **انتقاله** إليك أو بدون ذلك، فالحسد هنا أريد به الحرص على الانفراد بالمغانم وكراهية المشاركة فيها لئلا ينقص سهام الكارهين.

وتقدم الحسد عند قوله تعالى ﴿بغيا أن ينزل الله من فضله﴾ وعند قوله ﴿حسدا من عند أنفسهم﴾ [البقرة: ١٠٩] كلاهما في سورة البقرة.

وضمير الرفع مراد به أهل الحديبية، نسبوهم إلى الحسد لأنهم ظنوا أن الجواب بمنعهم لعدم رضى أهل الحديبية بمشاركتهم في المغانم. ولا يظن بهم أن يريدوا بذلك الضمير شمول النبي صلى الله عليه وسلم لأن المخلفين كانوا مؤمنين لا يتهمون النبي صلى الله عليه وسلم بالحسد ولذلك أبطل الله كلامهم بالإضراب الإبطالي فقال ﴿بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا﴾ أي ليس قولك لهم ذلك لقصد الاستبشار بالمغانم لأهل الحديبية ولكنه أمر الله وحقه لأهل الحديبية وتأديب للمخلفين ليكونوا عبرة لغيرهم فيما يأتي وهم ظنوه تمالؤا من جيش الحديبية لأنهم لم يفهموا حكمته وسببهم. وإنما نفى الله عنهم الفهم دون الإيمان لأنهم كانوا مؤمنين ولكنهم كانوا جاهلين بشرائع الإسلام ونظمه.

وأفاد قوله ﴿لا يفقهون﴾ انتفاء الفهم عنهم لأن الفعل في سياق النفي كالنكرة في سياق النفي يعم، فلذلك استثنى منه

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٠/٢٦

بقوله ﴿إلا قليلا﴾ أي إلا فهما قليلا وإنما قلله لكون فهمهم مقتصرا على الأمور الواضحة من العاديات لا ينفذ إلى المهمات ودقائق المعاني، ومن ذلك ظنهم حرمانهم من الالتحاق بجيش غزوة خيبر منبعثا على الحسد. وقد جروا في ظنهم هذا على المعروف من أهل الأنظار القاصرة والنفوس الضئيلة من التوسم في أعمال أهل الكمال بمنظار ما يجدون من دواعي أعمالهم وأعمال خلطائهم.

و ﴿قليلا﴾ وصف للمستثنى المحذوف، والتقدير: إلا فقها قليلا.

[١٦] ﴿قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما﴾

انتقال إلى طمأنة المخلفين بأنهم سينالون مغانم في غزوات آتية ليعلموا أن حرمانهم من الخروج إلى خيبر مع جيش الإسلام ليس لانسلاخ الإسلام عنهم ولكنه لحكمة نوط". (١)

٤٥٠-"والمحل بكسر الحاء: محل الحل مشتق من فعل حل ضد حرم، أي المكان الذي يحل فيه نحر الهدي، وهو الذي لا يجزئ غيره، وذلك بمكة بالمروة بالنسبة للمعتمر، ولذلك لما أحصروا أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينحروا هديهم في مكانهم إذ تعذر إبلاغه إلى مكة لأن المشركين منعوهم من ذلك. ولم يثبت في السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم بتوخي جهة معينة للنحر من أرض الحديبية، وذلك من سماحة الدين فلا طائل من وراء الخوض في اشتراط النحر في أرض الحرم للمحصر.

﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما﴾

أتبع النعي على المشركين سوء فعلهم من الكفر والصد عن المسجد الحرام وتعطيل شعائر الله وعده المسلمين بفتح قريب ومغانم كثيرة، بما يدفع غرور المشركين بقوتهم، ويسكن تطلع المسلمين لتعجيل الفتح، فبين أن الله كف أيدي المسلمين عن المشركين مع ما قرره آنفا من قوله ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا﴾ [الفتح:٢٢]

أنه إنما لم يأمر المسلمين بقتال عدوهم لما صدوهم عن البيت لأنه أراد رحمة جمع من المؤمنين والمؤمنات كانوا في خلال أهل الشرك لا يعلمونهم، وعصم المسلمين من الوقوع في مصائب من جراء إتلاف إخوانهم، فالجملة معطوفة على جملة ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار﴾ أو على جملة ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم﴾ [الفتح: من الآية٢٤] الخ. وأياما كان فهي كلام معترض بين جملة ﴿هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام﴾ الخ وبين جملة ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية﴾ [الفتح: من الآية٢٦].

ونظم هذه الآية بديع في أسلوبي الإطناب والإيجاز والتفنن في **الانتقال** ورشاقة كلماته.

و ﴿لولا﴾ دالة على امتناع لوجود، أي امتنع تعذيبنا الكافرين لأجل وجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات بينهم. وما بعد

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٣/٢٦

﴿لولا﴾ مبتدأ وخبره محذوف على الطريقة المستعملة في حذفه مع ﴿لولا﴾ إذا كان تعليق امتناع جوابها على وجود شرطها وجودا مطلقا غير مقيد بحال، فالتقدير: ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات موجودون، كما يدل عليه قوله بعده ﴿لو تزيلوا﴾ ، أي لو لم يكونوا موجودين بينهم، أي أن وجود هؤلاء هو الذي لأجله امتنع حصول مضمون جواب ﴿لولا﴾ . وإجراء الوصف على رجال ونساء بالإيمان مشير إلى أن وجودهم المانع من حصول". (١)

٤٥١-"وتفيد الجملة تعليل النهيين بذكر الجزاء عن ضد المنهي عنهما وأكد هذا الاهتمام باسم الإشارة في قوله ﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ مع ما في اسم الإشارة من التنبيه على أن المشار إليهم جديرون بالخبر المذكور بعده لأجل ما ذكر من الوصف قبل اسم الإشارة.

وإذ قد علمت آنفا أن محصل معنى قوله ﴿لا ترفعوا أصواتكم﴾ وقوله ﴿ولا تجهروا﴾ [الحجرات: ٢] الأمر بخفض الصوت عند النبي صلى الله عليه وسلم يتضح لك وجه العدول عن نوط الثناء هنا بعدم رفع الصوت وعدم الجهر عند الرسول صلى الله عليه وسلم إلى نوطه بغض الصوت عنده.

والغض حقيقته: خفض العين، أي أن لا يحدق بها إلى الشخص وهو هنا مستعار لخفض الصوت والميل به إلى الإسرار.

والامتحان: الاختبار والتجربة، وهو افتعال من محنه، إذا اختبره، وصيغة الافتعال فيه للمبالغة كقولهم: اضطره إلى كذا.

واللام في قوله للتقوى لام العلة، والتقدير: امتحن قلوبهم لأجل التقوى، أي لتكون فيها التقوى، أي ليكونوا أتقياء، يقال: امتحن فلان للشيء الفلاني كما يقال: جرب للشيء ودرب للنهوض بالأمر، أي فهو مضطلع به ليس بوان عنه، فيجوز أن يجعل الامتحان كناية على تمكن التقوى من قلوبهم وثباتهم عليها بحيث لا يوجدون في حال ما غير متقين وهي كناية تلويحية لكون **الانتقال** بعدة لوازم، ويجوز أن يجعل فعل ﴿امتحن﴾ مجازا مرسلا عن العلم، أي علم الله أنهم متقون، وعليه فتكون اللام من قوله ﴿للتقوى﴾ متعلقة بمحذوف هو حال من قلوب، أي كائنة للتقوى، فاللام للاختصاص.

وجملة ﴿لهم مغفرة﴾ خبر ﴿إن﴾ وهو المقصود من هذه من الجملة المستأنفة وما بينهما اعتراض للتنويه بشأنه. وجعل في الكشاف خبر ﴿إن﴾ هو اسم الإشارة مع خبره وجعل جملة ﴿لهم﴾ مستأنفة ولكل وجه فأنظره.

وقال وهذه الآية بنظمها الذي رتبت عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسما ل ﴿إن﴾ المؤكدة وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معا. والمبتدأ اسم الإشارة، واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم، وإيراد الجزاء نكرة مبهما أمره ناظرة في الدلالة على غاية الاعتداد والارتضاء لما فعل الذين وقروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي". (٢)

٤٥٢-"ببيان وجه المناسبة لموقع هذه الآية عقب التي قبلها فإن **الانتقال** منها إلى هذه يقتضي مناسبة بينهما، فالقصتان متشابهتان إذ كان وفد بني تميم النازلة فيهم الآية السابقة جاؤوا معتذرين عن ردهم ساعي رسول الله صلى الله

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٩/٢٦

(٢) التحرير والتنوير ١٨٦/٢٦

عليه وسلم لقبض صدقات بني كعب بن العنبر من تميم كما تقدم، وبنو المصطلق تبرؤوا من أنهم يمنعون الزكاة إلا أن هذا يناكده بعد ما بين الوقتين إلا أن يكون في تعيين سنة وفد بني تميم وهم.

وإعادة الخطاب ب ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ وفصله بدون عاطف لتخصيص هذا الغرض بالاهتمام كما علمت في قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا للمناسبة المتقدم ذكرها. ولا تعلق لهذه الآية بتشريع في قضية بني المصطلق مع الوليد بن عقبة لأنها قضية انقضت وسويت.

والفاسق: المتصف بالفسوق، وهو فعل ما يحرمه الشرع من الكبائر. وفسر هنا بالكاذب قاله ابن زيد ومقاتل وسهل بن عبد الله.

وأوثر في الشرط حرف ﴿إن﴾ الذي الأصل فيه أن يكون للشرط المشكوك في وقوعه للتنبيه على أن شأن فعل الشرط أن يكون نادر الوقوع لا يقدم عليه المسلمون. واعلم أن ليس الآية ما يقتضي وصف الوليد بالفاسق تصريحا ولا تلويحا.

وقد اتفق المفسرون على أن الوليد ظن ذلك كما في الإصابة عن ابن عبد البر وليس في الروايات ما يقتضي أنه تعمد الكذب. قال الفخر: إن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد شيء بعيد لأنه توهم وظن فأخطأ، والمخطئ لا يسمى فاسقا.

قلت: ولو كان الوليد فاسقا لما ترك النبي صلى الله عليه وسلم تعنيفه واستتابته فإنه روى أنه لم يزد على قوله له التبيين من الله والعجلة من الشيطان ، إذ كان تعجيل الوليد الرجوع عجلة. وقد كان خروج القوم للتعرض إلى الوليد بتلك الهيئة مثار ظنه حقا إذ لم يكن المعروف خروج القبائل لتلقي السعاة. وأنا أحسب أن عملهم كان حيلة من كبرائهم على انصراف الوليد عن الدخول في حيهم تعيرا منهم في نظر عامتهم من أن يدخل عدو لهم إلى ديارهم ويتولى قبض صدقاتهم فتعيرهم أعداؤهم بذلك يمتعض منهم دهماؤهم ولذلك ذهبوا بصدقاتهم بأنفسهم في رواية أو جاؤوا معتذرين قبل مجيء خالد بن الوليد إليهم في رواية أخرى.

ويؤيد هذا ما جاء في بعض روايات هذا الخبر أن الوليد. أعلم بخروج القوم إليه،". (١)

٤٥٣-"أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾

انتقال من واجبات المعاملات إلى ما يجب أن يراعيه المرء في نفسه، وأعيد النداء للاهتمام بهذا الغرض، إذ كان إعجاب كل قبيلة بفضائلها وتفضيل قومها على غيرهم فاشيا في الجاهلية كما ترى بقيته في شعر الفرزدق وجرير، وكانوا يحقرون بعض القبائل مثل باهلة، وضبيعة، وبني عكل.

سئل أعرابي: أتحب تدخل الجنة وأنت باهلي فأطرق حينا ثم قال: على شرط أن لا يعلم أهل الجنة أني باهلي. فكان ذلك يجر إلى الإحن والتقاتل وتتفرع عليه السخرية واللمز والنبز والظن والتجسس والاغتياب الواردة فيها الآيات السابقة، فجاءت هذه الآية لتأديب المؤمنين على اجتناب ما كان في الجاهلية لاقتلاع جذوره الباقية في النفوس بسبب اختلاط طبقات المؤمنين بعد سنة الوفود إذ كثر الداخلون في الإسلام.

---

(١) التحرير والتنوير ١٩١/٢٦

فعن أبي داود أنه روى في كتابه المراسيل عن الزهري قال أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني بياضة من الأنصار أن يزوجوا أبا هند مولى بني بياضة قيل اسمه يسار امرأة منهم فقالوا: تزوج بناتنا موالينا، فأنزل الله تعالى ﴿إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا﴾ الآية. وروي غير ذلك في سبب نزولها.

ونودوا بعنوان ﴿الناس﴾ دون المؤمنين رعيا للمناسبة بين هذا العنوان وبين ما صدر به الغرض من التذكير بأن أصلهم واحد، أي أنهم في الخلقة سواء ليتوسل بذلك إلى أن التفاضل والتفاخر إنما يكون بالفضائل والى أن التفاضل في الإسلام بزيادة التقوى فقيل ﴿إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ .

فمن أقدم على القول بأن هذه الآية نزلت في مكة دون بقية السورة اغتر بأن غالب الخطاب ب ﴿يا أيها الناس﴾ إنما كان في المكي.

والمراد بالذكر والأنثى: آدم وحواء أبوا البشر، بقرينة قوله ﴿وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾

ويؤيد هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم "أنتم بنو آدم وآدم من تراب" كما سيأتي قريبا. فيكون تنوين "ذكر وأنثى" لأنهما وصفان لموصوف فقرر، أي من أب ذكر ومن أم أنثى.

ويجوز أن يراد ب ﴿ذكر وأنثى﴾ . صنف الذكر والأنثى، أي كل واحد مكون من صنف الذكر والأنثى.". (١)

٤٥٤-"الجواب: إنه لتنزيل من رب العالمين، أو نحو ذلك كما صرح به في نحو ﴿حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾ [الزخرف: ١-٣] ونحو ذلك. والإضراب **الانتقالي** يقتضي كلاما منتقلا منه والقسم بدون جواب لا يعتبر كلاما تاما فتعين أن يقدر السامع جوابا تتم به الفائدة يدل عليه الكلام.

وهذا من إيجاز الحذف وحسنه أن **الانتقال** مشعر بأهمية المتنقل إليه، أي عد عما تريد تقديره من جواب وانتقل إلى بيان سبب إنكارهم الذي حدا بنا إلى القسم كقول القائل: دع ذا، وقول امرئ القيس:

فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة ... ذمول إذا صام النهار وهجرا

وقول الأعشى:

فدع ذا ولكن رب أرض متيهة ... قطعت بحرجوج إذا الليل أظلما

وتقدم بيان نظيره عند قوله تعالى ﴿بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾ في سورة ص [٢].

وقوله ﴿عجبوا﴾ خبر مستعمل في الإنكار إنكارا لعجبهم البالغ حد الإحالة.

و ﴿عجبوا﴾ حصل لهم العجب بفتح الجيم وهو الأمر غير المألوف للشخص ﴿قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله﴾ [هود:٧٢,٧٣] فإن الاستفهام في ﴿أتعجبين﴾ إنكار وإنما تنكر إحالة ذلك لا كونه موجب تعجب. فالمعنى هنا: أنهم نفوا جواز أن يرسل الله إليهم بشرا مثلهم، قال تعالى ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا﴾ [الاسراء:٩٤]

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٥/٢٦

وضمير ﴿عجبوا﴾ عائد إلى غيره مذكور، فمعاده معلوم من السياق أعني افتتاح السورة بحرف التهجي الذي قصد منه تعجيزهم عن الإتيان بمثل القرآن لأن عجزهم عن الإتيان بمثله في حال أنه مركب من حروف لغتهم يدلهم على أنه ليس بكلام بشر بل هو كلام أبدعته قدرة الله وأبلغه الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم على لسان الملك فإن المتحدين بالإعجاز مشهورون يعلمهم المسلمون وهم أيضا يعلمون أنهم المعنيون بالتحدي بالإعجاز. على أنه سيأتي ما يفسر الضمير بقوله ﴿فقال الكافرون﴾

وضمير ﴿منهم﴾ عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿عجبوا﴾ . والمراد: أنه من نوعهم أي من بني الإنسان.

و ﴿أن جاءهم﴾ مجرور ب"من" المحذوفة مع ﴿أن﴾ ، أي عجبوا من". (١)

٤٥٥-"شاغل ابتدر الرجوع إلى ما كان فيه من الاستقامة والامتثال فلا يفارقه حال الطاعة وإذا فارقه قليلا آب إليه وأناب. وإطلاق المنيب على التائب والإنابة على التوبة من تفاريع هذا المعنى، وتقدم عند قوله تعالى ﴿وخر راكعا وأناب﴾ في سورة ص.[٢٤]

وخص العبد المنيب بالتبصرة والذكرى وإن كان فيما ذكر من أحوال الأرض إفادة التبصرة والذكرى لكل أحد لأن العبد المنيب هو الذي ينتفع بذلك فكأنه هو المقصود من حكمة تلك الأفعال. وهذا تشريف للمؤمنين وتعريض بإهمال الكافرين التبصر والتذكر. ويحمل "كل" على حقيقة معناه من الإحاطة والشمول. فالمعنى: أن تلك الأفعال قصد منها التبصرة والذكرى لجميع العباد المتبعين للحق إذ لا يخلون من تبصر وتذكر بتلك الأفعال على تفاوت بينهم في ذلك.

[٩,١٠] ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد﴾

بعد التنظر والتذكير والتبصير في صنع السماوات وصنع الأرض وما فيهما من وقت نشأتهما نقل الكلام إلى التذكير بإيجاد آثار من آثار تلك المصنوعات تتجدد على مرور الدهر حية ثم تموت ثم تحيا دأبا، وقد غير أسلوب الكلام لهذا الانتقال من أسلوب الاستفهام في قوله ﴿أفلم ينظروا إلى السماء﴾ [ق: من الآية٦] إلى أسلوب الإخبار بقوله ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركا﴾ إيذانا بتبديل المراد ليكون منه تخلص إلى الدلالة على إمكان البعث في قوله ﴿كذلك الخروج﴾ [ق: ١١]. فجملة ﴿ونزلنا﴾ عطف على جملة ﴿والأرض مددناها﴾ [الحجر: ١٩]

وقد ذكرت آثار من آثار السماء وآثار الأرض على طريقة النشر المرتب على وفق اللف.

والمبارك: اسم مفعول للذي جعلت فيه البركة، أي جعل فيه خير كثير. وأفعال هذه المادة كثيرة التصرف ومتنوعة التعليق. والبركة: الخير النافع لما يتسبب عليه من إنبات الحبوب والأعناب والنخيل. وتقدم معنى المبارك عند قوله تعالى ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا﴾ في سورة آل عمران.[٩٦]

وفي هذا استدلال بتفصيل الإنبات الذي سبق إجماله في قوله ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾ [ق: ٧] لما فيه من سوق

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٣١

العقول إلى التأمل في دقيق الصنع لذلك الإنبات وأن حصوله بهذا السبب وعلى ذلك". (١)

٤٥٦-"﴿قال قائل منهم إني كان لي قرين يقول يقول أإنك لمن المصدقين﴾ الآية في سورة الصافات. [٥٢,٥١]
وقول القرين ﴿هذا ما لدي عتيد﴾ مستعمل في التلهف والتحسر والإشقاق، لأنه لما رأى ما به العذاب علم أنه قد هيئ له، أولما رأى ما قدم إليه قرينه علم أنه لاحق على أثره كقصة الثورين الأبيض والأحمر اللذين استعان الأسد بالأحمر منهما على أكل الثور الأبيض ثم جاء الأسد بعد يوم ليأكل الثور الأحمر فعلا الأحمر ربوة وصاح ألا إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض.
وتقدم معنى ﴿عتيد﴾ عند قوله تعالى ﴿إلا لديه رقيب عتيد﴾ [ق: ١٨]، وهو هنا متعين للمعنى الذي فسر عليه المفسرون، أي معد ومهيأ.
[٢٥,٢٤] ﴿ألقيا في جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب﴾
انتقال من خطاب النفس إلى خطاب الملكين الموكلين السائق والشهيد. والكلام مقول قول محذوف. والجملة استئناف ابتدائي **انتقال** من خطاب فريق إلى خطاب فريق آخر، وصيغة المثنى في قوله ﴿ألقيا﴾ تجوز أن تكون مستعملة في أصلها فيكون الخطاب للسائق والشهيد. ويجوز أن تكون مستعملة في خطاب الواحد وهو الملك الموكل بجهنم وخوطب بصيغة المثنى جريا على طريقة مستعملة في الخطاب جرت على ألسنتهم لأنهم يكثر فيهم أن يرافق السائر رفيقان، وهي طريقة مشهورة، كما قال امرؤ القيس:
قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
وقولهم: يا خليلي، ويا صاحبي. والمبرد يرى أن تثنية الفاعل نزلت منزلة تثنية الفعل لاتحادهما كأنه قيل: ألق ألق للتأكيد.
وهذا أمر بأن يعم الإلقاء في جهنم كل كفار عنيد، فيعلم منه كل حاضر في الحشر من هؤلاء أنه مدفوع به إلى جهنم.
والكفار: القوي الكفر، أي الشرك.
والعنيد: القوي العناد، أي المكابرة والمدافعة للحق وهو يعلم أنه مبطل.
والمناع: الكثير المنع، أي صد الناس عن الخير، والخير هو الإيمان، كانوا يمنعون أبناءهم وذويهم من اتباع الإيمان ومن هؤلاء الوليد بن المغيرة كان يقول لبني أخيه من دخل منكم في الإسلام لا أنفعه بشيء ما عشت. ويحتمل أن يراد به أيضا منع الفقراء من المال لأن الخير يطلق على المال وكان أهل الجاهلية يمنعون الفقراء ويعطون المال". (٢)

٤٥٧-"كرامتهم عند الله ووردت آثار متفاوتة القوة أن من المزيد مفاجأتهم بخيرات، وفيها دلالة على أن المفاجأة بالإنعام ضرب من التلطف والإكرام، وأيضا فإن الأنعام يجيئهم في صور معجبة. والقول في ﴿مزيد﴾ هنا كالقول في نظيره

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٤٢
(٢) التحرير والتنوير ٢٦/٢٥٩

السابق آنفا.

وجاء ترتيب الآيات في منتهى الدقة فبدأت بذكر إكرامهم بقوله ﴿وأزلفت الجنة للمتقين﴾ ثم بذكر أن الجنة جزاؤهم الذي وعدوا به فهي حق لهم، ثم أومأت إلى أن ذلك لأجل أعمالهم بقوله ﴿لكل أواب حفيظ من خشي الرحمن﴾ الخ، ثم ذكرت المبالغة في إكرامهم بعد ذلك كله بقوله ﴿ادخلوها بسلام﴾ ثم طمأنهم بإن ذلك نعيم خالد، وزيد في إكرامهم بأن لهم ما يشاؤون ما لم يروه حين الدخول، وبأن الله وعدهم بالمزيد من لدنه.

[٣٧,٣٦] ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾

انتقال من الاستدلال إلى التهديد وهو معطوف على ما قبله وهذا العطف **انتقال** إلى الموعظة بما حل بالأمم المكذبة بعد الاستدلال على إمكان البعث بقوله ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ [ق: من الآية٤] وما فرع عليه من قوله ﴿أفعيينا بالخلق الأول﴾ [ق: ١٥] وفي هذا العطف الوعيد الذي أجمل في قوله ﴿كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس﴾ إلى قوله ﴿فحق وعيد﴾ [ق:١٢ ١٤]. فالوعيد الذي حق عليهم هو الاستئصال في الدنيا وهو مضمون قوله ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا﴾

والخبر الذي أفاده قوله ﴿وكم أهلكنا قبلهم﴾ تعريض بالتهديد وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم.

وضميرا ﴿قبلهم﴾ و ﴿منهم﴾ عائدان إلى معلوم من المقام غير مذكور في الكلام كما تقدم في قوله أول السورة من قوله ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ .ويفسره قوله بعده ﴿فقال الكافرون هذا شيء عجيب﴾ [ق: ٢]. وجرى على ذلك السنن قوله ﴿كذبت قبلهم قوم نوح﴾ وقوله ﴿بل هم في لبس من خلق جديد﴾ [ق: من الآية١٥]، ونظائره في القرآن كثيرة.

و ﴿كم﴾ خبرية وجر تمييزها ب ﴿من﴾ على الأصل.

والبطش: القوة على الغير.والتنقيب: مشتق من النقب بسكون القاف بمعنى الثقب، فيكون بمعنى:خرقوا، واستعير لمعنى: ذللوا وأخضعوا، أي تصرفوا في الأرض بالحفر". (١)

٤٥٨-"والحبك: بضمتين جمع حباك ككتاب وكتب ومثال ومثل، أو جمع حبيكة مثل طريقة وطرق، وهي مشتقة من الحبك بفتح فسكون وهو إجادة النسج وإتقان الصنع. فيجوز أن يكون المراد بحبك السماء نجومها لأنها تشبه الطرائق الموشاة في الثوب المحبوك المتقن. وروي عن الحسن وسعيد بن جبير وقيل الحبك: طرائق المجرة التي تبدو ليلا في قبة الجو. وقيل: طرائق السحاب. وفسر الحبك بإتقان الخلق. روي عن ابن عباس وعكرمة وقتادة. وهذا يقتضي أنهم جعلوا الحبك مصدرا أو اسم مصدر، ولعله من النادر: وإجراء هذا الوصف على السماء إدماج أدمج به الاستدلال على قدرة الله تعالى مع الامتنان بحسن المرأى.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦٨/٢٦

واعلم أن رواية رويت عن الحسن البصري أنه قرأ ﴿الحِبُك﴾ بكسر الحاء وضم الباء وهي غير جارية على لغة من لغات العرب. وجعل بعض أئمة اللغة الحبك شاذا فالظن أن راويها أخطأ لأن وزن فعل بكسر الفاء وضم العين وزن مهمل في لغة العرب كلهم لشدة ثقل **الانتقال** من الكسر إلى الضم مما سلمت منه اللغة العربية. ووجهت هذه القراءة بأنها من تداخل اللغات وهو توجيه ضعيف لأن إعمال تداخل اللغتين إنما يقبل إذا لم يفض الى زنة مهجورة لأنها إذا هجرت بالأصالة فهجرها في التداخل أجدر ووجهها أبو حيان باتباع حركة الحاء لحركة تاء ﴿ذات﴾ وهو أضعف من توجيه تداخل اللغتين فلا جدوى في التكلف.

والقول المختلف: المتناقض الذي يخالف بعضه بعضا فيقتضي بعضه إبطال بعض الذي هم فيه هو جميع أقوالهم والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم وكذلك أقوالهم في دين الإشراك فإنها مختلفة مضطربة متناقضة فقالوا القرآن: سحر وشعر، وقالوا ﴿أساطير الأولين اكتتبها﴾ [الفرقان: ٥]، وقالوا ﴿إن هذا إلا اختلاق﴾ [ص: ٧] وقالوا ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ [لأنفال: ٣١] وقالوا: مرة ﴿وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾ [فصلت: ٥] وغير ذلك، وقالوا: وحي الشياطين. وقالوا في الرسول صلى الله عليه وسلم أقوالا: شاعر، ساحر، مجنون، كاهن، يعلمه بشر، بعد أن كانوا يلقبونه الأمين. وقالوا في أصول شركهم بتعدد الآلهة مع اعترافهم بأن الله خالق كل شيء وقالوا ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله﴾ [الزمر: ٣] ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾ [لأعراف: ٢٨].". (١)

٤٥٩-"وإظهار اسم السماء والأرض دون ذكر ضميرهما لإدخال المهابة في نفوس السامعين بعظمة الرب سبحانه. وضمير ﴿إنه لحق﴾ عائد إلى ﴿ماتوعدون﴾ [الذاريات: ٢٢]. وهذا من رد العجز على المصدر لأنه رد على قوله أول السورة ﴿إنما توعدون لصادق﴾ [الذاريات:٥] وانتهى الغرض.

وقوله ﴿مثل ما أنكم تنطقون﴾ زيادة تقرير لوقوع ما أوعدوه بأن شبه بشيء معلوم كالضرورة لا امتراء في وقوعه وهو كون المخاطبين ينطقون. وهذا نظير قولهم: كما أن قبل اليوم أمس، أو كما أن بعد اليوم غدا. وهو من التمثيل بالأمور المحسوسة، ومنه تمثيل سرعة الوصول لقرب المكان في قول زهير:

فهن ووادي الرس كاليد للفم

وقوله: مثل ما أنك هاهنا، وقولهم: كما أنك ترى وتسمع.

وقرأ الجمهور ﴿مثل﴾ بالنصب على أنه صفة حال محذوف قصد منه التأكيد. والتقدير: إنه لحق حقا ما أنكم تنطقون. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف مرفوعا على الصفة ﴿لحق﴾ صفة أريد بها التشبيه.

و ﴿ما﴾ الواقعة بعد ﴿مثل﴾ زائدة للتوكيد. وأردفت ب ﴿أن﴾ المفيدة للتأكيد تقوية لتحقيق حقية ما يوعدون.

واجتلب المضارع في ﴿تنطقون﴾ دون أن يقال: نطقكم، يفيد التشبيه بنطقهم المتجدد وهو أقوى في الوقوع لأنه محسوس.

[٢٤-٣٠] ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين [٤٢] إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون [٢٥]

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/١٠

فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين [٢٦] فقربه إليهم قال ألا تأكلون [٢٧] فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم [٢٨] فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم [٢٩] قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم﴾ [٣٠].

انتقال من الإنذار والموعظة والاستدلال إلى الاعتبار بأحوال الأمم الماضية المماثلة للمخاطبين المشركين في الكفر وتكذيب الرسل. والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا وغير أسلوب الكلام من خطاب المنذرين مواجهة إلى أسلوب التعريض تفننا بذكر قصة إبراهيم لتكون توطئة للمقصود من ذكر ما حل بقوم لوط حين كذبوا رسولهم، فالمقصود هو ما بعد". (١)

٤٦٠-"قوله ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون﴾ [الحجر:٥٧].

وكان في الابتداء بذكر قوم لوط في هذه الآية على خلاف الترتيب الذي جرى عليه اصطلاح القرآن في ترتيب قصص الأمم المكذبة بابتدائها بقوم نوح ثم عاد ثم ثمود ثم قوم لوط أن المناسبة **للانتقال** من وعيد المشركين إلى العبرة بالأمم الماضية أن المشركين وصفوا آنفا بأنهم في غمرة ساهون فكانوا في تلك الغمرة أشبه بقوم لوط إذ قال الله فيهم ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ [الحجر:٧٢]، ولأن العذاب الذي عذب به قوم لوط ك٤ان حجارة أنزلت عليهم من السماء مشبهة بالمطر. وقد سميت مطرا في قوله تعالى ﴿ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء﴾ [الفرقان:٤٠] وقوله ﴿وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾ [هود:٨٢] ولأن في قصة حضور الملائكة عند إبراهيم وزوجه عبرة بإمكان البعث فقد تضمنت بشارتها بمولود يولد لها بعد اليأس من الولادة. وذلك مثل البعث بالحياة بعد الممات.

ولما وجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿هل أتاك﴾ عرف أن المقصود الأصلي تسليته على ما لقيه من تكذيب قومه. ويتبع ذلك تعريض بالسامعين حين يقرأ عليهم القرآن أو يبلغهم بأنهم صائرون إلى مثل ذلك العذاب لاتحاد الأسباب. وتقدم القول في نظير ﴿هل أتاك حديث﴾ عند قوله تعالى ﴿وهل أتاك نبأ الخصم﴾ في سورة ص:[٢١] وأنه يفتتح به الأخبار الفخمة المهمة.

والضيف: اسم يقال للواحد وللجمع لأن أصله مصدر ضاف، إذا مال فأطلق على الذي يميل إلى بيت أحد لينزل عنده. ثم صار اسما فإذا لوحظ أصله أطلق على الواحد وغيره ولم يؤنثوه ولا يجمعونه وإذا لوحظ الاسم جمعوه للجماعة وأنثوه للأنثى فقالوا أضياف وضيوف وامرأة ضيفة وهو هنا اسم جمع ولذلك وصف ب ﴿المكرمين﴾ ، وتقدم في سورة الحجر[٦٨] ﴿قال إن هؤلاء ضيفي﴾ .

والمعني به الملائكة الذي أظهرهم الله لإبراهيم عليه السلام فأخبروه بأنهم مرسلون من الله لتنفيذ العذاب لقوم لوط وسماهم الله ضيفا نظرا لصورة مجيئهم في هيئة الضيف كما سمي الملكين الذين جاءا داود خصما في قوله تعالى ﴿وهل أتاك نبأ الخصم﴾ [ص:٢١]، وذلك من الاستعارة الصورية.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٧

وفي سفر التكوين من التوراة: أنهم كانوا ثلاثة. وعن ابن عباس: أنهم جبريل". (١)

٤٦١-"بطريقين طريق المجازاة، وطريق التأكيد في قوله: ﴿يوم تمور السماء مورا﴾ الآية، تصريح بيوم البعث بعد أن أشير إليه تضمنا بقوله : ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ فحصل بذلك تأكيده أيضا.

والمور بفتح الميم وسكون الواو: التحرك باضطراب، ومور السماء هو اضطراب أجسامها من الكواكب واختلال نظامها وذلك عند انقراض عالم الحياة الدنيا.

وسير الجبال: انتقالها من مواضعها بالزلازل التي تحدث عند انقراض عالم الدنيا، قال تعالى: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ إلى قوله: ﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم﴾ [الزلزلة:١، ٦]

وتأكيد فعلي ﴿تمور﴾ و ﴿تسير﴾ بمصدرين ﴿مورا﴾ و ﴿سيرا﴾ لرفع احتمال المجاز، أي هو مور حقيقي وتنقل حقيقي.

والويل: سوء الحال البالغ منتهى السوء، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ في سورة البقرة [٧٩] وتقدم قريبا في آخر الذاريات.

والمعنى: فويل يومئذ للذين يكذبون الآن. وحذف متعلق للمكذبين لعلمه من المقام، أي الذين يكذبون بما جاءهم به الرسول من توحيد الله والبعث والجزاء والقرآن فأسم الفاعل في زمن الحال.

والخوض: الاندفاع في الكلام الباطل والكذب. والمراد خوضهم في تكذيبهم بالقرآن مثل ما حكى الله عنهم ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ [فصلت:٢٦] وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ الأنعام:[٦٨].

و ﴿في﴾ للظرفية المجازية وهي الملابسة الشديدة كملابسة الظرف للمظروف، أي الذين تمكن منهم الخوض حتى كأنهم أحاط بهم.

و ﴿يلعبون﴾ حالية. واللعب: الاستهزاء، قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾ [التوبة:٦٥].

[١٦-٣١] ﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعاهذه النار التي كنتم بها تكذبون أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم". (٢)

٤٦٢-"لطفه تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم لأنه ربه فهو يربه ويدبر نفعه، ولتفيد الإضافة تشريف المضاف إليه.

وقوله تعالى ﴿فذكر فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون﴾ رد على مقالة شيبة بن ربيعة قال في رسول الله صلى الله عليه وسلم هو كاهن، وعلى عقبة بن أبي معيط إذ قال: هو مجنون، ويدل لكونه ردا على مقالة سبقت أنه أتبعه بقوله ﴿أم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٢٧

(٢) التحرير والتنوير ٥٧/٢٧

يقولون شاعر﴾ [الطور: ٣٠] ما سيكون وما خفي مما هو كائن.

والكاهن: الذي ينتحل معرفة ما سيحدث من الأمور وما خفي مما هو كائن ويخبر به بكلام ذي أسجاع قصيرة. وكان أصل الكلمة موضوعة لهذا المعنى غير مشتقة، ونظيرها في العبرية الكوهين وهو حافظ الشريعة والمفتي بها، وهو من بني لاوي، وتقدم ذكر الكهانة عند قوله تعالى ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ في سورة الشعراء.[٢١٠].

وقد اكتفي في إبطال كونه كاهنا أو مجنونا بمجرد النفي دون استدلال عليه، لأن مجرد التأمل في حال النبي صلى الله عليه وسلم كاف في تحقق انتفاء ذينك الوصفين عنه فلا يحتاج في إبطال اتصافه بهما إلى أكثر من الإخبار بنفيهما لأن دليله المشاهدة.

[٣٠] ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾ .

إن كانت ﴿أم﴾ مجردة عن عمل العطف فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيا، وإلا فهي عطف على جملة ﴿فذكر فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون﴾ [الطور:٢٩].

وعن الخليل كل ما في سورة الطور من ﴿أم﴾ فاستفهام وليس بعطف، يعني أن المعنى على الاستفهام لا على عطف المفردات. وهذا ضابط ظاهر. ومراده: أن الاستفهام مقدر بعد ﴿أم﴾ وهي منقطعة وهي للإضراب عن مقالتهم المردودة بقوله: ﴿فذكر فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون﴾ الطور:[٢٩] **للانتقال** إلى مقالة أخرى وهي قولهم هو شاعر ﴿نتربص به ريب المنون﴾ [الطور: ٢٩] وعدل عن الإتيان بحرف "بل" مع أنه أشهر في الإضراب **الانتقالي**، لقصد تضمن ﴿أم﴾ للاستفهام. والمعنى: بل أيقولون شاعر الخ. والاستفهام المقرر إنكاري.

ومناسبة هذا **الانتقال** عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالدوام على التذكير يشير إلى مقالاتهم التي يردون بها دعوته فلما أشير إلى بعضها بقوله: ﴿فذكر فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون﴾ [الطور: ٢٩] انتقل إلى إبطال صفة أخرى يثلثون بها الصفتين المذكورتين قبلها وهي صفة شاعر.". (١)

٤٦٣-"قد صيغ نظم الكلام في هذه الآية على ما يناسب **الانتقال** من غرض إلى غرض وذلك بما نهي به من شبه التذييل بقوله : ﴿قل تربصوا فإني معكم من المتربصين﴾ إذ تمت به المفاصلة.

٣٢] ﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون﴾ .

﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا﴾ .

إضراب **انتقال** دعا إليه ما في الاستفهام الإنكاري المقدر بعد ﴿أم﴾ من معنى التعجب من حالهم كيف يقولون مثل ذلك القول السابق ويستقر ذلك في إدراكهم وهم يدعون أنهم أهل عقول لا تلتبس عليهم أحوال الناس فهم لا يجهلون أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس بحال الكهان ولا المجانين ولا الشعراء وقد أبى عليهم الوليد بن المغيرة أن يقول مثل ذلك في قصة معروفة.

---

(١) التحرير والتنوير ٧٢/٢٧

قال الزمخشري. وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنهى والمعنى:أم تأمرهم أحلامهم المزعومة بهذا القول.
والإشارة في قوله : ﴿بهذا﴾ إلى المذكور من القول المعرض به في قوله: ﴿فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون﴾ [الطور: ٢٩] والمصرح به في قوله :﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾ [الطور:٣٠]، وهذا كما يقول من يلوم عاقلا على فعل فعله ليس من شأنه أن يجهل ما فيه من فساد: أعاقل أنت ؟ أو: هذا لا يفعله عاقل بنفسه، ومنه ما حكى الله عن قوم شعيب من قولهم له : ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ [هود: ٨٧].
والحلم:العقل، قال الراغب: المانع من هيجان الغضب. وفي القاموس هو الأناة. وفي معارج النور:والحلم ملكة غريزية تورث لصاحبها المعاملة بلطف ولين لمن أساء أو أزعج اعتدال الطبيعة.
ومعنى إنكار أن تأمرهم أحلامهم بهذا أن الأحلام الراجحة لا تأمر بمثله، وفيه تعريض بأنهم أضاعوا أحلامهم حين قالوا ذلك لأن الأحلام لا تأمر بمثله فهم كمن لا أحلام لهم وهذا تأويل ما روي أن الكافر لا عقل١ له. قالوا وإنما للكافر الذهن والذهن يقبل العلم جملة، والعقل يميز العلم ويقدر المقادير لحدود الأمر والنهي.

-

١ رواه القرطبي عن الحكيم الترمذي صاحب "نوادر الأصول"." (١)

٤٦٤-"والأمر في : ﴿تأمرهم﴾ مستعار للباعث أي تبعثهم أحلامهم على هذا القول.
﴿أم هم قوم طاغون﴾ .
إضراب **انتقالي** أيضا متصل بالذي قبله انتقل به إلى استفهام عن اتصافهم بالطغيان. والاستفهام المقدر مستعمل: إما في التشكيك باعثا على التأمل في حالهم فيؤمن بأنهم طاغون، وإما مستعمل في التقرير لكل سامع إذ يجدهم طاغين.
وإقحام كلمة ﴿قوم﴾ يمهد لكون الطغيان من مقومات حقيقة القومية فيهم، كما قدمناه في قوله تعالى ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ : [١٢٤] في سورة البقرة، أي تأصل فيهم الطغيان وخالط نفوسهم فدفعهم إلى أمثال تلك الأقوال.
[٣٣، ٣٤] ﴿أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ .
انتقال متصل بقوله : ﴿أم يقولون شاعر﴾ [الطور:٣٠] الخ. وهذا حكاية لإنكارهم أن يكون القرآن وحيا من الله، فزعموا أنه تقوله النبي صلى الله عليه وسلم على الله، فالاستفهام إنكار لقولهم وهم قد أكثروا من الطعن وتمالؤوا عليه ولذلك جيء في حكايته عنهم بصيغة ﴿يقولون﴾ المفيدة للتجدد.
والتقول: نسبة كلام إلى أحد لم يقله، ويتعدى إلى الكلام بنفسه ويتعدى إلى من ينسب إليه بحرف "على"، قال تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل﴾ ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ [الحاقة:٤٤، ٤٥] الآية. وضمير النصب في ﴿تقوله﴾ عائد إلى القرآن المفهوم من المقام.
وابتدىء الرد عليهم بقوله : ﴿بل لا يؤمنون﴾ لتعجيل تكذيبهم قبل الإدلاء بالحجة عليهم وليكون ورود الاستدلال مفرعا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٧٥

على قوله : ﴿لا يؤمنون﴾ بمنزلة دليل ثان. ومعنى ﴿لا يؤمنون﴾ أن دلائل تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن تقول القرآن بينة لديهم ولكن الزاعمين ذلك يأبون الإيمان فهم يبادرون إلى الطعن دون نظر ويلقون المعاذير سترا لمكابرتهم.
ولما كانت مقالتهم هذه طعنا في القرآن وهو المعجزة القائمة على صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وكانت دعواهم أنه تقول على الله من تلقاء نفسه قد تروج على الدهماء تصدى القرآن لبيان إبطالها بأن تحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن بقوله : ﴿فليأتوا بحديث مثله إن". (١)

٤٦٥-"يدركونها إذا سمعوها ولا تحيط قرائحهم بإيداعها في كلامهم. وقد بينا أصول الإعجاز في المقدمة العاشرة من العاشرة من مقدمات هذا التفسير.
ولام الأمر في ﴿فليأتوا﴾ مستعملة في أمر التعجيز كقوله حكاية عن قول إبراهيم ﴿إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾ [البقرة: ٢٥٨].
وقوله : ﴿إن كانوا صادقين﴾ أي في زعمهم أنه تقوله، أي فإن لم يأتوا بكلام مثله فهم كاذبون. وهذا إلهاب لعزيمتهم ليأتوا بكلام مثل القرآن ليكون عدم إتيانهم بمثله حجة على كذبهم وقد أشعر نظم الكلام في قوله : ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ الواقع موقعا شبيها بالتذليل والمختوم بكلمة الفاصلة، أنه نهاية غرض وأن ما بعده شروع في غرض آخر كما تقدم في نظم قوله : ﴿قل تربصوا فإني معكم من المتربصين﴾ [الطور:٣١].
[٣٥،٣٦،] ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون﴾ .
﴿أم خلقوا من غير شيء﴾ .
إضراب انتقالي إلى إبطال ضرب آخر من شبهتهم في إنكارهم البعث، وقد عملت في أول السورة أن من أغراضها إثبات البعث والجزاء على أن ما جاء بعده من وصف يوم الجزاء وحال أهله قد اقتضته مناسبات نشأت عنها تلك التفاصيل، فإذ وفي حق ما اقتضته تلك المنسبات ثني عنان الكلام إلى الاستدلال على إمكان البعث وإبطال شبهتهم التي تعللوا بها من نحو قولهم : ﴿أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا﴾ [الإسراء: ٤٩].
فكان قوله تعالى: ﴿أم خلقوا من غير شيء﴾ الآيات أدلة على أن ما خلقه الله من بدء الخلق أعظم من إعادة خلق الإنسان. وهذا متصل بقوله آنفا : ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ [الطور:٧] لأن شبهتهم المقصود ردها بقوله : ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ هي قولهم : ﴿وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون﴾ [الإسراء: ٤٩] ونحو ذلك.
فحرف "من" في قوله : ﴿من غير شيء﴾ يجوز أن يكون للابتداء، فيكون معنى الاستفهام المقدر بعد "أم" تقريريا. والمعنى: أيقرون أنهم خلقوا بعد أن كانوا عدما فكلما خلقوا من عدم في نشأتهم الأولى ينشأون من عدم في النشأة الآخرة، وذلك

(١) التحرير والتنوير ٧٦/٢٧

إثبات لإمكان". (١)

٤٦٦-"البعث فيكون في معنى قوله تعالى ﴿فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر﴾ [الطارق:٥، ٨] وقوله : ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ونحو ذلك من الآيات.

ومعنى ﴿شيء﴾ على هذا الوجه: الموجود فغير شيء: المعدوم، والمعنى: اخلقوا من عدم. ويجوز أن تكون "من" للتعليل فيكون الاستفهام المقدر بعد "أم" إنكاريا، ويكون اسم ﴿شيء﴾ صادقا على ما يصلح لمعنى التعليل المستفاد من حرف "من" التعليلية، والمعنى: إنكار أن يكون خلقهم بغير حكمة، وهذا إثبات أن البعث واقع لأجل الجزاء على الأعمال، بأن الجزاء مقتضى الحكمة التي لا يخلوا عنها فعل أحكم الحكماء، فيكون في معنى قوله تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ [المؤمنون:١١٥] وقوله :﴿ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية﴾ [الحجر: ٨٥].

ولحرف "من" في هذا الكلام الوقع البديع إذ كانت على احتمال معنييها دليلا على إمكان البعث وعلى وقوعه وعلى وجوب وقوعه وجوبا تقتضيه الحكمة الإلهية العليا. ولعل العدول عن صوغ الكلام بالصيغة الغالبة في الاستفهام التقريري، أعني صيغة النفي بأن يقال: أما خلقوا من غير شيء؛ والعدول عن تعيين ما أضيف إليه : ﴿غير﴾ إلى الإتيان بلفظ مبهم وهو لفظ شيء، روعي فيه الصلاحية لاحتمال المعنيين وذلك من منتهى البلاغة.

وإذا كان فرض أنهم خلقوا من غير شيء واضح البطلان لم يحتج إلى استدلال على إبطاله بقوله:

﴿أم هم الخالقون أم خلقوا السماوات والأرض﴾ .

وهو إضراب انتقال أيضا، والاستفهام المقدر بعد ﴿أم﴾ إنكاري، أي ما هم الخالقون وإذ كانوا لم يدعوا ذلك فالإنكار مرتب على تنزيلهم منزلة من يزعمون أنهم خالقون.

وصيغت الجملة في صيغة الحصر الذي طريقه تعريف الجزأين قصرا إضافيا للرد عليهم بتنزيلهم منزلة من يزعم أنهم الخالقون لا الله، لأنهم عدوا من المحال ما هو خارج عن قدرتهم، فجعلوه خارجا عن قدرة اله، فالتقدير: أم هم الخالقون لا نحن. والمعنى: نحن الخالقون لا هم.". (٢)

٤٦٧-"وحذف مفعول ﴿الخالقون﴾ لقصد العموم، أي الخالقون للمخلوقات وعلى هذا جرى الطبري وقدره المفسرون عدا الطبري: أم هم الخالقون أنفسهم كأنهم جعلوا ضمير ﴿أم خلقوا من غير شيء﴾ دليل على أن المحذوف اسم معاد ذلك الضمير ولا افتراء في انتفاء أن يكونوا خالقين، فلذلك لم يتصد إلى الاستدلال على هذا الانتفاء.

---

(١) التحرير والتنوير ٧٨/٢٧

(٢) التحرير والتنوير ٧٩/٢٧

وجملة ﴿أم خلقوا السماوات والأرض﴾ يظهر لي أنها بدل من جملة ﴿أم هم الخالقون﴾ بدل مفصل من مجمل إن كان مفعول ﴿الخالقون﴾ المحذوف مرادا به العموم وكان المراد بالسماء والأرض ذاتيهما مع من فيهما أو بدل بعض من كل أن المراد ذاتي السماء والأرض، فيكون تخصيص السماوات والأرض بالذكر لعظم خلقهما.
وإعادة حرف ﴿أم﴾ للتأكيد كما يعاد عامل المبدل منه في البدل، والمعنى: أم هم الخالقون للسماوات والأرض.
والاستفهام إنكاري والكلام كناية عن إثبات أن الله خالق السماوات والأرض.
والمعنى: أن الذي خلق السماوات والأرض لا يعجزه إعادة الأجساد بعد الموت والفناء. وهذا معنى قوله تعالى :﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم﴾ [الإسراء: ٩٩] أي أن يخلق أمثال أجسادهم بعد انعدامهم.
﴿بل لا يوقنون﴾ .
إضراب إبطال على مضمون الجملتين اللتين قبله، أي لم يخلقوا من غير شيء ولا خلقوا السماوات والأرض، فإن ذلك بين لهم فما إنكارهم البعث إلا ناشئ عن عدم إيقانهم في مظان الإيقان وهي الدلائل الدالة على إمكان البعث وأنه ليس أغرب من إيجاد المخلوقات العظيمة، فما كان إنكارهم إياه إلا عن مكابرة وتصميم على الكفر.
والمعنى: أن الأمر لا هذا ولا ذاك ولكنهم لا يوقنون بالبعث فهم ينكرونه بدون حجة ولا شبهة بل رانت المكابرة على قلوبهم.
[٣٧] ﴿أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون﴾ .
﴿أم عندهم خزائن ربك﴾ .
انتقال بالعودة إلى رد جحودهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ولذلك غير أسلوب الأخبار فيه إلى مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم وكان الأصل الذي ركزوا عليه جحودهم توهم أن الله لو أرسل رسولا". (١)

٤٦٨-"هذا نظير الإضراب والاستفهام في قوله ﴿أم عندهم خزائن ربك﴾ [الطور: [٣٧]، أي بل أعندهم الغيب فهم يكتبون ما يجيدونه فيه ويروونه للناس، أما عندهم الغيب حتى يكتبوه، فبعد أن رد عليهم إنكارهم الإسلام بأنهم كالذين سألهم النبي صلى الله عليه وسلم أجرا على تبليغها أعقبه برد آخر بأنهم كالذين أطلعوا على أن عند الله ما يخالف ما أدعى الرسول صلى الله عليه وسلم إبلاغه عن الله فهم يكتبون ما اطلعوا عليه فيجدونه مخالفا لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.
قال قتادة: لما قالوا ﴿نتربص به ريب المنون﴾ [الطور: ٣٠] قال الله تعالى ﴿أم عندهم الغيب﴾ أي حتى علموا متى يموت محمد أو إلى ما يؤول إليه أمره فجعله راجعا إلى قوله :﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾ [الطور:٣٠] والوجه ما سمعته آنفا.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٨٠

والغيب هنا مصدر بمعنى الفاعل، أي ما غاب عن علم الناس.
والتعريف في ﴿الغيب﴾ تعريف الجنس وكلمة ﴿عند﴾ ا تؤذن بمعنى الاختصاص والاستئثار، أي استأثروا بمعرفة الغيب فعلموا ما لعلم به غيرهم.
والكتابة في قوله: ﴿فهم يكتبون﴾ يجوز أنها مستعارة للجزم الذي لا يقبل التخلف كقوله : ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ [الأنعام:٥٤] لأن شأن الشيء الذي يراد تحقيقه والدوام عليه أن يكتب ويسجل، كما قال الحارث بن حلزة:
وهل ينقض ما في المهارق الأهواء
فيكون الخبر في قوله: ﴿فهم يكتبون﴾ مستعملا في معناه من إفادة النسبة الخبرية.
ويجوز أن تكون الكتابة على حقيقتها، أي فهم يسجلون ما اطلعوا عليه من الغيب ليبقى معلوما لمن يطلع عليه ويكون الخبر من قوله : ﴿فهم يكتبون﴾ مستعملا في معنى الفرض والتقدير تبعا لفرض قوله: ﴿عندهم الغيب﴾ ويكون من باب قوله تعالى : ﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ [النجم:٣٥] وقوله: ﴿وقال لأوتين مالا وولداأطلع الغيب﴾ [مريم: ٧٧،٨٨].
وحاصل المعنى: أنهم لا قبل لهم بإنكار ما جحدوه ولا بإثبات ما أثبتوه.
[٤٢] ﴿أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون﴾ .
انتقال من نقض أقوالهم وإبطال مزاعمهم إلى إبطال نواياهم وعزائمهم من التبييت للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ولدعوة الإسلام من الإضرار والإخفاق وفي هذا كشف لسرائرهم". (١)

٤٦٩-"الموصولة.
وعطف ﴿وما تهوى الأنفس﴾ على الظن عطف العلة على المعلول،أي الظن الذي يبعثهم على اتباعهم انه موافق لهداهم وإلفهم.
وجملة ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ حالية مقررة للتعجيب من حالهم، أي يستمرون على اتباع الظن والهوى في حال أن الله أريل إليهم رسولا بالهدى.
ولام القسم لتأكيد الخبر للمبالغة فيما يتضمنه من التعجيب من حالهم كأن المخاطب يشك في أنه جاءهم ما فيه هدى مقنع لهم من جهة استمرارهم على ضلالهم استمرارا لا يظن مثله بعاقل.
والتعبير عن الجلالة بعنوان ﴿ربهم﴾ لزيادة التعجيب من تصاممهم عن سماع الهدى مع أنه ممن تجب طاعته فكان ضلالهم مخلوطا بالعصيان والتمرد على خالقهم.
والتعريف في ﴿الهدى﴾ للدلالة على معنى الكمال، أي الهدى الواضح.
[٢٤،٢٥] ﴿أم للإنسان ما تمنى فلله الآخرة والأولى﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير ٨٦/٢٧

إضراب **انتقالي** ناشئ عن قوله: و ﴿ما تهوى الأنفس﴾ [النجم: ٢٣].
والاستفهام المقدر بعد ﴿أم﴾ إنكاري قصد به إبطال نوال الإنسان ما يتمناه وأن يجعل ما يتمناه باعثا عن أعماله ومعتقداته بل عليه أن يتطلب الحق من دلائله وعلاماته وإن خالف ما يتمناه. وهذا متصل بقوله :﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ [النجم:٢٣].
وهذا تأديب وترويض للنفوس على تحمل ما يخالف أهواءها إذا كان الحق مخالفا للهوى وليحمل نفسه عليه حتى تتخلق به.
وتعريف ﴿الإنسان﴾ تعريف الجنس ووقوعه في حيز الإنكار المساوي للنفي جعله عاما في كل إنسان.
والموصول في ﴿ما تمنى﴾ بمنزلة المعرف بلام الجنس ووقوعه في حيز الاستفهام الإنكاري الذي بمنزلة النفي يقتضي العموم، أي ما للإنسان شيء مما تمنى، أي ليس الشيء جاريا على إرادته بل على إرادة الله وقد شمل ذلك كل هوى دعاهم إلى الإعراض عن". (١)

٤٧٠-"الرعاية للفاصلة.
[٢٦] ﴿وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾
لما بين الله أن أمور الدارين بيد الله تعالى وأن ليس للإنسان ما تمنى، ضرب لذلك مثالا من الأماني التي هي أعظم أماني المشركين وهي قولهم في الأصنام ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ [الزمر: ٣]. وقولهم :﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ [يونس: ١٨]، فبين إبطال قولهم بطريق فحوى الخطاب وهو أن الملائكة الذين لهم شرف المنزلة لأن الملائكة من سكان السماوات فهم لا يستطيعون إنكار أنهم أشرف من الأصنام لا يملكون الشفاعة إلا إذا أذن الله أن يشفع اذا شاء أن يقبل الشفاعة في المشفوع له، فكيف يكون للمشركين ما تمنوا من شفاعة الأصنام للمشركين اللذين يقولون ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ وهي حجارة في الأرض وليست ملائكة في السماوات، فثبت أن لا شفاعة إلا لمن شاء الله، وقد نفى الله شفاعة الأصنام فبطل اعتقاد المشركين أنهم شفعاؤهم، فهذه مناسبة عطف هذه الجملة على جملة ﴿أم للإنسان ما تمنى﴾ [النجم:٢٤] وليس هذا **الانتقال** اقتضابا لبين عظم أمر الشفاعة.
و ﴿كم﴾ اسم يدل على كثرة العدد وهو مبتدأ والخبر ﴿لا تغني شفاعتهم﴾ .
وقد تقدم الكلام على ﴿كم﴾ في قوله تعالى ﴿سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة﴾ في سورة البقرة[٢١١]، وقوله :﴿وكم من قرية هلكناها﴾ لأعراف: [٤].
و ﴿في السماوات﴾ صفة ل ﴿ملك﴾ والمقصود منها بيان شرفهم بشرف العالم الذي هم أهله، وهو عالم الفضائل ومنازل الأسرار.
وجملة ﴿لا تغني شفاعتهم﴾ الخ، خبر عن ﴿كم﴾ ، أي لا تغني شفاعة أحدهم فهو عام بوقوع الفعل في سياق النفي،

---

(١) التحرير والتنوير ١١٥/٢٧

ولإضافة شفاعة إلى ضميرهم، أي جميع الملائكة على كثرتهم وعلو مقدارهم لا تغني شفاعة واحد منهم.
و ﴿شيئا﴾ مفعول مطلق للتعميم، أي شيئا من الإغناء لزيادة التنصيص على عموم نفي إغناء شفاعتهم.". (١)

٤٧١-"توليه كأنه يعلم الغيب ويشاهد أن ذلك يدفع عنه العقاب، فقد كان فعله ضغثا على إبالة لأنه ظن أن التولي جريمة، وما بذل المال إلا لأنه توهم أن الجرائم تقبل الحمالة في الآخرة.
وتقديم الضمير المسند إليه على فعله المسند دون أن يقول: فيرى، لإفادة تقوي الحكم، نحو: هو يعطي الجزيل. وهذا التقوي بناء على ما أظهر من اليقين بالصفقة التي عاقد عليها وهو أدخل في التعجيب من حاله.
[٣٦-٣٨] ﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى [٣٦] وإبراهيم الذي وفى [٣٧] ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾ .
﴿أم﴾ لإضراب الانتقال إلى متعجب منه وإنكار عليه آخر وهو جهله بما عليه أن يعلمه الذين يخشون الله تعالى من علم ما جاء على ألسنة الرسل الأولين فإن كان هو لا يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فهلا تطلب ما أخبرت به رسل من قبل، طالما ذكر هو وقومه أسمائهم وشرائعهم في الجملة، وطالما سأل هو وقومه أهل الكتاب عن أخبار موسى، فهلا سأل عما جاء عنهم في هذا الغرض الذي يسعى إليه وهو طلب النجاة من عذاب الله فينبئه العاملون، فإن مآثر شريعة إبراهيم مأثور بعضها عند العرب، وشريعة موسى معلومة عند اليهود. فالاستفهام المقدر بعد ﴿أم﴾ إنكار مثل الاستفهام المذكور قبلها في قوله ﴿أعنده علم الغيب﴾ والتقدير: بل ألم ينبأ بما في صحف موسى الخ.
و ﴿صحف وموسى﴾ . : هي التوراة، وصحف ﴿إبراهيم﴾ : صحف سجل فيها ما أوحى الله إليه، وهي المذكورة في سورة الأعلى[١٨، ١٩] ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى﴾ . وروى ابن حيان والحاكم عن أبي ذر أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الكتب التي أنزلت على الأنبياء فذكر له منها عشرة صحائف أنزلت على إبراهيم، أي أنزل عليه ما هو مكتوب فيها.
وإنما خص هذه الصحف بالذكر لأن العرب يعرفون إبراهيم وشريعته ويسمونها الحنيفية وربما ادعى بعضهم أنه على إثارة منها مثل: زيد بن عمرو بن نفيل.
وأما صحف موسى فهي مشتهرة عند أهل الكتاب، والعرب يخالطون اليهود في خيبر وقريظة والنضير وتيما، ويخالطون نصارى نجران، وقد قال الله تعالى ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ [القصص: ٤٨].". (٢)

٤٧٢-"كما في قصة إبراهيم ﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي﴾ [الأنعام: ٧٦] الآيات لم يجد العقل بدا من الانتهاء إلى وجوب وجود صانع لممكنات كلها، وجوده غير ممكن بل واجب، وأن يكون متصفا بصفات الكمال

---

(١) التحرير والتنوير ١١٧/٢٧
(٢) التحرير والتنوير ١٣١/٢٧

وهو الإله الحق، فالله هو المنتهى الذي ينتهي إليه استدلال العقل، ثم إذا لا ح له دليل وجود الخالق وأفضى به إلى إثبات أنه واحد لأنه لو كان متعددا لكان كل من المتعدد غير كامل الإلهية إذ لا يتصرف أحد المتعدد فيما قد تصرف فيه الآخر، فكان كل واحد محتاجا إلى الآخر ليرضى بإقراره على إيجاد ما أوجده، وإلا لقدر على نقض ما فعله، فيلزم أن يكون كل واحد من المتعدد محتاجا إلى من يسمح له بالتصرف، قال تعالى ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾ [المؤمنون: ٩١] وقال ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا﴾ [الإسراء:٤٢] وقال ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء: ٢٢] فانتهى العقل لا محالة إلى منتهى.

[٤٣] ﴿وأنه هو أضحك وأبكى﴾ .

انتقال من الاعتبار بأحوال الآخرة إلى الاعتبار بأحوال الدنيا وضمير ﴿هو﴾ عائد إلى ﴿ربك﴾ من قوله: ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾ [النجم:٤٢].

والضحك: أثر سرور النفس، والبكاء: أثر الحزن، وكل من اضحك والبكاء من خواص الإنسان وكلاهما خلق عجيب دال على انفعال عظيم في النفس.

وليس لبقية الحيوان ضحك ولا بكاء وما ورد من إطلاق ذلك على الحيوان فهو كالتخيل أو التشبيه كقول النابغة:

بكاء حماقة تدعو هديلا ... مطوقة على فنن تغني

ولا يخلو الإنسان من حالي حزن وسرور لأنه إذا لم يكن حزينا مغموما كان مسرورا لأن الله خلق السرور والانشراح ملازما للإنسان بسبب سلامة مزاجه وإدراكه لأنه إذا كان سالما كان نشيط الأعصاب وذلك النشاط تنشأ عنه المسرة في الجملة وإن كانت متفاوتة في الضعف والقوة، فذكر الضحك والبكاء يفيد الإحاطة بأحوال الإنسان بإيجاز ويرمز إلى أسباب الفرح والحزن ويذكر بالصانع الحكيم، ويشر إلى أن الله هو المتصرف في الإنسان لأنه خلق أسباب فرحه ونكده وألهمه إلى اجتلاب ذلك بما في مقدوره وجعل حدا عظيما من ذلك خارجا على مقدور الإنسان وذلك لا يمتري فيه أحد إذا تأمل وفيه ما يرشد إلى". (١)

٤٧٣-"ومناسبة **الانتقال** إلى هذه الجملة أن فيها كيفية ابتداء الحياة.

والمراد بالزوجين: الذكر والأنثى من خصوص الإنسان لأن سياق الكلام للاعتبار ببديع صنع الله وذلك أشد اتفاقا في خلقة الإنسان، ولأن اعتبار الناس بما في أحوال أنفسهم أقرب وأمكن ولأن بعض الأزواج من الذكور والإناث لا يتخلق من نطفة بل من بيض وغيره.

ولعل وجه ذكر الزوجين والبدل منه ﴿الذكر والأنثى﴾ دون أن يقول: وأنه خلقه، أي الإنسان من نطفة، كما قال ﴿فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق﴾ [الطارق:٥،٦] الآية أمران:

أحدهما : إدماج الامتنان في أثناء ذكر الانفراد بالخلق بنعمة أن خلق لكل إنسان زوجة كما قال تعالى ﴿ومن آياته أن خلق

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٢/٢٧

لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها﴾ [الروم: ٢١] الآية.
الثاني: الإشارة إلى أن لكلا الزوجين حظا من النطفة التي منها يخلق الإنسان فكانت لذكر نطفة وللمرأة نطفة كما ورد في الحديث الصحيح "أنه إذا سبق ماء الرجل أشبه المولود أباه وإن سبق ماء المرأة أشبه المولود أمه" ، وبهذا يظهر أن لكل من الذكر والأنثى نطفة وإن كان المتعارف عند الناس قبل القرآن أن النطفة هي ماء الرجل إلا أن القرآن يخاطب الناس بما يفهمون ويشير إلى ما لا يعلمون إلى أن يفهمه المتدبرون.
وحسبك ما وقع بيانه بالحديث المذكور آنفا.
والنطفة: فعلة مشتقة من: نطف الماء، إذا قطر، فالنطفة ماء قليل وسمي ما منه النسل نطفة بمعنى منطوف، أي مصبوب فماء الرجل مصبوب، وماء المرأة أيضا مصبوب فإن ماء المرأة يخرج مع بويضة دقيقة تتسرب مع دم الحيض وتستقر في كيس دقيق فإذا باشر الذكر الأنثى انحدرت تلك البيضة من الأنثى واختلطت مع ماء الكر في قرارة الرحم.
و ﴿من﴾ في قوله: ﴿من نطفة﴾ ابتدائية فإن خلق الإنسان آت وناشئ بواسطة النطفة، فإذا تكونت النطفة وأمنيت ابتدأ خلق الإنسان.
و ﴿تمنى﴾ تدفق وفسروه بمعنى تقذف أيضا.
وقيل أن ﴿تمنى﴾ بمعنى تراق، وجعلوا تسمية الوادي الذي بقرب مكة منى لأنه تراق به دماء البدن من الهدايا. ولم يذكر أهل اللغة في معاني مني أو أمنى أن منها الإراقة. وهذا من مشكلات اللغة.". (١)

٤٧٤-"[٥٦] ﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾ .
استئناف ابتدائي أو فذلكة لما تقدم على اختلاف الاعتبارين في مرجع اسم الإشارة فإن جعلت اسم الإشارة راجعا إلى القرآن فإنه لحضوره في الأذهان ينزل منزلة شيء محسوس حاضر بحيث يشار إليه، فالكلام **انتقال** اقتضابي تنهية لما قبله وابتداء لما بعد اسم الإشارة على أسلوب قوله تعالى: ﴿هذا بلاغ للناس﴾ [ابراهيم: ٥٢].
والكلام موجه إلأى المخاطبين بمعظم ما في هذه السورة فلذلك اقتصر على وصف الكلام بأنه نذير، دون أن يقول: نذير وبشير، كما قال في الآية الأخرى ﴿إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾ [الأعراف:١٨٨].
والإنذار بعضه صريح مثل قوله: ﴿ليجزي الذين أساءوا بما عملوا﴾ [لنجم:٣١] الخ، وبعضه تعريض كقوله: ﴿وأنه أهلك عادا الأولى﴾ [لنجم:٥٠] وقوله: ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾ [النجم:٤٢].
وإن جعلت اسم الإشارة عائدا إلى ما تقدم من أول السورة بتأويله بالمذكور، أو إلى ما لم ينبأ به الذي تولى وأعطى قليلا، ابتداء من قوله: ﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى﴾ [لنجم:٣٦] إلى هنا على كلام التأويلين المتقدمين، فتكون الإشارة إلى الكلام المتقدم تنزيلا لحضوره في السمع منزلة حضوره في المشاهدة بحيث يشار إليه.
و النذير حقيقته المخبر عن حدوث حدث مضر بالمخبر بالفتح ، وجمعه: نذر، هذا هو الأشهر فيه. ولذلك جعل ابن

---
(١) التحرير والتنوير ٢٧/١٤٥

جريج وجمع من المفسرين الإشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم وهو بعيد.

ويطلق النذير على الإنذار وهو خبر المخبر على طريقة المجاز العقلي. قال أبو القاسم الزجاجي: يطلق النذير على الإنذار يريد أنه اسم مصدر ومنه قوله تعالى: ﴿فستعلمون كيف نذير﴾ [الملك: ١٧] أي إنذاري وجمعه نذر أيضا، ومنه قوله تعالى: ﴿كذبت ثمود بالنذر﴾ [القمر:٢٣] ، أي بالمنذرين. وإطلاق نذير على ما هو كلام وهو القرآن أو بعض آياته مجاز عقلي، أو استعارة على رأي جمهور أهل اللغة وهو حقيقة على رأي الزجاجي.

والمراد بالنذر الأولى: السالفة، أي أن معنى هذا الكلام من معاني الشرائع الأولى كقول النبي "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت"". (١)

٤٧٥-"على حالة لو أن في البحر حاتما ... على جوده لظن بالماء حاتم

والظرفية مجازية. ويجوز أن تكون ﴿على﴾ للاستعلاء المجازي، أي ملابسا لأمر قد قدر ومتمكنا منه.

ومعنى التمكن: شدة المطابقة لما قدر، وأنه لم يحد عنه قيد شعرة.

والأمر: الحال والشأن وتنوينه للتعظيم.

ووصف الأمر بأنه ﴿قد قدر﴾ ، أي أتقن وأحكم بمقدار، يقال: قدره بالتخفيف إذا ضبطه وعينه كما قال تعالى :﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ [القمر:٤٩] ومحل ﴿على أمر﴾ النصب على الحال من الماء.

وأكتفي بهذا الخبر عن بقية المعنى. وهو طغيان الطوفان عليهم اكتفاء بما أفاده تفريع ﴿ففتحنا أبواب السماء السماء﴾ كما تقدم **انتقالا** إلى وصف إنجاء نوح من ذلك الكرب العظيم، فجملة ﴿وحملناه﴾ معطوفة على التفريع عطف احتراس.

والمعنى: فأغرقناهم ونجيناه.

و ﴿ذات ألواح ودسر﴾ صفة السفينة، أقيمت مقام الموصوف هنا معوضا عن أن يقال: وحملناه على الفلك لأن في هذه الصفة بيان متانة هذه السفينة وإحكام صنعها. وفي ذلك إظهار لعناية الله بنجاة نوح ومن معه فإن الله أمره بصنع السفينة وأوحى إليه كيفية صنعها ولم تكن تعرف سفينة قبلها، قال تعالى: ﴿وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ [هود:٣٧] وعادة البلغاء إذا احتاجوا لذكر صفة بشيء وكان ذكرها دالا على موصوفها أن يستغنوا عن ذكر الموصوف إيجازا كما قال تعالى :﴿أن اعمل سابغات﴾ [سبأ: ١١]، أي دروعا سابغات.

والحمل: رفع الشيء على الظهر أو الرأس لنقله ﴿وتحمل أثقالكم﴾ [النحل: ٧] وله مجازات كثيرة.

والألواح: جمع لوح وهو القطعة المسواة من الخشب.

والدسر: جمع دسار، وهو المسمار.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٥/٢٧

وعدي فعل ﴿حملنا﴾ إلى ضمير نوح دون من معه من قومه لأن هذا الحمل كان إجابة". (١)

٤٧٦-"معروف للمخاطبين من أخذ الملوك والجبابرة.
والعزيز: الذي لا يغلب. والمقتدر: الذي لا يعجز.
وأريد بذلك أنه أخذ لم يبق على العدو أي إبقاء بحيث قطع دابر فرعون وآله.
﴿أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر﴾ .
هذه الجملة كالنتيجة لحاصل القصص عن الأمم التي كذبت الرسل من قوم نوح فمن ذكر بعدهم ولذلك فصلت ولم تعطف.
وقد غير أسلوب الكلام من كونه موجها للرسول صلى الله عليه وسلم إلى توجيهه للمشركين لينتقل عن التعريض إلى التصريح اعتناء بمقام الإنذار والإبلاغ.
والاستفهام في قوله ﴿أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر﴾ يجوز أن يكون على حقيقته، ويكون من المحسن البديعي الذي سماه السكاكي سوق المعلوم مساق غيره وسماه أهل الأدب من قبله ب تجاهل العارف. وعدل السكاكي عن تلك التسمية وقال لوقوعه في كلام الله تعالى نحو قوله : ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ [سبأ: ٢٤]
وهو هنا للتوبيخ كما في قول ليلى ابنة طريف الخارجية ترثي أخاها الوليد بن طريف الشيباني:
أيا شجر الخابور مالك مورقا ... كأنك لم تجزع على ابن طريف
الشاهد في قولها: كأنك لم تجزع الخ.
والتوبيخ على تخطئتهم في عدم العذاب الذي حل بأمثالهم حتى كأنهم يحسبون كفارهم خيرا من الكفار الماضين المتحدث عن قصصهم، أي ليس لهم خاصية تربأ بهم عن أن يلحقهم ما لحق الكفار الماضين. والمعنى: أنكم في عدم اكتراثكم بالموعظة بأحوال المكذبين السابقين لا تخلون عن أن أحد الأمرين الذي طمأنكم من أن يصيبكم مثلما أصابهم.
و ﴿أم﴾ للإضراب **الانتقالي**. وما يقدر بعدها من استفهام مستعمل في الإنكار. والتقدير: بل ما لكم براءة في الزبر حتى تكونوا آمنين من العقاب.
وضمير ﴿كفاركم﴾ لأهل مكة وهم أنفسهم الكفار، فإضافة لفظ كفار إلى ضميرهم إضافة بيانية لأن المضاف صنف من جنس من أضيف هو إليه فهو على تقدير ﴿من﴾ ". (٢)

٤٧٧-"البيانية. والمعنى: الكفار منكم خير من الكفار السالفين. أي أأنتم الكفار خير من أولئك الكفار.
والمراد بالأخيرية انتفاء الكفر، أي خير عند الله الانتقام الإلهي وادعاء فارق بينهم وبين أولئك.
والبراءة: الخلاص والسلامة مما يضر أو يشق أو يكلف كلفة. والمراد هنا: الخلاص من المؤاخذة والمعاقبة.

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٧/٢٧
(٢) التحرير والتنوير ١٩٩/٢٧

﴿والزبر﴾ : جمع زبور، وهو الكتاب، وزبور بمعنى مزبور، أي براءة كتبت في كتب الله السالفة.

والمعنى: ألكم براءة في الزبر أن كفاركم لا ينالهم العقاب الذي نال أمثالهم من الأمم السابقة.

و ﴿في لزبر﴾ صفة ﴿براءة﴾ ، أي كائنة في الزبر، أي مكتوبة في صحائف الكتب.

وأفاد هذا الكتاب ترديد النجاة من العذاب بين الأمرين: إما الاتصاف بالخير الإلهي المشار إليه بقوله تعالى ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ ، وإما المسامحة والعفو عما يقترفه المرء من السيئات المشار إليه بقول النبي صلى الله عليه وسلم "لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" .

والمعنى انتفاء كلا الأمرين عن المخاطبين فلا مأمن لهم من حلول العذاب بهم كما حل بأمثالهم.

والآية تؤذن بارتقاب عذاب ينال المشركين في الدنيا دون العذاب الأكبر، وذلك عذاب الجوع الذي في قوله تعالى ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ [الدخان:١٠] كما تقدم، وعذاب السيف يوم بدر الذي في قوله تعالى ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾ [الدخان:١٦].

[٤٤، ٤٥] ﴿أم يقولون نحن جميع منتصر [٤٤] سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ .

﴿أم﴾ منقطعة لإضراب انتقالي. والاستفهام المقدر بعد ﴿أم﴾ مستعمل في التوبيخ، فإن كانوا قد صرحوا بذلك فظاهر، وإن كانوا لم يصرحوا به فهو إنباء بأنهم سيقولونه.". (١)

٤٧٨-"منجز وعده ولا يزيد ذلك الكافرين إلا غرورا فلا يعيروه جانب اهتمامهم وأخذ العدة لمقاومته كما قال تعالى في نحو ذلك ﴿ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا﴾ [لأنفال: ٤٤].

والتعريف في ﴿الجمع﴾ أي الجمع المعهود من قوله ﴿نحن جميع منتصر﴾ والمعنى: سيهزم جمعهم. وهذا معنى قول النحاة: اللام عوض عن المضاف إليه.

والهزم: الغلب، والسين لتقريب المستقبل، كقوله ﴿قل للذين كفروا ستغلبون﴾ [آل عمران: ١٢]. وبني الفعل للمجهول لظهور أن الهازم المسلمون.

و ﴿يولون﴾ : يجعلون غيرهم يلي، فهو يتعدى بالتضعيف إلى مفعولين، وقد حذف مفعوله الأول هنا للاستغناء عنه إذ الغرض الإخبار عنهم بأنهم إذا جاء الوغى يفرون ويولونكم الأدبار.

و ﴿الدبر﴾ : الظهر، وهو ما أدبر، أي كان وراء، وعكسه القبل.

والآية إخبار بالغيب، فإن المشركين هزموا يوم بدر، وولوا الأدبار يومئذ، وولوا الأدبار في جمع آخر وهو جمع الأحزاب في غزوة الخندق ففر بليل كما مضى في سورة الأحزاب وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج لصف القتال يوم بدر تلا هذه الآية قبل القتال، إيماء إلى تحقيق وعد الله بعذابهم في الدنيا.

وأفرد الدبر، والمراد الجمع لأنه جنس يصدق بالمتعدد، أي يولي كل أحد منهم دبره، وذلك لرعاية الفاصلة ومزاوجة القرائن،

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٠/٢٧

على أن انهزام الجمع انهزامة واحدة ولذلك الجيش جهة تول واحدة، وهذا الهزم وقع يوم بدر.
روي عن عكرمة أن عمر بن الخطاب قال: لما نزلت ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ جعلت أقول: أي جمع يهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يثب في الدرع، ويقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ اه، أي لم يتبين له المراد بالجمع الذي سيهزم ويولي الدبر فإنه لم يكن يومئذ قتال ولا كان يخطر لهم ببال.
[٤٦] ﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾ .
﴿بل﴾ للإضراب **الانتقالي**، وهو **انتقال** من الوعيد بعذاب الدنيا كما حل بالأمم قبلهم إلى الوعيد بعذاب الآخرة. قال تعالى ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون". (١)

٤٧٩-"وداخله في النظام الشمسي. والقمر: كوكب أرضي لأنه دون الأرض وتابع لها كبقية أقمار الكواكب فذكر الشمس والقمر كذكر السماء والأرض، والمشرق، والمغرب، والبحرين.
[٦] ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ .
عطف على جملة ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ [الرحمن:٥] عطف الخبر على الخبر للوجه الذي تقدم لأن سجود الشمس والقمر لله تعالى وهو **انتقال** من الامتنان بما في السماء من المنافع إلى الامتنان بما في الأرض، وجعل لفظ ﴿النجم﴾ واسطة **الانتقال** لصلاحيته لأنه يراد منه نجوم السماء وما يسمى نجما من نبات الأرض كما يأتي.
وعطفت جملة ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ ولم تفصل فخرجت من أسلوب تعداد الأخبار إلى أسلوب عطف بعض الأخبار على بعض لأن الأخبار الواردة بعد حروف العطف لم يقصد بها التعداد إذ ليس فيها تعريض بتوبيخ المشركين، فالإخبار بسجود النجم والشجر أريد به الإيقاظ إلى ما في هذا من الدلالة على عظيم القدرة دلالة رمزية، ولأنه لما اقتضى المقام جمع النظائر من المزاوجات بعد ذكر الشمس والقمر كان ذلك مقتضيا سلوك طريقة لوصل بالعطف بجامع التضاد.
وجعلت الجملة مفتتحة بالمسند إليه لتكون على صورة فاتحة الجملة التي عطفت عليها. وأتي بالمسند فعلا مضارعا للدلالة على تجدد هذا السجود وتكرره على معنى قوله تعالى: ﴿ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال﴾ [الرعد:١٥].
و﴿النجم﴾ يطلق: اسم جمع على نجوم السماء قال تعالى :﴿والنجم إذا هوى﴾ [النجم:١] ويطلق مفردا فيجمع على نجوم، قال تعالى: ﴿وإدبار النجوم﴾ [الطور: ٤٩]. وعن مجاهد تفسيره هنا بنجوم السماء.
ويطلق النجم على النبات والحشيش الذي لا سوق له فهو متصل بالتراب. وعن ابن عباس تفسير النجم في هذه الآية بالنبات الذي لا ساق له. والشجر: النبات الذي له ساق وارتفاع عن وجه الأرض. وهذان ينتفع بهما الإنسان والحيوان. فحصل من قوله: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ بعد قوله: ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ [الرحمن:٥] قرينتان متوازيتان في

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٢٠٢

الحركة والسكون وهذا من المحسنات البديعية الكاملة.". (١)

٤٨٠-"[١٤، ١٥] ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار [١٤] وخلق الجان من مارج من نار﴾

هذا **انتقال** إلى الاعتبار بخلق الله الإنسان وخلقه الجن.

والقول في مجيء المسند كالقول في قوله : ﴿علم القرآن﴾ [الرحمن:٢].

والمراد ب الإنسان آدم وهو أصل الجنس وقوله: ﴿من صلصال﴾ تقدم نضيره في سورة الحجر[٢].

والصلصال: الطين اليابس.

والفخار: الطين المطبوخ بالنار ويسمى الخزف. وظاهر كلام المفسرين أن قوله: ﴿كالفخار﴾ صفة ل ﴿صلصال﴾ . وصرح بذلك الكواشي في تلخيص التبصرة ولم يعرجوا على فائدة هذا الوصف. والذي يظهر لي أن يكون كالفخار حالا من ﴿الإنسان﴾ ، أي خلقه من صلصال فصار الإنسان كالفخار في صورة خاصة وصلابة.

ومعنى أنه صلصال يابس يشبه يبس الطين المطبوخ والمشبه غير المشبه به، وقد عبر عنه بالحمأ المسنون، والطين اللازب، والتراب.

﴿والجان﴾ : الجن والمراد به إبليس وما خرج عنه من الشياطين، وقد حكى الله عنه قوله: ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ [ص:٧٦].

والمارج: هو المختلط وهو اسم فاعل بمعنى اسم المفعول مثل دافق، وعيشة راضية، أي خلق الجان من خليط من نار، أي مختلط بعناصر أخرى إلا أن النار أغلب عليه كما كان التراب أغلب على تكوين الإنسان مع ما فيه من عنصر النار وهو الحرارة الغريزية والمقصود هنا هو خلق الإنسان بقرينة تذييله بقوله: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ [الرحمن:١٦] وإنما قرن بخلق الجان إظهارا لكمال النعمة في خلق الإنسان من مادة لينة قابلة للتهذيب والكمال وصدور الرفق بالموجودات التي معه على وجه الأرض.

وهو أيضا تذكير وموعظة بمظهر من مظاهر قدرة الله وحكمته في خلق نوع الإنسان وجنس الجان.

وفيه إيماء إلى ما سبق في القرآن النازل قبل هذه السورة من تفضيل الإنسان على الجان إذ أمر الله الجان بالسجود للإنسان، وما ينطوي من ذلك من وفرة مصالح الإنسان". (٢)

٤٨١-"[١٧] ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ .

استئناف ابتدائي فيه بيان لجملة ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ [الرحمن:٥] وعطف ﴿ورب المغربين﴾ لأجل ما ذكرته آنفا من مراعاة المزاوجة.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٢٢١

(٢) التحرير والتنوير ٢٧/٢٢٩

وحذف المسند إليه على الطريقة التي سماها السكاكي بإتباع الاستعمال الوارد على تركه أو ترك نظائره وتقدم غير مرة.
والمشرق: جهة شروق الشمس، والمغرب: جهة غروبها وتثنية المشرقين والمغربين باعتبار أن الشمس تطلع في فصلي الشتاء والربيع من سمت وفي فصلي الصيف والخريف من سمت آخر وبمراعاة وقت الطول ووقت القصر وكذلك غروبها وهي فيما بين هذين المشرقين والمغربين ينتقل طلوعها وغروبها في درجات متقاربة فقد يعتبر ذلك فيقال: المشارق والمغارب كما في قوله تعالى: ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون﴾ في سورة المعارج[٤٠].
ومن زعم أن تثنية المشرقين لمراعاة مشرق الشمس والقمر وكذلك تثنية المغربين لم يغص على معنى كبير.
وعلى ما فسر به الجمهور ﴿المشرقين﴾ و ﴿المغربين﴾ بمشرقي الشمس ومغربيها فالمراد ب ﴿المشرقين﴾ النصف الشرقي من الأرض، وب ﴿المغربين﴾ النصف الغربي منها.
وربوبية الله تعالى بالمشرقين والمغربين بمعنى الخلق والتصرف.
[١٨] ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ .
تكرير كما علمت آنفا.
[١٩،٢٠] ﴿مرج البحرين يلتقيان [١٩] بينهما برزخ لا يبغيان﴾ .
خبر آخر عن ﴿الرحمن﴾ قصد منه العبرة بخلق البحار والأنهار، وذلك خلق عجيب دال على عظمة قدرة الله وعلمه وحكمته.
ومناسبة ذكره عقب ما قبله أنه لما ذكر أنه سبحانه رب المشرقين ورب المغربين وكانت الأبحر والأنهار في جهات الأرض ناسب **الانتقال** إلى الاعتبار بخلقهما وبالامتنان بما أودعها من منافع الناس.". (١)

٤٨٢-"ويجوز أن يكون عموم ﴿شيئا﴾ مرادا به الخصوص، أي ليس بضارهم شيئا مما يوهمه تناجي المنافقين من هزيمة أو قتل إلا بتقدير الله حصول هزيمة أو قتل.
والمعنى: أن التناجي يوهم الذين آمنوا ما ليس واقعا فأعلمهم الله أن لا يحزنوا بالنجوى لأن الأمور تجري على ما قدره الله بنفس الآمر حتى تأتيهم الأخبار الصادقة.
وتقديم الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ للاهتمام بمدلول هذا المتعلق.
[١١] ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾ .
فصل بين آيات الأحكام المتعلقة بالنجوى بهذه الآية مراعاة لاتحاد الموضوع بين مضمون هذه الآية ومضمون التي بعدها في أنهما يجمعهما غرض التأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، تلك المراعاة أولى من مراعاة اتحاد سياق الأحكام.
ففي هذه الآية أدب في مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم، والآية التي بعدها تتعلق بالأدب في مناجاة الرسول صلى الله

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣١/٢٧

عليه وسلم وأخر تلك عن آيات النجوى العامة إيذانا بفضلها دون النجوى التي تضمنتها الآيات السابقة، فاتحاد الجنس في نجوى هو ومسوغ **الانتقال** من النوع الأول إلى النوع الثاني، والإيماء إلى تميزها بالفضل هو الذي اقتضى الفصل بين النوعين بآية أدب المجلس النبوي.

وأيا قد كان للمنافقين نية مكر في قضية المجلس كما كان لهم نية مكر في النجوى، وهذا مما أنشأ مناسبة **الانتقال** من الكلام على النجوى إلى ذكر التفسح في المجلس النبوي الشريف.

روي عن مقاتل أنه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم في الصفة، وكان في المكان ضيق في يوم الجمعة فجاء ناس من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس بن شماس قد سبقوا في المجلس فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يفسح لهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكرم أهل بدر فقال لمن حوله: هم يا فلان بعدد الواقفين من أهل بدر فشق ذلك على الذين أقيموا، وغمز المنافقون وقالوا: ما أنصف هؤلاء، وقد أحبوا القرب من نبيهم فسبقوا إلى مجلسه فانزل". (١)

٤٨٣-"نزلت بعد سورة البينة وقبل سورة النصر.

وكان نزولها عقب إخراج بني النضير من بلادهم سنة أربع من الهجرة. وعدد آيها أربع وعشرون باتفاق العادين.

أغراض هذه السورة

وفق الاتفاق على أنها نزلت في شأن بني النضير ولم يعينوا ما هو الغرض الذي نزلت فيه. ويظهر أن المقصد منها حكم أموال بني النضير بعد الانتصار عليهم، كما سنبينه في تفسير الآية الأولى منها.

وقد اشتملت إلى أن ما في السماوات وما في الأرض دال على تنزيه الله، وكون في السماوات والأرض ملكه، وأنه الغالب المدبر.

وعلى ذكر نعمة الله على ما يسر من إجلاء بني النضير مع ما كانوا عليه من المنعة والحصون والعدة. وتلك آية من آيات تأييد رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلبته على أعدائه.

وذكر ما أجراه المسلمون من إتلاف أموال بني النضير وأحكام ذلك في أموالهم وتعيين مستحقيه من المسلمين.

وتعظيم شأن المهاجرين والأنصار والذين يجيئون بعدهم من المؤمنين.

وكشف دخائل المنافقين ومواعيدهم لبني النضير أن ينصروهم وكيف كذبوا وعدهم.

وأنحى على بني النضير والمنافقين بالجبن وتفرق الكلمة وتنظير حال تغرير المنافقين لليهود بتغرير الشيطان للذين يكفرون بالله، وتنصله من ذلك يوم القيامة فكان عاقبة الجميع الخلود في النار.

ثم خطاب المؤمنين بالأمر بالتقوى والحذر من أحوال أصحاب النار والتذكير بتفاوت حال الفريقين.

وبيان عظمة القرآن وجلالته واقتضائه خشوع أهله.

وتخلل ذلك إيماء إلى حكمة شرائع **انتقال** الأموال بين المسلمين بالوجوه التي نظمها الإسلام بحيث لا تشق على أصحاب

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣/٢٨

الأموال.

والآمر باتباع ما يشرعه الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.". (١)

٤٨٤-"والمعنى: فقطع ما قطعتم من النخل وترك ما تركتم لأن الله أذن للمسلمين به لصلاح لهم فيه، ﴿وليخزي الفاسقين﴾ ، أي ليهين بني النضير فيروا كرائم أموالهم بعضها مخضود وبعضها بأيدي أعدائهم. فذلك عزة للمؤمنين وخزي للكافرين والمراد ب ﴿الفاسقين﴾ هنا: يهود النضير.

وعدل عن الإتيان بضميرهم كما أتي بضمائرهم من قبل ومن بعد إلى التعبير عنهم بوصف ﴿الفاسقين﴾ لأن الوصف المشتق يؤذن بسبب ما اشتق منه في ثبوت الحكم، أي ليجزيهم لأجل الفسق.

والفسق: الكفر.

[٦] ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير يشاء والله على كل شيء قدير﴾ .

يجوز أن يكون عطفا على جملة ﴿ما قطعتم من لينة﴾ [الحشر: ٥] الآية فتكون امتنانا وتكملة لمصارف أموال بني النضير.

ويجوز أن تكون عطفا على مجموع ما تقدم عطف القصة على القصة والغرض على الغرض **للانتقال** إلى التعريف بمصير موال بني النضير لئلا يختلف رجال المسلمين في قسمته. ولبيان أن ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم في قسمة أموال بني النضير هو عدل إن كانت الآية نزلت بعد القسمة وما صدق ﴿ما أفاء الله﴾ هو ما تركوه من الأرض والنخل والنقض والحطب.

والفيء معروف في اصطلاح الغزاة ففعل أفاء أعطى الفيء، فالفيء في الحروب والغارات ما يظفر به الجيش من متاع عدوهم وهو أعم من الغنيمة ولم يتحقق أئمة اللغة في أصل اشتقاقه فيكون الفيء بقتال ويكون بدون قتال وأما الغنيمة فهي ما أخذ بقتال.

وضمير ﴿منهم﴾ عائد إلى ﴿الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ [الحشر: ٢] الواقع في أول السورة وهم بنو النضير. وقيل: أريد به الكفار، وأنه نزل في فيء فدك فهذا بعيد ومخالف للآثار.

وقوله: ﴿فما أوجفتم عليه﴾ خبر عن "ما" الموصولة قرن بالفاء لأن الموصول كالشرط لتضمنه معنى التسبب كما تقدم آنفا في قوله: ﴿فبإذن الله﴾ [الحشر: ٥].". (٢)

٤٨٥-"من المسلمين، ي لئلا يتداوله الأغنياء ولا ينال أهل الحاجة نصيب منه.

والمقصود من ذلك. إبطال ما كان معتادا بين العرب قبل الإسلام من استئثار قائد الجيش بأمور من المغانم وهي: المرباع،

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٥٧

(٢) التحرير والتنوير ٢٨/٧٠

والصفايا، وما صالح عليه عدوه دون قتال، والنشيطة والفضول.

قال عبد الله بن غنمة الضبي يخاطب بسطام بن قيس سيد بني شيبان وقائدهم في أيامهم:

لك المرباع منه والصفايا ... وحكمك والنشيطة والفضول

فالمرباع: ربع المغانم كان يستأثر به قائد الجيش.

والصفايا: النفيس من المغانم الذي لا نظير له فتعذر قسمته، كان يستأثر به قائد الجيش، وأما حكمه فهو ما أعطاه العدو من المال إذا نزلوا على حكم أمير الجيش.

والنشيطة: ما يصيبه الجيش في طريقه من مال عدوهم قبل أن يصلوا إلى موضع القتال.

والفضول: ما يبقى بعد قسمة المغانم مما لا يقبل القسمة على رؤوس الغزاة مثل بعير وفرس.

وقد أبطل الإسلام ذلك كله فجعل الفيء مصروفا إلى ستة مصارف راجعة فوائدها إلى عموم المسلمين لسد حاجاتهم العامة والخاصة، فإن ما هو لله وللرسول صلى الله عليه وسلم إنما يجعله الله لما يأمر به رسوله صلى الله عليه وسلم وجعل الخمس من المغانم كذلك لتلك المصارف.

وقد بدأ من هذا التعليل أن من مقاصد الشريعة أن يكون المال دولة بين الأمة الإسلامية على نظام محكم في **انتقاله** من كل مال لم يسبق عليه ملك لأحد مثل الموات، والفيء، واللقطات، والركاز، أو كان جزءا معينا مثل: الزكاة، والكفارات، وتخميس المغانم، والخراج، والمواريث، وعقود المعاملات التي بين جانبي مال وعمل مثل: القراض، والمغارسة، والمساقاة، وفي الأموال التي يظفر بها الظافر بدون عمل وسعي مثل: الفيء والركائز، وما ألقاه البحر، وقد بينت ذلك في الكتاب الذي سميته "مقاصد الشريعة الإسلامية" .

والدولة بضم الدال: ما يتداوله المتداولون. والتداول: التعاقب في التصرف في". (١)

٤٨٦-"الشيطان يوم القيامة: ﴿إني بريء منك﴾ ، أي قال كل شيطان لقرينه من الإنس إني بريء منك طمعا في أن يكون ذلك منجيه من العذاب.

ففي الآية إيجاز حذف فيها معطوفات مقدرة بعد شرط "لمأ" هي داخلة في الشرط إذ التقدير: فلما كفر واستمر على الكفر وجاء يوم الحشر واعتذر بأن الشيطان أضله قال الشيطان: ﴿إني بريء منك﴾ الخ. وهذه المقدرات مأخوذة من آيات أخرى مثل آية سورة إبراهيم وآية سورة ق[٢٧]. ﴿قال قرينه ربنا ما أطغيته﴾ الآية. وظاهر أن هذه المحاجة لا تقع إلا في يوم الجزاء وبعد موت الكافر على الكفر دون من أسلموا.

وقول: ﴿فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها﴾ من تمام المثل. أي كان عاقبة المثل بهما خسرانهما معا. وكذلك تكون عاقبة الفريقين الممثلين أنهما خائبان فيما دبرا وكادا للمسلمين.

وجملة ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ تذييل، والإشارة الى ما يدل عليه ﴿فكان عاقبتهما أنهما في النار﴾ من معنى، فكانت

---

(١) التحرير والتنوير ٧٦/٢٨

عاقبتهما سوأى والعلقبة السوأى جزاء جميع الظالمين المعتدين على الله والمسلمين، فكما كانت عاقبة الكافر وشيطانه عاقبة سوء كذلك لكون عاقبة الممثلين بهما وقد اشتركا في ظلم أهل الخير والهدى.

[١٨] ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ . **انتقال** من الامتنان على المسلمين بما يسر من فتح قرية بني النضير بدون قتال، وما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم منهم، ووصف ما جرى من خيبتهم وخيبة أملهم في نصرة المنافقين، ومن الإيذان بأن عاقبة أهل القرى الباقية كعاقبة أسلافهم. وكذلك موقف أنصارهم معهم الى الأمر بتقوى الله شكرا له على ما منح وما وعد من صادق الوعد فإن الشكر جزاء العبد عن نعمة ربه إذ لا يستطيع جزاء غير ذلك فأقبل على خطاب الذين آمنوا بالأمر بتقوى الله.

ولما كان ما تضمنته السورة من تأييد الله إياهم وفيض نعمه عليهم كان من منافع الدنيا، أعقبه بتذكيرهم بالإعداد للآخرة بقوله: ﴿ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ أي لتتأمل كل نفس فيما قدمته للآخرة.". (١)

٤٨٧-"﴿أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ ، وتقدم في قوله تعالى: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين﴾ الآية[٩٥] في سورة النساء.

وأما من ذهب من علماء الأصول إلى تعميم نحو ﴿لا يستوون﴾ من قوله تعالى: ﴿أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون﴾ [السجدة:١٨] فاستدلوا به على أن الفاسق لا يلي ولاية النكاح، وهو استدلال الشافعية فليس ذلك بمرضي، وقد أباه الحنفية ووافقهم تاج الدين السبكي في غير جمع الجوامع.

والقصر المستفاد من ضمير الفصل في قوله تعالى: ﴿أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ قصر ادعائي لأن فوزهم أبدي فوز غيرهم ببعض أمور الدنيا كالعدم.

[٢١] ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ .

ما حذر المسلمين من الوقوع في مهواة نسيان الله التي وقع فيها الفاسقون وتوعد الذين نسوا الله بالنار، وبين حالهم بأن الشيطان سول لهم الكفر. وكان القرآن دالا على مسالك الخير ومحذرا من مسالك الشر، وما وقع الفاسقون في الهلكة إلا من جراء إهمالهم التدير فيه، وذلك من نسيانهم الله تعالى انتقل الكلام إلى التنويه بالقرآن وهديه البين الذي لا يصرف الناس عنه إلا أهواءهم ومكابرتهم، وكان إعراضهم عنه أصل استمرار ضلالهم وشركهم، ضرب لهم هذا المثل تعجيبا من تصلبهم في الضلال.

وفي هذا **الانتقال** إيذان بانتهاء السورة لأنه **انتقال** بعد طول الكلام في غرض فتح قرى اليهود وما ينال المنافقين من جرائه من خسران في الدنيا والآخرة.

و ﴿هذا القرآن﴾ إشارة إلى المقدار الذي نزل منه، وهو ما عرفوه وتلوه وسمعوا تلاوته.

---

(١) التحرير والتنوير ٩٨/٢٨

وفائدة الإتيان باسم إشارة القريب التعريض لهم بأن القرآن غير بعيد عنهم. وأنه في متناولهم ولا كلفة عليهم في تدبره ولكنهم قصدوا الإعراض عنه.

وهذا مثل ساقه الله تعالى كما دل عليه قوله: ﴿وتلك الأمثال﴾ الخ. وقد ضرب هذا مثلا لقسوة الذين نسوا الله وانتفاء تأثرهم بقوارع القرآن.

والمراد بالجبل: حقيقته، لأن الكلام فرض وتقدير كما هو مقتضى ﴿لو﴾ أن تجيء". (١)

٤٨٨-"والحكمة والإنقاذ من الضلال ومن إفاضة هذه الكمالات على الأميين الذين لم تكن لهم سابقة علم ولا كتاب، ومن لحاق أمم آخرين في هذا الخبر فزال اختصاص اليهود بالكتاب والشريعة، وهذا أجدع لأنفهم إذا حالوا أن يجيء رسول أمي بشريعة إلى أمة أمية فضلا عن أن نلتحق بأمية أمم عظيمة كانوا أمكن في المعارف والسلطان.

وقال: ﴿قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ [آل عمران:٧٣] يختص به. وهذا تمهيد ومقدمة لقوله تعالى: ﴿مثل الذين حملوا التوراة﴾ [الجمعة:٥] الآيات.

[٥] ﴿مثل مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ .

بعد أن تبين أنه تعالى آتى فضله قوما أميين أعقبه بأنه قد آتى فضله أهل الكتاب فلم ينتفع به هؤلاء الذين قد اقتنعوا من العلم بأن يحملوا التوراة دون فهم وهم يحسبون أن ادخار أسفار التوراة **وانتقالها** من بيت إلى بيت كاف في التبجح بها وتحقير من لم تكن التوراة بأيديهم، فالمراد اليهود الذين قاوموا دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وظاهروا المشركين.

وقد ضرب الله لهؤلاء مثلا بحال حمار يحمل أسفارا لا حظ له منها إلا الحمل دون علم ولا فهم.

ذلك أن علم اليهود بما في التوراة أدخلوا فيه ما صيره مخلوطا بأخطاء وضلالات ومتبعا فيه هوى نفوسهم وما لا يعدو نفعهم الدنيوي ولم يتخلقوا بما تحتوي عليه من الهدى والدعاء إلى تزكية النفس وقد كتموا ما في كتبهم من العهد باتباع النبي الذي يأتي لتخليصهم من ربقة الضلال فهذا وجه ارتباط هذه الآية بالآيات التي قبلها، وبذلك كانت هي كالتتمة لما قبلها.

وقال في الكشاف عن بعضهم: افتخر اليهود بأنهم أهل كتاب. والعرب لا كتاب لهم. فأبطل الله ذلك بشبههم بالحمار يحمل أسفارا.

ومعنى ﴿حملوا﴾ : عهد بها إليهم وكلفوا بما فيها فلم يفوا بما كلفوا، يقال: حملت فلانا أمر كذا فاحتمله، قال تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الأنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٣/٢٨

سورة الأحزاب[٧٢]."، (١)

٤٨٩-"ولكن قولوا أسلمنا﴾ [الحجرات: ١٤]. وإطلاق الإيمان على مثل هذا الفريق مجاز بعلاقة الصورة وهو كإسناد فعل ﴿يحذر﴾ في قوله تعالى: ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة﴾ الآية، في سورة براءة [٦٤].

وعلى هذا الاعتبار يجوز أن يكون ﴿ثم﴾ مستعملا في معنييه الأصلي والمجازي على ما يناسب محمل فعل ﴿آمنوا﴾ .

ولو حمل المنافقون على واحد معين وهو عبد الله بن أبي جاز أن يكون ابن أبي آمن ثم كفر فيكون إسناد ﴿آمنوا﴾ حقيقة وتكون ﴿ثم﴾ للتراخي في الزمان.

وتفريع ﴿فهم لا يفقهون﴾ على قوله: ﴿آمنوا ثم كفروا﴾ ، فصار كفرهم بع الإيمان على الوجوه السابقة سببا في سوء أعمالهم بمقتضى باء السببية، وسببا في انتفاء إدراكهم الحقائق النظرية بمقتضى فاء التفريع.

والفقه: فهم للحقائق الخفية.

والمعنى: أنهم لا يدركون دلائل الإيمان حتى يعلموا أحقيته.

[٤] ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ .

﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة﴾ .

هذا **انتقال** إلى وضح بعض أحوالهم التي لا يبرزونها إذا جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولكنها تبرز من مشاهدتهم، فكان الوضح الأول مفتتحا ب ﴿إذا جاءك المنافقون﴾ [المنافقون:١] وهذا الوضح مفتتحا ب ﴿إذا رأيتهم﴾

فجملة ﴿وإذا رأيتهم﴾ معطوفة على جملة ﴿فهم لا يفقهون﴾ [المنافقون:٣] واقعة موقع الاحتراس والتتميم لدفع إيهام من يغره ظاهر صورهم.

واتبع انتفاء فقه عقولهم بالتنبيه على عدم الاغترار بحسن صورهم فإنها أجسام خالية عن كمال الأنفس كقول حسان ولعله أخذه من هذه الآية:

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ ... جسم البغال وأحلام العصافير

وتفيد مع الاحتراس تنبيها على دخائلهم بحيث لو حذف حرف العطف من الجملتين". (٢)

٤٩٠-"جملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا عن حال من أحوالهم.

وجملة ﴿إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ تعليل لانتفاء مغفرة الله لهم بأن الله غضب عليهم فحرمهم اللطف والعناية.

[٧] ﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا

---

(١) التحرير والتنوير ١٩١/٢٨

(٢) التحرير والتنوير ٢١٣/٢٨

يفقهون﴾

﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا﴾ .

هذا أيضا من مقالاتهم في مجامعهم وجماعتهم يقولونها لإخوانه الذين كانوا ينفقون على فقراء المسلمين تظاهرا بالإسلام كأنهم يقول بعضهم لبعض تظاهر الإسلام بغير الإنفاق مثل قولهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله وذلك عقبت بها. وقد جاء في الأحاديث الصحيحة أن قائل هذه المقالة عبد الله بن أبي سلول كما تقدم في طالعة تفسير هذه السورة فإسناد هذا القول إلى ضمير المنافقين لأنهم تقبلوه منه إذ هو رأس المنافقين أو فشا هذا القول بين المنافقين فأخذوا يبثونه في المسلمين.

وموقع الجملة الاستئناف الابتدائي المعرب عن مكرهم وسوء طواياهم **انتقالا** من وصف إعراضهم عند التقرب من الرسول صلى الله عليه وسلم، إلى وصف لون آخر مكن كفرهم وهو الكيد للدين في صورة النصيحة.

وافتتحت الجملة بضميرهم الظاهر دون الاكتفاء بالمستتر في ﴿يقولون﴾ معاملة لهم بنقيض مقصودهم فإنهم ستروا كيدهم بإظهار قصد النصيحة ففضح الله أمرهم بمزيد التصريح، أي قد علمت أنكم تقولون هذا. وفي إظهار الضمير أيضا تعريض بالتوبيخ كقوله تعالى: ﴿أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار﴾ [ص:٦٠]. وليكون للجملة الاسمية إفادة ثبات الخبر، وليكون الإتيان بالموصول مشعرا بأنهم عرفوا بهذه الصلة. وصيغة المضارع في ﴿يقولون﴾ يشعر بأن في هذه المقالة تتكرر منهم لقصد إفشائها.

و ﴿من عند رسول الله﴾ من كانوا في رعايته مثل أهل الصفة ومن كانوا يلحقون بالمدينة من الأعراب العفاة أوفريق من الأعراب كان يمنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بني المصطلق. روي البخاري عن زيد بن أرقم قال: خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر أصاب الناس فيه شدة فقال عبد الله بن أبي: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من". (١)

٤٩١-"قوله: ﴿ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ المنافقين:٧].

وعدل عن الإضمار في ﴿ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ [٧].

وقد سبق اسمهم في نظيرها قبلها لتكون الجملة مستقلة الدلالة بذاتها فتسير سير المثل.

وإنما نفي عنهم هنا العلم تجهيلا بسوء التأمل في أمارات الظهور والانحطاط فلم يفطنوا للإقبال الذي في أحوال المسلمين وازدياد سلطانهم يوما فيوما وتناقص من أعدائهم فإن ذلك أمر مشاهد فكيف يظن المنافقون أن عزتهم أقوى من غزة قبائل العرب الذين يسقطون بأيدي المسلمين كلما غزوهم من يوم بدر فما بعده.

[٩]﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾ .

انتقال من كشف أحوال المنافقين المسوق للحذر منهم والتحذير من صفاتهم. إلى الإقبال على خطاب المؤمنين بينهم عما شانه أن يشغل عن التذكر لما أمر الله ونهى، ثم الأمر بالإنفاق في سبل الخير في سبيل الله ومصالح المسلمين وجماعتهم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٢٢٠

وإسعاف آحادهم، لئلا يستهويهم قول المنافقين ﴿لا تنفقوا على من عند رسول الله﴾ [المنافقون:٧] والمبادرة إلى ذلك قبل إتيان الموت الذي لا يدري وقت حلوله حين تمنى أن يكون قد تأخر أجله ليزيد من العمل الصالح فلا ينفعه التمني وهو تمهيد لقوله بعده ﴿وأنفقوا مما رزقناكم﴾ [المنافقون:١٠]، فالمناسبة لهذا **الانتقال** هو حكاية مقال المنافقين ولذلك قدم ذكر الأقوال على ذكر الأولاد لأنها أهم بحسب السياق.

ونودي المخاطبون بطريق الموصول لما تؤذن به الصلة من التهمم لامتثال النهي.

وخص الأموال والأولاد بتوجه النهي عن الاشتغال بها اشتغالا يلهي عن ذكر الله لأن الأموال مما يكثر إقبال الناس على إنمائها والتفكير في اكتسابها بحيث تكون أوقات الشغل بها أكثر من أوقات الشغل بالأولاد. ولأنها كما تشغل عن ذكر الله بصرف الوقت في كسبها ونمائها، تشغل عن ذكره أيضا بالتذكير لكنزها بحيث ينسى ذكر ما دعا الله إليه من إنفاقها.

وأما ذكر الأولاد فهو إدماج لأن الاشتغال بالأولاد والشفقة عليهم وتدبير شؤونهم وقضاء الأوقات في التأنس بهم من شأنه أن ينسي عن تذكر أمر الله ونهيه في أوقات كثيرة". (١)

٤٩٢-"عليه مواقع تلك الأجزاء الدقيقة ولذلك قال تعالى: ﴿أيحسب الأنسان ألن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ [القيامة:٣، ٤].

فالمقصود هو قوله: ﴿ويعلم ما تسرون﴾ كما يقتضيه الاقتصار عليه في تذييله بقوله: ﴿والله عليم بذات الصدور﴾ ولم يذكر أنه عليم بأعمال الجوارح، ولأن الخطاب للمشركين في مكة على الراجح. وذلك قبل ظهور المنافقين فلم يكن قوله: و ﴿يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ تهديد على ما يبطنه الناس من الكفر.

وأما عطف ﴿وما تعلنون﴾ فتتميم للتذكير بعموم تعلق علمه تعالى بالأعمال.

وقد تضمن قوله: ﴿ويعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ وعيدا ووعدا ناظرين إلى قوله: ﴿فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ [التغابن: ٢] فكانت الجملة لذلك شديدة الاتصال بجملة ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ [التغابن: ٢].

وإعادة فعل ﴿يعلم﴾ للتنبيه على العناية بهذا التعلق الخاص للعلم الإلهي بعد ذكر تعلقه العام في قوله: ﴿يعلم ما في السماوات والأرض﴾ تنبيها على الوعيد والوعد بوجه خاص.

وجملة ﴿والله عليم بذات الصدور﴾ تذييل لجملة ﴿ويعلم ما تسرون﴾ لأنه يعلم ما سيره جميع الناس من المخاطبين وغيرهم. و ﴿ذات الصدور﴾ صفة لموصوف محذوف نزلت منزلة موصوفها، أي صاحبات الصدور، أي المكتومة فيها.

والتقدير: بالنوايا والخواطر ذات الصدور كقوله ﴿وحملناه على ذات ألواح﴾ [القمر: ١٣] وتقدم بيانه عند قوله تعالى: ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ في سورة الأنفال[٤٣].

[٥] ﴿ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم﴾.

انتقال من التعريض الرمزي بالوعيد الأخروي في قوله: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ [التغابن:٢]، إلى قوله: ﴿وإليه المصير﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٤/٢٨

[التغابن: ٣]، وقوله: ﴿ويعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ [التغابن: ٤]، إلى تعريض أوضح منه بطريق الإيماء إلى وعيد لعذاب دنيوي وأخروي معا فأن ما يسمى في باب الكناية بالإيمان أقل لازم من العريض والرمز فهو أقرب إلى التصريح. وهذا الإيماء بضرب المثل بحال أمم تلقوا رسلهم بمثل ما تلقى به المشركون محمد صلى الله عليه وسلم". (١)

٤٩٣-"فجعلت الآية خروجهن ريبة لهن وحذرت النساء منه بأسلوب خطابي بفتح الخاء فيكون هذا الاستثناء منعا لهن من الخروج على طريقة المبالغة في النهي.
ومحمل فعل ﴿يأتين﴾ على هذا الوجه أنه من يردن أن يأتين مثل ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾ [المائدة: ٦].
وقد ورد في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتته فاطمة بنت قيس الفهرية فأخبرته أن زوجها أبا عمرو بن حفص أو أبا حفص بن عمرو وكان وجهه النبي صلى الله عليه وسلم مع علي إلى اليمن فأرسل إليها من اليمن بتطليقة صادفت آخر الثلاث فبانت منه، وأنه أرسل إلى بعض ذويه بأن ينفقوا عليها مدة العدة فقالوا لها مالك نفقة إلا أن تكون حاملا، وأنها رفعت أمرها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "لا نفقة لك" فاستأذنته في **الانتقال** فأذن لها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم. وفي رواية أنها قالت: أخاف أن يقتحم علي بالبناء للمجهول، وفي رواية أنها كانت في مكان وحش مخيف على ناحيتها فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم **بالانتقال**.
واختلف العلماء في **انتقالها** فقال جماعة هو رخصة لفاطمة بنت قيس لا تتجاوزها وكانت عائشة أم المؤمنين ترى ذلك، روى البخاري أن يحيى بن سعيد بن العاص طلق امرأته عمرة بنت عبد الرحمان بن الحكم وكان عمها مروان بن الحكم أمير المدينة يومئذ فانتقلها أبوها إليه فبلغ ذلك عائشة أم المؤمنين فأرسلت إلى مروان أن اتق الله وأرددها إلى بيتها فقال مروان أو ما بلغك شأن فاطمة بنت قيس قالت عائشة لا يضرك أن لا تذكر حديث فاطمة، فقال مروان إن كان بك الشر فحسبك ما بين هذين من الشر، ولعل عائشة اقتنعت بذلك إذ لم يرد أنها ردت عليه.
وفي الصحيح عن عمر بن الخطاب أنه قال: لا ندع كتاب الله وسنة نبينا لقول امرأة لا ندري أحفظت أم نسيت. وقالت عائشة: ليس لفاطمة بنت قيس خير في ذكر هذا الحديث وعابت عليها أشد العيب. وقالت إن فاطمة كانت في مكان وحش مخيف على ناحيتها فرخص لها النبي صلى الله عليه وسلم **بالانتقال**. ويظهر من هذا أنه اختلاف في حقيقة العذر المسوغ **للانتقال**. قال مالك: وليس للمرأة أن تنتقل من موضع عدتها بغير عذر رواه الباجي في المنتقى .
وقال ابن العربي: إن الخروج للحدث والبذاء والحاجة إلى المعايش وخوف العودة من المسكن جائز بالسنة.". (٢)

٤٩٤-"ومن العلماء من جوز **الانتقال** للضرورة وجعلوا ذلك محمل حديث فاطمة بنت قيس فإنها خيف عليها في مكان وحش وحدث بينها وبين أهل زوجها شر وبذاء قال سعيد بن المسيب تلك امرأة استطالت على أحمائها بلسانها أنها

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٩/٢٨

(٢) التحرير والتنوير ٢٧١/٢٨

كانت لسنة فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تنتقل وهذا الاختلاف قريب من أن يكون اختلافا لفظيا لاتفاق الجميع عدا عمر بن الخطاب على أن انتقالها كان لعذر قبله النبي صلى الله عليه وسلم فتكون تلك القضية مخصصة للآية ويجري القياس عليها إذا تحققت علة القياس.

أما قول عمر بن الخطاب لا ندع كتاب الله وسنة نبينا لقول امرأة أحفظت أم نسيت. فهو دحض لرواية فاطمة ابنة قيس بشك له فيه فلا تكون معارضة لآية حتى يصار إلى الجمع بالتخصيص والترخيص. وقال ابن العربي: قيل إن عمر لم يخصص القرآن بخبر الواحد.

وأما تحديد منه خروج المعتدة من بيتها فلا خلاف في أن مبيتها في غير بيتها حرام. وأما خروجها نهارا لقضاء شؤون نفسها فجوزه مالك والليث بن سعد وأحمد للمعتدة مطلقا.

وقال الشافعي: المطلقة الرجعية لا تخرج ليلا ولا نهارا والميتوتة تخرج نهارا. وقال أبو حنيفة: تخرج المعتدة عدة الوفاة نهارا ولا تخرج غيرها، لا ليلا ولا نهارا.

وفي صحيح مسلم أن مروان بن الحكم أرسل إلى فاطمة بنت قيس يسألها عن حديثها فلما أبلغ إليه قال: لم نسمع هذا الحديث إلا من امرأة سنأخذ بالعصمة التي وجدنا عليها الناس. فقالت فاطمة حين بلغها قول مروان: فبيني وبينكم القرآن قال الله عز وجل: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا﴾ . هذا لمن كان له رجعة فأي أمر يحدث بعد الثلاث فكيف تقولون لا نفقة لها إذا لم تكن حاملا فعلام تحسبونها فظنت أن ملازمة بيتها لاستقاء الصلة بينها وبين مفارقها وأنها ملزمة بذلك لأجل الإنفاق.

والذي تخلص لي أن حكمة السكنى للمطلقة أنها حفظ الأعراض فإن المطلقة يكثر التفات العيون لها وقد يتسرب سوء الظن إليها فيكثر الاختلاف عليها ولا تجد ذا عصمة يذب عنها فلذلك شرعت لها السكنى ولا تخرج إلا لحاجياتها فهذه حكمة من قبيل المظنة فإذا طرأ على الأحوال ما أوقعها في المشقة أو أوقع الناس في مشقة من جرائها أخرجت". (١)

٤٩٥-"خاص بالمعتدات الحوامل فإنه ينافي قوله تعالى: ﴿لا تخرجوهن﴾ [الطلاق:١] فتعين عود الضمير إلى النساء المطلقات كلهن، وبذلك يشمل المطلقة الرجعية والبائنة والحامل، لما علمته في أول السورة من إرادة الرجعية والبائنة من لفظ ﴿إذا طلقتم النساء﴾ [الطلاق:١].

وجمهور أهل العلم قائلون بوجوب السكنى لهن جميعا. قال أشهب: قال مالك يخرج عنها إذا طلقها وتبقى هي في المنزل. وروى ابن نافع قال مالك: فأما التي لم تبن فإنها زوجة يتوارثان والسكنى لهن لازمة لأزواجهن اهـ. يريد أنها مستغنى عن أخذ حكم سكناها من هذه الآية. ولا يريد أنها ميتثناة من حكم الآية. وقال قتادة وابن أبي ليلى وإسحاق وأبو ثور وأحمد بن حنبل: لا سكنى للمطلقة طلاقا بائنا. ومتمسكهم في ذلك ما روته فاطمة بنت قيس: أن زوجها طلقها ثلاثا وأن أخا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٢/٢٨

زوجها منعها من السكنى والنفقة، وأنها رفعت أمرها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها: "إنما السكنى والنفقة على من له عليها الرجعة". وهو حديث غريب لم يعرفه أحد إلا من رواية فاطمة بنت قيس. ولم يقبله عمر بن الخطاب. فقال: لا نترك كتاب الله وسنة نبينا لقول امرأة لا ندري لعلها نسيت أو شبه عليها. وأنكرته عائشة على فاطمة بنت قيس فيما ذكرته من أنه أذن لها في **الانتقال** إلى مكان غير الذي طلقت فيه كما تقدم.

وروي أن عمر روى عن النبي صلى الله عليه وسلم "أن للمطلقة البائنة سكنى"١. ورووا أن قتادة وابن أبي ليلى أخذا بقوله تعالى: ﴿لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا﴾ [الطلاق:١] إذ الأمر هو المراجعة، فقصرا الطلاق في قوله ﴿إذا طلقتم النساء﴾ [الطلاق:١]، على الطلاق الرجعي لأن البائن لا تترقب بعده مراجعة وسبقها إلى هذا المأخذ فاطمة بنت قيس المذكورة.

روى مسلم أن مروان بن الحكم أرسل إلى فاطمة بنت قيس يسألها عن الحديث فحدثته فقال مروان: لم نسمع هذا الحديث إلا من المرأة سنأخذ بالعصمة التي وجدنا عليها الناس فبلغ قول مروان فاطمة بنت قيس فقالت: بيني وبينكم القرآن، قال الله عز وجل ﴿لا تخرجوهن من بيوتهن﴾ ، إلى قوله ﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا﴾ [الطلاق:١]. قالت: هذا لمن كانت له رجعة فأي أمر يحدث بعد الثلاث اهـ.

ويرد على ذلك أن إحداث الأمر ليس قاصرا على المراجعة فإن من الأمر الذي يحدثه الله أن يرفق قلوبهما فيرغبا معا في إعادة المعاشرة بعقد جديد. وعلى تسليم اقتصار

_

١ هكذا يروي المفسرون عن عمر: أنه سمع من النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ولم أقف عليه مسندا.". (١)

٤٩٦-"عطف على الجملة السابقة عطف غرض على غرض، وهو **انتقال** إلى غرض آخر لمناسبة حكاية أقوالهم في الآخرة بذكر أقوالهم في الدنيا وهي الأقوال التي كانت تصدر منهم بالنيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان الله يطلعهم على أقوالهم فيخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأنكم قلتم كذا وكذا، فقال بعضهم لبعض أسروا قولكم كي لا يسمعه رب محمد فأنزل الله ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به﴾ كذا روي عن ابن عباس.

وصيغة الأمر في ﴿وأسروا﴾ و ﴿اجهروا﴾ مستعملة في التسوية كقوله تعالى: ﴿فاصبروا أو لا تصبروا﴾ [الطور: من الآية١٦]، وهذا غالب أحوال صيغة افعل إذا جاءت معها ﴿أو﴾ عاطفة نقيض أحد الفعلين على نقيضه.

فنقول: ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ تعليل للتسوية المستفادة من صيغة الأمر بقرينة المقام وسبب النزول، أي فسواء في علم الله الإسرار والإجهار لأن علمه محيط بما يختلج في صدور الناس بله ما يسرون به من الكلام، ولذلك جيء بوصف عليم إذ العليم من أمثلة المبالغة وهو القوي علمه.

وضمير ﴿إنه﴾ عائد إلى الله تعالى المعلوم من المقام، ولا معاد في الكلام يعود إليه الضمير، لأن الاسم الذي في جملة ﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ [الملك: من الآية١٢] لا يكون معادا لكلام آخر.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٢٩٢

و ﴿ذات الصدور﴾ ما يتردد في النفس من الخواطر والتقادير والنوايا على الأعمال. وهو مركب من "ذات" التي هي مؤنث "ذو" بمعنى صاحب، و ﴿ الصدور﴾ بمعنى العقول وشأن "ذو" أن يضاف إلى ما فيه رفعة.

وجملة ﴿ألا يعلم من خلق﴾ استئناف بياني ناشئ عن قوله: ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ بأن يسأل سائل منهم: كيف يعلم ذات الصدور، والمعروف أن ما في نفس المرء لا يعلمه غير نفسه؟ فأجيبوا بإنكار انتفاء علمه تعالى بما في الصدور فإنه خالق أصحاب تلك الصدور، فكما خلقهم وخلق نفوسهم جعل اتصالا لتعلق علمه بما يختلج فيها وليس ذلك بأعجب من علم أصحاب الصدور بما يدور في خلدها، فالإتيان بـ ﴿من﴾ الموصولة لإفادة التعليل بالصلة.

فيجوز أن يكون ﴿من خلق﴾ مفعول ﴿يعلم﴾ ، فيكون ﴿يعلم﴾ و ﴿خلق﴾ رافعين". (١)

٤٩٧-"وتقديم المجرور في جملة ﴿وإليه النشور﴾ للاهتمام.

ومناسبة ذكر النشور هو ذكر خلق الأرض فإن البعث يكون من الأرض.

[١٦] ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾ .

انتقال من الاستدلال إلى التخويف لأنه لما تقرر أنه خالق الأرض ومذللها للناس وتقرر أنهم ما رعوا خالقها حق رعايته فقد استحقوا غضبه وتسليط عقابه بأن يصير مشيهم في مناكب الأرض إلى تجلجل في طبقات الأرض. فالجملة معترضة والاستفهام إنكار وتوبيخ وتحذير.

و ﴿من﴾ اسم موصول وصلته صادق على موجود ذي إدراك كائن في السماء. وظاهر وقوع هذا الموصول عقب جمل ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا﴾ إلى قوله: ﴿وإليه النشور﴾ [الملك: ١٥] أن الإتيان بالموصول من قبيل الإظهار في مقام الإضمار، وأن مقتضى الظاهر أن يقال أأمنتموه أن يخسف بكم الأرض؛ فيتأتى أن الإتيان بالموصول لما تؤذن به الصلة من عظيم تصرفه في العالم العلوي الذي هو مصدر القوى والعناصر وعجائب الكائنات فيصير قوله: ﴿من في السماء﴾ في الموضعين من قبيل المتشابه الذي يعطي ظاهره معنى الحلول في مكان وذلك لا يليق بالله، ويجيء فيه ما في أمثاله من طريقتي التفويض للسلف والتأويل للخلف رحمهم الله أجمعين.

وقد أولوه بمعنى: من في السماء عذابه أو قدرته أو سلطانه على نحو تأويل قوله تعالى: ﴿وجاء ربك﴾ [الفجر: ٢٢] وأمثاله، وخص ذلك بالسماء لأن إثباته لله تعالى ينفيه عن أصنامهم.

ولكن هذا الموصول غير مكين في باب المتشابه لأنه مجمل قابل للتأويل بما يحتمله ﴿ من﴾ أن يكون ما صدقه مخلوقات ذات إدراك مقرها السماء وهي الملائكة فيصح أن تصدق ﴿من﴾ على طوائف من الملائكة الموكلين بالأمر التكويني في السماء والأرض قال تعالى: ﴿يتنزل الأمر بينهن﴾ [الطلاق: ١٢]، ويصح أن يراد باسم الموصول ملك واحد معين وظيفته فعل هذا الخسف، فقد قيل: إن جبريل هو الملك الموكل بالعذاب.

وإسناد فعل ﴿ يخسف﴾ إلى "الملائكة" أو إلى واحد منهم حقيقة لأنه فاعل الخسف قال تعالى حكاية عن الملائكة ﴿قالوا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٢٨

إنا مهلكو أهل هذه القرية... إنا منجوك وأهلك...إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء﴾ [العنكبوت:٣١-٣٤].". (١)

٤٩٨-"[١٧] ﴿أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير﴾ .

﴿أم﴾ لاضطراب **الانتقال** من غرض إلى غرض، وهو **انتقال** من الاستفهام الإنكاري التعجيبي إلى آخر مثله باعتبار اختلاف الأثرين الصادرين عن مفعول الفعل المستفهم عنه اختلافا يوجب تفاوتا بين كنهي الفعلين وإن كانا متحدين في الغاية، فالاستفهام الأول إنكار على أمنهم الذي في السماء من أن يفعل فعلا أرضيا.

والاستفهام الواقع من ﴿أم﴾ إنكار عليهم أن يأمنوا من أن يرسل عليهم من السماء حاصب وذلك أمكن لمن في السماء وأشد وقعا على أهل الأرض. والكلام على قوله: ﴿من في السماء﴾ تقدم في الآية قبلها ما يغني عنه.

وتفريع جملة ﴿فستعلمون كيف نذير﴾ على الاستفهام الإنكاري كتفريع جملة ﴿فإذا هي تمور﴾ أي فحين يخسف بكم أو يرسل عليهم حاصب تعلمون كيف نذير، وحرف التنفيس حقه الدخول على الأخبار التي ستقع في المستقبل، وإرسال الحاصب غير مخبر بحصوله وإلا لما تخلف لأن خبر الله لا يتخلف، وإنما هو تهديد وتحذير فإنهم ربما آمنوا وأقلعوا فسلموا من إرسال الحاصب عليهم ولكن لما أريد تحقيق هذا التهديد شبه بالأمر الذي وقع فكان تفريع صيغة الإخبار على هذا مؤذنا بتشبيه المهدد به بالأمر الواقع على طريقة التمثيلية الكنية، وجملة ﴿فستعلمون﴾ قرينتها لأنها من روادف المشبه به كما تقدم.

و ﴿كيف نذير﴾ استفهام معلق فعل "تعلمون" عن العمل، وهو استفهام للتهديد والتهويل، والجملة مستأنفة.

وحذفت ياء المتكلم من ﴿نذيري﴾ تخفيفا وللرعي على الفاصلة.

والنذير مصدر بمعنى الإنذار مثل النكير بمعنى الإنكار.

وقدم التهديد بالخسف على التهديد بالحاصب لأن الخسف من أحوال الأرض، والكلام على أحوالها أقرب هنا فسلك شبه طريق النشر المعكوس، ولأن إرسال الحاصب عليهم جزاء على كفرهم بنعمة الله التي منها رزقهم في الأرض المشار إليه بقوله: ﴿وكلوا من رزقه﴾ [الملك: ١٥] فإن منشأ الأرزاق الأرضية من غيوث السماء قال تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم﴾ [الذاريات: ٢٢].". (٢)

٤٩٩-"أمسكهن الرحمان لعموم علمه وحكمته ولا يمسكهن غيره لقصور علمه أو انتفائه.

والبصير: العليم، مشتق من البصيرة، فهو هنا غير الوصف الذي هو من الأسماء الحسنى في نحو: السميع البصير، وإنما هو هنا من باب قولهم: فلان بصير بالأمور. وقوله تعالى: ﴿إن الله بصير بالعباد﴾ [غافر: ٤٤]، فهو خبر لا وصف ولا منزل

---

(١) التحرير والتنوير ٣١/٢٩

(٢) التحرير والتنوير ٣٣/٢٩

منزلة الاسم. وتقديم ﴿بكل شيء عليم﴾ على متعلقه لإفادة القصر الإضافي وهو قصر قلب ردا على من يزعمون أنه لا يعلم كل شيء كالذين قيل لهم ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به﴾ [الملك: ١٣].

[٢٠] ﴿أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور﴾ .

"أم" منقطعة وهي للاضطراب **الانتقالي** من غرض إلى غرض فبعد استيفاء غرض إثبات الإلهية الحق لله تعالى بالوحدانية وتذكيرهم بأنهم مفتقرون إليه، انتقل إلى إبطال أن يكون أحد يدفع عنهم العذاب الذي توعدهم الله به فوجه إليهم استفهام أن يدلوا على أحد من أصنامهم أو غيرها يقال فيه هذا هو الذي ينصر من دون الله، فإنهم غير مستطيعين تعيين أحد لذلك إلا إذا سلكوا طريق البهتان وما هم بسالكيه في مثل هذا لافتضاح أمره.

وهذا الكلام ناشئ عن قوله: ﴿أأمنتم من في السماء﴾ [الملك: ١٦] الآية فهو مثله معترض بين حجج الاستدلال.

و"أم" المنقطعة لا يفارقها معنى الاستفهام، والأكثر أن يكون مقدارا فإذا صرح به كما هنا فأوضح ولا يتوهم أن الاستفهام يقدر بعدها ولو كان يليها استفهام مصرح به فيشكل اجتماع استفهامين.

والاستفهام مستعمل في التعجيز عن التعيين فيؤول إلى الانتفاء، والإشارة مشار بها إلى مفهوم ﴿جند﴾ مفروض في الأذهان استحضر للمخاطبين، فجعل كأنه حاضر في الخارج يشاهده المخاطبون، فيطلب المتكلم منهم تعيين قبيله بأن يقولوا بنو فلان. ولما كان الاستفهام مستعملا في التعجيز استلزم ذلك أن هذا الجند المفروض غير كائن.

وقريب من ذلك قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ [البقرة: ٢٥٥] ونحوه.". (١)

٥٠٠-"على الظرف لا يخفضه سوى حرف وفسره بظرف عند ولا خصوصية ل عند بل ذلك في جميع الظروف غير المتصرفة.

وتكرير وصف ﴿الرحمان﴾ عقب الآية السابقة للوجه الذي ذكرنا في إيثار هذا الوصف في الآية السابقة.

وذيل هذا الاعتراض بقوله: ﴿إن الكافرون إلا في غرور﴾ ، أي ذلك شأن الكافرين كلهم وهم أهل الشرك من المخاطبين وغيرهم، أي في غرور من الغفلة عن توقع بأس الله تعالى، أو في غرور من اعتمادهم على الأصنام كما غر الأمم السالفة دينهم بأن الأوثان تنفعهم وتدفع عنهم العذاب فلم يجدوا ذلك منهم وقت الحاجة فكذلك سيقع لأمثالهم قال تعالى: ﴿وللكافرين أمثالها﴾ [محمد: ١٠] وقال: ﴿أكفاركم خير من أولئكم﴾ [القمر: ٤٣] فتعريف ﴿ الكافرون﴾ للاستغراق. وليس المراد به كافرون معهودون حتى يكون من وضع المظهر موضع الضمير.

والغرور: ظن النفس وقوع أمر نافع لها بمخائل تتوهمها، وهو بخلاف ذلك أو هو غير واقع.

وتقدم في قوله تعالى: ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد﴾ في آخر آل عمران [١٩٦] وقوله: ﴿يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا﴾ في [الأنعام: ١١٢] وقوله: ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ في سورة [فاطر: ٥].

والظرفية مجازية مستعملة في شدة التلبس بالغرور حتى كأن الغرور محيط بهم إحاطة الظرف.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٣٨

والمعنى: ما الكافرون في حال من الأحوال إلا في حال الغرور، وهذا قصر إضافي لقلب اعتقادهم أنهم في مأمن من الكوارث بحماية آلهتهم.

[٢١] ﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور﴾ .

﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ .

انتقال آخر والكلام على أسلوب قوله: ﴿أمن هذا الذي هو جند لكم﴾ [الملك: ٢٠]، وهذا الكلام ناظر إلى قوله: ﴿وكلوا من رزقه﴾ [الملك: ١٥] على طريقة اللف والنشر المعكوس.". (١)

٥٠١-"والرزق: ما ينتفع به الناس، ويطلق على المطر، وعلى الطعام، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وجد عندها رزقا﴾ [آل عمران: ٣٧].

وضمير ﴿أمسك﴾ وضمير ﴿رزقه﴾ عائدان إلى لفظ ﴿الرحمان﴾ الواقع في قوله: ﴿من دون الرحمن﴾ [الملك: ٢٠].

وجيء بالصلة فعلا مضارعا لدلالته على التجدد لأن الرزق يقتضي التكرار إذ حاجة البشر إليه مستمرة. وكتب ﴿أمن﴾ في المصحف بصورة كلمة واحدة كما كتب نظيرتها المتقدمة آنفا.

﴿بل لجوا في عتو ونفور﴾ .

استئناف بياني وقع جوابا عن سؤال ناشئ عن الدلائل والقوارع والزواجر والعظات والعبر المتقدمة ابتداء من قوله: ﴿الذي خلق الموت والحياة﴾ [الملك: ٢] إلى هنا، فيتجه للسائل أن يقول: لعلهم نفعت عندهم الآيات والنذر، واعتبروا بالآيات والعبر، فأجيب بإبطال ظنه بأنهم لجوا في عتو ونفور.

و ﴿بل﴾ للاضطراب أو الإبطال عما تضمنه الاستفهامان السابقان أو **للانتقال** من غرض التعجيز إلى الإخبار عن عنادهم.

يقال: لج في الخصومة من باب سمع، أي اشتد في النزاع والخصام، أي استمروا على العناد يكتنفهم العتو والنفور، أي لا يترك مخلصا للحق إليهم، فالظرفية مجازية، والعتو: التكبر والطغيان.

والنفور: هو الاشمئزاز من الشيء والهروب منه.

والمعنى: اشتدوا في الخصام متلبس بالكبر عن اتباع الرسول حرصا على بقاء سيادتهم وبالنفور عن الحق لكراهية ما يخالف أهواءهم وما ألفوه من الباطل.

[٢٢] ﴿أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم﴾ .

هذا مثل ضربه الله للكافرين والمؤمنين أو لرجلين: كافر ومؤمن، لأنه جاء مفرعا على قوله: ﴿إن الكافرون إلا في غرور﴾ [الملك: ٢٠] وقوله: ﴿بل لجوا في عتو ونفور﴾ وما اتصل ذلك به من الكلام الذي سيق مساق الحجة عليهم بقوله:

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٤٠

﴿أمن هذا". (١)

٥٠٢-"الاستفهام. و"من" الأولى والثانية في قوله: ﴿أفمن يمشي مكبا﴾ أو قوله: ﴿أمن يمشي سويا﴾ موصولتان ومحملهما أن المراد منهما فريق المؤمنين وفريق المشركين وقيل: أريد شخص معين أريد بالأولى أبو جهل، وبالثانية النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر أو حمزة رضي الله عنهما.

[٢٣] ﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون﴾ .

هذا **انتقال** من توجيه الله تعالى الخطاب إلى المشركين للتبصير بالحجج والدلائل وما تخلل ذلك من الوعيد أو التهديد إلى خطابهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما سيذكر تفننا في البيان وتنشيطا للاذهان حتى كأن الكلام صدر من قائلين وترفيعا لقدر نبيه صلى الله عليه وسلم بإعطائه حظا من التذكير معه كما قال تعالى: ﴿فإنما يسرناه بلسانك﴾ [الدخان: ٥٨].

والانتقال هنا إلى الاستدلال بفروع المخلوقات بعد الاستدلال بأصولها، ومن الاستدلال بفروع أعراض الإنسان بعد أصلها، فمن الاستدلال بخلق السماوات والأرض والموت والحياة، إلى الاستدلال بخلق الإنسان ومداركه، وقد اتبع الأمر بالقول بخمسة مثله بطريقة التكرير بدون عاطف اهتماما بما بعد كل أمر من مقالة يبلغها إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم قال: ﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار﴾ الخ.

والضمير ﴿هو﴾ إلى الرحمان من قوله: ﴿من دون الرحمن﴾ [الملك: ٢٠].

والإنشاء:الإيجاد.

وإفراد ﴿السمع﴾ لأن أصله مصدر، أي جعل لكم حالة السمع، وأما ﴿الأبصار﴾ فهو جمع البصر بمعنى العين، وقد تقدم وجه ذلك عند قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾ في سورة [البقرة: ٧]. و ﴿الأفئدة﴾ القلوب، والمراد بها العقول، وهو إطلاق شائع في استعمال العرب.

والقصر المستفاد من تعريف المسند إليه والمسند في قوله: ﴿هو الذي أنشأكم﴾ إلى آخره قصر إفراد بتنزيل المخاطبين لشركهم منزلة من يعتقد أن الأصنام شاركت الله في الإنشاء وإعطاء الإحساس والإدراك.

و ﴿قليلا ما تشكرون﴾ حال من ضمير المخاطبين، أي أنعم عليكم بهذه النعم في". (٢)

٥٠٣-"ومن وصف اليوم الشديد البرد بالحرارة، فهذا شبه بالمجنون ولذلك يجعل ﴿المفتون﴾ في الآية وصفا ادعائيا على طريقة التشبيه البليغ كما جعل المتنبي القوم الذين تركوا نزيلهم يرحل عنهم مع قدرتهم على إمساكه راحلين عن نزيلهم في قوله:

---

(١) التحرير والتنوير ٤١/٢٩

(٢) التحرير والتنوير ٤٤/٢٩

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ... أن لاتفارقهم فالراحلون همو

ويجوز أن يكون ﴿المفتون﴾ مصدرا على وزن المفعول مثل المعقول بمعنى العقل والمجلود بمعنى الجلد: والميسور لليسر، والمعسور لضده، وفي المثل "خذ من ميسوره ودع معسوره".

والباء على هذا للملابسة في محل خبر مقدم على ﴿المفتون﴾ وهو مبتدأ.

يضمن فعل "تبصر ويبصرون" معنى: توقن ويوقنون، على طريق الكناية بفعل الإبصار عن التحقق لأن أقوى طرق الحس حاسة البصر ويكون الإتيان بالباء للإشارة إلى هذا التضمين. والمعنى: فستعلم يقينا ويعلمون يقينا بأيكم المفتون، فالباء على أصلها من التعدية متعلقة ب"يبصر ويبصرون".

[٧] ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ .

تعليل لجملة ﴿فستبصر ويبصرون، بأيكم المفتون﴾ باعتبار ما تضمنته من التعريض بأن الجانب المفتون هو الجانب القائل له ﴿إنك لمجنون﴾ [الحجر: ٦] وأن ضده بضده هو الراجع العقل أي الذي أخبرك بما كنى عنه قوله: ﴿فستبصر ويبصرون﴾ من أنهم المجانين هو الأعلم بالفريقين وهو الذي أنبأك بأن سيتضح الحق لأبصارهم فتعين أن المفتون هو الفريق الذين وسموا النبي صلى الله عليه وسلم بأنه مجنون المردود عليهم بقوله تعالى: ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ [القلم:٢] إذ هم الضالون عن سبيل رب النبي صلى الله عليه وسلم لا محالة، وينتظم بالتدرج من أول السورة إلى هنا أقيسة مساواة مندرج بعضها في بعض تقتضي مساواة حقيقة من ضل عن سبل رب النبي صلى الله عليه وسلم بحقيقة المفتون. ومساواة حقيقة المفتون بحقيقة المجنون، فتنتج أن فريق المشركين هم المتصفون بالجنون بقاعدة قياس المساواة أن مساوي المساوي لشيء مساو لذلك الشيء.

وهذا **الانتقال** تضمن وعدا ووعيدا، بإضافة السبيل إلى الله ومقابلة من ضل عنه بالمهتدين.". (١)

٥٠٤-"و ﴿بل نحن محرومون﴾ إضراب **للانتقال** إلى ما هو أهم بالنظر لحال تبيينهم إذ بيتوا حرمان المساكين من فضول ثمرتهم فكانوا هم المحرومين من جميع الثمار، فالحرمان الأعظم قد اختص بهم إذ ليس حرمان المساكين بشيء في جانب حرمانهم.

والكلام يفيد ذلك إما بطريق تقديم المسند إليه بأن أتي به ضمير بارز مع أن مقتضى الظاهر أن يكون ضميرا مستترا في اسم المفعول مقدرا مؤخرا عنه لأنه لا يتصور إلا بعد سماع متحمله. فلما أبرز الضمير وقدم كان تقديمه مؤذنا بمعنى الاختصاص، أي القصر، وهو قصر إضافي. وهذا من مستتبعات التراكيب والتعويل على القرائن.

ويحتمل أن يكون الضلال حقيقيا، أي ضلال طريق الجنة، أي قالوا إنا أخطأنا الطريق في السير إلى جنتنا لأنهم توهموا أنهم شاهدوا جنة أخرى غير جنتهم التي عهدوها، قالوا ذلك تحيرا في أمرهم.

ويكون الإضراب إبطاليا، أي أبطلوا أن يكونوا ضلوا طريق جنتهم، وأثبتوا أنهم محرومون من خير جنتهم فيكون المعنى أنها

---

(١) التحرير والتنوير ٦٣/٢٩

هي جنتهم ولكنها هلكت فحرموا خيراتها بأن أتلفها الله.

و ﴿أوسطهم﴾ أفضلهم وأقربهم إلى الخير وهو أحد الإخوة الثلاثة. والوسط: يطلق على الأخير الأفضل، قال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ [البقرة: ٢٣٨] ويقال هو من سطة قومه، وأعطني من سطة مالك.

وحكي هذا القول بدون عاطف لأنه قول في مجرى المحاورة جوابا عن قولهم: ﴿بل نحن محرومون﴾ قاله لهم على وجه توقيفهم على تصويب رأيه وخطأ رأيهم.

والاستفهام تقريري و ﴿لولا﴾ حرف تحضيض. والمراد ب ﴿تسبحون﴾ تنزيه الله عن أن يعصى أمره في شأن إعطاءه زكاة ثمارهم.

وكان جوابهم يتضمن إقرار بأنه وعظهم فعصوه ودلوا على ذلك بالتسبيح حين ندمهم على عدم الأخذ بنصيحته فقالوا: ﴿قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين﴾ أرادوا إجابة تقريره بإقرار تسبيح الله عن أن يعصى أمره في إعطاء حق المساكين فإن من أصول التوبة تدارك ما يمكن تداركه، واعترافهم بظلم المساكين من أصول التوبة لأنه خبر مستعمل في التندم، والتسبيح مقدمة الاستغفار من الذنب قال تعالى: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان". (١)

٥٠٥-"وإنما تغير الضمير إلى ضمير الخطاب تبعا لتغير توجيه الكلام، لأن شرط الالتفات أن يتغير الضمير في سياق واحد.

و ﴿ما لكم﴾ استفهام إنكاري لحالة حكمهم، ف ﴿ما لكم﴾ مبتدأ وخبر وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله﴾ في سورة [البقرة: ٢٤٦].

و ﴿كيف تحكمون﴾ استفهام إنكاري ثان في موضع الحال من ضمير ﴿لكم﴾ ، أي انتفى أن يكون لكم شيء في حال حكمكم، أي فإن ثبت لهم كان منكرا باعتبار حالة حكمهم.

والمعنى: لا تحكمون أنكم مساوون للمسلمين في جزاء الآخرة أو مفضلون عليهم.

[٣٧-٣٨] ﴿أم لكم كتاب فيه تدرسون، إن لكم فيه لما تخيرون﴾ .

إضراب انتقال من توبيخ إلى احتجاج على كذبهم.

والاستفهام المقدر مع ﴿أم﴾ إنكار لأن يكون لهم كتاب إنكارا مبنيا على الفرض وإن كانوا لم يدعوه.

وحاصل هذا الانتقال والانتقالات الثلاثة بعده وهي ﴿أم لكم أيمان علينا﴾ [القلم: ٣٩] الخ، ﴿سلهم أيهم بذلك زعيم﴾ [القلم:٤٠] ﴿أم لهم شركاء﴾ [القلم: ٤١] الخ أن حكمكم هذا لا يخلو من أن يكون سنده كتابا سماويا نزل من لدنا، وإما أن يكون سنده عهدا منا بأنا نعطيكم ما تقترحون، وإما أن يكون لكم كفيل علينا، وإما أن يكون تعويلا على نصر شركائكم.

---

(١) التحرير والتنوير ٨١/٢٩

وتقديم ﴿لكم﴾ على المبتدأ وهو ﴿كتاب﴾ لأن المبتدأ نكرة ونكيره مقصود للنوعية فكان تقديم الخبر لازما.
وضمير ﴿فيه﴾ عائد إلى الحكم المفاد من قوله: ﴿كيف تحكمون﴾ [القلم: ٣٦]، أي كتاب في الحكم.
و"في" للتعليل أو الظرفية المجازية كما تقول ورد كتاب في الأمر بهذا أو في النهي عن كذا فيكون ﴿فيه﴾ ظرفا مستقرا صفة ل ﴿كتاب﴾ . ويجوز أن يكون الضمير عائد إلى ﴿كتاب﴾ ويتعلق المجرور بفعل ﴿تدرسون﴾ . جعلت الدراسة العميقة بمزيد التبصر في ما يتضمنه الكتاب بمنزلة الشيء المظروف في الكتاب كما تقول: لنا درس في كتاب سيبويه.". (١)

٥٠٦-"وفي هذا إدماج بالتعريض بأنهم أميون ليسوا أهل كتاب وأنهم لما جاءهم كتاب لهديهم وإلحاقهم بالأمم ذات الكتاب كفروا نعمته وكذبوه قال تعالى: ﴿لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾ [الانبياء:١٠] وقال: ﴿أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة﴾ [الأنعام: ١٥٧].
وجملة ﴿إن لكم فيه لما تخيرون﴾ في موضع مفعول ﴿تدرسون﴾ على أنها محكي لفظها، أي تدرسون هذه العبارة كما جاء قوله تعالى: ﴿وتركنا عليه في الآخرين، سلام على نوح في العالمين﴾ [الصافات: ٧٨،٧٩]، أي تدرسون جملة ﴿إن لكم فيه لما تخيرون﴾ .
ويكون ﴿فيه﴾ توكيدا لفظيا لنظيرها من قوله: ﴿فيه تدرسون﴾ ، قصد من إعادتها مزيد ربط الجملة بالتي قبلها كما أعيدت كلمة "من" في قوله تعالى: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا﴾ [النحل: ٦٧] وأصله: تتخذون سكرا.
و ﴿تخيرون﴾ أصله تتخيرون بتاءين، حذفت إحداهما تخفيفا. والتخير: تكلف الخير، أي تطلب ما هو في أخير. والمعنى: إن في ذلك الكتاب لكم ما تختارون من خير الجزاء.
[٣٩] ﴿أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون﴾ .
﴿أم﴾ **للانتقال** إلى دليل آخر وهو نفي أن يكون مستند زعمهم عهدا أخذوه على الله لأنفسهم أن يعامله يوم القيامة بما يحكمون به لأنفسهم، فالاستفهام اللازم تقديره بعد ﴿أم﴾ إنكاري و ﴿بالغة﴾ مؤكدة. وأصل البالغة: الواصلة إلى ما يطلب بها، وذلك استعارة لمعنى مغلظة، شبهت بالشيء المبالغ إلى نهاية سيره. وذلك كقوله تعالى: ﴿قل فلله الحجة البالغة﴾ [الأنعام: ١٤٩].
وقوله: ﴿علينا﴾ صفة ثانية ل ﴿أيمان﴾ أي أقسمناها لكم لإثبات حقكم علينا.
و ﴿إلى يوم القيامة﴾ صفة ثالثة ل ﴿أيمان﴾ ، أي أيمان مؤبدة لا تحلة منها فحصل من الوصفين أنها عهود مؤكدة ومستمرة طول الدهر، فليس يوم القيامة منتهى الأخذ بتلك الأيمان بل هو تنصيص على التأييد كما في قوله تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾ [الاحقاف: ٥] في سورة الأحقاف.

---

(١) التحرير والتنوير ٨٧/٢٩

ويتعلق إلى يوم القيامة بالاستقرار الذي في الخبر في قوله: ﴿لكم أيمان﴾ ولا". (١)

٥٠٧-"يحسن تعلقه بـ ﴿بالغة﴾ تعلق الظرف اللغو لأنه يصير ﴿بالغة﴾ مستعملا في معنى مشهور قريب من الحقيقة، ومحمل ﴿بالغة﴾ على الاستعارة التي ذكرنا أجزل وجملة ﴿إن لكم لما تحكمون﴾ بيان لـ ﴿أيمان﴾ ، أي أيمان بهذا اللفظ.

ومعنى ما تحكمون تأمرون به دون مراجعة، يقال: نزلوا على حكم فلان، أي لم يعينوا طلبة خاصة ولكنهم وكلوا تعيين حقهم إلى فلان، قال خطاب أو حطان بن المعلى:

أنزلني الدهر على حكمه ... من شامخ عال إلى خفض

أي دون اختيار لي ولا عمل عملته فكأنني حكمت الدهر فأنزلني من معاقلي وتصرف في كما شاء.

ومن أقوالهم السائرة مسرى الأمثال حكمك مسمطا بضم الميم وفتح السين وفتح الميم الثانية مشددة أي لك حكمك نافذا لا اعتراض عليك فيه. وقال ابن عثمة:

لك المرباع منها والصفايا ... وحكمك والنشيطة والفضول

[٤٠] ﴿سلهم أيهم بذلك زعيم﴾ .

استئناف بياني عن جملة ﴿أم لكم أيمان علينا بالغة﴾ [القلم: ٣٩]، لأن الأيمان وهي العهود تقتضي الكفلاء عادة قال الحارث بن حلزة:

واذكروا حلف ذي المجاز وما قد ... م فيه العهود والكفلاء

فلما ذكر إنكار أن يكون لهم عهود، كمل ذلك بأن يطلب منهم أن يعينوا من هم الزعماء بتلك الأيمان.

فالاستفهام في قوله: ﴿سلهم أيهم بذلك زعيم﴾ مستعمل في التهكم زيادة على الإنكار عليهم.

والزعيم: الكفيل وقد جعل الزعيم أحدا منهم زيادة في التهكم وهو أن جعل الزعيم لهم واحدا منهم لعزتهم ومناغاتهم لكبرياء الله تعالى.

[٤١] ﴿أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين﴾ ﴿أم﴾ إضراب انتقالي ثالث إلى إبطال مستند آخر مفروض لهم في سند قولهم: إنا نعطى مثل ما يعطى المسلمون أو خيرا مما يعطونه، وهو أن يفرض أن أصنامهم تنصرهم". (٢)

٥٠٨-"إضراب آخر للانتقال إلى إبطال آخر من إبطال معاذيرهم في إعراضهم عن استجابة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم المبتدئ من قوله: ﴿ما لكم كيف تحكمون، أم لكم كتاب﴾ [القلم: ٣٦-٣٧] ﴿أم لكم أيمان﴾ [القلم: ٣٩] ﴿أم لهم شركاء﴾ [القلم: ٤١] فإنه بعد أن نفى أن تكون لهم حجة تؤيد صلاح حالهم. أو وعد لهم بإعطاء ما يرغبون،

---

(١) التحرير والتنوير ٨٨/٢٩

(٢) التحرير والتنوير ٨٩/٢٩

أو أولياء ينصرونهم، عطف الكلام إلى نفي أن يكون عليهم ضر في إجابة دعوة الإسلام، استقصاء لقطع ما يحتمل من المعاذير بافتراض أن الرسول صلى الله عليه وسلم سألهم أجرا على هديه إياهم فصدهن عن إجابته ثقل غرم المال على نفوسهم.

فالاستفهام الذي تؤذن به ﴿أم﴾ استفهام إنكار لفرض أن يكون ذلك مما يخامر نفوسهم فرضا اقتضاه استقراء نواياهم من مواقع الإقبال على دعوة الخير والرشد.

والمغرم: ما يفرض على المرء أداؤه من ماله لغير عوض ولا جناية.

والمثقل: الذي حمل عليه شيء ثقيل، وهو هنا مجاز في الإشفاق.

والفاء للتفريع والتسبب، أي فيتسبب على ذلك أنك شققت عليهم فيكون ذلك اعتذارا منهم عن عدم قبول ما تدعوهم إليه.

و ﴿من مغرم﴾ متعلق ب ﴿مثقلون﴾ و ﴿من﴾ ابتدائية وهو ابتداء مجازي بمعنى التعليل، وتقديم المعمول على عامله للاهتمام بموجب المشقة قبل ذكرها مع الرعاية على الفاصلة.

[٤٧] ﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ .

إضراب آخر انتقل به من مدارج إبطال معاذير مفروضة لهم أن يتمسكوا بها تعلة لإعراضهم عن قبول دعوة القرآن، قطعا لما عسى أن ينتحلوه من المعاذير على طريقة الاستقراء ومنع الخلو.

وقد جاءت الإبطالات السالفة متعلقة بما يفرض لهم من المعاذير التي هي من قبيل مستندات من المشاهدات، وانتقل الآن إلى إبطال من نوع آخر، وهو إبطال حجة مفروضة يستندون فيها إلى علم شيء من المعلومات المغيبات عن الناس. وهي مما استأثر الله بعلمه وهو المعبر عنه بالغيب، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ في سورة [البقرة: ٣] وقد استقر عند الناس كلهم أن أمور الغيب لا يعلمها إلا الله أو من". (١)

٥٠٩-"أرجائها.

و ﴿الملك﴾ : أصله الواحد من الملائكة، وتعريفه هنا تعريف الجنس وهو في معنى الجمع، أي جماعة من الملائكة أو جميع من الملائكة إذا أريد الاستغراق، واستغراق المفرد أصرح في الدلالة على الشمول، ولذلك قال ابن عباس: الكتاب أكثر من الكتب، ومنه ﴿قال رب إني وهن العظم مني﴾ [مريم: ٤].

والأرجاء: النواحي بلغة هذيل، واحدها رجا مقصورا وألفه منقلبة عن الواو.

وضمير ﴿أرجائها﴾ عائد إلى ﴿السماء﴾ .

والمعنى: أن الملائكة يعملون في نواحي السماء ينفذون إنزال أهل الجنة بالجنة وسوق أهل النار إلى النار.

وعرش الرب: اسم لما يحيط بالسماوات وهو أعظم من السماوات.

---

(١) التحرير والتنوير ٩٦/٢٩

والمراد بالثمانية الذين يحملون العرش: ثمانية من الملائكة، فقيل: ثمانية شخوص، وقيل: ثمانية صفوف، وقيل ثمانية أعشار، أي نحو ثمانين من مجموع عدد الملائكة، وقيل غير ذلك. وهذا من أحوال الغيب التي لا يتعلق الغرض بتفصيلها، إذ المقصود من الآية تمثيل عظمة الله تعالى وتقريب ذلك إلى الأفهام كما قال في غير آية.

ولعل المقصود بالإشارة إلى ما زاد على الموعظة، هو تعليم الله نبيه صلى الله عليه وسلم شيئا من تلك الأحوال بطريقة رمزية يفتح عليه بفهم تفصيلها ولم يرد تشغيلنا بعلمها.

وكأن الداعي إلى ذكرهم إجمالا هو **الانتقال** إلى الأخبار عن عرش الله لئلا يكون ذكره اقتضابا بعد ذكر الملائكة.

وروى الترمذي عن العباس بن عبد المطلب عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثا ذكر فيه أبعاد ما بين السماوات، وفي ذكر جملة لعرش رموز ساقها الترمذي مساق التفسير لهذه الآية، وأحد رواته عبد الله بن عميرة عن الأحنف بن قيس قال البخاري: لا نعلم له سماعا عن الأحنف.

وهنالك أخبار غير حديث العباس لا يعبأ بها، وقال ابن العربي فيها: إنها متلفقات من أهل الكتاب أو من شعر لأمية بن أبي الصلت، ولم يصح أن النبي صلى الله عليه وسلم أنشد بين يديه فصدقه. اهـ". (١)

٥١٠-"تكذيبهم واستهزائهم.

وجملة ﴿أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم﴾ بدل اشتمال عن جملة ﴿فمال الذين كفروا قبلك مهطعين﴾ الآية، لأن التفافهم حول النبي صلى الله عليه وسلم شأنه أن يمون لطلب الهدى والنجاة فشبه حالهم بحال طالبي النجاة والهدى فأورد استفهام عليه.

وحكى المفسرون أن المشركين قالوا مستهزئين: نحن ندخل الجنة قبل المسلمين، فجاز أن يكون الاستفهام إنكارا لتظاهرهم بالطمع في الجنة بحمل استهزائهم على خلاف مرادهم على طريقة الأسلوب الحكيم، أو بالتعبير بفعل ﴿يطمع﴾ عن التظاهر بالطمع كما في قوله تعالى: ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم﴾ [التوبة:٦٤] أي يتظاهرون بأنهم يحذرون.

وأسند الطمع إلى ﴿كل امرئ منهم﴾ دون أن يقال: أيطمعون أن يدخلوا الجنة، تصويرا لحالهم بأنها حال جماعة يريد كل واحد منهم أن يدخل الجنة لتساويهم، يرون أنفسهم سواء في ذلك، ففي قوله: ﴿كل امرئ منهم﴾ تقوية التهكم بهم.

ثم بني على التهكم ما يبطل ما فرض لحالهم بما بني عليه التمثيل التهكمي بكلمة الردع وهي ﴿كلا﴾ أي لا يكون ذلك.

وذلك **انتقال** من المجاز إلى الحقيقة ومن التهكم بهم إلى توبيخهم دفعا لتوهم من يتوهم أن الكلام السابق لم يكن تهكما.

وهنا تم الكلام على إثبات الجزاء.

﴿كلا إنا خلقناهم مما يعلمون فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون، على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين﴾ كلام مستأنف استئنافا ابتدائيا **للانتقال** من إثبات الجزاء إلى الاحتجاج على إمكان البعث لشبهتهم الباعثة على إنكاره،

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/١١٨

وهو الإنكار الذي ذكر إجمالا بقوله المتقدم آنفا ﴿إنهم يرونه بعيدا، ونراه قريبا﴾ [المعارج:٦-٧] فاحتج عليهم بالنشأة الأولى، كما قال تعالى: ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾ [الواقعة:٦٢]. فالخبر بقوله: ﴿إنا خلقناهم مما يعلمون﴾ مستعمل في لازم معناه وهو إثبات إعادة خلقهم بعد فنائهم.

فهذا من تمام الخطاب الموجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم. والمقصود منه أن يبلغ إلى أسماع المشركين كما تقدم آنفا.". (١)

٥١١-"ألف على صيغة الأمر، فتكون الجملة استئنافا. والتقدير: أوحي إلي أنه لما قام عبد الله إلى آخره قل إنما أدعو ربي، فهو من تمام ما أوحي به إليه.

و ﴿إنما أدعو ربي﴾ يفيد قصرا، إلى أدعو غيره، أي لا أعبد غيره دونه.

وعطف عليه ﴿ولا أشرك به أحدا﴾ تأكيدا لمفهوم القصر، وأصله أن لا يعطف فعطفه لمجرد التشريك للعناية باستقلاله بالإبلاغ.

[٢١-٢٣] ﴿قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا، قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا، إلا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا﴾ .

﴿قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا، قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا، إلا بلاغا من الله ورسالاته﴾ .

هذا استئناف ابتدائي، وهو **انتقال** من ذكر ما أوحي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلى توجيه خطاب مستأنف إليه، فبعد أن حكي في هذه السورة ما أوحى الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم مما خفي عليه من الشؤون المتعلقة به من اتباع متابعين وإعراض معرضين، انتقل إلى تلقينه ما يرد على الذين أظهروا له العناد والتورك.

ويجوز أن يكون ﴿قل إني لا أملك﴾ الخ، تكريرا لجملة ﴿قل إنما أدعو ربي﴾ [الجن:٢٠] على قراءة حمزة وعاصم وأبي جعفر.

والضر: إشارة إلى ما يتوركون به من طلب إنجاز ما يتوعدهم بن من النصر عليهم.

وقوله: ﴿ولا رشدا﴾ تتميم.

وفي الكلام احتباك لأن الضر يقابله النفع، والرشد يقابله الضلال، فالتقدير: لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ولا ضلالا ولا رشدا.

والرشد بفتحتين: مصدر رشد، والرشد، بضم فسكون: الاسم، وهو معرفة الصواب، وقد تقدم قريبا في قوله: ﴿يهدي إلى الرشد﴾ [الجن:٢].

وتركيب لا أملك لكم معناه: لا أقدر قدرة لأجلكم على ضر ولا نفع، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿وما أملك لك من الله

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٥/٢٩

من شيء﴾ في سورة الممتحنة [٤]، وتقدم أيضا". (١)

٥١٢-"إنما هو فرت من قسورة. فقال: أفرت؟ قلت: نعم قال: فمستنفرة إذن، فكسر الفاء.

و ﴿قسورة﴾ قيل هو اسم جمع قسور وهو الرامي، أو هو جمع على خلاف القياس إذ ليس قياس فعلل أن يجمع على فعللة. وهذا تأويل جمهور المفسرين عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهما فيكون التشبيه جاريا على مراعاة الحالة المشهورة في كلام العرب.

وقيل: القسورة مفرد، وهو الأسد، وهذا مروي عن أبي هريرة وزيد بن أسلم وقال ابن عباس: إنه الأسد بالحبشية، فيكون اختلاف قول ابن عباس اختلافا لفظيا، وعنه: أنه أنكر أن يكون قسور اسم الأسد، فلعله أراد أنه ليس في أصل العربية. وقد عده ابن السبكي في الألفاظ الواردة في القرآن بغير لغة العرب في أبيات ذكر فيها ذلك، وقال ابن سيده: القسور الأسد والقسورة كذلك، أنثوه كما قالوا: أسامة، وعلى هذا فهو تشبيه مبتكر لحالة إعراض مخلوط برعب مما تضمنته قوارع القرآن فاجتمع في هذه الجملة تمثيلان.

وإيثار لفظ ﴿قسورة﴾ هنا لصلاحيته للتشبيهين مع الرعاية على الفاصلة.

[٥٢] ﴿بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة﴾ .

إضراب **انتقالي** لذكر حالة أخرى من أحوال عنادهم إذ قال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية وغيرهما من كفار قريش للنبي صلى الله عليه وسلم: لا نؤمن لك حتى يأتي إلى كل رجل منا كتاب فيه من الله إلى فلان بن فلان، وهذا من أفانين تكذيبهم بالقرآن أنه منزل من الله.

وجمع "صحف" إما لأنهم سألوا أن يكون كل أمر أو نهي تأتي الواحد منهم في شأن صحيفة باسمه وكانوا جماعة متفقين جمع لذلك فكأن الصحف جميعها جاءت لكل امرئ منهم.

والمنشرة: المفتوحة المقروءة أي لا نكتفي بصحيفة مطوية لا نعلم ما كتب فيها و ﴿منشرة﴾ مبالغة في منشورة. والمبالغة واردة على ما يقتضيه فعل "نشر" المجرد من كون الكتاب مفتوحا واضحا من الصحف المتعارفة. وفي حديث الرجم فنشروا التوراة.

[٥٣] ﴿كلا بل لا يخافون الآخرة﴾ .

﴿كلا﴾ إبطال لظاهر كلامهم ومرادهم منه وردع عن ذلك، أي لا يكون لهم ذلك.". (٢)

٥١٣-"﴿ألن نجمع﴾ ، أي بل نجمعها في حال قدرتنا على أن نسوي بنانه.

ويجوز أن يكون ﴿بلى﴾ إبطالا للنفيين: النفي الذي أفاده الاستفهام الإنكاري من قوله: ﴿أيحسب الأنسان﴾ ، والنفي

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٦/٢٩

(٢) التحرير والتنوير ٣٠٧/٢٩

الذي في مفعول ﴿يحسب﴾ ، وهو إبطال بزجر، أي بل ليحسبنا قادرين، لأن مفاد ﴿ألن نجمع عظامه﴾ أن لا نقدر على جمع عظامه فيكون ﴿قادرين﴾ مفعولا ثانيا ليحسبنا المقدر، وعدل في متعلق ﴿قادرين﴾ عن أن يقال: قادرين على جمع عظامه إلى قادرين على أن نسوي بنانه لأنه أوفر معنى وأوفق بإرادة إجمال كيفية البعث والإعادة.

ولمراعاة هذه المعاني عدل عن رفع: قادرون، بتقدير: نحن قادرون فلم يقرأ بالرفع.

والتسوية: تقويم الشيء وإتقان الخلق قال تعالى: ﴿ونفس وما سواها﴾ [الشمس:٧] وقال في هذه السورة ﴿فخلق فسوى﴾ [القيامة: ٣٨]. وأريد بالتسوية إعادة خلق البنان مقومة متقنة، فالتسوية كناية عن الخلق لأنها تستلزمه فإنه ما سوي إلا وقد أعيد خلقه قال تعالى: ﴿الذي خلق فسوى﴾ [الأعلى:٢].

والبنان أصابع اليدين والرجلين أو أطراف تلك الأصابع. وهو اسم جمع بنانه.

وإذا كانت هي أصغر الأعضاء الواقعة في نهاية الجسد كانت تسويتها كناية عن تسوية جمع الجسد لظهور أن تسوية أطراف الجسد تقتضي تسوية ما قبلها كما تقول: قلعت الريح أوتاد الخيمة كناية عن قلعها الخيمة كلها فإنه قد يكنى بأطراف الشيء عن جميعه.

ومنه قولهم: لك هذا الشيء بأسره، أي مع الحبل الذي يشد به، كناية عن جمع الشيء. وكذلك قولهم: هو لك برمته، أي بحبله الذي يشد به.

[٥] ﴿بل يريد الأنسان ليفجر أمامه﴾ .

بل إضراب **انتقالي** إلى ذكر حال آخر من أحوال فجورهم، فموقع الجملة بعد ﴿بل﴾ بمنزلة الاستئناف الابتدائي للمناسبة بين معنى الجملتين، أي لما دعوا إلى الإقلاع عن الإشراك وما يستدعيه من الآثام وأنذروا بالعقاب عليه يوم القيامة كانوا مصممين على الاسترسال في الكفر.

والفجور: فعل السوء الشديد ويطلق على الكذب، ومنه وصفت اليمين الكاذبة". (١)

٥١٤-"فعله في الحالين فخالف ما كلف به ومما علمه النبي صلى الله عليه وسلم من الدعاء "فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت" .

[١٤-١٥] ﴿بل الأنسان على نفسه بصيرة، ولو ألقى معاذيره﴾ .

إضراب **انتقالي**، وهو للترقي من مضمون ﴿ينبأ الأنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ إلى الإخبار بأن الكافر يعلم ما فعله لأنهم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، إذ هو قرأ كتاب أعماله فقال: ﴿يا ليتني لم أوت كتابيه، ولم أدر ما حسابيه﴾ [الحاقة:٢٥-٢٦]، ﴿ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا﴾ [الكهف: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾ [الاسراء:١٤].

ونظم قوله: ﴿بل الأنسان على نفسه بصيرة﴾ صالح لإفادة معنيين:

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٦/٢٩

أولهما أن يكون ﴿بصيرة﴾ بمعنى مبصر شديد المراقبة فيكون ﴿بصيرة﴾ خبرا عن ﴿الإنسان﴾ . و ﴿على نفسه﴾ متعلقا ب ﴿بصيرة﴾ ، أي الإنسان بصير بنفسه. وعدي بحرف ﴿على﴾ لتضمينه معنى المراقبة وهو معنى قوله في الآية الأخرى ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾ . وهاء ﴿بصيرة﴾ تكون للمبالغة مثل هاء علامة ونسابة، أي الإنسان عليم بصير قوي العلم بنفسه يومئذ.

والمعنى الثاني: أن يكون ﴿بصيرة﴾ مبتدأ ثانيا، والمراد به قرين الإنسان من الحفظة وعلى نفسه خبر المبتدأ الثاني مقدما عليه، ومجموع الجملة خبرا عن ﴿الإنسان﴾ ، و ﴿بصيرة﴾ حينئذ يحتمل أن يكون معنى بصير، أي مبصر والهاء للمبالغة كما تقدم في المعنى الأول، وتكون تعدية ﴿بصيرة﴾ ب ﴿على﴾ لتضمينه معنى الرقيب كما في المعنى الأول.

ويحتمل أن تكون ﴿بصيرة﴾ صفة لموصوف محذوف، تقديره: حجة بصيرة، وتكون ﴿بصيرة﴾ مجازا في كونها بينة كقوله تعالى: ﴿قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر﴾ [الاسراء: من الآية١٠٢]. ومنه قوله تعالى: ﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرة﴾ [الاسراء: ٥٩] والتأنيث لتأنيث الموصوف.

وقد جرت هذه مجرى المثل لإيجازها ووفرة معانيها.". (١)

٥١٥-"فالقصر المستفاد من ﴿إنما﴾ قصر قلب مبني على تنزيل المطعمين منزلة من يضن أن من أطعمهم يمن عليهم ويريد منهم الجزاء والشكر بناء على المتعارف عندهم في الجاهلية. والمراد بالجزاء: ما هو عوض عن العطية من خدمة وإعانة، وبالشكور ذكرهم بالمزية.

والشكور: مصدر بوزن الفعول كالقعود والجلوس، وإنما اعتبر بوزن الفعول الذي هو مصدر فعل اللازم لأن فعل الشكر لا يتعدى للمشكور بنفسه غالبا بل باللام يقال: شكرت لك قال تعالى: ﴿واشكروا لي﴾ [البقرة: ١٥٢].

وأما قوله: ﴿إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا﴾ فهو مقول لقول يقولونه في نفوسهم أو ينطق به بعضهم مع بعض وهو حال من ضمير ﴿يخافون﴾ [الانسان: ٧] أي يخافون ذلك اليوم في نفوسهم قائلين ﴿إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا﴾ ، فحكى وقوله: ﴿إنما نطعمكم لوجه الله﴾ وقولهم ﴿إنا نخاف﴾ الخ. على طريقة اللف والنشر المعكوس والداعي إلى عكس النشر مراعاة حسن تنسيق النظم ليكون الانتقال من ذكر الإطعام إلى ما يقولونه للمطعمين والانتقال من ذكر خوف يوم الحساب إلى بشارتهم بوقاية الله إياهم من شر ذلك اليوم وما يلقونه فيه من النضرة والسرور والنعيم.

فيجوز أن يكون ﴿من ربنا﴾ ظرفا مستقرا وحرف ﴿من﴾ ابتدائية وهو من حال ﴿يوما﴾ قدم عليه، أي نخاف يوما عبوسا قمطريرا حال كونه من أيام ربنا، أي من أيام تصاريفه.

ويجوز أن تكون ﴿من﴾ تجريدية كقولك: لي من فلان صديق حميم. ويكون يوما منصوبا على الظرفية وتنويه للتعظيم، أي نخافه في يوم شديد.

وعبوسا: منصوبا على المفعول بفعل ﴿نخاف﴾ ، أي نخاف غضبان شديد الغضب هو ربنا، فيكون في التجريد تقوية

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢٢/٢٩

للخوف إذ هو كخوف من شيئين وتلك نكتة التجريد، أو يكون ﴿عبوسا﴾ حالا ﴿من ربنا﴾ .
ويجوز أن تجعل ﴿من﴾ لتعدية فعل ﴿نخاف﴾ كما عدي في قوله تعالى: ﴿فمن خاف من موص جنفا﴾ [البقرة: ١٨٢].
وينتصب يوما على المفعول به لفعل ﴿نخاف﴾ فصار لفعل ﴿نخاف﴾ معمولان. و ﴿عبوسا﴾ صفة ل ﴿يوما﴾ ، والمعنى: نخاف عذاب يوم هذه صفته، ففيه تأكيد الخوف بتكرير متعلقة ومرجع التكرير إلى كونه خوف الله لأن اليوم يوم عدل الله وحكمه.". (١)

٥١٦-"والإشارة إلى ما يكون حاضرا لديهم من ألوان النعيم الموصوف فيما مضى من الآيات.
والمقصود من ذلك الثناء عليهم بما أسلفوا من تقوى الله وتكرمتهم بذلك وتنشيط أنفسكم بأن ما أنعم به عليهم هو حق لهم جزاء على عملهم.
وإقحام فعل ﴿كان﴾ للدلالة على تحقيق كونه جزاء لا منا عليهم بما لم يستحقوا، فإن من تمام الإكرام عند الكرام أن يتبعوا كرامتهم بقول ينشط له المكرم ويزيل عنه ما يعرض من خجل ونحوه، أي هو جزاء حقا لا مبالغة في ذلك.
وعطف على ذلك قوله: ﴿وكان سعيكم مشكورا﴾ علاوة على إيناسهم بأن ما أغدق عليهم كان جزاء لهم على ما فعلوا بأن سعيهم الذي كان النعيم جزاء عليه، هو سعي مشكور، أي مشكور ساعيه، فأسند المشكور إلى السعي على طريقة المجاز العقلي مثل قولهم: سيل مفعم.
ولك أن تجعل ﴿مشكورا﴾ مفعولا حقيقة عقلية لكن على طريقة الحذف والإيصال، أي مشكورا عليه.
وإقحام فعل ﴿كان﴾ كإقحام نظيره آنفا.
[٢٣-٢٤] ﴿إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا، فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا﴾ .
من هنا يبتدئ ما لا خلاف في أنه مكي من هذه السورة.
وعلى كلا القولين فهذا استئناف ابتدائي ويجيء على قول الجمهور أن السورة كلها مكية وهو الأرجح، أنه استئناف للانتقال من الاستدلال على ثبوت البعث بالحجة والترهيب والوعيد للكافرين به والترغيب والوعد للمؤمنين به بمرهبات ومرغبات هي من الأحوال التي تكون بعد البعث، فلما استوفى ذلك ثني عنان الكلام إلى تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم والربط على قلبه لدفاع أن تلحقه آثار الغم على تصلب قومه في كفرهم وتكذيبهم بما أنزل عليه مما شأنه أن يوهن العزيمة البشرية، فذكره الله بأنه نزل عليه الكتاب لئلا يعبأ بتكذيبهم.
وفي إيراد هذا بعد طول الكلام في أحوال الآخرة، قضاء لحق الاعتناء بأحوال". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٣٥٨

(٢) التحرير والتنوير ٢٩/٣٧٢

٥١٧-"واجتلاب ﴿إذا﴾ في هذا التعليق لأن شأن ﴿إذا﴾ أن يفيد اليقين بوقوع ما قيد بها بخلاف حرف ﴿إن﴾ فهو إيماء إلى أن حصول هذه المشيئة مستقرب الوقوع.

فيجوز أن يكون هذا بمنزلة النتيجة لقوله: ﴿نحن خلقناهم﴾ الخ، ويحمل الشرط على التحقق قال تعالى: ﴿وإن الدين لواقع﴾ [الذريات:٦].

ويجوز أن يكون قوله: ﴿وإذا شئنا بدلنا أمثالهم﴾ تهديدا لهم على إعراضهم وجحودهم للبعث، أي لو شئنا لأهلكناهم وخلقنا خلقا آخر مثلهم كقوله تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ [ابراهيم: ١٩].

ويكون ﴿إذا﴾ مراد به تحقق التلازم بين شرط ﴿إذا﴾ وجوابها، أي الجملة المضاف إليها، والجملة المتعلق بها.

وفعل التبديل يقتضي مبدلا ومبدلا به وأيهما اعتبرته في موضع الآخر صح لأن كل مبدل هو أيضا مبدل به ذلك الشيء، ولا سيما إذا لم يكن في المقام غرض ببيان المرغوب في اقتناءه والمسموح ببذله من الشيئين المستبدلين، فحذف من الكلام هنا متعلق ﴿بدلنا﴾ وهو المجرور بالباء لأنه أولى بالحدث، وأبقي المفعول.

وقد تقدم نظيره في سورة الواقعة [٦١] في قوله: ﴿على أن نبدل أمثالكم﴾ ، ومنه قوله تعالى: ﴿إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم﴾ في سورة المعارج [٤٠-٤١] فالتقدير: بدلنا منهم.

والأمثال: جمع مثل وهو المماثل في ذات أو صفة، فيجوز أن يراد أمثالهم في أشكال أجسادهم وهو التبديل الذي سيكون في المعاد.

ويجوز أن يراد أمثالهم في أنهم أمم، على الوجه الأول فهو يدل على أن البعث يحصل بخلق أجسام على مثال الأجساد التي كانت في الحياة الدنيا للأرواح التي كانت فيها.

وانتصب ﴿تبديلا﴾ على المفعول المطلق الموكد لعامله للدلالة على أنه تبديل حقيقي، وللتوصل بالتنوين إلى تعظيمه وعجوبته.

[٢٩] ﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا﴾ .

استئناف ابتدائي **للانتقال** من بسط التذكير والاستدلال إلى فذلكة الغرض وحوصلته،". (١)

٥١٨-"أهل نبزه وملامه، زاد به الزمخشري في طنبور أصحاب النقمة، لنبز المعري ولمزه نغمة.

قال الفخر: كان الأولى لصاحب "الكشاف" أن لا يذكر ذلك أي لأنه ظن سواء بلا دليل.

وقال الطيبي: وليس كذلك لأنه لا يخفى على مثل المعري: أن الكلام بآخره لأن الله شبه الشرارة: أولا حين تنفصل عن النار بالقصر في العظم، وثانيا حين تأخذ في الارتفاع والانبساط فتنشق عن أعداد لا نهاية لها بالجمالات في التفرق واللون والعظم والثقل، ونظر في ذلك إلى الحيوان وأن تلك الحركات اختيارية وكل ذلك مفقود في بيته.

[٣٤] ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير ٣٨٠/٢٩

تكرير لقصد تهديد المشركين الأحياء والقول فيه كالقول في نظيره الواقع ثانيا في هذه السورة.

[٣٥-٣٦] ﴿هذا يوم لا ينطقون، ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ .

إن كانت الإشارة على ظاهرها كان المشار إليه هو اليوم الحاضر وهو يوم الفصل فتكون الجملة من تمام ما يقال لهم في ذلك اليوم بعد قوله: ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾ [المرسلات:٢٩] فيكون في **الانتقال** من خطابهم بقوله: ﴿انطلقوا﴾ إلى إجراء ضمائر الغيبة عليهم، التفات يزيده حسنا أنهم قد استحقوا الإعراض عنهم بعد إهانتهم بخطاب ﴿انطلقوا﴾ .

وهذا الوجه أنسب بقوله تعالى بعده ﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين﴾ [المرسلات:٣٨]، وموقع الجملة على هذا التأويل موقع تكرير التوبيخ الذي أفاده قوله: ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾ وهو من جملة ما يقال لهم في ذلك اليوم، واسم الإشارة مستعمل في حقيقته للقريب.

وإن كانت الإشارة إلى المذكور في اللفظ وهو يوم الفصل المتحدث عنه بأن فيه الويل للمكذبين، كان هذا الكلام موجها إلى الذين خوطبوا بالقرن كلهم إنذارا للمشركين منهم وإنعاما على المؤمنين، فكانت ضمائر الغيبة جارية على أصلها وكانت عائدة على المكذبين من قوله: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ [المرسلات:٣٤] وتكون الجملة معترضة بين جملة ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾ ، وجملة ﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين﴾". (١)

٥١٩-"[٤٨] ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ .

يجوز أن يكون عطفا على قوله: ﴿للمكذبين﴾ [المرسلات: ٤٧]، والتقدير: والذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون، فإن ﴿ال﴾ الداخلة على الأوصاف المشتقة بمنزلة اسم الموصول غالبا، ولذلك جعلها النحاة في عداد أسماء الموصول وجعلوا الوصف الداخلة عليه صلة لها.

ويجوز أن يكون عطفا على جملة ﴿كلوا وتمتعوا قليلا﴾ [المرسلات: ٤٦] **والانتقال** من الخطاب إلى الغيبة التفات.

وعلى كلا الوجهين فهو من الإدماج لينعى عليهم مخالفتهم المسلمين في الأعمال الدالة على الإيمان الباطن فهو كناية عن عدم إيمانهم لأن الصلاة عماد الدين ولذلك عبر عن المشركين ب ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ [الماعون:٥].

والمعنى: إذا قيل لهم آمنوا واركعوا لا يؤمنون ولا يركعون كما كني عن عدم الإيمان لما حكي عنهم في الآخرة ﴿ما سلككم في سقر، قالوا لم نك من المصلين، ولم نك نطعم المسكين﴾ [المدثر:٤٤] إلى آخره.

ويجوز أن يكون عطفا على قوله: ﴿إنكم مجرمون﴾ [المرسلات: ٤٦].

وعلى الوجوه كلها يفيد تهديدهم لأنه معطوف على التكذيب أو على الإجرام، وكلاهما سبب للتهديد بجزاء السوء في يوم الفصل.

وليس في الآية دليل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة لعدم تعين معنى المصلين للذين يقيمون الصلاة.

[٤٩] ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٤٠٥

هذه الجملة مثل نظيرها الموالية هي له، إذ يجوز أن تكون متصلة بقوله: ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ [المرسلات:٤٨] ويكون التعبير ب"المكذبين" إظهار في مقام الإضمار لقصد وصفهم بالتكذيب. والتقدير: ويل يومئذ لهم أو لكم فهي تهديد ناشئ عن جملة ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ ، ويكون اليوم المشار إليه ب ﴿يومئذ﴾ الزمان الذي يفيده ﴿إذا﴾ من قوله: ﴿وإذا قيل لهم اركعوا﴾ الذي يجازى فيه بالويل للمجرمين الذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون، أي لا يؤمنون، وتفيد مع ذلك تقريرا". (١)

٥٢٠-"وفي هذا امتنان على الناس بخلق نظام النوم فيهم لتحصل لهم راحة من أتعاب العمل الذي يكدحون له في نهارهم فالله تعالى جعل النوم حاصلا للإنسان بدون اختياره، فالنوم يلجئ الإنسان إلى قطع العمل لتحصل راحة لمجموعه العصبي الذي ركنه في الدماغ، فبتلك الراحة يستجد العصب قواه التي أوهنها عمل الحواس وحركات الأعضاء وأعمالها، بحيث لو تعلقت رغبة أحد بالسهر لا بد له من أن يغلبه النوم وذلك لطف بالإنسان بحيث يحصل له ما به منفعة مداركه قسرا عليه لئلا يتهاون به، ولذلك قيل: إن أقل الناس نوما أقصرهم عمرا وكذلك الحيوان.

[١٠] ﴿وجعلنا الليل لباسا﴾.

من إتمام الاستدلال الذي قبله وما فيه من المنة لأن كون الليل لباسا حالة مهيئة لتكيف النوم ومعينة على هنائه والانتفاع به لأن الليل ظلمة عارضة في الجو من مزايلة ضوء الشمس عن جزء من كرة الأرض وبتلك الظلمة تحتجب المرئيات عن الإبصار فيعسر المشي والعمل والشغل وينحط النشاط فتتهيأ الأعصاب للخمول ثم يغشاها النوم فيحصل السبات بهذه المقدمات العجيبة، فلا جرم كان نظام الليل آية على انفراد الله تعالى بالخلق وبديع تقديره.

وكان دليلا على أن إعادة الأجسام بعد الفناء غير متعذرة عليه تعالى فلو تأمل المنكرون فيها لعلموا أن الله قادر على البعث فلما كذبوا خبر الرسول صلى الله عليه وسلم به، وفي ذلك امتنان عليهم بهذا النظام الذي فيه اللطف بهم وراحة حياتهم لو قدروه حق قدره لشكروه وما أشركوا، فكان تذكر حالة الليل سريع الخطورة بالأذهان عند ذكر حالة النوم فكان ذكر النوم مناسبة **للانتقال** إلى الاستدلال بحالة الليل على حسب أفهام السامعين.

والمعني من جعل الليل لباسا يحوم حول وصف حالة خاصة بالليل عبر عنها باللباس.

فيجوز أن يكون اللباس محمولا على معنى الاسم وهو المشهور في إطلاقه، أي ما يلبسه الإنسان من الثياب فيكون وصف الليل به على تقدير كاف التشبيه على طريقة التشبيه البليغ، أي جعلنا الليل للإنسان كاللباس له، فيجوز أن يكون وجه الشبه هو التغشية. وتحته ثلاثة معان:

أحدها: أن الليل ساتر للإنسان كما يستره اللباس، فالإنسان في الليل يختلي بشؤونه". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٤١٢/٢٩

(٢) التحرير والتنوير ١٨/٣٠

٥٢١-"استدلالا بحالة أخرى من الأحوال التي أودعها الله تعالى في نظام الموجودات وجعلها منشأ شبيها بحياة بعد شبيه بموت أو اقتراب منه ومنشأ تخلق موجودات من ذرات دقيقة. وتلك حالة إنزال ماء المطر من الأسحبة على الأرض فتنبت الأرض به سنابل حب وشجرا وكلأ، وتلك كلها فيها حياة قريبة من حياة الإنسان والحيوان وهي حياة النماء فيكون ذلك دليلا للناس على تصور حالة البعث بعد الموت بدليل من التقريب الدال على إمكانه حتى تضمحل من نفوس المكابرين شبه إحالة البعث.

وهذا الذي أشير إليه هنا قد صرح به في مواضع من القرآن كقوله تعالى: ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج﴾ [ق: ٩-١١]، ففي الآية استدلالان بإنزال الماء من السحاب، واستدلال بالإنبات، وفي هذا أيضا منة على المعرضين على النظر في دلائل صنع الله التي هي دواع لشكر المنعم بها لما فيها من منافع للناس من رزقهم ورزق أنعامهم، ومن تنعمهم وجمال مرائيهم فإنهم لو شكروا المنعم بها لكانوا عندما يبلغهم عنه أنه يدعوهم إلى النظر في الأدلة مستعدين للنظر، بتوقع أن تكون الدعوة البالغة إليهم صادقة العزو إلى الله فما خفيت عنهم الدلالة.

ومناسبة **الانتقال** من ذكر السماوات إلى ذكر السحاب والمطر قوية.

والمعصرات: بضم الميم وكسر الصاد السحابات التي تحمل ماء المطر واحدثها معصرة اسم فاعل من: أعصرت السحابة، إذا آن لها أن تعصر، أي تنزل إنزالا شبيها بالعصر. فهمزة "أعصر" تفيد معنى الحينونة وهو استعمال موجود وتسمى همزة التهيئة كما في قولهم: أجز الزرع، إذا حان له أن يجز بزاي في آخره ، وأحصد إذا حان وقت حصاده. ويظهر من كلام صاحب "الكشاف" أن همزة الحينونة تفيد معنى التهيؤ لقبول الفعل وتفيد معنى التهيؤ لإصدار الفعل فإنه ذكر: أعصرت الجارية، أي حان وقت أن تصير تحيض، وذكر ابن قتيبة في "أدب الكاتب": أركب المهر، إذا حان أن يركب، وأقطف الكرم، إذا حان أن يقطف. ثم ذكر: أقطف القوم: حان أن يقطفوا كرومهم، وأنتجت الخيل: حان وقت نتاجها.

وفي تفسير ابن عطية عند قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله يزجي سحابا﴾ الآية من سورة النور [٤٣]، والعرب تقول: إن الله تعالى إذا جعل السحاب ركاما جاء بالريح عصر بعضه بعضا فيخرج الودق منه، ومن ذلك قوله: ﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا﴾ ومن". (١)

٥٢٢-"فعل جمعا على أفعال، أي لا نظير له إذ لا يقال خضر وأخضار وحمر وأحمار. يريد أنه لا يخرج الكلام الفصيح على استعمال لم يثبت ورود نظيره في كلام العرب مع وجود تأويل له على وجه وارد.

فكان أظهر الوجوه أن ﴿ألفافا﴾ اسم جمع لا واحد له من لفظه.

وبهذا الاستدلال والامتنان ختمت الأدلة التي أقيمت لهم على انفراد الله تعالى بالإلهية وتضمنت الإيماء إلى إمكان البعث وما أدمج فيها من المنن عليهم عساهم أن يذكروا النعمة فيشعروا بواجب شكر المنعم ولا يستفظعوا إبطال الشركاء في الإلهية

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٣٠

وينظروا فيما بلغهم عنه من الإخبار بالبعث والجزاء فيصرفوا عقولهم للنظر في دلائل تصديق ذلك.

وقد ابتدئت هذه الدلائل بدلائل خلق الأرض وحالتها وجالت بهم الذكرى على أهم ما على الأرض من الجماد والحيوان، ثم ما في الأفق من أعراض الليل والنهار. ثم تصاعد بهم التجوال بالنظر في خلق السماوات وبخاصة الشمس ثم نزل بهم إلى دلائل السحاب والمطر فنزلوا معه إلى ما يخرج من الأرض من بدائع الصنائع ومنتهى المنافع فإذا هم ينظرون من حيث صدروا وذلك من رد العجز على الصدر.

[١٧-١٨] ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتا، يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا﴾ .

هذا بيان لما أجمله قوله: ﴿عن النبأ العظيم، الذي هم فيه مختلفون﴾ وهو المقصود من سياق الفاتحة التي افتتحت بها السورة وهيأت للانتقال مناسبة ذكر الإخراج من قوله: ﴿لنخرج به حبا ونباتا﴾ [النبأ: ١٥] الخ، لأن ذلك شبه بإخراج أجساد الناس للبعث كما قال تعالى: ﴿فأنبتنا به جنات وحب الحصيد﴾ إلى قوله: ﴿كذلك الخروج﴾ في سورة ق [٩-١١].

وهو استئناف بياني أعقب به قوله: ﴿لنخرج به حبا ونباتا﴾ [النبأ: ١٥] الآية فيما قصد به من الإيماء إلى دليل البعث.

وأكد الكلام بحرف التأكيد لأن فيه إبطالا لإنكار المشركين وتكذيبهم بيوم الفصل.

ويوم الفصل: يوم البعث للجزاء.

والفصل: التمييز بين الأشياء المختلطة، وشاع إطلاقه على التمييز بين المعاني". (١)

٥٢٣-"عذاب يكون حاصلا لهم كما في قوله تعالى: ﴿زدناهم عذابا فوق العذاب﴾ [النحل:٨٨].

ويجوز أن تكون زيادة من نوع ما هم فيه من العذاب بتكريره في المستقبل.

والمعنى: فسنزيدكم عذابا زيادة مستمرة في أزمنة المستقبل، فصيغ التعبير عن هذا المعنى بهذا التركيب الدقيق، إذ أبتدئ بنفي الزيادة بحرف تأبيد النفي وأردف الاستثناء المقتضي ثبوت نقيض حكم المستثنى منه للمستثنى فصارت دلالة الاستثناء على معنى: سنزيدكم عذابا مؤبدا. وهذا من تأكيد الشيء بما يشبه ضده وهو أسلوب طريف من التأكيد إذ ليس فيه إعادة لفظ فإن زيادة العذاب تأكيد للعذاب الحاصل.

ولما كان المقصود الوعيد بزيادة العذاب في المستقبل جيء في أسلوب نفيه بحرف نفي المستقبل، وهو"لن" المفيد تأكيد النسبة المنفية وهي ما دل عليه مجموع النفي والاستثناء، فإن قيد تأبيد نفي الزيادة الذي يفيده حرف "لن" في جانب المستثنى منه يسري إلى إثبات زيادة العذاب في جانب المستثنى، فيكون معنى جملة الاستثناء: سنزيدكم عذابا أبدا، وهو معنى الخلود في العذاب. وفي هذا الأسلوب ابتداء مطمع بانتهاء مؤيس وذلك أشد حزنا وغما بما يوهمهم أن ما ألقوا فيه هو منتهى التعذيب حتى إذا ولج ذلك أسماعهم فحزنوا له أتبع بأنهم ينتظرهم عذاب آخر أشد، فكان ذلك حزنا فوق حزن، فهذا منوال هذا النظم وهو مؤذن بشدة الغضب.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص وأبي برزة الأسلمي وأبي هريرة: أن هذه الآية أشد ما نزل في أهل النار، وقد أسند هذا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٣٠

إلى النبي صلى الله عليه وسلم من حديث عن أبي برزة الأسلمي. سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن أشد آية في كتاب الله على أهل النار؟ فقال: "قول الله تعالى ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا﴾ " . وفي سنده جسر بن فرقد وهو ضعيف جدا.

وفي ابن عطية: أن أبا هريرة رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يذكر أبن عطية سنده، وتعدد طرقه يكسبه قوة.

[٣١-٣٦] ﴿إن للمتقين مفازا، حدائق وأعنابا، وكواعب أترابا، وكأسا دهاقا، لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا، جزاء من ربك عطاء حسابا﴾ .

جرى هذا **الانتقال** على عادة القرآن في تعقيب الإنذار للمنذرين بتبشير من هم أهل للتبشير.". (١)

٥٢٤-"فانتقل من ترهيب الكافرين بما سيلاقونه إلى ترغيب المتقين فيما أعد لهم في الآخرة من كرامة ومن سلامة مما وقع فيه أهل الشرك.

فالجملة متصلة بجملة ﴿إن جهنم كانت مرصادا، للطاغين مآبا﴾ [النبأ:٢١-٢٢] وهي مستأنفة استئنافا ابتدائيا مقتضى **الانتقال**.

وافتتاحها بحرف "إن" للدلالة على الاهتمام بالخبر لئلا يشك فيه أحد.

والمقصود من المتقين المؤمنون الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم واتبعوا ما أمرهم به واجتنبوا ما نهاهم عنه لأنهم المقصود من مقابلتهم بالطاغين المشركين.

والمفاز: مكان الفوز وهو الظفر بالخير ونيل المطلوب. ويجوز أن يكون مصدرا ميميا بمعنى الفوز، وتنوينه للتعظيم.

وتقديم خبر "إن" على اسمها للاهتمام به تنويها للمتقين.

والمراد بالمفاز: الجنة ونعيمها. وأوثرت كلمة ﴿مفازا﴾ على كلمة: الجنة، لأن اشتقاقه إثارة الندامة في نفوس المخاطبين بقوله: ﴿فتأتون أفواجا﴾ [النبأ:١٨] وبقوله: ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا﴾ [النبأ:٣٠].

وأبدل ﴿حدائق﴾ من ﴿مفازا﴾ بدل بعض من كل باعتبار أنه بعض من مكان الفوز، أو بدل اشتمال باعتبار معنى الفوز.

والحدائق: جمع حديقة وهي الجنة من النخيل والأشجار ذوات الساق المحوطة بحائط أو جدار أو حضائر.

والأعناب: جمع عنب وهو اسم يطلق على شجرة الكرم ويطلق على ثمرها.

والكواكب: جمع كاعب، وهي الجارية التي بلغت سن خمس عشرة سنة ونحوها. ووصفت بكاعب لأنها تكعب ثديها، أي صار كالكعب، أي استدار ونتأ، يقال: كعب بتشديد العين. ولما كان كاعب وصفا خاصا بالمرأة لم تلحقه هاء التأنيث وجمع على فواعل.

والأتراب: جمع ترب بكسر فسكون: وهو المساوي غيره في السن، وأكثر ما يطلق على الإناث. قيل هو مشتق من التراب

---

(١) التحرير والتنوير ٣٨/٣٠

فقيل لأنه حين يولد يقع على التراب مثل الآخر، أو لأن الترب ينشأ مع لدته في سن الصبا يلعب بالتراب.". (١)

٥٢٥-"و ﴿نشطا﴾ مصدر جاء على مصدر فعل المتعدي من باب نصر فتعين أن ﴿الناشطات﴾ فاعلات النشط فهو متعد.

وقد يكون مفضيا لإرادة النشاط الحقيقي لا المجازي. ويجوز أن يكون التأكيد لتحقيق الوصف لا لرفع احتمال المجاز.

وعن ابن عباس: ﴿الناشطات﴾ الملائكة تنشط نفوس المؤمنين، وعنه هي نفوس المؤمنين تنشط للخروج.

و ﴿السابحات﴾ صفة من السبح المجازي، وأصل السبح العوم وهو تنقل الجسم على وجه الماء مباشرة وهو هنا مستعار لسرعة **الانتقال**، فيجوز أن يكون المراد الملائكة السائرين في أجواء السماوات وآفاق الأرض، وروي عن علي بن ابي طالب.

ويجوز أن يراد خيل الغزاة حين هجومها على العدو سريعة كسرعة السابح في الماء كالسابحات في قول امريء القيس يصف فرسا:

مسح اذ ما السابحات على الوغى ... أثرن الغبار بالكديد المركل

وقيل: ﴿السابحات﴾ النجوم، وهو جار على قول من فسر النازعات بالنجوم. ﴿سبحا﴾ مصدر مؤكد لإفادة التحقيق من التوسل إلى تنويه للتعظيم. وعطف ﴿فالسابقات﴾ بالفاء يؤذن بأن هذه الصفة متفرعة عن التي قبلها لأنهم يعطفون بالفاء الصفات التي من شأنها أن يتفرع بعضها عن بعض كما تقدم في قوله تعالى: ﴿والصافات صفا، فالزاجرات زجرا، فالتاليات ذكرا﴾ [الصافات: ١-٣] وقول ابن زيابة:

يا لهف زيابة للحارث الص ... ابح فالغانم فالآيب

فلذلك ﴿فالسابقات﴾ هي السابقات من السابحات.

والسبق: تجاوز السائر من يسير معه ووصوله إلى المكان المسير إليه قبله. ويطلق السبق على سرعة الوصول من دون وجود سائر مع السابق قال تعالى: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ [البقرة:١٤٨] وقال ﴿أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ [المؤمنون:٦١].

ويطلق السبق على الغلب والقهر، ومنه قوله تعالى: ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا﴾ [العنكبوت:٤] وقول مرة بن عداء الفقعسي:

كأنك لم تسبق من الدهر ليلة ... إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب". (٢)

٥٢٦-"وإضافة ﴿نكال﴾ إلى ﴿الآخرة والأولى﴾ على معنى "في".

فالنكال في الأولى هو الغرق، والنكال في الآخرة هو عذاب جهنم.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٩/٣٠

(٢) التحرير والتنوير ٥٧/٣٠

وقد استعمل النكال في حقيقته ومجازه لأن ما حصل لفرعون في الدنيا هو نكال حقيقي وما يصيبه في الآخرة أطلق عليه النكال لأنه يشبه النكال في شدة التعذيب ولا يحصل به نكال يوم القيامة.

وورود فعل ﴿أخذه﴾ بصيغة المضي مع أن عذاب الآخرة مستقبل ليوم الجزاء مراعا فيه أنه لما مات ابتدأ يذوق العذاب حين يرى منزلته التي سيؤول إليها يوم الجزاء كما ورد في الحديث.

وتقديم ﴿الآخرة﴾ على ﴿الأولى﴾ في الذكر لأن أمر الآخرة أعظم.

وجاء في آخر القصة بحوصلة وفذلكة لما تقدم فقال: ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ فهم من معنى البيان لمضمون جملة ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ [النازعات:١٥] الآيات.

والإشارة بقوله: ﴿في ذلك﴾ إلى ﴿حديث موسى﴾ [النازعات:١٥].

والعبرة: الحالة التي ينتقل الذهن من معرفتها إلى معرفة عاقبتها أو عاقبة أمثالها. وهي مشتقة من العبر، وهو **الانتقال** من ضفة واد أو نهر إلى ضفته الأخرى.

والمراد بالعبرة هنا الموعظة.

وتنوين "عبرة" للتعظيم لأن في هذه القصة مواعظ كثيرة من جهات هي مثلات للأعمال وعواقبها، ومراقبة الله وخشيته، وما يترتب على ذلك وعلى ضده من خير وشر في الدنيا والآخرة.

وجعل ذلك عبرة لمن يخشى، أي من تخالط نفسه خشية الله لأن الذين يخشون الله هم أهل المعرفة الذين يفهمون دلالة الأشياء على لوازمها وخفاياها، قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ [فاطر:٢٨] وقال ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ [العنكبوت:٤٣]. والخشية تقدمت قريبا في قوله: ﴿وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ [النازعات:١٩].

وفي هذا تعريض بالمشركين بأنهم ليسوا بأهل للانتفاع بمثل هذا كما لم ينتفع بمثله فرعون وقومه.". (١)

٥٢٧-"وفي القصة كلها تعريض بسادة قريش من أهل الكفر مثل أبي جهل بتنظيرهم بفرعون وتنظير الدهماء بالقوم الذين حشرهم فرعون ونادى فيهم بالكفر، وقد علم المسلمون مضرب هذا المثل فكان أبو جهل يوصف عند المسلمين بفرعون هذه الأمة.

وتأكيد الخبر ب ﴿أن﴾ بلام الابتداء لتنزيل السامعين الذين سيقت لهم القصة منزلة من ينكر ما فيها من المواعظ لعدم جريهم على الاعتبار والاتعاظ بما فيها من المواعظ.

[٢٧-٢٩] ﴿أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها، رفع سمكها فسواها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها﴾ .

انتقال من الاعتبار بأمثالهم من الأمم الذي هو تخويف وتهديد على تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إبطال شبهتهم على نفي البعث وهي قوله: ﴿أئنا لمردودون في الحافرة﴾ [النازعات:١٠] وما أعقبوه به من التهكم المبني على توهم

---

(١) التحرير والتنوير ٧٣/٣٠

إحالة البعث. وإذ قد فرضوا استحالة عودة الحياة إلى الأجسام البالية إذ مثلوها بأجساد أنفسهم إذ قالوا ﴿أئنا لمردودون﴾ [النازعات:١٠] جاء إبطال شبهتهم بقياس خلق أجسادهم على خلق السماوات والأرض فقيل لهم ﴿أأنتم أشد خلقا أم السماء﴾ ، فلذلك قيل لهم هنا أأنتم بضميرهم ولم يقل: آالإنسان أشد خلقا، وما هم إلا من الإنسان، فالخطاب موجه إلى المشركين الذين عبر عنهم آنفا بضمائر الغيبة من قوله: ﴿يقولون﴾ إلى قوله: ﴿فإذا هم بالساهرة﴾ [النازعات:١٤]، وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب.

فالجملة مستأنفة لقصد الجواب عن شبهتهم لأن حكاية شبهتهم ب ﴿يقولون أإنا﴾ إلى آخره، تقتضي ترقب جواب عن ذلك القول كما تقدم الإيماء إليه عند قوله: ﴿يقولون أإنا لمردودون﴾ [النازعات:١٠].

والاستفهام تقريري. والمقصود من التقرير إلجاؤهم إلى الإقرار بأن خلق السماء أعظم من خلقهم، أي من خلق نوعهم وهو نوع الإنسان وهم يعلمون أن الله هو خالق السماء فلا جرم أن الذي قدر على خلق السماء قادر على خلق الإنسان مرة ثانية، فينتج ذلك أن إعادة خلق الأجساد بعد فنائها مقدورة لله تعالى لأنه قدر على ما هو أعظم من ذلك قال تعالى: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [غافر:٥٧]، ذلك أن نظرهم العقلي غيمت عليه العادة فجعلوا ما لم يألفوه محالا، ولم يلتفتوا إلى إمكان ما هو أعظم مما أحالوه بالضرورة.". (١)

٥٢٨-"الإنسان. والفاء مع كونها للتفريع تفيد معنى الفصيحة، إذ التقدير: إن أراد أن يقضي ما أمره فلينظر إلى طعامه أو إن أراد نقض كفره فلينظر إلى طعامه. وهذا نظير الفاء في قوله تعالى: ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ، فلينظر الإنسان مم خلق﴾ [الطارق: ٤-٥]، أي إن أراد الإنسان الخلاص من تبعات ما يكتبه عليه الحافظ فلينظر مم خلق ليهتدي بالنظر فيؤمن فينجو.

وهذا استدلال آخر على تقريب كيفية البعث انتقل إليه في معرض الإرشاد إلى تدارك الإنسان ما أهمله وكان **الانتقال** من الاستدلال بما في خلق الإنسان من بديع الصنع من دلائل قائمة بنفسه في آية ﴿من أي شيء خلقه﴾ [عبس:١٨] إلى الاستدلال بأحوال موجودة في بعض الكائنات شديدة الملازمة لحياة الإنسان ترسيخا للاستدلال، وتفننا فيه، وتعريضا بالمنة على الإنسان في هذه الدلائل، ومن نعمة النبات الذي به بقاء حياة الإنسان وحياة ما ينفعه من الأنعام.

وتعدية فعل النظر هنا بحرف ﴿إلى﴾ تدل على أنه من نظر العين إشارة إلى أن العبرة تحصل بمجرد النظر في أطواره. والمقصود التدبر فيما يشاهده الإنسان من أحوال طعامه بالاستدلال بها على إيجاد الموجودات من الأرض. وجعل المنظور إليه ذات الطعام مع أن المراد النظر إلى أسباب تكونه وأحوال تطوره إلى حالة انتفاع الإنسان به وانتفاع أنعام الناس به.

وذلك من أسلوب إناطة الأحكام بأسماء الذوات، والمراد أحوالها مثل قوله تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ [المائدة:٤] أي أكلها، فأمر الله الإنسان بالتفكير في أطوار تكون الحبوب والثمار التي بها طعامه، وقد وصف له تطور ذلك ليتأمل ما أودع إليه في ذلك من بديع التكوين سواء رأى ذلك ببصره أم لم يره، ولا يخلو أحد عن علم إجمالي بذلك، فيزيده هذا الوصف

---

(١) التحرير والتنوير ٧٤/٣٠

علما تفصيليا، وفي جميع تلك الأطوار تمثيل لإحياء الأجساد المستقرة في الأرض، فقد يكون هذا التمثيل في مجرد الهيئة الحاصلة بإحياء الأجساد، وقد يكون تمثيلا في جميع تلك الأطوار بأن تخرج الأجساد من الأرض كخروج النبات بأن يكون بذرها في الأرض ويرسل الله لها قوى لا نعلمها تشابه قوة الماء الذي به تحيا بذور النبات، قال تعالى: ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتا، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا﴾ [نوح: ١٧-١٨].

وفي تفسير ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ [التكوير:٧] عن ابن". (١)

٥٢٩-"وتسيير الجبال **انتقالها** من أماكنها بارتجاج الأرض وزلزالها. وتقدم في سورة النبأ.

والعشار جمع عشراء وهي الناقة الحامل إذ بلغت عشرة أشهر لحملها فقاربت أن تضع حملها لأن النوق تحمل عاما كاملا، والعشار أنفس مكاسب العرب ومعنى ﴿عطلت﴾ تركت لا ينتفع بها.

والكلام كناية عن ترك الناس أعمالهم لشدة الهول.

وعلى هذا الوجه يكون ذلك من أشراط الساعة في الأرض فيناسب ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ .

ويجوز أن تكون العشار مستعارة للأسحبة المحملة بالمطر، شبهت بالناقة العشراء. وهذا غير بعيد من الاستعمال، فهم يطلقون مثل هذه الاستعارة للسحاب. كما أطلقوا على السحابة اسم بكر في قول عنترة:

جادت عليه كل بمكر حرة ... فتركن كل قرارة كالدرهم

فأطلق على السحابة الكثيرة الماء اسم البكر الحرة، أي الأصيلة من النوق وهي في حملها الأول.

ومعنى تعطيل الأسحبة أن يعرض لها ما يحبس مطرها عن النزول، أو معناه أن الأسحبة الثقال لا تتجمع ولا تحمل ماء، فمعنى تعطيلها تكونها، فيتوالى القحط على الأرض فيهلك الناس والأنعام. وعلى هذا الوجه فذلك من أشراط الساعة العلوية فيناسب تكوير الشمس وانكدار النجوم.

و ﴿ الوحوش﴾ : جمع وحش وهو الحيوان البري غير المتأنس بالناس.

وحشرها: جمعها في مكان واحد، أي مكان من الأرض عند اقتراب فناء العالم فقد يكون سبب حشرها طوفانا يغمر الأرض من فيضان البحار فكلما غمر جزءا من الأرض فرت وحوشه حتى تجتمع في مكان واحد طالبة النجاة من الهلاك، ويشعر بهذا عطف ﴿وإذا البحار سجرت﴾ عليه.

وذكر هذا بالنسبة إلى الوحوش إيماء إلى شدة الهول فالوحوش التي من طبعها نفرة بعضها عن بعض تتجمع في مكان واحد لا يعدو شيء منها على الآخر من شدة الرعب، فهي ذاهلة عما في طبعها من الاعتداء والافتراس، وليس هذا الحشر الذي يحشر الناس به". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١١٤/٣٠

(٢) التحرير والتنوير ١٢٦/٣٠

٥٣٠-"[٩] ﴿كلا بل تكذبون بالدين﴾ .

﴿كلا﴾ ردع عما هو غرور بالله أو بالغرور مما تضمنه قوله: ﴿ما غرك بربك﴾ [الإنفطار:٦] من حصول ما يغر الإنسان بالشرك ومن إعراضه عن نعم الله تعالى بالكفر، أو من كون حالة المشرك كحالة المغرور كما تقدم من الوجهين في الإنكار المستفاد من قوله: ﴿ما غرك بربك الكريم﴾ .

والمعنى: إشراكك بخالقك باطل وهو غرور، أو كالغرور.

ويكون قوله بعده ﴿بل تكذبون بالدين﴾ إضرابا **انتقاليا** من غرض التوبيخ والزجر على الكفر إلى ذكر جرم فظيع آخر، وهو التكذيب بالبعث والجزاء ويشمله التوبيخ بالزجر بسبب أنه معطوف على توبيخ وزجر لأن ﴿بل﴾ لا تخرج عن معنى العطف أي العطف في الغرض لا في نسبة الحكم. ولذلك يتبع المعطوف بها المفرد في إعراب المعطوف عليه فيقول النحويون: إنها تتبع في اللفظ لا في الحكم، أي هو اتباع مناسبة في الغرض لا في اتباع في النسبة.

ويجوز أن يكون ﴿كلا﴾ إبطالا لوجود ما يغر الإنسان أن يشرك بالله، أي لا عذر للإنسان في الإشراك بالله إذ لا يوجد ما يغره به.

ويكون قوله: ﴿بل تكذبون﴾ إضرابا إبطاليا، وما بعد ﴿بل﴾ بيانا لما جرأهم على الإشراك وإنه ليس غرورا إذ لا شبهة لهم في الإشراك حتى تكون الشبهة كالغرور، ولكنهم أصروا على الإشراك لأنهم حبسوا أنفسهم في مأمن من تبعته فاختاروا الاستمرار عليه لأنه هوى أنفسهم، ولم يعبأوا بأنه باطل صراح فهم يكذبون بالجزاء فلذلك سبب تصميم جميعهم على الشك مع تفاوت مداركهم التي لا يخفى على بعضها بطلان كون الحجارة آلهة، ألا ترى أنهم ما كانوا يرون العذاب إلا عذاب الدنيا.

وعلى هذا الوجه يكون فيه إشارة إلى أن إنكار البعث هو جماع الإجرام، ونظير هذا الوجه وقع في قوله تعالى: ﴿فما لهم لا يؤمنون، وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون، بل الذين كفروا يكذبون﴾ في سورة الانشقاق [٢٠-٢٢].

وقرأ الجمهور ﴿تكذبون﴾ بتاء الخطاب. وقرأه أبو جعفر بياء الغيبة على الالتفات.

وفي صيغة المضارع من قوله: ﴿تكذبون بالدين﴾ إفادة أن تكذيبهم بالجزاء متجدد لا". (١)

٥٣١-"وليس في هذه الآية ما يقتضي أن عند هذه الآية سجدة من سجود القرآن والأصح من قول مالك وأصحابه أنها ليست من سجود القرآن خلافا لأبن وهب من أصحاب مالك فإنه جعل سجودات القرآن أربع عشرة. وقال الشافعي: هي سنة. وقال أبو حنيفة: واجبة. والأرجح أن عزائم السجود المنسوبة إحدى عشرة سجدة وهي التي رويت بالأسانيد الصحيحة عن الصحابة. وإن ثلاث آيات غير الإحدى عشرة آية رويت فيها أخبار أنها سجد النبي صلى الله عليه وسلم عند قراءتها منها هذه وعارضتها روايات أخرى فهي: إما قد ترك سجودها، وإما لم يؤكد ومنها قوله تعالى هنا ﴿وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون﴾ . وقال ابن العربي السجود في سورة الانشقاق قول المدنيين من أصحاب مالك اه.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٨/٣٠

قلت: وهو قول ابن وهب ولا خصوصية لهذه الآية بل ذلك في السجدات الثلاث الزائدة على الإحدى عشرة، وقد قال مالك في الموطأ بعد أن روى حديث أبو هريرة "الأمر عندنا أن عزائم السجود إحدى عشرة سجدة ليس في المفصل منها شيء" وقال أبو حنيفة والشافعي: سجدات التلاوة أربع عشرة بزيادة سجدة سورة النجم وسجدة سورة الانشقاق وسجدة سورة العلق. وقال أحمد: هن خمس عشرة سجدة بزيادة السجدة في آخر الآية من سورة الحج ففيها سجدتان عنده.

[٢٢] ﴿بل الذين كفروا يكذبون﴾ .

يجوز أنه إضراب **انتقالي** من التعجيب من عدم إيمانهم، وإنكار عليهم إلى الإخبار عنهم بأنهم مستمرون على الكفر والطعن في القرآن، فالكلام ارتقاء في التعجيب والإنكار.

فالإخبار عنهم بأنهم يكذبون مستعمل في التعجيب والإنكار فلذلك عبر عنه بالفعل المضارع الذي يستروح منه استحضار الحالة مثل قوله: ﴿يجادلنا في قوم لوط﴾ [هود:٧٤].

ويجوز أن يكون ﴿بل﴾ إضرابا إبطاليا، أي لا يوجد ما لأجله لا يؤمنون ولا يصدقون بالقرآن بل الواقع بضد ذلك فإن بواعث الإيمان من الدلائل متوفرة ودواعي الاعتراف بصدق القرآن والخضوع لدعوته متظاهرة ولكنهم يكذبون، أي يستمرون على التكذيب عنادا وكبرياء ويومىء إلى ذلك قوله: ﴿والله أعلم بما يوعون﴾ [الإنشقاق:٢٣].

وهذان المعنيان نظير الوجهين في قوله تعالى في سورة الانفطار [٩-١٠] ﴿بل تكذبون بالدين، وإن عليكم لحافظين﴾ .". (١)

٥٣٢-"وضرب المثل للمشركين بقوم فرعون لأنهم أكبر أمة تألبت على رسول من رسل الله بعثه الله لإعتاق بني إسرائيل من ذل العبودية لفرعون، وناووه لأنه دعا إلى عبادة الرب الحق فغاظ ذلك فرعون الزاعم أنه إله القبط وابن آلهتهم.

وتخصيص ثمود بالذكر من بقية الأمم التي كذبت الرسل من العرب مثل عاد وقوم تبع، ومن غيرهم مثل قوم نوح وقوم شعيب. لما اقتضته الفاصلة السابعة الجارية على حرف الدال من قوله: ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ [البروج:١٢] فإن ذلك لما استقامت به الفاصلة ولم يكن في ذكره تكلف كان من محاسن نظم الكلام إيثاره.

وتقدم ذكر ثمود عند قوله تعالى: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا﴾ في سورة الأعراف [٧٣]. وهو اسم عربي ولكن يطلق على القبيلة التي ينتهي نسبها إليه فيمنع من الصرف بتأويل القبيلة كما هنا.

[١٩-٢٠] ﴿بل الذين كفروا في تكذيب، والله من ورائهم محيط﴾ .

إضراب **انتقالي** إلى إعراضهم عن الاعتبار بحال الأمم الذين كذبوا الرسل وهو أنهم مستمرون على التكذيب منغمسون فيه انغماس المظروف في الظرف فجعل تمكن التكذيب من نفوسهم كتمكن الظرف بالمظروف.

وفيه إشارة إلى أن إحاطة التكذيب بهم إحاطة الظرف بالمظروف لا يترك لتذكر ما حل بأمثالهم من الأمم مسلكا لعقولهم ولهذا لم يقل بل الذين كفروا يكذبون كما قال في سورة الانشقاق.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٧/٣٠

وحذف متعلق التكذيب لظهوره من المقام إذ التقدير: أنهم في تكذيب بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالوحي المنزل إليه وبالبعث.

وجملة ﴿والله من ورائهم محيط﴾ عطف على جملة ﴿الذين كفروا في تكذيب﴾ ، أي هم متمكنون من التكذيب والله يسلط عليهم عقابا لا يفلتون منه. فقوله: ﴿والله من ورائهم محيط﴾ تمثيل لحال انتظار العذاب إياهم وهم في غفلة عنه بحال من أحاط به العدو من ورائه وهو لا يعلم حتى إذا رام الفرار والإفلات وجد العدو محيطا به، وليس المراد هنا إحاطة علمه تعالى بتكذيبهم إذ ليس له كبير جدوى.

وقد قوبل جزاء إحاطة التكذيب بهم بإحاطة العذاب بهم جزاء وفاقا فقوله: ﴿والله". (١)

٥٣٣-"بقوله: ﴿وذكر اسم ربه﴾ ثم الإقبال على طاعته وعبادته وهو المشار إليه بقوله: ﴿فصلى﴾ والصلاة تشير إلى العبادة وهي في ذاتها طاعة وامتثال يأتي بعده ما يشرع من الأعمال قال تعالى: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ [العنكبوت: ٤٥].

[١٦-١٧] ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى﴾ .

قرأ الجمهور ﴿تؤثرون﴾ بمثناة فوقية بصيغة الخطاب، والخطاب موجه للمشركين بقرينة السياق وهو التفات، وقرأه أبو عمرو وحده بالمثناة التحتية على طريقة الغيبة عائدا إلى ﴿الأشقى، الذي يصلى النار الكبرى﴾ [الأعلى:١١-١٢].

وحرف ﴿بل﴾ معناه الجامع هو الإضراب، أي انصراف القول أو الحكم إلى ما يأتي بعد ﴿بل﴾ ؛ فهو إذا عطف المفردات كان الإضراب إبطالا للمعطوف عليه: لغلط في ذكر المعطوف أو للاحتراز عنه فذلك انصراف عن الحكم. وإذا عطف الجمل فعطفه عطف كلام على كلام وهو عطف لفظي مجرد عن التشريك في الحكم ويقع على وجهين، فتارة يقصد إبطال معنى الكلام نحو قوله تعالى: ﴿أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق﴾ [المؤمنون: ٧٠]، فهو انصراف في الحكم، وتارة يقصد مجرد التنقل من خبر إلى آخر مع عدم إبطال الأول نحو قوله تعالى: ﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون، بل قلوبهم في غمرة من هذا﴾ [المؤمنون: ٦٢-٦٣]. فتكون ﴿بل﴾ بمنزلة قولهم دع هذا فهذا انصراف قولي. ويعرف أحد الاضرابين بالقرائن والسياق.

و ﴿بل﴾ هنا عاطفة جملة عطفا صوريا فيجوز أن تكون لمجرد **الانتقال** من ذكر المنتفعين بالذكرى والمتجنبين لها، إلى ذكر سبب إعراض المتجنبين وهم الأشقون بأن السبب إيثارهم الحياة الدنيا، وذلك على قراءة أبي عمرو ظاهر وأما على قراءة الجمهور فهو إضراب عن حكاية أحوال الفريقين **بالانتقال** إلى توبيخ أحد الفريقين وهو الفريق الأشقى فالخطاب موجه إليهم على طريقة الالتفات لتجديد نشاط السامع لكي لا تنقضي السورة كلها في الإخبار عنهم بطريق الغيبة.

ويجوز أن يكون الاضراب إبطالا لما تضمنه قوله: ﴿قد أفلح من تزكى﴾ [الأعلى: ١٤]، من التعريض للذين شقوا بتحريضهم على طلب الفلاح لأنفسهم ليلتحقوا بالذين يخشون ويتزكون ليبطل أن يكونوا مظنة تحصيل الفلاح.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٢٢٥

والمعنى: أنهم بعداء عن أن يضن بهم التنافس في طلب الفلاح لأنهم يؤثرون الحياة". (١)

٥٣٤-"﴿بل﴾ إضراب **انتقالي**. والمناسبة بين الغرضين المنتقل منه والمنتقل إليه مناسبة المقابلة لمضمون ﴿فأكرمه ونعمه﴾ من جهة ما توهموه أن نعمة مالهم وسعة عيشهم تكريم من الله لهم، فنبههم الله على أنهم إن أكرمهم الله فإنهم لم يكرموا عبيده شحا بالنعمة إذ حرموا أهل الحاجة من فضول أموالهم وإذ يستزيدون من المال ما لا يحتاجون إليه وذلك دحض لتفخرهم بالكرم والبذل.

فجملة ﴿لا تكرمون اليتيم﴾ استئناف كما يقتضيه الإضراب، فهو إما استئناف ابتداء كلام، وإما اعتراض بين ﴿كلا﴾ وأختها كما سيأتي وإكرام اليتيم: سد خلته وحسن معاملته لأنه مظنة الحاجة لفقد عائله، ولاستيلائهم على الأموال التي يتركها الآباء لأبنائهم الصغار. وقد كانت الأموال في الجاهلية يتداولها رؤساء العائلات.

والبر لأنه مظنة انكسار الخاطر لشعوره بفقد من يدل هو عليه.

واليتيم: الصبي الذي مات أبوه وتقدم في سورة النساء، وتعريفه للجنس، أي لا تكرمون اليتامى، وكذلك تعريف ﴿المسكين﴾ .

ونفي الحض على طعام المسكين نفي لإطعامه بطريق الأولى، وهي دلالة فحوى الخطاب، أي لقلة الاكتراث بالمساكين لا ينفعونهم ولو نفع وساطة، بله أن ينفعوهم بالبذل من أموالهم.

و ﴿طعام﴾ يجوز أن يكون اسما بمعنى المطعوم، بالتقدير: ولا يحضون على إعطاء طعام المسكين فإضافته إلى المسكين على معنى لام الاستحقاق ويجوز أن يكون اسم مصدر أطعم. والمعنى: ولا تحضون على إطعام الأغنياء المساكين فإضافته إلى المسكين من إضافة المصدر إلى مفعوله.

و ﴿المسكين﴾ : الفقير وتقدم في سورة براءة.

وقد حصل في الآية احتباك لأنهم لما نفي إكرامهم اليتيم وقوبل بنفي أن يحضوا على طعام المسكين، علم أنهم لا يحضون على إكرام أيتامهم، أي لا يحضون أولياء الأيتام على ذلك، وعلم أنهم لا يطعمون المساكين من أموالهم.

ويجوز أن يكون الحض على الطعام كناية عن الإطعام لأن من يحض على فعل شيء يكون راغبا في التلبس به فإذا تمكن أن يفعله فعله، ومنه قوله تعالى: ﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ [العصر: ٣] أي عملوا بالحق وصبروا وتواصوا بهما.". (٢)

٥٣٥-"التسوية تأنيث غير حقيقي أو لمراعاة لفظ ﴿ما﴾ إن جعلتها موصولة.

[٩-١٠] ﴿قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٢٥٦

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٢٩٤

يجوز أن تكون الجملة جواب القسم، وأن المعنى تحقيق فلاح المؤمنين وخيبة المشركين كما جعل في سورة الليل [٤-٥] جواب القسم قوله: ﴿إن سعيكم لشتى، فأما من أعطى﴾ الخ.

ويجوز أن تكون جملة معترضة بين القسم والجواب لمناسبة ذكر إلهام الفجور والتقوى، أي أفلح من زكى نفسه واتبع ما ألهمه الله من التقوى، وخاب من اختار الفجور بعد أن ألهم التمييز بين الأمرين بالإدراك والإرشاد الإلهي.

وهذه الجملة توطئة لجملة ﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ [الشمس:١١]. فإن ما أصاب ثمودا كان من خيبتهم لأنهم دسوا أنفسهم بالطغوى.

وقدم الفلاح على الخيبة لمناسبته للتقوى، وأردف بخيبة من دسى نفسه لتهيئة **الانتقال** إلى الموعظة بما حصل لثمود من عقاب على ما هو أثر التدسية.

و ﴿من﴾ صادقة على الإنسان، أي الذي زكى نفسه بأن اختار لها ما به كمالها ودفع الرذائل عنها، فالإنسان والنفس شيء واحد، ونزلا منزلة شيئين باختلاف الإرادة والاكتساب.

والتزكية: الزيادة من الخير.

ومعنى ﴿دساها﴾ حال بينهما وبين فعل الخير. وأصل فعل دسى: دس، إذا أدخل شيئا تحت شيء فأخفاه، فأبدلوا الحرف المضاعف ياء طلبا للتخفيف كما قالوا: تقضى البازي أي تقضض، وقالوا: تظنيت، أي من الظن.

وإن كانت جملة ﴿قد أفلح من زكاها﴾ جواب القسم فجملة ﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ [الشمس:١١] في موقع الدليل لمضمون جملة ﴿وقد خاب من دساها﴾ أي خاب كخيبة ثمود.

والفلاح: النجاح بحصول المطلوب، والخيبة ضده، أي أن يحرم الطالب مما طلبه.

فالإنسان يرغب في الملائم النافع، فمن الناس من يطلب ما به النفع والكمال". (١)

٥٣٦-"الناس التي قبل انخرام هذا العالم، فيجوز أن يكون المراد هنا من كلا اللفظين كلا معنييه فيفيد أن الحياة الآخرة خير له من هذه الحياة العاجلة تبشيرا له بالخيرات الأبدية، ويفيد أن حالاته تجري على **الانتقال** من حالة إلى أحسن منها، فيكون تأنيث الوصفين جاريا على حالتي التغليب وحالتي التوصيف، ويكون التأنيث في هذا المعنى الثاني لمراعاة معنى الحالة.

ويومئ ذلك إلى أن عودة نزول الوحي عليه هذه المرة خير من العودة التي سبقت، أي تكفل الله بأن لا ينقطع عنه نزول الوحي من بعد.

فاللام في "الآخرة" و ﴿الأولى﴾ لام الجنس، أي كل آجل أمره هو خير من عاجله في هذه الدنيا وفي الأخرى.

واللام في قوله: ﴿لك﴾ لام الاختصاص، أي خير مختص بك وهو شامل لكل ما له تعلق بنفس النبي صلى الله عليه وسلم في ذاته وفي دينه وفي أمته، فهذا وعد من الله بأن ينشر دين الإسلام وأن يمكن أمته من الخيرات التي يأملها النبي صلى الله

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢٧/٣٠

عليه وسلم لهم. وقد روى الطبراني والبيهقي في دلائل النبوءة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "عرض علي ما هو مفتوح لأمتي بعدي فسرني" فأنزل الله تعالى: ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ .

[٥] ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ .

هو كذلك عطف على جملة القسم كلها وحرف الاستقبال لإفادة أن هذا العطاء الموعود به مستمر لا ينقطع كما تقدم في قوله تعالى: ﴿قال سوف أستغفر لكم ربي﴾ في سورة يوسف [٩٨] وقوله: ﴿ولسوف يرضى﴾ في سورة الليل [٢١].

وحذف المفعول الثاني ل ﴿يعطيك﴾ ليعم كل ما يرجوه صلى الله عليه وسلم من خير لنفسه ولأمته فكان مفاد هذه الجملة تعميم العطاء كما أفادت الجملة قبلها تعميم الأزمنة.

وجيء بفاء التعقيب في ﴿فترضى﴾ لإفادة كون العطاء عاجل النفع بحيث يحصل به رضا المعطى عند العطاء فلا يترقب أن يحصل نفعه بعد تربص.

وتعريف ﴿ربك﴾ بالإضافة دون اسم الله العلم لما يؤذن به لفظ "رب" من الرأفة واللطف، وللتوسل إلى إضافته إلى ضمير المخاطب لما في ذلك من الإشعار بعنايته برسوله وتشريفه بإضافة رب إلى ضميره.". (١)

٥٣٧-"وإضافة: ﴿جنات﴾ إلى ﴿عدن﴾ لإفادة أنها مسكنهم لأن العدن الإقامة، أي ليس جزاؤهم تنزها في الجنات بل أقوى من ذلك بالإقامة فيها.

وقوله: ﴿خالدين فيها أبدا﴾ بشارة بأنها مسكنهم الخالد.

ووصف الجنات ب ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ لبيان منتهى حسنها.

وجري النهر مستعار لانتقال السيل تشبيها لسرعة انتقال الماء بسرعة المشي.

والنهر: أخدود عظيم في الأرض يسيل فيه الماء فلا يطلق إلا على مجموع الأخدود ومائه. وإسناد الجري إلى الأنهار توسع في الكلام لأن الذي يجري هو ماؤها وهو المعتبر في ماهية النهر.

وجعل جزاء الجماعة جمع الجنات فيجوز أن يكون على وجه التوزيع، أي لكل واحد جنة كقوله تعالى: ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم﴾ [البقرة:١٩] وقولك: ركب القوم دوابهم، ويجوز أن يكون لكل أحد جنات متعددة والفضل لا ينحسر قال تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ [الرحمن:٤٦].

وجملة ﴿رضي الله عنهم﴾ حال من ضمير ﴿خالدين﴾ ، أي خالدين خلودا مقارنا لرضى الله عنهم، فهم في مدة خلودهم فيها محفوفون بآثار رضا الله عنهم، وذلك أعظم مراتب الكرامة قال تعالى: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ [التوبة:٧٢] ورضا الله تعلق إحسانه وإكرامه لعبده.

وأما الرضى في قوله: ﴿ورضوا عنه﴾ فهو كناية عن كونهم نالهم من إحسان الله ما لا مطلب لهم فوقه كقول أبي بكر في حديث الغار "فشرب حتى رضيت" وقول مخرمة حين أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قباء "رضي مخرمة". وزاده حسن

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥١/٣٠

وقع هنا ما فيه من المشاكلة.

﴿ذلك لمن خشي ربه﴾

تذييل آت على ما تقدم من الوعد للذين آمنوا والوعيد للذين كفروا بين به سبب العطاء وسب الحرمان وهو خشية الله تعالى بمنطوق الصلة ومفهومها.

والإشارة إلى الجزاء المذكور في قوله: ﴿جزاؤهم عند ربهم﴾ يعني أن السبب الذي أنالهم ذلك الجزاء هو خشيتهم الله فإنهم لما خشوا الله توقعوا غضبه إذا لم يصغوا إلى من". (١)

٥٣٨-"[٧-٨] ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ .

تفريع على قوله: ﴿ليروا أعمالهم﴾ [الزلزلة:٦] تفريع الفذلكة، **انتقالا** للترغيب والترهيب بعد الفراغ من إثبات البعث والجزاء، والتفريع قاض بأن هذا يكون عقب ما يصدر الناس أشتاتا.

والمثقال: ما يعرف به ثقل الشيء، وهو ما يقدر به الوزن وهو كميزان زنة ومعنى.

والذرة: النملة الصغيرة في ابتداء حياتها.

و ﴿مثقال ذرة﴾ مثل في أقل القلة وذلك للمؤمنين ظاهر وبالنسبة إلى الكافرين فالمقصود ما عملوا من شر، وأما بالنسبة إلى أعمالهم من الخير فهي كالعدم فلا توصف بخير عند الله لأن عمل الخير مشروط بالإيمان قال تعالى: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا﴾ [النور:٣٩].

وإنما أعيد قوله: ﴿ومن يعمل﴾ دون الاكتفاء بحرف العطف لتكون كل جملة مستقلة الدلالة على المراد لتختص كل جملة بغرضها من الترغيب أو الترهيب فأهمية ذلك تقتضي التصريح والإطناب.

وهذه الآية معدودة من جوامع الكلم وقد وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بالجامعة الفاذة ففي الموطأ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الخيل لثلاثة" الحديث. فسئل عن الحمر فقال: "لم ينزل علي فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ " . وعن عبد الله بن مسعود أنه قال: هذه أحكم آية في القرآن، وقال الحسن: قدم صعصعة بن ناجية جد الفرزدق على النبي صلى الله عليه وسلم يستقرئ النبي القرآن فقرأ عليه هذه الآية فقال صعصعة: حسبي فقد انتهت الموعظة لأبالي أن لا أسمع من القرآن غيرها. وقال كعب الأحبار لقد أنزل على محمد آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ .

وإذ قد كان الكلام مسوقا للترغيب والترهيب معا أوثر جانب الترغيب بالتقديم في التقسيم تنويها بأهل الخير.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٤٢٩/٣٠

(٢) التحرير والتنوير ٤٣٦/٣٠

٥٣٩-"وعدد آياتها ثلاث وهي مساوية لسورة الكوثر في عدد الآيات إلا أنها أطول من سورة الكوثر عدة كلمات، وأقصر من سورة العصر. وهاته الثلاث متساوية في عدد الآيات. وفي حديث ابن أبي شيبة عن أبي إسحاق السبعي في حديث طعن عمر بن الخطاب "رض" فصلى عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة بأقصر سورتين في القرآن ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ [الكوثر:١] و ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ [النصر:١].

أغراضها

والغرض منها الوعد بنصر كامل من عند الله أو بفتح مكة، والبشارة بدخول خلائق كثيرة في الإسلام بفتح وبدونه إن كان نزولها عند منصرف النبي صلى الله عليه وسلم من خيبر كما قال ابن أحد قوليه.

والإيماء إلى أنه حين يقع ذلك فقد اقترب **انتقال** رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الآخرة.

ووعدوه بأن الله غفر له مغفرة تامة لا مؤاخذة عليه بعدها في شيء مما يختلج في نفسه الخوف أن يكون منه تقصير يقتضيه تحديد القوة الإنسانية الحد الذي لا يفي بما تطلبه همته الملكية بحيث يكون قد ساوى الحد الملكي الذي وصفه الله تعالى في الملائكة بقوله: ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ [الانبياء:٢٠].

[١-٣] ﴿ذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾
.

﴿إذا﴾ اسم زمان مبهم يتعين مقداره بمضمون جملة يضاف إليها هو. ف ﴿إذا﴾ اسم زمان مطلق، فقد يستعمل للزمن المستقبل غالبا. ولذلك يضمن معنى الشرط غالبا، ويكون الفعل الذي تضاف إليه بصيغة الماضي غالبا لإفادة التحقق، وقد يكون مضارعا كقوله تعالى: ﴿وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾ [الشورى:٢٩].

ويستعمل في الزمن الماضي وحينئذ يتعين أن تقع الجملة بعده بصيغة الماضي، ولا تضمن ﴿إذا﴾ معنى الشرط حينئذ وإنما هي لمجرد الإخبار دون قصد تعليق نحو ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها﴾ [الجمعة: ١١]." (١)

٥٤٠-"المصاحبة بمعنى "مع" فهي مثل "مع" في إنها تدخل على المتبوع فكان حمد الله على حصول النصر والفتح ودخول الناس في الإسلام شيئا مفروغا منه لا يحتاج إلى الأمر بإيقاعه لأن شأن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قد فعله، وإنما يحتاج إلى تذكيره بتسبيح خاص لم يحصل من قبل في تسبيحاته وباستغفار خاص لم يحصل من قبل في استغفاره.

ويجوز أن يكون التسبيح المأمور به تسبيح ابتهاج وتعجب من تيسير الله تعالى له ما لا يخطر ببال أحد أن يتم له ذلك، فإن سبحان الله ونحوه يستعمل في التعجب كقول الأعشى:

قد قلت لما جاءني فخره ... سبحان من علقمة الفاخر

وفي تقديم الأمر بالتسبيح والحمد على الأمر بالاستغفار تمهيد لإجابة استغفاره على عادة العرب في تقديم الثناء قبل سؤال الحاجة كما قال ابن أبي الصلت:

---

(١) التحرير والتنوير ٥١٦/٣٠

إذا أثنى عليك المرء يوما ... كفاه من تعرضه الثناء

فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يخلو عن تسبيح الله فأريد تسبيح يقارن الحمد على ما أعطيه من النصر والفتح ودخول الأمة في الإسلام.

وعطف الأمر باستغفار الله تعالى على الأمر بالتسبيح مع الحمد يقتضي أنه من حيز جواب ﴿إذا﴾ ، وأنه استغفار يحصل مع الحمد مثل ما قرر في ﴿فسبح بحمد ربك﴾ ، فيدل على أنه استغفار خاص لأن الاستغفار الذي يعم طلب غفران التقصير ونحوه مأمور به من قبل وهو من شأن النبي صلى الله عليه وسلم فقد قال "إنه ليعان على قلبي فاستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة" فكان تعليق الأمر بالتسبيح وبالاستغفار على حصول النصر والفتح إيماء إلى تسبيح واستغفار يحصل بهما تقرب لم ينو من قبل؟ وهو التهيؤ للقاء الله، وأن حياته الدنيوية أوشكت على الانتهاء، وانتهاء أعمال الطاعات والقربات التي تزيد النبي صلى الله عليه وسلم في رفع درجاته عند ربه فلم يبق إلا أن يسأل ربه التجاوز عما يعرض له من اشتغال ببعض الحظوظ الضرورية للحياة أو من اشتغال بمهم من أحوال الأمة يفوته بسببه أمر آخر هو أهم منه، مثل فداء أسرى بدر مع فوات مصلحة استئصالهم الذي هو أصلح للأمة فعوتب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾ [الأنفال:٦٧] الآية، أو من ضرورات الإنسان كالنوم والطعام التي تنقص من حالة شبهه بالملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فكان هذا إيذانا باقتراب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم **بانتقاله** من حياة تحمل أعباء الرسالة إلى حياة أبدية في العلويات الملكية.". (١)

٥٤١-"معنى طلب حصول التبات له، وذلك كقول عبد الله بن رواحة حين خروجه إلى غزوة مؤتة التي استشهد فيها:

حتى إذا مروا على جدثي ... أرشدك الله من غاز وقد رشدا

يعني ويقولوا: وقد رشدا، فيصير قوله: أرشدك الله من غاز لمجرد الثناء والغبطة بما حصله من الشهادة.

[٢] ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ .

استئناف ابتدائي **للانتقال** من إنشاء الشتم والتوبيخ إلى الإعلام بأنه آيس من النجاة من هذا التبات، ولا يغنيه ماله، ولا كسبه، أي لا يغني عنه ذلك في دفع شيء عنه في الآخرة.

والتعبير بالماضي في قوله: ﴿ما أغنى﴾ لتحقيق وقوع عدم الإغناء.

و ﴿ما ﴾ نافية، ويجوز أن تكون استفهامية للتوبيخ والإنكار.

والمال: الممتلكات المتمولة، وغلب على العرب إطلاقه على الإبل، ومن كلام عمر لولا المال الذي أحمل عليه في سبيل الله الخ في اتقاء دعوة المظلوم، من الموطأ، وقال زهير:

صحيحات مال طالعات بمخرم

---

(١) التحرير والتنوير ٥٢٠/٣٠

وأهل المدينة وخيبر والبحرين يغلب عندهم على النخيل، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ في [سورة البقرة:٢٩] وفي مواضع.

﴿وما كسب﴾ موصول وصلته والعائد محذوف جوازا لأنه ضمير نصب، والتقدير: وما كسبه، أي ما جمعه. والمراد به: ما يملكه من غير النعم من نقود وسلاح وربع وعروض وطعام، ويجوز أن يراد بماله: جميع ماله، ويكون عطف ﴿وما كسب﴾ من ذكر الخاص بعد العام للاهتمام به، أي ما أغنى عنه ماله التالد وهو ما ورثه عن أبيه عبد المطلب وما كسبه هو بنفسه وهو طريفه.

وروي عن ابن مسعود أن أبا لهب قال إن كان ما يقول ابن أخي حقا فأنا افتدي نفسي يوم القيامة بمالي وولدي فأنزل الله ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ وقال ابن". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٥٢٩/٣٠